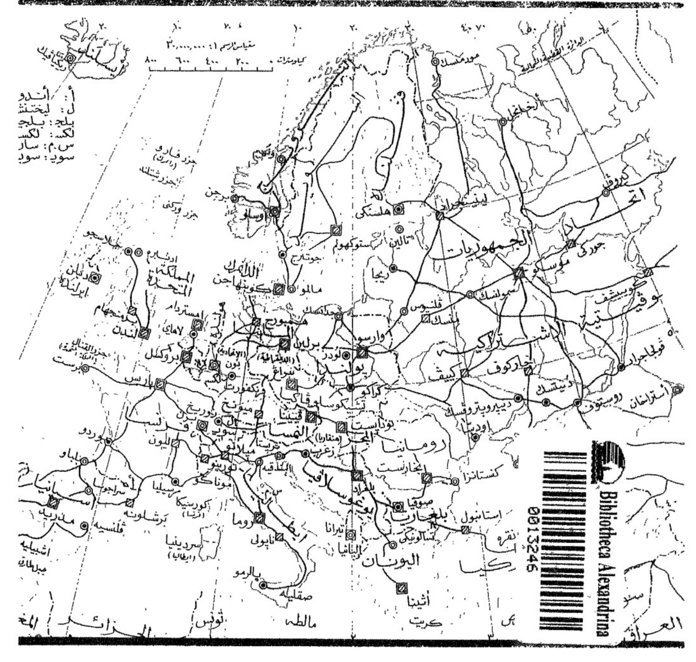
التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر

حتى الحرب العالمية الأولى



دكتور
جلال يحيى

الجزء الثاني

المكتب الجامعي الحديث
الأزاريطة - الاسكندرية
تليفاكس :٤٨٤٣٨٧٩

التاريخ الأوربي
الحديث والمعاصر

التاريخ الأوربي

الحديث والمعاصر

* *

حتى الحرب العالمية الأولى

دكتور

جلال يحي

المكتب الجامعي الحديث

الأزاريطة – الأسكندرية

تليفاكس : ٤٨٤٣٨٧٩

مقدمة

يمتد التاريخ فترة تشتمل علي عدة قرون ، وحدثت فيها أحداث هامة، غيرت طريقة عمل الإنسان ، وطريقة حياته في المجتمع ، وكذلك طريقة تفكيره ، وأوصلته إلي أن يعيش في الفترة المعاصرة ، في التاريخ المعاصر .

ولقد تعود أساتذة التاريخ الحديث أن يبدؤا شرح تاريخ هذه الفترة مع تاريخ القرن السادس عشر ، وكانوا قد تعودوا قبل ذلك ، أن يقصروا تاريخ عصر النهضة الأوربية علي «حركة الإنسانيات » ، عازفين عن شرح التغييرات الإجتماعية والإقتصادية التي كانت قد سبقتها . ومهدت لها ، وكانت أساسا طبيعيا ومنطقيا لكل تغيير لاحق .

وإذا ما حاول الباحث أن يستكشف العوامل الاجتماعية والاقتصادية العميقة ، التي أدت إلي تحول حياة العالم من العصور الوسطي إلي التاريخ الحديث ، فإنه سيجد نفسه بالضرورة يرجع إلي الوراء ، زمنيا ، باحثا عن الأصول الفعالة ، فيعمل في القرن الخامس عشر ، ويصل حتي القرن الرابع عشر ، حيث يجد المعطيات الأولي الدالة علي التغير ، أو التحول ، والتي تصلح أساسا صلبا لشرح تيارات التاريخ الحديث . وكان هذا هو خط السير الذي إنتهجته ، باحثا عن الأسس الإقتصادية ، وتطور وسائل وعلاقات الإنتاج ، والنقل ، كأساس لتغيير شكل المجتمع ، وعلاقاته الطبقية ، وحتي يمكننا أن نصل بعد ذلك إلي شرح تطور البنيان الفوقي السياسي ، والنشاط الثقافي والفني للإنسان ، هنا وهناك .

ولقد وجدت أن فـترة « فجر » التاريخ الحـديث تمثل مرحلة هامة من تاريخ البشرية في تطورها من حياة العصور الوسطي ، إلي الحياة في التاريخ الحديث ، وأن أسس هذه الفتـرة ترجع إلي القرن الرابع عشر ، وحتي إلي السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر ، وأنه من الضروري ربط عناصر هـذه الفترة ببـعضهـا ، وفي شكل تحليلي وبنيـاني ، حتي يتمكن الدارس من مواصلة فهم الخطوط الأساسيـة للتاريخ عبر عصوره المختلفة .

وكنا قد قسمنا من قبل هذه الفترة من الدارسة إلي ثلاث مجلدات عن« الفجر» ، وعن الفترة التي تـصل «حتي الحرب العالمية الأولي»، ثم عن « الفتـرة المعاصرة » منذ الحرب الـعالمية الأولي . ونضيف إليـها الآن مجلدا رابعا عن « سيطرة أوربا واستعمارها العالم » .

* * *

وإذا كانت الأصـول للتـاريخ الأوربي الحديث ترجع إلي فـترة نمو الرأسمالية ، وظهور المراكز التجارية ، وما تبع ذلك من حركة الكشوف الجغـرافية ، وتغيـير معالم خـريطة العالم المعروفـة ، من ثلاث قارات كانت هي وحدها المعروفة ،فإن ذلك قد أسلم حكم العالم كله لأوربا ، وأخضع أوربا لسيطرة وتفوق نفوذ دولة واحدة فيها ، هي إسبانيا .

ولكن الإنسان الأوربي كان لايزال يمر في مـرحلة تطور وتغيير ، في طريقة معيشته وتفكيره ، وحتي في نظرته إلي عقيدته ، الأمر الذي أدي إلي ظهور حركات الإصلاح الديني ، وما تبعها من حروب دينية ، أعطت إسبانيا كـذلك دور المدافع عن المذهب الكاثوليكي ، و «المحافظ» علي سلطة الكنيسة الكاثوليكية وسطوتها ، في نفس الوقت الذي كانت إسبانـيا فيه علي رأس القـوي التي « غيرت » خريطة العـالم ، وكانت إسبانيا تسـير علي سياسة « إحتكار » التـجارة ، في الوقت الذي بنيت

فيه الأسس الأولي للتاريخ الحديث علي «نمو الرأسمالية وحرية التجارة» وهكذا وجدت إسبانيا نفسها في تناقضات واضحة «إقتصادية» ، و«سياسية» و « دينية » ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه قوتها محدودة ، وضيعت جزءا كبيرا من مواردها في حروب القارة الأوربية ، فيما وراء البحار .

وأدي ذلك إلي ظهور إنشقاقات وصراعات ، عنها ومعها ، في ألمانيا، وقد أخذت شكلا دينيا ، وفي هولندا ، وقد أخذت شكل حركة إستقلال ومع إنجلترا من أجل السيطرة علي البحار ، ومع فرنسا ، من أجل منع تطويقها ، ومع إنجلترا من أجل السيطرة علي البحار ، ومع فرنسا ، من أجل منع تطويقها بمناطق الحكم والنفوذ الإسباني من كل ناحية . ومعني ذلك أنه ظهر مبدأ « التوازن الدولي » ، الذي ستحارب أوربا من أجله ، وتعطي به عنصرا هاما من عناصر حياتها في التاريخ الحديث ، يكمل بقية العناصر التي تميز بها عصر التاريخ الحديث ، وهكذا تكتمل فترة أصول التاريخ الأوربي الحديث ، أو فترة فجر التاريخ الحديث مع نهاية القرن السادس عشر ، وحين توقف نمو السيطرة الإسبانية علي أوربا ، مع إستقلال هولندا ، وهزيمة إنجلترا للأسطول الإسباني «الآرمادا» ، وبدأ التاريخ الحديث بكل صفاته ومميزاته ، منها التوازن ، مع القرن السابع عشر ، وهو يمتد حتي الفترة التي تعيشها الآن ، والتي تسمي بفترة التاريخ المعاصر .

ولقد مهدت للجزء الأول من الكتاب ، عن أصول التاريخ الأوروبي الحديث، أو عن فترة «الفجر» ، بتمهيد عن مميزات العصور الوسطي ، لإظهار مدي التغيرات التي ستحدث فيما بعد . وقسمت هذا الجزء الي أبواب : عن تفكك عالم العصور الوسطي في الغرب ، وعن التغيرات العميقة التي وقعت في أوربا، وعن زحف العثمانيين علي جنوب شرقي أوربا ، وفتحهم القسطنطينية ، وعن ظهور النهضة الأوربية وإزدهارها، وعن الكشوف الجغرافية ، وعن الصراع في الحوض

الغربي للبحر المتوسط، ثم التوسع العثماني في الشرق الأدني ، وأفردت بابا للاصلاح الديني،وختمته بباب عن التغيرات في غرب أوربا، ووقف النمو الإسباني،الأمر الذي يوصلنا إلي مطلع القرن السابع عشر.

* * *

أما الجزء الثاني من الكتاب ، وهو الممتد زمنيا ، « حتي الحرب العالمية الأولي » ، فإنه يعالج أهم التغيرات التي حدثت في فترة التاريخ الحديث ، منذ مطلع القرن السابع عشر ، وحتي إعلان الحرب العالمية الأولي في عام ١٩١٤ ، وهو يشرح الأحداث التاريخية التي وقعت في هذه الفترة، مع تحليلها ، ويحاول إستنباط أسبابها ونتائجها . كما أنه يحاول الرجوع إلي الأسباب الإقتصادية والإجتماعية ، ويعمل كذلك علي ربط الأحداث التي وقعت علي القارة الأوربية ، بغيرها من الأحداث والتطورات التي وقعت في بقية قارات العالم ،وذلك تمهيدا للوصول الى فتراتنا (المعاصرة) والتى تتشابك فيها العوامل العالمية،`دون إعتبار لقارة أو لمحيط ، والتي هي موضوع الجزء الثالث من هذه المجموعة .

ولقد قسمت هذا الجزء الثاني من الكتاب إلي سبعة أبواب : خصصت الباب الأول منها للقرن السابع عشر ، وعرضت فيه حرب الثلاثين عاما ، والثورة العظمي من انجلترا، وتفوق فرنسا ونموها، وحرب الوراثة الإسبانية . ولقد شهد هذا القرن هزيمة إسبانيا وإنتهاء تفوقها، مع صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨، كما شهد تغيرا كبيرا في إنجلترا، وشهد تفوق فرنسا في عهد لوي الرابع عشر، ونهاية هذه المرحلة مع صلح أوترخت سنة ١٧١٣.

أما الباب الثاني فقد خصصته للقرن الثامن عشر، وعرضت فيه لأوضاع كل من فرنسا وإنجلترا، وكذلك أحوال كل من السويد، وروسيا وبروسيا، وختمته بحرب الوراثة الاسبانية، التي تطورت أحداثها الأخيرة إلي حرب السنوات السبع، التي فقدت فيها فرنسا مستعمراتها

وإمبراطوريتها الإستعمارية الأولي، وخرجت منها إنجلترا المنتصرة في كل مكان. وهو ما يمثل عصر الفوق الإنجليزي في العالم.

وأما الباب الثالث فقد خصصته للشركات الإستعمارية، والإستعمار الأوربي وامتداده في العالم في ذلك الوقت. وعرضت فيه أمر ظهور الشركات الهولندية والبريطانية، وكذلك الشركات الفرنسية، وسيادة الروح التجارية في عملياتها.

وأما الباب الرابع فقد خصصته لإستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، ونشوب تلك الثورة التي سيعلن فيها مهاجرون من الوطن الأم، ولأول مرة في التاريخ الحديث، إستقلال مستعمراتهم عن هذا الوطن الأم، وإنشاء جمهورية إتحادية سيكون لها أخطر دور لعبته أي دولة، وبخاصة في القرن العشرين .

وخصصت الباب الخامس للثورة الفرنسية ، وعرضت فيه لأحوال فرنسا الإقتصادية والإجتماعية ، وخطرط الفكر والسياسة فيها قبيل نشوب الثورة، ثم عرضت لوصول البرجوازية للحكم في فرنسا،وما تلي ذلك من تكتل النظم الأوربية ضد الثورة، والصراعات التي تمت بينها .

وخصصت الباب السادس للقرن السابع عشر، وعرضت فيه لنتائج مؤتمر فينا، وعودة الحكم السابق إلي أوربا، ولتحرر أمريكا اللاتينية وإعلام مبدأ منرو وكذلك لأزمات سنة ١٨٣٠ . وهو تعالج كذلك الفترة التي تم فيها بناء الدول العظمي، ووصلت فيه قوة أوربا إلي أوجها. وشرحت فيه الوحدة الإيطالية، والإتحاد الألماني، ونمو كل من الولايات المتحدة الأمريكية، واليابان ، وكذلك تفوق ألمانيا في أوربا حتي سنة ١٨٩٥ .

وخصصت الباب السابع والأخير من هذا المجلد الثاني للفترة التي

أدت إلي نشوب الحرب العالمية الأولي ، سنة ١٩١٤، وشرحت فيه التسلطات واتجاهاتها، والصعوبات التي واجهت أوربا، وكذلك التحالفات والتسابق إلي التسليح،ثم أزمة يوليو سنة ١٩١٤.

* * *

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب، وبعد «الفجر»، والفترة التي تصل «حتي الحرب العالمية الأولي» فإنه يعالج «الفترة المعاصرة»، أي منذ الحرب العالمية الأولي .

ويعتبر تاريخ العالم ، أو التاريخ الأوربي في الفترة المعاصرة، إمتدادا للتاريخ الحديث،وتكملة له. وإذا كان العرف قد جري علي إعتبار أن التاريخ الحديث يبدأ بسقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين ، أو بسقوط غرناطة، آخر معاقل المسلمين في الأندلس، في أيدي قوات فرديناند وإيزابلا، أو بحركة النهضة، أو بالكشوف الجغرافية، فإن التاريخ المعاصر يفتقر إلي وجود بداية ثابتة له. ذلك أن التاريخ المعاصر متحرك بتحرك المعاصرين له، فالتاريخ المعاصر، منذ ثلاثين عاما مثلا، كان يبدأ بالحرب السبعينية بين بروسيا وفرنسا ، وبينما يبدأ الآن بالحرب العالمية الأولى.

ومصادر التاريخ المعاصر تختلف عن مصادر التاريخ الحديث، خاصة وأن وثائق التاريخ الحديث قد أصبحت تحت تصرف الباحث التاريخي ، بينما لايزال جزء هام من وثائق التاريخ المعاصر محجوب عن الإطلاع، نتيجة لقرب أحداثه، وإستمرار العمل في ملفاته، وبقاء عدد ممن شارك فى صنع هذه الأحداث على قيد الحياة، الأمر الذى يجبر المؤرخ الذى يعمل فى هذه الفترة على تعويض النقص الموجود فى الوثائق ، بزيادة الإعتماد على الأخبار، وعلى التحليل، ودون أن يسمح

له ذلك باتخاذ أحكام قاطعة، وخاصة فى وقت زادت فيه الدعاية وتضربت فيه التفسيرات ، تبعا لإختلاف الايديولوجيات .

ولقد قسمت هذا الجزء الثالث من الكتاب، والذى يعالج الفترة المعاصرة منذ الحرب العالمية الأولي ، إلى خمسة أبواب .

وخصصت الباب الأول من بينها للحرب العالمية الأولى . وإستعرضت فيه أزمة يوليو سَنة ١٩١٤ وإعلان الحرب، وشرحت إمكانيات الدول المتحاربة، ثم ظروف الحرب الأوربية حتي شهر فبراير سنة ١٩١٧، ودخول الولايات المتحدة الحرب وآثارها. وأنهيته بشرح الإنهيارات التى تمت ثم تسويات الصلح.

أما الباب الثاني فقد خصصته للفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، وإستعرضت فيه ظروف العالم بعد الحرب العالمية الأولى، والسياسات القومية، والأزمة الإقتصادية العالمية، ثم فشل الأمن الجماعي ،والحرب الأهلية الإسبانية ثم التوسع الألماني فى وسط أوربا.

وأما الباب الثالث فقد خصصته للحرب العالمية الثانية، منذ أزمة سنة١٩٣٩ وإعلان الحرب، والهزيمة الفرنسية، ثم مقاومة بريطانيا العظمى، ونشأة التحالف الكبير والمحافظة عليه، حتى هزيمة دول المحور.

وأما الباب الرابع فقد خصصته للمشكلات العالمية بعد الحرب العالمية الثانية، وشرحت فيه ظروف العالم سنة ١٩٤٥، وفشل السلم بعد نهاية الحرب، ثم التعايش السلمي وأزمات ١٩٤٩- ١٩٥٦، وكذلك الإتجاه الوطني في دول العالم الثالث ، ونهاية النظم الاستعمارية، وظروف التوازن بين الشرق والغرب .

وأما الباب الخامس والأخير فى هذا الجزء الثالث فقد خصصته

لتطور الدول العظمى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن، مستعرضا الأوضاع فى فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، وإيطاليا وألمانيا واليابان، وكذلك فى الدول الإشتراكية .

***

ويأتى بعد ذلك أمر المجلد الرابع من هذه المجموعة ، التى تعالج التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر، وهو الخاص « بسيطرة أوربا وإستعمارها العالم »، وهذا المجلد يظهر، بوضوح ، على أنه يتوازى ، زمنيا ، مع المجلدات الثلاث الأولي . ولكنه قد خصص لنفسه موضوع علاقات أوربا، في تاريخها الحديث والمعاصر ، بالقارات والشعوب الأخري الموجودة في العالم، وفى نفس الفترة الحديثة والمعاصرة ، فيعالج أمر سيطرة أوربا وإستعمارها العالم .

وهذه العلاقة، وهى علاقة الإستعمار والسيطرة، كانت قد مرت بتطورات كثيرة ومتتالية، طوال الفترات التاريخية المعروفة، وارتبطت منذ نشأتها بموضوع إستغلال الإنسان لأخيه الإنسان، أوثق إرتباط، بل لقد كان الإستغلال هدفا أساسيا من بين أهدافها، ونتيجة حتمية [illegible] عملياتها. ولقد قامت بعمليات الإستعمار عناصر قوية ومغامرة، وتسلحت بأسلحة تمكنها من فرض نفسها علي غيرها، ومن إخضاعها لها، وإستغلال مواردها وإمكانياتها، وتسخيرها لصالحها، حتى وإن أدي ذلك إلى تخلف هذه الشعوب الضعيفة أو المستضعفة، وكم من مرة تقوضت فيها النظم الاستعمارية، نتيجة لضعف العناصر القائمة عليها، أو نمو قوة العناصر الوطنية والكادحة، وظهور إتجاهات معادية للإستعمار، وحركات تحررية وأفكار ثورية، هنا وهناك ، وإمتد ذلك عبر العصور،حتي وقتنا الحاضر ، والذى يمكننا أن نصفه، دون مغالاة ،

بأنه عصر نهاية الإستعمار ، أو عصر الإنهاء عليه وتصفيته .

ولقد قسمت هذا الجزء ، أو هذا المجلد ، إلى سبعة أبواب ، تحدثت فى أولها عن الإستعمار فى العصور القديمة، ومنذ بداية عمليات الإستعمار التى سجلها التاريخ فى الشرق الأدنى القديم، حتى نشأة المراكز البحرية الأولي ثم نشأة الامبراطوريات المنظمة فى فارس ومقدونيا، وظهور الاستعمار الرومانى ، والنظم التى سارت عليها الأمبراطورية الرومانية. أما الباب الثانى فقد تحدثت فيه عن الاستعمار فى العصور الوسطى ، وغزوات البرابرة وعمليات الفتح العربي والإسلامي . ولقد إحتلت الحملات والحروب الصليبية مكانها فى هذا الباب ، مع ما قامت به من عمليات فى الشرق الأدنى ، وما أنشأته من نظم وجماعات محاربة ومستعمرة وتنتهى هذه الفترة التاريخية بظهور تحولات وتغيرات تاريخية وسياسية وإقتصادية هامة ، سارت مع إزدهار التجارة وتزايد قيمة العملة ، مع المراكز البحرية ، ومعرفة أهمية تجارة الشرق الأقصى ، ونشأة الجمهوريات التجارية فى جنوب أوربا وبدء عصر نمو الرأسمالية وسيطرتها .

وخصصت الباب الثالث لعصر النهضة وغزو أوربا للعالم، وتوسعها فيه شرقا وغربا، فمن كريستوف كولومب إلي غزو الهند الغربية ، وإكتشاف أمريكا، والعمل علي إستغلال موارد هذه القارة، ونشأة تجارة تصدير العبيد إلى العالم الجديد للعمل فى المزارع. ومن رحلات البرتغاليين حول رأس الرجاء الصالح والوصول إلى المحيط الهندي والشرق ، وعملهم على إستغلال الثروات وإحتكارها لأنفسهم

وأما الباب الرابع فقد خصصته لعصر الشركات الإستعمارية، ومن هولندية وإنجليزية وفرنسية ، ونظام عمل هذه الشركات، ومناطق

عملياتهم، وتأثيرها على المناطق التى عملت فيها، وتأثيرها كذلك علي الإقتصاد العالمى، وظهور الروح التجارية وسيطرتها.

وتحدثت فى البـاب الخـامس عن تأثيـر الفكر الجـديد والثـورات والبورجوازية على النظام الاسـتعمارى. وبعد ظهور الفلاسـفة الممهدين وإتخاذهم موقفـا خاصا من الاستعمار فى القرن الثـامن عشر ، وقفت فرنسا مـوقفا خاصـا تجاه فقدها لكندا. أمـا الولايات المتحدة فـإنها قد نشأت نتيجـة لإعلان الثورة الأمريكية، وإعلان الإسـتقلال عن انجلترا. وختمت هذا الباب بشرح نتائج الثورة الفـرنسية، والتغيرات التى وقعت فى أوربا فى عـصر نابليـون. على النظام الإسـتعـمـارى، وخاصـة فى أمريكا اللاتينية، وظهور مبدأ منرو ، فى أمريكا الشمالية .

أما الباب السادس ، فقد خصصته للإمبراطوريات الجديدة ، التى ظهرت مع التسلطيـة فى القرن التاسع عشر .وتقـسيم العالم ، وتغلغل الإستعـمار فى إفريقيـة ، والمحيط الهادي ، وظهور إمبـريالية الولايات المتحدة .

وختمت الكتاب بالتحدث عن غروب الاستعمار الأوربى في القرن العشرين، نتيجة لانهيار الغـرب وفقره، وظهور حركات الكفاح الوطنى والتحرر ، ومحـاولة الدول الاستعمارية تطوير إستعمـارها، وتغيير لون إستغلالها، وإحتفاظها بالميزات الاقتصادية،حتى وإن كان ذلك يؤدي إلي الاحتفاظ بمعظم شعوب وسكان العالم في حالة من التخلف واضحة .

وأرجو أن يقوم هذا الكـتاب بسد نقص في المكتبـة العربية ، وأن يفيد منه القاريء ، والدارس والباحث ، وعلي الله قصد السبيل.

دكتور

جلال يحيي

الباب الأول
القرن السابع عشر

الفصـــل الأول

حــرب الثلاثين عامــا

عاشت أوربا أزمــة خطيرة ، إبتداء من سنة ١٦١٨، إمــتدت لمدة ثلاثين عــامــا، وحــربا طاحنة شــاركت فــيـهــا كل دول أوربا الوسطي والغــربية، وحــتي دول شــمال أوربا، وبدأت هــذه الحرب فى ألمانيــا، وأسباب دينيــة وفى شكل ثورة قام بها. البــروتستانت فى بوهيمــيا ضد الإمبراطور الكاثوليــكي، وكانت فى الواقع ضد أطماع الأسرة الحــاكمة النمسوية ، لتــحويل الإمبراطورية الإنتخابيــة والإتحادية ، الألمانية، إلى دولة مركــزية وراثية، على شكل مملــكة فرنسا. وبدأت كــمجــرد حرب أهلية فى ممتلكــات أسرة النمســا، ولكنها تحولت إلى حــرب ألمانية، ثم تحولت بعد ذلك شــيئا فشيئــا، إلى حرب أوربية عامة، شاركت فــيها، عــلاوة على الدول الألمانيــة والنــمــسا، كــل من الدانمرك، والســويد، والأقاليم المتحدة، وأسبانيــا، وفرنسا، التىاصبحتعنصرا فعالا فى هذه الحــرب، إبتــداء مــن سنة ١٦٣٥. ومنذ هذا الوقت طرحــت مــســائل أخرى، عــلاوة علي المسائل الألمانية، الخــاصة بالحرية الدينــية، والتنظيم السيــاسى للامبــراطورية، وتتعلق باســتقلال الأقــاليم المتحــدة، وتفوق السويد فى بحــر البلطيق، وتفوق فرنسا فى غــرب أوربا. وكانت حرب الثلاثين عاما تعــتبر مرحلة جديدة من مراحل التنــافس بين فرنسا وأسرة الهابســبورج، وصراعهــا مع فرعيهــا فى كل من النمسا وإسبــانيا. وإذا كــانت معــاهدات وستــفاليــا سنة ١٦٤٨ قــد وجدت حــلا لمعظم هذه المســائل، بعــد حرب دامت ثلاثين عــامــا، وقضت عــلى المشروعــات النمسوية فى ألمانيــا، وأكدت إستقلال الأقاليم المتحــدة ، وتفوق السويد فى الشمــال، وإنتصــار فرنســا على أسرة هابســبورج النمســوية، التى إضطرت إلى التنازل عن الألزاس، فإن الحــرب قد إستمــرت لمدة إحدى

عشر سنة جديدة، بين فرنسا وهابسبورج وإسبانيا، وإنتهت في سنة ١٦٥٩ بانتصار جديد لفرنسا، مع صلح البرانس ، الذى أعطى فرنسا روسيليون وآرنوا .

١- الأسباب :

كان صلح أوجزبرج فى سنة ١٥٥٥ قد أعطى ألمانيا، رغم نقط ضعفه سلما لفترة تزيد على ستين عاما. وفى أثناء ذلك الوقت زادت أعداد الكلفنيين غرب ألمنيا، ومنطقة الراين. ولما شعروا بأنهم مهددون من جانب اللوثريين والكاثوليك، نظموا أنفسهم فيما بين عامي ١٦٠٣ و ١٦٠٨ فى الإتحاد البروتستانتي ، والذى كانت أهم أعضائه هو منتخب البلاتينات وأمراء بادن وورتنبرج، وعقد هذا الإتحاد حلفا مع ملك فرنسا ومع حكومة الأقاليم المتحدة. ونتيجة لذلك قام الكاثوليك، وعلي رأسهم الأمراء والأساقفة، في العام التالى (١٦٠٩) بانشاء العصبة المقدسة، التى أصبح مكسميليان دوق بافاريا رئيسا لها، وتفاوضوا مع إسبانيا. ورغم ذلك فان البروتستانت لم ينظموا صفوفهم، وحاول هنري الرابع ملك فرنسا، أن ينشىء فى ألمانيا حزبا يمكنه أن يقف فى وجه الأمبراطور، وذلك عن طريق الوصول إلى تقارب بين اللوثريين والكلفنيين، ولكن اللوثريين رفضوا ذلك . وكان وجود عصبتين ، كاثوليكية وكلفنية، وإنشاء كل منهما لجيش ، يهدد بنشوب حرب. وجاء موت هنري الرابع فى سنة ١٦١٠ لكى يؤجل ذلك لفترة ثمان سنوات .

ولقد نشبت الحرب نتيجة لأسباب تتعلق بالأسرة الحاكمة فى النمسا، ونتيجة لأوضاع هذه الأسرة ، ولطبيعة وطموحات أحد كبار أعضائها، وهو فرديناند الثاني. وكانت لهذه الأسرة، علاوة على تاج

الإمبـراطورية ، إمارات وراثية كـان شارل الخامس قـد أعطاها فى سنة ١٥٥٦ لأخيـه فرديناند الأول، علاوة على ممـالك بوهيميـا والمجر التي كانت له . وكانت الشـعوب التى تسكن هذه الممتلكات غير مـتجانسة، وتتحدث أكثر مـن لغة، فكان الأهالي فى الامارات الوراثية من الألمان، بينما كانوا تشيك فى بوهيميـا ومجيار فى المجر، وإيطاليين فى التيرول. وكان كل إقليم يمثل دولة قـائمة بذاتها، لها عـاصمتها، ونظـام حكمها ومجالسهـا، وكان الامبراطور يحتاج لكل منهـا لجمع الأموال، ولجمع الرجـــال، من أجل الحــــرب. ولم تكن هنـاك رابطة توحـــد بين هذه الممـتلكات سوى شـخص الامبـراطور، ووحدة الدين. وكـان تقسـيم الممـتلكات بين أبناء فـرديناند الأول ، من نـاحيـة ، وإنتـشـار المذهب البروتستانتى فى كل النمسا، وزيادة أعدادهم فى الدايت وسيطرتهم على جامعة فينا، وكـذلك إنتشار أنصار إعادة التعميد فى بوهيـميا ، وإنتشار المذهب الكلفنى فى المجـر، يهدد أسس حكم هذه المجمـوعة الخاضـعة لسلطة الهابسبورج. وكان إعتناق مذاهب دينيـة مختلفة يعبر ، إلي حد بعيد، عن الرغبـة في التميز ، وظهور القوميـات المحلية الجديدة. ولقد ربى مكسـميليان إبنة رودلـف الثانى لدى الجزويت ، فـى مدريد، وفى بلاط فيليب الثانــى. وحاول أن يعمل ضد مذاهب الإصـلاح بعد توليه الحكم، ولكنه واجه مـقاومة عنيفـة فى كل من بوهيميا والمجـر. وفقدت الكاثوليكية سلطتها تماما علي هذين الإقليمين، ولم يعدلهابسبورج سوى إمتيازات التاج الإمبـراطورى حين وصل فرديناند الثانى إلى العرش سنة ١٦١٨.

وكانت طموحـات وأطماع الإمبراطور فرديناند الثانى هى السبب الرئيسى الذي أشعل نار حرب الثلاثين عـاما، وكان له أربعين عاما حين وصل إلى كـرسى الإمبـراطورية فى سنة ١٦١٨. وكـان قـد تعلم على

أيدى اليسوعيين فى بافاريا، وحريصا على تنفيذ إتجاهاتهم ، وبكل قوة، ونظر إلى البروتستانتية على أنهـا مرتبطة تماما بمبدأ الثورة، وإلى كل من يطالب بحـرية العقـيدة على أنـه يرغب فى أن ينال من سلطته. وكـان يرغب فى توحيـد العقيدة فى ممتلكـاته . وفى توحيد ممتلكاته نفسـها، ورأي أن العقيدة ووحدتها هى التى يمكنها وحدها أن تعوض ذلك التميز فى اللغات والاجناس والـتقاليد، وأن تـعطيه المبدأ الأسـاسى للوحدة. وكان فرديناند قـد قام ، منذ عشرين سنة مضت، بمحاربة البـروتستانت فى إمـارته، إستـيريا، فـي النمسـا، وأغلق كنائسـهم ومدارسـهم وطرد رعاتهم، ثم أجبر الأهالى على العودة إلى الكاثوليكية فى فترة محددة، أو ترك الإمارة . وأراد بعد أن وصل إلى كرسى الامبراطورية سنة ١٦١٨ أن يطبق ذلك على التشيك ، فى بوهيميا .

وأمر فرديناند بهدم المعابد البروتستانتية التى كان التشيك قد أقاموها فى بوهيمـيا. فعقـد اللوثريون إجتماعـا فى براغ، وحين حاول مندوبى الأمبـراطور يوم ٢٣ مايو سنة ١٦١٨ فض الإجـتماع، قـام المجتمـعون بالقاء أربعـة منهم ومعـهم أحد السكرتاريين ، من النوافـذ، من إرتفاع عشـرين متـرا، إلي الخندق المحيط بالـقصر ، فـسقطوا علـى كوم من الزبالة، وفروا . وبدأت حرب الثلاثين عاما.

٢- الحرب فى بوهيميا وألمانيا :

ولقد قام البروتستانت التشيك بعد ذلك بتنظيم حكومة مؤقتة، ثم قامـوا فى يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٦١٩، وهو اليـوم الذى انتخب فـيه فرديناند الثانى امبراطورا لألمانيا، باعلان عزله عن عرش بوهيميا، وعينوا فردريك الخامس ، منتخب البلاتينـات ، ورئيس الاتحاد البرتستانتى بدلا عنه. وكان هذا الأخير زوجا لإبنة جيمس الأول، ملك إنجلترا. وحتي

هذا الحد لم تكن المسألة تعنى أكثر من ثورة قام بها التشيك ضد الملك، ولاأكثـر من حرب أهليـة داخل ممتلكات أسرة هـابسبورج الأهلـية إلى حرب ألمانية .

ذلك أن إنتخاب فردريك ملكا على بوهيميا، أثار قلق كل الأمراء الألمان ، وبخاصة الأمـراء المنتخبون، وكان لفـردريك من قبل صوتا فى إنتخاب الإمبراطور، فأصبح له صـوتان بعد إنتخابه ملكا على بوهيميا. ولما كـان من أتبـاع كلفن ، فان هـذا التزايد فى السـلطة أثار اللوثريين والكاثوليك. وثارت مخـاوف الكاثوليك بدرجة أقـوى ، إذ أنه لم يعد لهم سـوى ثـلاث أصـوات ، ضـد أربع، أصـوات لأنـصـار المذاهب البروتسـتانتيـة، الأمر الذي كان يهـدد بوصول التاج الإمـبراطورى إلى البروتستانت فى الانتخابات التالية .

ولم يكن للامبراطور جيشا يمكنه أن يحارب به فردريك الخامس، ولكن الكاثوليك واللوثريون سـاعدوه، وقدم له منتـخب ساكس بعض القوات، كما قـدم له إبن عمه، دوق بافاريا، ورئيس العصـبة المقدسة، جيـشا كان قـد أعده فى دوقيـته، وكان يمثل القـوة العسكرية الوحـيدة تقـريبا، الموجـودة فى ألمانيا فى ذلك الوقت ولقـد تمكن فردينان[illegible] الجيش من أن يـهزم التشـيك المتحـصنين أمام براغ، فى مـعركـة الجبل الأبيض، فى ٨ نوفمـبر سنة ١٦٢٠. واضطر فـردريك الخامس إلى أن يهرب بسرعة من أرض المعركة .

وسيطر فرديناند عـلى بوهيميا، وقام بعـمليات قمع رهيبة فـيها، فألغي كل الحريات، وأعلن أن تاجهـا، الذي كان بالإنتخاب حتي ذلك الوقت، قـد أصبح وراثيا فى أسـرة هابسبـورج، وقطع رؤوس ٢٨ من زعماء الثورة في يـوم واحد، وصادر ممتلكات النبلاء، واحتفظ بـبعضها لنفسه . ووزع الباقي على أعوانه، وبأثمـان بخسة. ووجه ضربات قوية

للنبلاء التشيك، وأحل محلهم بعض المغامرين الألمان. فقل عدد سكان المدن، وإختفت اللغة التشيكية لكى تحل محلها اللغة الألمانية ، وعاد معظم الفلاحين إلي حالة رقيق الأرض . وقل عدد التشيك من أربعة ملايين إلى مليون واحد، وإختفوا من التاريخ لفترة تقرب من قرنين .

ولم تنته الحرب ، إذ أن كل من منتخب ساكس وأمير بافاريا كان يرغب فى أن يحصل على ثمن مساعدته للامبراطور، وإضطر الإمبراطور إلي تعويض كل منهما، ولكن علي حساب البلاتينات، وعاونه الإسبانيون سكان بافاريا على ذلك ، وسيطر بعد عامين (١٦٢١-١٦٢٣) على هذا الإقليم. وعزل الإمبراطور، منتخب البلاتينات، فردريك الخامس . وجرده من أملاكه،ومنحها لمكسميليان ، أمير بافاريا، الذى أصبح رسمى منتخب بافاريا. وآثار كل ذلك خوف البروتستانت، اللوثريين والكلفنيين على السواء، خاصة وأن عدد المنتخبين منهم أصبح إثنان، فى الوقت الذى أصبح فيه عدد المنتخبين الكاثوليك خمسة. وبدأ أن الامبراطور قد صمم على سحق البروتستانت فى ألمانيا. وعندئذ إمتدت الحرب ، لكى تصبح حربا أوربية. ذلك أن البروتستانت قد إستنجدوا بأحد الملوك الذى كان عضوا، نتيجة لبعض ممتلكاته، فى الأمبراطورية ، وكان فى نفس الوقت ملكا لمملكة مستقلة، وهو كريستيان الرابع ملك الدانمرك. وبتدخل ملك الدانمرك فى الحرب، تحولت هذه الحرب إلى حرب أوربية .

٣- الحرب الأوربية :

ولم يكن حظ كريستيان الرابع بأحسن من حظ فردريك الخامس، فلقد هاجمه جيشان : الأول بقيادة مكسميليان أمير بافاريا ، والثاني هو الجيش الذي كان المغامر والنشتاين قد أنشأه من أجل الامبراطور. وتم

تكوين هذا الجيش دون أن يكلف الإمبراطور شيئا ، إذ أنه كان جيشا يعيش على الأسلاب، وبلغت قوته ٢٢,٠٠٠ رجل، ودخل الحرب سنة ١٦٢٥ ضد جيش ملك الدانمرك. وإنهزم ملك الدانمرك ، الذى كانت قواته قد توغلت فى ألمانيا، أمام الجيش الأول ثم الجيش الثاني سنة ١٦٢٦، ورأي أن ممتلكاته ومملكته قد أصبحت مهددة بالغزو، فاضطر إلي عقد صلح لوبيك، الذى تعهد فيه سنة ١٦٢٩ بعدم العودة للتدخل فى شئون ألمانيا .

وعندئذ وضحت أطماع فرديناند الثانى ، الذى كان يسيطر على جيش والنشتاين، وأصبح فى وسعه أن يسيطر على كل ألمانيا. وكان كاثوليكيا، ويرغب في سحق البروتستانت، وكان ، بصفته إمبراطورا، يرغب فى تغيير دستور ألمانيا. وحتى قبل صلح لوبيك، أصدر الإمبراطور قرارا بضم كل الأملاك الكنسية التى كان البروتستانت قد أخذوها من الكنيسة الكاثوليكية إلى أملاكه، وكانت تضم أملاك إثنان من رئاسات الاسقفيات، وإثنتي عشر أسقفية، ومائه وعشرين مطرانية. وأصبح علي جيش والنشتاين أن ينفذ ذلك فى طول ألمانيا وعرضها، ويضم هذه الممتلكات الشاسعة لأملاك الإمبراطور، وكان فى نفس الوقت يرغب فى تغيير دستور ألمانيا وبشكل يجعل منه سيد ألمانيا. كما كان كل من ملك فرنسا وملك اسبانيا فى مملكته، ويجعله يستغني عن كل المنتخبين والأمراء، ويجعل الإمبراطورية وراثية في أبنائه. وهكذا يتحول النبلاء إلى رجال بلاط، بعد أن يفقدوا حقوقهم الانتخابية، ويصبحون تحت حكم الإمبراطور المباشر، الذى سيلغي إماراتهم. التى بلغ عددها ما يقرب من أربعمائة، ولاتكون هناك سلطة فى هذه الإمبراطورية سوى رغبته .

وكان هذا المشروع يمثل خطرا واضحا على دولتين أوربيتين هما:

فرنسا، والسويد ، أما فرنسا فـإن هذا المشروع كان يهددها، خاصة وأنه كان هناك هابسبـورج آخرون يحكمون إسبانيا، ويمكن للمـجموعتين . الاسبانية والألمانية وعن طريق ممتلكاتهما فى إيطاليا وميلانو ، أن يوحدا بين قواتهـما، وبشكل يعيـد تهديد فرنسـا كما كان عليـه الحال وقت إمـبراطورية شـارل الخـامس وفـرنسوا الأول أي منذ قـرن مـضى من الزمن. فكان من الضـرورى إذن أن تتدخل فرنسـا. حقـيقة أن فـرنسا كانت تواجـه بعض الصعوبات الداخلية، ولذلك فـإن السويد هى التي ستتدخل أولا. وسـتقصر فرنسا دورها على تسـهيل مثل هذا التدخل . وأما السويد فقد كانت مهددة بطريق مباشر بالإمبراطور فرديناند، خاصة وأنه كان يأمل فى إنشاء قوة بحرية، وإسـتولى على دوقيتين تطلان على بحـر البلطيق، وكانت لـلسويد كـذلك آمال بالنسـبـة لبحـر البلطيق، وتتعارض مع آمال فرديناند الثاني .

وكان ملك السـويد فى ذلك الوقت هو جوستاف أدولف، الذى كان مـغرما بالحرب، وعـمل علي تطوير التكتيك، وحـول السويد إلى قلعـة عـسكرية تطل علي بحـر البلطيق وكـان لايوافق علي أن يقـوم الامبراطور بالسيطرة على بحر البـلطيق المواجهة لبلاده. وكان يرغب فى تحويل بحر البلطيق إلى بحـيرة سويدية، خاصة وأن بلاده كانـت فقيرة، ورأى أن مـستـقبلهـا سـيكون مرتبطا بالـبحـر، وكان صـراع مع ملك بولندا،وما أن قـام الإمبراطور فـرديناند بمساعدة ملك بولند حـتى إتخذ جوستاف أدولف ذلك ذريعة للتدخل فى ألمانيـا، خاصة وأن ريشيليو قد أيده، فنزل بقواتـه، فى ٤ يوليو سنة ١٦٣٠،على سواحـل ألمانيا. وفى نفس الوقت إجـتمع الـدايت فى رايتسـيون ، وكان الأمـراء الكاثوليك يخشـون من أطماع الإمـبراطور، وكـان ريشيليو يؤثر عليهم وطـالبوا الإمـبـراطور بالتـخلص من والنشتاين ، وبتـخفـيض عـدد الجـيش

الامبـراطورى، وهددوا بعدم تأييـده فى حربه ضـد جوسـتاف أدولف، ووافق الإمبـراطور على رغباتهم ، سنة ١٦٣٠، وأصـبح بالفعل بدون قوة، وذلك فى الـوقت الذي عقد فـيه ريشـيليو تحـالفـا مع جوسـتاف أدولف .

وكان تدخل جـوستاف أدولف نقـطة واضحة في حـرب الثلاثين عـاما، وكـذلك فى تاريخ الحـروب الاوربية الحـديثـة وكان قـد أدخل التعديلات على تـنظيم الجيوش وتسليحهـا، وترتيب القوات على أرض المعركة، وإستخدام التنظيم الرفـيع بدلا من التنظيم العميق. وكان جيش والنشتاين يتكون من المرتزقة، وكان هو الجيش الوحيد الموجود فى ألمانيا فى ذلك الوقت ، وسيجد نفسه فى مـواجهة جيش السويد ، الذى كان جوستاف أدولف قد قام بانشائه. وكان جيش السويد جيشا وطنيا، جمع من الفلاحين السويديين، من أجل الواجب، لا المصلحة، وكان مدربا، ويخضع لنظام صارم. وكانت أسلحته متطورة، ومن أجل تخفيف الثقل على المحاربين، فكانت كل من الحراب والبنادق، أقصر فى طولها، كما أنها كانت قد إستغنت عن فتيل البندقية، وأصبحت تستخدم الخرطوش، الذى يجمع البارود والطلقة. كما أن المدافع كانت أخف ، وفوهاتها من النحاس ،ويجرها زوج من الخيل، الأمر الذي يسهل الحركة، والمناورة ، ويعطى سرعة إطلاق النيـران. وكانت هذه ميزة كبـيرة للسويديين ، في كل أرض ، وفي كل ظروف مناخية، وبكفاءة نيران.

ووصل جوستاف أدولف إلي المانيا لكي يجد أن البروتستانت غير قادرين علي الحركة. ولكن الموقف تعيير ، بعد حريق مدينة مجد برج، الذي نسب إلى جيوش الكاثوليك. وإنتصر جوستاف أدولف فى معركة بريتنفيلد، قرب ليبزيج، على قوات (العـصبة) الكاثوليكية، التى فقدت ٩,٠٠٠ قتيل و ٦,٠٠٠ أسير .

ولكن جوستاف أدولف إتجه صوب غرب ألمانيا، بدلا من يزحف على فينا وبوهيميا، وإستولت قواته على أقاليم الراين، حيث أمضت فصل الشتاء ثم زحفت فى ربيع ١٦٣٢ على بافاريا، وواصلت عملياتها، إلى أن إحتلت ميونيخ ، ١٧ مايو، تمهيدا للزحف على فينا.

ولقد تمكن قائد قوات الإمبراطور من تكوين جيش جديد، وهاجم إقليم ساكس، حليف جوستاف أدولف، مما دفع بملك السويد إلى الإسراع لنجدة حليفه. فوقعت موقعة لوتزن فى ١٦ نوفمبر سنة ١٦٣٢، التى قتل فيها جوستاف أدولف. ولقد ظلت قوات السويد تحارب فى ألمانيا، إلى أن هزمت فى معركة نورد لينجن، فى ٦ سبتمبر سنة ١٦٣٤، فأسرع الأمراء البروتستانت بعقد صلح براغ مع الإمبراطور ، فى ٣٠ مايو سنة ١٦٣٥، وظهر الامبراطور مرة أخرى على أنه سيد ألمانيا .

٤- الحرب الفرنسية :

وفى ذلك الوقت تدخل ملك فرنسا فى هذه الحرب التى امتدت إلى كل غرب أوربا، وكان قد قضى على مشاكله الداخلية بسن دوق ميمورنسى منذ سنة ١٦٣٢. وعقد ريشيليو سلسلة من المحالفات مع الوصى على عرش السويد، ومع الأقاليم المتحدة، ومع بعض أمراء البروتستانت فى ألمانيا، وكذلك مع السويسريين ، وبعض أمراء إيطاليا، وأهمهم دوق سافوا ودفعت فرنسا معونات مالية سنوية، لكل حليف من هؤلاء الحلفاء، وحاربت فرنسا النمسا بهذه المعونات المالية، ثم قامت باعلان الحرب على فيليب الرابع، ملك إسبانيا ، فى سنة ١٦٣٥.

ومنذ ذلك الوقت لم تعد المسألة مجرد حرية ألمانيا، بل تحولت إلى صراع بين الأسرة الحاكمة فى فرنسا، والأسرة الحاكمة فى النمسا.

وحارب الفرنسيون من أجل الحصول على مقاطعاتهم التى كانت تحكمها إسبانيا، وهى آرثوا وروسيليون وفرانش كونتيه، ولكى يحصلوا كذلك على الألزاس ، التى كانت من ممتلكات النمسا، ولكى يصلوا بالتالى إلى « الحدود الطبيعية » لدولتهم .

ولقد إمتدت الحرب ثلاثة عشر سنة (١٦٣٥- ١٦٤٨)، ودارت فى ساحات متعددة: حدود جبال البرانس ، وفرانشن كونتيه، وحدود فرنسا مع الأراضي المنخفضة، والألزاس ، والمانيا.

وبدأت هذه الحروب بدور الصراع ضد إسبانيا، وقامت القوات النمسوية بالدخول فى برجنديا، كما قامت القوات الإسبانية بالتوغل فى فرنسا. ولكن فرنسا بذلت مجهودا كبيرا تمكنت به من طرد القوات الأجنبية خارج حدودها. ومنذ ذلك الوقت لم تعد القوات الفرنسية تحارب داخل حدودها. وقامت بهجوم كبير إبتداء من سنة ١٦٣٧، وتمكنت حتى سنة ١٦٤٢ ، من أن تأخذ من الإسبانيين، فى الشمال، آرتوا ، التى استولوا عليها أمام ريشيليو سنة ١٦٤٠، وفى الجنوب ، روسيليون ، التى كان لوى الثالث عشر يتابع عملية حصارها.

ولكن فقد هاتين المقاطعتين لم يثبط من عزيمه فيليب الرابع، الذى قام فى سنة ١٦٤٣، وفى الوقت الذى توفى فيه لوى الثالث عشر ، بتجهيز جيش قوي بلغ ٢٨,٠٠٠، بدأ من الأراضى المنخفضة بغزو إقليم شمبانيا، وحاصر مدينة روكروا، فأصرعت فرنسا بارسال جيش بقيادة دوق دانجان، الذى سيصبح فيما بعد دوق كونديه . وتواجه الجيشان ، ثم بدأت المعركة يوم ١٩ مايو ، وعند الفجر، وإستمرت حتى العاشرة صباحا، وإشتملت على هجمات وهجمات مضادة ، وإنتهت بفوز الفرنسيين ، وخسر الاسبانيون فيها سبعة آلاف قتيل، وستة

آلاف أسير. وكانت موقعة هامة، حمت فرنسا من الغزو، وقررت نهاية التفوق العسكرى الإسباني ، وبداية التفوق العسكرى الفرنسى .

ثم إستمرت هذه الحرب بدور جديد للصراع ضد الامبراطورية، وكانت فرنسا قد أخذت لحسابها جيش أمير ساكس فيمار، الذى كان يعمل على الضفة اليمنى لنهر الراين، وسيطرت به على الألزاس. ووضع القادة الفرنسيون خطة، بالتعاون مع قادة السويد، للقيام بعمليات مشتركة للزحف صوب فيينا، وإجبار الأمبراطور الجديد، فرديناند الثالث ، على طلب الصلح. وكان على القوات الفرنسية أن تزحف من الغرب ، بينما تقوم قوات السويد بالزحف من الشمال، عبر بوهيميا. ولكنهم فشلوا منذ سنة ١٦٣٨ حتى سنة ١٦٤٧ فى تطبيق هذه الخطة. واخيرا، تمكن دوق تورين الفرنسى ، من تنفيذها سنة ١٦٤٨، وتمكنت القوات المشتركة من غزو بافاريا ، وحصار ميونيخ، كما قام جيش سويدي آخر بالإستيلاء على براغ. فاضطر الأمبراطور الذي اصبح مهددا فى عاصمته، إلى الموافقة على عقد الصلح .

وكانت ألمانيا قد تحطمت، وتخربت، وحتى فى المناطق التى حافظت على حيادها، إضطر الفلاحون إلى سحب المحاريث بأنفسهم، نتيجة لنقص الخيول، أو نقص عدد سكان المدن الصغيرة، واصبحت الذئاب تصل إلى شوارعها، نتيجة لنقص العمران، وقلة عدد السكان .

٥- معاهدات وستفاليا وصلح البرانس :

وكانت سلطات الصلح معروضة بين الاطراف المتحاربة، وخاصة من البابا والبندقية، منذ سنة ١٦٣٦، ولكنها لم تؤد لنتيجة. ولكن مؤتمرا عقد، إبتداء من سنة ١٦٤٤، وإشتمل على ممثلين لفرنسا والسويد، وإمبراطور النمسا، وملوك الدانمرك وإسبانيا، والاقاليم المتحدة

والأمراء الألمان، علاوة علي ممثلى البابوية والبندقية .

وقدم الفرنسيون مطالبهم باللغة الفرنسية، بعد أن كانت اللغة اللاتينية هي لغة التخاطب بين السفراء والممثلين الدبلوماسيين حتى ذلك الوقت. وهكذا أصبحت اللغة الفرنسية هى الدبلوماسية. وتم التوقيع على المعاهدات فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٦٤٨.

ولقد سوت معاهدات وستفاليا المسائل الدينية فى المانيا، والمسائل السياسية الألمانية، وكذلك السلام الأوربى. أما فيما يتعلق بالشئون الدينية لألمانيا، فإن هذه المعاهدات قد إعترفت بوجود الكلفنية إلى جانب اللوثرية هناك، وإحتفظت بحق الأمراء فى فرض مذاهبهم على رعاياهم، وإن كانت قد إحتفظت للرعايا بالحق فى الهجرة، دون أن يفقدوا ممتلكاتهم. وهكذا لم تكن هناك حرية دينية للألمان. وأما فيما يتعلق بالشئون السياسية الالمانية، فان هذه المعاهدات قد إحتفظت بالدستور القديم، فظل التاج الإمبراطورى بالانتخاب، وزاد ضعف السلطة الإمبراطورية، وزاد عدد الأمراء المنتخبين إلى ثمانية. وأصبح كل منتخب تام الاستقلال فى أقاليميه، التى لم يعد فى وسع الإمبراطور أن يتدخل فيها بأي شكل من الأشكال، وأصبح من حقه عقد المحالفات، ولكن بشرط الا تكون موجهة ضد الإمبراطور، أما الدايت فأصبحت له سلطات سيادة فيما يتعلق باعلان الحرب، وعقد الصلح، وما يتعلق بالجيش ويدفع الضرائب، فلم يعد للامبراطور سوى أن يتمتع بمجرد اللقب. ولكى يقضوا نهائيا على سلطة الإمبراطور، وضعوا الدستور الألمانى تحت ضمان كل الدول الموقعة على المعاهدات، الأمر الذى أعطى كل من فرنسا والسويد الحق المشروع فى التدخل فى الشئون الداخلية الألمانية ، وأما فيما يتعلق بالشئون الأوربية فان ملك السويد قد حصل على مقاطعات بريمن وبوميرانيا الغربية وستيتن، أى على السواحل

الالمانية المطلة على بحر البطليق، واصبح من حـقه بالتالى أن يشارك فى إجتماعات الدايت الألمانى ، عن المدن والأقاليم التابعة له. وأما فرنسا، فإنها حصلت على إعـتراف بملكيتها للأسقفيات الـثلاث، كما حصلت على الألزاس ، وإن كانت وضـعية مدينة سـتراسبورج، كمـدينة حرة، ستؤدى إلى نشأة مشكلات مقبلة .

وعلى أى حال فان معاهدات وستـفاليا، كانت من أول المعاهدات الأوربية التى تعمل علـى إقامة مانسميـه «بالتوازن الدولى» فى أوربا، وبشكل لايؤدي الى تمكن إحـدي الدول من تهديد إستـقلال جيـرانها. ولقد حـاول كل ساسـة أوربا، وبخاصة الـفرنسيين ، الإحـتفـاظ بهذه المعاهدات أساسا لعلاقاتهم الدولية، وحتى عصر الثورة الفرنسية. وعلينا ألا ننسي أن هذه المعاهدات كانت تمنع أية محاولة لتوحيد الإمبراطورية، وضمنت بالتـالي إستـمرار ضعفها، وضعف ألمانيا الـذي إستمر لمدة قرنين من الزمان ، وفى صالح فرنسا.

وكان المفاوضـون الاسبان قد إنسحبـوا من المؤتمر، بعد أن قرر الهـولنديين سـيوقـعـون على المعـاهدات . وإعتـرفت هذه المعـاهدات، بالاستقـلال التام للأقاليم المتحـدة. وجاء الصلح فى هولندا لكى يعطى لفيليب الرابع حرية التصرف فى قواته التى كانت موجودة هناك، ويعطيه الأمل فى إستعادة آرتوا من فرنسا. وظلت العـلاقات بين فرنسا وإسبانيا بدون تسوية، خـاصة وأن فـرنسا شهـدت حرب الفـروند، الأمر الذي شجع إسبانيا على أن تستمر فى الحرب ضدها.

ولقد اسـتمرت الحـرب بين إسبانيـا وفرنسا لمدة إثنتي عـشرة سنة أخري. تحالفت فـيها إسبانيا، منـذ سنة ١٦٥١ مع دوق كوندية الثائر. وفي سنة ١٦٥٨ عقد مزران مخـالفة مع الإنجليز، وتنازل لهم عن ميناء

دنكرك، التى كانت فـى أيدى الإسبانيين، وأرسل كـرومويل جيـشا من ستـة آلاف جندي، تعاون مع الجيش الفـرنسى ، وسمح له بالانتـصار على الاسـبانيين وحلفـائهم، الفرنسـيين الثائرين، قـرب دنكرك، التى إستولوا عليها وسلمت للانجليز.

وشعر ملك إسبـانيا بأنه قد فقد جيشـه ، فوافق على التفاوض، وعقد الصلح المعـروف باسم صلح البرانس ، مع فرنسا، فى ٧ نوفـمبر سنة ١٦٥٩ . وحصلت فرنسـا على روسيليون فى الجنوب ، وآتوا، فى الشمـال ، مع بعض المواقع فى الفلاندر وفى اقليم لوكـسمبورج. كـما نصت المعـاهدة على زواج لوى الرابع عـشـر، من مـاريا تريزا، الإبنة الكبرى لفيليب الرابع، وظلت هذه المسألة ، لمدة خـمسين عاما، أساسا لسياسة لوى الرابع عشر الخارجية. والسياسة والدبلوماسية والحروب .

وجـاء صلح البرانس لكى يوضـح إنتصـار الأسرة الحـاكمـة فى فرنسا، على أسرة هابسبورج الاسبانية، بعد أن كانت معاهدات وستفاليا قـد نصـرتها من قـبل على أسـرة هابسـبـورج النمسـوية.وزادت ثلاثة مقاطعـات ، هى الالزاس وآرتوا ورسيليون ، من مساحـة فرنسا، التى أصبحت ، فى سنة ١٦٥٩ ، هى القوة المسيطرة فى غرب أوربا .

الفصل الثانــي

الثورة العظمي في إنجلترا

يتميز تاريخ إنجلترا فى القرن السابع عشر بنشوب ثورتين، الأولى فى سنة ١٦٤٨، والثانيـة فى سنة ١٦٨٨، وكانتا نتيجـة للازمة الطويلة التى أثارها ملوك أسـرة ستـيوارت، الذين حكمـوا بعد أسـرة تيودور، والذين عـملوا على القضـاء على الحريات التـقليدية فى إنجلتـرا وعلى تحويل النظام الملكى المحدود السلطة إلى ملكية مطلقـة. وبدأت الأزمة الأولى فى عهد جيـمس الأول (١٦٠٣-١٦٢٥)، ولكن أقصى مراحلها وقعت من سنة ١٦٤٢ إلى سنة ١٦٤٨، فى عهد شارل الأول (١٦٢٥-١٦٤٩)، وكانت هى مرحلة الحرب الأهليـة، وإنتهى ذلك بهزيمة الملك فى سنة ١٦٤٨ وتنفيذ حكم الاعدام فيه. وألغى النظام الملكى، وأعلنت الجمهورية، فى صالح كرومويل، الدكتاتور العسكرى، الذى إحتفظ بها حتى وفاته (١٦٥٢-١٦٥٨). وبعد عودة أسـرة ستيوارت للحكم نشبت أزمة ثانية، صغيرة فى سنة ١٦٨٨.

١- أسرة ستيوارت ونظام الحكم المطلق :

كانت إنجـلترا مملكة وراثيـة، ولكنها لم تكن ملكيـة مطلقـة، مثل فرنسـا، والتى كانت رغـبات ملوكهـا تعتبـر قوانين، ذلك أن «العـهد الأعظم» الذى كان قد مضى عليه ثـلاثة قرون ونصف قرن، كان يجعل ممثلى البلاد يشـتركون فى حكمـها مع الملك، وذلك بمجلس اللوردات والعمـوم. وكان على هذا البرلمان أن يجـتمع مرة فى كل عـام، وكان الملك يحتاج إلى معونته فى شئون التشريع، وفى شئون فرض الضرائب، أو « المعونات » كمـا كانوا يسمونها. ولم يكـن من حق الحكومة جمع الضرائب دون أن يقـرها البرلمان. وأخيـرا فقد كـان من حق البرلمان أن

يعرف الملك بمشاعر الأهالى تجاه نظام الحكم، والادارة، وحتى الشئون الخارجية. وهكذا كانت للملكية حقوق، وكان للشعب كذلك حقوق ، وكانت تصرفات الملوك ، وبخاصة هنري الثامن ، أثناء القرن السادس عشر، قد جارت على حقوق الشعب، ولكن إزدياد الثروة فى عهد اليزابيث جعلت البورجوازية، التى كونت هذه الثروة بمجهودها، أكثر رغبة فى المشاركة فى إدارة شئون البلاد ، وبشكل يعيطهم ضمانات ضد الاستبداد الملكى .

أما الحالة الدينية فكانت أكثر تعقيدا. ونتج ذلك عن وجود حركتين للاصلاح الديني، الأولى إنجليكانية ، بتوجيه من هنرى الثامن واليزابيث، والثانية برسبتارية أو بيوريتانية، متأثرة بتجربة إسكتلندا وبالاتجاه الكلفنى. وكانت الكاثوليكية لاتزال موجودة ، علاوة على إتجاه رابع ، هو إتجاه المستقلين، والذين كانوا يرغبون فى الوصول إلى اصلاح أعمق .

ورغم هذه الوضعية السياسية، والحالة الدينية فإن ملوك أسرة ستيوارت قدعملوا، طوال القرن السابع عشر، على القضاء على«حقوق الشعب»، وحكم البلاد بدون برلمان، وفرض وجمع الضرائب كما يحلوا لهم،وتوجيه السياسة الخارجية حسب ما يرون، كما صمموا على نشر المذهب الأنجليكانى، والإحتفاظ بسلطة رجال الدين، الذين كانوا يعينونهم، وبشكل يجعلهم يحتفظون بسلطة عينية على رعاياهم، وبكونهم بابوات ، بالفعل، فى نفس الوقت الذى كانوا فيه ملوكا.

وحين توفيت اليزابيث ، آخر ملوك أسرة تيودور، إنتقل التاج، فى سنة ١٦٠٣، إلى جيمس السادس ابن مارى ستيوارت، إبنة عمها

التى كانت قد أعـدمتها. وكان ملـكا على إسكتلندا، وأصبح ملكا على إنجلتـرا باسم جيـمس الأول، وأصـبح أول ملوك أسرة سـتيـوارت فى انجلترا. وهكذا أصبح تاجى انجلترا وإسكتلندا على رأس ملك واحد، وإن كانت كل دولة منهـما قد إحتـفظت بكيانها وشخـصيتهـا. وكان له من العـمر ٣٧ سنـة، وكان يؤمن بأن المـلوك يحصلون عـلى سلطاتهم عن الله، والذى لايعطا لغيرهم، وبشكل يجعلها سلطة مطلقة. ورغم كونه إبنا لكاثوليك، إلا أنه تربي تربية برستـارية أو بيوريتانية،ثم أصبح متشددا للمذهب الأنجليكانى، ومعادى لكل من الكاثوليك والبيوريتان. وقضى ، فى أولى سنوات حكمـه، على سـتة آلاف من الكاثوليك، وكـان ذلك سببا فى «مؤامرة البارود» التى وضع المتآمـرون فيها براميل بارود بأكملها فى البرلمان، لنسف الملك مع كل من يوجد هناك سنة ١٦٠٥. حقيقة أن أمر هذه المـؤامرة قد كـشف ، ولكن جيـمس الأول ظل مكروها طوال حياته، ومن ناحـية أخري ظل الكاثوليك موضـوعين خارج القانون فى إنجلتـرا لمدة قرنين ، حـتى سنة ١٨٢٩، ومحرومين امن تولى المناصب. ورغم أن اضطهاده للبيوريتـان كان أقل من اضطهاده اللكاثوليك، إلا أنه إضطهدهم رغم تربـيته على إيديهم، وهدد بطردهم مـن المملكة. ولقد هاجر الكـثير منهم فـى عهده ، عـبر المحـيط الأطلسى، حيث أنشـئوا مستعمرات عديدة على السـاحل الشرقى لأمريكا الشمالية . وهكذا نتج عن هذا الاضطهاد الدينى إزدياد القوة الخارجيـة لانجلترا، التى ستشارك مسـتعمـراتها الأولى عبـر المحيط الأطلسى فى إنشاء الولايات المتـحدة الأمريكية، فيما بعد .

وعلاوة على ذلك الاتجاه الدينى، جاء مـوقف جيمس الأول تجاه البرلمان لكى يزيد السخط عليه. وكان يعـتبر أن حقوق النواب منحة من جانب الملك ، وكان يكثـر من حل البرلمان، ويهمل إنعقـاده حتى أنه لم

يجتمع لفترة سبع سنوات متتالية (١٦١٤-١٦٢١). ولكنه لم يحاول فرض الضرائب بدون موافقة من البرلمان، الأمر الذى أعجزه عن العمل فى الخارج، وبشكل جعل حكومته تظهر بمظهر الضعف، وخاصة بعد عهد اليزابيث. وجاءت مشروعات زواج ولى العهد من أميرة كاثوليكية وإسبانية ، أخت مارى النمسوية، ملكة فرنسا ، ثم زواجه بعد ذلك من أميرة أخرى، كاثوليكية كذلك ، هى هنريت الفرنسية، اخت لوى الثالث عشر ، لكى تقضى على البقية الباقية من حب الشعب له ، وتؤدى إلى حرص النواب وممثلى الشعب على المحافظة على حقوق الشعب ، تجاهه.

وتولى بعده شارل الأول ، وكان له من العمر ٢٥سنة، وكانت له نظريات والده فى الحكم المطلق ، ولم يعتبر نفسه مرتبط بأى تعهدات بأخذها حيال الشعب والبرلمان، وسرعان ما كرهه الشعب ، فبعد أن تزوج بهنريت الفرنسية، إحتفظ إلى جواره بدوق بكنجهام، صاحب الثروة الضخمة، المبذر،وصاحب الذمة الخربة. وواصل عمليات إضطهاد البيوريتان، واهمال البرلمان، رغم عمله على فرض « قروض » اجبارية. وحاول أن يكسب رضاه الشعب عن طريق اعلان الحرب على فرنسا ومعاونة البروتستانت الفرنسيين فى لاروشيل، ولكن أسطوله هزم، وجمع البرلمان وطلب منه ضرائب جديدة، ورفض النواب الموافقة على دفع « معونات » إلا بعد تقديم التماس بحقوقهم، يذكر الملك بالماجنا كارتا، العهد الأعظم ، ولكن الملك قام فى العام التالى (١٦٢٩) بحل البرلمان، وحاول أن يمارس السلطة المطلقة .

ولقد إستمرت تجربة الحكم المطلق لمدة إحدى عشر سنة، لم يجتمع خلالها البرلمان. وعمل الملك ومعاونوه على إدخال كل الانجليز فى المذهب الانجليكانى . كما عملوا على فرض ضرائب تعسفية ،

وأنشئوا احتكارت على معظم السلع الضرورية ، واستخدموا محاكم استثنائية لعمليات المقاومة السياسية والدينية،وكانت إحكامها قاسية ومهينة. وأدى كل ذلك إلى زيادة الهجرة إلى أمريكا. وكانت هناك ضريبة تدفع فى الموانى على السفن أثناء فترة الحرب، وعمل شارل الأول على جمعها بصورة مستمرة ، حتى يساعده ذلك على إنشاء جيش ، فنقض شروط العهد الأعظم .

ونشبت الثورة فى اسكتلندا، نتيجة لمحاولة إجبارها. وهى برسبتارية أو بيوريتانية ، على أعتناق المذهب الانجليكانى ، ووضعوا « ميثاقا » فى سنة ١٦٣٧، ثم كونوا جيشا فى العام التالى وبدأو فى غزو شمال إنجلترا. ورغم أن توحيد كل من اسكتلندا وإنجلترا كان على رأس الملك ، الذى كان يحمل تاجيهما، إلا أن شارل الأول كان يحكمهما بنفس أعوانه. وفوجيء الملك بهذه الثورة وهذا الهجوم، ولم يكن لديه جيش ، ولا أموال ينفق منها على جيش ، فإضطر إلى عقد البرلمان ، بعد عامين من التردد، سنة ١٦٤٠. وقبل مناقشة « المعونة » أصر النواب على طلب تنفيذ شكاوى الأمة ، وتنفيذ التعهدات التى كان الملك قد قطعها على نفسه . فحل الملك البرلمان ، القصير الأجل ، بعد ثلاثة أسابيع. وإذا كان أعوان الملك قد تمكنوا من جمع جيش بسرعة ، إلا أنه هزم أمام الإسكتلنديين ، مما أجبر الملك على جمع البرلمان من جديد ، وهو البرلمان الطويل المدي .

ولقد إستمر إجتماع هذا البرلمان ثلاثة عشر سنة (١٦٤٠-١٦٥٣)، وكان مصمما على إنهاء ممارسة الملك للسلطة الإستبدادية، وعلى إدخال بعض التعديلات فى نظام الكنيسة الأنجليكانية، فى صالح البيوريتان. وكان هذا البرلمان تحت تأثير بيم ، الذى دفع به صوب الثورة وتمكن هذا البرلمان من محاكمة ستافورد،

الساعد الأيمن للملك، ومن إعـدامه سنة ١٦٤١، دون أن يتمكن الملك من إنقاذه، كمـا ألقوا القبض على لود، الوزير كذلك، وسيـتم إعدامه بعد أربعـة أعوام، وبعـد توجيـهه هذه الضـربة للوزراء، عمل أعـضاء مـجلس العمـوم على الإحـتراس من المـلك، وأعلنوا أنه لايمكن فض إجتـماع مـجلسـهم إلا بناء عن رغبـتهم. وتلى ذلك نشـوب ثورة فى إيرلندا، المضطهـدة ، حيث قـتل آلاف من البرتسـتانت. وعزا الـبرلمان نشوب هذه الثورة إلى توجيهات من الملك ، وقدم له إعلانا بكل ما قام به من مساوىء وقـرر أنه لايمكن جمع أى جيش بدون موافـقة البرلمان، وأنه من الضرورى إسـتشارتهم قبل تـعيين الضباط. ولقـد حاول الملك شـارل أن يقوم بانقـلاب، فذهب إلى البـرلمان لكى يقـتض على بيم ، وبقية الزعـماء المعارضين للسلطة المطلقة ، ولكنه وصل مـتأخرا. وهاج الراي العام فى لندن ضد الملك، الذى إضطر إلى ترك العاصمة .

٢- الحرب الأهلية :

وسـار كل شيء صـوب الحرب الأهـلية. وإعـتـمـد الملك على الأنجليكان والكاثوليـك وبعض السادة، وإسـتند إلى المناطق الشـماليـة والغربيـة ، أما البـرلمان فقد إعـتمد على شـرق إنجلترا وجنوبهـا،وكان يحظى بتأييد البورجوازيين ورجال الصناعة، والتجار وأصحاب السفن ، والبيوريتـان والمستقلين. وحاول الملك أن يتحـالف مع الأيرلنديين ، أما البـرلمان فـأنه دخل في مـفـاوضات مع إسـكتلندا وإنتـهى سنة ١٦٤٣ بانضمام إنجلترا إلى « الميـثاق »، وتعاهد الانجليز والإسكتلنديين على أن يعيـشوا إخـوه ، مترابطين ضـد الإتجاه البابوى، ومـن أجل الدفاع عن حقوق البرلمان والحريات الوطنية، وموحدين المملكتين فى تحالف قوى .

وكانت الحرب الأهليـة قد نشبت منذ عام قبـل التوقيع على هذه

المعاهدة السياسية والدينية بعام. وظلت لمدة ثلاثة سنوات. وتمكنت قوات الملك، المسماة بالفرسان ، من إحراز إنتصارات أولى ، خاصة وأن جيش البرلمان كان غير منظم. ولكن كرومويل عمل على تغيير هذه الظروف، وإبتداء من سنة ١٦٤٤، بإنشائه جيشا جديدا. وكان أوليفر كرومويل عضوا فى مجلس العموم، فبدأ بجمع فرقة من الرجال الاتقياء ، من مذهب المستقلين ، وكانت الحرب بالنسبة إليهم حربا مقدسة ، وكانت الترقية لرتبة الضباط تتم بناء على الكفاءة والشجاعة. وأصبحت هذه الفرقة نواة للجيش الجديد، وبخاصة بعد أن قرر البرلمان إعادة تنظيم الجيش كله على هذا لأساس ، وتمكن كرومويل من إنزال هزيمة ساحقة بجيش الملك فى ١٤ يونيو سنة ١٦٤٥ فى نازبنى. ولقد حاول الملك، لمدة عام وبلا جدوى ، تكوين جيش جديد ، ثم ذهب إلى معسكر الإسكتلنديين ، وهو يعتقد أنهم سيقفون فى صفه ، وبصفته ملكهم، ولكنهم طلبوا إليه الإنضمام إلى الميثاق، وحين رفض ، وقاموا بتسليمه للانجليز ، نظير مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ جنيه ، فانتهت بذلك الحرب الأهلية .

وظل الملك فى السجن . ونشب خلاف بين البرلمان والجيش . وكانت غالبية أعضاء البرلمان من البيوريتان، بينما كان الجيش من المستقلين . وكان البيوريتان يرغبون فى أدخال المستقلين إلى المذهب البرسبيتارى، بينما كان المستقلون يرغبون فى سيادة التسامح، وحتى بالنسبة للكاثوليكيين. ورأى أعضاء البرلمان أن من مصلحتهم حل الجيش ، والقضاء على سلطته الجديدة . وأفاد الملك من هذا الخلاف. ولقد تمت مفاوضات بين البرلمان والملك على أساس أعتناقه للمذهب البيوريتانى ، وإعادته للسلطة ، وتمت مفاوضات من جانب آخر بين الملك وبين المجلس المكون نتيجة لإنتخاب إثنين عن كل كتيبة من كتائب

الجيش ، على أساس ضمان التسامح ، وترك أمر تعيين ضباط الجيش لمدة عشر سنوات فى أيدى البرلمان. وحاول الملك من جانبه أن يضرب البرلمان بالجيش ، وذلك فى الوقت الذى حاول فيه إعادة إشعال الحرب الأهلية ، ومستندا إلى الإسكتلنديين، وبعض حركات المدن . ولكن كرومويل تمكن من ضرب هذه الحركات، وإحتل أدنبره .

ولقد حاول الملك الهروب إلى جزيرة وايت ، حيث تم القبض عليه ، وتم الاستيلاء على خطابات تدينه ،فقرر الجيش ضرورة عقابه ، وطلب إلى البرلمان محاكمته . ولكن البرلمان إتفق مع الملك ، فقام الضباط بانقلاب ، وطهروا البرلمان ، بطرد ١٤٠ نائبا من أعوان شرل الأول ، فى ٦ ديسمبر سنة ١٦٤٨، وإضطر الباقون ، وهم أقلية ، إلى الموافقة على محاكمة الملك. وإستمرت المحاكمة تسعة أيام ، ورفض الإجابة ، فأدين ، وأعدم يوم ٩ فبراير سنة ١٦٤٩ .

٣- الجمهورية :

بعد إعدام الملك ، أعلن البرلمان ، ذو العدد البسيط من الأعضاء، أن الأمة هى صاحبة السيادة ، وألغى النظام الملكى ، وأعلن الجمهورية. وألغى كذلك مجلس اللوردات، وأصبحت الحكومة تتكون من مجلس العموم ، ومن مجلس الدولة ، الذي يشتمل على أربعين عضوا ، ينتخبهم مجلس العموم، ولهم السلطة التنفيذية. وأصبح كرومويل عضوا فى مجلس الدول. وظل هذا النظام مدة أربعة سنوات ، وتم فى عهده إرسال حملة إلى إيرلندا، والقيام بحرب ضد الإسكتلنديين، كما صدر قانون الملاحة ، وكذلك الحرب ضد هولندا .

أما الحملة ضد إيرلندا فقد إستندت إلى نشوب الثورة هناك سنة ١٦٤١. وقام كرومويل بقيادة هذه الحملة، وإشتد فى القسوة فى معاملة

الكاثوليك هناك، بشكل لم يعرف، ولا من بعد : فكانت المذابح عامة. وأسرت النساء والبنات، بالمئات، وباعوهن كرقيق لأمريكا. ونزعت ملكية الأراضى من الأيرلنديين، فى صالح المعمرين الانجليز، الذين جاءوا لاحتلالها، ولم يترك سوى سدس مساحة الأراضى ، ودفعوا بهم إلى مستنقعات الغرب ، وتحول الكثير منهم إلى عمال زراعيين للسادة الإنجليز، وعلى أرضهم نفسها .

وأما حرب الإسكتلنديين فإنها كانت تهدف طرد شارل الثانى ، إبن شارل الأول من هناك ، وإجبار الإسكتلنديين على إنشاء جمهورية تتحد مع جمهورية إنجلترا. وتمكنت قوات كرومويل من إحتلال أدنبرة ، واضطر الإسكتلنديين إلى قبول الإتحاد مع إنجلترا سنة ١٦٥١ .

وبعد هذه الإنتصارات ، وافق البرلمان على قانون الملاحة، وهو الذى نص على أنه لايمكن للسفن الأوربية التى تأتى إلى إنجلترا أن تحمل إلا منتجات بلادها، أما سلع آسيا وإفريقية وأمريكا فلا تصل إلا على سفن إنجليزية، وترتب على هذا القانون ، الذى ظل معمولا به حتى منتصف القرن التاسع عشر، أن إضطر الإنجليز إلى أن يذهبوا بأنفسهم لإحضار المنتجات اللازمة لهم ، الأمر الذى أدى إلى إنشاء الأسول ، وإستمرار نموه ، مما أدى إلى ظهور القوة البحرية الإنجليزية .

ولقد تسبب هذا القانون فى نشوب الحرب مع هولندا، خاصة وأن الهولنديين كانوا يعملون فى النقل البحرى. وإستمرت الحرب لمدة عامين (١٦٥٢- ١٦٥٤)، ولم يتمكن الهولنديون من الانتصار، فتم عقد الصلح بين الدولتين .

وفى ذلك الوقت ، نشأ خلاف جديد بين مجلس العموم وبين الجيش، وحاول المجلس حل الجيش، ولكن كرومويل قرر حل البرلمان،

وفى اليوم الذى كان سيعرض فيه قانون حل الجيش. وقام كروموبل، بمساعدة عدد من رجال الجيش، بطرد أعضاء المجلس بالقوة، وأقفل بابه، بالمفتاح. وكتب الجنود عليه « للايجار ، وبدون فرش ».

وأصبحت إنجلترا فى أيدى الجيش ، وأصبح لقب كروموبل هو حامى الجمهورية ، فى سنة ١٦٥٣ . ومارس وكروموبل لمدة خمس سنوات، وحتى وفاته سنة ١٦٥٨ سلطات دكتاتورية فعلية ، وأصبح نتيجة لإستناده إلى الجيش ، ذا سلطة مطلقة ، وأكثر مما كان عليه شارل الأول . ولم تكن هناك أية معارضة أمامه ، وحل أربع برلمانات بمجرد شعوره ببعض الإتجاهات الاستقلالية فيها. ولم تتحرك إنجلترا، إذ أنها أصبحت خاضعة لحكومة عسكرية . وفى سنة ١٦٥٧ ، عرض عليه البرلمان لقب ملك ، ولكنه رفضه ، ثم عاد وإختار إبنه خليفة له من بعده، فأصبح ملكا وراثيا بالفعل، إن لم يكن بالشرع .

وإتبع كروموبل سياسة خارجية نشطة ، أرضت الإنجليز، وجعلتهم يتحملون نظامه الدكتاتوري. وكان أهم جزء فيها هو تحالفه مع فرنسا ضد إسبانيا، وهو التحالف الذى سمح لفرنسا بالإنتصار على الإسبانيين ، وأعطى إنجلترا دنكرك ، وجمايكا فى جزر الأنتيل وكان كروموبل يرغب فى أن تصبح إنجلترا من جديد ، وكما كانت فى عهد إليزابيث ، حامية المذهب البروتستانتى . وطلب أهالى إقليم الفود ، فى سويسرا تدخله ، وكفى توجيه إنذار منه لدوق سافوا لكي يوقف عملياته ضدهم . وأخذت إنجلترا تظهر هيبتها فى البحر المتوسط ، أمام تونس ، وأمام الجزائر .

وحين توفي كروموبل سنة ١٦٥٨، وأصبح إبنه ، ريتشارد كروموبل،حاميا للجمهورية من بعده. ولكنه إستقال بعد ثمانية أشهر

من الحكم، فى شهر مايو سنة ١٦٥٩، مما أدى إلى عودة حكم أسرة ستيوارت.

٤ - عودة حكم أسرة ستيوارت :

خشى الإنجليز من حدوث فوضى عسكرية ، فاستدعوا شارل الثانى ، ابن شارل الأول ، لحكم البلاد، فى سنة ١٦٦٠، فتمت بذلك عودة أسرة ستيوارت للحكم. وحكم شارل الثانى من سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٦٨٥، وحكم بعده أخوه ، جيمس الثانى من سنة ١٦٨٥ إلى سنة ١٦٨٨. وكانا من أنصار الحكم المطلق ،مثل والدهما، وكان الأول يميل للكاثوليكية ، وكان الثانى كاثوليكيا متعصبا، وحاول فرض المذهب الكاثوليكى على الإنجليز، مما أدى إلى نشوب الثورة سنة ١٦٨٨ .

وكان هناك إنقساما بين الجيش ومجلس العموم، منذ إستقالة ريتشارد كرومويل. وكان الجيش نفسه منقسما إلى قسمين : قسم من الإنجليز، وقسم من الإسكتلنديين . وحاول القسم الإنجليزى أن يستخدم مجلس العموم، ولكن الجيش الاسكتلندى تدخل فى لندن، وحل البرلمان ، وإستدعى برلمان جديد. وفى هذه الحالة من الفوضى ظهر إستدعاء شارل الثانى على أنه حل للازمة ، ولم تفرض عليه أي شروط ، مما ساعد على إحتفاظه بحرية علاقته بالبرلمان. ولقد وافق البرلمان على أن يمنحه تبلغ ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه سنويا لكى يواجه بها نفقاته، دون أن يستدعى البرلمان بإستمرار لمواجهة أزمته المالية .

ومنذ أول الأمر ظهر أن إنجلترا تجتاز عهدا جديدا، فبدأ يظهر أنه من أنصار السلطة المطلقة، ولايعترف برقابة البرلمان على سياسته. ولا بإقامته الوزراء، وإن كان قد إضطر ، من وقت لأخر ، إلى التساهل ،

حتى لايصل إلى أزمة .

ولقد تميز حكم شارل الثانى بظهور المسألة الدينية من جديد، وبذلك الصراع الذى قامت به الكنيسة الانجليكانية ضد البيوريتان، خاصة وأن شارل الثانى كان من أنصار الكاثوليكية، والتى كان الإنجليز يحاربونها فى الداخل والخارج . وكان البرلمان من أنصار الكنيسة الانجليكانية، فأتخذ قرارات ضد البيوريتان ، وأجبر موظفى الدولة على القسم بالاخلاص للكنيسة الانجليكانية، وحرم البيوريتان من تقلد وظائف الحكومة، . وأصدر بعد ذلك قانون وحدة « العقيدة » حتى يطبق هذه السياسة. ورغم ذلك فإن شارل الثاني ظل يحابى الكاثوليك، وظل فى حاجة إلى المال، وباع دنكرك لملك فرنسا، لوى الرابع عشر ، سنة ١٦٦٢ ، بعد أن كان كرومويل قد حصل عليها، وذلك نظير مبلغ خمسة ملايين جنيه . ونتيجة لاستمرار حاجته إلى المال، أعلن شارل الثانى الحرب على الهولنديين سنة ١٦٦٤ واضطر بعد ثلاث سنوات إلى أن يخفف من صرامه قانون الملاحة تجاههم، نظير حصوله على بعض مستعمراتهم الناشئة فى العالم الجديد. ونفس الحاجة إلى المال هى التى دفعت شارل الثانى فيما بعد إلى التحالف مع لوى الرابع عشر ضد الهولنديين في سنة ١٦٧٠ بمعاهدة دوفر ، التى تعهد فيه شارل الثانى بالتحول إلى المذهب الكاثوليكى .

ولقد أثار ذلك الموقف الرأى العام الإنجليزى ، وخاصة بعد أن أعلن شارل الثانى تصريح التسامح ضد المذاهب المنشقة ، للبيوريتان، وللكاثوليك. وتقرب الأنجليكان من البيوريتان ، خوفا من المذهب الكاثوليكى ، فاضطر الملك إلى التراجع فى تصريح التسامح الذى كان قد أعلنه. ولكى يثبت الملك ارتباطه بكنيسة إنجلترا زوج إبنة أخيه الكبرى من وليم أورانج، الهولندى وعدو لوى الرابع عشر، سنة

١٦٧٤، ثم أعلن الحرب على فرنسا سنة ١٦٧٧. وانتهز الأنجليكان المؤاسرات التى كانت تحدث لتوجيه ضربات قوية للكاثوليك فى إنجلترا.

وحاول شارل الثانى أن يفض البرلمان ، ويعيد إنتخابه ، ولكن المجلس الجديد أظهر تشددا أكبر، وصادر ممتلكات دوق يورك ، أخو الملك ، الذى كان قد إعتنق الكاثوليكية ولكى يدافع البرلمان عن نفسه أصدر قانونا بمنع إحتجاز أو سجن أى فرد لمدة أربعة وعشرين ساعة دون تقديمه للمحاكمة، تأمينا لأنفسهم من رجال الحكومة والسلطة التنفيذية. ولكن البرلمان إنقسم على نفسه بين مجموعتين : « التورى » وهم أنصار سيطرة الملك على الحكومة ، و « الويجز » وهم أنصار سيطرة البرلمان على إتجاهات الملك ، وكان ذلك أساسا لظهور حزبى إنجلترا الشهيرين .

ظل شارل الثانى يحكم حكما مطلقا حتى وفاته سنة ١٦٨٥، وكان قد تحول إلى الكاثوليكية ، دون أن يعلم أحد .

وتولى الملك بعده أخوه جيمس الثانى ، وكان كاثوليكيا ، وحاول أن يعيد إنجلترا إلى المذهب الكاثوليكى . وكان لايخفى مذهبه ، ويشارك فى إقامة الصلوات ، مما أثار قلق الإنجليز. ولقد كون جيمس الثانى جيشا قويا ، وعمل على إرهاب البلاد به ، كما عين الكاثوليك فى مناصب رئيسية فى الكنيسة الأنجليكانية ، وسمح لليسوعيين بالدخول إلى إنجلترا. وأقام علاقات ودية مع البابوية، أظهرت خضوعه للبابا .

وكان الأنجليكان قد صبروا على شارل الثانى ، ثم صبروا بعد ذلك على جيمس الثانى، وعلى أساس أن كلا من إبنتيه تزوجت بأمير بروتستانتى ، الكبرى من وليام اورانج الهولندى ، والثانية من جورج ،

أخو ملك الدانمارك . ولكن جيمس الثانى تزوج من جديد سنة ١٦٨٨ . من أميرة إيطالية كاثوليكية، ووضعت له إبنا. الأمر الذى جعل الوراثة تسير صوب هذا الأمير الكاثوليكى قبل أختيه. ولذلك فإن كبار اللوردات والأنجليكان والبيوريتان، والويجز ، والتورى ، دعوا الأمير وليام أورانج ، بعد عشرة أيام من ميلاد ولى العهد ، للتدخل ، من أجل إعادة الحرية وحماية المذهب البروتستانتى . وكان وليام أورانج يخشى من تدخل لوى الرابع عشر ضده من الجنوب ، ولكن سرعان ما اتجهت القوات الفرنسية صوب منطقة الراين فى الشرق ، مما أطلق حرية الحركة لوليام أورانج للتدخل فى انجلترا.

٥- ثورة سنة ١٦٨٨ :

وصل وليام أورانج إلى انجلترا يوم ٥ نوفمبر سنة ١٦٨٨ ، على رأس ١٤ ألف رجل ، حملتهم ستمائة سفينة . ووصل يوم ٢٧ إلى لندن ، وكانت البلاد كلها فى ثورة . وكان جيمس الثانى قد فقد حلفاءه، وترك لندن ، ثم قبض عليه وأعيد إلى العاصمة، فأصبح وليام أورانج فى موقف صعب تجاه والد زوجته ، وعمل على تخويفه حتى تكون الثورة سلمية، كما سهل عليه أمر هروبه إلى فرنسا وسهل ذلك عمل البرلمان الذى أعلن أن جيمس الثانى قد تنازل عن الملك، مادام قدهرب من البلاد ، وأنه ليس هناك حق لإبنه الصغير في الملك " وذلك فإن العرش كان خاليا . وانتخب البرلمان وليام وزوجته ماري ملكا وملكة علي إنجلترا

وهذا المرة ، صمم البرلمان علي عدم تكرار خطئه في سنة ١٦٦٠ حين استدعي شارل الثاني إلي الحكم بدون شروط ، فاتخذ إحتياطات من أجل تحديد « حقوق الشعب » ، والحصول من الملك على تعهد

رسمى بإحترامـها. وكان هذا أساسا لإعلان الحقـوق ، الذى كان قائمة بالحريات المعترف بها منذ العهد الأعظم ، وقرئت رسميا فى البرلمان أمام جميع الأعضاءوأمـام وليام والملكة ، فى ١٣ فبراير سنة ١٦٨٩، وأعلن وليام بإسمه وبإسم زوجته أن يقبلها ، وأنه سيعمل علي المحافظة عليها، وذلك قبل إعلانها ملكا وملكة على إنجلترا.

وكانت ثورة سنة ١٦٨٨ سلمية، وأنهت ذلك الصراع الذى إستمر منـذ قـــرن من الـزمـــان بين النـظام الملـكى الذى أدعـى السلـطة المطلقة،والحكم بـالحق الالهى، وبين الأمة التى تمسكت بسيطرتها على مقدراتهـا وبحكمها نفسها عن طريـق ممثليها.وهكذا إنتصر مبـدأ سيادة الأمة.

وانتـهت ثورة سنة ١٦٨٨ الشـقاقـات السـياسـيـة، كمـا أنهت الصراعات الدينية، وانتصر مبدأ حـرية العقيدة للأنجليكان والبيوريتان ، ولكن دون أن يمتـد على الكاثوليك وكان كل هذا أسـاسا لسيـادة السلم داخل انجلترا،الأمر الـذى سيساعد هذه الدولة على الـعودة التدخل فى السيـاسة الأوربية من جـديد، عند نهاية القرن السـابع عشر . وسـيتم ترجمة ذلك فى سياسـة وليام الثالث (سنة ١٦٨٨- سنة ١٧٠٢) لعمل التكلات ضـد لوى الرابع عشـر، كمـا سيـتم مع الملكة آن (١٧٠٢-١٧١٣) ، وريثة مـارى ووليام، حيث تصبح إنجلتـرا هى التي تحتل دور الحكم فى أوربا، وتسـوى شـئـون صلـح أو ترخت، وتسـوى الوراثة الإسبانية سنة ١٧١٢.

أما من حيث نظام الملك فإنه سـيمر بعد ذلك، سنة ١٧١٤، إلى الأمـير جـورج ، منتـخب هانوفر ، وسـيكون ذلك بداية لحكم أسـرة هانوفر فى إنجـلترا. وكان عـهد حكم الملكة آن قـد شهد إنشـاء المملكة

المتحدة لبريطانيا العظمى عن طريق إدماج مملكتى إنجلترا وإسكتلندا، بعد أن كان هذا الإرتبـاط مجرد إتباط شـخصى أثناء القرن السابع عـشر ، يتمـثل فى وجود ملك واحد لكل مـن الدولتين ، وذلك فى ٢٥ مارس سنة ١٧٠٧، وعلى أساس أن تحـتفظ إسكتلندا بكنيستـها البيوريتـانية، وقوانيـتها ومـحاكمـها، من ناحـية ، وعلى أساس وجـود برلمان واحد لنواب ولوردات كل من إنجلترا وإسكتلندا .

وكـان هذا الوضع الجـديد يقـضى على كـثيــر من المشكلات الموجودة، ويدفع سكان بريطانـيا العظمى إلى التفـرغ لنشاطهم البناء ، الأمر الذى سـيساعدهم على إنشـاء إمبراطورية إسـتعمارية فـيمـا وراء البحار .

الفصـل الثالث

تفوق فرنســا

لقـد وضع نظام الحكم المطـلق فى فـرنسـا على أسس ثابتـة فى النصف الأول من القـرن السـابع عشـر، فى عهـد لوى الثـالث عشـر (١٦١٠-١٦٤٢) بواسطة وزيره الكادريـنال ريشيـليو ، وذلك إمـتـدادا لمجهـودات هنري الرابع . وكانت هناك صـعوبات كـثيـرة تواجه هذه العمليـة، وبخاصة فى السنوات الأولى، منهـا ضعف الحكام، والموقف العدائى لكل من النـبلاء والبروتسـتانت ، ولقد تمكن ريشـيليو من أن يستخـدم نشاطه وقوته، إبتداء من الوقت الذى وصـل فيه إلى الوزارة سنة ١٦٢٤، لكى يفرض احترام السلطة المـطلقة للملك على الجميع. ولقـد اسـتمـرت مع ذلك الاضطرابات بـعد عـهـد الملك لوى الثـالث عشـر،وفى أوائل عهد الملك لوى الرابع عشـر ، أثناء وزارة الكاردينال مزران (سنة ١٦٤٢ سنة ١٦٦١) نتيجة لبـؤس الأهالى ، وتشدد سياسة برلمان باريس ، وطموح دوق كونديه ، الأمر الذى جعل هذه الصراعات تمتد حتى سنة ١٦٥٢، حيث نتج عنها تحطيم آخر العقبات التى واجهت الحكم المطلق لملوك فرنسا . وهكذا وجدت الملـكية أيديها مطلقة لتنظيم البلاد داخليا وإنشاء قوة عسكرية لها قيمتها، تسمح لها بفرض سياستها وإثبات تفوقها على غيرها من الدول .

١- الملكية المطلقة في عهد لوي الثالث عشر ، وريشيليو:

عند وفاة هنرى الرابع سنة ١٦١٠ كان إبنه لوى الثالث عشر يبلغ من العمر تسع سنوات ، ولذلك فإنه وضع تحت وصاية والدته ، مارى دي مدسيس . ولقد واجهت الوصـية على العرش الموقف بكل حزم ، خاصة وأن زوجها كان يطلعها قـبل وفاته على شئون الدولة. واستعانت

بوزير لكى يسهل تسيير الأمور ، وكان إيطاليا ، مما أدي إلى وقوف أبناء عم الملك الصغير ضده، وبخاصة دوق كونديه ، فاتهم بأسراقه فى الميزانيات العامة . ومع ذلك فقد كانت سياسة الوصية تسير صوب تدعيم السلطة المطلقة للجالس على العرش . وحين اجتمع مجلس طبقات الأمة فى باريس سنة ١٦١٤ وظهر الانقسام فيه بين نواب النبلاء ونواب الطبقة الثالثة ، حول مسألة إعطاء ألقاب النبل لعدد من رجال الطبقة الثالثة ، وحين تقدم أعضاء المجلس ببعض الالتماسات ، تقرر وقف اجتمعات مجلس طبقات الأمة ، وبشكل يجعل الملك يحكم بسلطة مطلقة . وسيظل مجلس طبقات الأمة معطلا، بدون اجتماع، حتى نشوب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

ولقد واجه النظام الملكى بعد ذلك ثورة دوق كونديه سنة ١٦١٦. وحتى بعد أن فقدت مارى دى مدسيس السلطة فى العام التالى، دخلت فرنسا فى دور صراع عنيف بين الكاثوليك والبروتستانت . وأثر ذلك على طبيعة الأوضاع والقوى الموجودة ، وقت وصول ريشيليو إلى الوزارة سنة ١٦٢٤، وفى السنوات التالية لذلك .

ولقد وضع ريشيليو لنفسه مبدأ هو رفض إنشاء الهيجونوت لسلطة تشارك الملك سلطته المطلقة ، أو تقتسمها معه . ولذلك فإن ريشيليو صمم على تدمير مجموعة الهيجونوت ، والتقليل من تعالى كبار الأمراء، ووضع كل الرعايا أمام واجباتهم تحت سلطة الملك المطلقة . ولقد نجح ريشيليو فى ذلك ، وتمكن من إعادة قوة فرنسا الخارجية .

وعمل ريشيليو بعد ذلك على تنظيم الإدارة ، وعلى إنشاء جيش قوى وبحرية لها قيمتها. وبعد أن كان عدد الجيش لايزيد سنة ١٦١٠ عن ١٠ آلاف رجل ، وصل عدده إلى ٦٠ ألف سنة ١٦٢٩، وإلى

١٤٢ ألف من المشاة و٢٢ ألف من الفرسان سنة ١٦٤٠ .

أما البحرية فقد زاد عدد قطعها، واصبح هناك أسطول غربى للمحيط الاطلسى وأسطول آخر للبحر المتوسط . وأفاد ريشيليو من الأواضع الإدارية الموجودة ، وعمل على تحسينها ، حتى يزيد السلطة المركزية على الأقاليم ، ويقضى على النفوذ المحلى للحكام . وكانت الهيئة الرئيسية للحكومة هى مجلس الملك ، أو مجلس الدولة ، الذى عمل ريشيليو على إعادة تنظيمه منذ سنة ١٦٣٠، وجعله يضم ، ولأول مرة ، وزيرا للحربية ، ووزيرا للشئون الخارجية .

أما بالنسبة للأقاليم ، والتى كانت قد عانت الكثير من صراعات النفوذ، ومن الحروب الدينية ، فان ريشيليو قد عمل على إنقاص سلطة حكامها، وإنقاص إستقلالهم ، وإعادتهم خاضعين للسلطة الملكية؛ فكان يستدعيهم ، ويقوم بنقلهم من أقليم لآخر ، حتى يظلوا تحت السلطة الملكية. كما أنه أنشأ وظائف المراقبين للأقاليم ، وكانوا يقومون بالتفتيش عليها من وقت لآخر، دون أن يخضعوا لحاكمها .

أما فيما يتعلق بالبرلمان ، فإن ريشيليو قد حافظ عليه ، واهتم بنوع خاص ببرلمان باريس ، الذى كان قد لعب دورا هاما فى حياة العاصمة أثناء الحروب الدينية . وإذا كان هذا البرلمان احتج من وقت لآخر على سطات ريشيليو ، إلا أنه طوعه على العمل ولفت نظره، أكثر من مرة ، وبعد إبعاد العناصر المستقلة، إلى أن وظيفته الأساسية هي الفصل فى قضايا المتخاصمين . وهكذا أصبحت برلمانات فرنسا ، وبخاصة برلمان باريس ، محاكم أكثر من كونها هيئات أو مجالس تشريعية .

وزاد كل ذلك من سلطة الملكية المركزية والمطلقة فى فرنسا. وحين

توفى الكاردينال ريشيلو سنة ١٦٤٢، أعلن لوى الثالث عشر أنه سيواصل كل المشروعات التى كان قد قررها معه فى الشئون الداخلية والخارجية ، واستدعى إلى مجلسه ذلك الرجل الذى كان الكاردينال ريشيليو قد أختاره لإكمال ما قام به ، وهو الكاردينال مزران ، وتوفى لوى الثالث عشر بعد سبعة أشهر فى ١٤ مايو سنة ١٦٤٣، وترك طفلا عمره أقل من ٥ سنوات سيصبح الملك لوى الرابع عشر .

١- مزران وإنتصاره :

كان لوى الثالث عشر قد أوصى بأن تكون زوجته آن النمسوية وصية على أبنهما لوى الرابع عشر ، وأشرك معهما مجلسا للوصاية. ولكن البرلمان قرر أن تكون الملكة الوالدة وصية بكامل للسلطات، أي بدون مجلس يشاركها فى ذلك . وكانت الملكة آن عدوة للكاردينال ريشيليو، ومع ذلك فإنها عينت الكاردينال مزران رئيسا لمجلس الدولة أو الحكومة .

وكان مزران إيطالى الجنسية ، وحصل على الجنسية الفرنسية سنة ١٦٣٩. بعد أن كان من رجال البابا . وكان يختلف عن ريشيليو فى كل شئ : فبينما كان ريشيليو جنديا، ويسير وراءه حرس كبير، وله حاشية ملكيه، كان مزران بسيطا متواضعا، يحادث الجميع ، ويجالسهم، ولم يكن له من الحياة العسكرية أي شيء ، ولكنه كان عبقريا فى دبلوماسيته، وبدرجة تفوق ريشيليو ، أما من ناحية الإدارة فكان لايصل إلى مستوي ريشيليو .

وهكذا كان على مزران أن يوليه الأوضاع فى فرنسا بعد موت كل من ريشيليو ولوى الثالث عشر . وكانت الأوضاع صعبة بالنسبة له: فكان الكبراء يحاولون إستعادة سلطنهم ، بعد أن كان ريشيليو قد أحكم قبضته عليهم. وحاولوا التخلص من مزران حتى عن طريق الإغتيال. وكان الفلاحون ،وهم الغالبية العظمى للشعب ، يعيشون فى ظروف قاسية ، نتيجة للضرائب المرتفعة التى كانوا يدفعونها. وكانت المالية فى

وضع سيء خاصة وأن المصروفات كانت تزيد على الإيرادات وبكثير. وحاول مزران أن يصلح المالية، كما حاول فرض ضرائب جديدة. وستكون هذه الضرائب أساس وقوف كل من برلمان باريس ثم مجموعة من الأمراء ضد مزران وسياسته، ويحاولون عن طريق هذه المعارضة فرض شروطهم على السلطة الملكية، والحصول بالتالى على جزء من سلطنهم المفقودة .

وبدأت الحركة تحت قيادة مجموعة من الموظفين ومن قضاة برلمان باريس. وكان ريشيليو قد قضى على سلطتهم ، ولكن آن النمسوية إلتجأت إليهم بعد ذلك لتعديل وصية زوجها، مما أعطاهم أملا فى استعادة سلطتهم المفقودة . وسجل بعض قضاة برلمان باريس إعتراضاتهم ، فى البرلمان ، على فرض الضرائب الجديدة . وحين أصر مزران على ضرورة دفع هذه الضريبة ، قرر أعضاء البرلمان ضرورة إجتماعهم فى قاعة القديس لوى ، للتشاور سويا فى مسألة «إصلاح المملكة »، وذلك في ١٣ مايو سنة ١٦٤٨ . ولقد اجتمعوا رغم أن الوصية على العرش منعت هذا الاجتماع، وأصدروا بلاغا يشتمل على ٢٧ مادة، طالبوا فيها بإلغاء مناصب المراقبين ، وبعدم فرض ضرائب إلا بعد موافقة البرلمان عليها، وبعدم حبس أي شخص بدون محاكمة لمدة تزيد على ٢٤ساعة. وكانت هذه القرارات تهدف تحديد السلطة المطلقة،كما كان قد حدث فى انجلترا، وأعجبت الجماهير فى باريس بهذه القرارات. وكان دوق كونديه قد انتصر فى ذلك الوقت على القوات الاسبانية، وجاء لتدعيم سلطة المملكة فى باريس. وأمرت الحكومة بإلقاء القبض على الكثير من أعضاء البرلمان ، فانتشرت الثورة فى باريس، وأسرعت الجماهير لإنشاء المتاريس من البراميل والعربات والأحجار ، وأقفلوا بها الشوارع، لمنع كونديه من السيطرة على العاصمة، وفرض كلمة المملكة عليهم ، كما قاموا بحصار القصر الملكى نفسه، فاضطرت

الوصية إلى التراجع ، وأمرت بإطلاق سراح المقبوض عليهم .

وبعد عقد صلح وستفاليا ، جاءت كل قوات دوق كونديه لمحاصرة باريس، وللقضاء على الثورة فيها وتركت الوصية ومعها الملك الصغير العاصمة ، وتطورت الأحوال إلى إنقسام واضح ، وإلى نشوب حرب أهلية بين الطرفين ، عرفت باسم الفروند ، بدأت بإنشقاق فى البرلمان ، وبحرب بين الطرفين ، سميت هذه المرحلة بفروند البرلمان . ولكن هذه المرحلة لم تستمر لفترة طويلة ، خاصة وأن رجال البرلمان كانوا يفتقرون إلي الخبرة العسكرية ، وإلى الأموال ، والتمويل اللازم لإستمرار الحرب . ولم يكن فى سعهم أن يلعبوا ذلك الدور الذى لعبه البرلمان الإنجليزى ، خاصة وأن سلطاتهم كانت قضائية ، فبالت الأقاليم لا تأبه بحركتهم ، مما اضطرهم إلى طلب الصلح بعد أقل من ثلاثة أشهر .

ولكن الحركة تطورت بعد ذلك ، ودخلت فى دور فروند الأمراء، وكان كونديه قد أخذ موقف المعارضة الصريحة من مزران، حاول أن يحصل على مكانه . ولكن الملكة أمرت بإلقاء القبض عليه وسجنه: فقام أعوانه وأتباعه بإثارة الأقاليم، كما ثارت باريس وبرلمانها من جديد ، الأمر الذى أجبر مزران على تركها، وعلى إطلاق سراح دوق كرنديه ، وانسحب إلى كولونيا فى ألمانيا سنة ١٦٥١ ،ومعه الملكة الوالدة ، وظل يحرك الأمور من الخارج، وزارت أخطاء دوق كونديه ، وتخاصم مع البرلمان ، وعقد محالفة مع ملك إسبانيا، وعاد مزران على رأس جيش صغير ، بقيادة الماريشال تورين سنة ١٦٥١ ، وهاجم دوق كونديه ، ودارت المعارك حول أسوار باريس . وحين رفض أهالى العاصمة تقديم التمرين لقوات دوق كونديه، اضطر إلى الخروج منها ،وإلى العيش فى الخارج، حتى صلح البرانس سنة ١٦٥٩ وعفو

الملكة عنه .

وهكذا انتهت الحرب الأهليـة ، وعاد الملك مع والدته إلى باريس سنة ١٦٥٢، وإن كان مـزران لم يدخلها إلا بعـد بضعـة أشهـر، حتى لايثير الأهالى ضده .

وقضى مـزران السنوات الأخيـرة من حكمه يحـاول الوصول إلى الصلح مع إسـبانيا، وتم له ذلك فى سنة ١٦٥٩، كـما ذكـرنا . ولقد تمكن مزران من القيام بعمل هام فى الداخل ، وهو إعادة تعيين المراقبين فى الأقـاليم ، ولكنهم أصـبحـوا مـراقبين دائـمين للملك ، داخل كل مقاطعة ، بعد أن كانوا يخرجون من الـعاصمة من وقت لآخر للتفتيش على الأقـاليم ، ويعـودون بعـد ذلك إلى بـاريس. ورغم الإضطرابات والحـروب ، فإن مـزران قـد تمكن من تكوين ثروة طائلة قـدرت بـ٥٠ مليون فى ذلك العصر . وأصبح يسير فى نهاية عهده ووراءه حرس من ثلاثمائة من المشاة ، وبعض الفرسان ، وأصبحت له حاشية أكثر فخامة من حاشية ريشـيليو ، وأصبح يقيم الحفلات فى قـصره ، وهو المكتبة الوطنية حـاليا فى باريس ، والتى جـمع فيها الـكثير من التـحف الفنية واللوحات ، والتى كانت أساسا لتكوين متحف اللوفر فيما بعد .

ولكن الخراب ساد فرنسا فى عصـره ، وجاء صلح وستفاليا لكى يزيد من عدد العـاطلين ، وينشر المجاعـات فى كل مكان وأعطت هذه الأحوال الاقتصادية والإجتـماعية السيئة ، نتائجها الـسياسية ، ودفعت فـرنسا إلى أن تخـضع ، وفى ظروف الإرهاق ، للنـظام الملكى المطلق والمستبـد فيـها. وحين بلغ لوى الرابع عشـر سن الرشد ، وتولى سلطته الملكية، كان لاينسى الإضطراب والفوضى اللذيـن سادا فى صغره، وأجـبراه على الهرب من عاصمتـه ولذلك فإنه قرر ألا يسمح الفوضى بمكان فى

بلاده ، وطوال حكمه ، مـهما كلفه ذلك من ثمن ، فكان ملكا مطلقا بكل معنى الكلمة . أما الفرنسيين ، فإنهم كانوا فى حاجة إلى الراحة ، ولم يكن لهم من أمل سوى طاعة الملك ، والخضوع له .

٣- الملكية المطلقة في عهد لوي الرابع عشر :

منذ أن توفى مزران ، جـمع لوى الرابع عشـر وزراءه ، وأبلغهم أنه سـيكون منذ هذا اليـوم هو رئيس الوزراء ، وإنهـم سـيـقدمـون له المشورة ، حين يطلبها منهم ، وطـلب إليهم ألا يوقعوا على شيء بدون مـوافقـتـه . وهكذا أصبح لـوى الرابع عشـر هو الملـك ، وهو الذى يحكم .

وكـان لـه من العـمـر في ذلك الوقت ٢٢سنة (٨ مـارس سنة ١٦٦١)، وظل يحكم حتى بلغ من العـمر ٧٧ سنة (أول سبتـمبر سنة ١٧١٥). وطوال هذه السنوات الخمس والخمـسين سار لوى الرابع عشر على نفس هذه الطريقـة: فهـو الملك، وهو الذى يحكم وكان قـد تمرن على شـئون الحكم منذ سن السـادسة عـشرة ، مع مـزران ، فكانت له دراية بشئون الحكم، والجيش والسياسة الخارجية .

وكان لوى الرابع عشر منذ صغره ، قد أعطى لنفسه تصورا أن من حق الملك أن يفعل ما يحلو له ، وأنه قد حصل على التاج بحق إلهى، وأنه هو الـذى يمثل اللـه فى البــلاد، وعــمل عـلى إعطاء إبـنه هذه التوجيهات. وكان لوى الرابع عشر ينظر إلى الملك، علاوة على ذلك ، على أنه عـمل ، ولذلك فـإنه كـان يصـر على رؤية كل شيء ، وكـان يقـضى ساعـات فى صبـاح ومسـاء كل يوم لدراسـة شئـون المملكة ، وفحصها واتخاذ القرارات فيها .

ومع ذلك فـإن حياة الـبلاط فى عصـره ، كانت نشطـة ، وبعد

الفتـرة التى خبـا فـيها إشـعاع البلاط، مع الحـروب الدينية، أعطى لوى الرابع عسر حياة جديدة للبـلاط الملكى فى قصر فرساى . وكان الأمراء والنبلاء يتـسابقون للتـواجد حوله، ولإتـباع المراسم التى فرضـها على الجميع ، مـنذ أن ينهض فى الصباح إلى نهاية اليـوم ، ولذلك فإنه هو الذى وضع أسس الإتيكيت فى فرنسا، وفى العالم ، وحول شخصه .

وكان جمع الأمراء والنبـلاء فى بلاطه يضمن له إبعاد نفوذهم عن الأقاليم، وتحويلهم إلى مجرد حاشـية تـتبعه فى كل مكان، وليس لها أي سلطة أو نفوذ . ووضع لوى الربع عشر نظاما للحكم، مرتبط بشخصه فهناك إدارة المـلك العسكرية ، وهى التى تحولت فـيمـا بعد إلى هيـئة اليـاوران، وهناك إدارة الملك المـدنيـة، وهى التى ضـغط فـيها الوزارات والادارات، والتى تحولت فيمـا بعد إلى الديوان الملكى ، وبهذه الطريقة أصبـح لوى الرابع عشـر ملكا، وحاكـما، وله سلطة مطلقـة ، وبالحق الإلهى ، وروض الجمـيع من أمراء ونبلاء وحكام وقـادة عسكريين على أن يصبحوا تابعين للملك شخصيا .

ولقد اسـتعـان لوى الرابع عشـر ، فى حكمه ، بـرجال الطبـقة البورجوازية ،حتى يحرم النبلاء من كل سلطة ونفوذ ، وكانت الحكومة فى عهده حكومة مـركزية تماما . ورغم وجود مستـشار ووزراء للشئون الخارجية ، وللحـربية وللبحرية ولشئون القـصر ، إلا أن أحدا منهم لم يكن فى وسعـه أن يتخذ أى قرار دون عرضـه على الملك . وكان الملك يقرأ إلتماساتهم ، أو توصياتهـم ، وتقاريرهم مساء كل يوم ، ويوجهها حسبـما يرى . وكان نافذ البـصيرة ، وافر المعلومـات، إذ أنه كان يقرأ ويستـمع ، بانتظام،وكل يوم ، فكان يعـرف كل صغيـرة وكبـيرة داخل بلاده وما يهمـها فى الخارج . أما بالنسبـة للاقاليم، فإنه زاد من سلطة المراقـبين والمفتـشين ، حـتى أصبـحوا ممثلـين شخـصيين له ، كـلا فى

مقاطعـته، ويأتمرون بأمره . وظل هذا النظام معمولا به فى فـرنسا حتى عصر الثورة الفرنسية .

وكان أشـهر وزراء لوى الرابع عشـر هو كولبيـر ، وكان نشطا ، دقيقـا فى عمله،و كان يعمل لمدة سـتة عشر ساعـة كل يوم ، لايقابل احد ، ومتـفرغ لشئون الدولة . وكـان كولبير قـد تمرن على العمل فى الإدارات المالية ، ووضع لنفـسه شعـارا أن ينمى ثروة فرنسا، ويجـعلها أغنى دولة وذلك عن طريق منع النقـود والأموال من الخـروج منها، ثم جذب الأمـوال الأجنبيـة إليهـا، وذلك من أجل زيادة الموارد التى يمكن استخدامها فى السياسة العامة للدولة. واعتبر أن هذه العملية هى حرب مالية ، ترفع من قدر فرنسـا بين الدول، فعمل على إعادة تنظيم المالية. وعلى تنمية الصناعة ، وعلى زيادة حجم ونشاط التجارة .

أما بالنسبة للمالية ، فقد سار على الخطوط العامة التى كان مزران قد سـار عليها. وأما الصـناعة فيرجع إلى كـولبير الفـضل فى أن جعل فرنسا دولة صناعـية كبرى ، فشجع الصناعات الموجـودة ، مثل صناعة المنسوجات والسـجاجيد والحرير، وأنشأ صناعات جـديدة مثل الزجاج والخشب والـصلب نا واستدعـى كولبيـر ، وبأثمان باهظـة. عددا من الفنيين والصنـاع الأجانب ، وقـدم لهم الملك رؤوس الأمـوال اللازمـة لإنشاء المصانع وشـراء المواد الخام، وبسخاء، كما كـان يقدم لهم جوائز للعمـال المتفوقين . وبـعد أن كانت الورش والمصـانع صغيـرة، أخذت شكل« المصانع » بكل معنى الكلمة . وكان هدف كولبير أن يحرر فرنسا من الاعـتـمـاد على الخـارج فى المصنوعـات، كـخطوة أولى من أجل الوصول إلى جعل الخارج يعتمد على فرنسا فى إستيراد مصنوعاته فأكثر من وضع للوائح والتعليـمات للصناع وأجبـرهـم على التوقيع بإسـمهم على ما يصنعون ، الأمر الذى تطور فيما بعد إلى العلامة التجارية .

أما بالنسبة للتجارة ، عمل على حماية المنتجات الفرنسية بفرض ضرائب مرتفعة على السلع الأجنبية ، فى نفس الوقت الذى قلل فيه من الضرائب على المنتجات الفرنسية ، تشجيعا للتجارة مع الخارج، ومع أقاليم ما وراء البحار . وكانت هناك صعوبات تواجهه في الداخل، وخاصة وأن بقايا النظام الأقطاعى كانت موجودة، متمثلة فى شكل جمارك داخلية بين المقاطعات وبعضها، فألغى هذه الجمارك الداخلية بين عدد كبير من المقاطعات . وشجع كولبير التجارة الخارجية ، وعمل على إنشاء شركات التجارة البحرية مع الهند الغربية ، والهند الشرقية ، وشرق البحر المتوسط ، ومع الشمال ، ومع السنغال.

ولقد ارتبط كل ذلك بإنشاء بحرية فرنسية قوية ، ونجح كولبير فى إنشاء أسطول تجاري هام . كما عمل على إنشاء أسطول حربى للمحافظة على خطوط المواصلات مع المستعمرات الفرنسية، وبخاصة مع كندا، التى كان يرغب فى تحويلها إلى مقاطعة فرنسية . ووضع نظاما للتجنيد فى البحرية ، وأنشأ صندوقا لمصابيها ومدرسة لتخريج ضباطها .

واهتم كولبير بالزراعة ، وشجع تربية المواشى والخيول ، وزراعة الكروم وأشجار التوت ، اللازمة لدود الحرير .

نجح كولبير فى كل ذلك، رغم العقبات التى كانت تواجهه ، والتى كانت تتمثل فى سياسة لوى الرابع عشر العسكرية ، وفى ميله إلى البذخ وحياة العظمة . ولقد أبلغه ذلك ، ولكن لوى الرابع عشر كان ممتلأ بالغرور ، نتيجة لإنتصاراته ، ورفض الاستماع إلى أى نصيحة للاعتدال، ولذلك فإنه تخلص من كولبير .

واشتهر بعد ذلك لوفوا، الذى ظل وزيرا للحربية لمدة ٢٥ سنة

(١٦٦٦- ١٦٩١) .

ولقد أمضى لوى الرابع عشر ثلاثين سنة من فترة حكمه، التى بلغت ٥٥ سنة ، فى الحروب ، الأمر الذى أدى إلى تغيير كامل فى النظم العسكرية فى فرنسا، وفى نفس الوقت الذى حدث فيه مثل هذا التغيير فى الدول الأخرى ، وتحول نظام الجيش من جيش مؤقت إلى جيش نظامى دائم. وبلغ عدد الجيش الفرنسى وقت حرب الوراثة الإسبانية (سنة ١٧٠١) ١٢٥ ألف من المشاة و٤٧ألف من الفرسان.

ووضع نظام لتدريب هذا الجيش الدائم ، ولتنظيمه، وتنظيم تسلسل القيادة فيه، عن طريق قائمة بأقدمية الضباط. ووضعت له الإدارات المختلفة للتموين ، الشئون الإدارية ، ولمستشفيات الميدان . ووضع لوفوا كسوة عسكرية لكل الجنود، كما وضع نظاما دقيقا للطاعة دون اعتراض بين الجنود وضباطهم، واهتم بنظام التجنيد ، وعلى أساس التطوع، نظير الرواتب والخضوع للنظام العسكرى . وانشا لوفوا سلاحين جديدين : هما سلاح المدفعية ، وسلاح المهندسين ، وهو الذى اهتم بالتحصينات ، على طول حدود فرنسا، واشتهر من بين رجاله الماريشال فوبان. ولقد تمكن فوبان بدوره من إدخال تعديلات على الأسلحة، وبخاصة البنادق ، وبشكل جعلها أقل ثقلا، وأكثر فاعلية فى إطلاق النيران ، وزود كل بندقية بحربة ، تساعد الجندي وقت الإلتحام.

وكانت كل هذه الوسائل ، الاقتصادية والعسكرية ، تساعد لوى الرابع عشر على تطبيق سياسته، وعلى القيام بحروبه فى أوربا.

وأخيرا فعلينا أن نذكر أن الشئون الدينية كانت لها أهمية خاصة فى عهد لوى الرابع عشر . ذلك أنه قد دخل فى صدام مع البابوية،

وعلى أساس استقلال كنيسة فرنسا، ودخل فى صراع مع الجانسينست، ، وهم من أتباع القديس أوغسطين ، وحطم مراكزهم، وألغى نظامهم وأخيرا فإنه اضطهد البروتستانت، وألغى مرسوم نانت ، وعمل على استخدام القوة لتحويلهم إلى الكاثوليكية . ولقد عمل على تحويل أبنائهم بالقوة إلى الكاثوليكية فى سن الصبا ، وحرمهم من الوظائف العامة، ومن ممارسة مهن المحاماة والطب عمل بعد ذلك على إجبارهم على استضافة قوات الفرسان، فى قراهم ومنازلهم وعلى نفقتهم. وكان هؤلاء الفرسان يستخدمون العنف معهم لتحويلهم إلى الكاثوليكية. وبكل وسيلة وضغط ممكنة ، فأدى ذلك إلى تحول الكثيرين إلى المذهب الكاثوليكى ، وإجبار البعض منهم على التجديف فى السفن، وهجرة الكثيرين ، وبالآلاف إلى إنجلترا وهولندا وبرلين، التى ستصبح عاصمة بروسيا فيما بعد ، وساعد كل ذلك على أن يشعر الملك فى ذلك الوقت بأنه يحكم شعب متجانس ، وأنه لاتوجد هناك أي معارضة لسلطته داخل البلاد .

٤- سياسته وحروبه :

احتلت فرنسا طوال عهد لوى الرابع عشر المكانة الأولى بين الدول الأوربية ، وكانت أقوي مملكة ، ومركز السياسة العامة . وحين كان يذكر خارجها اسم « الملك » ، فإن ذلك كان يعنى ملك فرنسا ، دون غيره .

وأظهر لوى الرابع عشر منذ أول حكمه اهتمامه بألا يتقدم سفير دولة أجنبية سفير فرنسا فى أى عاصمة، وحين ادعت إنجلترا ضرورة تحية السفن الأجنبية لعلم السفن الإنجليزية ، رفض لوى الرابع عشر ذلك ، وأصر على ضرورة تقديم السفن الإنجليزية التحية للعلم

الفرنسى، ثم تقوم سفن فرنسا بالرد على ذلك .

ويمكننا أن نقسم الحروب التى خاضها لوى الرابع عشر إلى سلسلة، بدأت دورها الأول من سنة ١٦٦٧ إلى سنة ١٦٦٨، ثم مرحلة تالية، هى الحرب مع هولندا منذ سنة ١٦٧٥ إلى سنة ١٦٧٨،وبعد ذلك مرحلة حربه مع عصبة أوجزبرج من سنة ١٦٨٨ إلى سنة ١٦٩٧، وأخيرا حرب الوراثة الإسبانية من سنة ١٧٠١ إلى ١٧١٤.

ويمكننا أن نميز ، بالنسبة للسياسة الخارجية الخاصة بلوى الرابع عشر ،مرحلتين متميزتين ، يقسم بينهما عام سنة ١٦٨٨، الذى تتميز بالثورة فى انجلترا، ولاجدال فى أن لوى الرابع عشر قد سيطر على أوروبا، وأعطى توسعات لفرنسا، زادت من مساحتها.

ومنذ سنة ١٦٨٨ ، وحتى سنة ١٧١٤، وهى فترة الحروب ضد عصبة أوجزبرج وحروب الوراثة الإسبانية ، اصطدمت سيطرةلوي الرابع عشر بالتكتلات الأوربية ، وانتهى الأمر بهزيمته .

وعلينا ألا ننسى أن جوهر الخلافات خلال هاتين الفترتين كان واحدا بين الدول ، فكان أساس كل هذه الحروب هو مسألة الوراثة الإسبانية ، أو المشكلة العظمى ، كما كانت تسمى أثناء ذلك الوقت .

أما عن أهداف لوى الرابع عشر من هذه الحروب، وباستثناء الحرب الأخيرة من بينها، وهى حرب الوراثة الإسبانية، فكانت تتمثل فى ضرورة احتلال فرنسا لكل الأقاليم التى كانت لها فى وقت غالبا، فى العصور القديمة ولذلك فإن لوى الرابع عشر كان يهدف إلى أن يضم لمملكة فرنسا كل الأقاليم التى كانت جزءا منها فى الماضى ،

ويضم إليهـا كل البلاد التى ينتـمى أهلها إلى فرنـسا، ويتحـدثون اللغة الفرنسية، رغـم خضوعهم لحكم أمراء أجانب ، وبالاخـتصار فإن لوى الرابع عشـر كان يرغب فى إتمام وحـدة فرنسا، عن طريـق قيامـه بغزو وضم حدودها الطبيعية .

وكـان تحقـيق هذا المشـروع يتطلب ضـم الأراضى المنخـفضـة ، وفرانش كونتيـه ، واللورين ، وسافـوا . وكانت فـرانش كونتـيه ، والأقاليم المنخفضة تابعة لملك إسـبانيا، وادعى لوى الرابع عشر حقه فى الحصـول عليهـا، كحق طبـيعى لزوجتـه ، ماريا تريزا، الابنـة الكبرى لفـيليـب الرابع ، والوارثـة الشـرعـية لملـك إسبـانيـا، أمـا اللـورين وسـافوا. فكان يرغب فى الحـصـول عليهـا بالتـبادل، وببـعض القطع الرئيـسية فى الميراث الإسبـانى الكبيـر . وهكذا كانـت مسألة الوراثة الإسبـانية هى حجـر الزاوية فى سيـاسة لوى الرابع عشـر ، طوال مدة حكمه .

ولم يتمكن لوى الرابع عـشر من تحقـيق كل ذلك: فلقد اصطدم بادعاءات معارضة تقدم بها ليوبولد، إمبراطور المانيا، وزوج الإبنة الثانية لفيليب الرابع، أى أخت زوجة لوى الرابع عشـر، كما اصطدم بمعارضة جيرانه الهولنديين والإنجليز الذين أثار قلقـهم إزدياد قوة فرنسا بسيطرتها على الأراضى المنخفضة. وكان هذا هو سبب نشوء التكتلات ، والحرب الهولندية ، وحرب عصبة أوجزبرج. وبعد حروب ثلاث ضد إسبانيا ، لم يتـمكن لوى الرابع عـشـر إلا من ضم جزء من الفـلاندر وفـرانش كونتيه. وعلى العكس من ذلك، نجـد أنه فى نهاية حكمه قد تخلى عن أي مشروع آخر لتوسيع حدود فـرنسا، وأخذ يحارب من أجل إسبانيا، التى كان قـد حاربها باستـمرار من قبل ، ذلك أنه كان قـد وضع أحد أحفاده وهو دوق آنجو ، فيليب ، على عرش إسبانيا ، وهو الذى عرف

باسم فيليب الخامس ، وذلك بعد حرب دامت ثلاثة عشر سنة ، أنهكت موارد فرنسا .

ولقد استند لوى الرابع عشر إلى مجموعة لها قيمتها من الساسة والوزراء والقادة والفنيين فى الحرب ، كما استند إلى قوات مدربة ومنضبطة ، لكى يصل إلى أهدافه . وكان عصره هو عصر تفوق فرنسا فى أوربا ، وسينتهى هذا التفوق مع نهاية حكمه .

الفصـــل الرابع

حــروب الوراثة الإسبانية

امتـدت حروب الوراثة الإسبـانية عبـر سنوات طويلة ، منذ سنة ١٦٦٨ حتى معاهدة أوترخت سنة ١٧١٣، ومـرت فى مراحل متعددة: هى مـرحلة الحصـول على الإرث الفرنـسى فى الفلاندر ، ثم مـرحلة الحرب ضد هولندا، وتطور ذلك إلى إنشاء عـصبة ، أو تكتل أوجزبرج ضد فرنسا، ثم نشوب الحرب بعد ذلك فى سنة ١٧٠١، والتى استمرت لمدة ثلاثة عشر سنة .

١- أصول الوراثة :

فى الوقت الذي بدأ فيه لوى الرابع عشر حكمه سنة ١٦٦١، كان كل ساسة أوربا يتـوقعون نهاية حياة شـارل الثانى ، ابن فيليب الرابع، ملك إسبانيا واعتقدوا نتيجة لمرضه العضال ، فى قرب وفاته ، وان كان قد عاش لفترة أربعين عاما بعدها ، حتى سنة ١٧٠٠.

وكان فى وسع وريثين أن يتقدما لتسلم هذا الإرث : لوى الرابع عشر ملك فرنسـا، وليوبولد إمبراطور ألمانيا، وكان كل منهما إبنا لأميرة إسبانية، ومتزوجا من أميـرة إسبانية ، فكانا أبناء خاله ، وكل منهما قد تزوج أخت زوجة الآخر. ولكـن كل من آن النمسوية ، ومـاريا تريزا، والدة وزوجة لوى الرابع عشر كانت أكبر من والدة ومن زوجة ليوبولد. وللذلك فإن حقوق لوى الرابع عشر كانت تسـبق حقوق ليوبولد. حقيقة أن ماريا تريزا كـانت قد تنازلت عند زواجـها من لوى الرابع عـشر سنة ١٦٥٩ عن حقوقها فى الميراث الإسبانى، ولكن هذا التنازل كان باطلا، ومن ناحـيـة أخـرى كـان هذا التنازل نظيـر دفع فـيليـب الرابع لمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه، لم يقم فيليب بدفعه .

وكان الإرث الإسباني ضخما؛ فكان يشتمل على ٢٢ تلجا هي إسبانيا والبليار وسردينيا وصقلية ومملكة نابولي وفرانش كونتيه والأراضي المنخفضة، هذا علاوة على نصف أمريكا، ومعها مناجم بيرو والمكسيك ، وجزء من الجزر الواقعة في المحيط الهادي ، والمواقع الإسبانية في إفريقية .

ولم يكن لوى الرابع عشر يفكر في أخذ كل هذا الإرث لنفسه ، بل كان يرغب في أخذ الأقاليم الفرنسية الموجودة فيه ، ويأخذ من إيطاليا تلك الأقاليم التي كان يمكنه أن يبادل بها اللورين وسافوا ، حتى يتم وحدة فرنسا. وكان مستعدا للتخلي عن الباقي ، عن إسبانيا وأمريكا، لإمبراطور المانيا ليوبولد .

وبعد وفاة فيليب الرابع ، والد زوجته ، أمر لوى الرابع عشرسفيره،في سنة ١٦٦٥بأن يقترح على الأمبراطور عقد اتفاقية بهذا المعنى . وكان ليوبولد مترددا وخياليا، ولكنه وافق على مقترحات لوى الرابع عشر ، ووقع سنة ١٦٦٨ في فيينا على معاهدة تقسيم الميراث الاسباني المقبل .

وفي ذلك الوقت كان لوى الرابع عشر قد بدأ في إحتلال جزء من هذا الميراث، وهو الفلاندر ، وذلك كحق لزوجته ماريا تريزا، وكوارثة وحيدة لوالديها، وتحجب بقية الأبناء .

وتوغل ٦٠ ألف مقاتل في سنة ١٦٦٧ في الفلاندر ، واحتلوا أهم المواقع الموجود فيها. وتوقف لوى الرابع عشر ، وطلب إلى الملكة الوالدة الاسبانية ، الوصية على شارل الثاني ، أن تعترف بالأمر الواقع.
ونتيجة لترددها، أرسل لوى الرابع عشر جيشا آخر في سنة ١٦٦٨ احتل فرانش كونتيه في مدة أسبوعين.

ولقد أثار الغزو السـريع للفلاندر قلق كل من هولندا وانجلترا، إذ ان فرنسا أصبح جارة لهما. وقامت هاتان الدولتان بتكوين تحالف لاهاى مع السويد ضد فرنسا سنة ١٦٦٨.

وكان هذا هو أول تحالف يوجه بهذا الشكل ضد فرنسا، ودل على أن جيرانها يعـتبرونها الأكثر قـوة . واظهرت هذه الدول أنها ترغب فى التوسط بين فرنســا وإسبانيا، ولكن هدفهم غيـر المعلن كان هو التوصل إلى أن يفرضـوا علي لوى الرابع عـشر التنازل عن الارث الاسـبانى ، ويمنعوه من الحصول على الأراضى المنخفضة .

ومع ذلك فقد عقد الصلح بعيـدا عن الوسطاء ، فتفاوض إسبانيا مبـاشرة مع لوى الرابع عـشر ، وتنازلت له على عن الفـلاندر ، الأمر الذي أقره المتحالفون فى صلح إكس لاشابيل فى نفس السنة .

ولكن تدخل الهولنديين كان قـد أثار لوى الرابع عشر ، وزاردت هذه الاثارة حين علم بالقرارات السرية لمحالفة لاهاى ، والتى دلت على أن الهولنديين كانوا قد جذبوا مـعهم انجلترا والسويد ، وبالأموال ، إلى تحالف دائم للمحافظة على صلح إكس لاشابيل. ورأي لوى الرابع عشر ضرورة تحطيم قوة هولندا ، كمقدمة لازمة لاحتلال الأراضى المنخفضة. هذا عـــلاوة على أنه كـــان لايحـب المذهب الكلفـنى ، ولانظامـــهم الجمهورى ، ولا حكومتهم المشكلة من تجار الجبن كان كولبير غير راض عن وضع الهولنديين للعقبات أمام التـجارة الفرنسية ، عن طريق فرض الرسوم الجمـركية المرتفعـة عليها، فكان من الضرورى اسـتخدام المدافع لتغيير هذا الواضع .

٢- الحرب ضد هولندا :

عمل لوى الرابع عشر على عزل هولندا وإبعادها عن حلفائها قبل

الدخول في العمليات الحربية ضدها. واستمرت المفاوضات مدة ثلاث سنوات، وحصل لوى الرابع عشر على تحالف مع إنجلترا، وتحالف مع السويد، نظير دفعه لكل منهما مبلغا يزيد ۲۰۰,۰۰۰ جنيه على ما كانت تدفعه هولندا لهما. وحصل على تحالف مع منتخب كولونيا وأمرآء منطقة الراين، واشترى كذلك حياد الامبراطور ليوبولد، الذى كان فى حاجة إلى المال. وفى هذا الوقت كان الهولنديون منصرفين إلى تجارتهم، وبذروا أموالهم على المحالفات، بدلا من انفاقها على إنشاء جيش دائم، وكان مجلس الأقاليم المتحدة قد رفض تجنيد الأهالى، وكانت روح التجارة مسيطرة حتى أنهم كانوا يبيعون البارود لعملاء لوى الرابع عشر. ولذلك فانهم فوجئوا بمحاربة لوى الرابع عشر لهم.

وبدأ لوى الرابع عشر حربه ضد هولندا فى شهر مايو سنة ١٦٧٢، وقاد بنفسه ١٢٠ ألف رجل، وساعده فى القادة كل من تورين وكونديه. وفى فترة ثلاثة أيام، شعر الفرنسيون أنهم قد سيطروا على هولندا. ولكن الهولنديين قاموا يوم ١٥ يونيو بتحطيم السدود التى كانت تحمى أراضيهم الزراعية، والتى كانت أقل إنخفاضا من سطح البحر، فغرقت البلاد.

وتحولت المدن إلى جزر لايمكن الوصول إليها إلا بالسفن. وفى نفس الوقت طلب الهولنديون الصلح نظير دفع غرامة حربية تبلغ ١٠ ملايين جنيه. لكن لوى الرابع عشر طالب بـ٢٥ مليونا، وببعض الأقاليم. فصمم أهالى الجنوب على ضرورة مواصلة الحرب، واختاروا الأمير وليام أورانج لقيادة عملياتهم؛ وكان له من العمر إحدى وعشرين عاما، وسيظل طوال حياته الخصم العنيد للوى الرابع عشر، والمحرك الأول للعمليات المقاومة ضد مشروعاته.

وتغير نظام المحالفات تماما ، وتخلى بعض حلفاء لوى الرابع عشر عنه : فانضم الامبراطور للهولنديين ، ثم انضمت إليهم إسبانيا والامبراطورية، وأنشأوا تكتلا فى لاهاى سنة ١٦٧٣، وتحولت الحرب ضد هولندا إلى حرب أوربية .

وعندئذ ترك لوى الرابع عشر الحرب ضد هولندا، وحول كل مجهوده ضد إسبانيا، فى حرب هجومية كبيرة : فاستعاد منها فرانش كونتيه للمرة الثانية ، ثم عمد إلى إعادة غزو الأراضى المنخفضة ، موقع بعد موقع ، من سنة ١٦٧٤ إلى ١٦٧٨.

أما فيما يتعلق بالحرب ضد الامبراطور والألمان ، فإن لوى الرابع عشر قد إكتفى بحرب دفاعية . وكانت أهم مراحلها أثناء شتاء سنة ١٦٧٤- سنة ١٦٧٥ حين عبر جيش فرنسى قوى نهر الراين ، ودخل إلى الألزاس ، وهاجم قوات الامبراطور عند ستراسبورج. ولقد تدخل فى هذه العمليات منتخب براندبورج، فريدريك ويليام ، المنتخب الأكبر ، الذى سنعود إليه فى القرن الثامن عشر. ولقد انتصرت القوات الفرنسية ، وضمنت السيطرة على الألزاس، وإن كان قائدها، تورين ، قد توفى بعد ذلك بستة أشهر.

ورغم هذه المجهودات التى بذلوها شعر المتكتلون بأنهم لم يحصلوا على أى ميزة على لوى الرابع عشر ، ولذلك فإنهم عقدوا معه الصلح سنة ١٦٧٨. وحصل الهولنديون على ميزات تجارية مع فرنسا وكانت أسبانيا هى التى دفعت الثمن وتركت لفرنسا الفلاندر وفرانش كونتيه . وقامت فرنسا بضم ستراسبورج فى سنة ١٦٨١، وانهت وضعيتها غير المحددة ، حتى تمنع ألمانيا من إستخدامها كقاعدة شرقية لغزو فرنسا .

ورغم أن هذه التسوية كانت تخيف الدول ، إلا أنها لم تتحرك ، نتيجة لخوفها من الجيوش الفرنسية . وكانت الامبراطورية مشغولة بوصول الأتراك حتى فيينا فى سنة ١٦٨٣ ولكن نفس هذه المخاوف ساعدت على تجميع الخائفين فى تكتل جديد ضد فرنسا .

٣- التكتل الاوربي ضد فرنسا ، عصبة أوجزبرج :

كانت علاقات لوى الرابع عشر قد ساءت مع معظم الدول الأوربية البروتستانتية نتيجة لإلغائه مراسيم تانت سنة ١٦٨٥ . ودفع هذا الأمر هؤلاء الملوك والأمراء إلى إنتهاز الفرصة للتكتل ضده، عند أول فرصة مناسبة . وتم فى سنة ١٦٨٨ تكوين تكتل ضد فرنسا، ضم ملوك إسبانيا، والسويد ، والامبراطور، وكثير من المنتخبين ، ودوق سافوا ، وهو التكتل المسمى بعصبة أوجزبرج ، والتى هدفت إلى المحافظة على التوازن الدولى ضد عمليات لوى الرابع عشر الممكنة .

وكانت هذه العصبة دفاعية فى أول أمرها. ولكنها أخذت دورا إيجابيا، بعد أن إنضم البابا إليها، ونتيجة لتدخل لوى الرابع عشر فى أمر منتخب كولونيا سنة ١٦٨٨ .

وفى أثناء هذا العام، نشبت الثورة فى انجلترا، واستدعى الأمير وليام أورانج إلى إنجلترا، وكان عدوا للملك فرنسا. وكان لوى الرابع عشر حتى ذلك الوقت قد حافظ على علاقات ودية وتحالف مع إنجلترا ولكن وصول وليام الثالث إلى عرش إنجلترا سيجعله يستخدم كل إمكانياته وإمكانيات التكتل الأوربى لموازنة قوة لوى الرابع عشر .

ودخل لوى الرابع عشر الحرب بدون حليف ، وكان عليه أن يواجه أوربا كلها. واستمرت الحرب تسعة أعوام ، ووقعت معاركها على كل حدود فرنسا : البرانس ضد اسبانيا والتى أخذ الفرنسيون منها

إقليم كاتالونيـا ،والألب ضد دوق سافوا، والراين والأراضى المنخـفضة ضد الألمان والهولنديين والإنجليز .

ولم يحـارب لوى الرابع عشـر من أجل التـوسع ، بل من أجل المحافظة على ما كـان قد حصل عليه ، ومن أجل إعادة جـيمس الثانى إلى إنجلترا، ولذلك فإن ميدان العمـليات كان هو الأراضى المنخفضة ، وإيرلندا. أما من ناحية الراين ، فإن فرنسا اسـتخدمت طريقة قاسية لمنع تقـدم القـوات هناك، وذلك عن طريـق تخريـب منطقـة البـلاتينات ، وإحراقـها أكثر من مـرة ، لتحويلهـا إلى صحراء فى شـمال الألزاس. وتمت هذه العملية بعد تقليع الكروم، وحـرق قصور السادة ، والقرى ، وإجلاء الأهالى عنهـا سنة ١٦٨٩ . وظلت ذكريات هذه العـملية عـالقة بأذهان الألمان لمدة تزيد على قرنين من الزمـان بعدها، وكانت سـببا من أسباب حقدهم على فرنسا.

وأرسل لوى الرابع عشر حملة إلى ايرلندا لمسـاعدة جيمس الثانى فى السيطرة عليهـا، كتمهيـد لغزو إنجلترا ولكن جيـمس الثانى تباطىء واعطى بذلك الفـرصة لوليام الثـالث للقيـام بغزو الجزيـرة من إنجلترا. وانتهى الأمر بعودة جيمس إلى فرنسا سنة ١٦٩٠.

وشهدت فـى سنة ١٦٩٢ معركة بحـرية ، فى بحر المانش ، بين الأسطول الفرنسى من ناحية ، والأسطولين الانجليزىوالهولندي من ناحية أخرى وانتـصر الأسطول الفرنسـى انتصارا رائعـا فى اليوم الأول ، وإن كان اليوم الثـانى قد شهده بعـد انسحاب الانجليز والهولنـديين ، عملية جزر ، حطمت الكثير من سفن الأسطول الفرنسى .

وكذلك سجلت القـوات الفرنسية انتـصارات فى عامى ١٦٩٢ و ١٦٩٣ على الهولنديين . وانتصـرت عندحـدودالألب على جيوش دوق

سافوا، واحتلت اقاليمه، الأمر الذى أجبر الدوق على ترك التكتل فى سنة ١٦٩٦، وتوقيع الصلح مع فرنسا .

وكان الملل قد أصاب الجميع ، وكان هناك الخراب فى كل مكان. وحتى تجارة البحر أصابها الخراب ، نتيجة عمليات القراصنة من كل جانب . وكان الاتراك يهددون الامبراطورية. وأدى كل ذلك إلى مباحثات ثم مفاوضات، انتهت بعقد صلح ريزويك سنة ١٦٩٧. واظهر لوى الرابع عشر إعتدالا مع خصومه، واعترف بوليام الثالث ملكا على إنجلترا، وأعاد معظم الأراضى التى كان قد احتلها بعد سنة ١٦٧٨، وكل ذلك نظير شيء واحد، وهو الحصول على اعتراف من الامبراطور بملكية فرنسا للوكسمبورج .

واستمر صلح ريزويك قائما ، لعدة سنوات ، وحتى ثارت مسألة الوراثة الإسبانية بعد وفاة شارل الثانى ، سنة ١٧٠٠.

٤- حرب الوراثة :

كان السبب الأساسى فى اعتدال موقف لوى الرابع عشر فى صلح ريزويك هو أنه كان فى حاجة إلى السلم، من أجل إعادة بناء قواته المسلحة، وتنظيم ماليته ، قبل أن تحين الساعة، والتى كان الجميع يترقبونها، لوفاة شارل الثانى ، وفتح مسألة الوراثة الاسبانية من جديد. وكان يرغب كذلك فى تفكيك عصبة أوجزبرج، وإبعاد إنجلترا وهولندا عنها، وتسوية مسألة الوراثة مقدما معهما، كما كان قد حاول فى سنة ١٦٦٨ ، من قبل ذلك ، مع الامبراطور ليوبولد . وكان الرأي العام الانجليزى، لايناصر الدخول فى حرب جديدة . كما أن الحكومات ، وبخاصة الانجليزية، كانت تقدر قوة فرنسا ، وتخشي من أن تقوم بالاستيلاء على المملكة الاسبانية ، قبل أن يتمكن أى أحد من الحركة.

ولقد تم وضع معاهدة أولى فى لاهاى ، فى سنة ١٦٩٨، أعطت معظم الميراث الاسبانى لأحد أحفاد الامبراطور ليوبولد ، وهو ابن منتخب بافاريا، والذى كان عمره أربع سنوات. ولكنه توفى ، فتطلب الأمر الدخول فى مفاوضات جديدة. وانتهت هذه المفاوضات بالتوقيع على معاهدة ثانية ، هى معاهدة لندن فى مارس سنة ١٧٠٠، التى أعطت الابن الثانى للإمبراطور، وهو الأرشيدوق شارل، ميراث إسبانيا، فيما عدا مملكة نابولى ، وصقلية ، ميلانو ، وهى الأقاليم التى احتفظ بها لوى الرابع عشر ، لكى يبادلها بسافوا واللورين . وكان ذلك هو نفس المشروع الذى كان لوى الرابع عشر قد تقدم به فى أول حكمه؛ فلا يخرج من الوراثة الاسبانية إلا باكمال إنشاء فرنسا .

ولكن الامبراطور رفض الموافقة على هذه التسوية ، رغم أنها كانت فى صالحه ، وكان شارل الثانى قد تزوج مارى ، أميرة نيوبورج واصبح ايوبولد يعتقد فى أنها ستنجح فى توجيه زوجها، شارل الثانى، إلى وضع وصية فى صالحه هو الامبراطور . ولكن آماله خابت . ورفض شارل الثانى أن تقسم إمبراطوريته بعد موته ، وكان يعرف مشروعات التقسيم ،ورأى أنه ليس فى وسع أي أمير سوى أمير فرنسى، تسانده كل قوات لوى الرابع عشر ، أن يحافظ على سلامة الامبراطورية الاسبانية . مهما كان رد شارل الثانى مع ليوبولد، ومرارة ذكرياته مع لوي الرابع عشر ، فإنه وضع وصيته فى صالح فيليب ، دوق آنجو ، الحفيد الثانى لملك فرنسا ، وتوفى شارل الثانى بعد ذلك بشهر، فى أول نوفمبر سنة ١٧٠٠.

وأصبح لوى الرابع عشر موزعا بين تطبيق معاهدة لندن، التى تكمل إنشاء فرنسا، وهى مصلحة وطنية ، وبين قبول وصية شارل الثانى، وهى مصلحة أسروية ، واستقر رأيه فى نهاية الأمر على قبول

الوصية ، أملا فى المعيشة فى سلام مع الجميع . وكان فى هذا احتفاظ بالامبراطورية الاسبانية، فى رونقها، والتغاضى عن المصالح الوطنية لفرنسا. وبعد بضعة أشهر، أصبح فيليب ملكا على إسبانيا، واعترفت به الدول الأوربية ، فيما عدا الامبراطور.

ولكن الموقف تغير بعد بضعة أشهر، وخشي وليام الثالث ملك إنجلترا من وجود مؤامرة فرنسية لمساعدة جيمس الثانى ، فادعى أن لوى الرابع عشر لم ينفذ معاهدة لندن ، وأخذ فى اقامة « تحالف كبير » ضد فيليب الخامس ، وفى إعداد الجيوش لمواجهة الموقف وكان لوى الرابع عشر قد أعطى تصريحا فى شهر يناير سنة ١٧٠١ بأن من حق فيليب الخامس أن يحتفظ بحقوقه فى تاج فرنسا نفسها، الأمر الذى كان يهدد بإمكانية إتحاد الدولتين وتغير التوازن الدولى فى أوربا، وأدى ذلك إلى قلق ملوك أوربا. كما قام لوى الرابع عشر. فى الشهر التالى ، وتنفيذا لطلب حفيده فيليب الخامس ، باحتلال بعض الموقع فى الأراضى المنخفضة ، وبإخراج القوات الهولندية منها. هذا علاوة على أن لوى الرابع شعر عامل ابن جيمس الثانى ، ملك إنجلترا السابق ، رسميا، على أنه جيمس الثالث، رغم وجود وليام الثالث على العرش ، واعترافه به ملكا على إنجلترا فى معاهدة ريزويك . وتمكن وليام الثالث من أن يظهر لوى الرابع عشر على أنه هو البادىء بالعدوان ، وحصل ، قبل وفاته ، فى سنة ١٧٠٢ ، على الاعتمادات اللازمة من البرلمان.

ورغم أن الحرب لم تكن قد أعلنت بعد فإن قوات الامبراطور دخلت إلى إيطاليا وكانت حرب الوراثة الاسبانية أطول وأفظع الحروب التى نشبت فى عهد لوي الرابع عشر . فلقد ظلت مشتعلة لمدة ثلاثة عشر سنة ، ولم تنته إلا فى ٦ مارس سنة ١٧١٤. وكانت أصعب هذه الحروب ، إذ أنه كان على فرنسا أن تدافع فيها على حدودها، وكذلك

على الإمبراطورية الإسبانية الواسعة . وعلى العكس من ذلك كانت النمسا غير مهددة فى ذلك الوقت بقوات العثمانيين ولقد دارت الحرب فى إسبانيا وإيطاليا وألمانيا والأراضى المنخفضة ، وفى شرق فرنسا وشمالها فى نفس الوقت .

وفى بداية الحرب كان للوى الرابع عشر ، وفيليب الخامس ثلاث حلفاء، هم ملك البرتغال، ودوق سافوا ، ومنتخب بافاريا، الأمر الذى سمح للوى الرابع عشر بشن هجوم فى إيطاليا وفى ألمانيا، واجتمع جيشان : الأول من إيطاليا والثانى من فرنسا ، فى بافارياو وبدءا فى الزحف على فينا ، لإملاء شروطهما على الإمبراطور. ولكن مجيء الشتاء ، وإنسلاخ دوق سافوا وانضماهه إلى الإمبراطور ، غير شكل المعركة ، ولم تتمكن القوات ، الموجودة فى بافاريا من العمل .

وشهد العام التالى (١٧٠٤) قيام الدول المتكتلة بتجميع قواتها فى وادى الدانوب : فكان هناك الجيش النمسوى ، الذى أتى من إيطاليا، مع جيش إنجليزى هولندى جاء من الأراضى المنخفضة فاضطر الفرنسيون إلى التراجع إلى الراين من ناحية ألمانيا ، وإلى الألب من ناحية إيطاليا، . وانتهت مرحلة الهجوم الفرنسى بعد أن دامت بالكاد مدة سنتين.

وبدأت مرحلة أخرى دفاعية ، امتدت لفترة إحدى عشر عاما، ودارت معاركها فى إسبانيا، وفى الأراضى المنخفضة الاسبانية، وفى الفلاندر الفرنسية .

أما فى أسبانيا، فإن ملك البرتغال كان قد ترك التحالف مع فرنسا ، وتحول إلى التحالف مع إنجلترا ، سنة ١٧٠٣، الأمر الذى سمح لانجلترا بإنزال قواتها هناك، والزحف مع قوات نمسوية، صوب

مدريـد . واضطر فيليب الخـامس إلى أن يترك مـدريد مرتـين ، خلال الفـتـــرة الممـتـدة من سـنة ١٧٠٦ إلى سنة ١٧١٠ . ولكـــن القـوات الفـرنسـيـة الاسـبـانيـة تمكنت فى نهـاية ١٧١٠ من هزيـمـة القــوات الانجليـزية النمسوية فى موقعة فـيللا فيكيوزا، ونام فيليب الخامس هذه المرة على مرتبة من أعلام فرق الأعداء، وأصبح منذ هذا التاريخ هو سيد إسبانيا.

وأما فى الشمال ، فإن القوات الفرنسية حاولت أولا أن تدافع عن الأراضى المنخفـضة الاسبانية، ثم اضطرت إلـى التقهقر عنهـا بعد سنة ١٧٠٦ وقامت بمحاولت لاستعادتها، ولكنهـا فشلت فى سنة ١٧٠٨ . وجاء شـتاء سنة ١٧٠٩ القاسى ، مع المجـاعة فى فـرنسا، فطلب لوى الرابع عشـر ، فى مفـاوضات لاهاى ، عقـد الصلح ، ولكن المتكتلين طلبـوا منه التنازل عن حـقـوق الوراثة فى العـرش الاسـبـانى ، وعن الألزاس ، وعن كل مواقع الشمال. وكانت شروطا ظالمة . وزاد تماسك الفرنسيين حول ملكهم ، ونشطت حركة التطوع، وصمموا علي ضرورة مواصلة الحرب .

وزحف الفرنسيون الجياع، ودخلت قـواتهم معركة البلاكية ، دون تناول الرجال لطعـام منذ يومين ، وذلك فى ١١ سبتمـبر سنة ١٧٠٩ ، وانتصرت على القوات الانجليزية النمسوية. وانتهز لوى الرابع عشر هذه الفـرصـة ، وأعـاد عـرض الصلح ، ولكن المتكتـلين أهانوا مندوبيـه، وفرضوا عليه التنازل عن الألزاس والفـلاندر، ووافق عليها، ثم فرضوا عليه أن يقـوم هو بعـزل حـفيده عن عرش إسبـانيا،وعندئذ رفض لوى الرابع عشر ، ومادام مجبرا على الحرب ، فليحارب الأعداء بدلا من أن يحارب حفيده .

وأصبح على القوات الفرنسية أن توقف عملية الغزو ، وأن تحارب من أجل الـوطن ، فى الدفـاع عن الفـلانـدر . وتمكنـت قـوات الامبـراطور ، النمسـوية ، من إختـراق خطوط التحـصينات الـتى كان الفرنسيون قد أقامـوها فى الشمال، وبشكل جعل الطريق أمامهم مفتوحا صوب باريس. ولكن المارشال فـيلار قام بزحف سريع صـوب الشمال يومى ٢٣ و ٢٤ يوليـو سنة ١٧١٢ وتمكن من فصل جـيش الأعداء عن قواعـد تموينه ، ثم هزمه فى مـعركة دينان. وكـانت معـركة صغـير ، ولكنها أدت إلى عقد الصلح .

٥- معاهدات أوترخت (١٧١٢) وراستاد (١٧١٤) :

كانت المفاوضات تدور ، منذ بضعـة أشهر، وبطلب من الانجليز، فى أوترخت. وكان الانجليز قد ملوا الحرب ، وأشـفقوا على أنفسهم من المبالغ الطائلة ، التى كـانت تكلفهم، والتى يقال أنها بلـغت خمسين مليون جنيـه ، فى ذلك العصر ، وكـان الافلاس قد أصاب الكثـير من حلفائهم كذلك أما فى مجلس العموم ، فإن الأغلبية انتقلت من الويـجز، محبذى الحرب ، إلى التمورى المسالمين.

وكان الأرشيدوق شـارل ، نتيجة لوفاة أخيـه جوزيف الأول، قد أصبح إمبراطورا، باسم شارل السادس . وكان هو مرشح التكتل لعرش إسبانيـا. وإذا كان الانجـليزقد رفضـوا « إمكانية » توحيد عرشى إسـبانيا وفـرنسا، أصـبحـوا الآن أمـام خط واضح يتمـثل فى توحـيد عـرشى الامبراطورية واسـبانيا. ولذلك فإنهم قرروا الخـروج من التكتل . وبعد محـادثات لندن، ثم مفـاوضات أوترخت. جاء انتـصار الفـرنسيين فى دينان على الهـولنديين لكى يتم عمليـة خروج إنجلترا من التـكتل الموجه ضـد فرنسـا، وذلك فى سنة ١٧١٤. وظل الامـبراطور بمفـرده، ولكن

انتصارا جديدا لقوات فيلار على الراين، أجبر شارل السادس على التوقيع على الصلح فى راستاد سنة ١٧١٤ .

وسوت معاهدات أوترخت . وراستاد مسألة الوراثة الاسبانية، فاحتفظ فيليب الخامس بإسبانيا ومستعمراتها. وتنازل رسميا عن كل حقوق له فى عرش فرنسا، ولم يوافق فيليب الخامس على هذه النقطة الأخيرة إلا بعد ضغط لوى الرابع عشر ، جده ، عليه ، وتهديده بالتخلى عنه وتركه بمفرده فى مواجهة الحلفاء. أما الامبراطور شارل السادس فإنه حصل على الاراضى المنخفضة ، وعلى ميلانو وسردينيا ومملكة نابولى . وأما دوق سافوا فقد حصل على صقلية وأصبح يحل لقب ملك صقلية. وأما إنجلترا فإنها حصلت من إسبانيا على إمتيازات تجارية هامة فى مستعمراتها، تتمثل فى إحتكار تجارة العبيد، وبحقها فى إرسال سفينة إلى ميناء من موانى المستعمرات الاسبانية كل عام للتجارة، كما حصلت على جزيرة مينورقة، وعلى جبل طارق ، مفتاح البحر المتوسط ، وحصلت من فرنسا على نيوفوندلاند ، وعلى الأقليم المحيط بمدخل نهر سان لوران ، الموصل لكندا.

ولكن علينا أن نذكر أن هذه المعاهدات لم تسو بطريقة نهائية مسألة الوراثة الاسبانية ، خاصة وأن كل من شارل السادس وفيليب الخامس رفض التوقيع على الصلح، ورفض الامبراطور الاعتراف بفيليب الخامس ملكا على إسبانيا، كما رفض فيليب الخامس الإعتراف بفقد الأراضى المنخفضة وممتلكاته الايطالية. وسيكون ذلك أساسا لنشوب مشكلات جديدة ، فى بداية حكم لوى الخامس عشر .

وعلى أى حال فإن هذه الحروب انتهت بانتصار انجلترا، التى أصبحت تقوم بدور الحكم فى أوربا الغربية. بعد أن كانت قد حصلت

على العراسل الأولى للنفوق البحرى .

وهزمت فرنسا، ورغم أنها احتفظت بكل ماقامت بفتحه فى عهد لوى الرابع عشر ، إلا أنها أرهقت فى الرجال والأموال. وتوزعت قوتها لمدة ثلاثة عشر سنة ، وبدون أية مصلحة أو فائدة لها، وإن كان من أجل تقديمها ملكا لاسبانيا، ومع ذلك فانها فشلت فى المحافظة على سلامة أراضى مملكة إسبانيا وفى الوقت الذى زاد الجميع من حولها من ممتلكاتهم ، ظلت كما هى ، وفى الوقت الذى كانت تقدر فيه، لم تعمل عل إكمال وحدة أراضيها، وتوصيلها لحدودها الطبيعية .

الباب الثاني
القرن الثامن عشر

الفصل الخامس

فرنسا فى عهد لوي الخامس عشر

كانت فترة حكم لوى الخامس عشر ، هى أطول فترة حكم فى تاريخ فرنسا، بعد فترة حكم لوى الرابع عشر، وامتدت تسع وخمسين سنة (أول سبتمبر ١٧١٥ حتى ١٠ مايو سنة ١٧٧٤). واشتملت على فترة الوصاية حتى سنة ١٧٢٣، ثم فترة الحكم الشخصى . ولقد ترك لوى الخامس عشر . فى فترة حكمه الشخصى ، أمور الحكم فى أول الأمر لكاردينال دى فليرى ، ثم للمحظيات اللتى كن يسقطن الوزراء، ويعينوهم . وفى الداخل ، تسبب الحكم المطلق الموروث عن لوى الرابع عشر ، والمضايقات المالية الناتجة عن التبذير ، فى معارضات قوية ومتكررة من جانب البرلمانات، وأظهرت مساوىء هذا النظام المطلق. أما فى الخارج ، فإن هذا الحكم كان الأكثر شئوما على فرنسا، إذ أنها فقدت فى وقته أهم مستعمراتها، وهى كندا والهند ، وتمهد بذلك الطريق للثورة الفرنسية

١- فترة الوصاية :

وصل لوى الخامس عشر إلى العرش وله من العمر خمس سنوات ، كان إبنا لحفيد لوى الرابع عشر . وكان لوى الرابع عشر قد أوصى بتكوين مجلس وصاية تحت رئاسة ابن أخيه فيليب ، دوق أورليان . ولكن رئيس المجلس عمل على تغيير الأعضاء وعين غيرهم ، حتى يمكنه السيطرة عليهم. ولقد استعان فى ذلك ببرلمان باريس ، الذى وجد فى ذلك التغيير فرصة للتدخل فى الشئون السياسية ، بعد أن كانت اختصاصاته قد أصبحت قضائية فقط .

وبعد أن كانت مواهب دوق أورليان، كقائد ، قد ظهرت فى

حروب لوى الرابع عشر ، نجد أنه يُساير تلك الموجة من التبذل والشرب والتلذذ ، التى سادت فرنسا كرد فعل لحياة الاتيكيت المهيبة فى عصر لوى الرابع عشر ، وكان ظهورها بهذا الشكل، وتغييرها للعادات يعتبر حدثا هاما، ولأول مرة فى تاريخ فرنسا. وسيبدأ ذلك من البلاط، لكى ينتشر فى كل البلاد، وطوال القرن الثامن عشر . أما الظاهرة الثانية ، والهامة كذلك ، فى هذا العصر، فتتمثل فى الصعوبات المالية ، واستخدام طريقة لو (١٧١٦ - ١٧٢١)، ولأول مرة ، لمحاولة التغلب عليها.

وكانت هذه الصعوبات المالية ترجع إلى عهد الحكم السابق، وكثرة الحروب وطول مداها، وكان لوى الرابع عشر قد ترك الخزانة خاوية تماما عهد وفاته سنة ١٧١٥، ولاتشتمل إلا على ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، فى الوقت الذى بلغت فيه ديون الدولة ثلاثة آلاف مليون جنيه!! وكانت الدولة فى حاجة لمبلغ ٨٦ مليون جنيه سنوياالدفع فوائد الديون ، كما كانت فى حاجة سريعة لمبلغ ثمانمائة مليون جنيه لدفع أثمان ما حصلت عليه لامدادات الحرب،ولصرف الديون قصيرة المدى ، ولدفع قيمة أوراق العملة التى كانت قد أصدرتها أثناء حرب إسبانيا، والتى اضطر حاملوها إلى أن يتعاملوا بها بأقل من قيمتها، وبكثير ، مما أفقد ثقة الأهالى فى المركز المالى للحكومة. وكانت إيرادات الدولة تصل إلى ٧٥ مليون جنيه سنويا، أى أنها لاتصل إلى تغطية الفوائد السنوية اللازمة للديون، وفى الوقت ذاته كانت المصروفات العامة تصل فيه إلى ١٤٠ مليون جنيه سنويا .

ولقد فكرت الحكومة فى إعلان إفلاسها، ولكنها عادت واستخدمت طريقة أخرى تتلخص فى فحص الحكومة لسندات الدين، واعتمادها، وبهذه الطريقة ألغت الحكومة ثلثى هذه السندات، ولم

تعتمد إلا الثلث. ومع ذلك ، فقد ظل هذا الثلث موجودا، كديون معترف بها، وظلت الخزانة خاوية .

وفى ذلك الوقت جاء لو ، الإسكتلندى ، وعرض على الوصى طريقة يخفف بها من ثقل الديون على كاهل الحكومة ، وتتلخص فى أن تدفع الحكومة مشترياتها، بصكوك ، قابلة للدفع بعد فترة معينة ، ويمكن لحاملها أن يتعامل بها، كنقود ، مضمونة من الدولة حتى يح وقتها. ويقوم أحد المصارف الكبيرة بقبول هذه الصكوك ، ويحتفظ بها حتى يحين وقت سدادها، فى نظير صكوك أخرى يصدرها هذا المصرف، واجبة الدفع فورا، وهي العملة الورقية ، أو البنكنوت التى تزيد من سيولة التعامل ، وتغطي معاملات المصرف مع الحكومة ، وتضمن حقوق التجار والأهالى . ووافق الوصى على العرش على هذا المشروع، وتم إنشاء مصرف فى سنة ١٧١٦ للقيام بهذه العملية ، وله حقَ امتيار على ديون الدولة لمدة عشرين سنة . وأقبل الأهالى على التعامل بهذه الطريقة ، التى نجحت تماما، وفى مدى عامين تحول هذا المصرف الى مصرف ملكى ، أى أنه أصبح مصرف الدولة .

وكان هذا المصرف أساسا للتنمية الاقتصادية فى ميادين التجارة والصناعة، وذلك عن طريق إنشاء الشركات : فأنشأ شركة الغرب والمسيسبى، ثم شركة الهند الغربية ، التى احتكرت استعمار مناطق لويزيانا ثم شركة الهند الشرقية والصين ، ثم حصل بعد ذلك على احتكار صك العملة ، واحتكار بيع الطابق والملح ، وجمع الضرائب غير المباشرة . وأصدر هذا المصرف أسهما للمشاركة فى رأسماله، وأقبل الأهالى على شرائها إقبالا منقطع النظير .

وكان الأهالى يأملون فى الحصول على أرباح طائلة ، ويحلمون

بالعـثور على الذهب ، فى كـتل ضخـمة ، فى المسـتعـمرات . وربط المصرف بين هذه العـمليات وبعضهـا، وبين شراء أسهمـه وشراء أسهم الشركـات الاستعمارية . وحـاول أن يجعل هذه الشركـات تحل محله ، ومحل الحكومة ، فى الدين العام. وارتفعت قيمة الأسهم التى أصدرها سنة ١٧١٩ إلى أربعين ضعفا من قيمتهـا، نتيجة لدخول المضاربة عاملا هاما فى بيعها وتداولها.

ولكن سرعان مـا اكتشف مشترو الأسـهم أن أرباحها لاتصل إلى أكثر مـن ١٪ ، فأخذوا فى بيع أسهـمهم بنفس الحماس والسـرعة التى كانوا قد أقبلوا بها على شرائها، فأنخفضت قيمتها . وحاول البعض أن يحصل من المصـرف على قـيمة سنداته ، وعجـز المصرف عن الدفع، وساد الذعر، وصـمم الجميع على بيع مـا لديهم من سندات ، بعد أن باعوا أسـهم الشركـات ، وبأى ثمن . إنها الكارثة وحـاولت الدولة أن تتدخل، وتمنع احـتفاظ أي فـرد بما يزيد عن مبلغ خـمسمـائة جنيه من العملة المـعدنية ، إلا أنهـا فشلت ، وبيـعت الأسهم والسندات بعـشر قيمتها الأساسية .

ولقـد أدت هذه العمليـة ، بعـد تصفـيتـها، إلى دفع جـزء من الديون، كما قلت قيمة أرباح الديون وعلينا الا ننسى أن إنشاء الشركات قد ساعد على إحياء الصناعة ، وأعطى نشاطا جديدا للتجارة. وإن كان الدائنون وحملة الأسهم والسندات هم الذين دفـعوا الثمن . وأدت هذه العملية إلي فقر البعض ، وضياع ثرواتهم ، وإلى حصول غيرهم على ثروات طائلة ، نتيجة للمضاربات ، وأثر ذلك على الأخلاقيات العامة، فى التعـامل ، وفى السلوك ، وأصبح الأغنياء الجدد يلعبـون بالأموال، ويتمـتعون بها ، ويشـترون بها كل شىء، فسـاعد كل ذلك على زيادة إنتشار الفساد، حتى فى إدارات الحكومة .

٢- لوي الخامس عشر :

بلغ لوى الخامس عشر سن الرشد سنة ١٧٢٣، وتوفى الوصى الذى احتفظ لنفسه ببعض السلطة، فى نهاية نفس العام. وتزوج لوى الخامس عشر بعد عامين من ابنة ملك بولندا ستانيلاس الذى كان قد فقد عرشه نفس العام وعاش لاجئا فى الأندلس . وبعد أن كان لوى الخامس عشر قد ترك تصريف الأمور لدوق بوربون حتى سنة ١٧٢٦، تركها لكاردينال دي فليرى، الذى كان قد أشرف على تربيته، ولقد حافظ على السلطة مدة سبعة عشر عاما، وحتى وفاته فى سنة ١٧٤٣، وكان ملكا غير متوج لفرنسا، رغم أنه كان نفسه هو الذى علم لوى الخامس عشر أن يحكم بنفسه، كما قام بذلك جده الكبير ، لوى الرابع عشر، من قبل. ولقد عمل دى فليرى على الاقتصاد فى المصروفات، وتنظيم الشئون المالية، حتى تمكن فى سنة ١٧٣٨ من موازنة الايرادات والمصروفات .

وحين توفى دى فليرى سنة ١٨٤٣ ، اعتقد الجميع أن لوى الخامس عشر يحكم بنفسه وكان له ثلاثة وثلاثين عاما، وكان وسيما، وكان محبوبا من الشعب . ولكن سرعان ما ظهرت صفاته وأخلاقه ، كان قد تربى ، منذ صغره، بين الحاشية، التى حاول كل فرد فيها أن يحظى باعجابه وبرضاه، فتملق الملك الصغير، دون أن يجرؤ أحد على توجيهه. وكان قاسيا بطبعه، وشريرا، وكان كسولا. وكان ذلك من سوء حظ فرنسا، خاصة وأن دول أوربا الأخرى كانت تحت حكم ملوك لهم شخصيتهم وقدراتهم فى ذلك الوقت ، فكان هناك فردريك الثانى فى بروسيا، وماريا تريز وجوزيف الثانى فى النمسا، وكاترين الثانية فى روسيا، وكان كل منهم يهتم بمصلحة دولته. وكان لوى الخامس عشر يعلم بخطورة الحالة في بلاده، ولكنه كان لايأبه لها، وترك الحكم فى

أيدى عدد من الوزراء، وعدد من المحظيات. وكان يعيش عيشة تلذذ، فى فرنساى وينظم الحفلات، ويخرج للصيد ، ويعيش بين المحظيات، وفى إنحراف واضح ، وبخاصة منذ سنة ١٧٥٠. وانقلبت محبة الشعب له إلى كراهية. حتى أن جماهير باريس هددت بالهجوم على قصر فرساى وحرقه .

واشتهر من المحظيات فى عهده دوقة شاتورو حتى توفيت سنة ١٧٤٤،واحتلت مكانتها ماكيزه بومبادور ، التى كانت الرابعة والعشرين، وكانت جميلة وطموحة، وهى التى أصبحت عشيقة علنية. ولها جناحها فى قصر فرساى، وظلت تتصرف فى شئون الدولة لمدة عشرين عاما، وحتى سنة ١٧٦٤. وكانت تتحدى الوزراء، وتعينهم وتقيلهم، كما كانت تصدر الأوامر لفرق الجيش. وكانت آخرهن هى كونتيسه بارى، التى كانت من أصل متواضع، وقدمت للبلاط، فزوجها الملك من أحد أعضاء حاشيته، واحتفظ بها فى البلاط، وفى القصر .

٣- الحكومة والمالية :

ظلت الحكومة فى عهد لوى الخامس عشر، كما كانت فى عهد لوى الرابع عشر، حكومة مطلقة، والسلطات كلها فى أيدى الملك، الذى يحكم بالحق الإلهى. وكانت هناك بعض الصعوبات التى واجهت الحكومة، بدأت فى أول الأمر مع مشكلات دينية، ولكن هذه الصعوبات ستتبلور بعد ذلك فى شكل الصعوبات المالية، وهى التى ستخلق حركات معارضة للحكومة .

ولقد أنفق لوى الخامس عشر ٣٩٠ مليون جنيه على بناء القصور، وعلى الحفلات والمحظيات. فإذا أضفنا إلى ذلك تكاليف حروب ثلاث: حرب الوراثة البولندية، وحرب الوراثة النمسوية ،

وحرب السنوات السبع ، يمكننا أن نفهم سبب خراب المالية الفرنسية فى عهد لوى الخامس عشر .

وكان القصير ينفق ببذخ، وبدون حساب أو محاسبة ، وأنفق فى سنة ١٧٤٥ وحدها ٢١٠ مليون جنيه، وذلك فى الوقت الذى بلغت فيه إيرادات الحكومة الفرنسية ١٤٧ مليون جنيه، فى نفس السنة وحصلت مدام دى بومبادور على ٣٦ مليون جنيه فى ١٩ سنة، ومدام دى بارى على ١٨ مليون فى ثلاث سنوات .

وكانت مخصصات أمراء الأسرة المالكة تتراوح بين نصف مليون جنيه وتسعمائة ألف جنيه سنويا، علاوة على دفع ديونهم من وقت لآخر. وأدت هذه الحالة إلى عجز الحكومة عن دفع مشترياتها، وحتى عن دفع رواتب الجنود والضباط فى الجيش والبحرية، ولمدة شهور طويلة .

ولقد حاولت الحكومة مواجهة هذه الحالة عن طريق فرض ضريبة تبلغ ٢٠٪ على الإيراد، وعلى أن تطبق على كل الطبقات، فى سنة ١٧٤٩ ، وبعد حرب الوراثة النمسوية ولكن البرلمان رفض تسجيلها، وقام الملك ، من ناحيته، بإعفاء النبلاء ورجال الدين منها، وتركها مفروضة على رجال الطبقة الثالثة وحدهم. وبدلا من ترك هذه الضريبة لتسوية الدين العام، دخلت فى الميزانية العامة، التى كان القصر ينفق منها كما يرغب .

وبدأت معارضة واضحة فى الظهور إبتداء من سنة ١٧٥٠ لمقاومة الرغبات الملكية، وتركزت فى البرلمان فى باريس ، الذى إنضمت إليه برلمانات الأقاليم. وسادت فكرة أن الملك ملك بالقانون، وأنه لايمكنه أن يحكم إلا بالقانون. وهكذا تحولت البرلمانات عن إختصاصاتها القضائية،

وتحولت إلى ميدان عـمل سياسى، ولمراقبة أعمـال الحكومة. وطلبوا إلى الملك، طبقا لذلك، أن يقدم لهم إيرادات الدولة وديونها، حتى يتمكنوا من علاج الموقف .

ولكن الملك إستمـر على طريقته، وبعد أن رفض البـرلمان تسجيل الضرائب كـان يذهب بنفسه إلـى البرلمان ويأمر بتـسجيلهـا، وحين قام أعضـاء البرلمانات بالإضراب، وقدمـوا إستقـالات جماعيـة، قام الملك يتعقـبهم، وأصدر أوامره بنفيهـم. وفى سنة ١٧٧٠ أمر الملك البرلمانات بعدم الاتصال ببـعضها، وأصدر قرارات بنفى المعـارضين له من أعضاء البرلمانات، خارج باريس،وخارج فرنسـا. وكان لوى الخامس عشر يمهد لفرنسا الطريق، لكى تصل إلى الثورة .

وعلينا أن نذكر أن فـرنسا قد دخلت فـى أثناء حكم لوى الخامس عشر فى ثلاث حروب : هى حـروب الوراثة البولندية ، وحرب الوراثة النمسويـة، وحرب السنوات السبع، وأن معـارك هذه الحروب قد دارت فى أوربا، وفى أمريكا، وفى آسيا، وكلفت فـرنسا ثمنا باهظا، هو فقد إمبراطوريتهـا الاستعمارية. ومع ذلك فإن فـرنسا حصلت على اللورين سنة ١٧٦٦، وعلى جزيرة كـورسيكا سنة ١٧٦٨، وفى العـ[illegible] ، ولد نابليون بونابرت فى هذه الجزيرة .

٤- الفكـر الجديد :

كان لسوء الأحوال المالية لحكومة فـرنسا، بعد حروبها الطويلة فى عصر لوى الرابع، ولسوء الأحوال الاقـتصادية فى البلاد، وما تبع ذلك من سوء الأوضاع الاجتماعية ، نصيبا وافرا فى تفكير عدد من المفكرين فى ضرورة إصلاح هذه الأحوال والأوضاع.

وجـاء نظام الحكم المطلق ، لـكى يظهـره بأنه المسـئول عن نظم

الحماية الاقتصادية ، وعن طريق إفلاس الحكومة . وزاد ظهور الخطر مع إنصراف لوى الخامس عشر عن شئون الحكم، رغم أن سلطاته كانت مطلقة، وتركه الأمور إلى عدد من المحظيات. واتجهت الأنظار إلى إنجلترا، ورأت حرية المواطن، وحرية التعبير عن الرأى ، وتقييد سلطة الملك ، والإزدهار الاقتصادى ، وأصبحت المقارنة صعبة بين البلدين، وبعد أن كانت فرنسا مسيطرة على أوربا فى عهد لوى الرابع عشر. فظهرت فى فرنسا مجموعة من المفكرين والفلاسفة نقدوا ما كان موجودا فى بلادهم من حكم مطلق، وظلم إجتماعى، وعدم تسامح فى الشئون الدينية، ونظام الحماية الاقتصادية. ووجد رجال الاقتصاد أن طريق علاج الدرسات الاقتصادية وكساد التجارة يتطلب تطبيق مبدأ حرية التجارة ، والعمل على إلغاء القيود المفروضة على الصناعة والتجارة كما وجد رجال السياسة أن طريق علاج نظام الحكم يتطلب ضمان المساواة والحرية ، وإعادة الحقوق الطبيعية للأمة . وكان أشهرهم مونتسكيو، وفولتير ، وروسو .

أما مونتسكيو فكان من النبلاء، وكتب أبحاثا كثيرة، فى موضوعات شتى، ولكن أشهر كتبه كان هو « روح القوانين ». ولقد حلل فى هذا الكتاب نظم الحكم الموجودة فى بلاد مختلفة، ولظروف نشأة كل منها، خرج من ذلك بأن النظام المطبق فى إنجلترا هو أفضلها وأرقاها، فهو يمنع طغيان الحاكم وإستبداده، ويفصل بين السلطات، وهى السلطات التشريعية ، والتنفيذية، والقضائية. ووجد أن السلطة المطلقة للملك، كما كان عليه الحال فى فرنسا، هى أساس الظلم والمآسى المنتشرة فى البلاد. وطالب بضرورة إقتباس نظام الحكم الإنجليزى ، والفصل بين السلطات، وإعطائها إستقلالها، حتى تستقر شئون الحكم ، كأساس لكل إصلاح .

وأما فولتير فكان قد ذاق السجن فى حياته مرتين : الأول حين طعن فى حكومة الوصاية على لوى الخامس عشر ، والثانية حين تخاصم مع أحد النبلاء .

ولقد سافر بعد ذلك إلى إنجلترا، وأعجب بنظم الحكم وسيادة الحرية فيها. ولقد نشر «رسائل فلسفية» أظهر فيها مساوىء الحكم المطلق، ومزايا الحكم النيابى. وأمرت حكومة فرنسا بإحراق هذا الكتاب. وفر فولتير إلى الخارج، واتصل ببلاط فردريك الأكبر ، ملك بروسيا، ثم نشر كتابه عن « عهد لوى الخامس عشر »، الذى ساعد على شهرته، فى كل أوربا. ونقد فى هذا الكتاب كل مفاسد الحكم المطلق، وشهر بها وبوسائلها وأساليبها. من تعذيب واضطهاد وعدم مساواة وتبع ذلك بمجموعة من المقالات والرسائل، حمل فيها بشدة وبنقد مرير على الأنظمة الموجودة ، وساعد على هدمها، وإن لم يضع خطة بناءة لما سيجىء بعدها.

وأما روسو فإنه حاول أن يضع نظاما جديدا، شرحه بعد أن هاجم النظم الموجودة. وكتابه « العقد الاجتماعى » يقوم على أساس أن الناس جميعا ولدوا أحرارا ومتساوين فى الحقوق ، وأنهم انضموا إلى بعضهم لإقامة حكومة تعمل بإرادتهم، وتستمد سلطتها منهم، وتعمل من أجل ضمان حريتهم ومساواتهم. وفى حالة إخلال الحكومة بشروط هذا العقد ، يجب عزلها. وكان هذا الكتاب هو إنجيل الثورة الفرنسية .

أما فى ميدان الاقتصاد، فإن كل من كيسناى ودى جورناى قد عمل على مهاجمة الأوضاع الاقتصادية الموجودة. ونشر الأول منهما كتابين هما « بيانات اقتصادية » و « المبادىء الاقتصادية للبلاد الزراعية»

ولقد أخطأ حين قصر المصدر الوحيد للثروة على الأرض ، فى

الزراعة والمناجم. ولكن دى جورناى أضاف الصناعة إلى مصادر الثروة، وخرج من ذلك إلى ضرورة إعادة النظر فى الحواجز الجمركية ، وقوانين النقابات ، التى تحد من نشاط الزراعة والتجارة، وإلى ضرورة الاعتماد على حرية العمل وحرية التصدير والاستيراد، لضمان النمو.

وعلينا ألا ننسى تلك المجموعة التى عملت فى دائرة المعارف ، والمعروفة باسم الانسيكلوبيديين، وهى التى نشرت مجموعة من البيانات عن موضوعات شتى، فى ذلك القاموس الضخم ، الذى يضم السياسة والتاريخ والاقتصاد والمعارف. وكانت أساسا لزيادة المعرفة .

وساعد كل ذلك على ظهور هذا الفكر الجديد، انتشاره مما يفتح الآدهان، ويمهد للتغيير .

الفصل السادس

إنجلترا في عهد أســرة هانوفر

مرت إنجلترا بفـترة مجيـدة فى تاريخها أثناء القرن الثـامن عشر، وتميـز هذا القرن بميـزات ثلاث، بالنسبـة لإنجلترا. فـفى الخـارج، قام الإنجليز بالإسـتيلاء على أهم أقاليم إمـبراطوريتهم الاستـعمارية، وهى الهند وكندا. أما فى الداخـل، فإنهم دعموا النـظام البرلمانى، أى حكم الأمة عن طريق ممثلها، وكان ذلك نتيجة منطقية لثورة سنة ١٦٨٨، التي انتصر فيها مبدأ سيادة الشعب، ولوصول أسرة حاكمة جديدة، هى أسرة هانوفـ ، للملك ، والتى كـان الملكان الأولان منهـا شبـه غـريبين عن المملكة. وحـاول الملك الثـالث منها، وهو جـورج الثـالث ، أن يعيـد للملك نفوذا مسيطرا على الحكومة، الأمر الذى أدى إلى أزمة دستورية، امتـدت لما يزيد على عـشرين عامـا (١٧٦٠-١٧٨٣)، ولكنها انـتهت بتدعيم النظام البرلمانى .

وأخـيرا، فـإن القرن الـثامن عـشر هو الـذى شهـد بدء الحركـة الصناعية فى إنجلترا، التي ستـصبح، فى القرن التالى ، هى أولى الدول العظمى الاقتصادية فى العالم .

١- أسـرة هانوفر :

كـانت ثورة سنة ١٦٨٨ قـد أكدت سـيادة الـشعب الإنجليـزى، وكانـت قد اختـارت ملكهـا، وانتخـبت الملك وليم أورانج والملكة آن، وفرضت عليـهم أن يتعهـدوا بالقسم على احـترام الحقـوق المحددة فى تصريح رسمى . وكـان على الملك ، طبقا لهذا الـتصريح ، ألا يوقف سريان القـوانين، وألا يفرض ضـرائب ، أو يجند ويحتـفظ دائم وقت السلم، دون موافقـة البرلمان ، ونص على أن تكون إجتمـاعات البرلمان

ومناقشاته حرة . وكانت كل أسس النظام البرلمانى موجودة فى هذا التصريح. واضطر الملوك، في أوائل القرن الثامن عشر ، إلى احترامه، خاصة وأنهم كانوا من أسرة حاكمة جديدة، هى أسرة هانوفر ، التى لم تكن لها جذور فى البلاد.

وعند موت الملكة آن ، تحول التاج إلى منتخب هانوفر ، الذى كان حفيدا لجيمس الأول ، عن طريق والدته، وأصبح جورج الأول ملك إنجلترا سنة ١٧١٤ . ولقد أدى ذلك إلى نشوب ثورة فى إسكتلندا، ملتفة حول جيمس الثالث ، وتمكن الإنجليز من القضاء عليها. ولكنها كانت فى غاية الأهمية بالنسبة لإنجلترا، إذ أنها أجبرت ملوك إنجلترا الجدد على الحذر ، وعلي عدم الاصطدام بمشاعر الجماهير، فسهل ذلك عملية تدعيم النظام البرلمانى .

وحمل ملوك أسرة هانوفر اسم جورج : جورج الأول (١٧١٤-١٧٢٧)، وجورج الثانى (١٧٢٧-١٧٦٠)، وجورج الثالث (١٧٦٠-١٨٢٠). ووصل جورج الأول إلى الملك وله من العمر ٥٤ سنة. وكان يعيش بين الشراب والمحظيات، كان ألمانيا، لايتحدث الإنجليزية، وكان يتحدث مع وزرائه باللاتينية. أما ابنه ، جورج الثانى فكان يفهم الإنجليزية ، ولايقدر على التعبير بها. وظل كل منهما منتخبا هانوفر، فى نفس الوقت الذى كان فيه ملكا على إنجلترا، وكان يفكر فى لهانوفر ، أكثر مما يفكر فى إنجلترا، وربما نظروا إلى إنجلترا على أنها من ملحقات هانوفر. وساعد كل ذلك على قلة حضورهم إجتماعات ومداولات مجلس الوزراء، وتركوا الوزراء يحكمون بأنفسهم بعد ست وثلاثين عاما من هذا « الغياب الملكى » ، تدعم التقليد بأن الملك يملك ولا يحكم ، فى إنجلترا .

وهكذا أصبحت السلطة فى أيدى رؤساء الحزب الاقوى فى البلاد، وهو الحزب الذى يسيطر على الأغلبية فى البرلمان. وكان فى إنجلترا حزبين كبيرين، هما حزب الويجز وحزب التورى. وكان حزب الويجز يشتمل على أفراد من الأسر الأرستقراطية، وسكان المدن والموانى ، أى رجال الأموال ، مع التجار والصناع، كما كان يضم المنشقين ، والبيوريتان والمستقلين ، واللاجئين الفرنسيين الكلفنيين ، متحدين فى عدائهم ضد الكاثوليكية . وعلى عداء كذلك للمذهب الأنجليكانى. ولما كان الأمن والسلام الداخل هما أساس الإزدهار الصناعى والتجارى، فإنهم كانوا يرغبون فى أكبر قدر ممكن من الحرية، والضمانات، ضد استبداد الحكام. ولذلك فإن الويجز كانوا هم المدافعين عن امتيازات الشعب، وعملوا على تحديد السلطة الملكية، باسم مصلحة الشعب وفى سبيلها: أما حزب التورى ، فكان يشتمل عموما على كبار ملاك الأراضى الزراعية، وعلى الأنجليكان. وكانوا يدافعون عن الامتيازات الملكية، وكما كانوا من أنصار سياسة تقوية السلطة الملكية، وقيامها بدور رئيسى، فى الدولة ، وكان من المنطقى أن يحاول الملوك الاستناد إلى حزب التورى، ولكن الكثير من بين أعضاء هذا الحزب كان يشك فى أنهم على صلات بأسرة ستيوارت السابقة.. ولذلك فإن ملوك أسرة هانوفر تركوا السلطة فى أيدى حزب الويجز، الأمر الذى أدى بالتالى إلى تحطيم السلطة الملكية نفسها .

ولقد احتفظ الويجز بالسلطة خلال ما يقرب من نصف قرن بدون انقطاع ، من سنة١٧١٤ إلى سنة ١٧٦٠، وحتى وصول جورج الثالث إلى العرش ، وكان أشهر وزرائهم هو ستلنهوب ، ووالبول ، ووليام بيت .

ولقد اتبع ستلنهوب سياسة سلام خارجى ، وتحالف مع فرنسا

سنة ١٧١٧ . أما فى الداخل فقد أصدر قانونا زاد فيه مدة انعقاد البرلمان من ثلاث إلى سبع سنوات ، مما أعطى استقرارا لممثلى الأغلبية البرلمانية للبقاء فى الحكم، وكانت من حزب الويجز .

أما روبرت والبول فإنه إستمر فى الوزارة مدة إحدي وعشرين عاما (١٧٢١-١٧٤٢). وكانت من كبار الملاك العقاريين ، وسار على سياسة فى صالحهم : فعمل على استقرار السلام الدخلى، وحافظ على التحالف مع فرنسا فى الخارج. وشجع نمو الصناعات الوليدة فى الداخل.

ورغم أن كل الدول كانت تسير على سياسة الحماية الجمركية فى ذلك الوقت ، وأقفلت على نفسها الأبواب والنوافذ، اتبع والبول سياسة حرية التجارة ، أو حرية التبادل ، فأعطى حرية التجارة للمستعمرات، وشجع استيراد المواد الأولية اللازمة للصناعة إلى إنجلترا، كما شجع على تصدير المصنوعات، الأمر الذى أدى إلى إزدهار بريستول وليفربول ومانشستر وبرمنجهام، وضاعف حجم صادراتها للخارج، وضاعف من الأزدهار.

ولكن فترة حكمه تميزت من ناحية أخرى بالإنحراف، وبخاصة فى عملية شراء أصوات الناخبين ، وتميزت كذلك بإفادة كل من فرنسا وإسبانيا من هذه القرارات لكى يزيدوا من حجم مبادلاتهم مع المراكز الإنجليزية. وحين انتهت فترة حكمه، كان الإنحراف قد إزداد ، وظهر فى شكل خلاعة ، وإسراف فى الشرب، وشراء الذمم وفى الرشاوى، الأمر الذى ساعد على قيام حركة «الميثوديست» فى إنجلترا من ناحية، وإلى انتقال السلطة الوزارية إلى أيدى مجموعة من الشبان حزب الويجز ، بزعامة وليام بيت ، من ناحية أخري .

وكان وليام بيت لايقنع بمجرد تفوق بريطانيا، بل أنه سار، مع

إنتشار الموجة الأخلاقية والوطنية الجديدة، صوب ضرورة توجيه ضربات قوية لمنافسى إنجلترا، والعمل على تحطيمهم، وبخاصة فرنسا. ولقد وصل إلى الوزارة فى سنة ١٧٥٧، وكان الفرنسيون يوجهون ضربات لإنجلترا فى البحر المتوسط. وكندا، وألمانيا، وبشكل يهدد بغزو إنجلترا نفسها. وحين ترك الوزارة بعد سنوات ، فى شهر أكتوبر سنة ١٧٦١، كانت إنجلترا قد أخذت من فرنسا كندا والهند والجزء الأكبر من مستعمراتها.

٢- نظام الحكم :

وعند وفاة جورج الثانى سنة ١٧٦١ لم يكن هناك أي نص دستورى جديد قد أضيف إلى العهد الأعظم سنة ١٢١٥، وعلى مطالب الحقوق فى سنة ١٦٢٨، وإعلان الحقوق سنة ١٦٨٨ . ولكن التقليد كان قد اتضح بأن نظام الحكم فى إنجلترا موزع بين الملك والوزراء والبرلمان .

وكان الملك هو الذى يعين الوزراء. وكبار الموظفين وكبار الضباط طبقا لتوجيهات الوزراء، كما يصدق على القوانين المالية ، وكانت الأخطاء، فى حالة حدوثها، ترجع إلى الوزراء، فكان الملك إذا « غير مسئول » .

وكان الملك يختار الوزراء من بين أعضاء البرلمان، الذين يدخلون إليه، ويناقشون فيه. وكان من الطبيعى أن يكونوا من حزب الأغلبية، ويحظون بتأييدها، وكان مجلس الوزراء رئيس ، هو فى الغالب زعيم حزب الأغلبية فى البرلمان. وكان الوزراء متضامنون، أى مسئولون عن قرارات كل واحد منهم، وكان على الوزارة أن تستقيل إذا ما سحب البرلمان الثقة من أحد الوزراء، وكان من حق الوزارة حل البرلمان، كما كان من الممكن محاكمة الوزارة أمام مجلس الشيوخ. وفى حالة انتخاب

نواب معادين للوزارة ، فعلى الوزارة أن تستقيل. ونظام الحكم هذا، عن طريق وزراء من مجموعة الأغلبية فى البرلمان ، هو نظام الحكم البرلمانى: أى حكم البلاد برؤساء أغلبية نوابها .

وكان البرلمان يجتمع فى لندن ، فى قصر وسبيتمنستر، وظلت مناقشات سرية حتى منتصف القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت علنية . وكان البرلمان يضم مجلس اللوردات ، ومجلس العموم ، وكان مجلس اللوردات بالتعيين من جانب الملك هو الذى يمنح ألقاب النبل، أما مجلس العموم فكان يضم نوابا عن الأقاليم. وآخرين عن المدن .

وعلينا أن نذكر أن نظام الانتخابات لمجلس العموم كان لايعطى تمثيلا صحيحا للبلاد، إذا أنه كان لايشترك فى انتخاباته سوى الملاك الأحرار، والبورجوازيون الأحرار . وكان التغير الاجتماعى الذى حدث مع عمل بعض الأهالى فى الصناعة، وقلة أهمية بعض المدن ، وقلة عدد سكانها، وزيادة عدد سكان مراكز عمرانية جديدة، يتطلب القيام بإصلاح انتخابى ، حتى يكون التمثيل صحيحا.

٣- جورج الثالث وسياستة :

ولقد ساعدت ظروف انتخاب مجلس العموم على تلك المحاولة الرجعية لإعادة السلطة الشخصية للملك ، وهى المحاولة التى قام بها جورج الثالث من سنة ١٧٦٠ إلى ١٧٨٣ .

وكان جورج الثالث ، هو حفيد جورج الثانى ، وكان مختلفا عن سابقيه، فكان له من العمر إثنى وعشرين عاما حين تولى الملك، وكان قد ولد وتربى فى انجلترا، فكان إنجليزيا فى كل شيء . وكانت والدته تدفعه إلى أن يعطى الملك هيبة جديدة، ويتدخل فى الشئون، ويكون ، رغم أنه فوق الأحزاب ، هو رئيس الوزراء الفعلى. وكانت كل

مجهودات جورج الثالث تهدف إلى إنهاء سلطة الحكومة البرلمانية ، ومحاولة إقامة حكومة شخصية .

ولقد استعان جورج الثالث فى ذلك بحزب التورى ، الذى كان نفوذه قد تضاءل، واضطر إلى التسليم لأسرة هانوفر ، حتى يصل إلى الحكم، الذى ظل بعيدا عنه أكثر من سبعين سنة . وكانوا من أنصار المحافظة على إمتيازات الملك، ويطبقوا نظريتهم فى الحكم. كما أن جورج الثالث إستخدم الرشوة لشراء عدد من نواب الويجز، حتى يساعدوا التورى فى البرلمان، واستخدم الرشوة فى شراء الناخبين. ولقد طبق جورج الثالث هذا الاتجاه منذ أولى حكمه ، ولكنه لم يعدل إلا بعد تسع سنوات ، أى سنة ١٧٧٠ إلى أن تكون له وزارة ، تابعة له بمعنى الكلمة، وكانت برئاسة لورد نورث الذي احتفظ بالحكم لمدة اثنتى عشر سنة (١٧٧٠ - ١٧٨٢) .

ولكن هذه السياسة الشخصية والمستبدة كانت لها آثارا سيئة فى الخارج، فتسببت فى عدم الرضاء، ثم المقاومة (١٧٦٥-١٧٧٤)، كتمهيد للثورة، ولفقد المستعمرات فى أمريكا الشمالية، وهى التى ستتحول، بتأييد من فرنسا، إلى الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٧٤ -١٧٨٣).

وكانت لها آثارا سيئة فى الداخل ، وأثارت معارضة وطنية قوية ضد الاتجاهات الملكية الجديدة، الأمر الذى أدى إلى نمو الصحافة من جانب ، وإلى إثارة فكرة ضرورة القيام بإصلاح النظام الانتخابى، من جانب آخر. ولقد كان ظهور صحف التايمز، والمورننج بوست ، والمورننج كرونكيل، والمورننج هيرالد، يرجع لهذا العصر .

وفى أثناء حرب أمريكا (١٧٧٤ - ١٧٨٣)، ونتيجة لسياسة الملك

الشخصـية ، حدث تغيير فى تكوين الأحـزاب . فانضم بعض الويجز لحزب التوري ، والعكس ، كما قامت تكتلات فى مجلس العموم، بين بعض الويجـز وبعض التورى. وتمكـنت إحدى هذه التكتـلات، والتى كانت تحت زعامة الويجـز، من اسقاط وزارة لورد نورث سنة ١٧٨٢ . وقام الملك بتـكليف ابن لورد شاتام ، بيت الصـغير ، بتكـشيل الوزارة وحين وجد مـعارضـة من مجلس العـمـوم ، وكان يسـتند إلى رضـاء الملك ، وإلى محـبة الأهالى له شـخصيـا، قام بحل مجلس العـموم، وأجرى انتـخابات جـديدة سنة ١٧٨٤، أعطته الأغـلبية ، وضـمنت له الوزارة لمدة تقرب من عشرين عام، وهى الوزارة التى ستدخل إنجلترا فى حرب إبادة ، ضد فرنسا وثورتها .

٤- الحرية السياسية والنمو الاقتصادي :

وهكذا كانت الأزمة الدستـورية التى بدأها جورج الثالث فى سنة ١٧٦٠ والمجـهودات التى بذلهـا من أجل إعادة الحكومـة الشخـصيـة المطلقة، قد انتهت بعد ٢٤ سنة ، إلـى انتصار النظام البرلمانى . وكانت إنجلترا قد ظلت فى أشد أوقات هذه الأزمة حلاكا، هى الدولة الأوربية الوحيـدة التى رفضتا الخضوع لإرادة المـلك ، وظلت تشرف ، سنويا، على المصروفـات العامة للمـيزانية ، وظل المواطنون فـيها يشـاركون فى إدارة شئونهـا، وفى ظل القانون الذى يحمى أملاكهم وحـريتهم، وضد السلطة المطلقة للحكام . وكـان القضاء يحكمون على الوزراء بالغرامة، ويفرجون عمن قام الوزراء بأعتقالها بدون وجه حق .

وكان الفرنسيون والأجـانب، المقيمون فى إنجلترا فى ذلك الوقت ، يكبـرون هذه النظم ، ويرغـبون فى تـطبيـقـها فى بلادهم ، وأخـذوا يعشقون حرية التحدث، والكتـابة ، والطباعة ، وحق الاجتماع، وحق

الاشتراك ، كما حدث مع مـونتسكيو . وكان لكل ذلك تأثيرا على أوربا وعلى طريقة تفكيـر أهلها، أمتد على القارة الأوربيـة من الغرب صوب الشرق ، وسـيكون له أكبر تأثيـر على فرنسا، وعلى سـلطة ملكها فى فرساى .

ولقـد ساعد نـظام الحريات على نمو إنجلتـرا فى جمـيع المرافق. وشهد القـرن الثامن عشر، وبخاصـة إبتداء من سنة ١٧٦٠، نمو الثروة الاقتصادية، وبعد أن كانت إنجلترا بلدا زراعيا، بدأت فى أن تتحول إلى بلاد صناعة كبيـرة . ورجع ذلك إلى زيادة عدد سكانها، الذي تضاعف فيـما بين عامى ١٧٠٠و ١٧٨٠. وجـاء اكتشاف طريـقة معالجـة خام الحديد بالفحم، بـعد أن كان يعالج بالخشب، لكى يجـعل من إنجلترا. الفنية بالحـديد والفحم، قاعدة للـصناعات المعدنية، لم يقـدر أحد على منافسـتها لفتـرة طـويلة.ومنذ سنة ١٧٦٧، جاء إعداد الأنهـار ، وحفر الترع، وشق قناة فيما بين ليفربول ومانشستر، لكى يعطى لإنجلترا شبكة كاملة وقوية لمواصلات تسمح بالنقل بأسعـار زهيدة لكميات ضخمة من المواد الخـام. وتم فى نفس الوقت اختـراع عـدد من الآلات لمعـالجـة القطن، وغزله. ولقـد أضاف وات ، لهذه الصناعات، الحـركة ، حين أدخل التـعـديلات على آلتـه التجـارية (١٧٦٩- ١٧٧٩). ورجع إليـه الفـضل فى أن تتـحول هذه الآلة إلى مـولد للطاقـة. وكـان ذلك يعنى إضافـة ملايين من السـواعد، الآليـة، والتى تعمل بالبـخار. لسـواعد الإنجليـز، مما يزيد من قوة إنجلتـرا ويجعل منهـا أول دولة صناعيـة فى العالم .

الفصل السابع

روســيا : بطرس الأكبر وكاترين الثانية

فى أثناء القرن الثامن عــشر ، تغيرت الخريطة السيــاسية والتوازن الدولى بعمق فى شمال أوربا وشرقها. وبدأت عظمة دولتين هما روسيا وبروسيا، وضعف دولتين آخرتين ، هما السويد وتركيا. وفقدت السويد تلك السيطرة والتــفوق التى كانت قــد حصلت عليهــا فى أواسط القرن السابع عشر، وحــافظت عليها بصعوبة خلال خمــسين عاما، وسقطت تركيا من تلك الوضعية التى كانت تجعل منها دولة تمثل خطرا على أوربا المسيحيــة، والتى كانت قد وصلت إليها منذ نهاية القــرن الخامس عشر، وإحتفظت به ما يقــرب من قرنين كاملين، ونرى فى ذلك الوقت كذلك، إختفــاء دولة ثالثة ، هى بولندا، الى قام جــيرانها ، روسيــا وبروسيا والنمسا بتقسيمها فيما بينهم .

وكانت روســيا ،التــيكانت شبــه آسيوية فى أثنــاء القــرن السابع عــشــر ، قد حــاولت تحت حكم أســرة رومــانوف الجــديدة، أن ترتبط بأوربا، أثناء القرن الثامن عشــر ، وأخذت مكانها بين الدول العظمى . ووصلت إلى ذلك على مــرحلتين : فــقادهــا فى المرحلة الأولى بطرس الأكبر، وتمكنت فــيها من تحطيم سيطرة الســويد على بحر البلطيق، ثم وصلت مع كاترين الثانية إلى الغاء مملكة بولندا. وفى نفس الوقت الذى عمــل فيــه بطرس الأول على جعل روســيا دولة أوربيــة ، من الناحــية السياسيــة ، عمل كــذلك على تغيير عادات شعب روســيا، وفرض عليه الحضارة الاوربية. وواصلت كــاترين الثانية هذا العمل الذى بدأه بطرس الأول ، وأكملته .

١- بطرس الأكبر :

وصل بطرس إلى عرش القيصرية فى سنة ١٦٨٢، وكان له من العمر تسع سنوات ، وتميز بالذكاء. وكان من المفروض أن يظل تحت وصاية والدته، ولكن إحدى أخواته استولت على هذه الوصاية، واحتفظت بها مدة سبع سنوات .

ولقد أرسلته أخته إلى إحدى القرى القريبة من موسكو، والتى كانت مخصصة للاقامة الإجبارية للأجانب ، وكانت تضم السفراء والتجار والباحثين عن الوظائف فى روسيا، وكان يقيم فيها عدد من الألمان والهولنديين والأسكتلنديين. وأثر ذلك على تربية بطرس، وعلى تفتح آفاق فكره منذ صغره. وفى سنة ١٦٨٩، عرف بطرس أن أخته قد أعطت نفسها لقب القيصرية، وأنها أعلنت عزمها على الإحتفاظ به، فقام بمساعدة أعوانه بالهجوم عليها، وحبسها فى أحد الأديرة وإستولى على الحكومة .

وكان إتصال بطرس بالأوربيين فى موسكو من أهم أحداث صباه، والعامل المقرر فى حياته كلها، فلقد تعلم عنهم بعض الألمانية والهولندية، ومبادىء العلوم والحساب والهندسة ، وإستكشف عن طريقهم بعض مظاهر الحضارة الغربية الأمر الذى حرك فيه الرغبة فى فرض هذه الحضارة على إمبراطوريته، التى كانت أهلها يعيشون معيشة شبه آسيوية .

وكانت روسيا فى حاجة ، لكى تصل إلى ذلك، إلى أن تتصل بالغرب. ولكن السويد كانت تسيطر على سواحل بحر البلطيق، وتمنع روسيا من الوصول إليه. أما تركيا فإنها كانت تسيطر على مصبات الدون والدنيبر، وتمنع روسيا من الوصول إلى البحر الأسود، وكانت

بولندا تمنع روسيا من الإتصال بوسط أوربا. ولذلك فإن بطرس كان فى حاجة إلى فتح نافذة تطل على أوربا، فأصبحت مهمته مزدوجة، وتتلخص فى ضرورة « تطوير » روسيا من الداخل، « وتغيير » حالتها الخارجية . وأتفق بطرس ستة وثلاثين عاما من حكمه (١٦٨٩-١٧٢٥) للوصول إلى هذين الهدفين .

وكان بطرس ضخم الحجم ، ويصل طوله إلى مايزيد على المترين، ولكنه كان خفيف الحركة، ويتميز بقوة غير عادية،وبقوة تحمل لاتوصف. لفترة ٤٨ ساعة، وبمنتهى النشاط. وكان لايطيق البقاء بدون عمل ، ويعيش فى حركة دائمة ، يسافر فى إمبراطوريته، ويصدر الأوامر، ويقود وحدات جيشه ، أو إحدى السفن ، ويخطط المدن الجديدة، ويعمل نجارا فى دار صناعة السفن ، ويبنى المنازل ، ويجرى العمليات الجراحية ، وينزع الأسنان . وكان يمثل طاقة جثمانية، فى الوقت الذي تميز فيه بالذكاء . ولكنه كان ينقل ، دون أن يبتكر، أو حتى يختار ما يلائم بلاده، ولذلك فإن روسيا أصبح لها، مع تطويره لها، جيش ألمانيا، وأسطولا هولنديا ، وإدارة سويدية. وكان يتميز بالمثابرة للوصول إلى أهدافه،مهما صادف من عقبات ومعوقات. ... كلماته المأثورة : « إن السويديين سيحاربوننا لفترة طويلة، ولكن مع إستمرار هزيمتهم لنا، سيعلموننا كيف ننتصر عليهم» .

وكان بطرس يعتبر أنه مالك روسيا، بأراضيها. وسكانها، ولكنه كان يعتبر نفسه خادم روسيا الأول، فى نفس الوقت . وتنازل عن الأملاك التى ورثها للدولة وكان لايتسلم سوى راتبه، بصفته نجارا فى الأسطول، ونقيبا فى الجيش ، ثم رفع هذا الراتب الأخير بعد أن ترقى، وهو قيصر ، إلى رتبة كولونيل، فتقاضى راتب هذه الرتبة وكان هذا يفسر إهماله لهندامه وملابسه، وإقامته حفلاته على حساب أصدقائه

الأجانب، وفى بيـوتهم ولكنه أنشأ لـروسيا جـيشا قـويـا. وأسطولا له قيمته ، وهما وسائل الوصول إلى القوة والعظمة .

٢- الحرب ضد الأتراك والسويد :

وقبل أن يقـوم بطرس بزيارته الأولى لأوربا، أراد أن يقـوم بعمل ملحوظ فى السيـاسة الخارجية ، فـقام فى سنة ١٦٩٥ بأولى المحاولات الخاصة بفـتح باب الإتصال مع أوربا. ولم يكن فى وسعـه القيام بذلك إلا عن طريق الإسـتيـلاء على أحد الموانـى ، إما على بحـر البلطيق، وعلى حساب الـسويد، إما على البحر الأسود وعـلى حساب الأتراك . ودفعتـه العوامل إلى أن يبدأ بالحرب ضد الأتراك ، خـاصة وأنهم كانوا أكثر ضعفا، وكانوا مشغولين بالحرب ضد النمسا والبندقية، كما أنه كان فى وسع الحـرب ضـدهم ، وهم مـسلمـين ، أن تأخـذ شكل حـرب صليبية ، علاوة على لونها الـسـياسى ، وكان بقائهم فى القسطنطينية ، العاصمة الأرثوذكسية الـسابقة للعالم ، يعمل على إيقاظ الروح الوطنية لدى الروس الأرثوذكس .

وعـمل بطرس على الإسـتيـلاء على مـيناء آزوف ، الواقع على مصب نهـر الدون من الأتراك فى سنة ١٦٩٥ ، بالهجوم عليـه من البر ، ولكنه فشل فى هذه المحاولة، فأردفهـا بمحاولة ثانية ، فى العام التالى، بالهجوم عليه من البر وبمعـاونة بعض السفن لحصاره من البحر، ونجح فى الإستـيلاء عليـه. وكان لذلك صدى فى أوربـا. وشارك بطرس فى هذه العمليات، وبصفـته أحد رجال المدفعيـة، وكان له من العمر ثلاثة وعشـرين عامـا. وسيـحتفـظ بهذا التواضـع طوال حياته، ولـن يأخذ مسئولية رتبة عسكرية إلا بعد أن يصل إليها بجدارة، وستكون أكبر رتبة عسكرية يمارسها فى الجيش هى رتبة كولونيل .

ورغم أن الإستيلاء على آزوف كان هاما، إلا أنه لم يسمح لبطرس إلا بنجاح بسيط للاتصال بأوربا، خاصة وأن هذا الميناء كان يطل على بحر آزوف الذى لايتصل إلا بالبحر الأسود، والذى كانت كل سواحله، ومخارجه فى البوسفور والدردنيل، تحت سيطرة الأتراك . وعلى العكس من ذلك كان بحر البلطيق، رغم تفوق السويد فيه، بحرا دوليا تطل عليه السواحل السويدية والألمانية والبولندية والدانمركية. ولذلك فإن بطرس إتجه إليه. وبعد أربع سنوات من الإستيلاء على أزوف، عمد بطرس إلى تحطيم ذلك الجدار السويدى الذى كان يحيط ببحر البلطيق ، ويفصل روسيا عن غرب أوربا. ولقد إستمرت الحروب فى هذا الإتجاه مدة إحدى وعشرين عاما، من سنة ١٧٠٠ حتى سنة ١٧٢١.

وكانت السويد قد تمكنت، فى أثناء القرن السابع عشر، ونتيجة لمجهودات جوستاف أدولف، من أن تحول بحر البلطيق إلى بحيرة سويدية: فاستولت على فنلندا، وأخذت السواحل الشرقية لهذا البحر. وإستولت على إستونيا من بولندا، كما إستولت على مصب نهر الاودر وبوميرانيا الغربية من الأراضى الألمانية ، كما حصلت على بعض [illegible] والجزر من الدانمرك وكان من الطبيعى أن تتحول الدول التى توسعت السويد على حسابها إلى أعداء لها، ينتظرون الفرصة الأولى للتكتل ضدها، ورأى بطرس هذه الحقيقة بوضوح وعمل على تحقيقها وإستغلالها لمصلحته ومصلحة روسيا. وفى سنة ١٦٩٩ ، كان شارل الثانى عشر ملك السويد. شابا صغيرا، له من العمر سبعة عشر عاما. وإعتقد كل من قيصر روسيا، بطرس ، وملك بولندا، ومنتخب ساكس، وملك الدانمرك، أن فى وسعهم القضاء عليه ، فتكتلوا ضده . وتم عقد تحالف ، عن طريق ثلاث معاهدات عقدت فى كوبنهاجن

وموسـكو، من سنة ١٦٩٨ إلى سنة ١٧٠٠، وكان تحـالفا هجـوميـا، سمح لهم ببدء العـمليات ضد ملك السويد فى هذا العـام الأخير. وقام بطرس فيـما يخـصه، بمحاصـرة نارفا. ولكن شارل الـثانى عشـر كان محاربا قديرا، فبدأ بمحـاصرة كوبنهاجن وفرض الصلح على الدانمرك، سنة ١٧٠٠ ثم إسـتدار بسـرعـة، وإتجه صـوب الروس وفرق شـمل ٤٠,٠٠٠ مقـاتل منهم، كانت غالبـيتهم لم تتـدرب بعد على الطرق الحديثة، وفك حصار نارفا.

وأصبح مـوقف بطرس فى منتهى الخطورة، وخـاصة إذا مـا قام ملك السويد بمواصلة الهجوم ضده، ولكن شارل الثانى عشر إنشغل لمدة [illegible] (١٧٠١-١٧٠٦) بمشكلات بولندا، التى عين ملـكا جديدا عليها، ثم واصل عملياته ضد منتخب ساكس، حتى يعترف بهذا الملك الجـديد. ولكن بطرس الأول إنتهـز هذه السنوات الست فى الاعـداد، فواصل إعطاء الدعم لمنتـخب ساكس، وعمل على بناء قوات مـسلحة على الطريقة الحديثـة، وقرر فرض نظام الخدمة العـسكرية الإجبارية، وصهر أجراس الكنائس، رغم معارضـة القسس، وصبها فى مدافع، تلزمـه فى الحـرب. وإستـولى بطرس، وقت إنـشغـال ملك السـويد ببولندا، على إستونيا، وقام بإنشـاء مدينة سان بطرسبرج عند قاع خليج فنلندا وقام بتحصينها حتى يمكنها مقاومة هجمات السويد المقبلة عليها.

وبدأ هجوم السـويد على روسيا سنة ١٧٠٨، وقاد شـارل الثانى عشر جيشا مـن ٣٣,٠٠٠ مقاتل. وعرض عليه بطرس التنازل له عن كل فتوحاته على أن تترك له ميناء واحد يطل على بحر البلطيق، ولكن ملك السويـد رفض أى مفاوضـات تحدث إلا فى موسكـو. فاستـخدم بطرس ذلك التكتـيك الذى إستـخدمـته روسـيا بعـد ذلك ضد قـوات نابليون، وضد القوات النازية فى الحرب الـعالمية الثانية، والذى يتلخص

فى الإنسحاب مـن الحدود صوب الداخل ، وتدمير وسـائل المواصلات وكل إمكانيـة لتمـوين قوات العـدو الزاحفـة. ووجد السـويديون أنهم يزحفـون فى فراغ، فحـولوا خط هجومهم مـن موسكو إلى الجنوب ، صوب أوكرانيا، وإعتقـدوا أن الأهالى سينضمون اليهم فى هذا الإقليم. وجاءت الثلوج، وفقد السويديين كل خـيولهم ولم يبق لهم سوى أربعة مدافع، و ١٩٠٠٠٠ جندى، وعندئذ هجمت عليهم قوات بطرس الأول فى بولتـافـا ، فى شـهر مـايو سنة ١٧٠٩، وكـان عـددها يصل إلى ٦٠,٠٠٠ مقـاتل. وإنهزم جيش السـويد ، وكان شارل قـد جرح فى رجله، وإضطر إلى الإلتـجاء إلى أقـرب حدود له ، ودخل لاجـئا إلى الدولة العـثمـانيـة، التى أقام بهـا من سنة ١٧٠٩ حـتى سنة ١٧١٤. وكانت معركة بولتافا من المعارك الفاصلة فى التاريخ، والتى جعلت من روسيا أكبر دولة فى شمال أوربا .

وواصل بطرس عملياته ضد الدولة العثمانية ، وهجم بقواته على البغدان. ولكن القـوات العثمانية حـاصرته سنة ١٧١١، وإضطرته إلى أن ينسحب ويعـيد آزوف إليهم ، بعد أن دفع ثلاثة مـلايين فرنك ذهب للصدر الأعظم محمد بلطجى.

وعلينا ألا ننسى أن إمـبراطورية السـويد قد تحطمت أثنـاء وجود شارل الثانى عشر فـى الدولة العثمانية، فحصل قيـصر روسيا على جزر آلاند وليفونيا، وأخذ فى غزو فنلندا، أما منتخب ساكس فانه طرد ملك بولندا الذى كان شـارل ملك السويد قد نصبـه ملكا هناك، وعمل على التوسع على حسابه، وأعد ملك الدانمرك عملية إنزال فى السويد نفسها، بينما قـام ملك بروسيا باحتلال بـوميرانيا الغربيـة. وظل شارل ، ملك السويد ، لاجئـا فى الدولة العثمانيـة حتى سنة ١٧١٤، وحين عاد إلى بلاده، هزمة ملك روسـيا فى العام التالى، الأمـر الذى أدى إلى ضياع

إمبراطورية السويد . وحاول شارل الثانى عشر أن يتحالف مع إسبانيا، ويأخذ النرويج من الدانمرك، ولكنه قتل فى المعركة سنة ١٧١٨، الأمر الذى مهد لعقد صلح نيستاد فى سنة ١٧٢١ والذى توسطت فيه فرنسا، وهو الصلح الذى إعترف لروسيا بملكية ليفونيا وإستونيا وأجزاء من فنلندا.

وهكذا إنتهت هذه الحرب الطويلة ، والتى إمتدت إحدى وعشرين عاما، إلى تحقيق مايزيد على ما كان بطرس الأكبر يأمل فيه. فلقد كان يأمل فى الحصول على نافذة تطل منها بلاده على بحر البلطيق، فحصل على واجهة بحرية، يصل طولها إلى مئات الكيلو مترات.

٣- « تطوير » روسيا :

فى نفس الوقت الذى واصل فيه عملياته الحربية، عمل بطرس الأول على تطوير روسيا داخليا. وبعد إستيلائه على آزوف ببضعة أشهر ، قام بطرس برحلة إلى أوربا الغربية، حتى يتمكن من أخذ فكرة واضحة عن طريقة حياتها وحضارتها، وحتى يتعلم منها ما يجب عليه إدخاله إلى بلاده وكانت هذه الرحلة الأولى فى سنة ١٦٩٧، وزار خلالها، ألمانيا وهولندا، وإنجلترا، وباسم مستعار وكان له من العمر خمسة وعشرين عاما، وكان مليئا بالنشاط ، فزار دور الصناعة البحرية، وورش الصناعات ، والمتاحف وغيرها، وعمل بيديه فى بناء السفن ، وفى مصانع الورق . وكان يشتري ما يراه صالحا لبلاده، من آلات ومجموعات القوانين واللوائح ، ونماذج السفن . كما كان يجمع الأطباء والمهندسين والصناع والذين بلغ عددهم ما يقرب من خمسمائة ، مكونا بذلك بعثة عالمية، تذهب لروسيا ، وتساعده على تعليم الروس .

ثم قام بطـرس الأكبر برحلة ثانيـة ، بعد عـشرين عامـا فى سنة ١٧١٦ زار خلالها ألمانيـا والدانمـرك وهولنـدا وباريس. وكان بطـرس قد ذاع صيـته، هذه المرة ، وكانـت رحلـتـه رسمية ودبلـومـاسية هذه المرة، وحاول أن يعـقد معـاهدة تحالف هجومى مع فـرنسا ، ولكنه لم يحـصل إلا على مـعاهـدة تجـارة بين البلدين. ولقـد أظهـر أثناء هذه الرحلة كـذلك شغـفا بالمعـرفة والإطلاع، وبخـاصة فى شـئون الإدارة والحكم .

ولقد سارت عملية « تطوير » روسيا ، وهى من مسميات بطرس الأول نفـسه ، بغـيـر خطة محـدودة ، وكانـت تخضع للضـرورات، ولرغبـاته الشخصيـة، وظهرت فى ثلاث مجالات: وكـان المجال الأول منها هو مجال العـادات والتقاليد، فأمر بالغاء الملابس الشـرقية وإبدالها بالملابس الأوربيـة ، وحلـق اللحية، ومنع السـيدات من وضع الحـجاب وكان الخـياطون والحـلاقون يقفـون بأمره عند أبواب المدن ، ويقـومون بقص الملابس الطويلة وحـلق اللحيـة ، وبالأمـر ، لكل من يرغب فى الدخول إليهـا، وكان يأمر بجلد كل موظـف يتباطأ فى تنفيـذ أوامره أما المجال الثانى فكان هو مـيدان الأقتصاد، فعمل على تـشجيع الزراعة ، وإستغلال المناجم، وإنشاء الورش والمصـانع كما أمر بشق الترع، وشجع التجـارة . وحاول بطرس ، فى هذا الميدان، أن يشجع التـعليم، وأنشأ مـدرسة بحـرية ، ومـدرسة للجـراحين، وأخرى لـلمهندسين، وكـان التلاميذ يصلون إليها دون أن يكونوا قد تعلموا مبادىء القراءة والكتابة. وأما المجـال الثالث فكان هو النطاق السيـاسى والإدارى والدينى وحاول بطرس الأول أن يصل فـيه إلى أن ينظم الحكومـة بطريقة تـشبه طريـقة تنظيم الحكومـات الأوربية ، ويزيد بالتالى من سلطـة القيصـر وسيطرته عليها.

وقام بطرس الأكبر بتنظيم الحكومة المركزية وحكومات الأقاليم، وكانت الحكومة المركزية تضم مجلسا للشيوخ ، أو مجلس دولة ، يقوم بدراسة الشئون ويقدمها للقيصر وكان يعاونه فى ذلك عشر لجان ، كانت تقوم بعمل الوزارات وكانت هناك إثنتى عشر حكومة للاقاليم، كل منها تحت حاكم ، وتنقسم بدورها إلى حكومات مقاطعات، مرتبطة تمام بحكام الأقاليم. ولكى يحصل على الموظفين اللازمين للادارة، فرض على النبلاء خدمةُ الدولة إبتداء من سن الثالثة عشر، وإلا فإنهم يعتبرون من الخونة ، وتصادر أملاكهم. وهكذا أضاف أرستقراطية إدارية ، إلى الإرستقراطية الوراثية، وقسمها إلى أربعة عشر درجة من درجات النبل. أما الشرطة فكانت دقيقة فى عملها، وتخضع للمستشارية السرية، التى ساعدت كثيرا على نمو السلطة الأوتوقراطية، أو الفردية للقيصر. وقام بطرس الأول، فيما يتعلق بالكنيسة ، باخضاعها لسلطة بطريرك، يعاونه مجمع مقدس. يشارك فيه القيصر عن طريق نائب له . وهكذا لم يضع نفسه على رأس الكنيسة ، بل شارك فى إدارة شئونها، وفى شكل إدارة جماعية ، ومع رجال الدين .

وكان من أهم أعمال بطرس الأول تنظيم الجيش ، وتدريبه على الطريقة الألمانية، حتى بلغت قوته فى نهاية حكمه ما يقرب من مائة ألف مقاتل ، من مشاه وفرسان، علاوة على قوات القوزاق غير النظامية . وأنفق مبالغ ضخمة على إنشاء الأسطول، ويقال أن عدد قطعة بلغت ألف سفينة تضم سفن التجديف المنخفضة، وسفن الشراع المرتفعة. كما قام بطرس الأول بانشاء مدينة سان بطرسبرج، وإتخذها عاصمة لروسيا، وإختار لها موقعا على ساحل بحر البلطيق، أى على الطريق إلى أوربا، وفى المنطقة التى حصل عليها من الأعداء، وعمل

بهـمـة ونشاط حـتى تمكن من تحـويل هذا الموقع المليء بالمستنقعات والغابات، إلى مدينة لهـا وزنها وأحـضر ٤٠٠٠٠ عـامل إلى هذا الموقع، وكانت أدوات الحـفر تنقصـهم، فاسـتخدمـوا العصى بدلا من الفؤوس ، وكان البعض يحـفر الأرض بأيديه، ويحمل التراب والوحل فى معطفه . وبدأ العمل هناك سنة ١٧٠٣ ،وإستمر بدون إنقطاع، حتى آخر أيام بطرس الأول. وكانت المنازل من الخشب ، وبنيت على الطريقة الهـولندية. وأجبـر القيـصـر الأغنياء من رعـاياه عـلى بناء مـنازل من طابقين ، كمـا أجبر السـفن القادمة على أن تحـمل بعض أدوات البناء. وبنى بطرس الأول لنفـسه قصـرين على الطراز الفرنسى ، وكـان يعمل بيديه مع العمال . كبناء ، ونجار ، وحداد .

ولقد واجهت بطرس الأول بعض المعوقات فى سبيل التطوير الذى قام بـه، وكانت تتـمثـل فى عنـاصـر تقـليدية، حـاولت أن تستــخدم الروتين والكسل لتعطيـل مشروعـاته، ولكـنـه إستخدم الشـدة معـهم ، وبكل ما تعنيه هذه الكلمة من معـانى ، حتى تمكن من أن ينـفذ ما كان يرغب فيه .

ولقـد إستخدم هذه الشـدة حتـى مع إبنه ، الذى إلتفت حـوله عناصـر المعارضـة، وسجنه فى أحـد الأديرة، ثم حاكـمه، بعـد فراره للخارج، وعذبه حتى مات.

ولقـد تحـولت روسيا فى عـهـد بطرس الأكبـر إلى دولة عظمى أوربيـة، حتـى وإن كانت عـمليـات تطويرها سطـحـيـة أكـثـر منهـا جـذرية، ولكنهـا كانت مـجـهـودات إيجـابية عـلى طـريق الحضـارة الغربية .

٤- كاترين الثانية :

توفى بطرس الأكـبر فى سنـة ١٧٢٥، وله من العمـر ٥٣ سنة. وبعد فترة من الزمن تتالى فيها عدد من القياصرة الضعفاء، أو القساه ، على العرش، وصلت كـاترين الثانية إلى الحكم سنة ١٧٦٣، وكـان لها من العـمر ٣٣ سنة ، وحكمت لفـترة ٣٣ سنة أخـرى . أى حتـى عام ١٧٩٦. وكانت ذكيـة، نشطة ، طموحة ، وجريئـة. ورغم أنها كانت من أصل ألمانى ، إلا أنهـا كانت أقـرب القياصـرة إلى قلوب الروس ، وعرفت كيف تتعامل مع أبناء البلاد. كانت بسيطة، حتى فى تعاملها مع الخدم ، وكانت مـتعلمة على الطريقة الفـرنسية وكانت أكـثر نشاطا من ملوك أوربا المعـاصـرين لهـا، مثل فـرديدريك الثـانى، ومـاريا تريزا، وجوزيف الثانى وكانت تعمل خمسة عشر ساعة فى اليوم، مما أعاد إلى الأذهان ذكرى بطرس الأكبر ولقد كانت على إتصـال بفولتير لمدة خمسة عـشـرة عـامـا ، ومـدت يد المعـونة إلى عـدد من الأدبـاء والمفكرين والفرنـسيين. ولقد تظـاهرت فى أول حكمهـا بأنها من أنصـار الحرية، وجمعت ٦٠٠ من نواب روسيا، وطلبت إلـيهم وضع قانون يتمشى مع الحرية ، ولكـن هذه اللجنة لم تتمكن لمدة عـامين ، من إنجاز عـملها، رغم أنهـا أعطـت فكـرة خـاصـة عن نظام الحكم فى روسـيـا، كنظام متحرر ، أمـام كل أوربا . والحقيقة أن كاترين الثـانية كانت شديدة فى حكمها، وثبـتت حقوق السادة الإقطاعـيين على رقيق الأرض، وألغت حق رقـيق الأرض فى الشكـوى من سادتهم، وأعـطت للسـادة الحـق فى إستـخـدام رقيقـهم لكـل الوقـت الـذى يرغبون فيـه. وحين حاول رقـيق الأرض القـيام بثـورة ، وزحف مـائة ألف منهم على مـوسكو، نجحت كـاترين الثانية فى القبض عـلى قائدهم، وعذبته وقـتلته وأنهت الحركة .

ويتمثل أهم أعـمال كاترين الثانية فى الـتنظيم الإدارى والقضائى لإمبراطورية روسيـا، التى قسمتها إلى خمسين حكومـة ، وهو التقسيم الذى ظل موجـودا حتى نشـوب ثورة أكتـوبر . وإنشأت كـاترين عددا ضخـما من المحـاكم، كل منهـا متخـصصـة فى نظر قضـايا الطبـقات الإجتماعية المختلفة، من نبلاء ، وبورجوازيين ، وفلاحين أحرار ، دون أن تكون هناك محاكم لعبيد الأرض .

وكان من أهم أعمال كـاترين الثانية كذلك مجهوداتها للاسـتعمار على الطريقـة البروسيـة ، وجذبت عـددا من الأجانب إلى المقـاطعات الجنوبية فى روسيا. وخاصة مناطق الفولجا وأوكرانيا، والتى كانت تتميز بالخصـوبة وقلة السكان . وأحضرت الحكومة الآلاف من المهـاجرين ، من الزراع والحرفيين ، وكانت تزودهم بالمساكن ، والمواشى ، وأدوات العمل ، وأنشأت بهذه الطريقة ما يقرب من مائتى قرية ومدينة صغيرة ، ووضعت هذا المشروع تحت إدارة بوتمكين ، الذى كان ضابط صف ، ثم صـديق لها، عـلى طريقة صـديقـات لوى الخامـس عشـر . وبدأ هذا المشروع وفـى مناطق جنوب روسيـا ٢٠٠ ألف نسمة ، وصـل عددهم سنة ١٧٩١ وإلى ٨٠٠ ألف .

أما فى السيـاسة الخارجية فـإن كاترين الثانية قد واصلت سـياسة بطرس الأكبر الخاصة بتحطيم الجدار الذى كان يفصل روسيا عن أوربا، متمثلا فى تركيا وبولند، وحـاولت أن تمد روسيا إلى البحر المتوسط فى الجنوب ، وإلى الحدود الألمانيـة والنمسوية فى الغرب . ولقـد سمحت عملية «تقسيم بولندا» التى تمت بالإشـتراك مع بروسيا والنمسا (١٧٧٢ - ١٧٩٥) بإعطاء روسيـا واجـهـة على أوربا الوسطى، تـكمل تلك الواجهة التى كان بطرس الأكبر قد حـصل عليها على حساب السويد ، وعلى العكس من ذلك نجـد أن كاترين لم تنجح فى إتجـاه الجنوب رغم

أنها كـانت تحلم بتقـسيم الدولة العثـمانية، وإنشـاء إمبراطـورية يونانية لحفـيدها فى القـسطنطينية. ذلك أن الدول العظمى خـشيت من سـرعة توسع روسيا . ووقفت ضدها فى حربين ، وأعطتها شبه جزيرة القرم ، والسواحل الشماليـة للبحر الأسود بدلا من إعطائها مخـرجا على البحر المتوسط .

وحين توفـيت كـاترين الثـانيـة سنة ١٧٩٦، أى فى الوقت الذى إنتصر فيه الجنرال بونابرت فى موقعة أركول ، تركت روسيا، وقد زادت مساحتها، كما زاد عدد سكانها ٧ مليون نسمة .

الفصـــل الثامن

بروســـيا والنمســـا

يعتبـر دخول بروسيا فى مـجموعة الدول الأوربية حـدثا هاما من أحداث القـرن الثامن عـشر. ويرتبط تاريخ بـروسيا بأسـرة هوهنزلـرن، وبالجيش البـروسى. ولقد تم توحيـد أراضى بروسيا أثناء القـرن السابع عشر فى عـهد فريدريك وليم، المنتـخب الكبير ، وستصـبح إبتداء من مطلع القرن الثامن عشر مملكة لها أهميتها فى أوربا، وبخاصة فى عهد فـريدريك وليم الأول (١٧١٣ - ١٧٤٠) وفى عـهد فـريدريك الثـانى (١٧٤٠-١٧٨٦). وبدأت أوربا، مع القرن الثـامن عشـر كذلك تعطى لقب النمـسا لمـتلكات أسرة هابسـبورج، التى كـانت مركـز السيـاسة الأوربية طـوال القرنين السـابع عشر والثامن عـشر. وفى منتـصف هذا القرن الأخير، تعرضت النمسا لخطر كبير، نتيجة لتكتل بروسيا، وأمراء ألمانيا، وكـذلك فرنسا وإسـبانيا ضـدها، ولكنها مـرت بسلام من هذه الأزمة ، نتيـجة ليقظة الإمبـراطورة ماريا تريزا(١٧٤٠- ١٧٨٠)، وإذا كانت النمسا قـد فقدت سيليزيا ، وحاولت بلا جدوي إسـتعادتها أثناء حرب السنوات السبع، فإن ضمها لجزء من بولندا سنة ١٧٧٢ قد عوض عليها ما فقدته. وبعـد نهاية هذه الحرب عملت ماريا تريزا، ومن بعدها إبنها جوزيف الثانى (١٧٨٠ - ١٧٩٠)، على توحـيد دولهم المختلفة، على نفس الطريقة التى كانت أسرة هوهنزلرن قد قامت بها فى بروسيا، وتوحيـد الإدارة والوصول إلى وحدة المملكة، التى كـان فرديناند يحكم بها منذ قرن ونصف قرن من الزمان ، فى وقت حرب الثلاثين عاما.

١- بروسيا ومجهودات فردريك وليم :

كانت ممتلكـات أسرة هوهنزلرن تتكون من منتـخب بساند بورج،

ودوقية بروسيا ، ودوقية كليف . وكانت قد تكونت أساسا فى مناطق فقيرة، مليئة بالمستنقعات ، إنتقلت إليها هذه الأسرة الحاكمة من ألمانيا ومن منطقة صغيرة وفقيرة فيها كذلك ، منذ القرن الثالث عشر. وكانت قد نشأت أساسا بصفتها مجموعة من الماركات، أى المستعمرات العسكرية الإقطاعية التى أنشئت فى شرق أوربا، وإعتمدت على الفرسان النيوتون. لوقف زحف العناصر السلافية، أو الصقلبية، على شرق أوربا. ولكن هذه الممتلكات لم تكن تمثل دولة واحدة، بل كانت مجموعة من الدول: ففى الوقت الذى كانت فيه براند بورج وكليف تدخل فى نطاق الإمبراطورية الألمانية، كانت بروسيا تخضع لمملكة بولندا. وكانت كل دولة من هذه الدول غيورة على إستقلالها، وظلت ترفض توحيد الإدارة بينها. ولم تكن هناك حدود مشتركة بين هذه الدول الثلاث، وإن كانت تشترك كلها فى صفات الفقر العام، وقلة السكان ، كما كانت تشترك فى خضوعها لدول أكبر .

وبدأت هذه الظروف تتغير منذ منتصف القرن السابع عشر، وحين بدأ أمراء هوهنزلرن فى إنشاء جيش قوى، يتمكنون به من الدفاع عن أقاليمهم، وحين بدأوا فى تنظيم إستعمار وإستغلال الأراضى ، وذلك كأساس للنمو يؤدى إلى الوحدة الادارية ، التى تؤدى بدورها إلى الوحدة الاقليمية، . وكان هذا البرنامج يبدأ أساسا بالجيش، وينتهى كذلك إلى الجيش . سوار عليه كل حكام بروسيا من سنة ١٦٤٨ إلى سنة ١٧٨٦، سار عليه فردريك وليم ، المنتخب الكبير (١٦٤٠-١٦٨٨) ، وفردريك الأول (١٦٨٨-١٧١٣)، ثم فردريك وليم الملك الجاويش (١٧١٣-١٧٤٠)، ثم فردريك الثانى أو فردريك الأكبر من ١٧٤٠ إلى ١٧٨٦.

وكان فردريك وليم ، المنتخب الكبير ، معاصرا للملك لوى

الرابع عشر، ولقد تمكن فى فـترة حكمه ، والتى بلغت ٤٨ سنة من أن يحقق هدفين أساسـيين : هما توحيد المـتلكات، وإستعمار وإسـتغلال الأراضى. ولقـد بدأ بفرض ضـرائب عـامة، وضـرائب على الأراضى سمحت له بتكوين جيش دائم، بلغ عـدد رجاله ٢٤ ألف مقاتل، الأمر الذى لم يتوفـر لأى أميـر من أمراء ألمانيا فى ذلك الـوقت .وأما فيـما يتعلق بالاستعمار، فإنه عمل على جذب الكثير من الأجانب إلى بلاده، وإنتهـز فرصـة الحروب الدينية، والاضـطهادات المذهبيـة، لكى يكسب لبـلاده العديد من المهـاجرين، وبخـاصة من الفـرنسيين والهـولنديين. ومنحهم تسهـيلات لإستغلال الأراضى وتفليحـها، وبناء الورش، حتى وصل عدد المهاجـرين ، أو اللجئين الفرنسيين فـى عهده إلى ٢٠ ألف، عملوا على تطوير برلين ، وبدء الصناعات الحرفيـة فيها، وإن كان الجزء الأكبر منهم قـد عمل فى فلاحة الأرض . وبدأ فى عهـده اسم بروسيا فى الظهور، وتمكنت قـواته من أن تثبت جدارتها أمام الـقوات السويدية فى الربع الأخـير من القـرن السابع عـشر ،ولقـد ساعـد كل ذلك إبنه فردريك الأول على أن يسير على خطاه، ويتمكن من أن يعطى نفسه فى سنة ١٧٠٠ لقب ملك بروسيا .

وعند وفــاته فـى سنة ١٧١٣، تولى ابنـه فـردريـك وليم الأول العرش، وكـان له من العمر ٢٥ عـاما. وكـان يتصف بالاقتـصاد، إلى درجة الشح، ولـكن من أجل التمكن من زيادة قـوة الجيش وتسليـحه. وكان جنديا بمعنى الكـلمة. كما كـان مستـبدا ، وكانت أوامره واجـبة الطاعـة، وبدون نقـاش ، حـتى أنه لقب بالملك الجـاويش ، نتـيـجـة لطريقته، ونتيجة لعمله كذلك على تدريب الجنود. وكان يعتبر أن الملوك قـد خلقوا للـعمل، وأن الملك هو الخـادم الأول للدولة. وكـانت أهم نشاطاته تتعلـق بتنظيـم ، الماليـة وبالحرب ، وبأراضى الدولة ، وتمكن

من إحضـار ٢٥ الف لاجيء من جميع انحاء أوربا إلى بروسـيا، وأنشأ لهم مئات الـقرى، وعددا من المدن، مما زاد عدد سكان بروسـيا وحدها خلال فترة حكمه من ٤٤٠ألف نسمة إلي ٦٠٠ألـف نسـمة. وشجع صناعة المنسوجات الصوفيـة، واستخدمها لكسوة رجال جيـشه، كما عمل على تصدير الكثـير منها إلى الخارج. وكـانت أهم أعماله تتـمثل فى العناية بالجيش. وكان شغفوا بحياة الجندية. وأنشأ كـتيبة لتدريب الضباط، كما أنشأ الكثـير من فرق الجـيش. وكان يعتـبر أن مهـنة الجندية هى أشرف مهنة، ويعتـبر أنها الوحيـدة التى يمكن لبروسيا بها أن تـشق طريقها بين الدول . ورغم أن عدد سكان دولته كان لايزيد عن ٢,٥ مليون نسمة ، إلا أنه تمكن من رفع عدد جيشه من ٤٥ ألف جندى فى سنة ١٧١٣ إلى ٨٣ ألف جندى ١٧٤٠، وذلك فى الوقت الذى بلغ سكان إمـبراطورية النمسا ٢٤ مليـون نسمة، وبلغ عدد رجال جيـشها ١٠٠ ألف جندى، وإذا كان فـردريك وليم الأول قـد بدأ بالاعتـماد على التطوع فى ألمانـيا وخارجها لانشـاء جيشه، إلا أنه قرر بعد ذلك تطبـيق الخدمة العسكرية الإجبـارية على كل رعاياه. وكان ذلك شيـئا جديدا أثناء القـرن الثامن عشر. وكـان هذا الجيش أرستقـراطيا، ولم يسمح لأي جندى ، مـهما زادت كفاءته، بأن يصل إلى رتبة أعلى من ضابط صف، واحتفظ برتب الضباط كلها لأبناء النبلاء. وظل هذا التقليد معمولا به حتى بعد الاتحاد الألمانى، وحـتى سنة ١٩١٨، والشيء الجديد الذى أدخله فـردريك وليم على الجيش كـان هو نظام التدريب، واعتـمد على تكرار الحركة مـئات وآلاف المرات ، حـتى يتحـول الجندى إلى آلة، وحتى تؤدى الوحـدات حركاتها كرجل واحد ، فتـحصل على المرونة، كما تحصل على سهولة ووحدة الحركـة، وسرعة التعـمير وإطلاق النيران، حتـى أصبحت هذه الطريقة تعرف فى كل جـيوش العالم باسم الطريقة البروسـية. وإذا كان

الجيش البروسى لم يدخل فى عمليات حربية كبيرة فى عهد فردريك وليم، إلا أنه تمكن فى سنة ١٧١٥ من إحتلال بوميرانيا، التى أكدت معاهدة أستكهلم سنة ١٧٢٠ ملكية بروسيا لها.

وهكذا كانت مجهودات فردريك وليم ناجحة فى الميادين المالية، وإنشاء الجيش، وإستعمار الأراضى ، الأمر الذى زاد من طاقة بلاده، وسمح لها بأن تصبح عنصرا فعالا فى مجتمع الدول الأوربية. وحين توفى، خلفه على العرش إبنه فردريك الثانى.

٢- فردريك الثاني :

تولى فردريك الثانى العرش سنة ١٧٤٠، وحكم لمدة ٤٦ سنة، وعاصر كل من لوى الخامس عشر ولوى السادس عشر. وكان أحد هؤلاء الرجال الذين ساهموا فى تغيير شكل أوربا، وتحولت مملكة بروسيا فى عهده إلى دولة عظمى .

وأمضى فردريك الثانى فترة صبا وشباب صعبة، خاصة وأن والده كان يعامله بشدة ، ويحاول أن يخلق منه جنديا تقليديا، وذلك فى الوقت الذى تميز فيه الأمير الصغير بالرقة، وميله إلى الفلسفة والدبلوماسية. ولقد حاول الفرار حين بلغ الثامنة عشرة من عمره ، بمساعدة أحد الملازمين فى الجيش من أصدقائه، ولكن والده عذب هذا الصديق أمامه، ثم قتله، ولقد مرنه والده بعد ذلك على إدارة الشئون المالية ، وعلى إدارة أراضية، ثم مرنه بعد ذلك على قيادة إحدى الكتائب. وكان تسليمه له هذه المناصب القيادية يتطلب من الأمير الشاب الأهتمام بكل صغيرة وكبيرة، والاعتماد على نفسه فيها، حتى لايظهر بمظهر المقصر، ويعاقب . ولقد تمكن الأمير من أن يحول كتيبته إلى كتيبه مثالية فى الجيش .

وحين تولى فردريك الثانى العرش سنة ١٧٤٠ كان له من العمر ٢٨ سنة، وكان ذكيا ، وحاذقا ، ومستعدا لعدم الأحتفاظ بكلمته مادامت هناك مصلحة فى تغيرها. ولقد ثبت ذلك فى تعاملاته مع فرنسا وانجلترا، ومحاولاته أثارة الغيرة عند الواحدة لحسن علاقته بالثانية. وكان يلعب على جميع الأطراف، لكى يحقق مصلحته. ولقد اعتبر فردريك الثانى أن الملك مهنة، وكان يعتبر نفسه أول خادم لرعاياه. وكان يبدأ عمله فى الثالثة صباحا، ويرهق معاونيه وكان يعتبر نفسه الوزير الوحيد فى الدولة، وواصل العمل بهذه الطريقة طوال حياته. وكان هذا التركيز لكل شئون الدولة فى يديه خطيرا. إذا أن كل قطاع كان يحتاج لأمر منه حتى يتمكن من السير ، وحين توفى ، وحتى بعد وفاته بعشرين عاما، لم تتمكن بروسيا من أن تصمد ، وإنهارت بضربة واحدة من نابليون فى معركة إيينا سنة ١٨٠٦ ، إذ أنها كانت قد تدربت على ألا تتحرك إلا بأمر من القائد، وكانت تفتقر إلى القائد فى ذلك الوقت .

ولقد زاد فردريك الثانى من عظمة بروسيا بضمه سيليزيا، التى أخذها من النمسا، وبضمه بروسيا البولندية ، التى أخذها من بولاندا. ولقد إستمرت عملية إستيلائه على سيليزيا لمدة ٢٣ سنة، خاض أثناءها ثلاثة حروب (١٧٤٠-١٧٦٣) وكانت الحربان الأوليان منهما تتمشيان مع حرب الوراثة النمسوية، وأما الثالثة فكانت حرب السنوات السبع التى واجهت بروسيا فيها تكتلا ضم النمسا وفرنسا وروسيا. وخرجت منها بروسيا مضعضعة ولكن منتصرة . أما الإستيلاء على بروسيا البولندية سنة ١٧٧٢ فقد تطلب مفاوضات طويلة، وبدون حروب ، وسهل عملية التوحيد الاقليمى لأراضى المملكة .

ولقد أمضى فردريك الثانى السنوات الثلاث والعشرين الباقية من حياته فى إصلاح ما أفسدته حرب السنوات السبع، وفى تنمية ثروة مملكته. وتمكن فردريك من إعادة إنشاء الإحتياطى المالى اللازم لجيشه،

وإعادة تكـوين مهمـاته. ثم عمـل بعد ذلك على تشـجيع الإسـتعـمار والتـوطن . ولقد تمكن من إحـضـار ٣٠٠ ألف مهـاجر ، وأنشـأ لهم تسعمائة قرية .

ووطن ٦٠ ألف مهـاجر فى منطقة سيليـزيا. وكان كل شىء يتم بالجيش، التى كـانت بعض عملياته تشبـه أعمال العصـابات: ففى سنة ١٧٠١ ، قامت القـوات البروسـية التى تحـتل جزءا من بولندا بسـبى ما يقرب من سبعة آلاف فتاة ، وارسلتهن للتزوج من الجنود البروسيين فى بوميرانيـا. وأجبر كل أسرة على أن تقـدم، كبائنة لزواج إبنتـها، بقرة، وبعض الحيوانات المنزلية ، وفراشا متـواضعا. ولقد تمكن من إستصلاح ررراسه الاف من الكيلو مترات المربعة. كما شجع الصناعة لزيادة الثروة العامـة. وإذا كان فـردريك الثانى قـد أصدر أمـرا، حتى من الناحـية الشكلية، بأن التعـليم إجبارى ، فإن ذلك لم يمنع من وجود رغـبة قوية لديه لرفع مـستـوى التعليم ،وإرسـاء المبادىء من أجل ذلك . وكـانت أشياء جديدة بالنسبة للقرن الثامن عشر .

ومع ذلك فـإن فـردريك الثـانى قـد إحـتـفـظ بنظام الطبـقـات الإجتمـاعية. وبكل صرامة ، فلم يكن فى وسع الفـلاح أن يتحول إلى بورجوازى. أو فى وسع البورجـوازى أن يصبح من النبلاء وهكذا ظلت بروسـيا دولة إقطاعـية، وأفـاد الملك من النبلاء فى قـيادة جـيشـه وفى الإدارة، أما الطبقـة الوسطى فكانت صغيرة، وأمـا بقية السكان ، وفى غالبـيتـهم العظمى ، فكانوا من الفـلاحين ، الأمر الذى يدعم البنـيان الأقطاعى .

ولقد تمكن فردريك الثانى خلال فترة حكمه الطويل، والتى بلغت ٤٦ سنة، من أن يضـاعف مسـاحة أراضيـه ، ويزيد عدد رعـاياه ثلاثة

أضعاف : فزاد عددهم من ٢,٥ مليون إلى ٦ مليون نسمة. أما الجيش فقد زاد عدده كذلك من ٨٠ ألف جندى إلى ١٦٠ ألف، وإعتبر ؛ بعد مقاومته لقوات الدول المتكتلة، على أنه أحسن جيوش أوربا. وأخذ ملك بروسيا ، فى تسوية المسائل الدولية الكبرى ، مكانه بجوار ملوك فرنسا والجلترا والنمسا وروسيا. وتم كل ذلك فى أقل من نصف قرن .

٣- الأوضاع في النمسا :

كانت مملكة النمسا تشتمل ، فى بداية القرن الثامن عشر ، على دول وراثية مثل أرشيدوقية النمسا ، ودوقيات إستيريا وكارينثميا والتيرول. علاوة على إشتمالها على مملكتى بوهيميا والمجر. وكانت هذه المملكة تضم كذلك إقليم ميلانو، ومملكة نابولى وسردينيا، وتضم الأراضى المنخفضة فى شمال فرنسا، وهى التى ضمتها لها معاهدات أوترخت وراستاد، والتى كانت تمثل نصيبها من الوراثة الإسبانية .

ولقد تمت تغيرات إقليمية فى أقاليم هذه الدولة أثناء القرن الثامن عشر، فبادلت صقلية بسردينيا فى معاهدة مدريد سنة ١٧٢٠، وجاءت معاهدة فيينا سنة ١٧٣٥ لكى تجعلها تفقد صقلية ومملكة نابولى، وحصلت من جهة أخرى على دوقية بارما فى إيطاليا.

وكانت هذه المملكة التى بلغ تعداد سكانها ٢٤ مليون نسمة فى ذلك الوقت ، تفتقر تماما لعناصر الوحدة، وكانت أقاليمها موزعة من الأراضى المنخفضة حتى روسيا، ومن سهول شمال ألمانيا حتى إيطاليا، وكان بعض هذه الأقاليم يقع داخل ممتلكات دول أخرى تحيط به من كل جانب ، مثل الأراضى المنخفضة وميلانو، أما نابولى فلم تكن تتصل ببقية الإمبراطورية إلا عن طريق البحر. وكان السكان من شعوب مختلفة: ويتحدثون لغات مختلفة، الفرنسية والفلمنكية ، والإيطالية

والألمانية ، والتشيكية ، والمجرية ، والصربية ، والرومانية .

وكان لكل إقليم من هذه الاقاليم عاصمته ، وحكومته ، ومجالسه ، وكان الملك يحتاج لكل من هذه المجالس فى شئون التجنيد وجمع الضرائب ومحاولة سن القوانين واصدارها. وكانت هناك دساتير واضحة فى كل من بوهيميا والمجر. وكان شخص الملك ، الذى يحمل تيجانا مختلفة، هو عامل الوحدة الأساسى بين هذه الدول وبعضها. وكان يحمل علاوة على ذلك تاج الامبراطورية الألمانية ، والذى إحتفظ به المتخبون الألمان ، منذ ما يقرب من ثلاثة قرون ، لأفراد أسرة الهابسبورج .

وكانت للامبراطورية النمسوية حدودا مع الدولة العثمانية، وبولندا ودولة بروسيا ، وساكس ، وبافاريا، وسويسرا، وفرنسا وهولندا، ودوقية سافوا وجمهورية البندقية . وكان هذا يسهل الصدامات المتعددة مع الجيران ، ويزيد من أطماع هؤلاء الجيران فى أقاليم الدولة النمسوية. ولذلك فان الهدف الأساسى لحكام النمسا كان يتلخص فى ضرورة إنشاء جيش قوى من ناحية ، وفى محاولة تجميع العناصر المتفرقة التي تتكون منها الدولة، من ناحية أخرى . ولقد بدأ جوزيف الأول بانشاء جيش بلغ ١٢٠,٠٠٠ مقاتل فى سنة ١٧١٥ . كما وضع أسس حكومة مركزية فى فيينا، مع إنشائه المجلس الأعلى للحرب، ومجلس الشئون المالية ومستشارية الدولة للشئون الدبلوماسية، ولكنها لم تكن سوى مجرد أسس ، تحتاج لنمو ورعاية .

وكان شارل السادس هو أشهر ملوك النمسا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر، وحكم حتى سنة ١٧٤٠ . ولقد إنشغل بحرب الوراثة الاسبانية ، ودخل فى حروب مع فرنسا وإسبانيا (١٧٣٣-

١٧٣٨) بشأن الوراثة البولندية، ثم دخل فى حرب مع الدولـة العثمانية (١٧٣٧-١٧٣٩). وفقد فى الحرب الأولى نابولى وصقلية، كما فقد فى الحـرب الثانيـة الافلاق والـصـرب ،أدى ذلـك إلى إضطـراب مـاليتـه وجيـشه . وكانت أهم أعمـاله تتمثل فى نقل الوراثة إلى إبنتـه ، ماريا تريزا، وحصل على مـوافقة بنـات أخيه. ثم بقـية دول أوربا، على هذا التغيير .

٤- ماريـــا تريزا :

وبدأ عـهـد مـــاريا تريزا بأزمـة خطيـــرة ، هى حـرب الوراثة النمسوية، وتكتلت كل من بروسـيا وبافاريا وساكس ، وفرنسـا واسبانيا ضدها، ومع ذلك فإنهـا لم تخسر سوى سيلـيزيا، خلال هذه السنوات الثمانية من الحرب (١٧٤٠-١٧٤٨) والتى أخـذها منها فردريك الثانى. وأنقذ نشاطا ماريا تريزا إمبراطورية النمسا من الخراب .

وكان لماريا تريزا ثلاثة وعـشرين عامـا حين تولت الملك ، وكانت تعتز بأسرتها، وبسلطتها، وإعتبـرت نفسها مسئولة عن رعاياها أمام الله وحده، وإن كان رعاياها قد نظروا إلى سلطتـها على أنها مطلقه . وبعد أن إنتهت حرب الوراثة النمسوية ، وفقـدت سيليزيا، عملت ماريا تريزا لمدة عشر سنوات من أجل تصحيح الحـالة المالية، وإعادة تنظيم الجيش، الذى رفعت عـدده إلى ٢٠٠ الف مقـاتل، أظهروا كـفاءة واضـحة فى حرب السنوات السبع (١٧٥٦- ١٧٦٣)، ومع ذلك فإنها لم تتمكن من إستعادة سيليزيا.

ولقد عملت ماريا تريزا على ادخال كثير من الإصلاحات ، طبقا للاحـتيـاجـات الجديدة ، علـى نظم الحكم القـديمة، وبشكل يزيد من السلطة الملكيـة فى كل دولة من الدول، وعلى خلق مـؤسسـات جديدة

لحكومة مركزية مشتركة، كخطوة فى سبيل الوحدة فجعلت المجالس فى الأقـاليم الوراثيـة يصوتون على الضـرائب اللازمـة للجـيش لمدة عشـر سنوات ، بدلا من التـصـويت عليـهـا كل عـام . وأعـادت النظر فى الضرائب المباشرة ، وغيـر المباشرة ، وبشكل أدى إلى إصلاح الأوضاع المالية للدولة .

وأنشأت ثلاث أجـهزة جديدة للحكومـة المشتركة فى فـيينا: هى مجلس المحـاسبات والمجلس القضـائى ، ومجلس الشئـون الداخلية ، وأعطتها سلطة للاشراف على قطاعاتها في الدول المختلفة الخاضعة لها. وكـانت كل هذه الخطوات تهـدف زيادة الروابط بين الدول والإمـارات الخاضعة لها، وعلى مراحل ، وبطريقة إصلاحية .

٥- جوزيف الثاني واصلاحاته :

وتولى العرش بعدها ، إبنها جوزيف ، فى سنة ١٧٨٠، وكان قد تمرن مع والدته على قادة الجيش ، وعلى القيام بمسـئوليات دبلوماسية ، وكان هو الذى نصح والدته ، فى سنة ١٧٧٢، بالاشـتراك مع فردريك الثانـى ملك بروسيـا، وكاترين الثـانية إمـبراطورة روسـيا، فى تقـسيم بولندا، وأخذ جزء من أراضيها.

وكان نشطا ، وبسيطا ، وشديد الإعجاب بفردريك الثانى ، ملك بروسيا، وسرعان ما تخلى عن مظاهر الترف فى القصر والبلاط، وحول القصر الإمبـراطورى إلى ما يشبه الثكنة العسكرية. وكـان يظهر دائما فى كسوة عسكرية. مع رتبة ملازم ثان . وكان دائم السفر فى أقاليمه وعلى ظهر جواده ، ولا يأخـذ معه سوى أحد ياورانه ، وكان يظهـر فجأة ، فى أى مكان ، وينزل فى الفنادق ، يتناول طعامه فى المطاعم . وأمضى فـتـرة حكمـــه فى محاولة إصلاح الأوضـاع فـى بلاده، وكـانت هذه

الإصلاحات اجتماعية ، وسياسية ، ودينية .

أما فيما يتعلق بالميدان الإجتماعى ، فإن النظام السائد كان هو النظام الإقطاعى ، الذى يجبر عبيد الأرض على العمل لفترة لاتقل عن ثلاثة أيام أسبوعيا على أرض السيد، الذى كان يحاكمهم ، ويتحكم فيهم ، فالغى جوزيف الثانى،فى سنة ١٧٨١ نظام عبيد الأرض «الذى يتنافى مع كرامة الانسان وحريته»، وملك الفلاحين الأرض التى كانوا يعملون عليها منذ قرون، وذلك نظير دفعهم إيجارا للملاك ، ثم أعلن المساواة بين الجميع فى دفع الضرائب وأمام القانون .

وأما فى الميدان السياسى فإنه أدخل بعض الإصلاحات التى هدفت زيادة توحيد المملكة، وضمان السلطة المطلقة للملك. وكان يرغب فى أن تكون له عاصمة واحدة هى فيينا، فحول قصرع فى براغ، عاصمة بوهيميا، إلى قيادة للفرسان ، واحضر التاج المجرى من بودابست ، لكى يحتفظ به مع بقية مجموعته من التيجان فى فيينا، ولما كان هو إمبراطور الإمبراطورية الألمانية المقدسة ، فانه فرض اللغة الألمانية كلغة رسمية ، على جميع العناصر التى تسكن الامبراطورية ، سواء أكانت مجرية أو إيطالية ، أو كرواتية وصربية .

كما قام بإصلاحات دينية ، وأعلن أن الكاثوليكية هى المذهب الرسمى للدولة ولكنه أعلن حرية العقيدة بالنسبة لرعايه ، وضمن حرية العبادة لغير الكاثوليك وكذلك تعينهم فى وظائف الدولة . وكان تطبيق هذا الإتجاه صعبا، خاصة وأن جوزيف الثانى كان يرغب قبل كل شيء فى فرض سيطرته على الكنيسة النمسوية، وعلى رجالها وأملاكها، فى الوقت الذى كانوا يدينون فيه روحيا للبابا فى روما. وأغلق الفى دير ، وإستولى على أملاكها، ومنع نشر المرسومات البابوية فى ممتلكاته .

وإذا كانت مـجهودات جوزيف الثانى قد فـشلت فى المجر، وفى الأراضى المنخفـضة ، إلا أنها قـد نجحت فى الأقـاليم الوراثية ، وفى بوهيميا .

ونجح، بعـد والدته ماريا تريزا، فى أن يحـولوا بلادهم إلى دولة المانية، وفشل التشيك ، رغم مجـهوداتهم المتواصلة ، فى إثبات ذاتيتهم المتميزة ، ولقد كان من نتائج الإصلاحات المالية أن زادت الإيرادات أربع مرات ، وأدى الإهتمام بالجـيش إلى زيادة قوته وكفاءته بشكل واضح، الأمر الـذى سيظهـر حين يدخل فى الحروب التى أعلنتـها أوربا، بـعد سنوات قليلة ضد فرنسا، وثورتها.

وإشتبكت فرنسا خلاله فى أربعة حروب : هى حرب الوراثة البولندية، وحرب الوراثة النمسوية ، وحرب السنوات السبع ، ثم حرب إستقلال الولايات المتحدة الأمريكية. وأنفقت فرنسا مواردها المادية ، وزهرة شباب أبنائها فى هذه الحروب ، ولم نحصل فى نظير ذلك إلا على مقاطعة اللورين وفى نظير ذلك فقدت فرنسا مستعمراتها فى كندا والهند .

وكان لفرنسا خطين سياسيين : أحدهما عن السياسة القارية ، والثانى عن السياسة الإستعمارية . وكانت السياسة القارية هى السياسة التقليدية، التى كانت فرنسا قد سارت عليها من قبل ، وكانت تتلخص فى خفض قيمة الأسرة الحاكمة فى النمسا، وتبوأ فرنسا لمكانتها وحدودها الطبيعية، مما يتطلب ضم الأراضى المنخفضة ، وسافوا، واللورين إليها. ولم تخرج فرنسا من هذه السياسة إلا باللورين .

أما فيما يتعلق بالسياسة الإستعمارية فإنها كانت سياسة جديدة ، وتتلخص فى مد حدود المستعمرات الفرنسية فى أمريكا الشمالية من كندا صوب لويزيانا، وتشجيع التجارة الخارجية مع الشرق الأقصى ومع الهند . وأدت هذه السياسة إبتداء من سنة ١٧٤٢ حتى سنة ١٧٦٣، إلى حرب الوراثة النمسوية ، وإلى حرب السنوات السبع ، أى إلى حربين مع إنجلترا، التى تهددت مصالحها.

وأصبح على فرنسا فى منتصف القرن الثامن عشر ، فيما بين عامى ١٧٤٨، ١٧٥٦، أى بعد حرب الوراثة النمسوية وقبل حرب السنوات السبع، أن تختار بين السياسة التقليدية والسياسة الجديدة، أى بين السياسة القارية، والسياسة الإستعمارية، أن تختار بين أوربا وبين العالم وشعر الكثيرون بأنه يمكن التخلى عن السياسة التقليدية، خاصة

وأن النمسا لم تعد تمثل خطرا بالنسبة لفرنسا، وكان الإصرار على محاربتها يدفع دولة بروسيا إلى أن تقول كلمتها. وكان يكفى لفرنسا أن تحافظ على التوازن الدولى فى أوربا، وأن توفر طاقتها للسياسة الإستعمارية، أى للإستمرار فى محاربة إنجلترا.

وهذا يفسر لنا ذلك التغيير الشامل فى نظام المحالفات ، إبتداء من سنة ١٧٢٦، والذى أدى إلى تحالف عدوين سابقين هما فرنسا والنمسا. ولكن فرنسا كانت تفتقر إلى تلك الشخصية القوية التى يمكنها المثابرة مع هذا الخط. كما أن فرنسا كانت تضم الكثيرين من أنصار السياسة القارية القديمة، مما جعلها تنزلق مع حلفاء جدد، وتدخل فى الخصومات النمسوية البروسية وكان هذا هو ما حدث فى حرب السنوات السبع، مع المصائب التى وقعت لفرنسا على القارة وفى المستعمرات . وأدى ذلك إلى إنتشار السخط فى كل فرنسا على النمسا، التى ألقى على عاتقها تبعة كل ما حدث لفرنسا. وحدث هذا فى عصر لوى السادس عشر ، والذى كانت زوجته ، مارى أنطوانيت ، نمسوية وكذلك ساد الحقد ضد إنجلترا، والرغبة فى الإنتقام منها. الأمر الذى دفع لوى السادس عشر إلى تأييد المستعمرات الإنجليزية الثائرة فى حربها من أجل الإستقلال .

وعلينا ألا ننسى أن أهمية الدور الذى لعبته فرنسا على القارة الأوربية أخذ فى القلعة أو الضعف مع مرور السنوات . وبعد أن كان لفرنسا ، كدولة مسيطرة ، المبادرة فى حرب الوراثةالبولندية، أصبحت عاملا رئيسيا فى التكتلات التى وقعت أثناء حرب الوراثة النمسوية، ولكنها لم تعد أكثر من قوة مساعدة للنمسا فى حرب السنوات السبع، ولم يتفاوض أحد معها وقت تقسيم بولندا .

وعلينا أن نلاحظ أخيرا أن السياسة والمصالح الفرنسية ، فى كل المخالفات التى تمت أثناء القرن الثامن عشر ، مثل التحالف مع الإنجليز،

والتحالف مع إسبانيا، والتحالف النمسوى ، كانوا يضحون بها أمام مصالح الحلفاء. وكان ذلك يختلف كل الإختلاف عما كان يحدث لفرنسا أثناء القرن السابع عشر .

ولقد تميزت السنوات العشر الأولى التالية لوفاة لوى الرابع عشر (١٧١٥- ١٧٢٥) بعقد تحالف فرنسى إنجليزى، وبالوصول إلى التسوية النهائية للوراثة الاسبانية . ولقد إرتبط هذان العاملان الواحد بالآخر ، وشعرت كل من فرنسا وإنجلترا ، بعد معاهدات أوترخت. بحاجتها إلى الراحة الطويلة، وبخاصة بعد إستنزاف مواردهما المالية وكان كل من شارل السادس ، الإمبراطور ، وفيليب الخامس ملك إسبانيا قد رفض " ريع على هذه التسوية ، ورفض الإمبراطور الإقتناع بما منحوه إياه فى إيطاليا، وفضل صقلية على سردينيا. أما فيليب الخامس فانه رفض التخلى عن ممتلكاته فى نابولى وصقلية وسردينيا لغيره . ورغم أن لوى الرابع عشر قد مارس الضغط علي ملك إسبانيا، وكان حفيده ، وأجبره على التخلى عن حقه فى وراثة تاج فرنسا ،الا أن ذلك لم يؤدى الى حشد الجيوش الاسبانية على حدود فرنسامن ناحية ، ومحاربة المصالح الفرنسية فى المستعمرات الإسبانية . أى أن إسبانيا بدأت فى التقرب من إنجلترا على حساب فرنسا . فكان الرد الوحيد على مثل هذا الإتجاه هو عقد تحالف فرنسى إنجليزى ، رغم روابط القربى بين الجالس على عرش مدريد والجالس على عرش باريس .

ولقد تم التحالف الفرنسى الانجليزى على شكل رفاق فى سنة ١٧١٦ ، تحول بعد ثلاثة أشهر إلى تحالف ثلاثى. عرف بإسم تحالف لاهاى بعد إنضمام هولندا إليه . وكان هذا التحالف هو العامل الأساسى فى التسوية النهائية للوراثة الاسبانية، كما ظل أساسا لسياسة فرنسا القارية فى أوربا حتى سنة ١٧٥٦ .

٢- التسوية النهائية للوراثة الاسبانية :

كان الهدف المعلن للتحالف الثلاثى يخدم المصالح الأسروية قبل كل شيء، فكان يربط فرنسا وهولندا بالأشراف بتاج إنجلترا فى أسرة هانوفر ، ووراثة تاج فرنسا طبقا لما قررته معاهدات أوترخت. وكان فى نفس الوقت وسيلة للوصول إلى السلم العام ، وبخاصة بين الإمبراطور وملك إسبانيا ولقد حدثت مضاعفات أخرى بعد ذلك فى إيطاليا، بشأن وراثة دوقية بارما. ودوقية توسكانيا. ولكن نصوص التحالف الثلاثى كانت هى الأساس فى تسوية الخلاف بين النمسا وإسبانيا. فضمن المتحالفون لملك إسبانيا إمكانية الافادة من وراثة بارما وتوسكانيا نظير تنازله النهائى عن مطالبه فى بقية أنحاء إيطاليا، وأعطوا صقلية للإمبراطور، نظير تنازله النهائى عن المطالبة بعرش إسبانيا. وتم ذلك على حساب دوق سافوا الذى انتزعت منه صقلية، وأعطيت له جزيرة سردينيا الفقيرة. وكان على فرنسا أن تضغط على إسبانيا كما كان على إنجلترا أن تضغط على النمسا. ولكن كل من الطرفين كان لايزال يطمع فى الحصول على ما هو أكبر من ذلك .

وفى سنة ١٧١٨ أرسل ملك إسبانيا جيشا بلغ ٣٠ الف جندى إلى صقلية إستولى على باليرمو وحاصر مسينا . وخاف الإمبراطور ، واضطر إلى التوقيع التحالف الثلاثى، الذى تحول بذلك إلى تحالف رباعى. وبعد أيام قليلة تمكن إسطول إنجليزى من تحطيم وأسر ٢٣ سفينة إسبانية قرب صقلية . وإكتشفت إحدى المؤامرات الاسبانية ضد فرنسا، فأعلنت فرنسا الحرب على ملك إسبانيا، وتوغلت الجيوش الفرنسية فى إسبانيا. وكانت إحدي الحملات الاسبانية المتجهة إلى إسكتلندا قد هزمت ، فاضطر ملك إسبانيا إلى طلب الصلح، وإلى قبول تسوية المسائل الإيطالية، كما كان التحالف الرباعى قد رسمها، وتمت التسوية

الأسبانيون من الاستيلاء على نابولى وصقلية بسهولة. فاضطر الامبراطور إلى دخول محادثات سنة ١٧٣٥ من أجل الصلح، وإن كانت التسوية النهائية قد تأخرت لمدة ثلاث سنوات . وتم هذا الصلح بمعاهدة فيينا الثانية سنة ١٧٣٨ ونص هذا الصلح على تنازل ليزنيسكى عن بولندا، مع احتفاظه بلقب الملك، وحصوله على اللورين التى تعود بعد وفاته إلى فرنسا، وتنازل الامبراطور عن نابولى وصقلية لدون كارلوس ، الذى سيصبح ملكا على مملكة الصقليتين . وإعترفت فرنسا أخيرا بالنظام الذى وضعه الامبراطور لكى تخلفه ماريا تريزا على العرش .

وهكذا نجد أن الامبراطور هو الذى دفع نفقات هذه الحروب، وذلك بتخليه عن أجزاء هامة من ممتلكاته فى إيطاليا. كما أن حرب الوراثة البولندية انتهت بنتيجة غير متوقعة وهى تأسيس أسرة حاكمة ثالثة من البوربون فى نابولى، وكذلك إتمام وحدة فرنسا الاقليمية، بضمها اللورين إلى أراضيها. كما أن فرنسا كان فى وسعها أن تحصل على سافوا، لولا رغبتها فى الوصول إلى السلم ، وكانت هذه الحرب هى الوحيدة التى أفادت منها فرنسا طوال عصر لوى الخامس عشر .

٤- حرب الوراثة النمسوية :

إضطر الامبراطور إلى الدخول فى حرب ضد العثمانيين ، بعد تسوية الوراثة البولندية، آملا أن يحصل فى البلقان على ما يعوضه ويعوض حلفاءه الروس عما فقده فى الوراثة البولندية . ولكن قواته هزمت ، وجاءصلحبلجراد سنة ١٧٣٩ لكى يجبره على التراجع من البلقان ، بعد أن فقد بعض أقاليمه هناك. وخرج من هذه الحرب وجيشه محطم، وخزانته خاوية. وحين توفى سنة ١٧٤٠ أثارت هذه

الحالة أطماع الأعداء فى ممتلكاته ووجدت ماريا تريزا فى مواجهتها إثنين من مدعى حق الوراثة ، وهما منتخب بافاريا وملك إسبانيا. ولم يكن من الصعب إيجاد ذرائع. وانضم اليهما ملك فرنسا ، وملك بروسيا، ومنتخب ساكس ، وملك بولندا ، وكثير من الأمراء الألمان .

ووجدت ماريا تريزا خلفاء لها فى روسيا وإنجلترا وهولندا، وملك سردينيا الذى إشترت تحالفه. وتدخلت روسيا لأنها كانت ترغب فى القيام بدور الدولة العظمى، أما إنجلترا فانها تدخلت لتأييد ماريا تريزا لأن فرنسا تهاجمها، وكانت هناك منافسات اقتصادية واستعمارية بين الدولتين ، كما أن الحرب كانت معلنة منذ سنة بين انجلترا وإسبانيا، وهى حليف فرنسا. أما هولندا فأنها كانت تسير وراء إنجلترا ، وكانت تخشى من رؤية فرنسا تستولى على الأراضى المنخفضة .

وتعتبر هذه الحرب من أشد الحروب تعقيدا، خاصة وأن الدول كانت تبحث عن مصالحها الخاصة : فكان فردريك ملك بروسيا يرغب فى الحصول على سيليزيا، وكان ملك إسبانيا يرغب فى الحصول على أقاليم جديدة فى إيطاليا، أما لوى الخامس عشر فانه كان يهاجم كل من إنجلترا والنمسا فى الأراضى المنخفضة. ويمكننا أن نقول أن حرب الوراثة النمسوية كانت تتمثل فى ثلاث حروب : حرب نمسوية بروسية ، وحرب نمسوية إنجليزية فرنسية، وحرب نمسوية إسبانية. وكانت أشهر حرب من هذه الحروب هى الحرب النمسوية البروسية، والتى كان أهم مظاهرها إستيلاء بروسيا على سيليزيا، الأمر الذى ساعد على تحول بروسيا إلى دولة عظمى ، وإلى تغير التوازن بين الدولة الألمانية، ومهد بذلك لحرب جديدة هى حرب السنوات السبع .

وكان فردريك الثانى قد بدأ العمليات الحربية فى نفس اليوم الذى

علم فيه بوفاة الامبراطور وفى نفس الوقت الذى إعترف فيه بماريا تريزا، أصدر أوامره لقواته باحتلال سيليزيا. وفى نظير تنازل ماريا تريزا له عن هذا الاقليم الذى قام بغزوه ، عرض عليها أن يتحالف معها، وإذا كانت ماريا تريزا قد رفضت التحالف ، وصممت على الحرب ، فان قوات بروسيا هزمت القوات النمسوية بعد ذلك بثلاثة أشهر .

أما فرنسا فكان إتجاهها أن تظل على الحياد ، خاصة وأنها كانت قد إعترفت بحق ماريا تريزا فى الوصول لعرش النمسا. ولكن الاتجاه القارى كان يدفع حكومة فرنسا إلى أن تستمر فى العمل لإضعاف قوة النمسا. وأدى هذا الاتجاه إلى أن تعلن فرنسا الحرب على ماريا تريزا، .الب ـ برسل جيشين إلى ألمانيا. ولكن بدلا من أن تسير قواتها صوب فيينا إتجهت صوب بوهيميا، وضاعت منها فرصة إملاء شروط تسوية على النمسا .

ووجدت ماريا تريزا أن ثلاث من أقاليمها قد وقعت فى أيدى الأعداء: وهى النمسا العليا ، وبوهيميا ، وسيليزيا. ولكنها إتجهت إلى رمايها، وبخاصة فى المجر، وطلبت معونتهم ، فجهزوا لها جيشا من مائة ألف رجل ، جاء لنجدتها. وتمكنت ماريا تريزا من أن تحصل على معونة ملك سردينيا ضد الاسبان، كما تنازلت بروسيا عن سيليزيا نظير خروجها من الحرب . فوقع عبء الحرب بأكملها على كاهل فرنسا. واضطرت القوات الفرنسية إلى إخلاء أعالى النمسا وبوهيميا ، وبخسائر فادحة. وخشى ملك بروسيا من النتائج ، فأسرع بعقد محالفة جديدة مع فرنسا سنة ١٧٤٤ . وسرعان ما بدأ منتخب بافاريا التفاوض مع ماريا تريزا، وتنازل عن إدعاءاته، وبذلك إنتهت حرب الوراثة النمسوية ، وإن كانت المعارك قد إستمرت لمدة ثلاث سنوات بعد سنة ١٧٤٥ فى كل من سيليزيا ، والأراضى المنخفضة النمسوية ،

وفى إيطاليا.

وساد الملل من إستمرار هذه الحرب ، وبدأت المفاوضات فى مدينة آخن ، أكس لاشابيل .

وكانت فرنسا فى موقف متفوق ، إذ أنها كانت تسيطر على الأراضى المنخفضة ، كما أن خصومها كانوا منقسمين على أنفسهم. وتم عقد الصلح فى شهر أكتوبر سنة ١٧٤٨، وكان أسوأ صلح عقدته فرنسا. وكان لوى الخامس عشر يتسرع للوصول إلى السلم بأي ثمن ، فسلم كل الأقاليم التى كانت القوات الفرنسية قد دخلت اليها فى الأراضى المنخفضة ، وسافوا ونيس ، كما سلم حتى المعدات الحربية التى كان قد استولى عليها وفى ميدان المستعمرات ، إعترف بالوضع الراهن السابق للحرب .

ولكن هذا الصلح لم يكن فى واقع الأمر سوى هدنه ، خاصة وأن الصدامات فى الميدان الاستعمارى ظلت مستمرة بين الفرنسيين والانجليز ورغم ذلك فان فرنسا لم تستعد الاستعداد العسكرى الكافى للجولة التالية، فكانت نيات مدام دى بومبادور ، إلى جوار لوى الخا[illegible] سلمية تماما. أما فى الميدان البحرى فان فرنسا قامت ببناء ٥٠ قطعة بحرية ورغم أن فرنسا أنشأت مدرسة للهندسة العسكرية ، وقامت مدام دى بومبادور شخصيا بانشاء المدرسة الحربية ، إلا أنها كانت مدارس أكثر من كونها معاهد تقنية ويمكننا أن نضيف إلى ذلك توزيع الجيش على كل أنحاء فرنسا وتوزيع القيادات فيه على المحظيين ، أو معارف المحظيات ، وقلة التعايش بين الضباط والجنود ، مع قلة الخبرة ، الأمر الذي يحرمهم من معرفة قيادة رجالهم وقت العمليات. هذا من جانب فرنسا.

أما من جانب بروسيا فنجد أنهـا زادت عدد قواتها المسلحة بمقدار ٦٥ ألف جندى . وكان ضـباط جيشـها أحسن ضـباط فى كل أوروبا. وتمكن ملك بروسيا من إنشاء وحـدات مدفعية خفيـفة تحمل على ظهر الخيل ، ويمكنهـا أن تتحرك بسـهولة ، لدعم هجوم الفـرسان، ولتغـير توزيع النيران على خريطة العمليات فى وقت قصير. وكان ملك بروسيا يشرف بنفـسه على معـسكرات السلم ، التى تجتـمع كل عام ، لمواصلة تدريب القوات على المناورات الجماعية .

أما النمـسا فكان عليها أن تنـشيء كل شيء من جديد ، وتمكنت ماريا تريزا من إنشاء جيش للوقوف على الحدود مع بروسيا ، بلغ ١٣٠ ألف جندى ، ودربت ضبـاطة فى الأكاديميـة الحربية، وقلدت بروسيا فى إنشاء معسكرات التدريب . أما إنجلترا فكانت لاتهتم كثيرا بالجيش البرى، وركزت مجهودها على القوات البحرية، وبنت ١٥٠ سفينة جديدة.

ولقد تغير نظام التحـالفات بعد ذلك. وإذا كنا قد رأينا فى سنة ١٧٤٨، وعند صلح أكس لاشابيل أن فرنسا وبروسيا من جـانب وفى مواجهتهما النمسا وإنجلتـرا، فاننا نجد فى سنة ١٧٥٦ أن فرنسا قد أصـبحت حليفة للنمسا، وأن بروسـيا تحالفت مع إنجلترا. والواقع أن ملك بروسـيا كان هو السبب ، بتحالفه مع ملك إنجلترا، فى إجبار فرنسا على أن تتحالف مع النمسا . وبعد التوقيع على التـحالف البروسى الانجليزى ، خشيت فرنسا من أن تجد نفسها فى مواجهة تكتل يضمهما بالإضافة إلى النمسا، فعقـدت معاهدة فرسـاى مع النمسا، ولم تطالب فيـها بأي شيء سوى تعهد النمـسا بالبقاء على الحيـاد في الحرب الفرنسية الانجليـزية، وتعهد الطرفان باحتـرام كل منهما لممتلكات الآخر، وتقـديم المعونة للآخر فى حالة تهـديده. وكانت كل المخاطر فى جانب فـرنسا، التى لم تكسب شيئـا ، كما كانت المكاسب فى جـانب النمسا ، التى ستـحظى بمعونة

فرنسا ضد بروسيا ، بدون مقابل .

ونشب الصدام بعـد ثلاثة أشهر ، فى شهـر أغسطس سنة ١٧٥٣ وكانت هى بداية حرب السنوات السبع .

٥- حرب السنوات السبع :

قدمت فـرنسا ما تعهـدت بتقديمه من الرجال وقـام الملك فردريك بالزحف على إقليم سـاكس ، وإحـتل مدينـه درسدن. وسـاد شعـور بضرورة منع ملـك بروسيا من تهـديد السلام بعـد ذلك . ولكن إتجاها ثانيا ظهر فى فرنسا وذكر أنه كـان من الأسهل محاربة إنجلترا فى هانوفر القريبة ، بدلا من محـاربتها فى كندا والهند . وتكاتف هذان الاتجاهان زيادة توثيق الروابط مع النمـسا، وفى عـقد مـعاهدة ثانـية فى فـرساى للتحالف بينهـما، نصت على إعادة النظر فى الحدود الشماليـة لفرنسا، وفى صالحها، وخـاصة.إذا ما تمكنت ماريا تريزا من إستعـادة سيليزيا. وقدمت فرنسا فى هذه الحرب ١٤٠ ألف رجل و ٣٠ مليون جنيه، كان فى وسـعها أن تحـتفظ بهـا لنفسـها فى حـربها ضـد إنجلترا فى المـيدان الاستعمارى .

وكانت ماريا تريز قد تفاهمت كذلك مع منتخب ساكس ، وملك بولندا، ومعظم الأمراء الألمان ، ثم مع ملـك السويد وقيصـرة روسيا، التى كانت عـلى عداء واضح مع ملك بروسيـا ووجد ملك بروسـيا أن التكتل يزداد ضـده، فأسـرع بالعمل قـبل أن يتمكن تفـسيرا مـن ماريا لخصوم من الإستعداد للمعركة. وطلب تريزا عن تجميع قواتها فى منطقة بوهيميـا ، ثم هجمت قواته وإحتلت درسـدن وأسر ١٧ ألف من جنود ماريا تريزا ، وضمهم إلى قواته .

وهذه الحرب الجديدة إستمرت سبع سنوات ، وبدأت بسـيليزيا،

وكانت حربا مزدوجة ، فهى حرب بروسية نمسوية روسية من ناحية ، وحرب إنجليزية فرنسية من ناحية أخرى ، ودارت معاركها فى ثلاث مناطق: المنطقة الأولى هى ألمانيا الغربية شرق نهر الراين ، والمنطقة الثانية هى وسط ألمانيا فى بوهيميا وساكس وسيليزيا وبراندبورج وبوميرانيا والمنطقة الثالثة كانت هى بروسيا نفسها .

أما فى ألمانيا الغربية فكانت الحرب هناك تمثل مراحل من الحرب الفرنسية الإنجليزية ، وكان هدفها هو غزو إقليم هانوفر ، الذى كانت الأسرة الحاكمة فى إنجلترا تنتسب إليه . وأما فى ألمانيا الوسطى فان المعارك التى دارت هناك كانت تعتبر العمليات الأساسية فى الحرب، ودارت فى ساكس وسيليزيا . وظهرت فيها مهارة البروسيين فى المناورة وفى مفاجئة العدو ، وفى الهجوم بزاوية فى ميدان العمليات . وكان على فردريك ملك بروسيا أن يواجه هجمات النمسويين من الجنوب ، وهجمات الروس من الشرق . واضطر إلى أن يتنقل باستمرار من ساكس إلى سيليزيا ، ومن سيليزيا إلى براندبورج، وكان يستفيد من أخطاء أعدائه . ورغم ذلك فان هذه الحرب كانت مرهقة. وحتى مع الانتصارات لم يبق لفردريك من رجاله فى سنة ١٧٦١ سوى ٦٠ ألف جندى ، على درجة بسيطة من التدريب والإنضباط . وحدث تغيير فى الموقف حين توفيت قيصرة بروسيا ، وتولى العرش بعدها بطرس الثالث ، الذى كان كبير الإعجاب بملك بروسيا، فسحب قواته من مواجهة فردريك ، ووضعها تحت تصرفه . وكان تغيير موقف روسيا من ناحية ، والملل الذى أصاب فرنسا من ناحية أخرى ، عوامل فعالة ومؤثرة فى الحرب . وكانت فرنسا قد وقعت على مفاتحات مبدئية للصلح مع إنجلترا، الأمر الذى مهد للتوقيع على معاهدة باريس فى ١٠ فبراير ١٧٦٣ . واضطرت ماريا تريزا إلى أن تفاوض ، وعقدت الصلح

بعد خمسة أيام، وإحتفظ فردريك باقليم سيليزيا .

وفى خلال سبعة سنوات فشل التكتيك فى إملاء كلمته على بروسيا ، ورجع النصر النهائى فى هذه الحرب إلى فردريك ، وخبرته العسكرية ، وتجديده فى فنون التكتيك، وقدرته على المناورة .

ولقد صمد فى أوقات عصيبة وصمم على أن يحصل على النصر . أما الروس فانهم كانوا يحاربون ، ولكن بأسلوب عتيق ، ودون إهتمام بالهدف العسكرى، ودخلوا برلين مرتين ، وفرضوا الاتاوات على أهلها، ولكن دون أن يحاولوا إستمرار سيطرتهم عليها. أما النمسويون فكانوا لايحاربون إلا من اجل استعادة سيليزيا، وكانوا لايفكرون فيما هو أبعد من ذلك. وأما الفرنسيونُ فإنهم كانوا يحاربون ضد الانجليز فى أقليم هانوفر وكانوا بعيدين عن مواجهة قوات بروسيا . وفى سنة ١٧٦٣ زاد إعجاب كل الأوربيين بالملك فردريك، وكانت حرب السنوات السبع هى التى بنت مجد بروسيا كدولة عظمى ، بعد أن ثبت فيها أن الجنس البروسى كان هو أعظم جيش فى أوربا .

وكما ذكر فردريك ، فان فرنسا هى التى كانت ضحية هذه الحرب، فهى التى هزمت فى أوربا، كما هزمت فى نفس الوقت فى أمريكا وفى آسيا . وكانت تقوم بدورها، الذى كتب عليها، بكل أمانة ، وكانت تمر بآخر بمراحل التقهقر. وكانت حكومتها المكروهة من الشعب قد جمعت الأموال بكل وسيلة ممكنة ، لكى تقدمها معونة للنمسا . وقدر عدد الفرنسيين الذين سقطوا فى ميادين المعارك فى ألمانيا فى هذه الحرب بمائتى ألف جندى فرنسى ، وكانت خسائر فادحة، خاصة وأن الجنود كانوا فى بعض الأوقات بدون ضباط، وكان الجنود يعلمون أن ضباطهم وقوادهم كانوا من رجال البلاط ، لا من رجال

الحرب ، وغير صالحين للحياة العسكرية ، ويهتمون فى غالبيتهم بعمليات النهب، والسرقات ، وبناء القصور فى باريس ، فى الوقت الذى تدور فيه المعارك ، ولم يكن الخطأ هو خطأ الجندى الفرنسى ، بل كان خطأ الضابط والقائد، كما كتب بعد ذلك نابليون .

الباب الثالث

الشركات الاستعمارية والاستعمار الأوربى للعالم

الفصـــل العاشر

الشـــركات الهولندية والبريطانية

إذا كانت كل من اسبـانيا والبرتغال قـد نجحت ، فى أثناء القرن السادس عشر ، فى إنشاء امبراطورية ضخمة وفسيحة ، سواء فى العالم الجديد ، أو فى جنوب وجنوب شرق آسيا، فإن هذا الميدان الإستعمارى لم يبق طويلا حـكرا على هاتين الدولتين . وستـنـزل كل من هولندا، وهى دولة صغيرة ، وإنجلترا، وكانت دولة صـغيرة كذلك ، إلى ميدان الاستـعـمـار، وستنجح هولندا، ومن بعـدها إنجلتـرا فى إعطـاء شكل جديد للإسـتعـمار، وفى بناء امبـراطورية هامة. وحـدث ذلـك بعد أن نجحت هولندا فى التـحرر من سيطرة الاسبانيين فى مطـلع القرن السابع عشر.

١ – انتصار الاقاليم المتحدة :

كـانت هولندا هى أغنى الأقالـيم السبـعة التى إختـارت مـذهب كلفن، والتى تمكنت من الحصـول على استقلالها وكـان مجلس الدولة المتحـدة يجمع بين هذه الأقاليم السـبعة ، ويشرف على توزيع التـجارة وتوزيع التوابل التى تأتى من الشـرق . وقامت هولندا، فى الوقت الذى حصلت فيه على اسـتقلالها، باستضافة اليهـود الذين طردوا من إسبانيا والبرتغـال، واستضافـة اليهود والبروتسـتانت الذين طردوا من الأراضى المنخفضة، أي بلجـيكا، والتى كانت قد ظلت إسبانية. كمـا استضافت فيـما بعد العناصر البـروتستانتيـة التى قامت فرنسـا بطردها، وكانوا من أصحـاب رؤوس الأموال ، ويدينون بمبدأ تـدعيم الصداقـة رغم وجود تنافـس بين الدول. والمهم هـو أنهم جـاءوا بأمـوالهـم إلى الأراضى المنخفضة بعد تحررها .

وكان الهولنديون بحارة ، قبل أن يكونوا من أصحاب رؤوس الأموال، وكانت مدينة أمستردام تشبه مدينة البندقية . التى بنيت على الماء، وعاشت على البحر، ومن البحرية التى ستسخدمها فيما بعد فى حكم أقاليمها فيما وراء البحار . وكان الأسطول الهولندي كبيرا ، وتكاليف النقل به رخيصة ، وكانت هولندا تستورد أكثر مما تصدر، وكان مستوى معيشتها مرتفعا، ورجع ذلك إلى أن ميزانها التجارى كان أيجابيا ، نتيجة لتأجيرها سفنها، ونتيجة لسيطرتها على عمليات التأمين، ولإستغلالها رؤوس أموالها فيما وراء البحار. وكان هذا الوضع يدل على نظام إقتصادى مزدهر، مادام النقص فى الميزان التجارى تعوضه الزيادة المالية .

وكما كان الهولنديين بحارة ، كانوا معمرين ، فكان الفلاح الهولندي يعطى مثلا للاستعمار السلعي بإقتطاعه الأراضى الواطئة من البحر، وحمايتها بإنشاء السدود ، وبضخ الماء منها بطواحين الهواء. أما أبناء الحرف فكانوا ينسجون ويشذبون الماس ، ويبنون السفن ، ومع البحر والسفن خرج الهولنديون للصيد، وللحصول على [illegible] الحوت ، ووصلت سفنهم بعيدا فى المحيطات .

وفكر الهولنديون فى الحصول على أكبر نصيب ممكن من ميراث البرتغاليين الإستعمارى ، فوصلت سفنهم إلى مراكز الملابار، فى صورات وكوشين ، وسيلان وملقا وجزر التوابل الشهيرة . وإحتل البولنديون جزيرة فرموزا التى أصبحت أهم وكر للقراصنة فى ذلك الوقت. كما وصلوا إلى اليابان .

وتطلب الأمر إستناد الهولنديين إلى محطات بحرية ومخازن للتموين على طول الطريق الموصل للهند . فإنتزع الهولنديون رأس

الرجاء الصالح من البرتغاليين ، وإتخذوها قاعدة لهم ، كما إحتلوا جزيرة موريس فى المحيط الهندى، وبعض مراكز فى تسمانيا فى المحيط الهادى. وإتجه الهولنديون صوب الغرب ، وعملوا فى القرصنة وإحتلوا بعض الخلجان أو الجزر فى أمريكا الجنوبية. وفي أمريكا الشمالية ، وعند خليج هدسون ، أنشأ الهولنديون قرية صغيرة، ونشأت حولها مستعمرة سميت هولندا الجديدة .

وعلى العكس من نظام الإستعمار الاسبانى، فإن مجهودات الهولنديين كانت مجهودات مجموعة من الرجال ، عملت وثابرت علي العمل. وكان هذا العصر هو عصر الشركات ، حتى فى ميدان الإستعمار ، وكانت دوافعها ووسائلها مالية أكثر منها سياسية. وكانت الاقاليم المتحدة ترغب فى المتاجرة وكسب الثروة ، وكانت وسائلها هى رؤوس الأموال والبنوك والشركات . وكانت رؤوس الأموال تتزايد فى هولندا، وتم فى سنة ١٦٠٩ إنشاء بنك أمستردام الذى تحول إلى خزانة عامة للهولنديين ، وأصبح أكبر مركز للعمليات المالية فى أوربا. وكان هذا البنك يمول الشركات ، التى نشأت عن طريق إصدار الأسهم ، سواء أكانت تتعلق بمصانع السكر أو التأمين البحرى ، أو بناء السفن ، أو شركات التجارة والإستعمار وكانت أهمها .

ونشأت شركة فاذفير، أى الأراضى البعيدة ، ونشأت بعدها شركات أخرى مماثلة ، ثم أخذت هذه الشركات تندمج فى بعضها، حتى تصبح أكثر قوة ، فنشأت شركة الهند الشرقية ، ثم شركة الهند الغربية ، فى الربع الأول من القرن السابع عشر ، وأصبح فى وسع الهولنديين، بأساطيلهم ومصرفهم ، أن يقوموا بعملياتهم .

٢- الشركات الهولندية للهند الشرقية والهند الغربية :

كان من تـقليد هذا العـصر والتى طبقـت على معظم الشـركات الاستـعـمارية وفى كل البلاد، أن تمنـح الدولة هذه الشركـات إحـتكار التجـارة فى منطقة معـينة ، ومعـاملة خاصة فى الرسـوم الجمركـية ، وتعطيها حقـوق سيادة على الأقاليم التى تحتلهـا. وكانت هذه الشركات تحتفظ بجـيوش ، وتشرف على العدالة ، وتضـرب قطع العملة. ولم يكن هذا التنازل عن السلطة غريبا فى عصر كـانت فيه الجيوش والعدالة والنقود أدوات خاصة فى بعض أقاليم أوربا نفسها. والواقع أن الشركات الإستعمارية صاحبة الإمتياز قد حلت محل سادة الإقطاع، على أن تطبق نشاطهـا فيـما وراء البحـار . وكانت هناك إلتـزامات خاصـة على هذه الشركات نظير إمتيازاتها فكان عليـها أن تضمن المواصلات مع أقاليمها، وتقوم بإسـتغـلالها، وبتوطين الأهالـى فيهـا، وبإبعاد الأجـانب عنها، وبإدخال المسيحية إليها فى بعض الأحيان كما كان حملة الأسهم يطالبون دائما بزيادة أرباحهم .

وكانت الشركة الهـولندية للهند الشرقية، بعد نجاحهـا، تعد ٨٠٪ لهذه الشـركات فكانت بورجوازية التـجار هى التى جمعت رأس مـالها الأصلى، والذى زاد على سـتة ملايين فلوران. أمـا ميدان عـملها فـقد غطى المحـيط الهادى من رأس الرجـاء الصالح إلى مـضيق مـاجلان . وكانت الشـركة تحتكر كل التـجارة الهولندية فى هذه المنطقـة . وكانت تبيع السكر فى أوربا بخـمسة أضعـاف ثمن شرائها له، والفلفل بستـة أضعاف ، ولذلك فإنـها كانت لاتخسر . أما الأنصبـة فى الأرباح فقد وصلت إلى نسبة تتـراوح بين ١٢٪ ، ١٥٪ وبمتوسط ٢٠٪ وكانت تمثل مضاعفة رأس المال ستة وثلاثين مرة فى مائة وثمانين عاما .

وكانت، هناك إدارة خاصة لهذه الشركة فى الهند . وبدأ الحاكم العام إختصاصاته كمدير تجارى . وكان هناك مجلس يعاونه يضم التجار والمحاسبين والباعة، ثم أصبح يضم رؤساءهم بعد أن بلغ عددهم عشرين ألف فى الحكومات التسع الموجودة هناك . وكانت التعليمات تمنعهم من العمل لحسابهم الشخصى ، وإن كان ضعف الإشراف قد أدى إلى إنتشار عمليات التهريب .

وكانت هذه الشركة تشرف على ما يتراوح بين ١٢، ٢٠ ألف جندى علاوة على ١٥ ألف بحار. وكانت تسيطر على كل المراكز المنتشرة من رأس الرجاء الصالح حتى اليابان ، والتي كانت متخصصة فى العمليات التجارية. ثم أخذت لنفسها طابعا عسكريا حين أنشأت الحصون للدفاع عن هذه المراكز، وأخذت طابعا تجاريا زراعيا حين بدأ المعمرون فى فلاحة الأراضى المحيطة بها، فتحول المركز التجارى وأصبح مركزا للزراعة . وبهذه الطريقة تحولت القاعدة البحرية عند رأس الرجاء الصالح إلى مستعمرة للتوطن . وأقام فيها الفلاحون الهولنديون ، وأسمهم البربر ، ثم لحق بهم فيها الهيجونوت الفرنسيون ، وتكاتفوا سويا فى إبعاد عناصر الوطنيين عنها بكل قوة .

أما فى جارا، فإن الشركة قد سيطرت على أمراء الجزيرة، وأنشأت عاصمتها بتافيا على خرائب مدينة جاكارتا الوطنية. وتمكنت من السيطرة على كل الجزيرة وبعد التجارة ، بدأت فى الزراعة ، لنفسها ولحسابها. وإهتمت الشركة بزراعة قصب السكر، رغم إهتمامها بالفلفل، وأجبرت الأهالى على زراعة ما تحتاجه من منتجات ، مثل البن ، فتحول التاجر إلى مشرف على الإنتاج، وإستخدم الجيوش من المرتزقة لتنفيذ مخططاته وأشرف الهولنديون فى مالقة على زراعة المسك والقرنفل، وسيطروا فى الهند على إنتاج الفلفل والتوابل ثم

القهوة ،وإستخدموا المهاجرين الصينيين فى زراعة السكر فى فرموزا

وأضافت هذه المنتجات الكثير إلى الإنتاج التقليدى للشرق ، وقامت الشركة المركزية فى بتافيا بتخزين هذه المنتجات وبتموين أوربا منها. وكانت هناك ثلاث قوافل تقلع فى كل سنة ، فى الربيع وسبتمبر ونهاية ديسمبر من الأراضى المنخفضة وتصل إلى الهند بعد ستة أشهر من الملاحة ، وتعود فى أكتوبر وديسمبر محملة بمنتجات ماوراء البحار .

وعلاوة على التبادل بين أوربا والشرق ، عملت الشركة على التجارة بين بلاد الشرق وبعضها. وأصبحت الشركة الهولندية للهند الشرقية، بتجارتها وإمبراطوريتها، قوة يحسب لها كل حساب، وأصبح الحاكم فى بتافيا لايفترق عن الملك ، وأصبح مجلس الولايات المتحدة ، لايتدخل فى تعينه . أما المديرون فقد إعترفوا بحقوقهم، وأصروا على أن مستعمرات الهند الشرقية لم تكن من إنشاء الدولة، بل إن التجار هم الذين قاموا بإنشائها.

ووجدت الأراضى المنخفضة أن هذا النظام قد بلغ [illegible] س الكمال تسمح لها بتطبيقه على الهند الأخرى ، التى كان كريستوف كولومب قد إكتشفها ، أى امريكا. فنشأت الشركة الهولندية للهند الغربية سنة ١٦٢١ بنفس طريقة أختها الكبرى . وبدأت برأسمال كبير. وحصلت على إحتكار كل السواحل الأمريكية وجزء من المحيط الهادى ، والسواحل الغربية الافريقية، والتى كانت تمتلك عليها بعض القلاع المبعثرة حتى رأس الرجاء الصالح .

وبدأت هذه الشركة كمشروع لنهب أمريكا اللاتينية، وقام بعض القناصة البحريين والقراصنة بإنشاء قواعد لهم فى العالم الجديد وتعاونوا

مع الشركة ، ثم قامت الشركة بانشاء مراكز لها فى أمريكا اللاتينية، وعملت على زراعة قصب السكر ، وتحولت بهذه الطريقة من الرقصنة إلى الزراعة .

أما فى أمريكا الشمالية ، وفى هولندا الجديدة، فإن الشركة قامت بشراء جزيرة مانهاتن من الهنود الحمر بمبلغ ٦٠ فلوران ، وبدأت فى توزيع أراضيها على من يمكنه إحضار ٥٠ عاملا، وأنشأت إحدى القلاع بعيدا عنها للمتاجرة فى الفراء مع الهنود الحمر . ولكن ممتلكات هولندا فى أمريكا كانت دقيقة : فطردوا من البرازيل ، كما قام أسطول إنجليزى يحمل خمسمائة جندى بطرد الشركة من هولندا الجديدة. وخسر أ[illegible] [illegible]سهم ، وأعلنت الشركة الهولندية للهند الغربية أنها حلت نفسها. وهكذا نجحت الشركة الهولندية الشرقية ، وفشلت الشركة الهولندية الهند الغربية .

وعلى أى حال فإن أساطيل هولندا قد أوصلت بلادها الصغيرة بجميع أنحاء العالم، وسمحت للهولنديين بالوصول إلى أفكار جديدة، علاوة على حصولهم السلع، ومكاسبهم فى التجارة ، ولقد إزدهرت هولندا، وكانت أوربا كلها تحقد عليها وعلى هذا الازدهار. وعملت الدول الأخرى على إنشاء شركات أخرى للهند، مثل الهولنديين ، وكانت إنجلترا وفرنسا أول من حاول تقليد طريقة الهولنديين .

٣- الشركة البريطانية للهند :

كانت إنجلترا، رغم قلة سكانها، قد شعرت بأن مستقبلها سيكون مرتبط بالبحر وبالأستعمار ،وبدأت فى العمل مع أقرب جيرانها لها، مع الإسكتلنديين ومع الأيرلنديين . ولقد تمكنت إنجلترا من الاتحاد مع إسكتلندا، وشعر الأسكتلنديون بعد فترة بأنهم يفيدون من هذا الإتحاد

مادامت لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات .

أما مع إيرلندا ، فإن المسألة كانت أكثر صعوبة ، فلقد كانت هناك الاختلافات المذهبية، وخوف إنجلترا الدائم من تحالف الأيرلنديين ، وهو كاثوليك، مع الدول الكاثوليكية على القارة الأوربية . ولذلك فإن إنجلترا عملت على الاحتفاظ بالجزء الشمالى من جزيرة أيرلندا تحت حكمها المباشر، كرأس جسر لها فى الجزيرة، ولإقامة التوازن بينه وبين بقية الجزيرة. وقام الأيرلنديون بسلسلة طويلة من الثورات ، أردفتها إنجلترا بعمليات متتالية للقمح. وإستخدمت إنجلترا القسوة فأبعدتهم عن الوظائف العامة ومنعت الزواج بهم . وفى عصر كروميل قام الانجليز بقتل ٣٠ الف أيرلندى وجمعوا النساء والبنات الأيرلنديات وصدروهن كرقيق لأمريكا. وطرد أربعين ألف آخرين إلى القارة وباعوا سبعة آلاف آخرين كعبيد فى الهند الغربية وأمريكا، وبمعنى آخر قامت إنجلترا بسياسة إستعمار فى إيرلندا، وفصلت بين الإنجليز والأيرلنديين ، ودفعت بالايرلنديين إلى منطقة مستنقعات كونوت، ومارست سياسة التفرقة العنصرية على المهزوم، وبإسم البروتستانتية ضد الكاثوليكية. وحصلت إنجلترا على مساحات واسعة من الأراضى الزراعية فى أيرلندا لكبار الملاك الانجليز، وكانت تتمرن على العمليات الاستعمارية فى أقرب الأقليم إليها. وكلما شعرت إنجلترا بأن وجود الثورة فى أيرلندا يهددها فى إنجلترا، ويهددها فى مشروعاتها الاستعمارية، زادت من قسوة تحكمها فى الأيرلنديين

وستعمل بريطانيا ، كدولة مستعمرة ، على أن تسيطر على الهند. وكانت الهند تعيش حروب مستمرة بعد ضعف إمبراطورية المغول فيها. وإعتمد السادة فيها على العناصر الإسلامية، وهم أقلية كجنود للاحتفاظ لهم بالسلطة . ولكن الأمور إستمرت فى تدهورها، وأصبح السلطان

يبيع المقاطعات إلى النواب، الذين كانوا يوزعونها بدورهم على الراجات، ولكل مركـز وسلطة ثمن . ومع هذه الفوضى والضـعف والمنازعات الداخلية، وثروات الهند الضـخمة ، زادت أطماع الانجليـز والفرنسيين للتدخل فى الهند والسـيطرة عليها. وإذا كان البرتغـاليون قد تمكنوا من إنشاء بعض المراكز على سواحل مالابار، فإن الهند كانت قارة ، أو شبه قارة ، وفيهـا متسع للجميع . وكان الانجليزا يحـقدون على الهولنديين فى إنشائهم الشركات الاسـتعمارية ، وفى جمعهم للثـروات الضخمة. ومع هذا الحقـد، إقتفى الانجليـز آثار الهولنديين ، فى إنشاء الشـركات الاستعمارية . ومن هذه الشركات الشركة البريطانية للهند .

ووافقت الملكة اليزابيث على إنشاء شركة الهند الشرقية خاصة وأن هولندا كانت قد ضاعفت أثمان الفلـفل، فصمم تجار لندن المتعاملين مع الهند على إنشاء شركة تتعـامل رأسا مع الهند ، ومع الشرق الأقصى ، دون أن تمر عن طريق الهولنديين .

ولقد أعطى التـاج لهذه الشركـة إحتكار التجـارة بين إنجلترا وكل البلاد والواقعة إلى شرق رأس الرجـاء الصالح، مع سلطات سيادة على المناطق التى تغزوها، وإعفاءات جمركية على سلعها، والحق فى تصدير ما قيـمته ثلاثين ألف جنيـه من المعادن النفيسـة سنويا. وبدأت بـرأسمال قدره ٨٠ ألف جنيه زادت بسرعة إلى ٤١٨ ألف . كـما زاد إمتيازاتها، مع مطلع القرن السابع عشر ، وأصبح لهـا الحق فى الاحتفاظ بحاميات وإعلان الحـرب، وعقد الصـلح ، وتولى السلطة القضـائية. وأقلع أول أساطيلها فى ظل حـماس عام . وذهب جيمس لانكسـتر الذى قاد هذا الأسطول حتى جـزر التوابل ، وتفاوض مع السـلاطين المحليين، وأنشأ مـراكز تجـارية أخرى فى جـاوا وسومطرة، ثم عـاد . وأصبـحت هذه الشركة منذ ذلك الوقت من المنشآت الوطنية .

وحصلت هذه الشركة على إمتيازات أخرى فى مالقا وعلى سواحل الهند نفسها، وأنشئت قواعد بريطانية ، وبعض القلاع، كما حصلت على جزيرة بومباى بعد ذلك . ومع معارضة الهنود لهم ، قبل الانجليز أنصاف الحلول ، وساروا خطوة بخطوة فى طريق توسيع مناطق عملياتهم وحصلوا على إدارة مناطق على مصب الكانج وفى البنغال. ثم تدخل بعض مندوبى هذه الشركة فى عملية المنازعات بين الرؤساء الوطنيين ، ودافعوا عن بعضهم ضد البعض الآخر ، وحصلوا على إمتيازات ، ثم على حقوق جديدة وبدأت بذلك الامبراطورية الانجليزية فى الهند .

وإصطدمت شركة الهند فى الأرخبيل بمنافستها الهولندية، ونشأت عن ذلك معارك حربية ، إستخدم فيها كل من الطرفين الهدم وإحراق القرى للتفوق على الآخر . وكان الانجليز مرنين فى تعاملهم ، وفى حالة فقدهم لصديق ، كانوا يسرعون إلى صديق آخر. وهكذا حصلت إنجلترا على مراكز ممتزة فى التجارة الشرقية. وإذا كانت شركة الهند الشرقية قد ظلت لفترة طويلة أقل إزدهارا من زميلتها الهولندية ، وإذا كان الاسطول الانجليزى قد ظل لفترة طويلة ليقوم بعمل أكثر من إقتفائه آثار السفن الهولندية،فإن هذا الكفاح قد إنتهى بتسوية بين الدولتين الأوربيتين. وفى صالح إنجلترا. وإذا كانت إنجلترا قد أبعدت لفترة من مكاسب الهند، فإنها كسبت فى أوربا وخاصة بعد أن قامت أسرة أورانج بتوحيد البلدين،ولم تعد هولندا بعد ذلك أكثر من كونها تابعة لندن، وفى مواجهة فرنسا وإسبانيا. ووافقت هولندا على هذه الهزيمة لكى تحافظ على كيانها فى أوربا وأدى ذلك إلى تفوق شركة الهند الشرقية على الشركة الهولندية، وإرتفعت أرباحها السنوية إلى ١٠٠٪ ثم إلى ٢٠٠٪ من رأس مالها. واضافت هذه الشركة القوة المالية والسياسية إلى

القوة التـجارية ، وأصبـحت تقرض حكومـة لندن نفسهـا، وقامت فى الهند بانتزاع الحقوق من الأمراء واشترت منهم أراضيهم بأكملها، مع ما عليها من رعايا، نظير دفع معاش سنوى للأمراء. فأصبحت هذه الشركة مالكة وذات سيادة. وأصبح الحاكم العـام المقيم فى كالكتا يضع القوانين ويعدلها، ويعين الأشخاص فى كل الوظائف .

وترك عملة الأسـهم الشركة تـقوم بكل شيء، مادامت أرباحـها كبـيرة. ورضيت إنجلـترا بهذا النظام الذى يوحـد بين مجـهود المواطنين ومجهود الدولة ، فى إطار المشروع التـجارى وكانت شركة الهند تحقق آمال الانجليز فـيها، وبشكل سمح لها بأن تـعيش لمدة أطول من قرنين ونصف قرن، وسمح لها بأن توصل أحد نظم عصر الملكة اليزابيث حتى عصر الملكة فيكتوريا .

٤- إنجلترا في المحيط الاطلسي :

كانت إنجلترا قد عملت كقـوة منافسة للشركة الهولندية فى الشرق الأقصى ، أمـا فى الهند الغربيـة فان إنجلترا وجـدت إسبانيـا كدولة فى مـواجهـتهـا. ولذلك فـان إنجلترا تركت هذا الميـدان الغربى مفـتوحـا للمجـهودات الشخصـية، وبشكل يسمح لأي فرد بالوصـول إلى العالم الجديد، وإنشاء أى عدد ممكن من الشركات .

وكان أول ميدان للعمليـات الانجليزية فى هذا الطريق هو أفريقية، التى نشـأت على سواحلهـا مراكـز لصـيد وتوريد العـبيـد . ولم تكن لاسبانيا الموارد والأدوات اللازمة للعـمل فى تجارة الرقيق، ونزل الانجليز إلى هذا الميدان بسفنهم وأموالهم لشـراء العبيد، ونقلهم إلى أمريكا، أى أنهم بدأوا العمـل فى هذا الميدان كقـوة مساعـدة للاستـعمار الاسـبانى لأمـريكا. ولكن الانجليـز عملوا فى نفس الوقـت على تحطيم الحصـار

الاسبانى على سواحل إفريقية ، كخطوة أولى يصلون منها إلى أمريكا. فعملت شركة غرب أفريقية على طول الساحل الغربى لهذه القارة، وأقامت نقطا ومركزالتجارة الرقيق، وتمكنت من السيطرة على نصف هذه التجارة. كما قام الانجليز بالاستيلاء على بعض القواعد إستخدموها محطات تجارية مثل جزيرة سانت هيلين، ثم حصلوا بعد ذلك على طنجة ، وحين إستعادها المغاربة إستولى الانجليز على جبل طارق ، كما إستولوا على جزيرة مينورقه. وبهذه القواعد أخذ الانجليز فى محاصرة إسبانيا تجاريا. وإذا كانت إسبانيا تحتكر التجارة كدولة، فإن الإنجليز ، كأفراد ، كانوا يعملون فى التهريب، وذلك للكسب، وكذلك اتحطيم النظام الاحتكارى الاسبانى ، وكانت سفن الدولة الاسبانية تفرغ نصف حمولتها قبل دخولها الميناء الأسبانى، لسفن المهربين الانجليز . ولم يكن النظام الأسبانى، يسمح بمحاكمة قباطين السفن وهم من الارستقراطية، فعمل المهربون الانجليز عمل السوس فى نخر النظام الإحتكارى الاسبانى ، وزادت المكاسب فى أيديهم، فى الوقت الذى إحتفظت فيه إسبانيا بالعزة والهيبة .

وكذلك عمل الانجليز على إخراج الإسبانيين من جزر الهند الغربية ، وكانت جميلة وخضراء. حقيقة أنها كانت لاتنتج الذهب ، ولكنها كانت غنية بالسكر والطباق والقهوة والنيلة. ،وكانت إسبانيا تخزن حمولات كبيرة من السلع قبل شحنها على قوافل من السفن. وإستخدم الانجليز طريقة أخرى للوصول إلى أكبر ربح بأقل ثمن ، وهى طريقة القرصنة. وأنشأ الانجليز مراكز لقرصنتهم فى الموانى الصغيرة، ونهبوا السفن الأسبانية بكامل حمولتها. وكان هناك قراصنة من الانجليز إشتهر إسمهم فى التاريخ. وإستولى رالى على جزيرة ترينيداد، كما إستولى غيره على الكثير من المواقع المتجهة صوب فلوريدا.

وكانت المساحات شاسعة، ولم يكن فى وسع الاسبانيين إحتلالها كلها، فلم يتمكنوا من مقاومة مجيء الإنجليز، خاصة وأن أغلب الرواد الأوائل من الإنجليز،كانوا من القراصنة، الذين لم تتمكن حكومة مدريد ولا حتى حكومة لندن من إجبارهم على تقديم كشوف لحساباتهم. وفى عهد كرومويل، قام البحارة الانجليز بغزو جامايكا فى جنوب كوبا سنة ١٦٠٥، وقضوا على الاسبانيين، بعد أن كان هؤلاء قد قضوا على الوطنيين، وعمر الانجليز جزيرة جامايكا بالاسكتلنديين والأيرلنديين والزنوج، وجعلوا منها مركزا لتجارة العبيد والتهريب.

وأصحبت جزر الأنتيل الإنجليزية إحدى النقط الهامة فى تلك الرحلة المثلثة بين موانى إنجلترا التى تخرج منها السفن محملة بالأنسجة والادوات الحديدية، لكى تصل إلى الساحل الإفريقى وتبدل سلعها وتعيد شحنها بالعبيد، ثم تصل إلى أمريكا وتبيع العبيد وتشترى السكر والروم والطباق ثم القطن فيما بعد. وسمح الاسبانيون للانجليز بالبقاء فى هندوراس، بدعوى قطع الأخشاب منها، وبقى الانجليز هناك، وتحالفوا مع الهنود الحمر، وأعطوهم حمايتهم، فنشأت مستعمرة هندوراس البريطانية، كقاعدة لتوسع البريطانيين فى نيكاراجوا وجواتيمالا، وعطاء بريطانيا منفذا على المحيط الهادى.

ونشأت مستعمرات إنجليزية أخرى على سواحل أمريكا الشمالية، فنشأت شركة العمل فى خليج هدسون للتجارة فى الفراء، وظهرت أطماع إنجلترا فى سواحل كندا وهى التى سيصطدم فيها

الانجليز بالفرنسيين .

ونشأت مستعمرات إنجليزية حقيقية فى المنطقة الواقعة بين أمريكا الاسبانية وأمريكا الفرنسية، وكانت أولها هى مستعمرة فرجينيا، والتى بدأ وصول المستعمرين الانجليز إليها، فبنوا الأكواخ، وزرعوا الطباق وزاد عددهم على مر السنين. ثم توالى مجىء الانجليز ، وبخاصة الهاربين من الإضطهاد الدينى إلى فرجينيا، وعملوا على إحتكار زراعة الذرة ، وإنشاء المدن .

ونشأت مستعمرة ثانية قريبة منها بعد أن أرسلت شركة خليج مساشوست ألف من البيوريتان الذين سينضمون حول برسطن، إلى عدد من المهاجرين الفارين من سياسة أسرة ستيوارت الكاثوليكية. وهكذا صدرت بريطانيا « الهراطقة » إلى أمريكا ، وعمرتها بهم .

ونشأت مستعمرات أخرى حول فرجينيا، وقام لورد بلتمور بانشاء إقليم سماه مارى لاند نسبة إلى الملكة سنة ١٦٣٢، ومنح فيه ألف فدان لكل سيد يتمكن من إحضار خمس من المواطنين .

ومنح شارل الثانى أراض مماثلة فى جنوب فرجينيا لكثير من رعاياه، سماها الفرنسيون باسم كارولينا نسبة إلى ملكهم شارل التاسع، وإحتفظت بإسمها نسبة إلى شارل ملك إنجلترا. وأعطى نفس الملك إلى وليام أراضى جديدة شمال مارى لاند سنة ١٦٨١ جعل منها بين ملجأ للكواركز ، البيوريتان ، وسميت هذه المنطقة بإسم بنسلفانيا، إذ أن الغابات فيها كانت جميلة فنسبت الغابات إلى بن، ونشأت عاصمتها فيلادلفيا أملا فى أن يعيش الرجال فيها أخوة، وساعد بنسلفانيا على

إجتذاب أعداد كبيرة من المهاجرين .

وهكذا نشأت مستعمرات إنجليزية نتيجة للصدفة أو أحدى الهبات أو لعقد إمتياز . وكانت بعض هذه المستعمرات تجهل ما يجرى فى الوطن الأم ، وكان الحماس الدينى يفصل بينهم . وحين جاء كرومويل أصدر مرسوما ينص على خضوع المستعمرات لإنجلترا.

وما دامت سفنهم قد أصبحت إنجليزية ، ومادامت هذه المستعمرات قد دخلت فى النطاق الاقتصادى لانجلترا، فإن الامتيازات قد أصبحت محددة، والروابط حقيقية .

وكانت هذه المستعمرات تنقسم عن بعضها إلى مجموعتين ، تفصل بينها هولندا الجديدة ، والتى كانت ملكا للشركة الهولندية للهند الغربية . وحاول الهولنديون أن يدافعوا عن نيو أمستردام، فأقفلوا نقطة مانهاتن بحائط «وال» الذى سيعطى إسمه فيما بعد إلى وال ستريت. وعمل ملك إنجلترا على الاستيلاء على هذه المنطقة ، وأرسل إليها أسطولا، وسلمت هولندا الجديدة، وتحولت نيوامستردام إلى نيويورك ، كما تطور وال استريت مع الزمن فى شكله وأهميته ، وظل مركزا للصيارفة والمصارف ، التى كبرت . وعمرت الأراضى الواقعة بين الهدسون وديلاور ، وأصبحت تحمل إسم نيوجرسى . وتوحدت بذلك كل الأراضى . أو المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا.

وكانت جورجيا هى آخر مستعمرة نشأت هناك سنة ١٧٣٢، فى أقصى الجنوب إلى جوار فلوريدا الأسبانية وأرسلت حكومة لندن إليها

كل المساجين ، الذين ابدلوا زنزاناتهم بطبيعة جميلة مملؤة بالنخيل. ثم جاء مهاجرين جدد، وحصلوا على الأراضى وقطعان الماشية .

ويصل بنا عدد المستعمرات الآن إلى إثنتى عشر، إتحدت رغم إنفصالها فى عملية الكفاح ضد الهنود الحمر، وضد الأجانب . وكان الإنجليز لايعرفون الوطنيين إلا لكى يشتروا منهم الفراء وكان هدفهم الأساسى هو إبعادهم أو القضاء عليهم. وعلى عكس سياسة الاسبانيين ، التى كانت قد قبلت التخليط ، وحاولت أن تحافظ على الجنس ، كانت السياسة الأنجلوسكسونية تقوم على أساس اخلاء أمريكا من سكانها الأصليين .

وجاء كثير من المعمرين إلى العالم الجديد، نتيجة لإرتفاع الأسعار المستمر ، ولإشتداد البؤس ، أو نتيجة للخصومات الدينية، وكانوا يعبرون المحيط آملين الوصول إلى أرض يعيشون فيها بسلام، فجاءت أعداد كبيرة من الإنجليز والأيرلنديين والإسكتلنديين وسكان وادى الراين والفرنسيين ، ومعظمهم من الهيجونوت ، وبدأوا فى تفليح الأرض. وأحضروا معهم سواعدهم وعزيمتهم على العمل، ولكنهم أحضروا معهم الكروم وأشجار التوت . ولم يزد عددهم على أربعين ألفا فى منتصف القرن الثامن عشر ، وأكمل العبيد الزنوج المستوردون من أفريقيا، الأيدى العاملة اللازمة. ولم يكن هناك أحد فى ذلك الوقت فى بوسطن أوهاياتى يفكر فى الإستغناء عن العبيد، أو فى معاملتهم كرجال أحرار .

أما النظام السياسى للمستعمرات الإنجليزية فكان يختلف من مكان إلى آخر، كما أن أصل الأهالى كان يختلف من إقليم إلى اقليم، فكانت بعضها ملكا شبه اقطاعى ، وكانت بعضها ملكا لشركة أو

مجموعة أعضاء من المؤسسين ، حصلت أوحصلوا على عقد إمتياز .

ولقد إنتهى المطاف بمعظم المستعمرات، بعد إفلاس الشركات التى قامت بإنشائها. أو بعد إنتهاء عقد إمتيازهم ، إلى التاج ، وأصبحت مستعمرات ملكية. ولكن نظمهم سارت صوب الوحدة، وكان هناك وكل منها حاكم يمثل الملك أو يمثل الملاك . وأصبح المجلس الذى ينتخبه المعمرون يصوت على القوانين وعلى الميزانية. أما فى لندن فان المجلس الخاص ، والأميرالية، ووزارة التجارة والمزروعات، كانت تشرف على أمريكا الانجليزية .

أما وزارة التجارة والمزروعات ، أو المجلس الأعلى للتجارة Board ... فكان المؤسسة الجديدة المكلفة بالأشراف على كل الممتلكات الإنجليزية فيما وراء البحار. وكان يجمع هاتين الطريقتين للاستعمار : الإستعمار التجارى ، والإستعمار الزراعى .

وإضطر المعمرون إلى أن يزرعوا فى أمريكا حتى يتمكنوا من التجارة: فزرعوا الطباق والأرز فى المستعمرات الإستوائية ، والذرة والقمح فى المستعمرات المعتدلة. وسواء أكانت الممتلكات كبيرة فى الجنوب أو تتكون من مساحات صغيرة فى الشمال، فان المعمرين كانوا يعملون ويعيشون عيشة صحية .

وهكذا زادت ثروات بريطانيا من المحيط، وبشركة واحدة ، فى الوقت الذى أعطتها فيها مشروعاتها المتعددة أراضى جديدة فى أمريكا، وزودتها بمنتجات تختلف عن منتجات الشرق ، وتفتح المجال أمامها للتوسع فى المستقبل .

الفصل الحادي عشر

فرنســـا وشركاتها الاستعمارية

كانت فرنسا فى العـصر الإستعمارى، من أكثـر بلاد أوربا كثافة فى السكان، وكان شعبها أكبر شعب فى أوربا. وكان الفرنسيون يعتبرون إسبانيا بلادا فقيرا ويعتـبرون كل من إنجلترا وهولندا بلادا صغيرة، وكان الفقر، وضيق المجال من أهم الأسباب التى تدفع الشعوب للإستعمار . وكان معظم الفرنسيين يعتبرون كندا بلدا فـقيرا، غير صالحة للحرث ،لا للرعى وبالتالى لاتصلـح للفرنسيين. ولكن هذا لم يمنع بعـضهم من أن ينزل إلى ميدان الإستعمار.

* الشركات الفرنسية :

كان الملك هنرى الرابع من أكبر الملوك الفرنسيين الذين عملوا على تشجيع الاسـتعمار. وأحاط به الكثـيرون من المستشـارين الذين نصحوه بضرورة إنشـاء المزارع والأقاليم الفرنسـية فيـما وراء البحـار ، وإرسال معمـرين فرنسيين لإستـغلالها. وفكر البعض فى العـثور على ثروات، وفكر غيـرهم فى ضرورة إدخـال الحضـارة والمدينة بين شعـوب ما وراء البحار، وتحويلها إلى المسيحية. ونظر ريشيليو إلى هذه المشروعات على أنها حـروب صليبيـة ، يقتفون فـيها آثار القـديسين الأوائل، وينشرون عظمـة فرنسـا فى الأراضى البعـيـدة، ويعملون على تحـرير الشعـوب المستعـبدة وعلى إنتزاعهـا من حالة البربرية، وكان يرغـب فى الحصول على موافقة روما عـلى مشروعاته حتى إذا ما عارضتهـا إسبانيا. وهكذا جاءت كل الامتيازات التى أعطتها فرنسا للاستعمار تشبه تلك التى كانت موجودة فـى عصر الحروب الصليـبية، وعصر الـغزاة الاسبانيين، فـيما يتعلق بذلك الـلون المسيحى الواضح لهـذه المشروعات. وكـانت أعلام الشركات الإستعمارية الفرنسـية هى نفس أعلام الصليبيين وأعلام الغزاة

الاسبـانيين . ولكن الفـرنسيين فكروا كـذلك فى التجـارة ، كمـا كان الصليبيون قد فـكروا فيها من قبل ، واتخذ الفرنسيـون لبدء مشروعاتهم نفس الوسائل التى كان الهولنديون والإنجليز قد نجحوا بها، أى بانشائهم الشركات الاستعمارية. وكانت العملية صعبة بالنسبة لفرد واحد، وكانت صعـبة كـذلك أن تقوم بها الدولة بمـفردها. أما الإسـتعمـار عن طريق الشركـات فكان لايكلف الدولة شيـئا، وكـان يترك للنشاط الفردى ، وتحت إشراف الدولة وبمساعدتها، مهمة مواجهة أي أخطار .

وكان لوى الحـادى عشر قـد حاول تنفيـذ هذه الفكرة من قبل ، وإقترح سـنة ١٤٨٢ على بعض التجار إنشاء شـركة فى مرسيليـا تحتكر التجـارة فى شرق البـحر المتـوسط. ولكن فرنسـا كانت تئن من نـتائج الحـروب الطويلة ، فلم تتـضح الفكرة فى أذهان الفـرنسيين . ثم جـاء ريشيلـيو وأخذ نفس الفكـرة ، وأنشأ شركـات كثـيرة، رغم أن رؤوس أموالها كانت بسيطة ، فإنحلت هذه الشركات الواحدة بعد الأخرى .

وجاء كـولبير وأعـطى بعض المزايا والضمانـات اللازمة للازدهار لهذه الشركات، وكـانت أقل فى عددها، ولكنها كانت أكثـر نجهـا من الشركـات السابقة. وأنشأ كـولبير شركـات الهند الشرقية والهند الغـربية وشركة الشمال ، وشركة الشرق ، وشركة السنغال ، وجعلها تفيد من المزايا المالية التى أعطاها لوى الرابع عشـر لنهضة البـحرية والتـجارة . فساعـد ذلك على الأزدهار والتكاثر حتى بلغ عدد هذه الشـركات، فى الفترة التى تمتد حتى الثورة الفرنسية إلى خمسة وسبعين شركة، حاولت الإثراء من عـمليات مـا وراء البحـار . وحـصلت هذه الشركـات على حقوق إدارية وقضائية على أقاليم ما وراء البحار، فأصبحت المستعمرات ممتلكات الشركات، تقوم بـنقل المعمرين إليها، وإرسال بعثـات تبشيرية إليها، وتنشر فيها التقاليد الفرنسية، وتحاول هضم الهنود الحمر. وكانت

فرنسا متحررة تجاه الهنود الحمر، وأصبح من حق كل من يعتنق المسيحية منهم أن يصبح فرنسيا، ولكنها منعت الهيجونوت الفرنسيين من الإقامة فى هذه المستعمرات حتى لايؤدى ذلك إلى إنقسام دينى حاولت فرنسا أن تقضى عليه فى بلادها، وصممت على عدم السماح به فى أقاليمها فيما وراء البحار.

وعملت فرنسا على تشجيع المعمرين ، ومنحت ألقاب النبل للكثير من التجار والسماسرة وأصحاب السفن، وكذلك أصحاب رؤوس الأموال. وكان الملك يأخذ أول نصيب فى الشركة، حتى يجبر النبلاء على التشبه به، وعلى شراء أنصبه فى هذه الشركات ولكن علينا أن نذكر أن الغالبية العظمى من البرجوازيين والفلاحين ظلوا عازفين عن المساهمة فى هذه الشركات ، وكان تعدد هذه الشركات سببا أساسيا فى حيرة الأهالى لاختيار إحداها يساهمون فيها. ولكن شركة واحدة حظيت بإنتباه أكبر، وهى شركة الهند، التى ساهم فيها الفرنسيون، للحصول على ثروات الشرق، ولكى يتحدوا بها الشركات الهولندية والإنجليزية .

٢- الشركات الفرنسية للهند :

أنشأت فرنسا عددا كبيرا من الشركات ، الواحدة بعد الأخرى ، ولكن هذه الشركات ، منذ عهد هنرى الرابع ، لم تتمكن من القيام بشىء له أهميته، رغم حصولها على حق إحتكار تجارة الشرق فى المناطق الواقعة فيما وراء رأس الرجاء الصالح . ونشأت شركة ثالثة فى عهد كولبير حصلت على حق إحتكار التجارة فيما بين رأس الرجاء الصالح ومضيق ماجلان، علاوة على ملكيتها لجزيرة دونين ، أى جزيرة مدغشقر. وعملت هذه الشركة على إستيراد السلع من أوربا لتصديرها

لهذه المناطق، وأنزلت بعض الجنود المعمرين فى جزيرة دوفين ، ولكنها فشلت فى وضع أقدامها فى الهند، رغم أنها نجحت فى إنشاء مدينة بوندشيرى. وكانت النتائج المالية مخيبة للآمال، وإضطر كولبير إلى دفع الأرباح من خزانة الدولة حتى لايثبط عزائم حملة الاسهم. وإضطر الملك فى النهاية إلى أن يسحب الحقوق التجارية من هذه الشركة، ولم يترك لها إلا إمتيازات النقل. ورغم عداء الهولنديين للفرنسيين فى الهند، فإن مدينة بوندشيرى قد ازدهرت، وحصل الفرنسيون على مراكز جديدة فى الهند، وقامت الشركة الفرنسية للهند بعقد محالفات، وتدخلت فى الصراع القائم بين أمراء الهند. وواصل هذه العمليات دوبلكس، الذى قام بعمليات الشراء والبيع والحرب وفرض الحماية بشكل جعل منه سيدا على جزء كبير من الهند، رغم أنف الهولنديين والانجليز ، وحتى رغم أنف حملة الأسهم الفرنسيين. ولكن هذه الشركة أصبحت جسدا بدون رأس ، خاصة وأن المديرين المحليين كانوا لايخضعون لها، وكان حملة الاسهم لايجتمعون فى جمعية عمومية، مادامت الحكومة تصرف لهم أرباحا وكأنهم من ذوى المعاشات . ورغم أن هذه الشركة كانت تفتقر إلى إدارة محكمة، إلا أنها أفادت من وجود عدد من الرجال المتازين فيها، مما أدى إلى حصولها على نتائج باهرة. ولكن إختفاء الشخصيات ، فى أى وقت ، كان يهدد بضياع الشركة.

ونجحت فرنسا فى إفريقيا السوداء، وفى مدغشقر ، والمحيط الهندى وحتى فى المحيط الهادى نجحت شركة الهند ، والشركات الأخرى المماثلة فى القيام بعملية الاستعمار ، ووضعت الأسس لنجاح مبيل .

ونشأت فرنسا شركات للتجاره مع شمال أفريقية المواجهة لها سواء مع تونس أو فى عنابه، حيث كانت تستورد القمح والحبوب والشمع والجلود أما فى أفريقيا السوداء فإن شركات متعددة قد عملت فى هذا

الميدان ، وأنشأت مراكز بحرية لرسو السفن، ومراكز تجارية لشراء الزيت وسن الفيل والصمغ والعبيد. وقامت محاولات متعددة لأستعمار جزيرة دوبين، وإرسال الجنود وفلاحين والتجار اليها. ولكن الأهالى هجموا عليهم ، وأعملوا القتل فيهم، حتى إضطرت شركة الهن إلى إخلائها لمدة ستين سنة ، ولم يبقى فيها إلا بعض القراصنة. ونجح الاستعمار كذلك فى جزيرتى بوربون وفرنسا القريبتين من مدغشقر، وإزدهرت الأولى بعد إدخال زراعة البن ، فيها وإحضار العبيد إليها. أما الجزيرة الثانية فأصبحت تنتج القصب والأرز والقطن ، ونجحت فيها صناعة السكر والنسيج .

ووصل نشاط الشركة الفرنسية حتى سيام ، وبالجوك ، كما وصلوا إلى الكوشين صين ، وآنام وتونكين وجاوا. وهكذا أثمرت سياسة ريشيليو وكولبير، رغم أن الشركات الصغيرة خيبت آمال المساهمين فيها، ورغم أن شركة الهند لم تتمكن من دفع أرباح حقيقية لحملة أسهمها. ولكن المهم أن فرنسا نجحت فى الخروج من حدودها، وبدأت فى الأختيار بين مراكز متعددة فى أفريقيا ومدغشقر وجزر المحيط الهندى ، التى حولتها إلى مستعمرات زراعية. وتفتحت الهند إلى درجة بعيدة، وأصبح السبيل ممهدا أمام فرنسا فى الشرق الأقصى، ودون أن تعلم فرنسا ودون أن تعلم فرنسا أنها ستصبح دولة مستعمرة .

٣- فرنسا في أمريكا :

بدء بعض الفرنسيين يصل إلى جزر الأنتيل، وفى عصر ريشيليو كلفت شركة سان كريستوف ثم شركة الجزر الأمريكية بتعمير بعض الجزر هناك فشهدت جزر المارتينيك وجاوا ديلوب وسان دومنج وغرناطة وتوباجو شيئا فشيئا، وصول أهالى نورماندى وبريقانيا، وبدأت بذلك

حركة الاستعمار منذ سنة ١٦٣٥ . ولكن شركة الجزر لم تحقق ربحا، فبدأت فى بيع جزر الأنتيل الفرنسية لعدد من النبلاء. وكانوا يعملون فى التهريب ويقضون أوقاتهم فى صيد الفيران البحرية، ويتاجرون فى جلودها مع الهولنديين . وفي عهد كولبير، شجعهم على زراعة القطن وقصب السكر وشجع صناعة السكر، وكلف شركة السنغال بتوريد الأيدى العاملة من الزنوج اللازمين لاستغلال الجزيرة الرئيسية وهى جزيرة هابتى ، التى أصبحت تسمى سان دومنج. وأنشاء شركة الهند الغربية سنة ١٦٦٤، وأعطاها معونة حكومية. وساعد على ذلك سرعة تعمير الجزيرة بالبيض والزنوج . وأصبحت سان دومنج لؤلؤة الأنتيل، ومستعمرة نموذجية.

ولقد ظلت جزر أمريكا موطنا لأعتزاز فرنسا ببداية عمليتها الاستعمارية وكانت تمثل فى بداية القرن الثامن عشر ما يقرب من نصف تجارة كل الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحر . وكانت هناك السفن التى تربط هذه الجزر بفرنسا، وتحمل إليها المواد الغذائية، وتعود محملة بالقهوة والكاكاو والتيلة والأخشاب النادرة. وكان السكر مصدرا هاما من مصادر ثروة الأنتيل، وأشرفت شركة الهند الغربية لمدة عشر سنوات على هذه التجارة وأحتكرتها. وكانت جزر الأنتيل الفرنسية تتاجر مع غير الفرنسيين فكانت تتاجر مع الانجليز فى جامايكا، ومع الهولنديين وتصدر كذلك إلى الأسبانية .

وقامت محاولات متتالية من جانب الفرنسيين للاقامة فى غيانا، وبخاصة بعد أنشاء قلعة كايين . ورغم هجمات الإنجليز والهولنديين ، فإن المنطقة قد أزدهرت مع شركة الهند الغربية .

أما كندا فكانوا الفرنسيون قد عرفوها منذ عهد جاك كارتيه ،

وأرسلوا اليها عددا من المساجين والمتسولين ، وأستمر تطور الأوضاع فيها إلا أن نشأت بورروبال وكويبيك على نهر سان لوران وأسهمت بعض الشركات فى أرسال عدد من المزارعين إلى هذه المنطقة، وبخاصة فى عهد ريشيليو وكان المناخ قاسيا، وكان الهنود يغيرون على المستعمرات، كما كان الإنجليز يبذلون جهدهم لتحطيم المستعمرة للصيد داخل الغابات، ولشراء الفراء من الهنود الحمر ، ودفع أثمانها بالمشروبات الروحية والبنادق والبارود كما بدء بعض المزارعين فى تفليح الأرض، وزراعة القمح والشعير ، وتربية الخيول والخنازير . وكانوا يجمعون سكان فرنسا الجديدة بكل الطرق الممكنة، وخاصة فى مقاطعات غرب فرنسا. وشجعوهم ووعدوهم برحلة مجانية ، وباعطائهم المساكن وحجج تمليك لأرضهم، وشهادات لمن يعمل فى المهن، وكانوا يمنحون خمسين جنيها لكل فتاة تتزوج فى كندا ، وثلاثمائة جنيه لكل أسرة يزيد عدد أطفالها على عشرة. وأزداد العمار فى كندا بمجىء عدد من الساقطات ، والمجرمين والمغامرين والمنفيين وفى نفس الوقت شهدت كندا عدد من المبشرين اليسوعيين ، الذين أخذوا فى الوعظ ، وقاموا بإستكشاف السهول المجهولة وبمواجهة القبائل المعادية.
وأرسل كولبير ١٢٠٠ جندى للأقامة والتوطن فى كندا، فزاد عدد المتوطنين هناك بأستمرار من ٣٥٠٠ متوطن فى بداية عهد كولبير إلى أن وصل إلى ٦٠٠ ألف فى منتصف القرن الثامن عشر. ورغم ذلك فقد كان عددهم بسيطا لأحتلال كل هذه المساحات الشاسعة، ولمواجهة الأهالى، خاصة وأن الانجليز أخذوا فى مساعدة الأهالى ودفعهم لمحاربة الفرنسيين، وكانت كندا فى حاجة لتعضيد فرنسا الكامل لها، ولذلك فإن كولبير حولها من سلطة الشركة إلى سلطة الملك، وأصبحت فرنسا الجديدة بعد ذلك جزءا من الممتلكات الملكية، وبنفس وضعية أى مقاطعة

فى فرنسا نفسها. ولم تكلف هذه المستعمرة ميزانية فرنسا أكثر من نصف مليون جنيه سنويا ، منها ١٥٠ ألف لقوات الجيش الموجودة هناك . ومع ذلك فإن الفرنسيين لم يتحمسوا للذهاب اليها، خاصة وأنهم لم يجدوا فيها الذهب أو السكر، ولقد عثر الفرنسيون فيها على الحديد، وأخذوا يصدرون منها الأخشاب. ولكنهم كانوا يفضلون عليها جزر الأنتيل .

وكانت هناك أنهار فيما وراء نهر سان لوران ، وسهول شاسعة يسير فيها نهر كبير، صوب ، صوب خليج المكسيك وأحتل الجنود النقط الأستراتيجية الواقعة عند مضايق البحيرات العظمى، والتى نشأت فيها ديترويت فيما بعد. وتوغل اليسوعيون صوب الغرب، ووصلوا إلى النهر الكبير، وهو الميسيسبى ، الذى سار معه كاف لبياه دي لاسال وأسس مدينة سان لوى. أنها تختلف عن كندا بثلوجها وأشجار الصنوبر الموجودة فيها، أنها بلاد أخرى تمتلىء بالنخيل، ولها مناخ حار وهى التى ستصبح لويزيانا فيما بعد. وهكذا وصل الفرنسيون من كندا إلى سهول الميسيسبى وخليج المكسيك .

٤- المضاربة علي المستعمرات :

وجدت مشروعات تعمير لويزيانا مصاعب كثيرة فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر، وكان أهمها إنشغال فرنسا عنها، فتدهورت أحوالها لعدة سنوات. ولكن سرعان ماتنبه الرأى العام إليها من جديد، وأنتشرت الأنباء بأن فيها أكبر مناجم ذهب يمكن تصورها، دون أن يتأكد أحد من ذلك . وكان ناشر هذه الأخبار هو جون لو ، الذى ستدخل العملية معه إلى نطاق المضاربة .

وكان لو أسكتلنديا نابغا، وأتخذ من فرنسا حقلا لتجاربه،

وإنشاء مصرفا فى سنة ١٧١٦، له الحق فى أصدار أوراق العملة المصرفية ثم دخل فى عمليات جديدة ، ونشر الاسهم والصكوك بين الجمهور ، وبشكل جعل الأهالى يقبلون عليها ويشرون من المضاربة فيها. وإرتبط أسم لوبا بالمشروعات الاستعمارية ، وبالشركات الاستعمارية ، وبأقليم لويزيانا. الذى كان غيره قد فشل فيه من قبل. وأسس شركة الغرب بمائة مليون جنيه لأستعمار هذا الاقليم ، ولمنافسة الشركات الهولندية والانجليزية الكبيرة. وكان يسير من مشروع إلى مشروع آخر بسرعة ، ويشبط بينه فسيطر على إدارة الطباق حتى يتمكن من تصريف الدخان الوارد له من أمريكا ، ومن أن يفرض الضرائب على الدخان الأسبانى، كما فرض الضرائب على تجارة الرقيق ، وتمكن من تحويل مصرفه إلى بنك ملكى فأصبح مسيطرا على المالية العامة للدولة ، فى نفس الوقت الذى سيطر فيه على قطاع هام من التمويل الخاص .

وسيطرت شركة الغرب على الشركات الأخرى وضمها إليها : مثل شركة السنغال ، وشركة أفريقيا ، وشركة الصين ، وشركة غينيا وشركة سان دومنج ، وحتى شركة الهند الشرقية ، وأصبحت هى نفسها تسمى شركة الهند . أما بالنسبة للأهالى ، فإن هذه الشركة الجديدة كانت هى شركة الغرب ، أو بمعنى آخر شركة الميسيسبى . وبذلت هذه الشركة كل مجهود يمكن للاحتفاظ بهذا الاقليم ولأستعماره ، فنشرت الدعاية عن وجود كميات كبيرة من الذهب والفضة فى لويزيانا تفوق ، ونشرت الصور التى تدل على وجود الرخام هناك . وأنتشرت الأشاعات بأن كمية المعادن النفيسة الموجودة فى لويزيانا تفوق الكمية الموجودة فى بوتوسى . وعمل لو على إرسال بعض السفن إلى لويزيانا تحمل الجنود والمتوطنين . وجمعوا البنات الساقطات ، ووعدوهن

بالعثور على أزواج هناك . وزوجوا السجناء والسجينات فى باريس ، واصطحبوهم فى حراسة حتى الميسيسبى ، وأكمل العاطلون والمتشردون هذه المجموعة،واختلط كل ذلك ببعضه فى أمريكا ووصل عددهم إلى بضعة آلاف . وأسس حاكم المستعمرة لونية نيوأورليانزا التى أصبحت عاصمة لويزيانا . وصار منها المستكشفون شمالا مع روافد الميسيسبى وانشأ غيرهم القلاع التى حاصرت المستعمرات الانجليزية من الغرب ، بين لويزيانا وكندا .

وارتفعت الحمى فى باريس مع إرتفاع قيمة الأسهم من خمسمائة جنيه إلى خمسة آلاف ثم عشرة ثم عشرين ألف جنيه . واضطر لو إلى اصدار أوراق عملة حتى يدعم هذا الارتفاع فى الأسعار ، ويصدر أسهم جديدة فى سنة ١٧١٩ . وساعد ذلك على الأزدهار ، والأدخار ، والتضخم ، وأزدهرت الأشغال العامة ونشأت المصانع ، فتغير شكل فرنسا إلى حد كبير .

وفى الوقت الذى كانت فرنسا تضارب فيه على شركة الميسيسبى ، كانت لندن تضارب فيه على شركة بحر الجنوب . وعلى نسق لو ، عمل إسلابى وزير المالية فى لندن ، ورجل شركة بحر الجنوب ، وكانت هذه الشركة قد حصلت ، بعد معاهدة أوترخت على أحتكار التجارة ، وأحتكار تجارة الرقيق . وتحملت هذه الشركة كل ديون الدولة وأصبح الملك هو مديرها. وتضاعفت أسهمها عشر مرات فى سبعة أشهر ووصلت قيمة السهم إلى ألف جنيه وظل الأقبال عليها كبيرا، وكانت أوراق العملة التى يصدرها بنك إنجلترا هى التى تمول هذه العملية .

ومع الأدهار ، وأشتداد المضاربة ، ظهرت الفضائح ، وعمليات

النصب . وكما ارتفعت درجة الحمى بسرعة ، كان الأنخفاض سريعا، وحينما أقترح لو على حملة الأسهم فى باريس ربحا يصل إلى ٤٠٪ من المبلغ الأصلى ، وهو خمسمائة جنيه كان فى واقع الأمر لايدفع إلا ١٪ من اسهم وصل ثمنها إلى عشرين ألف جنيه . وسرعان ما أكتشف الناس الحقيقة . وأنتشرت الأشاعات السيئة بسرعة كبيرة عن قتل المعمرين فى لويزيانا، وأخذ الناس يبيعون الأسهم لكى يحصلوا على أوراق نقدية ، ويبدلون الأوراق النقدية بقطع العملة الذهبية ، وكان كل ذلك تحت إدارة لو ، وإذا كان فى وسعه طبع أوراق نقدية ، فإن كمية قطع العملة كانت محدودة ، فكانت الكارثة . وحاول لو أن ينقذ الموقف ، وضم البنك إلى الشركة ، ثم منع كل مدفوعات بقطع العملة المعدنية ، وفرض أوراق العملة الكبيرة على السوق . ولكن انهيار قيمة الأسهم أستمر ، وعزف الناس عن أوراق العملة ، واضطر لو إلى الهرب وحدث نفس الشىء مع شركة البحر الجنوبى ، التى أنهارت قيمة أسهمها بعد بضعة أسابيع من أنهيار شركة الميسيسبى سنة ١٧٢٠ ونزلت قيمة أسهمها من ألف جنيه إلى ١٣٥ جنيه . فلس آلاف من الانجليز ، وتوجهت التهم لعدد من الوزراء .

ومع ذلك فإن لو كان قد حرر تجارة السكر فى الأنتيل ، وبدأ عملية تعمير فى لويزيانا ، وقامت حكومة فرنسا بالاحتفاظ بشركة الهند، وأعادت تنظيمها حتى تتمكن من مواصلة عملها. فأنتصرت الدولة على المشروعات الخاصة ، وعلى الشركات التى كانت قد سيطرت عليها من قبل . أما فى إنجلترا فان والبول قد أنقذ شركة بحر الجنوب ، وصارت لندن ورائه فلم يؤثر الأنهيار على العمليات المعدنية ، ولا على العمليات الاستعمارية وذلك على عكس فرنسا التى أهتز الرأى العام فيها بعد تدهور القيمة النقدية ، وأخذ يخشى من أوراق

العملة وبشكل حـرم الاقتصاد الفـرنسى من وسائل عمله ، كـما حظر العمليات الاستعمارية ، فيما عدا جزر الأنتيل وأنتشر فى فرنسا فى ذلك الوقت أتجاه ينادى بعـدم الالتفات إلى المشـروعات البعيـدة ، سواء فى لويزيانا أو كندا أو حتى الهند، والالتفات إلى فـرنسا نفسها . وأثر هذا الاتجاه المختلف فى كل من فرنسا وانجلترا على المستقبل الاستعمارى لكل من هاتين الدولتين .

الفصـــل الثانى عشر

الروح التجــارية

كانت المضاربة عملية عارضــة فى تاريخ الـشـركــات الاستعمارية، وظل الاستعمــار خاضعا لنظرية تربطه إرتباطا وثيقـا بالمصالح الوطنية ، أما من الناحيــة السياسية فقد هــدفت الروح التجارية إلى تنافس هولندا على البحار من ناحية ، وتنافس إسبانيا بريا من ناحية أخرى ، مادامت الأراضى المنخــفــضــة تسـيطر على التــجــارة وإسـبــانيــا تسـيطر على المستــعمرات . فإذا مــا تركت الدول لنفسهــا ، لتمكنت أمســتردام من إحتكار الملاحة ، وتمكنت مدريد من إحتكار الممالك ، لذلك فان الروح التجارية كانت تهدف تحطيم هذين الاحتكارين . أما من الناحية المالية ، فان الثروة كــانت تقاس بكميــة المعادن النفيســة التى تمتلكها كل دولة ، ولذلك فقد كــان من اللازم زيادة هذه الكمية ، بتقليل الاســتيراد وزيادة التصدير ، وتقــليل المشتروات من المواد المصنوعة ، وزيادة المبـيعات من هذه المصنوعات لأكـبر درجة ممكنة . ولذلك فقــد كان من اللازم فرض ضرائب جــمركيــة ، ومنع دخول المصنوعات الأجنبـية وتسهــيل تصدير المصنوعات الوطنية ، عن طريق معونات مالية . وكان ذلك يعنى حماية الصناعات الوطنيــة ، وحتى منتجــات المستعــمرات ، وإبعاد المنافــسة ، والحصول على أسواق أجنبيــة . وأدى ذلك إلى أن تقوم الدولة بتجارتها بمفردها ، وعلى سفنها ، وتحفظ بالســيطرة على النقل . وكان عليها أن تمول وحدها أمــلاكها ، أي أن تصــبح المسيطر الوحيــد على التوريد ، وتصبح كذلك العميل الوحيد .

١- الاتجــاه الماركنتيلى :

كانــت إسبــانيا هى التى ســارت على هذه المبادىء منذ أول نـشأة

إمبراطوريتها وتبعتها الدول الأخرى فى تطبيق نفس السياسة وجاء رجال الاقتصاد بعد فترة من الزمن ورغبوا فى تصنيف السياسات الاقتصادية ، فسموا هذه الرغبة فى تكديس المعادن النفيسة ، وسيطرة الدولة على التجارة ، بالمذهب التجارى ، أو الروح التجارية ، أو الاتجاه الماركنتيلى . وحاولوا بذلك أن يخلقوا نظرية ثابتة من هذا التنظيم النسبى ، ثم قاموا بمهاجمته بشدة بعد ذلك .

ودفع الاتجاه الماركنتيلى بالسيطرة التامة إلى أقصى مدى . وعمل المشتغلون به على الاحتفاظ بالسر ، والاحتفاظ بالاحتكار . ووصل الحد بالهولنديين إلى رسم خرائط خاطئة لابعاد منافسيهم عن الهند ، وقامت الشركة الهولندية للهند بمنع رجالها من الإحتفاظ بأقل مذكرة يمكنها أن تساعد البحارة الأجانب فى الذهاب إلى أندونيسيا .

وطبقت إنجلترا سياسة الامتيازات والاحتكارات ، لأنها كانت دولة صغيرة ، بدأت فى شق طريقها فى البحار ، وصارت صوب الاستعمار ، وفى مواجهة دول قوية ثابتة فى هذا الميدان مثل هولندا واسبانيا . ونصح توماس مان بزيادة فائض الميزان المالى ، واعتبر تشايلدر أن النهضة البحرية التجارية هى أضمن وسيلة للوصول لهذا الهدف فقامت الملكة اليزابيث بمنع وصول واردات كثيرة ، وقام كرومويل باصدار قانون الملاحة فى سنة ١٦٥١ وهو القانون الذى يحتفظ للسفن الانجليزية ، ولسفن البلاد المنتجة بحق الدخول إلى الموانى الانجليزية ، أما منتجات المستعمرات فأصبح من حق السفن الانجليزية وحدها إستيرادها. وكذلك المستعمرات الانجليزية ، لم يكن من حقها إستلام بضائع إلا إذا كانت منقولة على سفن انجليزية ، وتأتى من انجلترا .

وأصبح قانون الملاحة دستورا للتجارة البريطانية ، ومثلا لسياسة المذهب التجارى ، ودعمته لندن بعمليات إعطاء معونات للتصدير ،

ويمنعها دخول بعض المنتجات الأجنبية ، مثل المنتجات الفرنسية ومنعت تصدير الصوف ، لكى تحتفظ بهذه المادة الخام للصناعة المحلية ، ومنعت قص أصواف الغنم فى مافة خمسة أميال من الساحل، حتى تتأكد من عدم تصدير الصوف الخام للخارج . وكان هذا النظام يعطى المستعمرات حماية خاصة ، ومجالا واحدا للبيع . واحتفظت انجلترا لنفسها بالطباق والسكر والقطن المنتجة فى مستعمراتها الامريكية ، وحرمت على نفسها زراعة الطباق حتى لاتنافس مستعمراتها فى ذلك . ولكنها حرمت على هذه المستعمرات تحويل هذه المنتجات صناعيا ، كما حرمت عليها كل تجارة مباشرة مع الخارج . وكان فى ذلك أكبر أغراء على العمل فى التهريب .

وسارت فرنسا على نفس هذه السياسة، وطبق كولبير هذا النوع من الإحتكار الإستعمارى . ولكنه وضع المستعمرات فى مرتبة المقاطعات الفرنسية ، ومنع عليها كل اتصال بالخارج . وهكذا أصبحت المستعمرة أرض صيد خاصة ، وأصبحت ملكا للدولة المستعمرة . وطبقت الدولة نفس النظرة فى المبدأ على عمليات النقل التى كانت حكرا للدول المستعمرة . وصادر الفرنسيون كل سفينة أجنبية أمام سواحل الجزر، وعاقبوا بحارتها بالسجن ، وبالتجديف الاجبارى فى السفن الفرنسية ، مع دفع غرامة .

وكان هذا النظام قاسيا ، ولكنه كان يتفق مع نمو روح القوميات . ونتج عنه نمو قوة بريطانيا البحرية ، وتفوقها على الأراضى المنخفضة ، وحصولها على أول أسطول فى العالم، وبنائها امبراطورية استعمارية كبيرة . أما فرنسا فانها أعادت بناء أسطولها فى عهد كولبير ، وبلغت مرحلة من الازدهار التجارى فى عصر لوى الخامس عشر ، نتيجة لسيطرتها على الجزر . وأعطت هذه الروح التجارية ، أو الاتجاه

الماركنتيلى بعض الضحايا تتمثل فى اسبانيا الذى تحول نظام الاحتكار فيها إلى نظام تهريب ، وفى الأراضى المنخفضة التى لم تتمكن من الاحتفاظ باحتكار للمناطق الواقعة فيما وراء البحار .

وكان هناك اختلاف بين المبدأ الصارم ، وبين التطبيق ، الذى كان أقل صرامة فكانت هناك بعض الأستثناءات وكثير من التحايل لتقليل صرامة الاحتكار. كما أن هذا المبدأ قد أدخل عليه الكثير من التعديل ، ولم تكن السياسة التجارية بناءا صارما جامدا . فكان هذا المذهب يعنى سيطرة الدولة . ولكن إعطاء عملية الاستعمار لشركات خاصة كان يعنى عدم ترك كل شيء للدولة .وكان هناك بعض التسامح ، فحصلت فرنسا على حق التجارة فى كل الامبراطورية الاسبانية بعد أن وصل حفيد لوى الرابع عشر إلى عرش مدريد . وحصلت إنجلترا بمعاهدة أوترخت على حق إرسال سفينة فى كل عام إلى الممتلكات الاسبانية فى أمريكا الجنوبية . ولكنه لم يكن من حق المستعمرات ، ومن حيث المبدأ ، أن نبيع إلا للدولة المستعمرة . وكانت الروح التجارية تمثل شكلا من أشكال التنافس الدولى ، كما كانت تمثل نظاما وقائيا فى حرب تجارية .

ولكن الاصطدامات العسكرية ، التى وقعت بين الدول الأوربية ، أثرت كذلك فى المستعمرات ، وفى شكل حرب قائمة طويلة معقدة، وتشبه استمرار حرب طويلة المدى . وكانت هناك الحروب الهولندية البرتغالية والهولندية الاسبانية ، التى تمكنت بها هولندا من انشاء امبراطوريتها على حساب البرتغال . وكانت هناك الحروب الانجليزية الهولندية ، التى طرد فيها الانجليز من منطقة التوابل ، وقام الانجليز بطرد الهولنديين من أمريكا الشمالية . وكانت هناك الحروب الهولندية الفرنسية ، والحروب الانجليزية الاسبانية ، التى واجهت فيها بحارة كل دول الأخرى منذ عهد لأرمادا . وأخيرا فهناك الحروب الفرنسية

الانجليزية ، مع حرب الوراثة الاسبانية ، وحرب الوراثة النمسوية ، وغيرت الكثير من جزر الأنتيل ملكيتها من دولة لأخرى ، واستولى الانجليز على كويبك ، ثم سلموها واحتفظوا بيوفوندلاند. واستولى الفرنسيون على مدارس ثم سلموها ، واستمر التنافس .

ومع كل ذلك ، فإن هذه الاصطدامات لم تشغل إلا قوة بسيطة فى هذه الدول ، ولم تؤثر فى مجموع الشعب وتمكنت الشركات فى بعض الحالات من البقاء على الحياد فى وقت الاصطدام بين الدول ، ودل ذلك على أن الاستعمار التجارى كان لايهتم بالأراضى والاقاليم مثل اهتمامه بالتجارة ، وكان يهتم بالاستراتيجية أقل من اهتمامه بالأرباح ، ولم يكن أى نصر عسكرى يعنيه إلا بذلك القدر الذى يزيد فيه من ميزانه المالى .

٢- اليسوعيون فى باراجواى :

فى هذا الوقت الذى اختلطت فيه هذه السياسة الاستعمارية مع السياسة التجارية ، ظهر نوع جديد من الاستعمار ، لم يكن يمثل أى مصلحة تجارية ، وقامت به جماعة اليسوعيين فى باراجواى لإعلاء مجد الرب .

وكانت كل من اسبانيا والبرتغال تقتسم أمريكا مع زميلتها. وبعد أن تخلصت البرتغال من السيطرة الاسبانية عملت على أن تعيد غزو البرازيل ، وتستخلصها من أيدى الهولنديين . وقبلت أن تدخل اليها التجارة الإنجليزية ، فأصبحت البرازيل قاعدة للعمليات البريطانية فى أمريكا الجنوبية ، ومركزا للتجارة فى المنطقة . وأنشأ البرتغاليون مستعمرة سكرامنتو فى جنوب البرازيل ، وقاموا بزراعتها بمساعدة الزنوج المستوردين من افريقيا . واكتشف البرتغاليون مناجم الذهب التى

جعلت من البرازيل أكبر إقليم منتج للذهب فى العالم ، الأمر الذى أعاد إلى لشبونة بعضا من هيبتها السابقة ، وجعلها تهتم باقليم باراجواى .

أما ممتلكات اسبانيا فى أمريكا فانها ظلت تمثل امبراطورية شاسعة لاينافسها فى حكمها أى منافس ، وإن كان الهولنديون والفرنسيون قد وصلوا عند أطرافها فى غيانا ، وكان البرتغاليون يحاورونها من الشرق، وحين ضعفت إسبانيا ، وتقاتلت الدول على امتلاكها، كانت انجلترا تراقبهم ، ثم حاربت وساومت ، وانتهى الأمرفى سنة ١٧١٣ باحتفاظ مدريد بممتلكاتها فى أمريكا .

وإذا كان إنتاج المعادن فى المناجم قد انخفض فإن اصلاح الأراضى وزراعتها كان يعوض فقر المناجم ، وعمل الاسبان على تثبيت الهنود فى أماكنهم ، فى الوقت الذى حصلوا فيه على أراضى جديدة لمزارعهم، مع امتداد الاحتلال الاسبانى فى كل اتجاه ، ومع مجىء كثير من العناصر ، ومنهم اليسوعيون والفرنسيسكات إلى هناك . وكان عدد سكان أمريكا الأسبانية بتراوح بين عشرة وأثنى عشر ١٠ : ١ ب الأهالى ، وكانت الوظائف الكبيرة محفوظة للاسبانيين المولودين فى إسبانيا ، والوظائف الصغيرة محجورة للاسبانيين المولودين فى أمريكا. ويجىء بعد هذه الطبقات الحاكمة عناصر المخلطين من البيض والهنود ، ثم من البيض والزنوج ، ثم الهنود ، وآخيرا الزنوج الذين يعيشون فى ظروف خاصة . وكان وزير الهند ، ومجلس الهند ، يراقب أمريكا من مدريد وبشكل مركزى . وكثيرا ما ثار الأهالى ولكنهم كانوا مسالمين فى غالبيتهم . وبهذه الطريقة أخضعت أسبانيا أمبراطورية شاسعة بعدد بسيط من الجنود، لم يزد فى كل أمريكا الجنوبية على عشرة آلاف رجل .

وفى هذا المناخ قامت تجربة اليسوعيين فى باراجواى ، وهى تجربة إستعمارية ، انتهت بإنشاء دولة ، فى شكل جمهورية ثيرقراطية . واستند اليسوعون إلى مرسومات ملكية منحتهم منطقة شاسعة بين البرازيل وشيلى ، ووصلوا إلى باراجوى وهم مصممون على انتزاع الهنود من قبضة جماعات العمل الأجبارى . وكان الهنود مسالمين ، فهل العمل على المستعمرين من الناحية الحربية ، وصعب عليهم فى نفس الوقت ، نتيجة لكسل الأهالى وأخذ اليسوعيون فى جمع الهنود فى ثلاثين قرية حتى يتمكنوا من تحويلهم إلى المسيحية . وكان فى كل قرية مركزا للاباء اليسوعيين الذين يسيطرون عليها، ويتركون الهنود يحكمون أنفسهم بأنفسهم . وكانت الأنتخابات علنية ، أى أنها كانت نظاما ديمقراطيا فى ظل ديكتاتورية مقنعة ، ولم يكن اليسوعيون إلا عبارة عن مستشارين ، من حيث المبدأ ، ولكنهم كانوا فى واقع الأمر سادة مطلقين ، ومتحكمين ، وكان هناك فى كل قرية أحد الأخوان لتعليم فنون الزراعة ، وإلى جواره أحد القسس للقيام بالصلوات . وكانوا يسيطرون على كل الهنود الحمر . وتركوا قسما من الأراضى المحيطة بالقرى كمراعى ومزارع للجماعة . أما القسم الثانى فكانت أرضه تقسم ، وتوزع على الأسر . وكانت المنازل والبهائم والأدوات ملكا للجماعة ، ولا يملك الفرد إلا الدواجن . وكان العمل اليومى منظما على طريقة الأديرة ، ومقسما بدقات الناقوس والصلوات : فى الصباح للنهوض ، ومع الشروق للصلاة ثم يذهب كل فرد إلى عمله وهناك راحة وقت الظهيرة ، وبعد العمل يعود الهنود للكنيسة من جديد . وكان الهندى يعمل ثلاثة أيام فى الأسبوع من أجل الجماعة، والثلاثة الأيام الأخرى من أجل أسرته ، مع يوم الأحد كراحة ، وكان الآباء يوبخون ويعاقبون كل من لايرغب فى العمل بالصيام والجلد ،

وحتى بالسجن . وتغيرت حياة الهنود ، وتركوا تعدد الزوجات ، ولكنهم كانوا يتعلمون بلغتهم الوطنية ، وبشكل جعلهم يجهلون الاسبانية ، وإن كان بعضهم قد تعلم اللاتينية من اليسوعين . وازدهرت باراجواى وزاد عدد سكانها ، وبلغ ٤٠٠ ألف هندى ، عملوا فى إنتاج الحبوب والقطن والشعير ، وباعوا منتجاتهم فى بونس إيرس ، واشتروا منها ما يلزم ، ولكن باراجواى لم تكن جنة من الجنات ، بل كانت تشبه إلى حد ، كبير المعسكرات والأديرة ، فكانت هناك مساواة مطلقة فى المسكن والطعام ، ولكنهم لم يعرفوا معنى الحرية ، من أول حرية العقيدة . وحرية القيام بأى عمل وكان الجيزويت قد أدخلوا الهنود فى كتائبهم بدعوى تخليصهم من جماعات العمل الاجبارى ، وبما ندم الهنود على غاباتهم ، وحياتهم البدائية ، دون نواقيس الكنائس ، ودون اجبارهم على حرث الأرض . واتد لقى هذا المشروع عداءا من جانب سكان سان باولو ، ومن جانب الأسبانيين الذين يستندون إلى جماعات العمل الأجبارى ، وكانوا يرغبون فى الحصول على ممتلكات الهنود الحمر ، وعلى مجهوداتهم . وعلى أى حال فإن مشروع اليسوعيين ، رغم أزدهاره الظاهر ، لم تمتد به الحياة لفترة طويلة .

٣- أوربا الشمالية :

وفى الوقت الذى انتشرت فيه الشركات التجارية والاتجاه الماركنتيلى ، والذى ظهرت فيه تجربة الاستعمار الكاثوليكى مع اليسوعين، شهدت مناطق أخرى من العالم ، وبخاصة فى شمال أوربا وشرقها ، عمليات استعمار وتوطين من نوع جديد .

وقامت بعض البلاد الاسكندنافية بتجاربها، فقامت كوبنهاجن باحتكار مع ايسلندا، وقامت شركة دانمركية باستعمار جرينلاند ،

ومنعت وصول الأجانب اليها . واحتفظت الشركة الدانمركية للهند الغربية بجزر سان توما وسان جان من جزر الأنتيل وقامت بزراعتهما. ثم اشترت الدانمرك بعد ذلك من فرنسا جزيرة الصليب المقدس المعروفة بخصبها، وأصبحت كل هذه الجزر مراكزا للتهريب .

وقامت السويد ببعض العمليات فى أمريكا. وقام المعمرون ، الذين أرسلتهم الشركة السويدية للهند الغربية بشراء الأراضى على ضفاف ديلاور ، وبنوا احدى القلاع ، وحاولوا تعليم الهنود الحمر : ولكن (السويد الجديدة) وقعت فى أيدى الهولنديين فى أمستردام الجديدة ، ثم وقعت بعد ذلك فى أيدى الأنجليز .

رحتى النمسا ، الى ورثت الأراضى المنخفضة الاسبانية ، حاولت أن تتقرب من رعاياها البلجيكيين ، وأنشأت شركة أوستند للتجارة مع أقاليم ما وراء البحار، وحصلت على بعض المراكز فى البنغال وفى المحيط الهادى ، وخشى الانجليز والهولنديون هذا النشاط ، واحتجوا عليه ، ثم هاجموا سفن الشركة ، وأغرقوا الكثير منها، واضطرت فيينا إلى التراجع عن هذا المشروع .

وحاول دوق براندبورج ، وريث الفرسان التيوتون أن يشارك فى عملية الاستعمار ، وأخذ فى التعامل مع رؤساء الزنوج على ساحل الذهب . وأعطى فردريك وليم لشركة براندبورج الافريقية احتكار تجاريا سمح لها بإنشاء بعض المراكز المحصنة فى هذه المنطقة ، والاستيلاء على إحدى الجزر الواقعة فى أحد خلجان موريتانيا . ولكن فردريك الثانى كان عمليا أكثر من ذلك ، واحتفظ بمجهوداته لعملية إستعمارية برية . وقامت وكالات هامبورج وفرانكفورت بجمع المهاجرين من الهولنديين ومنطقة الراين والسويسريين وأرسلتهم صوب بروسيا

وبوميرانيا وسيليزيا للعمل فى تجفيف المستنقعات وفلاحة الأرض . وانضم الفارون من الاضطهاد الدينى إلى هؤلاء المعمرين واختطفوا الكثير من البنات البولنديات وزوجوهن بجنود فردريك . ورغم أن هذه العملية الاستعمارية كانت أقل شهرة من عمليات ما وراء البحار ، إلا أنها كانت أطول عمرا فى آثارها .

وقامت روسيا بنفس العملية ، وكانت لديها أراض شاسعة ، وفيها الكثير من المعادن والمناجم الغير مستغلة . وكان عدد الروس يصل إلى ١٤ مليون موزعين بين الأورال وبحر البلطيق ، وعمل القياصرة على تنظيم عملية التوسع لبلادهم، وكأنهم كانوا يشعرون بسرعة تضاعف عدد السكان بشكل واضح . وفى الغرب ، كانت نقل العاصمة من موسكو إلى سان بطرسبرج يمثل السياسة الجديدة للاتجاه صوب الغرب وصوب البحر : فكانت روسيا ترغب فى أن تصبح دولة أوربية ودولة بحرية . وقام الروس بقطع أشجار الغابات ، وتجفيف المستنقعات حول سان بطرسبرج وقام الروس باخضاع القوزاق ، وأقاليم بحر البلطيق ، وأوكرانيا ، وبولندا الشرقية ، والقرم . وأعطت [illegible] الثانية للمعمرين ، وكانوا فى غالبيتهم من الألمان ، سلفا مالية بدون أرباح لمدة عشر سنوات ، ووعد بأعفائهم من الضرائب لمدة ثلاثين سنة . واستقدم الروس الخبراء والمهندسين من الخارج ، وبنوا المدن التى حملت اسم الامبراطورية مثل آيا كاتر ينبرج وآيا كاتر ينوسلاف .

وأما فى الشرق ، وفيما وراء الأورال ، فإن الروس تقدموا ببطء فى منطقة الأستبس . وكان المجال متسعا أمام الفلاحين الذين كانوا يهربون من نظام عبيد الأرض ومن الفقر ويسيرون لاستعمار المناطق الشرقية . وبدأ الزحف ، وضغط قوزاق منطقة الدون على التتار ، وجاء من بعدهم المعمرون واستوطنوا هذه المناطق . وكان كل مركز

جديد يشتمل على اللغـة ومخزن لمواد التموين ومخزن للفـراء، ويعتبر قاعدة لوثبة جديدة إلى الأمام . وإستمـر الاستعمار فى هذه المناطق شبه الخالية بمواصلـة زحف الأهالى بين روسيا والأقاليم المجـاورة لها، حتى وصلوا إلى المحيط الهادى وإلى كمتشكة فى أواخر القرن السابع عشر . وكانت سـرعة الزحف عبارة عن مـائة ألف كيلو متـر مربع فى السنة . وإذا كان هجـوم المغول صوب العرب قـد وقع بسرعة أكبـر ، فإن هذا التوسع الروسى كـان أكثر رسوخـا. وكانت القبائل مـبعثرة ومـسالمة ، وكانت تقسم بسـهولة بالولاء للقيـصر . ولم يقابل الروس مـقاومة جدية إلا فى منطقـة منشـوريا ، التي دافـعـت عن نفـسـهـا وأبعـدتهم عن حدودهما .

وأما فى الجنـوب ، فإن روسيـا توسعت بمنهج منظـم . وأما فى الشمال فإن بيرنج الذى كان ضابطا دانمركيا فى خدمة القيصر ، قد تمكن من اسـتكشاف أبعـد نقطة فى القـارة الآسيـوية ، وتأكـد من أن آسيـا منفـصلـة عن امريكا ووصـل إلى سـواحـل العـالم الجـديد سنة ١٧٤١ . وأقام الروس على بعض الجـزر ، وأخذوا فى صيد الحـيوانات ذات الفراء ، وعبـروا المضيق واستعدوا للمطالبة بنصـيبهم من الأراضى الأمريكية .

٤- نتائج العصـر التجـارى :

اختلف اتجـاه السير فى العالم ، وأصـبحت أوربا هى التى تزحف على آسـيا ، بعـد أن كانت آسـيا هـى التى تزحف على أوربا. وتمكن الرجل الأبيض خـلال قرن ونصف قـرن ، ومنـذ أوائـل القرن السـابع عشر ، وحتى منتـصف القرن الثامن عشر ، من غزو الهند وسـيبيريا ، وتوغل فى كل العالم الجديد .

واعتمد الرجـل الأبيض على تفوق واضح مادى فى فن الملاحة ، وفن الحـرب ، وفنون الصناعـة والفنـون الماليـة ، فى الوقت الذى ظل الشرق-مقـيدا بتقاليده وكان هنـاك التفوق المعنرى الذى رجع إلى روح المخاطرة والتحرر، حتى وإن كـان ذلك تحت إدارة ملكيات طغيانية ، مما أعطى الغـرب طلائع تتوغل فى كـل أنحاء العـالم . وفى الوقت الذى أخذ فيه الغرب يخترع ويتقدم ، ظل فيه الشرق ثابتا فى مكانه .

وانتقل مـركز التفوق عند الغـربيين من البحر المتـوسط لكى يثبت على بحر المانش وبحر الشـمال . وأخذت اسبانيا فى التقـهقر وانخفض عدد سكانها فى منتـصف القرن السابع عشر من ثمـانية ملايين إلى أقل من خمسة ، وتقهـقرت صناعتها وتفتت امبراطوريتها الأوربيـة . حقيقة أن اسبانيا احتفظت بمراكزها الأساسـية فيما وراء البحار ، وإذا كانت قد فقدت بعض جزر الأنتيل ، فإنها احتفظت بكوبا وبورتوريكو ، ونصف سان دومينجو الشرقى .

أما البرتغال ، فإنها قد نزلت من قـمة مجدها. وكان ضم اسبانيا لها مميتا لممتلكاتها. وبقى لها فى الشرق جوا وسيلان وماكـاو وجزء من تيمـور ، كمـا بقى لها علـى المحيط الأطلسى مـزغان ومـاديرا وجزر الخالدات وفـرنانذوبو ، وبقى لها فـى افريقيـا السوداء سـواحل انجولا وموزمـبيق ، وبقى لها فى العـالم الجديد البرازيل وسـكرامنتو . ولكن بعض مستعمراتها أخذت فى التحرر ، وقبلت لشبونه فى بعض الحالات حماية انجلترا التى حصلت على بعض الإمتيازات فى البرازيل .

واحـتـفظت الدول التى ظهـرت فى الأراضى المنخـفـضـة والتى حصلت على استقلالها، بغيانا ومستعمرة رأس الرجاء الصالح ، وبعض المراكز التـجارية فى الهند ، وبكنوز اندونسيـا . ولكن هولندا كانت فى

حاجة إلى إنجلترا حتى تتمكن من الإحتفاظ بأراضيها، ثم أصبحت تابعة لإنجلترا. ورغم أن قـوتها المالية كـانت متفوقـة ، إلا أن قوتها البـحرية كانت قد بدأت فى التقهقر أمام قوة انجلترا البحرية .

وكـانت هناك امـبـراطوريتـان أخـذتا فى النمـو والإزدهار همـا الإمبراطورية الفرنسية وامبراطورية انجلترا . وكانت الأمبراطوية الفرنسية لاتهم الرأى العـام في بلادها ، وكانت قـد نشأت بدون تأييـد من هذا الرأى العام . أما الأمبـراطورية الإنجليزية فكانت على العكس من ذلك من عمل الإنجليز أنفسهم .

وكان لفـرنسا بعض المراكـز فى شمال أفـريقيا ، رعـلى الساحل الغربـى لأفريقيـا من السنغال إلى سـاحل الذهب ، وكانت لهـا بعض الاطمـاع فى مدغـشقـر ، ووصلت إلى بعض النتائج فى جـزر فرنـسا والبوربون ، وكانت لها امبراطورية لاتحلم بهـا فى الهند ، ومستعمرات فى الأنتيل ، ولـها قوس كـبير يمتـد من مصب سـان لوران إلى مصب الميسيسبى .

أما انجلتـرا فكان لها ثلاثين مسـتعمرة مـوزعة فى افريقـيا والهند والأنتيل وأمريكا ، خمسة منهـا ملك للتاج ، هى جبل طارق ومينورقه ونيوفوندلاند واسكـتلندا الجديدة وجزر الأنتيل الصغـرى ، وثلاثة منها ملك للشركات ، وهى خليج هدسون ومستعمرات افريقيا الغربية والهند الشرقية ، أما المستعمرات الأمريكيـة فقد كانت لها مجالس تنفيذية دون أن يمنع ذلك من أن يكون بعضها ملكا خـاصا . وكان كل هذا المجموع يعيش على الطريقة الإنجليزية ، وكانـت انجلترا تنتشر فى العالم ، لكى تجد نفسها فى كل مكان وكأنها فى بلادها .

وكان كل من الإنجليز والفرنسيين يعـتقد فى سيادة الرجل الأبيض

وتفوقه ، وكـانت التفرقة العنصرية طبيـعية بالنسبة إليهم ، كـما كانت بالنسـبة للاسـبانيين والهـولنديين ، فكانوا يعـتقـدون أنهم يأتون بالإله الحقيـقى ، والأخلاق الحقيقيـة ، ونظرتهم إلى النظام والسلام . وليس معنى ذلك أنهم كـانوا يحتقرون الأهالى والعبـيد . وكان قانون كـولبير ينظم علاقات الرجل الملـون ، ويحد من حقوق السيـد ، ويفرض عليه ضرورة حسن معاملة عبـيده وإطعامهم . ومع ذلك فإنه لن يعط للزنجى إلا وضعـية الأدوات والمنقولات . وكـانت الضرورات الاقتـصادية أهم بكثير من النظرة الإنسانية .

ومع كل ذلك فـإن المستـعمرات قـد تطورت . ولم تعد الـتوابل والذهب هى أساس هذه المستعـمرات ، وتحولت مستعمـرات كثيرة إلى مستـعمرات فلاحيـة ، أى مستعمـرات توطين ، دون أن تترك دورها، كمستعمرات تجارية . وأصبحت أهم الثروات تتعامل فى السكر والطباق والكاكاو . واتسع النظام التجارى نتيجة لنمو وزيادة الحاجات ، وتحولت الرحلات المثلثة ،والسفن ذات الإمتيـاز ، للتجارة ، وجاءت الإتفاقيات التجارية وقللت من الإمـتيـازات . واستـمرت الشركات الإسـتعمارية فى طريقـها ، ولكن احـتكـارها أصبح غيـر كامل ، وحلت بعضـها لكى تترك المجـال للدولة فى الإدارة ، والمجـال للأفراد فى التـجارة . وأصبح البـحر حـرا ، فأصبح من الواجب أن تصـبح التجـارة حرة . فأخذوا ينـادون بابعاد الشركات وبتـرك حرية التجارة والبـاب المفتوح ، وهى التى أعطاها رجـال الإقـتصاد هـيكلا وضحا فـيمـا بعد ، وهى نظرية Laissez faire Laissez Passer.

البـــاب الرابع

استقلال الولايات المتحدة الأمريكية

الفصــل الثالث عشر

التفكير الجـديد

ما أن ظهرت كلمة الإستعمار فى العصور الحديثة وبدأ الناس فى إستخدامها حتى حدثت تطورات خطيرة فى تاريخ الإستعمار. وأنهارت أكبر الإمــبراطوريات الإستعمــارية سواء كانت فى غالبيــتها مستــعمرات فــرنســية ، أو كــانت هى أغنـــى المستــعمــرات الإنجليــزية، ومــعظم المستعمــرات الهولندية والإسبانية والبرتغــاليــة . وكانــت من حق العالم أن يتساءل عما إذا كــان هذا العصر هو عصر الإستعمــار أو عصر نهاية الإستعمار .

١- فرنســا تفقد الهند وكندا :

لم يكن فــقد فــرنسا للهند وكندا إلا تغــييــر من يستــعمــر هذه المستعمرات، خاصة وأن إنجلترا قد أخذت مكان فرنسا . وكانت هاتان الدولتان تتحــاربان منذ مايزيد على أربعة قرون وبــصفة شبه مــستديمة، سواء بشأن أكويتانــيا أو كــاليه أو مدراس أو كندا. وزاد الصراع فى أثناء القرن الثامن عشر مع نمو المصالح وتضخمها، وأخذت الشركات المختلفة فى التنازع على أمراء الهند وتوابلها ، أما فى كندا فإن التجار والصيادين قد أخــذوا يتنازعون الغــابات والفراء . وكــان الكنديون والفرنســيون يخشون من أن يهاجمهم الإنجليــز من واجهتين ، الأولى فى الشمال مع شركة خليج هدسن ، والثانية فى الجنوب مع مــعمرى إنجلترا الجديدة . وإعتــقدت مــستعــمرات إنجلتــرا الثلاثة عــشر فى أمريكا أن المــتلكات الفرنسية قد أخذت فى تطويقهــا من كويبك حتى نيو أورليانز ، وخشت نيويورك من أن تهاجمها الــعناصر التى تسكن إقليم الهدسن . وتسببت هذه المناقــشات والمخــاوف المتبــادلة فى سوء تفــاهم ، تطور إلى تنافس

إستعمارى .

وكـانت العلاقـة بين القوى تسـمح بتـوقع فوز فـرنسا فى حـالة مواجـهتهـا لإنجلترا، ولكن إنجلترا نجـحت بسهولة فـيما وراء البـحار، ونجحت بأساطيلها التى كانت أكثر عددا ، وبوسائلها المالية التى لم يكن مجلس العـموم يناقـشها ويتـحكم فبهـا ، فى الوقت الذى كانت فـيه البرلمانات الفرنسـية تدافع عمن لايدفعون للضـرائب . ونجحت إنجلترا بإستنادها إلى ذلك العدد الكبير من المعمرين الإنجليز ، وعلى الأقل فى أمـريكا التى كان عـددهم قـد بلغ فيـهـا ما يزيد عـلى مليونين ، أمـا الفرنسيين فى كندا فلم يكن عـددهم قد زاد على ٦٥ ألف فكيف يمكننا أن نشك نتيجة صراع نسبة المتحاربين فيه ثلاثين أمام كل فرنسى ؟

وهل كان فى وسع باريس إرسال نجـدات لأمريكا أو كانت ترغب فى ذلك ؟ لقـد كان على فـرنسا أن تدافع عن نفـسها فى أوربـا حيث عملـت بريطانيا على تكوين المحـالفات القـارية ضدها، وكـان مصـير الحروب يتـقرر فى أوربا، حتى ولو كـانت حـروبـا إستعـمارية، ولم يكن فى وسـع أحـد أن يهـتم بالإصطبلات إذا كـانت النار مشتـعلة فى داره .

حقيـقة أن الملك كان يهتم بالمستـعمرات . وكان البلاط مصـمما على الإستـمرار، وطالب الفـرنسيين بالمقـاومة وبأي ثمن كـان . وقام مونكالم بكل مـا كان فى وسعـه أن يقوم به ، ولكنه كان يحـارب ضد الإنجليز ، وضـد جزء هام من الرأي العـام الفرنسى الذى كـان لايؤمن بالمستعمرات والذى كان يرى أن الدفاع عنها يكلف ملايين الجنيهات كل سنة. وأخـذ الناس يطالبون بتـرك المستـعمـرات وفض فرنسـا من هذه المشكلات ، وحـتى شركـة الهند قـامت بسحب دوبلكس بعـد أن زاد

نشاطه بدرجة ملحوظة .

وعلى العكس من هذا الإتجاه فى فرنسا نجد أن بت كان مصمما على الوصول إلى إنتصار لبلاده ، ولم يتراجع عن تضخيم الميزانية وزيادة الضرائب ودين الحكومة . وحصل الفرنسيون منه على مينورقة وعلى كلكتا، وإنضم الهنود الحمر إلى الفرنسيين فى كندا فزاد عزم بت وتصميمه على الإستمرار فى الحرب ، واستند إلى تفوق إنجلترا البحرى ونادى بأى من حق إنجلترا وحدها أن تحصل على المستعمرات .

وبدأت الحرب فى وادى أوهيو ، وجاء واشنطون الشاب على رأس المعمرين الإنجليز فى فرجينيا ، لكى يقف أمام الفرنسيين الذين بلغوا قلعة ديكن . أما فى ألبانى فإن بنجامين فرانكلن قد حاول توحيد المستعمرات أمام الخطر الفرنسى ، ولكن بدون جدوى . واستولى الإنجليز على قلعة ديكن وسموها بتربوح ، وقام الإنجليز بطرد الآلاف من المعمرين الفرنسيين من أكاديا بعد إستيلائهم عليها، وتحويلها إلى اسكتلندا الجديدة ، وبنفس طريقة الأشوريين القديمة وهاجم ولف مونكالم ، وسيطر الإنجليز على كل كندا الفرنسية .

أما فى الهند فإن كلايف قد غزا لاليتولندال وأصبحت هضبة الدكن فى غالبتها تحت سيطرة الإنجليز . وكان مصير بوندشيرى هو نفس مصير كويبك . وكان من الممكن أن تقل نتائج هذه الأنهزامات فى حالة ما إذا تطورت الحرب التى كانت مستمرة فى أوربا منذ سبع سنوات فى صالح فرنسا، خاصة وأن فرنسا كانت تحتل هانوفر ، موطن الأسرة المالكة البريطانية نفسها، وكاد فردريك ملك بروسيا أن يخرج عن تحالفه مع إنجلترا ، خرجت روسيا عن محالفتها مع فرنسا التى إضطرت إلى

وكان شوازيل يعتقد أن معاهدة باريس سنة ١٧٦٣ لم تكن إلا هدنة تسمح له بالاستعداد وبالانتقام ، ولذلك فإنه قبل أقسى الشروط المفروضة . وتخلت فرنسا عن كل كندا وعن كل المعمرين الموجودين فيها، ولم تحتفظ إلا ببعض الجزر الصغيرة وبحقها في الصيد إلى جوار نيوفونلاند ، كما تركت فرنسا لويزيانا لاسبانيا الى كانت قد دخلت فى حرب خاسرة، ولكى تعوضها عن فقد فلوريدا التى كانت مدريد قد سلمتها لإنجلترا. وتخلت فرنسا عن الأنتيل وعن جزر توباجو وسان فانسان ودوبينيك كما تخلت فى إفريقية عن السنغال التى كانت مركزا لتجارة العبيد وتخلت فرنسا عن كل الهند فيما عدا خمس مراكز تعهدت بعدم وضع حاميات فيها . وودعت بذلك كنوز مالا بار وكوروماندل وامال البنغال وهضبة الدكن .

وكانت هذه المعاهدات القاسية التى اثبتت انتصار إنجلترا، تعنى تخلى فرنسا عن حركة الإستعمار. ولم ترحب بها إنجلترا، رغم أن فرنسا قد رحبت بها. وثار بت فى لندن مستندا إلى أن إنجلترا قد أعادت جواديلوب والمارتنيك وسانتا لوتشيا وكوبا والفلبين ، بعد أن كانت القوات الإنجليزية قد استولت عليها. وكان فى واقع الأمر يرغب فى الإحتفاظ بكل المستعمرات الفرنسية والمستعمرات الاسبانية . وكان الإنجليز يرون أن صحارى كندا الثلجية ليست لها قيمة غابات ونباتات جواديلوب .

ونفس هذا التفكير والموازنة جعل الفرنسيين يفرحون بهذه المعاهدة وجعلهم يعتقدون بأنهم قد ضحكوا على الإنجليز وأعطوهم بعض الصحارى الثلجية، مع الهند الى كانت مركزا للحروب التجارية ،

وأعتقدوا أنهم قد احتفظوا بالأهم مادامو قد احتفظوا بسان دومنجو وبالجزر . ولم تكن للفرنسيين صلات وثيقة بكندا والهند ، خاصة وأن المعمرين الكنديين كانوا يتزوجون فيما بينهم ، أما معمرى الانتيل فكانوا على العكس من ذلك يتزوجون من بنات فرنسيات ، ويزوجون البنات هناك من أزواج فرنسيين . وكان لمعظم الأسر الفرنسية بنتا أو أختا أو إبن عم فى برزخ السكر ، وكان معنى التخلى عنها للإنجليز تقطيع روابط الأسر . أما بالنسبة للهنود الحمر فى كندا أو لويزيانا فإن صلات الفرنسيين كانت أقل ، وتسمح لهم بالتخلى عن هذه المناطق .

ولقد وافق الملك نفسه على هذه المعاهدة وقبل هذه الحلول رغم ظاهر بمظهر مخالف . ولقد حاول كل من لوى الخامس عشر ولوى السادس عشر أن يصلحوا ما أفسدته هذه المعاهدة فجمعوا بين أيديهم ، وتحت سلطتهم المباشرة ، ما بقى لهم من مستعمرات ، واشتروا من شركة الهند وجزر فرنسا والبوربون ، ثم كل ممتلكاتها السابقة وتعهدوا بدفع معاش يبلغ ٥٪ إلى حملة الأسهم من قيمة أسهمهم سنة ١٧٧٠ . وإذا كانت هذه الشركة قد أعيد تكوينها سنة ١٧٨٥ فإنه لم يصبح لها من امتيازاتها السابقة إلا الامتيازات التجارية ، دون أى إمتيازات إقليمية .

وحاولت فرنسا أن تعوض ما فقدته واتجهت صوب غيانا وأرسلت إحدى الحملات بسرعة ربدون كبير أعداد وأنزلت ١٣ ألف مهاجر من كل الجنسيات ومن كل الديانات ، ولكن المناخ كان معاديا ومات كثير من المعمرين . وفشلت فرنسا كذلك فى جزر مالوين التى حاول شوازيل احتلالها ، وجاءت إسبانيا لكى تعارض عمليته . وكان الفشل كذلك من نصيب الفرنسيين فى مدغشقر . ولكن بيجو نفبل استكشف تاهاتى ، واسنكشف غيره جزرا جنوبية ، وانتشرت بعثات الاستكشاف

الفرنسية فى المحيط الهادى الجنوبى ، وحاولت فرنسا أن تبنى إمبراطورية إستعمارية فى هذه المناطق

وزاد إزدهار جزر فرنسا والبوربون وخاصة بعد أن دخلتها زراعة القرنفل والمسك الذى نافس الاحتكار الهولندى ، وأصبحت هذه الجزر ديكورا جميلا يمكن تمثيل مسرحية بول وفرجينى فيه .

أما الأنتيل فقد أثبتت أنها أصلح من سهول كندا الثلجية. وقام ١٨ ألف رجل أبيض و ٧ آلاف ملون حر بتشغيل ٢٠٠ ألف عبد فى سان دومنجو وفى مزارع قصب السكر والنيلة ، وكانت كل المستعمرات الأوربية مجتمعة لاتنتج من السكر نصف ما تنتجه هذه الجزيرة . وكانت فرنسا لاتستهلك إلا ١/٨ السكر الذى تنتجه هناك . وكان مجموع التجارة الخارجية الفرنسية ، بما فى ذلك تجارة هذه الجزر تصل إلى نفس مجموعة تجارة بريطانيا الخارجية ، وكان هذا عاملا أساسيا يساعد الفرنسيين على نسيان كندا والهند .

وعلاوة على ذلك فإن عزاءا آخر كان يطمئن الفرنسيين ، ذلك أن شوازيل ، الذى كان قد ضحى بالامبراطورية الفرنسية فيما وراء البحار، قد حصل لفرنسا على جزيرة فى البحر المتوسط ، جزيرة فقيرة ولكنها جميلة ، ويمكنها أن تصبح قاعدة أمام الإنجليز فى هذا البحر. وكانت جنوا تمتلكها دون أن تتمكن من اخضاعها، فأعطتها لفرنسا سنة ١٧٦٨ نظير إعفائها من ديونها القديمة .

إنها هذه الجزيرة العذراء المعصبة التى رأت منذ عهد ابناء قرطاجة عددا كبيرا من الغزاة دون أن تخضع لهم . وحتى مع الفرنسيين ظهرت وكأنها لم تخضع . ذلك أن باولى قد قاوم الفرنسيين ، وكان أحد قواده هو شارل بونابرت . ولكن كورسيكا كانت أقل بعدا عن سان لوران ،

ووضعت فرنسا حامياتها فيها. كما أن فرنسا حاولت كسب الثوار وأنشأت مجلسا في الجزيرة وأصبح شارل بونابرت نائبا عنها. وأعطت فرنسا المنح لشباب كورسيكا الذين يرغبون في الدراسة في فرنسا، وحصل نابليون بونابرت على إحدى هذه المنح للدراسة في برلين . فهل تنجح سياسة التهدئة ونسير مع سياسة الإستعمار ؟ بدون شك ، وبسرعة ، ولكن كورسيكا هي التي ستستعمر فرنسا مع نابليون بونابرت .

٢- الفلاسفة والاستعمار :

علم الفلاسفة الرأي العام طريقة التفكير ، وعلموه في نفس الوقت إحتقار كندا بنوع خاص والمستعمرات كلها بنوع عام . ولقد تمنى فولتير أن يرى كندا تغرق كلها في المحيط المتجمد الشمالي بما عليها من أباء يسوعيين في كويبيك. وفضحها كأكره بلاد الشمال إلى قلبه ، وكإقليم لايمكن الاحتفاظ به إلا بحروب مخربه . وكان فولتير يفضل إستعمار كورسيكا، وذكر أنه إذا كانت فرنسا قد إستخدمت عشر الأموال التي أنفقتها في كندا في تفليح الأراض البور في فرنسا نفسها، لكسبت كثيرا، ولكن فرنسا فقدت سنوات مليئة بالشقاء وفقدت الأموال إلى غير رجعة ، وجاء بعده ميرابو وأكد في كتابه « صديق الرجال » ضرورة عدم التأسف ، وأشار إلى أن التجارة هي التي يمكنها أن تحدد قيمة المستعمرات ، وكانت كندا تظهر كآخر مستعمرة تجارية في العالم في هذا الميدان .

ولم يكن هناك داع للتأسف على الهند كذلك ، ولم يسامح فولتير الشركة التي أهملت حملة الأسهم والتي لم تقدم لهم أي ربح ناتج عن تجارتها، وبشكل جعل منها الشركة الوحيدة الموجودة في أوربا

ومن هذا النوع. أما رجال الصناعة الفرنسيين فكانوا يشتكون من موضوع آخر ، ذلك أن منافسة الأقطان الهندية كانت شديدة ، وبفقد الهند تخلصوا من هذه المنافسة .

ولم يمل الفلاسفة إلى المستعمرات إلا فيما يخص الجزر ، وربما لويزيانا وقام مونتسكيو بقبول فكرة المستعمرات التجارية ، ولكنه فضح مستعمرات التوطين . إذ أنها تضعف البلد الأصلية . أما فولتير فقد رأى أن طبيعة الإنسان كانت تخالف الهجرة ، وعند شعوب تتضارب عاداتهم وتقاليدهم مع عادات وتقاليد المهاجرين ، وتعرض صحة الأهالى لأمراض جديدة ، ولمناخ لم يتعودوا عليه منذ ميلادهم . ولقد هاجم الفلاسفة بعض المستعمرات على أنها تستورد الأوانى من الصين والأنسجة والملابس من الهند والعبيد والبهائم من مدغشقر ، وبعض النبيذ من رأس الرجاء الصالح ، وإدارتها من فرنسا . وأعتقدوا أنهم يقومون بواجب وطنى حينما يفضحون هذه الأخطاء ويمنعون الرجال من الخروج عن بلادهم ويبقونهم لتفليح الأراضى الفرنسية نفسها. وظهرت هذه الفكرة فى الأنسيكلوبيديا التى تساءلت عن امكانية إنشاء مستعمرات داخل فرنسا نفسها، وامكانية توجيه الرجال عن المغامرات البعيدة . وبعد تنبأت الانسيكلوبيديا بمصير المستعمرات وقالت بأنه لايمكن لأمة أن تخضع باستمرار لأمة أخرى ، ولمدة أطول مما تتطلبه مصالحها. أما مصالح المستعمرات فهى مرتبطة بالاستقلال، وهذا هو ما سيدفع المستعمرات إلى التحرر بمجرد شعورها بعدم حاجتها إلى الحماية الأجنبية . واستشهدت فى ذلك بالأب الذى يفرض على ابنه بعد البلوغ نفس الطاعة التى كان يقدمها فى أيام طفولته ، وذكرت أن العلاقات ستفصل بين الاثنين ، وأن هذا هو ما يحدث بين المستعمرات والوطن الأم .

وقام رينال فى كتابه عن التاريخ الفلسفى والسياسى للمنشآت الأوربية فى الهند الشرقية والغربية سنة ١٧٧٠ ، بمهاجمة المستعمرين الذين يبقون وراء التحصينات إذا ما شعروا بالتهديد، والذين يصلون إلى درجة العنف حينما يشعرون بالقوة ، والذين كانوا شغوفين بالحصول على الاشياء والإستيلاء على الأراضى ، ومتمرغين فى اللذات ، وقادرين على ارتكاب كل الجرائم ، ولقد وصف كل صفحات تاريخ الاستعمار بأنها مخضبة بالدماء ، ووصف الشعوب المستعمرة بالجبن ، وطالب بقرب قيام قيامتهم وهدم بلادهم ، ولقد أعيد طبع هذا الكتاب عشرين مرة .

وجاء الفلاسفة الإنجليز بعد الفلاسفة الفرنسيين ، ولكنهم كانوا استعماريين حتى ولو كانوا من رجال الاصلاح . فنجد أن لوك رغم إصراره على أن الشرعية تستند إلى الرغبة الوطنية ، وإلى أن الشعب من حقه دائما أن يتحرر ، يمد هذه النظرية إلى المستعمرات التى قال بأنه لايمكنها أن تتخلص من السلطة الملكية، وبالتالى من وصاية الوطن الأم.
أما جيبون فانه قد أخذ لوك كمثل له عند كتابته تاريخ الامبراطورية الرومانية . ولكن دون أن يفكر فى أن مثل هذا الانهيار يمكن أن يحدث يوما للامبراطوريات الحديثة وفى نفس الوقت الذى فكر فيه مونتيسكيو فى هذه النقطة . وربما كان بنتام هو المفكر الوحيد فى انجلترا الذى تمكن من اثارة بعض الشك على مبادىء الاستعمار.

ولكن هناك بعض الكتاب مثل سويفت الذى كان قد نقد الإستعمار وبشدة فى كتابه عن جوليفر الذى روى فيه ذلك العالم الغريب الذى شاهده أثناء زياراته للمحيطين الهندى والهادى ، والذى ذكر فيه أن بعض القراصنة قد دفعتهم احدى العواصف إلى إحدى المناطق المجهولة، وأن أحدهم قد اكتشف الأرض من أعلى أحد العواصف

السارايات ، فنزل اليها لكى يسرق وينهب وأنه شاهد هناك شعبا مسالما استقبله بترحيب ، ولكن القرصان أعطى اسما جديدا لهذا الإقليم واستولى عليه باسم الملك ونصب لوحا قديما من الخشب وقطعة من الحجر كشاهد على ذلك . ثم قام القراصنة بقتل بضع عشرات من الأهالى وعادوا باثنين منهما وبالقوة كعينة يعرضونها فى بلادهم. وهنا بدأ حكم يستند إلى الحق المقدس وحضرت السفن فى أول فرصة وقتل كثير من الأهالى أو ابعدوا عن أراضيهم وعذب أمراءهم حتى يعترفوا بأماكن الذهب الذى يمتلكونه . ولقد سمح القراصنة لأنفسهم بارتكاب كل شىء ممكن من القسوة والفساد والإنحلال، وسالت الدماء على الأرض ، دماء الوطنيين ، وتمكن هؤلاء القتلة الذين يعملون فى حملة دينية من إنشاء مستعمرة مثالية وأخذوا فى تحويل الأهالى عن عبادة الأصنام وعن البربرية . إن الإنجليزى الذى يقرأ سويفت يضحك ، ولكنه يستمر فى عمليات الاستعمار. أما القارىء الفرنسى الذى يقرأ جوليفر فانه ينظر إلى العملية نظرة أكثر جدية ، خاصة وأن المستعمر كان محتقرا فى أعين الفلاسفة، وأن الوطنيين كانوا يوصفون بأنهم شعوب مسالمة تقابل الغزاة بكل ترحيب . وهذا ما جعل فرنسا تـ..ـا: ـلى المستعمرات فى الوقت الذى فقدت فيه مستعمراتها.

٣- أبنــاء المستعمرات :

أصبح العطف على أبناء المستعمرات دعامة أساسية لحركة الكفاح ضد الاستعمار. فاذا كانت طبيعة الوطنيين وأخلاقهم أحسن من طبائع المستعمرين وطرقهم ، فعلى أى أساس يسمحون لأنفسهم باستعباد هذه الشعوب ؟ وجاء مونتى بعد لاس كازاس وكتب على آكلى لحوم البشر، وذكر أنهم ليسوا متبربرين ولا متوحشين ، رغم أن العالم كله ينعتهم بهذه الصفة . وذكر أنهم لبسوا متوحشين ولكنهم طبيعيين مثل الثمار

التى تعطيها الأشجار فى الغابات البكر، وحتى قوانينهم الطبيعية كانت أقل تعقيدا من القوانين الأوربية ، وأن الأوربيين يصرون على اتهامهم بالبربرية والوحشية . وتغنى أوربيون آخرون بفضائل الوطنيين فى جزر الأنتيل، وذكروا كيف أنهم كانوا راضين بأحوالهم ، سعداء محبين للعشرة ولم تأكل الأمراض بعد أجسامهم ، كما أكلت أجساد وعقول الأوربيين . إنهم يعيشون فى توافق مع الطبيعة التى خلقتهم فى بساطة تامة وسماحة بدائية ، والكل متساوون ، فليس هناك فرد أغنى من فرد آخر، وتقتصر رغباتهم على مايحتاجون إليه ويستغنون عن الزائد منها. وكما أن أجسادهم صحيحة فكذلك عقولهم . بل ذهب البعض إلى أنهم هم الرجال الأحرار وأن الأوربيين هم العبيد، رغم رغبة الأوربيين فى استعبادهم وذكر روسو أن هؤلاء الوطنيين فى مستوى أعلى من مستوى الأوربيين ووصفوهم بالحرية وبالسيادة وبمعرفة الشرف ، وذكروا أنهم أحسن من الاباء اليسوعيين وأن اكلى لحوم البشر أحسن من أفراد الحاشية والبلاط .

ولقد ساعد الكتاب بيجونفيل وديديرو فى رسم لوحات فنية تظهر الوطنيين بشكل معين ممتلئين بالصحة ، مرحبين بالضيوف ، كرماء وسمحاء ، يرغبون فى العيش في سلام مع كل العالم، وكم من فقرة من كتاباتهم فضحت نيات الاستعمار وكتبت على لسان الوطنيين متهمة الأوربيين بأنهم رؤساء عصابات وعليهم أن يبعدوا سفنهم عن سواحل الوطنيين ، ويتركوهم سعداء مع حياتهم البدائية ، خاصة وأن هذه السواحل ليست للأوربيين ، حتى ولو وطأتها أقدامهم . لقد جعل الكتاب الوطنيين يسألون الأوربيين ، فى كتاباتهم ، عما إذا كان من حقهم أن يستولوا على البلاد الأوربية فى حالة ذهابهم اليها، كما فعل الأوربيون فى بلاد الوطنيين ، ويسألونهم عن السبب فى هذا التصرف،

أهو الاعتماد على القوة ؟، ومع من ؟ إنهم إخوان فى الإنسانية، وكل منهم ابن للطبيعة ، ومن الذى يجعل الأوربى يفرض عاداته وتقاليده على أخيه فى الإنسانية ؟ خاصة وإذا كان الوطنى يرفض هذا التغيير الاجبارى . وكانت كل هذه الحجج دعامات قوية ضد حركة الاستعمار .

لم يكن هناك كثير يمكنه أمام هذه الحركة الفكرية والأدبية والانسانية أن يصر على أن بعض الوطنيين كانوا يسلخون جلود أسرهم ، ويقدمون الضحايا البشرية للألهة ، ويقتلون الابناء الذكور لأعدائهم ، ويقتلون رجال التبشير ، وربما ياكلون لحومهم . ولكن بعض رجال الاستعمار واصلوا شرح هذه الأمور واتهموا الفلاسفة بأنهم يكتبون كتبهم فى أبراجهم العاجية، وأن الرجال الذين يعيشون معيشة طبيعية لايختلفون عن البهائم فى شىء .

وكان الرأى العام بعيدا عن الحقائق ، وأصبح عليه أن ينقسم على نفسه بين الاعجاب بمزايا أبناء المستعمرات والوطنيين ، وبين الاعجاب بالحضارة والمدنية وضرورة إدخالها لديهم. وظهرت كثير من المسرحيات التى امتلأت إعجابا بأبناء المستعمرات وباخلاصهم . وقرأ الناس روبنسون التى جعلت من « جمعه » ثمرة جميلة من أبناء الطبيعة . وتبلورت الفكرة شيئا فشيئا عن براءة الوطنيين وأبناء المستعمرات ، فى الوقت الذى تثبت فيه صورة وحشية وبربرية المستعمرين الغربيين .

كان هذا فى أوربا نفسها . أما فى أمريكا فقد كان المستعمرون متصلين بالهنود الحمر . وكان الانجلوسكسون يفضلون الهندى المقتول على الهندى الحى وكم ومن كاتب شرح أن خطأ الهنود الوحيد هو أنهم قد ولدوا وبجلودهم لون آخر ، ولكن ذلك لم يمنع أو يقلل من

قبلهم. والواقع أن الفـلاسفة قد ظهروا فى أوربا لا فـى العالم الجديد. وربما رجع ذلك إلى أن الفلاسفة لم يحتكوا بالوطنيين ولـم تكن حياتهم مهـددة فى الأراضى الجـديدة التى ذهبوا اليـها. ولكن أحـدا لم يجـبر المستعمرين على الذهاب اليها.

ومع مشكلة الاستعـمار ظهرت مشكلة الرق . ذلك أن آلاف من الرجال قد أصبحوا ملكا لرجال آخرين ، وذلك طبـقا لرغبة تجار العبيد الذين أثروا من هذه التجـارة ، ولرغبة المزارعين الذين كانوا فـى حاجة إلى أيدى عاملة رخيصة . لقد فضح روسو نظام العبودية وذكر أن قانون الاستعبـاد غير موجود، وليس من حق الرجل الأبيض أن يستعـيد غيره مادام يعتقد فى الحرية ، وشرح غيره ضرورة احجام الرجل الأبيض عن إستخدام حقه فى استعباد غيره إذا كان يعتقد فى نفـسه كأنسان وكرجل مسيحى .

وانشغل الرأى العام فى أوربا ، وصدر مرسوم ملكى سنة ١٧٨٥ يعطى للمحررين من العبيد فى المستعمرات نفس حقوق الرجل الأبيض. وتكونت جمعـية لإلغاء الرق ، وجمعـيـة أصـدقـاء الزنوج التى نشأت فى انجلتـرا الجديـدة وفى بريـــطانيا سنة ١٧٨٨، وأصـبح لها فـرع فى فرنسا .

ورغم ذلك فقد واصل تجار العبيد عملياتهم المربحة ، كما واصل الفـلاسفـة كتـاباتهم ، وواصل الأوربيون قـراءة هذه الكتب ، وواصل الجميع المضاربة على أسهم شركـات الهند ، وفى انتظار استمرار نضوج الفكر ، ونضوج التيار السياسى .

٤ - نهاية باراجواى اليسوعية :

وإذا كان للهجوم على نظام الرق قد اصطدم بتقاليد جـامدة فان الهـجوم على النظام الاسـتعـمـارى قد بدأ فى إعطاء ثمـاره. ذلك أن العلاقات بين الدول الاوربية وممتلكاتها البعيدة قد أصبحت أقل جمودا، وحتى الامبراطورية الاسـبانية التى كانت تمثل كتلة متـوازنة ، فان الحرية التجـارية فيهـا قد ازدادت مع انتشاره الآراء الجـديدة ، ففقدت قادس احتكارها سنة ١٧٧٨ وفـتحت ثلاثة عشـر ميناءا فى اسبـانيا و ٢٤ فى أمريكا للتـجارة ، وحرر شارل الثـالث الهنوذ وذلك بابداله استعـبادهم بنظام جديد قام باستغلالهم فيه ، كدافعى ضرائب مباشرة .

ولقد قام شـارل الثالث ببعض الإصلاحـات وكان بعض له بعض الوزراء الايطاليين وبعض الوزراء والمفكرين الذين نظروا إلى غزاة العالم الجديد على أنهم من رجال العـصابات . ولقد كان الهجـوم عنيفا على الاستعمار الاسـبانى ، خاصة وأنه كان استعمار كـاثوليكيا . فماذا كان فى وسع هذا الملك الذى صـمم على أن يكون متـحررا ، أن يفـعله ، وأي مستـعمرة يمكنه أن يضحى بهـا على مذبح الفلاسفـة والمتحررين ؟ لقد كانت مستعمرة يمكنها بعينها أصلح من غيرها لذلك، وهى مستعمرة باراجواى اليسوعية .

وكان كل الفلاسـفة قد اتفقوا فـيما بينهم ضد اليـسوعيين ، على أنهم يكونون مجتمعا خـاضعا لطغيانهم ، وعلى أنهم من الرهبان الذين يضطهدون أبناء غير مذهبهم ، ولقد ذكر روسو أن اليسوعيين قد دعموا نفوذهم بتطبيقـهم سياسة الحق المقدس وبتنصيبهم أنفـسهم قضاة يميزون بين الحسـنة والسيئـة ، وباسم الرب ، ولذلك فـقد كان من المـتوقع أن يطرد اليسـوعيون وخاصـة من بعثاتهم الأمـريكية. وكانت البرتغـال قد

بدأت بالهجوم عليهم، وذلك بحصولها على سبع من مستعمراتهم فى باراجواى نظير قلعة لاباتا سنة ١٥٧٠، ثم قامت لشبونة بالهجوم على كل الجماعة وطردت اليسوعيين من كل البرتغال . ثم جاء دور أسبانيا للعمل فاتهمت اليسوعيين بنشر آراء تتضارب مع الحقوق الملكية وقوانين الكنيسة وبتعطيل التجارة . واتفق نائب الملك فى بيرو مع أسقف بونس إيرس على فضح تطرف اليسوعيين وسلطتهم ومؤامراتهم وتعصبهم وانفصاليتهم . وكان شارل الثالث يعرف ما يقولون ، ويعرف ما يقوله الفلاسفة وكيف أنهم كانوا يفرضون العمل المنهك على الهنود الحمر ويربحون من عرق جبين الآخرين ، دون أن يتركوا لهم أي حق من حقوق الملكية ، وأنهم كانوا يسيرون بينهم يحملون الكرابيج التى تنزل على ظهر أي فرد من الهنود دون تفريق بالنسبة للسن أو للجنس . كما أن فولتير كان قد شرح أنهم كانوا يضربون بالسياط الآباء والأمهات، وأن هذا السبب وحده يكفى لطردهم من كل مكان . ولقد ذهب فولتير إلى أبعد من ذلك وحاول أن يجعل شارل الثالث يخشى من استيلاء اليسوعيين على السلطة فى المنطقة ، وذكر أنهم قد انتخبوا أحد آبائهم ملكا على باراجواى بالفعل .

فلم يتردد شارل الثالث بعد ذلك ، ووقع على أمر طردهم سنة ١٧٦٦ وكان عددهم يبلغ ثلاثة آلاف فى أمريكا، مقسمين إلى مائة وعشرين بعثة ، ولقد احتج الأهالى فى سانتياجو وفى المكسيك وحاولوا مقاومة هذه الأوامر ، ولكن اليسوعيين اضطروا إلى إخلاء باراجواى التى أزدهرت نتيجة لمجهوداتهم،وودعوا الهنود الحمر وخرجوا من البلاد. وأصبح من السهل بعد ذلك على الهنود الحمر أن ينسوا اليسوعيين مادامت مدريد قد وعدتهم بملكية أراضيهم، أو بغلة هذه الأرض ، وعلى أساس دفعهم للضرائب . ولكنهم اضطروا إلى الهرب

إلى الغابات فرارا من النظام الحكومى الجديد .

وحينما احتج البابا على هذا القرار أجابه شارل الثالث بأنه مسئول وحده مع الله عن معرفة الأسباب التى دفعته لإتخاذ هذا القرار . والغريب أن فولتير قد خالف شارل الثالث فى هذا الموقف تجاه البابا ونادى بضرورة نشر شارل الثالث لأسباب هذا القرار. ثم تحول فولتير بعد ذلك من مهاجمة نظام الاستغلال اليسوعى الى مهاجمة شارل الثالث ، وأخذ يندم على الاستعمار اليسوعى وعلى حكومتهم فى باراجواى التى لم يشهد العالم مثلها من قبل . وجاء شاتوبريان فيما بعد لكى يملأ الدنيا إعجابا بتجربة باراجواى ، كأجمل عمل خلقته أيدى الرجال فى الأقاليم المتوحشة حتى الآن . ولكن هذا الندم كان قد جاء متأخرا ، وماتت هذه المستعمرة . أما اليسوعيين الذين طردوا من اسبانيا ومن الهند ومن جزر الفلبين ، فقد أصبحوا أعداء مدريد . والتجأ كثير منهم إلى بولونيا وإلى فرارى ، ثم انتشروا فى بقية العالم وأخذوا فى مهاجمة الملكية الإسبانية . وتحالفوا مع الفلاسفة وسيصلوا معهم إلى القضاء على الامبراطورية الاسبانية .

وهكذا نجد أن الدور الذى لعبه الكتاب والمفكرون فى فرنسا فى ذلك العصر قد أثر تأثيرا كبيرا فى تاريخ الاستعمار، وجعل فرنسا ترضى دون أسف بفقد الهند وبفقد كندا، وتتجه صوب بلادها نفسها وصوب أوربا. وكانت أراء الفلاسفة متحررة ، إلا أنهم نظروا إلى أبناء المستعمرات على أنهم أجناس سامية فى البشرية ، بل وأجناس أكثر سموا من الأوربين . ولقد وصل هذا التفكير الجديد إلى نتائج هامة ، وأيد سلطة الدولة الاسبانية فى القضاء على سلطة الجماعات الدينية التى تقوم بالاستعمار ، وتشرف على الاستغلال، ولقد استمر هذا التفكير الجديد وأثر على مستعمرات انجليزية ، بل كان سببا أساسيا فى نشوب

الثورة الفرنسية . ولكن هل كان استعمــار الدولة أكثر مثالية من استعمار اليســوعيين ؟ وهل يمكن الدولة ما أن تتــحرر مادام لهــا مستعــمرات ؟ ومادامت المســتعــمرات تشتــمل على عبــيد ؟ أو حتى لــو أصرت على ضرورة التفرقة العنصرية؟

لقد بدأ العالم يفــكر ، وبدأ فى محاربة الاستعــمار ، ولكنه كان لايزال فى أول الطريق ، وكانت هناك عوامل ســياسية واقتصــادية تدفعه إلى هذا التفكير ، وتوصله إلى هذه المرحلة منه .

الفصل الرابع عشر

الثورة الامريكية (١٧٧٤ - ١٧٧٧)

تمكنت فرنسا بعد عشرين عاما من معاهدة باريس من أن تنتقم بدورها من انجلترا وتهزمها. وسنحت لها الفرصة عن طريق المعمرين فى أمريكا الذين كانوا قد أسهموا من قبل فى إنتصار الانجليز أثناء حرب السنوات السبع . وحين رغبت حكومة الوطن الأم فى أن تحملهم جزءا من أعباء تسوية الديون التى تعاقدت عليها خلال الحرب ، إتحدت المستعمرات الثلاثة عشر ضدها، وأعلنت الثورة ، وتمكنت بمعونة فرنسا من أن تنتصر بعد صراع حربى إستمر مدة ثمانية أعوام. وجاءت معاهدة فرساى فى ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٣ لكى تعترف باستقلال الدولة الجديدة التى أنشأتها، وهي الولايات المتحدة ، والتى كانت أول دولة حرة فى العالم الجديد .

١- المستعمرات الثلاثة عشر :

إستعرضنا فيما سبق الظروف التى تم فيها، منذ نهاية القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر ، إنشاء مجموعة من ثلاثة عشرة مستعمرة إنجليزية على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية. وكانت أكثرها قدما مستعمرات الشمال، وهى مساشوستس ، وإنجلترا الجديدة وبنسلفانيا، التى أنشأها لاجئون من البيوريتان وكان غالبية سكانها من الفلاحين والحطابين ، وصائدى الأسماك ، أى أنهم كانوا قد تعودوا على الحياة الشديدة القاسية ، وأنهم كانوا بسطاء وقساة فى عاداتهم ، وأنهم كانوا يحبون المساواة والحرية . وهم الذين سيقومون بنشر الثورة . فكان القانون يحتم إنشاء مدرسة أولية لكل مجموعة تتكون من خمسين منزلا ، وكانت قد نشأت هناك بعض معاهد التعليم

العالى الهام ، مثل كلية هارفارد ، وكلية ييل وغيرها ، التى ستصبح من أكبر الجامعات حاليا .

ومع ذلك فإن الثروة العامة كانت بسيطة ، ولم يكن هناك أكثر من مدينتين فى كل من ماشوستس وبنسلفانيا ، اللتين كانتا أكثر المستعمرات إزدهارا وكانتا عاصمتى هاتين المستعمرتين : فيلادلفيا عاصمة بنسلفانيا ، وكان عدد سكانها ٢٠ ألف نسمة ، وبوسطن عاصمة مساشوستس التى كان تعدادها ١٥ ألف نسمة ، ولكنها كانت ميناءا تجاريا ، وميناء للصيد يتميز بالنشاط .

وكانت المستعمرات الخمسة الجنوبية ، على عكس مستعمرات الشمال، قد أسسها رجال من الأنجليكان والكاثوليك ، فى أراض خصبة ، وتحت مناخ دافىء فكانت أراضيها أراض زراعية ، وتتميز بطابع الارستقراطية. وكانت الحياة هناك سهلة ومتسعة للملاك المقيمين وسط مزارعهم . وكانت أراضى ماريلاند وفرجينيا ، وهى الأقدم والأكثر ثروة من هذه المستعمرات ، تزرع الطباق والذرة ، أما كارولينا فإنها كانت تمتار بزراعة الأرز والنيلة ، ولم يكن المزارعون هم الذين يقومون بفلاحة الأرض ، بل كانوا يشرفون على هذه العملية التى كانت تقوم بها مجموعات من الزنوج ، وهم العبيد الآتيين من افريقيا . وكان هناك ما يقرب من ٦٠٠ ألف عبد ، يمثلون ما يقرب من ربع التعداد العام لسكان المستعمرات الانجليزية ، الذى قدر في سنة ١٧٧٥ بحوالى ٢,٧٠٠,٠٠٠ نسمة .

أما المستعمرات الثلاث فى الوسط ، وكانت فى الأصل مستعمرات هولندية فإن نشاطها الرئيسى كان هو النشاط التجارى . وكانت نيويورك هى أكبر مدن أمريكا الشمالية ، ووصل عدد سكانها

إلى ٢٥ ألف نسمة . وكانت كذلك أشهر ميناء ، كما كانت أكبر مركز للتبادل مع انجلترا .

وكانت هذه المستعمرات الثلاثة عشر قد تكونت وعلى أنها دول. فكانت كل منها قد نشأت نتيجة لاصدار مرسوم من التاج ، وكانت لها حكومتها الخاصة . وكانت إدارات هذه الحكومات متشابهة. فكان هناك الحاكم ، والمجلس ، والمجلس الإنتخابى. وكان الملك هو الذى يعين الحاكم والمجلس فى تسع مستعمرات وكانوا يعينون عن طريق المعمرين أنفسهم أو عن طريق سيد المستعمرة ، أو أحد أحفاده ، فى المستعمرات الأربع الباقية . وكانت المجالس الأنتخابية تضم ممثلين منتجين عن المعمرين ، ولفترة تتراوح بين عام وعامين .وكان كل مجلس إنتخابى له الحق الخاص فى التصويت على الضرائب اللازمة لمواجهة المصاريف المحلية . وكان المعمرون هم الذين يقومون أنفسهم بتعيين القضاة . وفى المجموع، كانت المستعمرات تتمتع بحريات هامة فى الشئون الادارية .

ولكن الأوضاع لم تكن كذلك فيما يتعلق بالشئون الاقتصادية . وفى هذه الناحية عامل الانجليز مستعمراتهم بنفس الطريقة التى عاملت بها فرنسا وإسبانيا مستعمراتهما، فكانت كل دولة من هذه الدول تعتبر أن مستعمراتها أسواق للوطن الأم . فكان تجارها وحدهم هم الذين يذهبون إلى هناك ، ويبحثون عن السلع التى كانت تنقص انجلترا، وكانوا وحدهم هم الذين يأتون إلى هناك بالمنتجات الوطنية المصنوعة دون غيرها. وفى هذا الميدان لم يكن أكبر وزراء انجلترا ، بيت ، يختلف فى مشاعره عن أصغر وزير اسبانى حين قال : « إذا ما تمكنت أمريكا من صنع جورب أو مسمار لحدوة حصان ، فإننى سأجعلهما تشعر بكل ثقل قوة انجلترا » .

ومع مثل هذا التفكير كان هناك مبدأ لصدام بين الوطن الأم وبين أبناء المستعمرات . ولم يكن فى وسع المعمرين أن يتغاضوا باستمرار عن تمكنهم من أن يحصلوا، بصناعتهم أنفسهم ، على الأدوات التى كانوا يجدون موادها الأولية فى أراضيهم . ومنذ أواسط القرن الثامن عشر ، ساد المعمرين شعور بأن مصالحهم تختلف عن مصالح انجلترا فى أكثر من نقطة . وإنه من الواجب عليهم أن يتحدوا ، حتى يتمكنوا من الدفاع عن مصالحهم . وفى سنة ١٧٥٤ اجتمع مؤتمر يضم ممثلين عن المستعمرات فى ألبانى ، فى مستعمرة نيويورك ، وبدؤا دراسة مشروع للاتحاد . ولكن الخطر جاء من فرنسا ، وقطعت حرب وادى أوهايو هذه المداولات من أولها.

٢- أسباب الثورة :

نتج الصدام بين انجلترا ومستعمراتها عن انتصار انجلترا فى حرب السنوات السبع . وانتهى الخطر الفرنسى على المستعمرات ، فشعر المعمرون بأنه لم تعد هناك أسباب قوية تجبرهم على الاحتراس من الوطن الأم . ومن ناحية أخرى كلفت الحرب انجلترا مبالغ باهظة . وزادت الدين بمقدار ٣٥٠٠ مليون جنيه الأمر الذى أدى إلى رفع الضرائب وزيادتها إلى أقصى حد ممكن . ورأى جورج الثالث ، ووزيره جرينفيل أن على الانجليز أن يحصلوا على أكبر ربح تجارى ممكن من مستعمراتهم . واعتقدوا كذلك أن على المستعمرات أن تتحمل نصيبها فى الإعباء المشتركة ، ونشارك بنوع خاص فى نفقات الحاميات الموجودة فى أمريكا للدفاع عنها. ولذلك فإن الوزراء أصدروا أوامرهم بضرورة التطبيق الصارم للقوانين التى تضمن للسفن الإنجليزية احتكار التجارة البحرية مع المستعمرات. ثم قام البرلمان بإقرار أن كل حكم قضائى، سواء فى المستعمرات أو فى انجلترا ، يجب أن يكتب على ورق عليه

خاتم أو طابع الدولة ويباع من صالح الدولة وكان هذا ما سمى بضريبة الدمغة سنة ١٧٦٥ . وكان إقرار هذه الضريبة هو السبب فى صدام طويل إستمر لمدة ستة عشر سنة ، ثم زاد خطورة حين انتهى بثورة المستعمرات سنة ١٧٧٤ .

ولم تكن القرارات المتعلقة بالإحتكار التجارى هى التى أثرت فى الأمريكيين : فكانوا متأكدين ، نتيجة لزيادة نمو سواحلهم ، من التمكن رغم كل شيء من ممارسة التهريب بكل حرية . ولكنهم ثاروا على العكس من ذلك ضد ضريبة الدمغة . وإجتمع نواب المستعمرات المختلفة فى فيلادلفيا لكى يحتجوا فى مجموعهم عليها، وبإسم الحريات الإنجليزية ، وذلك فى شهر اكتوبر سنة ١٧٦٥، وذكروا أن المعمرين ، حين تركوا إنجلترا قد ظلوا من الأنجليز ، وأنهم احتفظوا فى المستعمرات بحقوقهم كمواطنين ، وكان الأساسى من حقوق المواطن الانجليزى هو الحريات ، فإذا رفض جزء منها ضاعت كل الحرية ، وكان الأساس فى هذه الحرية هو ألا يدفع أية ضريبة مادام لم يوافق هو نفسه ، أو ممثليه فى مجلس العموم عليها. ولم يكن للمعمرين أى ممثلين فى البرلمان ، ولذلك فإنهم لايدفعون ضرائب .

وتم الإتفاق على هذه النظرية ودافعوا عنها فى انجلترا وفى البرلمان نفسه، ودافع عنها بيت والويجز بنوع خاص . وتم تحت تأثيرهم ورغم مشيئة جورج الثالث ، الذى كان تفكيره المستبد يزيد من عنف مقاومة المستعمرات موافقة مجلس العموم على إلغاء قانون الدمغة ، خاصة وأنهم كانوا لم يجدوا أى فرد فى امريكا يرغب فى القيام ببيع أوراق الدمغة ، حتى شهر مارس سنة ١٧٦٦. ولكن البرلمان ، فى نفس الوقت الذى ألغى فيه الدمغة ، أعلن حقه فى فرض الضرائب على المستعمرات ، وأصدر قانونا فى شهر يونيو ١٧٦٧ بفرض ضرائب

جمـركيـة على بعض السلع المستوردة من إنجلتـرا مثل الحـديد والورق والزجاج والأصبـاغ والشاى . فإتفق الأمريكيـون على عدم شراء السلع الخاضعـة للضرائب ، فإنخفـضت قيمة السلع الإنجليـزية المستوردة إلى الثلثين ، وظهر أن تكاليـف جمع الرسوم قد زادت ثلاثة وأربعـة مرات على قيمة الضرائب نفسها .

وبعد ثلاثة سـنوات من الصراع إضطرت الحكومـة إلى إلغاء هذه الضـرائب ماعـدا ضريبـة الشاى ، الـذى كان مـشروبا وطنيـا لايمكن الإستغناء عنـه ، وقرر الأمريكيون مقـاومة كل عملية لتـفريغ الشاى . وفى شهـر ديسمـبر سنة ١٧٧٣ وصلت ثلاث سفـن تحمل ٣٤٠ صندوق شاى إلى بوسطن ، فـقام الأمريكيون المتنكرون فى شكل الهـنود الحمر بالصعود عليها وإلقاء حمولتها إلى البحر . وكانت فرصة للملك جورج الثـالث ، الذى كـان يرغب فـى إسـتـخـدام الشـدة ، وأعلن أن على المستعمـرات أن تنتصر عليه ، أو أن تخضع له . وأعلن مـحاصرة ميناء بوسطن ، والإسـتمرار فى هذه العـملية حـتى يتم دفـع ثمن البـضائع التالفـة . وفى نفس الوقت قرر البرلمان تغـيير مـرسوم مساشـوستس ، وإنتـزع من المعمـرين حق تعـيين قـضاتهم وإخـتـيـار أعضـاء المجلس الإنتخابى .

وعندئذ طلبت بوسطن ومساشوستسى عون المستعمرات الأخرى . وإجتـمع مـا يقرب من خـمسين نائبـا فى فيـلادلفيـا ، وكونوا مـؤتمرا كـومـجرس ، وحـددوا من جـديد ، وبشكل رسـمى ، وفى إعـلان للحقوق ، النظرية الدسـتورية للأمريكيين . وكان أهم جزء فيـها يتمثل فى هذه العـبارة : « إن أساس الحـرية الإنجليزية ، وكل حكـومة ، هو حق الشعب فى أن يشارك فى التشـريع الخاص به » . ثم قام المؤتمر بعد ذلك بتنظيم رسمى لـوضع السلع الانجليزية على قائمـة ، وإنشاء رابطة

لعدم الإستيراد ، وانتخبوا لجانا فى كل مستعمرة لمراقبة التجار والأهالى ، كما أنشأوا سرايا من الحرس لمساعدة هذه اللجان وأنشأوا مخازن صغيرة للسلاح فى أماكن مختلفة .

وفى ١٩ أبريل سنة ١٧٧٥ إصطدمت وحدة عسكرية إنجليزية ، كانت مرسلة للإستيلاء على أحد هذه المخازن ، وعلى بعد كيلو مترات من بوسطن ، برجال الحرس . وسقط بعض القتلى من الجانبين وصل عددهم إلى مائتين من الجانب الإنجليزى . وبدأت الحرب من هذا الإشتباك ، وإستمرت لمدة ثمانية أعوام (١٧٧٥- ١٧٨٣) .

٣- اعلان الاستقلال :

وفى أثناء ذلك الوقت كان الأمريكيون قد كونوا جيشا تحت قيادة واشنطن ونظموا محاصرة بوسطن من الناحية البرية ، وهى التى كان الإنجليز قد ركزوا قواتهم فيها ، كما كانوا قد أرسلوا حملة إلى كندا بأمل إعلانها الثورة كذلك ، وإن كانت قد فشلت أمام كويبيك . ولكن الأمريكيين كانوا لايزالون يحتجون بأنهم ليس لديهم النية فى الثورة ضد إنجلترا، ولا فى إقامة دولة مستقلة . والتجأوا إلى عدالة ملك انجلترا . ورد جورج الثالث على ذلك فى أن أثنى فى ألمانيا على جيش منتخب هس كاسل ، وأرسل قواته التى بلغت ١٥ ألف جندى إلى أمريكا .

وعندئذ أعلنت مستعمرة فرجينيا استقلالها فى شهر مايو سنة ١٧٧٦ ، وتبعتها المستعمرات الأخرى التى كانت قد ترددت منذ وقت طويل . وفى ٤ يوليو سنة ١٧٧٦ أعلن المؤتمر المنعقد فى فيلادلفيا الإستقلال .

وبدأ هذا الإعلان بتقديم كتبه توماس جيفرسون ، نائب فرجينيا الشاب ، وكان يمثل عرضا فلسفيا لحقوق الانسان ، وللمبادىء العالمية

التي يجب أن يستند إليها دستور الولايات . ونص بنوع خاص على أن كل الرجال قد نشأوا متساوين ، وأنهم قد أخذوا من الخالق بعض الحقوق التى لايمكن تغييرها، مثل الحياة والحرية وذكر الإعلان أن الحكومات قد نشأت من أجل المحافظة على هذه الحقوق ، وأنها لاتستمد سلطتها المشروعة إلا من موافقة المحكومين . ومن حق الشعب ، وكلما أصبحت حكومته تعمل ضد أهدافه ، أن يغيرها ، أو يقضى عليها، ويكون حكومة أخرى بدلا منها. وكانت بإختصار هى نظرية سيادة الشعب ، وإعلان مبادىء المساواة ، والحرية ، والتى ستظهر بعد خمسة عشر سنة أخرى على واجهة أول دستور فرنسى ، فى إعلان حقوق الإنسان والمواطن .

٤- الحـــرب :

رغم أن الحرب قد بدأت بنجاح ، يتمثل فى إستيلاء واشنطن على مدينة بوسطن ، فى شهر مارس سنة ١٧٧٦، فإن هذه الحرب كانت طويلة المدى ومليئة بالصعوبات ، وساد الإعتقاد أكثر من مرة خلالها بأن الأمريكيين سوف يسقطون . فمن الناحية الأولى لم يكن للأمريكيين حكومة مركزية ، ولم يكن الكونجرس ، أو المؤتمر ، يقوم بما هو أكثر من همزة صلة بين الولايات. ولم تكن له السلطة لإعطاء أوامر للحكومات المستقلة ذاتيا فى الولايات الثلاثة عشر. ومن ناحية أخرى ، لم يكن كل الأمريكيين قد وافقوا على إعلان الإستقلال. ففى ولايات الوسط وبخاصة فى نيويورك ، كان التجار، وكبار الملاك ، قد ظلوا مخلصين ، أى من أنصار الولاء لإنجلترا. ومن ناحية أخري ، لم يكن لدى الأمريكيين ذخائر ولا حتى أحذية وملابس، وكانوا يفتقرون إلى الأموال ، وأصدروا عملة ورقية ولكنها لم تكن صالحة إلا فى أمريكا نفسها . وأخيرا فكانوا قد واجهوا صعوبات كبيرة فى عملية

إنشاء الجيش . وكـان المتطوعون من رجال الحرس الذين شاركـوا فيه ، قد جاءوا على أساس التطوع ، ولم يتمكنوا من جمع ما يزيد على ١٦ ألف رجل .وكـان التطوع لفتـرات قـصيـرة ، تصل إلى ستـة أشهـر، وبشكـل جعـل المجنـدين يـتركون صفوفـهم فى الوقـت الـذى يكـونـوا قد أكـمـلوا فيه تـدريبـهم ويمكنهـم فيه أن يؤدوا عملهم . ومع ذلك فإن الأمـريكيين قد تمكنوا من الإنـتصـار، ورجع ذلك لقيـادة واشنطن لهم ، كـمـا رجع إلى البلاد نفـسهـا، ورجع أخيـرا إلى التحـالف مع فرنسا .

وكان جورج واشنطن مع كبار المزارعين فى فرجينيا ، وأحد نواب هذه الولاية فى الكـونجرس وكـان له مـن العـمر ثـلاثة وأربعين سنة ، وذهب بنفسـه فى أول الحـرب إلى كنـدا ، ثم شـارك فى العـمليـات المختلفة. ولم يـحصل فى أى معركة على تفـوق واضح ، ولذلك فإن الغيرة قد ثارت ضده حين عينه الكونجرس قائدا عاما الأمر الذى زاد من صعوبة مهمته . ولكنه كان نشطا ، حذرا ، ويعمل للصالح العام « كما كان عنيدا لايعترف باليأس . ولم يكن من رجال الإستراتيجية ، ولا من رجال التكتـيك المشهورين ، ولكنه كـان يتعلم الكثير من كل هزيمة ، ويعيد إنشاء جيشـه ، وإنتهى به الأمر إلى إنشاء جيش قوى » ولم يكن مـجـرد رجل حـرب بل كـانت لديه صـفـات رجـل الدولة ، وإضطر الكونجـرس فى حالات كـثيرة وفى أوقـات عصيـبـة إلى أن يستـمع لنصائحه .

وكـان للأمريكيين كـذلـك هذه البـلاد ، التى تمثل ذلك المسـرح الفسـيح للعمليات ، والتـى تمتـد إلى مـا يقرب من ٨٠٠ كيلو مـتر ، وكـانت طرقـهـا قليـلة ورديئـة ، ومليئـة بالأنهـار ، وبدون قناطر ، ومليئـة بالغابات ، التى كـان يصـعب عـلى العدو أن يسـير فيـها، أو

يتزود منها. وكانت هذه الصعوبات الطبيعية وهذا التنوع فى شكل الأرض هو الذى أعطى للأمريكيين فى سنة ١٧٧٧، وبعد عامين من الحرب التى كانت فى غالب الأحيان فى غير صالحهم ، أول إنتصار كبير .

وكانت حملة١٧٧٧ قد بدت على أنها ستكون أسوأ حملة للأمريكيين ، وكان للإنجليز جيشين : الأول فى نيويورك ، والثانى مركزا فى كندا ، وكانوا يستعدون لكى يقسموا الأقاليم الثائرة فى وسطها ، ويفصلوا مستعمرات الشمال عن مستعمرات الجنوب ، بإحتلالهم وادى نهر هدسون . وخرجت فرقة من نيويورك بقيادة الجنرال هاو ، وحملتها السفن وإستدارت واحتلت فيلادلفيا ، الذى اضطر الكونجرس إلى أن يتخلى عنها بسرعة ، وحاول واشنطن مرتين أن يستعيد المدينة ، ولكنه فشل فيهما .

وكان الزحف على فيلادلفيا يمثل عملية لجذب الأمريكيين صوب الجنوب ، ولتسهيل العملية الرئيسية والتى كانت تتمثل فى إحتلال الجيش الموجود فى كندا لمنطقة نهر هدسون ووصل هذا الجيش عن طريق إحدى البحيرات ، وبدأ فى الدخول فى أعالى هذا الوادى . وأرهق رجاله فى السير فى الغابات ، ثم سقطت عليه الأمطار الكثيفة ، حتى وصل إلى أقرب ساراتوجا ، قرب البانى ، حيث حاصرته القوات الأمريكية ، ولم يكن لديه من التموين إلا ما يكفيه لمدة ثلاثة أيام . واضطره الجوع إلى أن يسلم ، وبدون قتال يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٧٧٧ : وكان ذلك بعد خمسة عشر يوما من الهزيمة الثانية التى أنزلتها قوات الجنرال هاو بقوات واشنطن أمام فيلادلفيا .

وكـان الإسـتيـلاء على جيـش نظـامى بأكـمـله ، كـأسـرى ، وبرسجـال حرص مـتطوعين ، وفى أرض مـعـركة ، قـد أعطـى نتـائج واضحة ، وأكد إنتصـار الثـوار . كما أنه كان سببا مقررا دفع بالحكومة الفرنسيـة إلى أن تتحالف مع الثوار . فدخلـت الـثـورة الأمريكـية فى دور جديد من أدوارهـا ، وصـوب إسـتـقـلال الولايات المتـحـدة الأمريكية .

الفصل الخامس عشر

إنتصار الثورة وإستقلال الولايات المتحدة الأمريكية

(١٧٧٨ - ١٧٨٣)

كان الصدام بين إنجلترا ومستعمراتها قد لفت نظر فرنسا منذ أيامه الأولى . وكانت فرنسا ، بعد معاهدة باريس ، قد عملت بنشاط ، من أجل إعادة بناء الجيش والقوة البحرية بنوع خاص . وكانت قد قامت حتى بدراسةمشروعات مختلفة لعمليات أنزال فى إنجلترا، وكانت تعتقد أن الصدام الإنجلو أمريكى سيعطيها فرصة للإنتقام . ومع ذلك فإن لوى السادس عشر ظل لمدة ثلاث سنوات بعد إعلان الإستقلال الامريكى، يتردد فى أن يعلن صراحة أنه مع الثوار . وكان وزرائه مقسمين إلى قسمين : الأول من ترجو ، وكان ضد فكرة الحرب ، إستنادا إلى سوء الأحوال المالية ، والثانى مع فيرجين ، وزير الشئون الخارجية الذى كان يعتقد على العكس من ذلك فى ضرورة انتهاز كل فرصة لرفع فرنسا من الحالة المتردية التى أوصلتها إليها معاهدة باريس ، وانعدام حركتها وقت تقسيم بولندا. ولكن رغم ذلك فإن فرنسا سوف تتدخل فى الحرب الإنجليزية الأمريكية ، وسيكون لتدخلها تأثيرا على سيرها.

١- التدخل الفرنسى الاسبانى :

فى الوقت الذى ظل موقف فرنسا الرسمى بعيدا عن من معاونة الثوار الأمريكيين ، اكتفت فرنسا بتقديم المعونة سرا للامريكيين . وعن طريق أحد الشخصيات المشكوك فيها ، والذى عمل مؤلفا مسرحيا ورجل أعمال ، وهو بومارشيه ، وتحت غطاء شركة تجارية أنشأها فى هذه الظروف ، تم تمرير ٢ مليون جنيه ومائتى مدفع وأربعة آلاف خيمة وستة وثلاثين ألف سترة عسكرية ، وأخذت كلها من مخازن الدولة ،

فى سنة ١٧٧٦ ، ومرت إلي ثوار أمريكا. كما ذهب عدد من الضباط الشبان من النبلاء مثل ماكيزدى لافايت ودوق لوزون ودوق نواى ، كمتطوعين ، ووضعوا أنفسهم تحت أمرة الجنرال واشنطن ، فى شهر مارس سنة ١٧٧٧ .

ولقد إنتصر الإتجاه الموالى للدخول فى الحرب ، فى فرساى ، بعد إستسلام ساراتوجا . وكان الثوار قد أرسلوا بنيامين فرانكلين لكى يمثلهم لدى فرنسا. وكان قد ولد فى بوسطن سنة ١٧٠٦ ، أى أنه كان له من العمر فى ذلك الوقت إحدي وسبعين سنة . وكان قد ولد بصفته الأمين الخامس عشر لرجل يعمل فى صناعة الشمع والصابون. وكان قد نما مع العمل ، وعلم نفسه ، وتعلم بمفرده الفرنسية والإيطالية والاسبانية واللاتينية ، أى أنه كان رجلا عصاميا . وكان قد عمل فى الطباعة ، والصحافة ، ونآئبا فى مجلس بنسلفانيا، ومديرا عاما للبريد . وكانت دراساته فى الكهرباء ، التى خرج منها بمانعة الصواعق ، قد أوصلت شهرته حتى أوربا ، وفى أول الصدام بين الانجليز والأمريكيين ، ذهب مرتين إلى لندن ، محاولا العثور على وسيلة للتهدئة بين الوطن الأم والمستعمرات . وعمل فى فيلادلفيا مع جيفرسون فى الكونجرس ، على إعداد إعلان الاستقلال . وإحتفت به فرنسا حفاوة كبيرة حين وصل إليها . وسرعان ما انتهت المفاوضات بينه وبين فيرجين فى وقت قصير بتوقيع معاهدة تجارة ، ومعاهدة تحالف ، بين الثوار وفرنسا ، فى ستة فبراير سنة ١٧٧٨. وهكذا تحولت الحرب الانجلو أمريكية إلى حرب انجلو فرنسية ، تمكن فيرجين بحذقه من أن يحولها رسميا إلى حرب انجلو أوربية . ولقد تمكن فيرجين أولا من الحصول على تحالف مع إسبانيا، فى شهر يونيو سنة ١٧٧٩، ثم استغل عدم الرضاء الذى ساد كل الدول البحرية نتيجة لحق الزيارة والتفتيش ،

والذى كان الانجليز ، مدعين قيامهم بالبحث عن المهربات الحربية ، أى التمرين المرسل إلى المحاربين ، يمارسونه حتى على سفن المحايدين ، وتمكن فيرجين من أن يجمع عن طريق كاترين الثانية ، وتحت إدارة ، كل من الدانمرك ، وبروسيا ، والسويد ، وهولندا ، والبرتغال ، والنمسا ، فى حلف حياد مسلح . وكان تكوين حلف المحايدين فى شهر أغسطس سنة ١٧٨١ يضمن عزلة إنجلترا تمام.

وهكذا إستمرت الحرب خلال خمس سنوات ، ووقعت معاركها فى نفس الوقت فى الولايات المتحدة وفى الأنتيل ، وفى بحار أوربا ، وفى المحيط الهندى .

٢- إستمرار الحرب :

أما فى أمريكا فإن عقد التحالف مع فرنسا قد تسبب فى أول الأمر فى استرخاء العزائم. وبدا وكأنه قد أصبح على الفرنسيين أن يدافعوا بعد ذلك عن الثوار، ويضمنوا إنتصارهم .ولذلك فإن الأمريكيين قد تعرضوا لهزائم شديدة ، وبدأ الإنجليز فى عملية غزو ولايات الجنوب واستولوا لبعض الوقت على جورجيا ، وعلى كارولينا مع عاصمتها شارلستون .

ولكن فرنسا أرسلت ، فى سنة ١٧٨١ فرقة من سبعة آلاف رجل ، تحت قيادة روشامبو ، كما أرسلت أسطولا يضم ٣٨ سفينة تحت قيادة الاميرال دي جراس ، وانضمت هذه القوات إلى قوات جورج واشنطن ، ووضعت تحت قيادته ، وسمحت له بأن يحاصر فى يورك تاون ، فى فرجينيا ، الجيش الرئيسى : الذى يضم ثمانية آلاف رجل تحت قيادة كورنواليس فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٧٨١. وبعد ٢٠ يوما من الحصار وقبل الهجوم العام سلم كورنواليس يوم ١٩ أكتوبر سنة

١٧٨١ وقرر هذا الانتصار إستقلال الولايات المتحدة .

أما فى خارج أمريكا ، فإن الحرب كانت بحرية . واستعادت البحرية الفرنسية نشاطها. وكانت هذه البحرية قد بلغت مرحلة من القوة فى عهد كولبير ، ولكنها كانت قد أصابها الضعف أثناء القرن الثامن عشر ، وضحى بها من أجل التحالف الانجليزى ، ثم من أجل الحرب القارية . وفيما بين عامى ١٧٧٧ ، ١٧٨٣ تم إنشاء وحدات بحرية كثيرة وبسرعة ، وأحسنوا تسليحها، وسلحوا قيادتها لضباط متفوقين . وبلغت عدد قطع البحرية الفرنسية ٣٢٥ سفينة فى سنة ١٧٨٣ . واظهرت هذه البحرية خلال حرب أمريكا ، أنه يمكنها أن تقف موقف الند للند من الأسطول الانجليزى ، وهو أول أسطول فى العالم . ووقعت معركة أمام برست وانتصر فيها الفرنسيون . وأرتفع الحماس ، وساد الاعتقاد فإن فى وسع فرنسا أن تنتقم لهزائم حرب السنوات السبع . وبعد شهر من ذلك انتصر أسطول آخر لفرنسا. كما تمكن الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط من أن يستولى على مينورق وبورماهون . أما فى أمريكا الوسطى فقد تمكن أمراء البحر الفرنسيون من استعادة معظم جزر الأنتيل ، التى كانت قد فقدت سنة ١٧٦٣ . وكان أهم الانتصارات هو الذى وقع فى الهند ، وتمكن سوفرين فى حملة إستمرت لمدة سبعة أشهر ، من فبراير إلى سبتمبر سنة ١٧٨٢ ، من أن يهزم الأسطول البريطانى فى أربعة مواقع : كانت الأولى أمام مدراس ، وسمحت له بإعادة احتلال بوندشيرى التى كان الانجليز قد استولوا عليها فى أول الحرب، وتلى ذلك التوقيع على معاهدة تحالف مع حيدر على . وكان الانتصار الحاسم لسوفرين أمام جوندلور ، قبل عقد الصلح .

٣- انتصار الثورة وصلح فرساى :

وكان الخوف قد تزايد فى إنجلترا، رغم الانتصارات الجزئية لبعض قادتهم فى جزر الأنتيل ورغم تمكنهم من رفع الحصار الذى كان كل من الفرنسيين والاسبانيين قد فرضوه حول جبل طارق لمدة عامين وكان تزايد خوف الانجليز يتمشى فى واقع الامر مع تزايد الدين العام الذى بلغ خمسة آلاف مليون جنيه فى سبع سنوات ، حتى أنهم إضطروا ، عند نهاية سنة ١٧٨٢ إلى التقدم بمفاتحات لعقد الصلح . ورحبت فرنسا بذلك وأنها كانت فى حاجة إلى المال وكانت مشغولة بمشروعات كاترين الثانية، وجوزيف الثانى تجاه الدولة العثمانية. وتم عقد الإتفاقات الأولى للصلح بواسطة فرانكلين ، والمفوضين الأمريكيين فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٧٨٣، رغم أنهم قد تعهدوا بعدم عقد أى شيء بدون فرنسا. أما الصلح النهائى فقد تم التوقيع عليه بعد تسعة أشهر، فى ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٣ ، فى فرساى وأعترف الإنجليز باستقلال الولايات المتحدة، وتنازلوا لهم عن ظهير بلادهم حتى الميسيسبى . وأعادوا لفرنسا حقها فى تحصين دنكرك ، كما أعادوا إليها عدد من جزر الأنتيل والسنغال. وأعادوا إلى أسبانيا مينورقا وفلوريدا. ولم تكن الميزات التى حصلت فرنسا عليها كبيرة ولكنها سمحت لها بغسل العار الناتج عن معاهدة باريس .

٤- نتائج حرب أمريكا :

لم ينتج عن حرب أمريكا مجرد إنشاء دولة جديدة، هى الولايات المتحدة ،وإضعاف إنجلترا، وإعادة بعض المستعمرات لفرنسا. ذلك أنه قد نتج عنها، وفى فرنسا نفسها، نتائج سياسية فى منتهى الخطورة ، فكانت مثلا . وساعدت على الإسراع بالثورة . ذلك أن الفرنسيين

الذين شاركوا فى حرب الولايات المتحدة ، قد عادوا ممتلئين بأفكار الحرية والمساواة . كـما أن إعلان حقـوق الإنسان انتشر بين الأهالى ، خـاصة وأنه كان يركز بكل بساطة ، وفى جمل صـغيرة فكر الفرنسيون ، وفكر كبار كتاب القرن الثامن عشر ، مثل مونتسكيو وفولتير وروسـو. وبدأت نقاشات بين البورجوازيين عن حقوق المواطن وسيادة الشعب .

ومن ناحية أخرى تكلفت الحـرب مبالغ طائلة ، زادت على مليار ونصف مليار، فزاد ذلك من قيمة العجز المالى ، وأوجب عقد القروض وانتهى إلى إختلال المالية ، وحتم سرعة إلتجاء ملك فرنسا إلى الأمة ، وإستدعاء مجلس طبقات الشعب .

وبعد الإعتراف بإستقلال الولايات المتحدة ، كان على الأمريكيين أن يجتازوا أزمـة أستمرت طوال أربع سنوات ، ومـرت بمراحل خطيرة هددت وجود الدولة الجديدة نفسهـا. وكان سبب هذه الأزمة هى مسألة الدستور الذى سيوضع للولايات المتحدة .

وكان هناك إتجـاهين بين الأمريكيين : فكان البعض ، ويســمونهم الجمهوريون ، يرغـبون فى أن تظل كل ولاية تتمتع بسيـادتها، وتحتفظ حيال الآخرين بكامل إستقلالها، وبضرورة المحافظة على المساواة المطلقة بين كل الولايات ، رغم تميزها عن بعضـها فى الثروة وتعداد السكان . وكان الآخرون ، والذين ســموهم فيما بعد بالفـيدراليين أو الإتحاديين ، رغم رغبتـهم فى أن يتركوا لكل ولاية إستقـلال ذاتى واسع ، يشعرون بأنه لايمكن سوى الإتحـاد، الذى ينشأ عن طريق حكومة مركـزية ، لها سلطات قوية ، أن يسمح للمستعمـرات السابقة بأن تضمن لنفسها مكانا هاما فى العالم .

وفى أثناء الحرب ، كـان إتجاه الجمهوريين هو السـائد. وكا المؤتمر

الذى أعلن الإستقلال، قد عمل على إعداد دستور مشترك . وكان قد وضع فى سنة ١٧٧٨ ، بعض مواد للإتحاد، أو الإئتلاف ، عرضت على الولايات ، وتم الاتفاق نهائيا فى سنة ١٧٨١ . ونتيجة لهذه المواد تم إنشاء إتحاد دائم بين الدول الثلاثة عشر فى أمريكا الشمالية ، تحت إسم إتحاد الولايات المتحدة الأمريكية . وظلت كل ولاية نامة السيادة ، بإستثناء جزء من هذه السيادة التى تفوضها الكونجرس ، والذى يتكون من ممثلين من كل الولايات . أما سلطة هذا الكونجرس فكانت قاصرة على الشئون العسكرية والدبلوماسية . ولم يعطوها أي وسيلة لجعل الدول تحترم قراراتهم . ولم يضعوا حتى أى نظام لضرائب ومواد ، لمواجهة الإتفاقات ذات المصلحة المشتركة .

وكان من نتيجة ذلك أنهم وجدوا أنفسهم بعد التوقيع على الصلح بدون أموال لدفع الرواتب المتأخرة للجنود ، وبدون أموال لدفع أبارح دين بلغ ٤٨ مليون تعاقدوا عليه فى فرنسا وإسبانيا وهولندا. وفكر بعض أعضاء الكونجرس فى إعلان الافلاس، ولكن القوات كانت تهدد، فإضطروا إلى الاستماع إلى جورج واشنطن ، وإضطروا لدفع مخصصاتهم . ومن ناحية أخرى ، شعرت الأغلبية بأنه فى حالة عدم وفائهم بالالتزامات التى تعاقدوا عليها تجاه الدول ، فإن الثقة فى الولايات المتحدة سوف تفتقد ، وسيؤثر ذلك على تجارتهم لسنوات طويلة .

ولذلك فقد ظهر لهم أنه من الضرورى تعديل نصوص الاتحاد، وتنظيم حكومة حقيقة مركزية . ولكن الجمهوريين كانوا يسيطرون على الكونجرس ، حتى أن الاتجاه الأقليمى منع الوصول إلى أى قرار ، ولمدة ثلاث سنوات .

وكان مبدأ إستقلال الولايات قد إحترم ، حتى أن كل واحدة من الدول الثلاثة عشر قد احتفظت بخطوط جماركها فعمل ذلك على إعاقة التجارة وبدرجة أن تقدمت دولة ماريلاند فى سنة ١٧٨٦ بدعوة إلى الدول الأخرى لعقد مؤتمر يهدف وضع وفاق تجارى . وانعقد هذا المؤتمر فى سنة ١٧٨٧ . ومنذ أول المداولات اتفق المندوبون على أن الأساس كان يتمثل قبل كل شىء فى تعديل الدستور. ولذلك فإنهم توجهوا بنداء إلى كل الدول ، يدعونهم فيه إلى أن يرسلوا إلى فيلادلفيا ممثلين معينين بوجه خاص من أجل التشاور على الوسائل التى جعل دستور الحكومة الفيدرالية قادرا على إرضاء حاجات الاتحاد. وإجتمع هذا المؤتمر أو الوفاق فيلادلفيا، وضم خمسة وخمسين مندوبا . وانتخبوا جورج واشنطن رئيسا بالإجتماع ، وإستمر إنعقاد مؤتمرهم لفترة خمسة أشهر ، وقرروا أن تكون جلساتهم سرية ، حتى لايخضعوا لتأثير الرأى العام ، وبعد مناقشات طويلة وعنيفة من وضع مشروع الدستور . وأصبح هذا الدستور فى سنة ١٧٨٨، ونتيجة لتصديق كل من الولايات عليه هو الدستور النهائى ، والمعروف باسم دستور ١٧ سبتمبر ١٧٨٧، وهو المعمول به فى الولايات المتحدة حتى الآن .

.ولقد إحترم دستور ١٧٨٧ مبدأ السيادة والاستقلال الخاص لكل ولاية، ولكل منها، وفى كل مالم ينص عليه الدستور الفيدرالى على أنه ذو مصلحة مشتركة ، يمكن لكل ولاية أن تحكم نفسها طبقا لقوانينها الخاصة . فلكل منها حاكمها المنتخب الذى يسيطر على السلطة التنفيذية، ومشرعيها الذين يصوتون على القوانين ، ولكل منها قضاتها ومحاكمها وقوانينها .

والدستور الفيدرالى يميز ويفصل بين ثلاث سلطات : التنفيذية ،

والتشـريعية ، والقضـائية . أما السلطة التنفـيذية فتعـود للرئيس، وأما السلطة التشريعية للكونجرس ، وتحدد اختصـاصاتهما بالشئون الخارجية، والدبلومـاسيـة والجـيش ، والبحـرية ، والمسـائل التـجارية والرسـوم الجمركيـة . وينتخب الرئيس لفترة أربعة سنوات، ويمكن انتـخابه لفترة ثانية : وهو المسئول الوحيـد ، ويعاونه وزراء ، هم مجرد كـتاب له، ويختارهم أو يعزلهم كما يرغب وبدون تدخـل من جانب الكونجرس . وهو رئيس وقائد القوات البرية والبحرية يوقع المعاهدات ، وعلى أساس أن يتم مجلس الشيوخ التصديق عليها، ويعين السفراء وكبار الموظفين . وفى نفس الوقت الذى ينتـخب فيه الرئيس يختـار نائب له لكى يحل محله فى حالة وفاته ، وهو الذى يرأس مجلس الشيوخ .

أمـا الكونجـرس الذى يمارس السـلطة التـشـريعـية فـيـتكون من مـجلسين ، مجلس الشـيوخ ، ومـجلس النواب ، وينتـخب الشيـوخ بواسطة الولايات : شيخين عن كل ولاية ، منهما كان تعداد السكان . أما النواب ، فينـتخبون لمدة عامين ، وعـددهم يتناسب مع عدد السكان فى كل ولاية . ويجتمع الكونجرس فى ميعاد محدد ، ولايمكن للرئيس أن يستدعيه أو يحله .

وأما السلطة القضـائية فهى من إختصـاص المحكمة العليا ، التى تتكون من تسع قضـاه يعينهم الرئيس مدى الحياة . وهـى تمثل محكمة تحكيم فى حـالة وقـوع خـلاف سـواء بين الدول ، أو بين الكونجـرس والرئيس . وقراراتهـا قرارات سيادة ، ولها سلطة إلـغاء كل قرار، وكل قانون ترى أنه يتعارض مع الدسـتور، حتى وأن كان ذلك بناء عن طلب أى مواطن عادى .

ولم يقم دستور سنة ١٧٨٧ بإنشاء نـظام برلمانى كما هو الحال فى

إنجلترا ولـكنه أنشأ نظامـا تمثيليا . وأعـطى لرئيس جمهـورية الولايات المتحدة سلطات أكـثر إتساعا من تلك التى كـان ملوك أوربا الدستوريين يتمتعون بها.

وبدأ تنفيذ الدستور فى شهـر فبراير سنة ١٧٨٩، وانتخب جورج واشنطن ، الذى لم يكن له أي منافس ، رئيسا للجمهورية .

البـــاب الخامس
الثـــورة الفرنسـية

الفصل السادس عشر

أحوال فرنسا قبيل الثورة

تطورت أوضاع فرنسا فى أثناء القرن الثامن عشر عامة ، وبخاصة فى النصف الثانى منه ، وذلك فى المجالات الاقتصادية ، ونتيجة للحروب ، وركود الانتاج ، الأمر الذى أثر بدوره على الأوضاع الاجتماعية . وجاء استمرار السلطة المطلقة ، مع نشأة الفكر الفلسفى السياسى الحديث ، وتطور الأوضاع السياسية والدولية ، لكى يجبر فرنسا على الدخول فى تلك الحلقة ، التى تنقص فيها الموارد المالية ، وتظهر مساوىء الأوضاع الإجتماعية ،وتؤدى بالتالى إلى ضرورة التفكير فى التغيير . وإن دراسة أوضاع فرنسا وأحوالها، فى قطاعاتها المختلفة هى خير دليل للوصول بهذه الأسباب إلى النتيجة الحتمية والتى تتمثل فى نشوب الثورة الفرنسية :

١- الأحوال الاقتصادية :

رغم سرعة تطور الأوضاع فى انجلترا، واستغلالها لموارد العالم الجديد وتدعيم تفوقها، وبدئها عصر الآلة والبخار ، فإن هذا التطور لم يستتبع تأثير هذه الثورة الصناعية فى أوربا وفرنسا فى السنوات التالية لظهوره فى انجلترا مباشرة . وهكذا ستظل الأحوال الاقتصادية فى فرنسا، فى الفترة السابقة على نشوب الثورة ، على أنها قريبة من الماضى ، أكثر من قربها للحاضر . وظلت التقنية المستخدمة فى الانتاج فى فرنسا لاتضمن انتاجا سريعا أو كبيرا: وكانت تعتمد على الحظ فيما يتعلق بالزراعة ، التى تتعرض للتغيرات الجوية ، كما كانت تتعلق فيما يختص بالصناعة خاضعة لقصور نتج عن ندرة المواد الأولية ، وضعف القوى المحركة ، وكان الفلاح يعمل لكى يتمكن من الحصول على ما

يلزمه من الاستهلاك ، وليس من أجل البيع ، إلا اذا كان ذلك لمواجهة الأموال التى كان يطلبها منه الملك أو النبيل أو صاحب الأرض وكان الصانع يجيب مطالب سوق محلى . وكانت الصعوبات الكبيرة للمواصلات تجبر كل منطقة على أن تعتمد على نفسها، فكانت لذلك تحتفظ بغلالها، وتصدر القليل وتفتقر إلى الوسائل اللازمة للاستيراد ولقد أدى ذلك إلى أن تأخذ المبادلات الداخلية فى أوربا الطريق البحرى وسيلةلها، الأمر الذى كان يعود بالفائدة على تجار الموانى قبل غيرهم فى المناطق الداخلية . وكانت الدول بشكل عام ، ومنها فرنسا، تمارس سياسة تجارية ، وتمارس منع الاستيراد ، وتفرض الضرائب المرتفعة على الواردات وكانت هناك قوانين الملاحة ، واحتكار تجارة المستعمرات الأمر الذى ساعد على تكدس رؤوس الأموال والاحتفاظ بها داخل البلاد ، وبخاصة فيما يتعلق بمكاسب القل ، وإنشاء الورش الصناعية .

وساعد الأمراء وحاشيتهم صناعة الكماليات التى كانت لازمة للطبقات الحاكمة . ولكن المجهودات التى بذلت من أجل الإنشاءات البحرية والنسيج والصباغة، ونتيجة لطلبات القوات المسلحة ، وعمليات منح الضرائب المباشرة لبعض الأفراد عن طريق الإلتزام، وبمنح الموردين عمليات القيام ببعض الخدمات العامة ، وحتى تزويد الجنود بمرتباتهم، ساعدت كلها على ازدهار متزايد لرجال المال والمصارف ، الذين أصبحت عملياتهم تهم خزائن الأمراء .

ولكن الحكومة كانت تضطر ، أمام ازدياد ديونها، إلى إعادة صهر القطع الجديدة. وتزايد السكان بشكل واضح ابتداء من سنة ١٧٦٠ ، وساعد ذلك على زيادة الاستهلاك من ناحية وتوفر الأيدى العاملة من ناحية أخرى . وكان أربعين فى المائة من حجم التجارة الخارجية يتم مع مستعمراتها. ولكن الشكل العام للانتاج ظل زراعيا فى أساسه. ولذلك

فإن زيادة إنفـاق الدولة كان يتوقف قـبل كل شيء على زيادة السكان ، وبالتالى على عدد دافعى الضـرائب وعدد المجندين . وظل الفلاح ينوء تحت عبء الألتزامات المفروضة عليـه، وليس له من المدخرات ما يسمح له بتعـديل وسائله. وكان أميـا ، يحرص على التزام طريقـته ، وإذا ما حقق بعض المدخرات ، فـإنه كان يستخدمهـا فى شراء قطع جديدة من الأرض .

ومع ذلك فقد كانت فرنسا هى الدولة الأوربية الوحيدة التى بدت فى السنوات السـابقة لنشـوب الثـورة مبـاشرة ، على أنهـا هى الدولة الوحيدة التى تعتبر كـمنافس خطير لانجلترا . فكان فى وسع تجارتها أن تقف مـوقف الند للند من التجـارة الانجليزية، ولكـن الميزان التـجارى لفرنسا كان فى غير صالحهـا، إذا أن وارداتها كانت أكثر من صادراتها. ورغم نمو بحـريتهـا فإن وسـائل النقـل الداخلى فيـهـا كانت تتـميـز بالتخلف ، نظرا لقلة القنوات الصالحة للملاحة، وقلة طرق المواصلات، ورغم استـخدام السخـرة فى انشائها. وكـانت الجمـارك الداخلية ودفع الرسوم فـيها تزيد من الانفصـال بين المقاطعات ، ولم تصـرح الحكومة بنقل الحبوب بين مقـاطعة وأخرى ، وظل أغلب الفلاحين يزرع الكروم. وكانت عاصمة المملكة تعمل من أجل كـفاية نفسها، والمنطقة المحيطة بها، وكانت لاتتعامل مع جنوب فرنسا .

وظلت فرنسا أساسا دولة زراعية وحرفية ، وكان تقدم الرأسمالية والحرية التجارية يثير مقاومة شديدة. وأدى ذلك إلى نتائج خطيرة : فى داخل الطبـقة الثـالثة ظهـر عدم الاتـفاق بين البـورجوازية العليـا وبين الطبقات الشعبية .

ونتيجة لتفاعل فرنسا داخليا ، وحروبها الخارجية ، زاد دين فرنسا

الذى كـان قـد وصل إلى ١,٧٠٠ مليـون فـى سنة ١٧٢١ إلى أربعـة مليارات ونصف مليار فى سنة ١٨٧٩ . ومع ذلك زاد انتشـار نعيم الحياة المادية ، رغم أن الميزات كانت فى طبيعة الحال لصالح الطبقات الحاكمة. وتميز هذا العـصر بالرغبـة فى البحث عن الرفاهيـة واللذة ، فأصبـحوا يضيفون الأجنحـة المعدة للحياة اليومية المريـحة ، والتى كان من السهل تدفئتها إلى الصالات الواسعة ، وزادت إجتماعات الصالونات الحديثة ، وظهر معها زيادة الرقة فى التعبير والشعور . ونشأت مجتمعات متحركة فى مقاهى باريس ، أكثر إختلاطا وأكثر حرية .

وأفاد الحرفيون وأصحاب الحوانيت والفلاحون المتوسطون ،وكسبوا من إزدياد الثروة ، وثبت ذلك من زيادة إستهلاك بعض المواد الغذائية ، مثل القـهوة والكاكاو والطبـاق والبيرة والأنبـذة والكحول. ولكن زيادة عدد السكان كـانت ملفتة للنظر : فـزاد عدد سكان فرنسـا ثلاثة ملايين بعد حرب السنوات السـبع. وإذا كانت العادات قد أصبـحت فى فرنسا أكثر رقة ، فـإن الأرستقراطية لم تظهر ما يدل على أنهـا قد اقتربت من الأخلاق، وكان يعتبرون أنفسهم على أنهم أعلى من العامة ، وكانوا فى كثـير من الأحيان يظهـرون التحرر الزائد ، والاسراف بدرجـة مؤذية . وفى الطبقات الشعـبية ، كان البؤس والجهل يحافـظان دائما على الرغبة فى الشـراب ، والرغبـة فى إسـتخـدام العنف ، وكـانت البورجـوازية الصغيـرة، والحرفيين ، ومجموع الفـلاحين من صغار الملاك ، يكونون المجموع الأكثر إلتصاقـا بالسلوك المنتظم ، ولكن ذلك لايستبعد الصلابة والخشونة .

٢- الأوضـــاع الاجتمـاعية :

إحتفظ البنيان الاجتماعى فى فـرنسا بالطابع الأرستقراطى ، كأثر

من آثار تلك الفترة التى كانت الارض فيها هى الثروة الوحيدة تقريبا، والتى حصل فيها من يملكها على الحقوق تجاه الرجال الذين كانوا يزرعونها. وظل رجال الدين والنبلاء، بعد أن أصبحوا رعايا، من أصحاب الميزات ،وإذا كانت الدولة قد إستعات من السادة معظم سلطاتهم الحاكمة ، إلا أنها تركت لهم سلطات متفاوتة على من يعمل على أرضهم . وكان الأهالى يكونون جماعة ثالثة، كانت إمتيازات الأرستقراطية تؤيد مهانتها الأصلية . ومن أجل المصالح المالية والسياسية، لم ترفض الدولة منح مزايا أو حريات أو إمتيازات لبعض المجموعات التى كانت تنشأ داخل كل جماعة ، وفرقت لكى تحكم ، وإحتفظت بتنظيم يقوم على أساس المجموعات أو الهيئات ، وكان مبدئه ، من أعلى إلى أسفل ، يستند إلى عدم المساواة فى الحقوق . ولكن التطور الذى زاد من قوة الثروة المنقولة، ومن إمكانيات الطبقة البورجوازية ، أظهر الدور الأساسى للعمل المنتج، وللفكر الخلاق ، وعمل بذلك على نخر هذا البنيان من الداخل ، وفى فرنسا بنوع خاص .

ويمثل رجال الدين أولى الطبقات الإجتماعية الموجودة، الذين إحتفظوا بحق الشعائر ، وبالأحوال المدنية ، وأشرفوا على التعليم ، وراقبوا النشاط الفكرى . وكانوا يحصلون على إيرادات أراضيهم ، ويحصلون على ضريبة العشور . وكانوا يكونون « هيئة » تتميز بصلابتها، نتيجة لتسلسل قيادتها الخاصة بها، ونتيجة لنظامها، وكانت أكثر الهيئات تنظيما نتيجة لوجود مجالسها الخاصة بها، ومحاكمها، وإحتفظت للكنيسة فى فرنسا بثرواتها، وإمتيازاتها، وتنظيمها المستقل .

وكان رجال الدين يمثلون أقلية صغيرة ، وقدر عددهم فى فرنسا

بما يقرب من ١٣٠ ألف شخص ، موزعين مناصفة تقريبا بين إقامة الشعائر وبين الجماعات الدينية. ومن وجهة النظر الإجتماعية، كانت ثروات رجال الدين تؤذى نفوذهم وترابطهم . وأخذ النبلاء يعينون أبنائهم فى الأسقفيات والأبرشيات والكنائس ، وشكا صغار الدين وجمهور المسيحين من عدم صرف إيرادات الكنيسة فى أوجهها. وكان رجال الدين يكونون « جماعة » ، ولايكونون « طبقة » . أما الأرستقراطية الحقيقية فكانت هى طبقة النبلاء .

وكان النبلاء يكونون طبقة ، لها امتيازاتها، ولها أعضاؤها، الذين يدافعون عن مزاياهم . ولقد إحتفظوا بتسلسل القيادة عن طريق الولاء، وكذلك عن طريق دفع مبلغ من المال عند كل ترقية . وإحتفظ النبلاء بالتقاليد الخاصة بهم، وظل من بين سلطات السيد جزء من ممارسة القضاء والأشراف على الأمن فى القرى وبعض الاحتكارات مثل الصيد، وبعض الضرائب والسخرة الشخصية . وخدمة الارض . هذا علاوة على إحتفاظ النبلاء بمزارع خاصة بهم ، وكانوا يقومون بإستغلالها بطريق مباشر أو يؤجرونها.

وكان النبل وراثيا، يحصلون عليه بالمولد ، ولذلك فإنهم كانوا يحاولون الإبقاء على دمائهم نقية . وكان الارستقراطى يعتبر نفسه متميزا ، من حيث الجنس عن رجال المال، وكان يعمل على إظهار مكانته بطريقة الحياة التى يعيشها. فكان يحمل السيف ، ويعتبر منذ مولده على أنه من مستشارى الملك ، ويقبل خدمته كوزير أو دبلوماسى أو حاكم أو ياور . ولكنه كان يتفادى الوظائف الصغيرة والأعمال التجارية . ومع إستمرار تزايد الاسعار ، وتفتت الملكية بالوراثة ، نتج تميز واضح فى الثروات وفى ظروف المعيشة داخل الطبقة الارستقراطية. وكان البورجوازيون قد أخذوا منذ بعض الوقت فى ملىء هذا الفراغ

الذى يحدث بين صفوف النبلاء .

وفى فرنسا ، أخذ الملك فى بيع المناصب لنبلاء الرداء ، بطريقة وراثية أو شخصية . وكان الحاصلون على النبل بهذه الطريقة، والذين يوحد بينهم الزواج والتضامن المهنى يمثلون أقلية حاكمة خاصة . ودعموا قسوة النظام بثراواتهم ونفوذهم ، واستعاروا عاداته وتفرعه واتجهاته الاحتكارية ، ولكنهم غيروا من عقليته وجعلوها تميل إلى العقلية البورجوازية .

وكانت الارستقراطية فى فرنسا تتنافس مع السلطة الملكية ، ومع الطبقة البورجوازية فى نفس الوقت ، وكانت تشعر بضغائن عميقة تجاه السلطة الأولى التى كانت قد أخضعتها، وبشعور بالانفصال والترفع عن الثانية التى كان نموها يهددها. وكانت تمثل أقلية صغيرة للغاية ، وقدر عددها فى فرنسا بـ١١٠ ألف نبيل .

أما البورجوازية فإنها كانت تمثل ذلك القطاع الأكثر ثروة والأكثر قدرة، مما كان الفرنسيون يسمونه بالطبقة الثالثة . وقويت بشكل واضح مع الإزدهار الإقتصادى فى فرنسا. وكانت تجمع أفرادها من القاعدة ومن بين الفلاحين والحرفيين الذين أرتفع بعضهم نتيجة للعمل وللآدخار وللمضاربة .

وكان أولئك الذين يعتبرون أنفسهم بورجوازيين بمعنى الكلمة عددا بسيطا من رجال المال، وكانوا على درجة من الثراء تسمح لهم بألا يعملوا ، ويعيشوا على أملاكهم التى كانت تتكون أساسا من الأراضى ومن إيرادات عقاراتهم، وكانوا يسايرون أعضاء المجموعتين الآخرتين، وعلى أساس كونهم من الاغنياء ، وأنهم لايقومون بعمل يدوى، ويقومون فقط بشغل وظائف السلطة والإدارة . وكان الموظفون يمثلون

نسبة كبيرة فى هذه الطبقة ، وكانوا قد حصلوا علي عقود شراء أو التزام وظائفهم، ويجتمعون فى هيئات تحرص على إمتيازاتها، وبخاصة فى المحاكم والإدارات المالية. وكان بعض هؤلاء الموظفين قد حصل على ألقاب النبل، وبذلك أصبحت البورجوازية تحتك بنبلاء الرداء وكانت هذه المجموعة تضم كذلك رجال القانون والموثقين ، ورجال المهن الحرة مثل الاطباء والعلماء والكتاب والفنانين ، الذين كانت سمعتهم تدل ، ودائما على أساس أن تكون إيراداتهم تظهر، على أنها جديرة بالإعتبار .وكانت الصالونات تفتح أبوابها لهم،وكانت هناك مجموعة ثانية للبورجوازيةكانت سلطتها أقل ، رغم أن ثروتها كانت أكبر ، وكانت تضم رجال المال المشرفين على الشئون الإقتصادية والموردين ، ومر الكثير من بينهم إلى صفوف النبلاء. وهذه البورجوازية العليا كانت تضم بعض رجال الصناعة وأعضاء الغرف التجارية . وعلى العموم فإن البورجوازية هى التى كانت قد أدارت ثرواتها بحكمة ، ووجهت إدخاراتها إلى الإستثمارات العقارية . وإذا كانت الضائقة المالية ستمس أفرادها، إلا أنهم سفيدون منها كذلك .

أما مانسميه بالطبقة الوسطى ، أو صغار البورجوازية فكان الاعيان يسمونه بالشعب ، وبكل إحتقار ، وكانوا يعتبرون هذه المجموعة على أنها أقل منهم ، إذ أنها كانت تعمل بأيديها، أو بدأت حياتها كذلك من وكيل البريد والمقاول وبائع الكتب وصاحب بنك الرهونات ، وبعض الجراحين ، إذ أن غالبيتهم كانت من الفقراء الذين كانوا يصعب فصلهم عن الحلاقين . ومن درجة إلى درجة تنزل إلى المستوى الشعبى الحقيقى لصاحب الحانوت فى الحي الصغير ، وصانع الاحذية ، والبائع المتجول . وكانت هذه المجموعة تثور دائما حينما يعاملها البورجوازى الحقيقى بترفع، ولكن أعضاءها كانوا غالبا ما يسلكون نفس سلوكه فى معاملتهم مع البروليتاريا .

وبالنسبة للنبلاء وللبورجوازيين وسكان المدن ، ظل الفلاح فى كل مكان هو الكائن الجاهل الخشن ، الذى كان مصيره الطبيعى طبقا للتقاليد هو خدمة الطبقات الحاكمة، وتمويل الخزانات الملكية أكثر من غيره، وإطعام سكان المدن وكان الفلاحون يدفعون الضرائب الخاصة بالملكية والاعباء أو نسبة من المحصول . وكان رجال الدين يجمعون منهم ضريبة العشور، التى كانت أكثر ثقلا من حقوق السادة . وكانت هناك ضرائب الملك والدولة ، وكانت ثقيلة على كاهل الفلاح وغير متساوية. وكان الريف يدفع تقريبا كل شىء، ولم يطلبوا من النبلاء إلا نسبة بسيطة من ضريبة الرؤوس ، وضريبة الواحد من العشرين ، وكانوا [illegible]ن البورجوازيين ، واقتصر رجال الدين على تقديم الهبات بدون إلزام. وكانت ضريبة الملح تثير الفلاح، كما كان يثيره إجباره على تموين المدن والأسواق ، فشعر أنهم يعاملونه معاملة الدواب ، وبنفس الطريقة التى كانوا ينظرون بها إليه دائما. وفى نفس الوقت ظهر بعض الرجال المميزين فى القرى من بين المستأجرين ، أو من الفلاحين الملاك، الذين كانوا يعهدون بالعمل إلى غيرهم ، وهذه المجموعة أصبحت نواة لبرجوازية زراعية .

وأخيرا وفى أول السلم اتفق كل من النبلاء والبورجوازيين على وضع البروليتاريا ، وهى التى تعمل بأيديها ، وبالتالى فعليها أن تعيش فى أقل مستويات الحضارة ، وكانت البروليتاريا منتشرة بين الريف والمدن. وكانت أعمال الحقل، والغابات ، والنقل ، والمحاجر تحتفظ بأعداد كبيرة منهم . وكانوا يعتمدون اليهم فى المدن معلمى الحرف الذين يعملون بمفردهم، ولايستخدمون إلا عاملا أو عاملين ، وكانت هذه المجموعة تفتقر إلى التنظيم النقابى، وحتى إلى النظرة الطبقية. وجاءت زيادة السكان لكى تجعل البطالة أكثر شمولا، ومنعت الأجور

من أن تساير إرتفاع المواد الغذائية . وفى فرنسا إرتفعت الأجور فيما بين عـامى ١٧٣٠ و١٧٨٩ بنسبـة ٢٢٪ فى الوقت الذى زادت فيـه أسعـار الحبوب بنسبة ٦٠٪ . وشرح رجال الاقتصاد أنه لايمكن لأجر العامل أن يزيد عن قيمة إحـتياجاته، أو بمعنى أدق عن إحتفاظه بإنتـاجيته . وكان خمس السكان فى فرنـسا يتكون من الفقراء، وزادت كل أزمة إقـتصادية من أعـدادها. وكانت قلة المسـاعـدات الاجتـماعـية من ناحـية أخـرى خطيرة، فإنتشـر التسول بطريقة وبائية . وحاولوا منعـه بطريقة السجن، ولكن بـلا جدوى . وأدى ذلك إلى انتشار العصـابات ، ومجموعات الرجال الذين كانوا يبـحثون عن عمل، والمهربين الذين كانوا يـتحاشون الجمـارك الداخلية . وكـانت المشغوليـات الرئيسـية للطبـقات الحاكـمة والسلطة الاحـتراس من الإضطرابات وعـمليـات النهب التي تقوم بهـا الجماهير الجـائعة . وهذه الخشية التى كانت تتحـول بسهولة إلى الخوف ثم إلى شعـور بذعر ، وبإمكانية المعـيشة فى ظل إرهاب ، شـعـرت به البورجوازية الصغـرى ، كما شعرت به البورجوازية العليا، وكـان عقبة فى سبيل نشر المد الثورى خارج حدود فرنسا .

٣- الفكـــر :

كان تغير عقلية الرجال يتم ببطء أكثر من تغير الإقتصاد والمجتمع، وبالنسبة لغالبيتهم العظمى لم تتغـير أحوال المعيشة بسرعة تسمح بتطوير أفكارهم كثـيرا. ومع ذلك فقـد ظهرت عقـلية حديثـة، وظهر المذهب العقلى التـجريبى ، وبخاصـة فى ميدان الـعلوم، وظهر تفكير سـياسى حول الحق الإلهى الذى نادى به الملوك ، ووجـدوا أن هناك حق طبيعى للانسان منذ أن يولد .

وتعرض أنصار المذهب العقلى لكثير من المخاطر . ومع ذلك فقد

شهدت فرنسا مجموعة من الفلاسفة هاجموا عدم التسامح بكل جرأة، وهاجموا رقابة رجال الدين الكاثوليك ، وحتى إمتيازات الطبقات الحاكمة التى كانت تساندهم. وهكذا تمكن الفلاسفة من السخرية من إمتيازات الطبقات الحاكمة، وحتى من معقداتها: فزاد عدد أتباع فولتير ، وقضى على احترام الكنيسة .

وحين جمعت دائرة المعارف عدد من الفلاسفة، بدا ذلك على أن يشبه تكوين حزب ، وكانت الخطبة الإفتتاحية تشبه بيانا لهذا الحزب . ونجحت هذه المجموعة فى تغير العقلية إلى حد أنه فى عهد لوى السادس عشر تمكن البروتستانتى نيكر من أن يصل إلى الحكم، وإذا كان جهاز رقابة الكتب لايزال باقيا، إلا أنه أصبح بلا فاعلية .

ووضع معظم الفلاسفة الإنسان فى نطاق الطبيعة ، وكان اهتمامهم بالأخلاق يجعلهم يزدادون تشبها بالديانة الطبيعية .

وهاجم الفلاسفة فى فرنسا إمتيازات الاقطاع، وما تبقى من نظمه ، وعدم التسامح وفساد الادارة الملكية، أشد مهاجمة ، واتفق الفلاسفة فيها على الرجوع إلى الحق الطبيعى ، ويبدأ « العقد الاجتماعى » : « يولد الأنسان حرا ، ولكنه مكبل بالاغلال فى كل مكان » . ولكن مونتسيكيو لم يكتب أقل من ذلك فى بداية « روح القوانين » : « هناك عقل بدائى . . . ويمكن للأذكياء أن تكون لهم قوانين يضعونها. . . أما القول بأنه ليس هناك عدل أو ظلم إلا فيما تأمر به أو تنهى عنه القوانين الوضعية ، فإنه يعنى أن أنصاف أقطار الدائرة لم تكن متساوية ، قبل رسم الدائرة » . وفى بعض النقط الخاصة ، مثل عدم المساواة فى دفع الضرائب مثلا، أو حقوق السادة ، كان الفلاسفة يدافعون عن وجه نظر الطبقة الثالثة، ولكنهم خدموا البورجوازية بنوع

خاص . ومع ذلك ، فإن الهجوم لم يبدأ من جانب البورجوازية ولكن من جانب الأرستقراطية ، التى كانت قد تأثرت بمن تحدثوا باسم البورجوازية . وكانت الحرية المدنية ستحميها من الحكم المطلق الذى كانت تقاسى منه فى بعض الحالات . وكانت الحرية الاقتصادية ستزيد من الايرادات التى كانت تأخذها من ممتلكاتها العقارية الكبيرة. وكانت الحرية السياسية تسحرها بنوع خاص، وكان لها محاميها الخاصين بها، والذين كان أشهرهم مونتسيكيو نفسه الذى ربط الحرية المدنية بمبدأ فصل السلطات فى صالح هيئة الوسطاء وأصحاب الامتيازات : النبلاء والبرلمانات ، والموظفين ، والذين تحميهم المناصب التى اشتروها، وحتى رجال الدين ، وظهرت البرلمانات على أنها الحارسة على الحقوق الأساسية ، قبل أن تنتزع الملكية منها هذه السلطة. واعتقد النبلاء أن الحرية السياسية ستعطيهم دورا متفوقا فى الحكومة ، وستسلم لهم البلاد . وحينما اتحدت الارستقراطية والبورجوازية لكى تطالبا بالحرية ، إصطدمتا ببعضهما فيما يتعلق بالمساواة فى الحقوق .

٤- الأوضاع السياسية :

وكان الحكم المطلق قد استمر على القسم الأكبر من القارة الأوربية، امتدح الفلاسفة الإستبداد المستنير للملوك والأمراء، الذين اعتقدوا أنهم قد تأثروا بدعايتهم . ففى المجموع، أخذت الأرستقراطية على الملكية أنها قد أخضعتها، وغضبت البورجوازية من إبعادها عن الحكم، فى نفس الوقت الذى زادت فيه حدة المنافسة بين هاتين الطبقتين. وستتطلب تسوية هذا الخلاف الثلاثى نشوب ثورة .

وكانت فرنسا قد أعطت لنفسها، فى صفات ، النكبة ، مكانا وسطا بين انجلترا الدستورية ، وبقية نظم القارة المستبدة : فكانت

لا تشارك السلطة مع الأرستقراطية ، كما كان عليه الحال فى بريطانيا العظمى ، ولم تكن قد تخلت لها عن الفلاحين ، كما كان عليه الحال فى بروسيا وفى روسيا ، ومع إحتفاظها للارستقراطية بإمتيازاتها ، فإنها قد تركت فى نفس الوقت من يحصلون على ألقاب النبل يزيدون فى عددها ، وتركت البورجوازية تنمو . وكانت الملكية ، منذ عهد لوى الرابع عشر قد أصبحت مطلقة ، ومركزية ، وبيروقراطية . وبدى أنه لم يعد فى وسع أى شىء أن يزعزع تفوقها ، كما بدى خضوع طبقة النبلاء على أنه نهائى . والحقيقة أن رد الفعل الأرستقراطى كان يميز القرن الثامن عشر ، مثله فى ذلك مثل نمو البورجوازية ، ولم تفكر فى [illegible] الإصلاح ، ولكنها إستخدمت وسائل بورجوازية - مثل منافسة البلاط الملكى والاتجاه إلى الرأى العام - لعرقلة سلطة الملك ، والحد منها . وكان نبلاء السيف ، الذين كانوا غالبا من أصل عادى رغم إدعاءاتهم ، لم يبقوا فى الصفوف الخلفية ، والتف حولهم الموظفون ، إذ أن المندوبين الملكيين كانوا يتنزعون منهم الادارة المحلية شيئا فشيئا . أما السادة المتحالفين مع الأساقفة ، فإنهم سيطروا على المجالس الاقليمية ، وتدريجيا تخلى خلفاء لوى الرابع عشر لهم عن الوظائف العليا فى السلطة . ومع مرور الوقت كان المندوبون الملكيون الذين يعيشون لفترة طويلة من الوقت فى مناطق حكوماتهم العامة ، يتزوجون فيها ويشترون منها الأراضى ، ويعيشون فى تآخى مع سادة البلاد .

وأصبحت السلطة الملكية مهددة ، بعد أن أصبحت ضعيفة ، بأن ترى رد فعل النبلاء يزداد جرأة ضدها ، وكان من الممكن أن تؤيد البورجوازية طبقة النبلاء . وانتهى الأمر بنبلاء السيف ونبلاء الرداء ، والموظفين الذين كانوا يحافظون على تقاليدهم المهنية ، ورجال القانون

والفلاسفة الذين كانوا يستشهدون بالحق الطبيعي ، ويصممون على التفكير العقلي ، انتهى الأمر بهم جميعا إلى أن يحاولوا أن يحدوا بالقانون من سلطات الأمير ، وأن يضمنوا حرية الفرد ضد التحكم . وكان كبار الملاك العقاريين والبوجوازيون الرأسماليون ينظرون بعطف إلى الحرية الاقتصادية .

ولم تظهر أى صعوبة على المبدأ ، فيما يتعلق بكثير من الاصلاحات الادارية، ونشأت فى فرنسا مجموعة من الأعيان تسعى إلى أن تفرض على الملكية النظام الدستورى وإحترام الحريات، كما كان عليه الحال فى انجلترا، ولكن الحل البرلمانى لم يكن يشتمل مجرد حل وسط بين الملك والنبلاء، بل كان يفترض وجود حل وسط آخر بين النبلاء والبورجوازيين . ولكن الأرستقراطية الفرنسية فى غالبيتها، لم تكن ترضى بمثل هذا الوفاق، فيما عدا أقلية صغيرة فهمت أنها لن تخسر شيئا من السير فى نفس الطريق الذى كانت كل من انجلترا والولايات المتحدة قد سارت فيه من قبل . وكان الأعيان لايجهلون قوة المال ويشعرون بأنه أساس لشق مستقبل الأفراد. وكانوا يلتمسون المنح الملكية فى البلاط، وكان بعضهم يهتم بالمشروعات الكبيرة ، ويعمل فى المضاربة ، ويحاول أن يحصل من الفلاحين على إيرادات متزايدة . واقترب البعض منهم بهذه الطريقة من البورجوازية العليا، وصعب على غيرهم الاحتفاظ بمركزهم ، وإنتظر الآخرون ، وقوع أحداث مرعدة لتفتح لهم الطريق . أما معظم النبلاء فإنهم إحتفظوا بعقليتهم العسكرية والاقطاعية ، وفشلوا فى ملائمة أنفسهم مع النظام البورجوازى ، وكانوا لايرغبون فى ذلك ، ويفضلون أن يفتقروا وحتى أن يعيشوا على الكفاف ، على أن يتخلوا عن تقاليدهم. ورأوا العلاج فى التطرف : أن تتحول طبقتهم إلى طائفة مغلقة، وأن عملية بيع المناصب والألقاب

التى كانت تسمح للآخرين إلى طبقتهم ، وأن يحتفظوا لها بكل الوظائف التى تتمشى مع كرامتها. وأن يزيدوا عدد المدارس الخاصة لأبنائهم ، وأروقة للنبلاء بالكنائس والأديرة لبناتهم. وأخذت برلمانات كثيرة ترفض دخول غير النبلاء ، وكان الملك ، وبصفته السيد الأول فى البلاد ، يحترم وجهات النظر هذه . وكان كل الاساقفة فى فرنسا من النبلاء. وهكذا أصبح نبلاء فرنسا يشبهون زملائهم فى القارة الأوربية، دون أن يدروا أن قوة الطبقة المنافسة لهم والتى كانوا يتحدونها، كانت تشبه تلك التى كانت موجودة فى البلاد الانجلوسكسونية. وشعرت البورجوازية الفرنسية أن الطرق قد أصبحت مقفلة من كل جانب ، ومادامت الابواب مغلقة ، فلم يبق إلا اقتحامها، كما ذكر سييس ، رجل الدين الذى رأى أنه لن يصل إلى منصب الاسقف . ولكى تدافع البورجوازية الفرنسية عن نفسها إضطرت ، وعلى عكس البورجوازية فى انجلترا وفى الولايات المتحدة ، إلى أن تصر على المساواة فى الحقوق : الأمر الذى أعطى لثورة سنة ١٧٨٩ معناها الأصلى فى تاريخ العالم .

الفصل السابع عشر

وصول البورجوازية للحكم فى فرنسا

كانت الارستقراطية الفرنسية هى الى بدأت الثورة وقادتها بنجاح خلال مرحلتها الأولى، وإن كان كل من الأرستقراطية نفسها، والطبقة الثالثة قد حرصت لأسباب مختلفة على عدم تسليط الضوء عليها. وكان السبب المباشر لذلك هو الأزمة المالية التى عادت أصولها إلى الثورة الأمريكية. وخطوة بخطوة ستنتقل الثورة من الارستقراطية إلى البورجوازية، وذلك كتمهيد لتصليح الأحوال. ولكن الإلتجاء إلى القوة المسلحة غير الصدام بين الطبقات، وحوله إلى حرب أهلية ، أعطت للثورة أبعادا زادت في أهميتها عن النيات الأولى للبورجوازية . وتسبب التدخل الشعبى الذى أدى إلى الإنهيار المفاجيء للنظام الإجتماعى القديم، إلى التعبئة التدريجية للجماهير، تحت تأثير الأزمة الإقتصادية ، والدعوة لعقد مجلس طبقات الأمة .

١- الثورة الارستقراطية :

كان السبب المباشر للثورة هو الأزمة المالية . وحاول نيكسر الذى أيد الحرب الأمريكية أن يستعين بالقروض لمواجهة أعبائها. وجاء بعده كالون ودعم الفترة التالية بنفس الوسائل. ووصل عجز الميزانية إلى حد أنه قدم مذكرة إلى لوي السادس عشر فى ٢٠ أغسطس سنة ١٧٨٦ تصر على ضرورة إصلاح الدولة .

وكانت الإدارة المالية قد الغت حدا من الفوضى مع وصول المصروفات إلى ٦٢٩ مليون ، ووصول الإيرادات إلى ٥٠٣ مليون ، أى مع عجز يصل إلى ١٢٦ مليون، أو عشرين فى المائة من الميزانية، وأرجع المعاصرون مسئولية ذلك إلى إسراف البلاط، ومكاسب رجال

المال، وكان من الممكن الإقتصاد ، ولكن إدارة الدين طالبت بمبلغ ٣١٨ مليـون ، أى ما يزيد عـلى نصف المصروفـات : ولم يكن من السـهل ضغط المصـروفات إلى هذا الحد بإعلان الإفـلاس. ولم يكن من السهل زيادة الضرائب من جديد، بعد أن أصبحت ثقيلة. ولكن كان من السهل المساواة فى جمع الضرائب ، من وجهـة النظر الفنية ، حتى يتمكنوا من حل الأزمة بسهولة ، خاصة وأن النبلاء ورجال الدين كانوا يدفعون أقل من البورجوازيين ، وكان البورجوازيون يدفعون أقل من الفلاحين.

ودون أن يظهر كـالون مثـل هذه الجرأة ، اقـترح تعميم ضـريبة الملح ، وكـذلك احتكار الطبـاق، وأن يبدلوا ضـريبة الرؤوس وضـريبة الواحد من عشرين بإعانة إقليمية يدفعها كل الملاك العقاريين بلا إستثناء. ومع أن التضحية المقترحة على أصحاب الإمتيازات كانت متواضعة ، إلا أن كالون لم يعـقد أى أمل على الطريقـة التى ستـقابل بهـا البرلمانات مشروعة . وكان الملك قد فقد كل هيـبة : فكان يقضى وقته فى الصيد وفى الأشغـال اليدوية ، وكان مـعروفا بالشـراهة فى الأكل والشرب ، عزوفـا عن الناس وعن التسلية، وكـانت الإشاعات قد انتـشرت عن أن مارى أنطوانـيت ، قد تسبـبت بمسألة العـقد سنة ١٧٨٥، في [illegible] سمـعتـه . وتفادى كـالون الملك وفكر فى جمـع مجلس من الأعـيان والنبلاء يكونون مرنين معه ، ويفرضون موافقتهم على البرلمانات. ولكن الملك رغب فى أن يستشيـر الأرستـقراطية بدلا من أن يفـرض رغبـته عليـهم. وفى إجتـماعـهم فى ٢٢ فبـراير سنة ١٧٨٧. هاجم الأعـيان مشـروع كالون بكل شـدة . وكانوا مصـممين على امـلاء شروطهم . وعرف لوى السـادس عشر أن كـالون لن يتمكن من الحـصول على أى شيء فأقاله يوم ٨ أبريل .

وحاول بريين ألا يمس بحقـوق رجـال الدين، ولكن الأعيـان لم

يوافقوا على مشروعه، الخاص بالدمغة ، والإعانة الإقليمية ، وقرروا ضرورة الرجوع إلى مجلس طبقات الأمة . وهكذا فشلت تماما وسيلة كالون ، وأصبح على بريين أن يتعامل مع البرلمانات .

ورفض برلمان باريس الإعانة الإقليمية ، كما اعترض على ضريبة الدمغة، ورفع الأمر لمجلس طبقات الأمة ، واكتفى بريين بعد ذلك بمسألة عقد قرض بمفردها، ولكن الصعوبات كانت متشابهة، وكان عليه أن يحصل على موافقة البرلمانات، وحتى تلك البرلمانات التى وافقت على مناقشة المشروع، فرضت شرط دعوة الحكومة لمجلس طبقات الأمة للإنعقاد. وحاول بريين أن يحصل على قرض يبلغ ١٢٠ مليون على خمس سنوات ، وعلى أساس جمع مجلس طبقات الأمة فى سنة ١٧٩٢ ، ويكون ذلك فى جلسة من البرلمان ، يصدر فيها الملك المرسوم، ويمنع أعضاء البرلمان من النقاش . ولكن دوق أورليان إحتج على ذلك ، وأعلن الاعضاء بطلان قيد المشروع . ولقد رد لوى السادس عشر على ذلك بنفى دوق أورليان واثنين من المستشارين فدافع البرلمان عنهم، وهاجم الخطابات المختومة، وطالب بالحرية الفردية، ونشر اعلانا فى ٣ مايو سنة ١٧٨٨ عن القوانين الأساسية للمملكة : فالمملكة وراثية ، ويرجع أمر تقرير الإعانات الإقليمية لمجلس طبقات الأمة ، ولايجوز القبض على الفرنسيين واحتجازهم بطريقة تعسفية، ولايمكن رد قضاتهم ولا التعدى على عادات الأقاليم وأمتيازاتها .

وتتالت الإحتجاجات من برلمانا الأقاليم والمحاكم الصغيرة، وبخاصة أمام استخدام الحكومة للقوة ، ومحاصرة قصر العدالة ، وإلقاء القبض على بعض المستشارين . وظهرت حالات تمرّد فى باريس ومدن كثيرة ، وأخذ الرأى العام يطالب بدعوة مجلس طبقات الأمة القديم ، الذى كان له حق الموافقة على الضرائب . وفى بعض الأقاليم اتحد

النبلاء مع البورجوازية ، وطالبوا بإستخدام القوة لجمع مجلس طبقات الأمة ، فاضطر بريين إلى التراجع .

وكانت الخزانة خاوية فاضطر بريين إلى القيام بآخر عملية تسليم ، فاستقال يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٧٨٨ ، وكان مجلس طبقات الأمة سيجتمع فى أول مايو سنة ١٧٨٩ . واستدعى الملك نيكر من جديد ، وكان أول ما قام به إعادة البرلمان وقرر البرلمان أن مجلس طبقات الأمة سيتكون ، كما كان عليه الحال فى سنة ١٦١٤ ، من جماعات ثلاث ، لكل منهما نفس عدد الممثلين ، وستأخذ كل منها قراراتها بمفردها ، ويكون لها حق الإعتراض Veto على قرارات الآخرين : فسيسيطر عليه إذن النبلاء ورجال الدين . وكان هذا هو انتصار الأرستقراطية .

ورسم أصحاب الإمتيازات لدعاية يقومون بها ضد السلطة الملكية ، ورسموا لمقاومة هذه السلطة ، وتخريبها ، وعملوا على إثارة مستأجرى الأرض والعاملين فى الزراعة . وكانت البرلمانات مدارس أخذوا يتعلمون فيها الثورية ، ولكن تكتيكهم قابله تكتيك موازى من جانب الطبقة الثالثة فى مجلس طبقات الأمة .

٢- الثورة البورجوازية :

وكان بعض رجال الطبقة الوسطى قد وافقوا على ثورة النبلاء ، ولكن تدخل البورجوازية لم يظهر إلا فى صيف ١٧٨٨ مع انتشار خبر قرب دعوى مجلس طبقات الأمة . وكانت هناك إمكانية للاتفاق على الأرستقراطية ، خاصة إذا ما تم الإتفاق على المساواة فى التصويت والمساواة فى دفع الضرائب .

وكان عدد من رجال البورجوازية قد اجتمعوا وقرروا فى إنشاء الحزب الوطنى الذى ضم الكثير من الرجال الذين سيشتهرون فى الثورة

فيما بعد ، وكانوا من رجال الأكاديميات والجمعيات الزراعية ، والغرف التجارية ، والألواح الماسونية. وكان الملك قد دعا رعاياه إلى شرح وجهات نظرهم فيما يتعلق بمجلس طبقات الأمة، فأخذوا فى كتابة العرائض والمنشورات التى أوضعوا فيها، وبحرية كل ما يرغبون فى قوله ، وإن كانوا قد اكتفوا بأن يطالبوا للطبقة الثالثة ، بنفس عدد نواب رجال الدين والنبلاء سويا .

وحاول نيكر ، وهو المسئول عن المالية الإلتجاء إلى عقد قرض، وإعطاء رجال المال بعض حقوق الإمتياز على حقوق الضرائب المقبلة ، وكان ذلك إجراء لكسب الأمة الوقت ، وحتى يتم انعقاد مجلس طبقات الذى كانوا ينتظرون منه إلغاء التمييز الضرائبى . وكان نيكر يميل إلى تأييد الطبقة الثالثة، ويوافق على الحق فى مضاعفة عددها. وكان هذا يؤدى بالتالى إلى المساواة فى جمع الضرائب ، ويسهل عملية الإصلاح الدستورى . ولكن الأرستقراطية كانت لاتوافق على هذا الإتجاه فقدمت ملتمسا إلى الملك شرحت فيه أن الدولة فى خطر . وأن هناك ثورة مقبلة، ستعمل على مهاجمة مبادىء الملكية ، وتعمل على تعديل تفاوت الثروة. فاقترحوا إلغاء الحقوق الأقطاعية ، نظير تمكن الطبقتين الأولتين عن التنازل عن الامتيازات المالية . ورغم أن نيكر ذكر فى تقريره أن أساس التصويت هو الطبقة ، فإن الملك رفض ذلك فيما يتعلق بالضرائب .

وفى هذا الوقت اعتقدت الطبقة الثالثة أنها حصلت على مبدأ التصويت الفردى وكان هذا غير صحيح، خاصة وأن النبلاء قد احتجوا ضد مضاعفة عدد ممثلى الطبقة الثالثة. وحين علم رجال الطبقة الثالثة بذلك تطورت الأمور، وظهرت إمكانيات الثورة. وظهرت مقالة سييس عن « ماهية الطبقة الثالثة » التى هاجمت بعنف ذلك الحقد والإحتقار

الموجود لدى النبلاء، ووصفتهم بأنهم يعيشون فى بطالة وكسل وظهر أن الثورة قد اقتربت .

وبدأت الإنتخابات ، واستدعى كل النبلاء للحضور للمجلس الخاص ، بطبقاتهم، ولكنهم جرحوا شعور الطبقة الثالثة بهذه العملية. أما رجال الدين فإنهم وضعوا كل القسس مع الأساقفة، وحصلوا بذلك على قائمة بممثليهم دون قيامهم بعملية الانتخابات. وأما رجال الطبقة الثالثة فكان من الضرورى تمثيلهم عن طريق الانتخابات بين الرجال الذين يمثلون المدن والقرى ، ويدفعون الضرائب وأما رجال الدوائر الصغيرة فإنهم كانوا يكتبون عرائض بمطالبهم يرسلونها للدوائر الرئيسية، واضطر الفلاحون ، نتيجة لعدم خبرتهم إلى إنتخاب بعض رجال الطبقة البورجوازية .

وكان هناك بعض أعداء الاصلاح بين رجال النبلاء ورجال الدين، ولكن المتحررين وحدهم هم الذين تمكنوا من الوصول إلى الصفوف الأولى ، ولمع من بينهم لافايت الذى كان قد ذاع اسمه منذ بضعة سنوات . وسيظهر من بين رجال الطبقة البورجوازية كل مو سييس ، صاحب فكرة السلطة التأسيسية وارجاع هذه السلطة إلى الأمة إلى أن يتم وضع دستور ، وكان معبرا صادقا عن وجهات نظر البورجوازية. كما اشتهر ميرابو الذى تنبأ بالواقعية لرجل الدولة، وإن كانت حياته قد بشرت بشراء النظام الملكى له .

وبدأت كتابة عرائض الالتماسات ، وظهر معها ضرورة وضع برنامج بوجه الرأى العام ويفرض على النبلاء ويقلل من درجة هياج الطبقة الثالثة. وتدخلت البورجوازية فى كتابة العرائض ، وشارك عدد من رجال القانون ورجال الدين فى كتابتها، ونقدت الإلتزامات الواقعة

على كاهل الطبقة الشعبية . أما الفلاحين والبورليتاريا فأنهم لم يشاركوا فى هذه العرائض بطريقة مباشرة. وكان الفـلاحون يهتمون بإلغاء ضريبة العشور ، وبحقوق للسيد وسلطاته ، وضرورة احترام المنافع الجماعية ، وتنظيم تجـارة الحبـوب ، أكثـر من إهتـمامـهم بمسألة المسـاواة فى دفع الضرائـب ، وكانت هذه الاتجاهات تـهدد الأرستـقراطيـة فى أملاكـها وامتيازاتهـا،وتهدد البورجوازية فى مطامحـها. ولكن الشعب لم يدخل مجلس طبـقات الأمة، ووجد الملك والأرسـتقراطية والبـورجوازية أنهم مشغولون وحدهم بتسوية المسألة .

وعـبر النبـلاء والبورجـوازيون بالاجمـاع، فى عرائضـهم ، عن تمسكهم بالنظام الملكى ، ولكنهم وافقـوا على إبدال سلطة الملك المطلقة بنظام يوافق عليه ممثلوا الأمة ، مع ضمان الحرية الفردية ، وإمكان وضع تنظيم خاص لرجال الدين ، ولكن رجال الدين رفضوا أن تتضمن حرية الصحافة ، إمكـانية نقد نظريات الدين ، وإمكانية معاملة البـروتستانت معـاملة الكاثوليك . وإذا كان رجـال الإمتيـازات يوافقـون على تقديم تنازلات فـيمـا يتعلـق بالضرائب، فـإنهم كـانوا يعارضـون فى مسـألة التصـويت الفردى ، وطـالبوا بضـرورة الاحـتفـاظ بالطبـقات وحـقوق السادة ، وكـان ذلك بالنسبـة لرجال الطبـقة الثالثـة، أمر يتـعارض مع المساواة، ويتعارض مع الحرية .

وكان الوضـع يتطلب وجود ملك عظيم يمكنـه أن يفرض نفـسه كحكم بين هذه الطبقات فى الوقت الذى تعارضت فيه اتجهاتهم. ولكن لوى الســادس عشـر لم يكن يشبـه هنرى الرابع ، ولا غيـره من الملوك العظمـاء . وبدلا من أن يحـسم الملـك الأمر تـخلى عن نيكر ، فـزاد ضعـفا. وكانت الحكمـة تشير باجـتماع النواب بعـيدا عن باريس، فى فرسـاى ، خاصـة وأن الملك كـان يفضلهـا من أجل الصيـد ، والملكة

وحاشيتها تفضلها من أجل التسلية ، وارتكب البلاط أخطاء أخرى باصراره على الأتكيت ، الذى كان يهين الطبقة الثالثة: ففرضوا كسوة خاصة لممثلى كل طبقة، وسار ممثلى الطبقات فى موكب يتقدمه النبلاء بملابسهم الزاهية ، وأخيرا ممثلوا الطبقة الثالثة بملابسهم السوداء، وحتى فى الجلسات * احتفظ النبلاء ورجال الدين بغطاء رأسهم،وطالب رجال الطبقة الثالثة بنفس المعاملة ، ولكنهم أخذوا عليهم عدم ركوعهم أمام الملك .

وافتتح لوى السادس عشر الاجتماع بخطبة قصيرة ، وخطب مدير المالية لمدة ثلاث ساعات. شرح فيها أحوال الخزانة ، ولكن أحدا لم يشر للاصلاح الدستورى فطرحت مسألة أخذ الأصوات نفسها ، كحل للأزمة ، وكدفاع عن مصالح الطبقة الثالثة . ولكن الاهتمام الأول انصرف الى فحص صحة عضوية الأعضاء.

ورفض بعض النواب طريقة تصويت كل طبقة على حدة ، وطلبوا ضرورة فحص نيابة الأعضاء بطريقة مشتركة ، ولكل ممثلى الطبقات، وإذا كانت الطبقة الثالثة لم تشكل لنفسها هيئة واضحة ، فإنها منحت نفسها أسم « العموم » وكان هذا اللفظ يثير معنى المقاومة الشعبية ضد الأقطاعيين ، وكان يدل على أنهم يرفضون نظام الطبقات الاجتماعية التى تضعهم فى المستوى الثالث .

وبعد مضاعفة عدد ممثلى الطبقة الثالثة ، انضم عدد كبير من رجال الدين إليهم ، وظهر أن الأساقفة قد فقدوا سيطرتهم على بقية رجال الدين، ودعا رجال الطبقة الثالثة أصحاب الأمتيازات للانضمام إليهم ، ولكن النبلاء والأساقفة رفضوا ذلك . فأعطى ممثلوا الطبقة الثالثة ، مع من انضم إليهم من صغار رجال الدين والنبلاء، لأنفسهم اسم المجلس الوطنى . ووافقوا على الضرائب الموجودة بشكل مؤقت ، وذلك كتمهيد لاعطاء أنفسهم الحق فى الموافقة على فرض ضرائب

حديدة وأسرع النبلاء والأساقفة للملك ، يطلبون إليه التدخل . فأدى الأمر إلى وقوع أزمة ، وحين أغلقت قاعة الاجتماعات فى وجه ممثلى الطبقة الثالثة يوم ٢٠ يونيو التجأ النوب إلى ملعب التنس المجاور ، وأقسموا أن يظلوا متحدين حتى يتم وضع دستور. وكان هذا يمثل ثورة نواب الطبقةالثالثة على رغبة الملك . وإذا كان تدخل الملك قد وضعه فى الميزان ، وفى مواجهة القوة المتحركة ، ومن أجل الاحتفاظ بالطبقات الاجتماعية التقليدية ، وبأولوية الطبقة الأرستقراطية، فإن ذلك جعل الثورة هى الطريق الوحيد للوصول إلى المساواة فى الحقوق . وحين استند الملك إلى قواته العسكرية ، أكد النواب حصانتهم النيابية ، وأعلن ميرابو كلمته المشهورة لن تترك أماكننا إلا بقوة الحراب . ومنذ ذلك اليوم انضمت أغلبية رجال الدين و ٤٧ من النبلاء إلى ممثلى الطبقة الثالثة. وبدأت بذلك الثورة البوزجوازية ، القانونية والسلمية ، واختاروا لجنة لوضع الدستور، وتحول المجلس الوطنى إلى مجلس تأسيس ، وتقدم لافايت بمشروع لاعلان حقوق الانسان .

ومع ذلك فإنهم ظلوا يحتفظون للملك بهيبته، ويعتقدون أن موافقته ضرورية لكل عملياتهم ، فعجزوا عن إلغاء الطبقات الاجتماعية ، وعجز الملك عن الوقوف بشكل واضح ضد هذا الاتجاه، فأثار عليه النبلاء. وفى نفس الوقت زاد الهياج، وانتشرت الاضطرابات عند نهاية شهر يونيو ، وخاصة بعد توافد قوات عسكرية كبيرة صوب باريس ، وظهر ان انتصار البورجوازية قد عجز عن الوصول إلى نتيجة وأن الملك يستعد مع النبلاء للانتقام.

٣- الثورة الشعبية :

ولقد أدى الالتجاء إلى القوة المسلحة إلى الوصول للصدام بين

الطبقات وتحـويله إلى حرب أهلية، كانت أبعد مـدى من النيات الأولية للطبقة البـورجوازية وكان التدخل الشعـبى هو الذى أدى إلى الانهيار السريع للنظام الاجتماعى القديم ، والعـمل على تعبئة الجماهير، وخلق عقليـة ثورية تحت تأثير الأزمة الاقتـصادية ودعوة مجلس طبـقات الأمة للانعقاد.

وكانت الأحوال الاقتـصادية متدهورة وانهارت الأسـعار بعد وفرة مـحصـول العنب ، ثم قل المحـصول فـى العـام التـالـى، فارتفـعـت الأسعار ، رغم عدم وجود قوة شرائية . ثم انخفضت أسعار الحبوب ، وجاء الجفـاف لكى يقضى على عدد كـبير من البهـائم . ومع قلة القوة الشرائية للفلاحين قل الأنتاج الصناعى ، وزادت خطورة البطالة . وجاء محصول سنة ١٧٨٨ ضعيفـا، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أسعار الخبز، رغم تحمل الحكومـة جزءا من ثمنه ، وخاصة بالنسبة للقمح المستورد ، ورغم أن الحكومة فتحت بيوت الصدقـة ، ونظمت عملية توزيع الحساء والأرز، إلا أن برد الشتاء كان قارصا ، وإستمرت زيادة الأسعار . ولم تكن زيادة المرتبات تسـير بنفس النسبة ، وأرجع الجـميع مسئـولية ذلك على الحكومة والطبـقات الحاكمـة وشارك فى ذلك الحرفيـون وأصحاب الحوانيـت والبروليـتاريا والفـلاحين وصغار الملاك المستأجـرين . وبدت الضرائب على أنها مرهقة ، وبخاصة مع ارتفاع الأسعار. وبدأ التضارب : فسمحت الحكومة بتصدير القـمح لكى تحل أزمتها المالية، فزاد ارتفاع ثمن الخـبـز ، وقل فى الأسواق ، وحـين قررت الحكومـة العـودة إلى السماح باستيراد القـمح الأجنبى ، وكانت المشكلة فى أوج أزمتها. واذا كان بعض الأهالى قـد عمل على تخزين بعض السلع، فـإنهم كانوا فى نفس الوقت يلقـون بتـبـعـة كل ذلك على الحكـومـة وعلى الطبـقـات الحاكمة ، فى الوقت الذى كان الجميع يشعر فيه بأنهم مهددون بالمجاعة.

ونظر الأهالى لجامعى الضرائب لرجال الحكم على أنهم يأكلون من قوت الشعب . بعد أن تصرفوا فى أموالهم ووحققوا فيها ثروات طائلة . ومع شدة البؤس ، حدث تقلقل داخل الطبقة الثالثة ، وأصبح تجار الحبوب والخبازين مهددين . ولم تكف وضع حراسات عسكرية على الأسواق لتأمين السلع وأصحابها.

وبدأت بعض مجموعات من الأهالى فى التحرك ، فوقعت بعض الهجمات على المصانع ، وعلى قوافل نقل الحبوب ، التى كانت تتم على الطرق وعلى الأنهار ، تحت أنظار الجماهير الجائعة . وحتى بعض الحراس كانوا يتسامحون مع الأهالى ، نتيجة لاشتراكهم معهم فى الشـ رر بالحرمان ، وكانوا مستعدين للانضمام اليهم ، فأصبح النظام مهددا فى وسائله أما فى الريف فكان الأهالى يخرجون ويقضون على الصيد فى الغابات ، وانتشرت ظاهرة التسول ، وكانوا يتكدسون فى المدن ويتجمهرون، وينزلون على المزارع ليلا، ويفرضون أنفسهم بالتهديد باشعال الحرائق وبقتل البهائم وبقطع الأشجار، والتهديد بالنهب . وأمام هذه الحالة، وافقت الحكومة على أن تقوم القرى بتسليح نفسها خوفا من العصابات والمتسولين . وكان انتشار السلاح فى الريف عاملا فعالا يمكن توجيهه ضد الحكومة وضد النظام .

وإذا كانت هناك بعض فترات انتشر فيها نبأ انفراج الأزمة، نتيجة لرؤيا أو تنبؤ ، فإن استمرار تدهور الأحوال كان يزيد من الشعور بانهيار الأوضاع. وشعر أبناء الطبقة الثالثة أن النبلاء سيعملون ضدهم، وسيحملون السلاح للدفاع عن قصورهم، التى كانوا يخزنون فيها القمح والمواد الغذائية ، وزاد الخوف من أن يقوم النبلاء بالإستناد إلى الملوك الأجانب ، وكانوا متصاهرين معهم ، وخاصة فى سردينيا وإسبانيا ونابولى والنمسا. وذلك لمعاونتهم على القضاء على من يتحرك من

الأهالى، وتبلور هذا الخوف فى شكل إمكانية لوقوع مؤامرة أرستقراطية فزاد الموقف تبلورا، وارتبط عمل الحرية السياسية ، بقوت الشعب ، وبإمكانية وقوع مؤامرة للتخلص من العناصر المتحركة فى الشعب ، إنه تهديدٌ ضد الحياة، فمن الضرورى أن يقوموا بالتحرك دفاعا عن النفس.

وفى باريس ، يوم ١٢ يوليو ، كانت جماهير كبيرة فى الشوارع ظهر بينهم بعض الخطباء فتطور الوضع إلى مظاهرات قام الفرسان بمحاولة تفريقها فوقعت بعض الاشتباكات مع الجماهير. وقام حاكم باريس بسحب رجاله إلى سان دى مارس ، فقامت الجماهير، بإحراق مراكز الشرطة ومكاتب جمع الضرائب ؛ ومع انتشار النيران ، زاد الشعور بالخوف فى العاصمة، وظهرت المتاريس فى الشوارع ، وإستولى الأهالى على ما وجدوه فى محلات بيع الأسلحة، وأنتخبوا لجنة تشرف على أمورهم ، وشكلوا قوات من المتطوعين . وقام حاكم باريس باستعراض قواته فى اليوم التالى ، فوقعت الاشتباكات مع الأهالى الذين هاجموا الأنفاليد ، وحصلوا على ٣٢ ألف بندقية . لقد تسلحت الجماهير فى باريس. وبعد ليلة قضتها باريس دون نوم، وراء المتاريس ، ومعهم الأسلحة ، خوفا من الانتقام ، زحف الجماهير فى اليوم التالى ١٤ يوليو على حصن الباستيل . ورغم أن الأسوار كانت تصل إلى اثنين مترا من الارتفاع، وأن اتساع الخندق المحيط به يصل إلى خمسة وعشرين مترا، ورغم اصابة بعض الأهالى بطلقات الحراس ، فإن المعركة كانت غير متكافئة، وخاصة بعد وصول قوات الحرس الفرنسى ومعها بعض قطع المدفعية. وسقط الباستيل، واضطر حاكم باريس إلى الإنسحاب منها، فعين الثوار عمدة لباريس، وعينوا لافايت قائدا للحرس الوطنى ، وهو الذى سيعطى لهذا الحرس شارة الثورة المثلثة الألوان الأحمر ، والأزرق ، والأبيض ، وهو الذى سيمثل

علم فرنسا فيما بعد .

وهاجر كثير من النبلاء إلى الخارج وانتشرت الأنباء عن قرب وصول الأسطول الانجليزى ، وعن استعانة النبلاء بالجيوش الأجنبية ، وأصبحت عاصمة فرنسا تعيش فى خوف ، وتحت سلطة الثوار ، ومستعدة للدفاع عن نفسها. أما فى الريف ، فإن مجموعات من الأهالى قامت بالقبض على الحكام، واحتجزت عددا من النبلاء ورجال الدين فى قصورهم وأبراشياتهم . وكانت البورجوازية هى التى تستولى على السلطة فى كل مكان ، ووافقت على تشكيل لجان لتنظيم الحرس الوطنى . ولكن الشعب كان منضما إلى عمليات البورجوازية .

ووجد الملك نفسه بدون سلطة ، واضمحلت السلطة المركزية ، ومارست البلديات السلطة فى المدن والقرى . وأخذت هذه البلديات فى عقد اتفاقيات فيما بينها، فتحولت فرنسا بطريقة تلقائية إلى إئتلاف أو إلى إتحاد كميونات . وزاد ظهور سلطات ، باسم الأمن العام ، ومن أجل الدفاع عن الثورة ، هنا وهناك ، ولكن الجمعية التأسيسية ظلت هى الهيئة الوحيدة ذات السلطة الأساسية، مادام الجميع كان يرغب فى الوصول إلى حل ، بالنسبة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ومادامت مشكلة تغيير النظام الملكى لم تطرح بعد .

ولقد قام المجلس الوطنى فى ليلة ٤ أغسطس بأعلان حقوق الإنسان والمواطن ، فأعلن مبدأ المساواة فى دفع الضرائب، كما أعلن إلغاء النظام الاقطاعى ، وإن كان ذلك من الناحية الأسمية ، أكثر من كونه من الناحية الفعلية. وأعلن بعد ذلك مبادىء الحرية والمساواة وسيادة الأمة التى ستعتبر بمثابة « شهادة وفاة » للنظام القديم ، الذى أهلكته الثورة الشعبية .

وإستمرت الثورة فى باريس ، وعنـد نهاية شهر أغسطس ، بدأت فكرة الزحف على فرساى تتبلور فى باريس ، وزاد إنـتشار الأخبار عن وجود مؤامـرة أرستقراطية ، وخـاصة بعد استدعـاء قوات الفلاندر إلى باريس: فأخذ النبلاء والأغنياء يطـردون خدامهم ، وعملوا على تهريب أموالهم والخروج من العاصمة ، فزادت البطالة ، وإستمرت أسعار الخبز فى الارتفاع، وكان وجوده يشح فى بعض الحالات . ومرة أخرى تعاون الاقتـصاد مع السـياسـة على أخذ خطوة جـديدة .وفى يوم ٥ أكتـوبر خـرجت مظاهرة من النسـاء تطالب بالخـبز، وتزعـمـها بعض الرجـال واتجهت صوب فـرساى . وتضخمت المظاهرة فى مـسيرتها. كـما قرر لافايت والحرس الوطنى ضرورة الذهاب إلى فرساى ، وأصدر الكوميون أمره للحـرس الوطنى باعادة الملك إلى باريس ، فظهر الشكل السـياسى للعملية .

وقابل لوى السادس عـشر النساء بلطف، ووعدهم بـتموين باريس وكان النبـلاء قد نصحـوه بترك فرسـاى إلى قصر آخـر خارج باريس. ولكن لافايت وصل ، ودخل المتظاهرون إلى ساحـة القصر، ومع وقوع اشتبـاك مع الحرس وصلت الجماهـير إلى جناح الملكة ووافق الملك على أن يعود مع أسرته إلى باريس .

وكـان موكبـا يشتمل علـى عربـات قمـح ، وعلـى عــدد من المدافع يركبهـا بعض رجال السوقة والنساء ، وعلى عـربات أعضاء المجلس الوطنى ، وكان لافايت يسيـر على ظهر جواده إلى جوار أبواب العربة الملكية . وكانت مظاهرة حماسيـة ، خاصة وأن الجمهور قد عاد بالخبـاز والخبـازة وابنهمـا إلى باريس ، وكان الملـك أن يقيم فى قـصر التـويليـرى ، فى قلب باريس ، وتحت سـيطرة سكانهـا. وإذا كـانت الأرستـقراطية وجـزء من البورجـوازية قد اشمـأزت من طريقة مـعاملة

الملك، فإن الحزب الوطنى قد أخذ يظهــر صفوفه من المكليين . وهكذا سيتم الإنفصال بين النبلاء الذين أضيروا فى مصالحهم وممتلكاتهم، وبين الثوار ، وسيسود شعور بالحقد يمهد لتنفيذ المؤامرة الأرستقراطية التى كان الجميع يخشون من إمكانية وقــوعها، وإذا كان الملك قد أصبح رهينة فى أيدى الثــوار، فإن النبــلاء ، وبخـاصة من هــاجر منهم إلى الخــارج، سـيعـملون على مـحاولة ضــرب الثــورة ، متـحـدين مع غيــرهم من أرستقراطية أوربا، وذلك فيما يســمى بعملية الإستنجاد بالخارج ، الأمر الذى سيمهد لنشوب الحرب الأهلية .

وحتى المجلس الوطنى أصـبح عليه أن يحترس ويسـاير إتجاهات الراى العام، ونشأ تـضارب بين الجمعيــة التأسيســة التى كانت لاتزال تدين بالولاء للملك، وبين الوزارات التى حـاولت عرقلة عمل الجمـعية التأسيسية . فنـشأت فكرة تنازل لوى السادس عشر عن الملك . وهكذا نجـحت الثورة فى القـضـاء على سلطة الملك ، دون أن تتـمكن من أن تنشىء لنفسيها حكومة ، وظل هذا الوضع موجودا حتى سنة ١٧٩٣ .

٤- عام لافايت : ..

رغم أن النظام القديم انهار ، من حيث المبدأ، إلا أن جزءا كبيرا من تنظيـماته وهيـئاته الادارية ظلت فى أمـاكنها. وواصلت الجـمعـية التأسـيسية عـملها وهى تراقب تهديدات الأرسـتقراطية ، وهذه الفـترة تميــزت بوضــوح شعـبـية لافـايت الذى كـان مـعاديا لأنـصار الثــورة البورجوازية، والتى كـانت تشتمل على فكرة الملكية الدسـتورية، وكان لافايت يفتخر بأنه يحاول التوفيق بين المتناقضات .

ورأي لافايت أنه انقذ الملك والملكة ، مما يسمح له بأن يوجههم . ووافق الملك على أن يذهب للمـجلس الوطنى ، فى أربعة فـبراير سنة

١٧٩٠ ويقسم بالـولاء للدستور. وكـان لافايت هو بطل العـالم القديم والعالم الجديد، وكانت بشـاشته تسحر البورجوازية. وكان سـيدا كبيرا ومتحررا، ويفرض نفسـه على الشعب ، وظهر أن نسبه يضمن النظام. وكان يحـلم بأن يصبح واشنطن فـرنسا، وبأن يضم الملك والنـبلاء إلى الثورة ، ويدفع المجلس الوطنى إلى إنشاء حكومـة قوية : وكان يسيطر على الصـحف فى باريس ، ويدعى أنه يمارس الـسلطة عن طريق الرأى العام . ولكنه لم يكن خطيبا، وكانت هذه نقطة ضعـفه. وأنشأ جمعية «٨٩» حيث كـان يخـتلط النـواب والأدباء مع النبلاء ورجـال المصارف. وكان يحاول توحيد الوطنيين فى شكل تجمع ، وإن كان الإتجاه الثورى الفردى يرفض الخضوع لحزب، وحرمت الجمعية التأسيسية على أعضائها الإشتراك فى الوزارة، فأدى ذلك إلى عـرقلة نجاح إتجاه لافايت ، وإلى زيادة وضوح العناصر الطموحة .

وفى أثناء هذا الوقت واصلت الجمعـية التأسيسية عـملها، فألغت الجماعات الدينية . ثم ألغت شـراء رتب الجيش والتى أصبحت من حق الجميع ، واحتفظت بنسبة منهـا لترقية ضباط الصف ، وألغت سلطات الإمتيازات من القرى ، وأخذ كل كوميون ينتخب بلديته . وتمت تسوية وضعية رجال الدين ، كما تمت عملية تطوير الهيئة القضائية .

ومن ناحية أخرى عمل الوطنيون على تحسين مجموعتهم ، وعلى زيادة دعايتهم، وأصبحوا مـوجودين داخل صفوف الحزب الوطنى وفى النوادى . وتعـددت الصحف ، وزاد عـدد الإتحـادات حتى تطور بهـا الأمـر فى سنة ١٧٩٠ إلى إنشـاء الإتحاد القـومى ، وهو الإتحـاد الذى وجدت فيه الوحدة الفرنسية تعبيرا رسميا ومحددا عن نفسها.

وكان الموضوع الذى يشغل الأذهان قـبل غيره هو أمن الأشخاص

وأمن المتلكات ، فصدر القانون العسكرى الذى أعطى كل بلدية الحق بتطبيـقه فـى حالة ظهـرز الإضطرابات ، وذلك عـن طريق رفع العلم الأحمر، وأطـلاق النار بعد ثلاث نداءات ولكن لافايت كان فى حـاجة إلى قوة الحرس الوطنى ، وكـانت هذه القوة قد ضعفت بعـد انخفاض عددها إلى ٢٤ ألف ، وبعد أن أصبح على رجالهـا أن يشتروا كساويهم لأنفسهم . وكانت قوته قد ضعفت فى الريف، خاصة وأن وزير الحربية عمل على نزع السلاح منهم ، ومنع شراء أسلحة من الخارج ، ثم أعلن أن مخازن السلاح خاوية. أما عمليـة الإستعانة بقوات الجيش ، فكانت الجمعية التأسيسيـة لاتوافق عليه ، وكانت تمثل خطرا أساسيا بعد كل ما حدث ، إذ أن الجيش كان يمثل قوة الملك .

وإستمرت الفوضى فى الأسـواق، وإستمرت ثورات الفلاحين فى كل مكان ، ورفـض الكثـيـر منهـم دفع الضـرائب . وأصـبـحت الأرستقراطية مهددة ، فزادت من صلابة مقاومتها، وأخذت ردود الفعل أشكالا دموية فى بعض الحالات ، هددت بزيادة حدة الصراع الطبقى . وأصـبح الأمل الذى كان يراود لافـايت ، بالوصـول إلى حل وسط ، مجرد حلم من الأحلام .

وأخذ المتطرفـون من الأرستـقراطيين فى اظهار احـتقـارهم حتى للملكيين الذين كـانوا يتفـقون مع الـثورة ، وأخـذ رجال صحـافتـهم يهاجمـون كل تجديد ، ويعلنون تمسكهم بالنظام القديم، ويتـبرأون حتى من الثورة الأرستقـراطية ، ويهاجمون « التشـدق بالوطنية » . وسافرت بعض عناصـرهم إلى الخـارج بحثـا عن أمنهم ، وهاجـر غيـرهم لكى يتسلحوا ، انتظارا لعملية تدخل أجنبية ، كان الكونت دارتوا، المقيم فى تورينو يطلها من كل جانب ، وقام غيرهم بالإتفاق معه للتمهيد للحرب الأهليـة فى جنوب فـرنسـا . وحـاولوا إثارة العـمـال الكاثوليك ضـد

أصحاب المصانع البروتستانت . وكان الكونت دارتوا يحاول الهجوم على مدينة ليون ، وحاولت بعض العنصر أن تمهد لمسألة هروب الملك. ولكن لوى السادس عشر رفض هذا الإقتراح . ومع إتخاذ الإجراءات ضد بعض النبلاء المشتركين أو المتهمين في هذه العمليات ، زاد فرار النبلاء إلى الخارج ، وتكتلهم ضد الثورة وبعد أن خاف الثوار من الهجوم على فرنسا من الجنوب ، زاد خوفهم من هجوم قوات نمسوية عليهم من الشرق ، فظلت الجماهير مستعدة للقيام بعملية رد فعل لفعل ، وسيكون ذلك فى شكل عقاب من يخشون من إمكانية تحركه ضدهم . فبدأت الآلية الثورية فى عملها للوصول إلى زيادة التبلور، بين القوة الثورية والقوة المضادة للثورة ، مع الإستعداد بأخذ الدوافع ، التى ستكون خطوة ثورية .

وعلينا أن نذكر أن الجيش قد أصابه الضعف ، خاصة وأن بعض الضباط من النبلاء تردد ، ثم أخذ موقفا صريحا ضد الثورة فقلت ثقة الثوريين فى الضباط الأرستقراطيين، وهاجموهم ، واتحدوا مع جنودهم ضدهم . وتحرك البحارة وعمال الترسانات البحرية فى والموانى العسكرية، وعجز المجلس عن تسريح الضباط أو القيام بعملية تطهير بين صفوفهم. خاصة وأن موقف الدول الأوربية كان مهددا. وتطور الأمر إلى أعلان بعض الحاميات والموانى العسكرية تمردها الواحدة بعد الأخرى : وحين إستخدم لافايت الشدة مع حامية نانسى المتمردة، وبصفته من العسكريين ، مس ذلك شعبيته ، خاصة وأنه عامل بعض أنصار الثورة على أنهم من المتمردين ونشر لوى السادس عشر نداءا إلى الخارج ، فسارت الثورة بذلك صوب مرحلة جديدة .

٥- أعمال الجمعية التأسيسية :

قامت الجمعية التأسيسية من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٧٩١ بإتخاذ قرارات هامة شملت نواحى متعددة من حياة الفرنسيين . فعملت على ربط الحرية بالمساواة ، التى أعطت لها الثورة الشعبية ، والتى تسببت فى القضاء على إمتيازات الإقصاع.

وجاءت مبادىء سنة ١٧٨٩ لكى تعلن أن الإنسان يولد حرا ، ويبقى حرا، ، ومتساويا مع غيره فى الحقوق : فالإنسان هو صاحب السيادة على نفسه ، وعلى أساس إحترامه لحرية الآخرين ، ويمكنه أن يمارس نشاطه الطبيعى والثقافى دون عقبات : فيمكنه أن يتحدث ويكتب ويعمل ويخترع ، ويربح ويمتلك ، والقانون واحد من أجل الجميع، ويمكن للجميع الوصول للمهن والوظائف العامة دون أى تفرقة تتعلق بمولده .

كما أعلنت مبادىء سنة ١٧٨٩ أن الدولة ليست هدفا فى حد ذاتها، فسبب وجودها يتمثل فى رسالتها للإحتفاظ للمواطن بحق التمتع بحقوقه ، وصاحب السيادة هو مجموع المواطنين ، هو الأمة ، التى تمنع سلطتها الحكومة مسئولة ، وإذ لم تقم الدولة بواجبها فعلى المواطنين أن يقاوموا الكبت والظلم .

وقضت هذه المبادىء على النظام القديم ، وقيدت النظام الجديد. وكان هذا الإعلان يمثل عمل طبقة إجتماعية منتصرة ، واثقة من المستقبل ، وبإعلانها الحرية والمساواة فى الحقوق ، خدمت مصالحها، وجذبت أنظار العديدين للثورة،وفتحت المجال أمام القوى الفردية، وروح المخاطرة ، وسمحت للبورجوازية بالخروج من بين الجماهير ، وأخذ المسئوليات الإقتصادية والسياسية فى المجتمع. وسيؤدى الإختيار

للطبيعى الناتج عن المنافسة إلى حمايتها من العجز والشيخوخة . وولدت فيها الطاقة، وسهلت عملية مضاعفة رؤوس أموالها، وفتحت مجالات واسعة للمضاربة .

وفى نطاق الحرية الفردية ، ظل المجلس مخلصا تماما للإعلان ، ويتضح ذلك من إصلاح الإجراءات الجنائية والتى تعتبر عملا مجيدا من أعماله. أما بالنسبة للتسامح الدينى فإن المجلس قد تخطى الإعلان، . وإن كانت حرية العقيدة لم تحل بشكل نهائى ، مادامت مسألة إقامة الشعائر الدينية قد ظلت حكرا للكنيسة الكاثوليكية ، ومادامت الأحوال المدنية لم تكن قد انشئت بعد .

ولقد عملت الجمعية التأسيسية على تنظيم الحكومة، وعلى أساس الدستور، الذى حول لوى السادس عشر إلى الموظف الأول فى الأمة . ومع ذلك فقد ظلت السلطة الملكية وراثية ، وغير مسئولة، ولايمكن المساس بها إلا فيما يتعلق بمسائل الخيانة العظمى . وظلت السلطات ثلاث : التشريعية والقضائية منفصلة ومستقلة ، حتى وإن كان ذلك قد يهدد بشل الجهاز الحكومى.

وعمل المجلس التأسيسى على وضع نظام اللامركزى للإدارة ، وذلك عن طريق إعطاء سلطات واسعة للبلديات . وقسمت فرنسا إلى ٨٣ مقاطعة ، قسمت بدورها إلى دوائر ، ثم إلى كانتونات . وأخذ الأهالى فى إنتخاب قضاتهم، وفى إختيار من يتولون الإدارة فى مقاطعاتهم. وظهر أن الإتجاه العام أخذ يسير من اللامركزية ، صوب الإتحادية .

كما أهتمت الجمعية التأسيسية بمسألة الضرائب ، وخاصة المتعلقة منها بالأرض ، التى ظلت المصدر الأساسى للثروة. وأهتمت بالضرائب

الأخرى ، كوسيلة لزيادة الإيرادات والإصلاحات المالية ثم قامت بوضع ممتلكات رجال الدين تحت تصرف الأمة ، ولم تتخذ أى قرار بشأن ملكيتها، وأعطت الوعود لرجال الدين بدفع رواتب معقولة لهم. كما أهتمت الجمعية التأسيسية بالعمليات الإقتصادية ، من رفع الحواجز الجمركية الداخلية وتخليص التجارة الداخلية من المعوقات، وأهتمت بالإصلاح الزراعى الذى تحتم الوصول اليه بعد القضاء على إمتيازات السادة وبيع أملاك الحكومة . ورغم أن معظم هذه الأراضى لم تصل إلى أيدى الفلاحين ، نتيجة للمضاربة ، واستناد البورجوازية فى المدن إلى رؤوس الأموال التى تسمح لها بشراء الأراضى ، إلا أن ذلك أعطى موردا ماليا للدولة .

وقضت الجمعية التأسيسية على السلطة المادية لرجال الدين، بنزعها ممتلكاتهم. ولم تسمح ببقاء الكنيسة مسيطرة على الدولة ، وعملت على إخضاعها للدولة ،وطلبت إلى كل رجال الدين ، وبصفتهم من الموظفين العموميين ، أن يقسموا بإحترام دستور المملكة ، وبالتالى إحترام الدستور المدنى الذى يعتبر جزءا منه ، وإلا فإنهم سيخرجون ، وسيعين غيرهم بدلا عنهم ، وسيحرمون رعاية المسيحيين ، وإن كانت ستصرف لهم معاشات .

ومع إستمرار تهديد عناصر الثورة المضادة، مع إزدياد تدهور سعر العملة، أخذت البروليتاريا بالمطالبة بتحسين أجورها. وحاولت البورجوازية وهى تخشى من الاثنين ، أن تفرض نفسها على الشعب . ولكن ضرب قوة الدفع الشعبى ، كان معناه الاستعانة بالعناصر الرجعية ، فاستقر الأمر على ضرورة زيادة سلطات الملك . وظهر الأمر فى نهاية سنة ١٧٩١ أنهم قد حافظوا على مبادىء سنة ١٧٨٩ . وكان الموقف يتطلب بقاء لوى السادس عشر مخلصا لهم. وفجأة، إنهارت الأرض من تحت أقدام البورجوازيين : لقد هرب الملك .

الفصل الثامن عشر

الثورة وأوربا حتى معاهدات سنة ١٧٩٥

كان هرب لوى السادس عشر قد حدث فى الوقت الذى كان يأمل فيه فى الحصول على التأييد من الملوك الأجانب وكان هؤلاء الملوك، بحكم طبيعتهم ومصالحهم ، معادين للثورة ، ولمبادئها المعلنة ، ولكن منافستهم كانت قد أبعدت أنظارهم عن الشئون الفرنسية وحتى وقت حادثة محاولة الملك الفرار، فعادت أنظارهم تتجه صوب فرنسا من جديد. وكانت حادثة فارين ضربة قاضية للملكية الفرنسية، وكانت تمثل أهمية عظمى بالنسبة لعلاقة الثورة بأوربا.

١ - الدعاية الثورية :

كانت الثورة قد أثارت قلق ملوك أوربا منذ أول نشوبها، وأخذت الدول الأوربية تتهم الحكومة الفرنسية بموافقتها على هذه الدعاية، وحتى بتشجيعها. وكانت الدعاية الثورية تنتشر ، فى حقيقة الأمر، بطريقة تلقائية . وأدى ذلك إلى أن خسرت الكثير من الصحف الفرنسية ، والتى كانت متخصصة من قبل فى نشر المقالات الأدبية، الكثير من قرائها فى ألمانيا وفى إيطاليا. وكانت هناك بعض المنشورات التى يطبعونها فى باريس ، ويحاولون إرسالها إلى كتالونيا، فى إسبانيا، وعجزت محاكم التفتيش نفسها عن مقاومة حركة التهريب. ووجدت الثورة كثيرا من العملاء المتطوعين من بين الفرنسيين المقيمين فى ألمانيا وإنجلترا وروسيا، اشتركوا فى المجادلات الفرنسية، وقام غيرهم بالسفر والمجيء إلى فرنسا، للمشاركة فى الأحداث . وتكونت فرقة مختلطة من المتطوعين إلى المجلس التأسيسى، وأعلنت أنها تمثل العالم لدى الإتحاد. وبإتصالهم ببلادهم الأصلية ، التى كانوا يعودون إليها ، تحول

هؤلاء الوطنيون إلى عناصر تنشر الدعاية ، دون قصد منها ، وحتى دون أن يفكروا فى ذلك . وكان من بينهم عدد من اللاجئين السياسيين ، وبعض من السويسريين ، والهولنديين ، ثم جاء أبناء سافوا وبرشلونة وليبج ، وكانوا ثائرين ضد الطغيان ، وإتخذوا الدعاية الثورية سلاحا ينتقمون به . وإنشأ السويسريون ناديا خاصا بهم فى باريس ، وأخذوا فى الاتصال بالكانتونات. وحاول بعض الديموقراطيين تقليدهم، وبدأت الصحف والجمعيات فى إصدار نداءات لكل الرجال ، لكى يعملوا على تحقيق السلام العالمى عن طريق الحرية ، وحاول بعضهم إنشاء فروع لهم فى الخارج ، ونشر المطبوعات والمنشورات الثورية . وكانت كل هذه وسائل لنشر الدعاية الثورية .

وأكد الكثير للفرنسيين إمكانية إعتمادهم على أنصار الثورة فى كل البلاد، ولكن أعداد هؤلاء كانت بسيطة ، وبخاصة فى أوربا الشرقية . ولقد تحركت الجماهير فى منطقة الراين ، وأثرت المجاعة على المدن ، وضاعت سلطة الأقليات الحاكمة، وأخذ الأهالى فى الامتناع عن دفع الضرائب . وكان من السهل أن يستمر التوسع الثورى فى ألمانيا، فى حالة نشوب الثورة فى بلجيكا فى سويسرا. ولقد نشبت الثورة فى ليبج بعد وصول أنباء سقوط الباستيل إليها، فحرر العمال والفلاحون أنفسهم ، وظهر أن هذه الامارة ستضع نفسها تلقائيا إلى جوار الثورة الفرنسية. وشجعت هذه العملية البلجيكيين على الاستمرار فى مقاومة الامبراطور. وإضطر النبلاء إلى أن يطلبوا العون من إنجلترا، ومن بروسيا، وحتى من النمسا ، وهى الأقاليم التى كانت تخضع للأرستقراطية . ولكن سرعان ما ثارت بروكسل وغيرها، وإضطر النمسويون إلى إخلاء الأقاليم البلجيكية. وامتدت عملية المد الثورى إلى بعض كانتونات سويسرا نفسها، وبخاصة فى بال وفى زيورخ وجنيف.

كما تسبب نقص المواد الغذائية فى ظهور الإضطرابات فى سافوا . أما إيطاليا فكانت متزوعة السلاح، وأخذت حركة رد الفعل فى التزايد فى المانيا وفى إنجلترا. وكان كل هذا يمثل خطرا ثوريا على النظم الأوربية الأرستقراطية ، وعلى مصالح الأمراء والملوك ويظهر الثورة الفرنسية كبقعة من النار تمتد وتنتشر فيما حولها، وشعروا أنه من اللازم عليهم، إن لم يكن اطفائها، فعلى الأقل منع انتشارها إلى خارج حدودها.

وكانت هناك الدعاية المضادة للثورة فى الخارج، وهى الدعاية التى نشرت الذعر بكل وسيلة ممكنة ، فذكروا أن الفرنسيين كانوا يتحملون طغيان تمارسه عليهم حفنة من المجرمين بكل صبر ممكن، ويؤكدون أن القوات النظامية ستتمكن من الوصول إلى باريس دون أية عقبة ، وكانت هذه العناصر تلعب فى الخارج دورا مشابها لدور اللاجئين السياسيين فى فرنسا.

وكانت ردود الفعل مختلفة من إقليم لآخر فبعد خروج النمسويين من الأراضى المنخفضة ، أعلن الوطنيون المساواة فى الحقوق ، وإصلاح المجالس الاقليمية عن طريق مضاعفة عدد ممثلى الطبقة الثالثة وإنتخابهم، ودعوة مجلس عام للأقاليم. ولم تكن لديهم النية لمعاملة أرستقراطية الملاك، وبخاصة رجال الدين ، بنفس الطريقة التى أقدم عليها الفرنسيون . ثم أعلنوا فى ١٢ يناير ١٧٩٠ إستقلال « الولايات المتحدة البلجيكية » ، وأسلموا حكومتها لمؤتمر ، أو كونجرس ، يضم ممثلى مجالس طبقات الأمة فى الأقاليم . ولكن أعداء الثورة هناك اتصلوا بإنجلترا وبروسيا، وحتى فرنسا ولكن الثوار انقسموا على أنفسهم ، ثم ظهرت الإتهامات ضدهم ، وقامت مجموعات مسلحة بطردهم إلى فرنسا. وسمح هذا الوضع للقوات النمسوية بإعادة إحتلال بلجيكا فى نهاية سنة ١٧٩٠.

أما فى إنجلترا، فإن الكنيسة هى الى بدات بأخذ موقف الثورة، وتبعتها أرستقراطية ملاك الأراضى . ثم ظهرت كتابات بيرك بإسم « تأملات عن الثورة الفرنسية » والتى كانت إنجيل الثورة المضادة. وشرح أن المرسومات لاتكفى لإعطاء الرجال معنى الحرية ، ووضع حدا للتطور الإجتماعى ، وعلى أساس قدسية النظام الطبقى ، ووصف الثورة الفرنسية بأنها جهنمية ، وتحطم كل النظام الإجتماعى ، مادامت تهدم الطبقة الأرستقراطية . وفى ألمانيا أخذت بعض العناصر تصف التحولات التى تمت فى فرنسا بأنها إضطرابات ديماجوجية. وقاست الامبراطورية النمسوية من تمرد قام به المجريون ، الأمر الذى دفع الامبراطور إلى محاولة العمل على حماية أسرته ، والدفاع عن الطبقة الأرستقراطية. أما فى بقية الدول الكاثوليكية الأخرى ، فإن الحكومات قد أخذت موقف الدفاع. وظهر أنه من المتوقع أن يقول الملوك كلمتهم ، ويدافعون عن مصالحهم الخاصة .

وكانت هناك مسألة مطروحة . طرحها المهاجرون علنا، وطلب لوى السادس عشر إلى الملوك سرا أن يبدأوا فى العمل ، أنها مسألة الالتجاء للخارج لطلب العون. وفى تورنو كان الكونت دارتوا قا طالب مساعدة ملك سردينيا، وأرسل مندوبين عنه إلى روما وإلى مدريد ، وكان يطالب بالمعونات ، ويطالب كذلك بتدخل عسكرى لتأييد حركات التمرد الى كانت قد ظهرت فى جنوب فرنسا .

وبدا أن لوى السادس عشر قد خضع للثوار ، فأخذ النبلاء المهاجرون يظهرون احتقارهم تجاهه ، والواقع أنه كان يخشى من فكرة وقوع يوم جديد، فأجبر نفسه على أن يظهر غير مايبطن ، الأمر الذى قضى على نفوذه . واتصل لوى السادس عشر ببلاط مدريد لمعرفة ما يمكنه أن يقدمه له من تأييد ، ومن أموال ، وأرسل نفس المندوب إلى

إمبراطور النمسا ، والذى كان أحد أخوة مارى أنطوانيت . ولكن المندوب لم يحصل إلا على بعض الوعود . وكان هناك تضارب بين طريقة عمل لوى السادس عشر ، وطريقة عمل النبلاء المهاجرين ، فاتهمهم الملك بأنهم قد تخلوا عنه وأساؤا إلى أمتهم ، بقيامهم بعمليات جريئة ، وقبل الأوان . وكان لوى السادس عشر يفضل عملية إتفاق الدول، لاجبار المجلس على إعادة النظر فى المرسومات التى أصدرها، وفى صالح الملك ، خاصة وأنه كان فى وسع هذه الدول أن تدعم تهديداتها بمظاهرة حربية على الحدود . ولكنه كان يصر على أنه لم يطلب دخول القوات الاجنبية إلى فرنسا . ورغم انه كان لايوافق على دفع ثمن المعونة ، الا أنه وافق فى سنة ١٧٩١ على أن يعرض على إنجلترا جزءا من المستعمرات .

وكان الملوك موزعين بين إتجاهاتهم : فكانت كاترين الثانية قد أظهرت غيرة كبيرة للقيام بحملة صليبية للقضاء على الفوضى الفرنسية، الأمر الذى سيعطى مجدا دائما لروسيا. وكان هذا هو كذلك رأى ملك السويد. وكان ملك سردينيا، والبابا قد وافقا على وجهات نظر كونت دارتوا. وعرض فردريك وليام ملك بروسيا قوات الفرسان . وصرح بأنه سيساعد ملك فرنسا ولكن إمبراطور النمسا، أخو الملكة ، فإنه أظهر عزوفا عن التفاهم مع المهاجرين، وكان مضطرا إلى إعادة غزو بلجيكا، وإلى تهدئة المجر وإلى إنهاء الحرب مع تركيا، الأمر الذى جعله يفكر فى الاهتمام بشئونه قبل الاهتمام بشئون لوى السادس عشر . ولقد اتهمت الملكة أخاها بالأنانية وقصر النظر. أما لوى السادس عشر فإنه كان قد عقد العزم على الهرب ، واتصل بالقائد العسكرى فى ميتز ، لاتخاذ الاجراءات اللازمة لاستقباله .

٢- هروب الملك وإعلان الحرب على النمسا :

يعتبر هروب لوى السادس عشر إحدى الوقائع الأساسية بالنسبة لتاريخ أوربا وتاريخ الثورة . وكانت الثورة تعرف أن الملوك معادين لها، ولكن هؤلاء الملوك كانوا مشغولين بمسائل أخرى ، الأمر الذى سمح ببعض الوقت للثورة، لكى تستمر فى عملها. وتسببت محاولة لوى السادس عشر فى سرعة وقوع الصدام . ونتج عنها سقوط الملك .

وكان الكثيرون من رجال الثورة يتنبأون بأن الملك سيحاول الفرار، وكان هذا سببا لأحكام الحراسة حول لوى السادس عشر . وعلى أى حال فلقد تمكن الملك من الخروج من قصر التويليرى يوم ٢٠ يونيو سنة ١٧٩١ ، ونقلته عربة كبيرة وفخمة ، هو وأسرته ، صوب شالون ، تمهيدا لوصوله إلى مونميدى . وتأخرت العربة لمدة خمس ساعات ، وكانت الجماهير متيقظة ، وحينما وصل الملك ليلا إلى تلال فارين ، لم يجد العربة والجياد الجديدة اللازمة لمواصلة السفر ، وتوقف هناك ، فكانت الكارثة .

ولم يحاول الملك أن يختبىء ، وتقدم رئيس النقطة وسبق العربة إلى إحدى القناطر ، وحين وصل الملك إليها أوقفه الجنود ، وفى الصباح وصل مندوب لافايت ومعهم مرسومات المجلس ، فكان من اللازم أن يعود، وكانت العودة محزنة ، وسط الجماهير المهددة . وفى ٢٥ يونيو عادت الأسرة المالكة إلى قصر التويليرى فى حراسة مشددة .

واحتفظ المجلس بهدوئه ، فأوقف الملك ، وحرمه من حق الاعتراض ، وأعلن مسئولية الوزراء أمامه ، مما يدل على أنه قد أخذ فى تنظيم فرنسا على أنها جمهورية . ولكن مشاعر الفرنسيين اهتزت فى

كل مكان . وحتى فى أقصى الريف . ولم يكن هناك أحد يشك فى أن هروب الملك كان يعنى غزو فرنسا: فتحصنت القلاع والمراكز العسكرية الهامة على طول الحدود وأعلنت حالة الطوارىء . وقرر المجلس أخذ ١٦٩ كتيبة من الحرس الوطنى ، وإرسالها صوب الحدود . وسادت حالة من الذعر ، تسببت فى نتائج سريعة . ولم تستمر فرحة الأرستقراطيين لفترة طويلة ، ولم تكتمل ، وتحولت إلى رد فعل عقابى : فاعتدى الأهالى على كثير من النبلاء، ورجال الدين الذين كانوا قد رفضوا تأدية القسم للدستور، وأحرقوا عددا من القصور . ثم أستداروا فجأة صوب الملك ، لكى يحتفظوا به كرهينة فى أيديهم .

أما فى باريس فإن خبر هروبه قد أثار ضده عاصفة من الهجوم، كانت فى منتهى الخشونة . وزاد حماس الجمهوريين ، الذين أعتبروا أنهم قد أصبحوا أحرارا فى نهاية الأمر ، بعد أن تخلصوا من الملك ، وكانوا يأملون في السيطرة على الديمقراطيين، وطلبوا إلى المجلس التأسيسى أن يعلن الجمهورية وزاد انضمام الأعضاء إلى فكرة الجمهورية ، ووافقت بعض النوادى فى الأقاليم على هذه الفكرة، ولكن عودة الملك ، وموقف مجلس عملت على إلغاء هذه الحركة ، خاصة وأن الديمقراطيين لم يوافقوا على هذا الاتجاه : فكان روبسبير لايوافق على إنشاء الجمهورية بدون عمل إستفتاء عام ، خاصة وأن لافايت كان هو الذى سيصبح رئيسا لها. أما مارا فإنه كان يواصل المطالبة بإنشاء ديكتاتورية .

ومع هذا الانقسام فى الرأى ، كانت الجماهير بدون سلاح ، ولم تكن هناك إمكانية لإحداث ثورة خاصة وأن الحرس الوطنى ، والذى كان قد أصبح بورجوازيا تماما، قد أظهر عداءه لما سماهم بالمشاغبين، وهم الجماهير الثورية. ولكن ذلك لم يمنع من حدوث مظاهرات ضخمة

ومن تجميد عمال الورش الصناعية، الذين كانوا قد فصلوا من أعمالهم . وكانت ألفاظهم مهددة. وصمم لافايت على أعطائهم درس قاسى، فرفع العلم الاحمر، وغزا الحرس الوطنى ساحة مارس ، وأطلق النيران : فقتل عدد من الجماهير الى كانت تصر على تقديم الالتماسات ، وجرح كثيرون غيرهم . ومع ذلك فقد اتهموهم بالتآمر ، وملأوا بهم السجون، ومنعوا الصحف الديمقراطية من الظهور، وأقفلوا النوادى السياسية . وحتى الحزب الوطنى أنقسم على نفسه، بين الدستوريين ورجال البورجوازية الذين قنعوا بما قاموا به حتى الآن ، وأظهروا ضرورة العمل على المحافظة عليه ، وبين الديمقراطيين ، الذين سيزداد نفوذ الجمهوريين بينهم بإستمرار . وكانت الدماء الى سالت ، والارهاب الذى وقع ، قد حدث تحت العلم المثلث بالألوان .

ولقد أثارت عملية القاء القبض على الملك المشاعر فى كل أوربا ، وأثرت فى معنى الولاء الذى كان موجودا تجاه الملوك فى كل دولة، وفكر الملوك فى المسألة، الى اعتبروها سابقة خطيرة ورهيبة ، واحتجت إسبانيا ، واتجهت الأنظار صوب الأمبراطور، الذى اقترح على ملوك أوربا ضرورة الأتفاق من أجل إنقاذ الأسرة المالكة ، والنظام الملكى فى فرنسا، وأسرع بعقد الصلح مع الأتراك. وثارت ثائرة الدايت الذى طالب بالتدخل فى صالح النبلاء. واتفق الأمبراطور مع ملك بروسيا . وكان كل ذلك تمهيدا للتدخل . ولكن حقيقة الأمر أن ملك إنجلترا قد أظهر أنه سيحتفظ بالحياد، أما ملك إسبانيا وملك سردينيا فكان كل منهما يرغب فى عدم تلقى الضربة الأولى ، ويفضل أن تبدأ النمسا الحرب، وكانت كاترين الثانية وملك السويد هما أشد الملوك حماسا للحرب . ولكن الجيش الروسى كان سيحتل بولندا كلها قبل أن يصل إلى فرنسا، وكانت هذه العملية تثير مخاوف بروسيا. ولذلك فإن

فردريك وليام أعلن لإمبراطور النمسا أنه لايمكنه التحرك قبل أن يضمن موقف روسيا من بولندا فكانت المسألة البولندية في الواقع هي هدف المتحمسين في شرق أورباوشمالها ، أكثر من مصير ملك فرنسا. وأدى ذلك إلى أن يقوم كل من إمبراطور النمسا وملك بروسيا بنشر بلاغ في ٢٧ أغسطس ينص على أن أمر إعادة إستتباب النظام في فرنسا يمثل مصلحة أوربا كلها ، فلذلك فإنهم يدعون بقية الملوك إلى ضم قواتهم إليهم، وعندئذ وفي هذه الحالة ، سيبدأون العمل. وانتشر خبر هذا البلاغ الذي صدر في ١٢ نوفمبر والمعروف باسم بلاغ بلميث، والذي دعا الملوك إلى ضرورة الأتفاق ، وبشكل جعل الرأي العام يعتقد أن الدول الأوربية كانت تستعد للقيام بالعمليات الحربية في فصل الربيع .

وفي هذا الوقت شاهد الجناح اليساري للثورة ظهور رجال جدد ، أثروا في مسارها بشكل حاسم في شهر يونيو ١٧٩٢، وأعطوا فرنسا أهم رجال ونواب الجيروند . وكان هذا الجيل الثوري الثاني ، الذي فتح الدستوريون الطريق أمامه، بمنع إعادة إنتخاب أعضاء المجلس التشريعي ، يشتمل على رجال غالبيتهم من صغار البرجوازية ، وكانوا متعلمين ، ولكنهم كانوا فقراء ، وكان الكثير من بينهم يفكر في الرفاهية، وسحر الصالونات ، وامتزجوا مع بورجوازية الأعمال من أصحاب السفن والمصارف والتجار ، الذين كانوا يرغبون في القضاء على الثورة المضادة حتى تعود للعملة الورقية قيمتها. وكان الجيروند يقبلون الديمقراطية السياسة، ولكن ميولهم وصلاتهم كانت تدفعهم إلى المطالبة بضرورة إحترام الثروات ، وضرورة الأعتراف بالكفاءات . وكانت طريقتهم تتلخص في تركيز الهجوم على أعداء الثورة، سواء

المهـاجرين ، أو من رفض القـسم بالولاء للدستـور . ولكن هجـمات الجيروند زادت ، وساعدت على زيادة تسخين الرأى العام ، وفى تحويله ضد النمسا. وكـانوا يأملون فى الحصول على شعبيـة كبيرة، وفى وضع الملك فى مأزق وفى تحرير الثورة من تلك الشكوك الى كانت تحيط بها. وكل ذلك كـتمـهيـد لفـرض وزراء وطنيين ، يقـومـون بالوصـول إلى الحرب .

وكان إتجـاه الجيـروند قد وصل إلى ضـرورة إنشاء ثلاثة جـيوش يكون إحداها بقـيادة لافايت، ولكن اليـسار هاجم هذه العـملية ، التى تتلخص فى إرسال الجيوش خـارج فرنسا. فاعترض عليها روبسـبيير ، وأعلن فى خطبـته إلى اليعـاقبـة وقوفه ضـد الحـرب ، وأيده فى ذلك دانتون ، وبـعض الصحف ، وأظهـر المخاطر بكل وضـوح : مقـاومة الشعوب ضد العمليات المسلحة ، وحـتمية ظهور الديكتاتورية ، وزيادة الأعباء الضرائبـية ، وخمود الهمم ، ثم الملل . ومع ذلك فـإن سياسة الجيروند كـانت براقةوإجتـذبتالكثـيرين من الوطنيين ، وأدى ذلك إلى إنخفاض شعـبية روبسبيير بشكل واضح ، خاصـة وأن الجيروند أظهروا مسألة الحرب على أنهـا حرب دفاعية ومثاليـة ، وظهروا وكأنهم يمثلون الأمة فى شبابها، وهى مليئة بالقـوة من أجل التحرر ومعتزة بمنح أخواتها الحرية . ولكن الجيرونـد ظهر ضعفهم عند التنفيـذ، خاصة وأنهم كانوا يرغبون فى الوصول ، عن طريق الحرب إلى كشف الخونة ، وإستخدام المقصلة بلاهوادة فى رقابهم .

وتم التفـاهم ، ثم التحـالف ، بين بروسيا والنـمسا، واقـترحت النمسا على بروسيا أمر القيام بهجوم ثنائى ، تقدم فيه كل دولة ٥٠ ألف رجل ، يبدأ ستة آلاف منهم فى التحرك فورا، ثم يطلبون إلى فرنسا أن تعيد إلى الأمراء الألمان وللبـابا ممتلكاتهم، وأن ترسل الأسرة الملكية إلى

مكان آمن ، وتضمن الشكل الملكى لحكومتها. ووافقت بروسيا على ذلك كما طالبت بضرورة منع مظاهرات اليعاقبه ، الأمر الذى يجعل الحرب أكثر تأكيدا. ووضع دوق برنزويك خطة الحملة ، وأرسل مندوبا إلى فينا ، وفى ذلك الوقت وصل فرانسوا الثانى إلى العرش فى فينا، بعد وفاة والده ليوبولد فى أول مارس ، وكان هذا يعنى الإسراع فى الوصول إلى الصدام : فكانت تنقصه حكمة والده ، وكان يوافق على التدخل فى فرنسا بدون أى تحفظات .

ولكن الثورة سبقت بالعمل ، وأعلنت يوم ٢٥ مارس الحرب ، كما أعلنت البدء فى غزو بلجيكا، وكان معنى إرسال الجزء الأكبر من القوات النمسوية إلى بلجيكا لمواجهة الغزو الفرنسى هناك ، بقاء ١٥ ألف جندى نمسوى فقط للهجوم على حدود فرنسا، الأمر الذى سيجعل البروسيين فى هذا الحملة المشتركة ، يدافعون عن النمسا ضد فرنسا. فأخرت النمسا موعد هجومها على فرنسا، وأعطت بذلك ثلاثة أشهر من الراحة للفرنسيين .

ولكن العملية إستمرت : فبإسراع الألمان صوب الغرب ، سلموا بولندا لكاترين الثانية. وقرر ملك بروسيا أنه سيحصل على تكاليف حملته الموجهة ضد فرنسا، وخزانتها خاوية . ومن بولند والأمر الذى يشركه مع كاترين الثانية، ويضمن مصالحه المالية والاقليمية المباشرة . أما النمسا فكانت هى التى ستواجه كل مخاطر الحرب، وسيكون موقعها فى غاية السوء فى حالة إنسحاب الخمسين ألف جندى بروسى من جانب ما بقى لها من القوات على حدود فرنسا الشرقية، وعددهم ١٥ ألف فقط ، بعد إرسالها بقية القوات إلى بلجيكا. وهكذا دخلوا الحرب دون أن يتفقوا على خطة عمل ، ولا على أهداف الحرب، ودون وضع معاهدة تسوى مسألة التعويضات. ورجع ذلك إلى أن الحلفاء لم

يعتقدوا ، حتى فالمى ، فى إمكانية مقاومة الفرنسيين لهم ، ولا فى أن الحرب ستكون طويلة المدى. وأرجع البعض المسئولية فى ذلك للجيروند ، ولعدم تعمقهم فى السياسة ، وكانوا قد واجهوا سياسة أوربية عنيفة . وأخيرا وافقت الجمعية التشريعية ، فى ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٢ ، على أعلان الحرب على ملك بوهيميا والمجر أى على النمسا وحدها دون بقية الإمبراطورية.

٣- الثورة الفرنسية الثانية سنة ١٧٩٢:

على العكس مما تنبأ به الجميع ، من أن هذه الحرب ستكون قصيرة المدى، فإنها قد إستمرت، وفى أطوار مختلفة حتى سنة ١٨١٥ . وظهرت آثارها الأولى فى فرنسا قبل ظهورها فى الدول الأخرى: وتمثلت هذه الآثار فى سقوط الملكية، وظهور الديمقراطية السياسية .

ويمكننا أن نبدأ عمليات هذه الحرب مع ديمورييه ، الذى احتفظ بمنصب وزير الخارجية ، وكان يعتبر نفسه على أنه دبلوماسى. وكان يفتخر بأنه سيعمل على عزل النمسا، وبأنه سيثير بلجيكا، التى لم يكن للنمسا فيها سوى ٤٠ ألف رجل ، ثم يقوم بعد ذلك ، وبدون أن يحارب كثيرا، بالتوقيع على الصلح . واهتم ديمورييه كثيرا بالدعاية، كما قام بإنشاء فرق عسكرية أجنبية من البلجيكيين وبعض العناصر الألمانية ، ومن الهولنديين ، وأبناء سافوا. ولكن الجيش لم يكن مستعدا، وعجزت القوات فى خط النار عن أن تعوض النقص الذى كان يحدث فى صفوفها، ولم تكن قد أتمت تنظيمها. أما المعدات، الى كانت السلطات المحلية تقوم بتوزيعها، فإنها كانت تتأخر . وكانت الأسلحة ناقصة، مثل نقص التدريب للرجال. وكان يعتقد أن كبار الضباط سيحصلون على الخبرة من الحرب نفسها ومن المعارك. وكان

يعتقد أن قوات الأعداء ، من البحر حتى اللورين ،لن تزيد عن ٣٠ ألف رجل، ورأى أن يضع أمامها ٥٠ ألف فرنسى ، ورأى أنهم سيتمكنون من اختراق هذا النطاق . ولكن بمجرد رؤية النمسويين ، فى يوم ٣٠ أبريل سنة ١٧٩٢ أمر قائدان فرنسيان قواتهما بالإنسحاب، وصرخ الرجال معلنين الخيانة ، ثم تفرقوا ، وانسحب قائدان آخران دون أن يروا العدو. أما جيش الراين فإنه لم يتحرك من مواقعه ثم إجتمع قادة الجيوش وأعلنوا استحالة القيام بعملية هجومية ، واتفقوا على أن ينصحوا بعقد صلح سريع وهكذا كان الفشل العسكرى كاملا.

وتزايدت الإثارة ، نتيجة لدعاية الجيروند ، وعبر عن ذلك روجيه دى ليل بنشيده « أغنية الحرب لجيش الراين » الذى سيصبح فيما بعد هو السلام الوطنى للجمهورية . وسرت روح بالتعاظم أمام الأعداء ، وبرفع الشعور الوطنى ، ونسبة الهزائم للخيانة وظهرت المؤامرة الأرستقراطية فى أبشع صورها، فقامت عملية رد فعل دفاعى وعقابى ، قام بها اليعاقبة فى جنوب فرنسا حتى أصبحت مرسيليا أملا للثوار والديمقراطيين وأخذ العمل الثورى مظهرا إجتماعيا بين الطبقات الشعبية ، الأمر الذى زاد من قلق البورجوازية ، ففرضت الضرائب على الأغنياء من أجل إعداد المتطوعين ، وإذا كانت الثورة الزراعية قد ظلت كامنة ، فإنها اشتعلت من جديد فى بعض المناطق، وطالبوا للسادة بإظهار الوثائق التى تثبت ملكيتهم لزرض . وأصبحت الأزمة الإقتصادية طاحنة ، وبخاصة على الجماهير والطبقة الشعبية ، وكان هذا كافيا لإثارة العمال الذين لم يحصلوا على أى زيادة فى أجورهم . وشحت السلع من الأسواق، وخرج الأهالى يسيرون مسافات طويلة للحصول على القمح الذى ينقل فى السفن . وزادت الحرب من خطورة الموقف بإستيلائها على الخيول والبغال ، فاضطرب النقل فى الوقت الذى أدى

فيه توريد المـواد اللازمة للقوات المسلحة إلى تقليل السلـع المعروضة فى الأسواق ، ورفع أثمانها. وإرتفـعت أصوات من باريس بضرورة الحكم بالإعدام على المستغلين . ورغم الدعاية التى نشرها الجيروند فإنهم كانوا فى الحكم ومتحالفين مع البورجوازية، وتتكامل مصالحهم معها، خاصة وأنهم كانوا من أنصار الحـرية الإقتصادية المطلقة . ولهذا فـشل الجيروند وسقطت وزارة ديموربيه .

وفى ليلة ٩ أغـسطس سـرى الخوف من إمكانيـة وقـوع مؤامـرة إرستقراطية ضد الثوار . فتحول الخوف من جديد إلى رد فعل دفاعى . وتجمعـت الأقسام وعجـز الحرس الوطنى فى قصر التلويلرى عن تفريق الثوار . وفـتح الثوار النار على السـويسريين ، وقتـلوا عددا كبـيرا من المدافعين عـن القصر . وكـان نفس هذا اليوم هو الذى إنتـهى فيـه أمر المجلس التشريعى . وسيطر الكوميون على باريس ، وكان روبسبيير من بين أعضائه. ولم يخلـعوا لوى السادس عشر ، بل أوقـفوه ، وسجنوه مع أسرته فى سـجن المعبد. وعينوا مجـلسا تنفيذيا مـؤقتا. والواقع أن ثورة ١٠ أغسطس ، أو الثـورة الثانية ، هى التى جاءت بالجـمهورية ، وإن كانت لم تحصل على الموافـقة الحماسيـة، وشبه الإجماعـيه للأمـة مـثل الثـورة الأولى سنة ١٧٨٩. وهذه المـرة ، فى ١٠ أغـسطس سنة ١٧٩٢، كانوا مصممين على القضـاء على الثورة المضادة بكل الوسائل : فبـدأ الإرهاب ، حتى وإن كـان قد ظل بلا تنظيم ، وإحـتاج إلى لجنة الأمن العام .

وفـرض المنتصـرون ديكتـاتوريتـهم ، وألغى الكومـيون صـحف المعـارضة ،وأنشـأ المتاريس ، وقـام بزيارات منزليـة ، وأسر عـدد من المنشقين ومن كـبار الأرسـتقراطيين . وسـمح فى اليوم التـالى للبلديات بالقـاء القـبض على المشبـوهين وكـان المتطوعـون هم أكـثر من أظهـر

إستعداد. لتنفيذ الأحكام توا . وفى باريس زادت رغبة الإنتقام من خطورة الموقف وهدد الثوار ، بقتل المساجين إذا لم يحاكموا بسرعة أمام محكمة شعبية، الأمر الذى تقرر يوم ١٧ أغسطس وبعد معرفة الناس بأخبار الغزو ، أصبح القتل يسيطر على التفكير. وظهرت إقتراحات متطرفة كالإحتفاظ بنساء المهاجرين وأطفالهم كرهينة، وإنشاء فرقة لقتل الطغاه ، تبدأ بالأسرة المالكة ، وأوصى آخرون بالتخلص من الارستقراطية بمذبحة ، كوسيلة لإنقاذ الثورة .

وفى ٢ سبتمبر وصلت الأنباء بأن فردان محاصران ، فانتشرت الإشاعة بأن المسجونين يثورون بعد خروجهم وينتقموا من المواطنين ، وكانت هناك أحداث هرب فيها بعض المساجين فبدؤا بعملية لنقل بعض المساجين من سجن إلى آخر ، وأدى ذلك إلى قيام الجماهير الواقفة أمام السجن بقتلهم خوفا من وصول أعدائهم الأجانب إلى العاصمة. وبدأت بعض التجمهرات فى زيادة السجون لتنفيذ قتل المسجونين ، وزادت السجون ، وأنشأت محاكم شعبية ، وبدأت فى تنفيذ الأحكام توا، وكانت كلها بالإعدام . وإستمر ذلك حتى يوم ٦ سبتمبر ولم يتقدم أحد فوقف هذا التيار وخشى الجيروند على أنفسهم، بعد أن إزدادت الشبهات حولهم ، فآثروا الصمت، وتخضبت أرض باريس والأقاليم بدماء الذين حكم عليهم بالإعدام ، والذى كان عددهم يتراوح بين ١٠٩٠ ، ١٣٩٥ . وطلبت باريس إلى الأقاليم المجىء والمشاركة فى الدفاع عنها، والتخلص قبل سفرهم من عناصر الثورة المضادة .

وزاد الأرهاب من اظهار النتائج السياسية والدينية والاجتماعية ليوم ١٠ أغسطس . ولم يعد فى وسع أحد يدافع عن الملكية بعد ذلك. وفى يوم ٤ سبتمبر طلب المجلس التشريعى أن يقوم الوفاق ، أو الجمعية التأسيسية بإلغائها. وأخذت هذه القرارات بالمناداة على النواب بالأسم .

وصدرت القــرارات باغلق الأديرة ، والجمــاعات الدينيــة ، حتى التى كانت تعمل فى مــيادين التعليم والتمريض . وأجــبر رجال الدين على القســم بالولاء للدســتــور . وتم التصــويت على علمــانية الحــالة المدنية ، وعلى الموافــقة على الطلاق . فصــرح بإعادة تزويج المطلقين ، كــما صــرح بزواج رجــال الدين وألغــيت ميــزات الســادة، وبدون أي تعويض، إلا فى حالة تقــديم الوثائق الأصلية الي تثبتــها. وسهلوا على البروليتاريا الزراعية أمر الحصول على الأراضى من الممتلكات المصادرة ، فقسمت بينهم. وقضى الأرهاب على قوة المشتــبه فيهم وضمن خضوع الجميع .

وسمحت عمليات المصادرة ، وفرض الضرائب ، بالحصول على السلاح اللازم لــلجيوش ، وتخــفيف العبء على المصــروفات العــامة، وتدعيم الأمن العام . وتمكن الكوميــون مع المجلس ، من إستدعاء ٣٠ ألف رجل إلى مــشارف باريس ، وأرسلوا الكتــائب إلى الحــدود وكان يحتاج لبعض الوقت حتى تعــطى هذه المجهودات ثمارها، ولكن الدفاع الوطنى أخذ دفعة قوية ، تمكــن بها من تزويد البلجيكيين بما يلزمهم من الرجال .

ولكن علينا أن نذكــر هذه القفــزة الشعــبية مع الأرهــاب، كانت وسائل مؤقــتة ضد الخطر ، وكان عليها أن تنتــهى بعد النصر. وأعطت فالمي الأشارة لنهاية حالة الذعر والقلق. وكان الجيروند ينتظرون اللحظة المناســبة للأخــذ بثأرهم: وكــانت والمذابح ، وعــمليات الاســتيــلاء ، والتصريحــات ذات اللون الاشتراكى تخفــيف البورجوازية : فتــجمعت وراء الجيروند ، وسيــمهد ذلك ، ومنذ ١٣ سبتمبــر ، لمهاجمة مندوبى الكوميــون ، الذى أضطر إلى التراجــع . وستــجمع هذه القــوى ضد أعــضاء « الجــبل » وضد دانــتون ، وروبســبيــر ، لاتهام « الجــبل »

ولاستعادة السلطة منه . .

٤- رد الفعل الثورى : فالمى وجيماب :

سمح عدم تحرك الفرنسيين لكل من البروسيين والنمسويين بأن يكملوا إستعدادتهم العسكرية فى هدوء . ولكن المتكتلين لم يتمكنوا من الإفادة من هذه المهلة ، فأعطى بطئهم الوقت الكافى للجمهوريين لكى يتخلصوا من الملك ، كما أن خلافاتهم سمحت لجيوش الجمهورية بأن تتحول إلى الهجوم .

وبدأت كاترين الثانية للعمل بأصدار أوامرها لمائة ألف روسى بعبور الحدود إلى بولندا، التى تمكنوا من إحتلالها كلها. وفوجىء البروسيون والنمسويون ، خاصة وأنه كان على كاترين الثانية أن تتفق معهم قبل هذه العملية. وكانت هناك مسألة الوراثة ، الأمر الذى استدعى التباحث بشأن التعويضات بين النمسا وبروسيا. ولقد إستمرت المناقشة فى هذا الموضوع. وكانت من العقبات الى تقف فى سبيل التفاهم التام بين النمسا وبروسيا تجاه الثورة فى فرنسا.

ولم تظهر هذه الحرب أمام الألمان أو الإيطاليين على أنها حرب قومية ، بل رؤي فيها حربا بين الطبقات أو بين الأيديولوجيات، ورأى فيها أمراؤهم حربا سياسية . وإذا كانت الرجعية قد انتصرت فى المانيا، فإن أعداد أنصار الثورة لم تقل، كما أن عزيمتهم لم تضعف ، وبخاصة فى إقليم الراين ، وعارضوا سياسة التدخل ، وتنبأوا بانتصار اليعاقبة ، وتسببت عزائم الفرنسيين ، التى وقعت فى شهر أبريل، فى خيبة أمل كبيرة لديهم .

ولكن النمسا وبروسيا لم تفكرا فى الإشتراك بكل قواتهما، والتى بلغت رسميا ٢٢٣ ألف و ١٧١ ألف رجل على التوالى . ولم يأتمر

دوق برانزويك إلا على مائة ألف رجل ، ومع ذلك فقد كان الجنود البروسيون أحسن جنود فى أوربا، من حيث الدقة الآلية فى تحركهم فى ميدان المعركة ، ومن حيث النظام . ولكن هذا الجيش البروسى لم يكن قد اشترك فى أية معرك ، ولذلك فإن هذا الطلاء الخارجى سيقع عنه وقت اشتداد الضرب . وظهرت له نقائض خطيرة : مثل ضعف المدفعية ، وعدم قدرة المهندسين ، وفقر الخدمات الطبية ، وخضوع الإدارات للروتين . وكان دوق برانزويك بطيئا فى حركته ، حتى لايقدم على مخاطرة ، تكون نتائجها وخيمة . أما فى فرنسا فقد كانوا يأملون فى أن يصبح الجيش وطنيا، ويتسلح بروح الوطنية الجياشة الواثقة فى الجماهير .

وكان على البروسيين أن يزحفوا صوب فردان ، ويفصلوا بذلك جيش ميتز عن جيش سيدان ، ثم يقومون بعد ذلك بالإستيلاء على المواقع التى تركوها فى الخلف ، ويستعدون بعد ذلك للزحف على باريس فى الربيع. وكانوا يعتقدون فى سهولة انتصارهم ويحتقرون الجيش الفرنسى ، الذى تضخمت أعداده بالمتطوعين . وعبر الجيش الحدود يوم ١٩ أغسطس سنة ١٧٩٢. ولكن الأمطار بدأت فى الهطول ، وحولت الحدود إلى مناطق مليئة بالوحل ، عرقلت حركة الجيش . وبعد ضرب بعض المواقع الصغيرة بالمدفعية تمكن من الأستيلاء على فردان يوم ٢ سبتمبر . وتراجعت الجيوش الفرنسية ، التى أصبحت كلها بقيادة دى مورييه. وكان دى مورييه قد شعر بعدم رضاء الجيروند عنه ، فأقدم على أعمال مجيدة فى معسكره ، وحصل من جديد على ثقة اليعاقبة . وكان يفكر فى ضرورة الدخول الي بلجيكا. حتى يجبر النمسويين والبروسيين على الاتجاه إليه ، لإنقاذ أعوانهم هناك . ولكن باريس كانت تنادى بضرورة تغطيتها، خاصة وأنه كان فى وسع

البروسيين فى هذه الحالة أن يدخلوا باريس . فأضطر دى موريبه أن يغير خطته وأن يقف فى وجه القوات النمسوية البروسية الزاحفة . وفى ٢٠ سبتمبر ، وصلت قوات البروسيين إلى مرتفعات فالمى ، وبدأ أشتباك عنيف بالمدفعية ، وحافظ الفرنسيون على تماسكهم ، وزادوا من كمية نيرانهم ، فاعتقدوا برانزويك أن العملية قد فشلت ، وأمر بالانسحاب. ولم تكن هذه المعركة موقعة كبيرة ، ومع ذلك فقد حصل الفرنسيون فيها على انتصار كبير ، انتصار معنوى للثورة ، وضع الوقت فى صالح الفرنسيين ، وضمن دخول الفوضى إلى صفوف أعدائهم .

وفى ذلك الوقت فكر دى موريبه فى ضرورة القيام بغزو بلجيكا، ولكن إعلان الجمهورية فى باريس قرر الموقف : فقطعت إنجلترا، وروسيا، وإسبانيا، وهولندا والبندقية ، علاقاتها مع فرنسا، وتسلحت الكانتونات السويسرية ، وقام أهالى برن باحتلال جنيف ، وكانوا يتوقعون هجوما من جانب سردينيا .

وزحف أحد الجيوش الفرنسية ، فسادت الفوضى بين النمسويين والبروسيين ، ثم تمكن برانزويك من الزحف وراءهم ، وظهر أن تقهقر الأعداء يمثل انتصارا واضحا للجمهورية الجديدة ، وتسبب فى وقوع إنتصار آخر .

وكان دوق ساكس تيش قد زحف من بلجيكا وضرب مدينة ليل بالمدفعية ، فجند مندوبوا الثورة الرجال ، وعبأوا قوات الحرس الوطنى . وفى ٦ نوفمبر ، قام دى موريبه ، الذى كان قد جمع ٤٠ ألف رجل ، بمهاجمة العدو أمام المدينة على مرتفعات جيماب التى انتزعها منهم ، فوقعت كل بلجيكا فى يديه ، واحتل إكس لاشابيل ، ووصل حتى روير .

وكانت جيمات ، وبصفتها صدى قوى لفالمى ، انتصارا ثوريا حقيقيا حصلت عليه ، وبهجوم من المواجهة ، وبدون تحركات معقدة ، جماهير الشعب التى زحف وجرت صوب الأعداء وهى تنشد المرسيلين ، وتغلبت عليهم بأعدادهم فأعطت فكرة ثورة الجماهير ، وفكرة الحرب الشعبية ، التى يمكن التغاضى فيها عن العلم والتنظيم . حقيقة أنه كان فى وسع القوات الفرنسية أن تضع القوات المهاجمة فى مصيدة . وأنها قامت بطردها ، بدلا من تحطيمها، ولكن قوة الثورة وإنطلاقها ظهرت مهددة ومنتصرة وزاحفة فى أراضى الأعداء .

٥- التكتل العام :

لاشك فى أن معركتى فالمى وجيماب قد عملا على هز التكتل ، وساد الخوف على بلجيكا، أكثر من الخوف من فرنسا ، ووقع عبء مهاجمة فرنسا على النمسا أكثر من وقوعه على بروسيا، التى أخذت تفكر فى نصيبها من التقسيم الثانى لبولندا، وفى علاقاتها مع كاترين الثانية ، كمشغولية أولى لها.

وإذا كانت الثورة المنتصرة قد كسبت الوقت ، فإنه كان فى وسعها كذلك أن تحصل على الصلح مع ذلك التكتل المقلقل، نظير رشبها إعادة المناطق الى كانت قد غزتها، وبشرط احترامهم لإستقلالها ، ولكن هذا الحل كان يتطلب مقاومة نشوة الإنتصار التى كانت تدفع إلى حرب الدعاية ، وإلى عمليات الضم ، كما كان يتطلب الإحتفاظ بلوى السادس عشر . وكانت هذه السياسة تستدعى إتفاق كل الجمهوريين. ولكن حكومة الوفاق ، الى كانت منقسمة على نفسها، عجزت عن أن تعطى السلام لأوربا .

وكانت الجمهورية قد أعلنت فى فرنسا بطريقة غير مباشرة ، لأن

فرنسا الثورية الى كانت قد أحاطت بلوى السادس عشر من أجل المحافظة على أمنها، قد إضطرت إلى ان تحكم نفسها بنفسها. ولم يكن الوفاق يمثل البلاد أصدق تمثيل وكان المجلس الجديد قد نبع من الأقلية التى كانت ترفض كل حل وسط ، وترفض التراجع أمام الأخطار. ولكن هذا المجلس التأسيسى ، والذى كان يمثل السيادة الوطنية ، كان يتمتع بكل السلطات ، وبدون تحديد ، وكان فى الواقع ، ويحكم القانون ، له سلطات ديكتاتورية . وتمكنت العناصر المتطرفة من أن تسيطر ، وسمحت لها الأحداث فى سنة ١٧٩٣، بأن تحرك فى نفس الوقت عناصر الجبل ، وأعضاء الاقسام ، لكى تضغط بهم على المجلس ، وسرعان ما ظهرت قياداتان داخل هذا المجلس ، هما الجيروند والجبل؛ وسرعان ما أخذا فى الصراع مع بعضهما. ولن تتأخر المعركة عن الوقوع .

وطلب الجيروند تأييد الإدارات المحلية التى كانت البورجوازية المعتدلة لاتزال متحصنة فيها، ضد الديكتاتورية المركزية. وكان إرتباطهم ببورجوازية الأعمال، وعدم اتصالهم بالشعب ، وإبتعادهم عن اليعاقبة، يجعل منهم أنصارا للحرية الإقتصادية ، وتخاصموا بهذه الطريقة مع الصغار ، الذين ثقلت الضرائب على كواهلهم ، منذ هذا الوقت أخذ الصدام شكلا اجتماعيا ، فتجمعت البورجوازية كلها تقريبا خلف الجيروند ، واتخذت اسمهم فى الوفاق وفى الأقاليم . وكان أنصار الجبل من نواب باريس ، يميلون بطبيعة الحال صوب الجماهير الموجودة فى الاقسام وكانوا يسيطرون على نوادى اليعاقبة ، ويتصلون بأعضائها ويدافعون عن وجهات نظرهم . ولما كانوا مهددين بالجيروند ، وشعروا بعدم قدرتهم على تطبيق الإجراءات التى كانت الحرب تتطلبها بكل شدة ، أخذوا وجهات النظر الشعبية، وترأسو اليسار الثورى المتطرف

وبين هذين الإتجاهين ، كان هناك الوسط ، المتذبذب ، والذى كان يمثل الأغلبية ، ورغم اعلانهم تصميمهم عن الدفاع عن الثورة وسلامة الأراضى ، فإنهم كانوا من الإنتهاريين . وكعناصر بورجوازية تماما ، كانوا فى حقيقة الأمر يخشون الشعب ، ولا يوافقون على العنف الدموى ، وكانت الحرية الاقتصادية عقيدة لهم ، ودفعت الظروف العسكرية ، والأخطار الى تواجه البلاد ، بعضهم إلى الإنضمام إلى حزب الجبل .

وظهر الجيروند ، فى أول الأمر ، على أنهم يسيطرون على الوفاق ، ولكن سياستهم زادت من حنق الطبقة الشعبية عليهم، وخصوصا عند طرح المناقشة عن تجارة الحبوب وخفض سعر العملة ، وفرض الضرائب ، وإبتعادهم عن عمليات الإستيلاء . حقيقة أنهم ناقشوا كذلك عملية تنظيم التعليم العام ، بطريقة علمانية ، وبالمجان وبالإلزام ، ولكنهم لم يصلوا فى هذا الميدان إلى نتيجة ، وكان الأساس وهو القمح، وارتفاع الأسعار، وغيرها من الشئون الإقتصادية، قد ظل بلا حل، وفى صالح الطبقة البورجوازية. وظهر أنهم يحاولون إنهاء الإجراءات الإستثنائية، كما ظهر أنهم يحاولون التفاهم مع إنجلترا، حتى بثمن إنقاذ حياة لوى السادس عشر، لكى يصلوا إلى انشاء ملكية دستورية. فى صالح دوق شارتر وفى نفس هذا الوقت عملوا على القضاء على خصومهم: ودفعوا دانتون صوب اليسار، بطلبهم إليهم تقديم حساب عن مصروفاته السرية . كما اتهموا مارا وروبسبير بأنهم يسعون إلى الديكتاتورية، وتعددت إتهاماتهم ضد الكوميون وكان عليهم أن يعرفوا أن محاربتهم للعناصر الشعبية الباريسية يهددهم بتعريضهم لخطر يوم جديد. وظهر أن لهذا الإتجاه بعض المخاطر ، فظهر حزب ثالث ، يسمونه حزب السهل ، أخذ اتجاها بين المجموعتين

المتصارعتين ، الأمر الذى هدأ الموقف لفترة من الوقت . ولكن سلطة الجيروند ضعفت نتيجة لانقسامها ونتيجة لمعاداتها لليعاقبة والعناصر الشعبية، وفى نفس الوقت عمل اليعاقبة على الإستيلاء على مجالس المقاطعات ، ووضعوا بعض عناصرهم الفعالة إلى جانب العمدة المعتدل فى كوميون باريس .

وكانت المسألة الحاسمة هى مسألة مصير الملك : فهل يعلن الوفاق أنه مذنب ؟ وفى حالة الرفض، سيكون أولئك الذين أنزلوه عن العرش هم المذنبين . وإذا ما إعترفوا بإدانة الملك، سيكون من الصعب على الوفاق عدم الحكم بالإعدام عليه، بعد أن استنجد بالدول الأجنبية وكانت العناصر الشعبية تعتبره مسئولا. ولكن الجيروند حاولوا منع طرح هذه المسألة. ومع ذلك فقد فتحت المناقشة فيها فى شهر نوفمبر ، وأحضروا لوى السادس عشر ، الذى أنكر، وتحصن خلف الدستور ودافع عنه محاميه ، ودفع بعدم اختصاص الوفاق ، وبعدم خضوع شخص الملك للمحاكمة. وحقيقة أن البعض شرح أن قتل الملك سيتسبب فى نشأة تكتل عام ضد الجمهورية، يضعها من جديد فى مواجهة الخطر. ولكن الفرصة كانت قد أفلتت ، خاصة وأن هذا الرأى جاء من جانب الجيروند، فى شهر يناير سنة ١٧٩٣، وكانوا قد نادوا، فى شهر نوفمبر ، بإستمرار الحرب حتى النهاية .

وبدأ التصويت فى ١٤ يناير ، وأعلنوا إدانته بالإجماع. ومن بين ٧٢١ عضوا، طالب ٣٧٨ نائبا بضرورة تطبيق الإعدام، وأعلن ٣٣٤ أنهم ضد هذا الحكم. ولكن ٢٦ ممن طالبوا بالإعدام اشترطوا بأن يكون ذلك مع إيقاف التنفيذ الأمر الذى أسقط أصواتهم، وقلل الأغلبية إلى نصف صوت . فأعيد الإقتراع على مسألة إيقاف التنفيذ التى رفضت بالأغلبية .

وفى صبيحة يوم ٢١ يناير صفف الكوميون كل رجال الحرس الوطنى على طول الطريق الذى سيسير فيه الملك حتى المقصلة: وأعدم لوى السادس عشر « فى ميدان الثورة » ، وأصيب الولاء للنظام الملكى بضربة قوية ، فأعدم الملك كما كان يعدم أى شخص عادى. ولكن هذه العملية زادت الحقد فى النفوس ، وجعلت أوربا تعلن حربا شعواء على قتلة الملك .

ورغم أن الجيروند كانوا يحاولون إجتناب قيام الديكتاتورية، ويدعون أنهم يعملون على إنقاذ الملك، الأمر الذى يستدعى استمرار السلم ، إلا أنهم كانوا هم حزب الحرب ، وحين وجدوا جماهير الشعب تنفض من حولهم عملوا على كسبها من جديد، ولوحوا لها بفكرة فرنسا التى تعمل من أجل تحرير العالم . ووقعت فى ذلك الوقت معركة جيماب ، فزادت الثقة والحماسة بلا حدود . ولم يحاول روبسبيير أن يقاوم التيار، ووافق الجميع على قرار شهير، يعطى الإخاء والمدد لكل الشعوب التى كانت ترغب فى استعادة حريتها، فتقرر المصير، وأصبحت الثورة قوة محاربة ، وتتحدى العالم . وكانوا يحيون تلك الجمهورية التى ستولد قريبا فى لندن ، ويعلنون أن حريهم ستظل مهددة مادام هناك أحد ملوك البربون على عرش اسبانيا، وفكروا حتى فى نشر الثورة فى أمريكا اللاتينية ، كما فكروا فى المانيا وإيطاليا، ورغبوا فى اشعال الثورة فى كل أوربا، وإنشاء نظام البلديات حتى فى روسيا. وأصبحت عملية التحرير تهدد بأن تتحول إلى عملية لغزو أوربا. وأدى ذلك، مع ماصحبه من دعاية إلى سرعة تطور الموقف فى بضعة أسابيع . وضموا سافوا، وفكروا فى ضرورة مصادرة ممتلكات رجال الدين والأمراء، وأعلنوا الحرب على القصور والسلم فى الأكواخ ، وأعلنوا أنهم سيقيمون، ديكتاتورية الأقلية الثورية ، بحماية

الخراب الفرنسية ، وسيحاولون جعل الشعوب سعيدة ، دون أن يأخذوا رأيها، وعلى نفقتها.

وكانت النتيجة مخيبة للآمال: فرفض الأهالى هذا الإتجاه، ثم تكون التكتل العام ضد فرنسا، ونزلت أولى الضربات بجيش الجمهورية ، الذى كان فى وسعه وحده أن يضمن نجاح هذه السياسة. ولم يتمكن الوفاق من أخذ قرار، بعد ستة أشهر من النقاش ، وبدأت الهزائم .

وقطعت العلاقات مع إنجلترا، ثم قطعت العلاقات مع دول الجنوب، وكان قتل الملك ، واتخاذ الإجراءات ضد رجال الدين ، أسبابا قوية بالنسبة لهذه الدول وكانت سياسة الجيروند مليئة بالمتناقضات . لأنها حاولت إعادة النظام الحر، وإنقاذ الملك ، والإحتفاظ بالسلم، ولكنها تسببت فى نشوب الحرب، وفشلت فى المحافظة على الملك، وفى عقد الصلح ، كما أنها أبعدت كل فرصة لتدعيم الإتحاد وذلك بعدائها لرجال حزب الجبل ولأبناء الشعب .

وإذا كانت غالبية الدول الأوربية قد أصبحت الآن فى حرب مع فرنسا، وفى هذا التكتل الأوربى من سنة ١٧٩٣ حتى سنة ١٧٩٥ ، فإن هذه الدول لم تكن قد إتحدت بعد. وكانت إنجلترا هى التى أنشأت التكتل ، ولكنها فشلت فى أن تبث فيه الحياة. ولم يتفق الحلفاء أبدا على أهداف الحرب الخاصة بهم ، وشتتوا قواتهم. وكانت بولندا، والحرب البحرية، والحرب فى المستعمرات ، تشغلهم بنفس الدرجة أو أكثر من انشغالهم بالهجوم القارى على فرنسا، وكانت النتيجة أن توقفت جيوشهم أو تقهقرت ، بعد حصولها على بعض النجاح، ثم تراجعت فى سنة ١٧٩٤ أمام الهجوم الثورى ،وكما حدث للتحالف

النمسوى البروسى ، بعد فالمى وجـيماب ، أصاب التفكك ذلك التكتل الأوربى .

٦- الحكومــة الثوريــة :

بمجرد أن أعلنت الثورة الحرب على أوربا، وجدت نفـسها مهددة بخطر الموت : تهديد خارجى ، وحرب أهلية ، وأزمة إقتصادية، وكان كل ذلك يدفـعهـا صوب الحـضيض. وكـانت تحلم بتـحرير العـالم ، فوجدت نفسهـا مطرودة عن بلجيكا، ومن أقاليم الراين ، وتكاد تهاجم فى بلادها، ومهـددة بطعن فاندى لهـا فى ظهرها. فـأجابت على ذلك بتنظيم الحكومة الثـورية ، التى كانت من الناحية الـقانونية نظاما مـؤقتا يترك مكانـة بمجرد وضع دستـور جديد ، ولكنهـا كانت كذلـك نظاما للحـرب ، يـهـدف الدفـاع عن الثـورة ، ضـد أعـدائهـــا الداخليين والخارجيين، بوسائل إستثنائية تحدد ، أو توقف ، تطبيق حقوق الأنسان والمواطن .

وكان الجيروند قد تـخلوا عن بعض وسائلهم، ولكن حزب الجبل عاد إلى هذه الوسائل وزاد عليها. وزاد ضعـف الحكومة، نتيجة [illegible] الانشقاقات أنضمام البعض لليـعاقبة. ورغم أن الوفاق كان قد أنشأ لجنة للدفاع العام فى شهر يناير سنة ١٧٩٣، إلا أن هذا الإجراء لم يدعم من سلطة الحكومة .

وظهر إتجاه لتطهير الوفاق ، وتم تجنيد ٣٠٠ ألف رجل ، للدفاع عن الوطن ، ولكن خيـانة دى مورييه ، ونشوب الحـرب الأهلية زادت من خوف الجمـهوريين . وساعدت هذه العـوامل، مع الخوف من خطر الغـزو الأجنبى ، على إتخاذ الـوفاق لإجـراءات استـثنائية مـتشـددة. وشكلت إدارات الأقاليم ،وتحـت ضغط اليعـاقبة، لجـان للأمن العام،

لتنظيم عمليــة التجنيد الجماعى ، لإتخـاذ إجراءات الأمن اللازمة . ثم إتخذ الجيـروند قرارات ضد مارا رئيس الوفاق ، لإصـدار منشورا يدعو فيه اليـعاقبة فى المقاطعات إلى المجىء إلى باريس وإنقـاذها. وقدم مارا أمام المحكمة الثورية. وطالب الجيـروند بتطبيق ذلك على رجال الجبل. فزاد الترابط بين رجـال الجبل وبين عامة الشعب ، كـانت سوء الأحوال الإقتصـادية تدفعهم جميـعا صوب الاتفاق على الإقتـصاد الموجه. ومع إنشال الجمـاهير بعملية التطوع لإنقـاذ الوطن، والنداءات الصادرة لإنقاذ باريس ، ومؤامرات النبلاء ورجال الدين ، وسوء الأوضاع الإقتصادية، عملت بعض المقاطعـات على إنشاء كتائب خاصــة بها وسهل ذلك على حدوث ثورة ٣١ مايو، ٢ يونيـو سنة ١٧٩٣. ونتيجة لإتخـاذ الجيروند القرارات ضد العناصر الشعبية ، إحـتج الكوميون ، وهجمت الجماهير على مقر الوفاق ، ثم شكلوا لجنة ثورية ، وبدأت المظاهرات ، وطالبوا بالقبض على الجـيروند . ورغم انقســام لجنة الأمن العام على نفســها، ومحاولة تهدئة الموقف ، إلا أن الوفاق عمل على إلقاء القبض على عدد من النواب. وقام رجـال حزب الجبل بوضع لجـنة الأمن العام على رأس السلطة فى مـقاطعـة باريس، وظل الوفاق مـوجودا، ولكنهم حكـموا بإسمه .

وبعد أزمــة ثورية خلال صيف سنة ١٧٩٣، أغتـيل مارا يوم ١٣ يوليو ، فأدى ذلك إلى نزول اليـعاقبة فى الميدان للأشـراف على عملية التجنيد الجـماعى . ومنذ شهر أكتـوبر لشهر ديسمبـر دفعت الضرورات الاقتصادية ، وأكثر من الضـرورات السياسية ، لجنة الأمن العام إلى أن تركز فى أيديهـا سلطة مطلقة، وبشكل لم يحدث من قـبل . ووضعت لنفسهـا نظرية وخطة عمل وأجهزة تنفيـذية : ونظمت بذلك ديكتاتورية حـزب الجبل التى ظهـرت واضـحة مع نهـاية عـام ١٧٩٣، فى شكل

الحكومة الثورية .

ولقد تمكنت هذه الحكومة الثورية من تجنيد ٣٠٠ ألف رجل ، ثم وصل العــدد بعــد ذلك إلى ٦٥٠ ألف ، وتمكــنت بذلك من مــواصلة الحرب .

أما فيمــا يتعلق بالثورات الداخلية فإن قوات الحكــومة الثورية قد تمكنت من إخــماد حــركات التــمرد . ولــم تكفى عمليــة ضرب ليــون بالمدفعية لإنهاء مــقاومتهاإلا فى شهر أكتوبــر . ودخلتها قوات الحكومة الثورية ، وهدمت مساكن الأغنياء فيــها ١٦٦٧ حكما بالأعدام ، ومهد تسليم ليــون لعملية مــحاصرة طــولون ، التى ظهرت فيــها همــة نقيب المدفعــية بونابرات ، والتى استــمرت من ١٥ إلى ١٩ ديسمبــر ، حيث دخلها الجمهوريون ، وأعدموا فيها عدة مئات من المتمردين .

ثم بدأت عملية قانون المشبــوهين وضرورة تطهير لجنة الأمن العام نفسها. واستمر الصــراع داخل الحكومة الثورية نفسها، فى نفس الوقت الذى ازدادت فيه الأحــوال الاقتصادية ســوءا : فقلت كميــات الخبز من الأسواق ، كمــا قلت اللحوم. ولكن الحكومة ســبقت ، ولأول مرة ، العمل الــشعبى وقــضيت على رؤســائه : فوجــهت الاتهامــات لبعض العناصر المنحرفة ، مثل دانتــون ، الذى منعوه من الدفاع عن نفسه ، وأذاقوه نفس الكأس التى كــان قد أجبــر الجيروند على شربهــا. وأعدم بالمقصلة مع غــيره فى يوم ٥ أبريل ، واستــمرت عمليات الاعــدام بعد ذلك حتى يوم ١٣ أبريل .

وهكذا تطوع الأمــر إلى تنظيم عــملية إرهاب جــديدة ، وأعطت لجان الرقابة نفسها الحق فى القبض عــلى المشتبه فيهم، وكانت الأحكام تتلخص فى الحكم بالأعدام على الخارجين على الــقانون ، والمتمردين ،

والمهاجرين ورجال الدين المتنعين . وكانت بعض التهم توجه إلى من كان فى وسعه ارتكاب جريمة معينة، فدفع كثير من الفرنسيين حياتهم ثمنا للشبهات وظهرت جرائم جديدة مثل إخفاء الثروات، أو تهريبها للخارج ، أو حتى تقليل الحد الاعلى للانتاج، وعملت الضغائن الشخصية ، والرغبة فى الانتقام من الخصوم، على زيادة أعداد من قضت الثورة عليهم ، وبلغ عدد من أعدموا ما يقرب من ١٧ ألف، علاوة عمن قتلوا بغير محاكمة فى نانت وطولون ، ومن سقط فى ميدان المعارك فى الحرب الأهلية ، ولم يكن هناك تحقيق قبل المحاكمة ، ولاضمانات للدفاع، وكانت المحكمة تختار بين البراءة والاعدام، وتأكدت ديكتاتورية لجنة الأمن العام. وكانت العربات تخرج من السجون ، محملة بالضحايا البشرية اللازمة للمقصلة، واللازمة لاستمرار الديكتاتورية الثورية فى الحكم. ولم يجرأ أحد على أن يشك فى إنتصار الثورة .

ولقد تمكنت القوات الفرنسية من إحراز إنتصارات فى الشمال، كما أحرزت إنتصارات أخرى فى الشرق . وظهر أن الجمهورية كانت ستتمكن من تأجيل الأزمة المالية والاقتصادية، وتتمكن من تتويج إنتصارها باجبار النمسا على عقد الصلح ، بمجهود أخير . ولكن ذلك كان يتطلب بقاء الهيكل الثورى الموجود فى فرنسا .

ولكن الذين أضيروا فى مصالحهم المادية، مع قانون الاصلاح الزراعى ومصالحهم المعنوية، نتيجة لارتباطهم بالنظام الملكى، ،وتمسكهم بالولاء للدين ولرجاله ، بدأوا فى اتخاذ موقف معادى للثورة . كما أن الكثير ممن ظلوا مخلصين للثورة كانوا يأملون فى حرية العودة إلى القيام بمشروعات ، وتحقيق أرباح، وكانوا يأملون فى المعيشة فى سلام وحتى اليعاقبة انقسموا على أنفسهم، وكانوا لايعلمون متى يأتى دور كل واحد

منهم لكى يقدم للمقصلة . وبدأت الاتهامات توجه إلى روبسبيير ممن يعادون الثورة ، واتهموه باقامة ديكتاتورية شخصية. وكان يرفض أنصاف الحلول ، فوصل الأمر إلى أن يتهمه زملاؤه بديكتاتورية الرأى. وبعد احدى الخصومات امتنع روبسبيير عن المجيء إلى اللجنة ، كما امتنع عن الكلام، فسمح ذلك بزيادة دعاية خصومه، وهجومهم عليه، ثم حاول عمل تحقيق مع خصومه فى ترميدور (يوليو) . ثم تراجع فى تحديد أسمائهم، الأمر الذى أظهره بأنه يطالب لنفسه بسلطات مطلقة وكان ذلك سببا فى ضياعه . فتكتل النواب ضده يوم ٩ ترميدور ، ومنعوه من الكلام ، واتهموه ، وانتهى الأمر . ولقد حاول الكوميون أن ينقذ روبسبيير ، وجمع ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم ثلاثين مدفعا، ولكنهم فشلوا وكان المتهمون قد أودعوا فى السجن . وقرر الوفاق أنهم خارجون على القانون . وفى اليوم التالى أعدم روبسبيير وعشرون آخرون بالمقصلة فى ميدان الثورة ، وأعدموا واحد وسبعون آخرون فى اليوم التالى . وكانت مفاجأة للجميع ، ولكنهم قبلوها.

٧ - معاهدات سنة ١٧٩٥ :

عمل أنصار ترميدور ضد اليعاقبة، وأدى ذلك إلى ضعف الحكومة الثورية وتفككها. وقضوا فى نفس الوقت على الاقتصاد الموجه ، وعلى الديمقراطية الإجتماعية. وكان هذا هو المعنى الحقيقى ليوم ٩ ترميدور الذى كان يمثل مقدمة لما سيحدث بعده، وبعد القضاء على المتطرفين . وهكذا تمكنت البورجوازية من إستعادة السلطة متى كانت ثورة سنة ١٧٨٩ قد منحتها إياها، وستحتفظ البورجوازية بهذه السلطة منذ ذلك الوقت . ولم يعيش الاقتصاد الموجه طويلا مع هذه الطبقة ، فانخفضت قيمة العملة ووجدت الجمهورية نفسها عاجزة عن مواصلة العمليات الحربية ، حتى تصل إلى فرض الصلح على أعدائها.

ولقد احتفظ أعداء روبسبيير بالسلطة ، وسيطروا عن طريق الوفاق ، على السلطة التنفيذية . واغتبطوا لقيامهم بدور الحاكمين ، ولكن سلطتهم تلاشت مع الأيام. ولما كان الرأي العام يعادى الارهاب، أوقفوا عمل محكمة الثورة ، ثم أخذوا فى إطلاق سراح المشتبه فى أمرهم . وقامت العناصر الرجعية بتنظيم عصابات مسلحة ، اشترك فيها بعض عمال المحلات ، وبتشجيع من سادتهم ، وأخذوا يسيطرون على الشوارع، ويعتدون على المواطنين . ثم ظهر الإنقسام بين رجال ترميدور المعتدلين وبين أنصار الإرهاب الجديد.

وزادت حدة الأزمة المالية والاقتصادية . وحاول الوفاق أن يتعرض لنظام الاستيلاء، ولكن الارهاب الموجه ضد المعاقبة منعه من الاستمرار فى ذلك . بل لقد قام خصومه بشن هجوم مضاد ضد البيروقراطية ، ولجنة التجارة ، وتحكم المشروعات المؤممة ، وأنتشار الاهمال فيها، وظاهرة التبذير .

وانتشرت المجاعة، وتسبب التخلى عن الاقتصاد الموجه بالضرورة فى حدوث كارثة ، إذ أن الأسعار ارتفعت بسرعة ، وانهارت قيمة العملة، واتهموا الجمهورية بخفض قيمة العملة وبرفع الاسعار كلها: ووصلت قيمة العملة الورقية إلى ٣٪ فقط من قيمتها الأساسية، ورفض الفلاحون والتجار قبولها، وأصروا على التعامل بالقطع المعدنية ، ونمت العملة بسرعة ، وعجزت الرواتب عن التمشى مع الأسعار، وبشكل قلل من التعامل فى الأسواق ، وأثر على الانتاج فى بعض القطاعات . وزاد القحط من حدة الأزمة ، ورفض الفلاحون تقديم الحبوب . وزادت حدة الأزمة ظهورا فى المدن الكبرى . وتسببت هذه الصعوبات، الناتجة عن عودة الحرية الاقتصادية إلى إضعاف الحكومة إلى حد بعيد، وعجزت نتيجة لضعفها عن السيطرة على الأزمة. وتسبب نقص المواد

الغذائية فى انتشار روح التدمر فى كل مكان. وبدأت الاضطرابات تظهر فى باريس . وبعـد تردد ، صممت الدولة على الاعـتمـاد على الجيش لتدعيم سلطتهـا، وللمرة الأولى منذ سنة ١٧٨٩، دخلت قوات الجيش إلى باريس ، ووافـقت على مـحاربة الشـعب الثـائر. وبعد أن قـامت الجماهير فى يوم ٢٠ مايو بمهاجـمة الوفاق ، وكانت بلا عمل ، وبدون خبز ، انتظر الوفاق يومين لكى يثبت اشتـراك حزب الجبل معهم، حتى يسـهل القضـاء على رجاله ثم هاجـمت قوات الجـيش بعض الأحـياء الهائجة، والى كـانت جائعة ،وبدون سلاح . وكـان هذا التاريخ يحدد نهاية الثورة .

ومنذ ذلك الـوقت سـاد الارهاب الأبيض ، وصـــدرت الأحكام بالاعدام على الكثيرين، ومن بينهم أعضاء فى حزب الجبل وقبض على عدد من النواب، ونفذوا فى الأقاليم حكم الأعـدام على كثير من رجال الارهـاب السـابقين ، وفى كـثير من الـيعـاقـبـة ، الـذين طـردوا من مراكـزهم ، واعتدى عليهم . وفى نفـس الوقت الذى قسا فيـه اليمين على خصـومه ، كافـأ أعوانه . فـأعاد أملاكـهم المصادرة ، كمـا أعاد الكنائس للمسيحيين .

وكانت فرنسا لاتزال فى حالة حرب مع أوربا، وكان من الطبيعى أن تنعكس نتـائج تفكك الحكومـة الثـورية ، والتخلى عن الاقـتصـاد الموجه ، وانهيار سعر العملة ، على حالة الجيش ، الذى كان الكثير من رجاله قد تركوه فرارا، مادام الوطن لم يعد فى خطر ، كما أنضم بعض رجاله إلى العصـابات . وقل عدد الجيش الموجود على جـبهة الراين ، وظهر العـجز فى الأسلحة والمهـمات ، وخاصـة بعد تخلى الدولة عن صناعة الأسلحة ووسائل النقل لموردين ومقاولين . وأدى ذلك إلى أعادة العـمل بالدبلومـاسيـة القديمـة ، التى يمكنهم عن طريقـها الأتفـاق مع

المتكتلين ، مـاداموا يحتـفظون لهم بنصـيبـهم. حتى وإن كـانت هذه الدبلوماسية تعرف كيف تخفى الخيانة فى مواد سرية .

وبدأت المفاوضات مع بروسيا، وبعـد تعثر طويل تم التوقيع على معاهدة بال ، التى سوت المسألة البولندية . وفى ليلة ٥ ، ٦ أبريل سنة ١٧٩٥ ثم التـوقـيع على المعاهـدة ، وكانت بروسـيـا أول دولة عظمى تعترف بالجمهورية ، وأعلنت حيادها تجاه فرنسا .

وفى نفس الوقت بدأت محادثات مـوازية مع الاسبانيين ، طالبت فيها فرنسا بسان دومينجو ولويزيانا، وتم الاتفاق فى ٢٢ يوليو من نفس السنة ، وساد فرنسا فرح من جديد، نتيـجة لتخلصها من أحد الأعداء، وإن كانت لم تحصل إلا على الجزء الاسبانى فى سان دومينجو.

ولكن فرنسا ظلت تواجه كل من روسـيا، والنمسا ، والإنجليز ، الأمر الذى أدى إلى زيادة تأكيد الشعور الثورى عند المتساهلين من رجال حزب السهل . وزاد شـعور الفرنسيين من جـديد بالخطر الملكى ، فزاد الغليان وضوحا فى باريس . وخـشيت الحكومة من وصول الملكيين إلى انتصار، كما كانت تخشى من عودة الحكومة الثورية إلى السلطة . ومرة أخـرى تدخل الجـيش، وإن كـان قائده مـينو قـد تسـاهل من عناصـر المعارضة. وكان من بين معاونيه بونابرت الذى قضى على حركة التمرد، وضمن لنفسه مستقبلا باهرا. وكانت النتائج فى منتهى الأهمية. فنزعوا سلاح الحرس الوطنى ، وظل الجيش يحتل باريس التى انتهى دورها فى الثـورة منذ ذلك الوقت . وكانت هذه الحـركة مـوجهـه ضد العنـاصر اليمـينية ، وضـد عناصر الارهاب الأبيض ، وتمكنت مـن الوقوف فى وجه الملكيين وفى وجه حركة الكنيسة .

وعلى أي حال فلقـد تمكنت القوات الفرنسـية فى ذلك الوقت ،

رغم انشغال الحكومة بشئون باريس ، من إيجاد الوقت اللازم للاستعداد لضم بلجيكا. ووافق الوفاق على هذا الاقتراح فى أول أكتوبر سنة ١٧٩٥ ، وكان بعض أعضائه من أنصار فكرة مد الحدود إلى الراين . وإن كانوا لم يأخذوا قرارات فى هذا الشأن ، وتركوا الأمر لكى يسوى مع قرارات الصلح العام .

وإذ كان ملك بروسيا قد قنع بما تركوه له من بولندا، فإن روسيا قد انضمت إلى التكتل الانجليزى النمسوى . وكان هذا هو الموقف عند نهاية سنة ١٧٩٥ .

الفصل التاسع عشر

الهجوم الفاتح للثورة

تعتبر معاهدات بال نقطة تحول فى ذلك الصدام الذى وقع بين الثورة وأوربا الأرستقراطية . وحتى ذلك الوقت كانت كل أوربا تقريبا تهاجم فرنسا من كل جانب . واعتقد أعداؤها أنها ستفشل فى الدفاع عن نفسها. ولكن هذا الإعتقاد كان خاطئا. ومنذ ذلك الوقت ستكون الجمهورية المنتصرة ، والمتوسعة ، هى التى ستقوم بالهجوم فى أوربا الى إنقسمت على نفسها.

وكانت بروسيا وإسبانيا قد تحولت إلى الحياد، الذى كانت كل من سويسرا والدول الأسكندنافية وجينوا والبندقية قد أفادت منه. أما دول التكتل فكانت تتمثل فى إنجلترا والنمسا وروسيا. وكانت إنجلترا هى حجر الزاوية فى هذا التكتل ، وكانت هى التى تدفع الدول القارية حتى تستمر فى الحرب، وذلك فى الوقت الذى كانت تحتفظ فيه بقواتها وسفنها، لكى تضمن السيطرة على البحارة والسيطرة على المستعمرات. أما كاترين الثانية فكانت تفكر فى مصالحها الخاصة قبل أى شىء آخر وبشكل جعل تحالفها أسميا؛ فكانت تنادى دائما بالحرب المقدسة ضد الثورة ، وكانت ترسل بالآخرين إليها، وتكتفى بدفع بعض الأموال للنمسويين، وبإرسال بعض السفن إلى بحر الشمال وبحر المانش . وأخيرا فإن حكومتى لندن وفيينا لم يكونا على وفاق تام : فكانت إنجلترا تطالب النمسا باستعادة بلجيكا وهولندا من فرنسا، أما فيما عدا ذلك فإنها قد إستولت على ما تمكنت من الإستيلاء عليه . ولم تكن إنجلترا تشعر فى نهاية سنة ١٧٩٥ بأنها مهددة ، ولكن هذا الخوف سيظهر بعد كامبو فورميو .

١- حكومة الادارة والتكتل :

واجهت الإدارة ، وطبقا لدستور العام الثالث موقفا جعلها عاجزة عن التصرف فى أى جزء من أقاليم الجمهورية الى ذكرها هذا الدستور، وجعلها تشتمل على المستعمرات، بإستثناء السنغال التى نسوها. وجعلهم ذلك يفكرون ، فى هذا الموضوع، بنفس طريقة تفكير اليعاقبة. وكان هذا الدستور يجعل المقاطعات التسع لبلجيكا السابقة تدخل فى نطاق الحدود الدستورية . وكانت هذه النقطة تحرمهم من أى إمكانية للإتفاق مع نجلترا، إلا على أساس إرضائها فيما وراء البحار، وفيما يتعلق بالمستعمرات . وفى هذه الحالة سيتدعم السلم على القارة. ولكن الفرنسيين كانوا لايوافقون على الإعتراف بسيطرة بريطانيا بهذا الشكل على العالم . وكان جعلهم بموارد النظام الرأسمالى يجعلهم ينظرون دائما إلى القوة البريطانية، التى تستند إلى القروض وإلى التصدير، على أنها لاتقوم على أساس متين . هذا علاوة على أنهم كانوا يسيطرون على هولندا وعلى بنك امستردام ، وأعتقدوا فى إمكانية كسبهم لاسبانيا .

أما بالنسبة للسلم القارى ، فإن نظرية الحدود الطبيعية كانت تمثل عقبة فى سبيل الوصول إليه: وعلى أى حال فإنهم لم يتفقوا جميعا على ضرورة الوصول الى تلك الحدود ، وإلى إمكانية تعديها. وإذا كانت حكومة الإدارة قد عادت إلى الدبلوماسية التقليدية، وأصبح الميل إلى السلم إحدى إمكانيات سياستها وإحدى إمكانيات سياسة أعدائها، فإن أى من الجانبين لم يكن يرغب فى أخذ الخطوة الأولى. وأصبح كل شىء يتوقف على العمليات الحربية ، وعلى الطريقة التى سيطبق بها دستور العام الثالث فى فرنسا .

ومع إستمرار الحرب ، فرض على حكومة الإدارة أمر غزو ألمانيا وإيطاليا، حتى تتمكن من إطعام جيوشها، وتتمكن من فرض الصلح ، ومن الإحتفاظ ببلجيكا، وربما حتى الوصول إلى حدودها الطبيعية. ولكن هذه الغزوات الجديدة كانت تتضمن أخطارا : فمع إبتعاد الجيوش سيتمكن قادتها من السيطرة على الجمهورية. وبتقدمهم إلى الحدود، سيجبرون فرنسا على أن تشتبك عاجلا أو آجلا فى حروب . وكان عبور هذه الحدود يعنى إبعاد كل وسيلة للتفاهم مع النمسا، ومع بروسيا، مالم تحصل هذه الأخيرة على ميزات. ولذلك فإن كل ما سيتمكنوا الوصول إليه هو عقد هدنات فى حرب مستمرة .

وشعرت حكومة الإدارة بهذه الأخطار فوجهت جيشين للزحف صوب الشرق، لتوجيه ضربة قاضية إلى فيينا، فى نفس الوقت الذى تحاول فيه قوات الألب غزو إقليمى بيدمونت ولومبارتيا. ولكن الحظ تدخل، وبشكل ساعد على سرعة تطور الأحداث . وعينت حكومة الإدارة فى ٢ مارس سنة ١٧٩٦ الجنرال بونابرت على رأس جيش الألب ، وتركته يبدأ بالهجوم، لأنها كانت تأمل فى أن تتفاوض مع أمراء المانيا الجنوبية ، وبشكل يدفع النمسا إلى الدخول فى الحرب. ولكن انتصارات بونابرت السريعة أثرت على مستقبل الخطة. وكان دفع جيشين إلى ألمانيا يؤدى بهما إلى القيام بعملياتها منفصلين عن بعضهما. أما نبوغ بونابرت فإنه خلق الإستراتيجية الحديثة ، وخدمه الحظ فى أن يصل إلى الإنتصار. ومنذ العام الثانى للثورة كانت الخطوط الرئيسية لحملته على إيطاليا قد وضحت : أبعاد بيدمونت عن المعركة ، وغزو لومبارتيا ،ثم ترك شبه الجزيرة جانبا والزحف على فيينا .

وكان بونابرت قد ولد فى جزيرة كورسيكا سنة ١٧٦٩ ، فى الوقت الذى كان الفرنسيون قد جاءوا فيه لإحتلال الجزيرة. ودخل

المدرسة الحربية وتخرج منها ملازما فى المدفعية. . وكان فقيرا، وبدون أمل كبير فى المستقبل وظهرت مواهبه فى عملية حصار طولون، ثم فى جيش إيطاليا. وفقد وظيفته لإتهامه بأنه من أنصار روبسبيير ، ثم أعيد إلى الخدمة. وتزوج جوزفين أرملة الفيكونت دى بوهارنيه ، الذى كان قد أعدم بالمقصلة، وكانت على علاقة مع باراس ، ولكنه كان يحبها إلى درجة الهيام .

وكان جيش إيطاليا ،الذى يقوده بونابرت ، يصل عدده إلى ٣٨ ألف رجل. وفشلت القوات النمسوية فى قطع خطوط مواصلات جيش ايطاليا، كما فشلت فى إنقاذ جنوا من الفرنسيين. وتمكن بونابرت من عبور نهر بو ، ثم استولى على قنطرة لودى ، وعاد ودخل ميلانو يوم ١٠ مايو . فوافق ملك سردينيا على عقد الصلح بعد خمسة أيام، وتنازل لفرنسا عن سافوا ونيس. وفى ميلانو ، وعد بونابرت الأهالى بالاستقلال، ووافق على إنشاء حرس وطنى ، وأعطاه شارة الثورة المثلثة الألوان ، الخاصة بإيطاليا . ولكنه طلب إلى الأغنياء دفع عشرين مليون فرنك، علاوة على معيشة القوات المسلحة على البلاد الموجودة فيها. وهكذا ظهرت التناقضات ، ونشبت الثورة ، فقضت عليها القوات العسكرية فى الحال. وقام بونابرت بجمع الغرامات الحربية من شبه الجزيرة الإيطالية . ومنذ ذلك الوقت شعر بونابرت بأرتفاع نجمه، وبأن العالم يتواكب تحت أقدامه، وكأنه يرتفع فى الهواء .

وفى ذلك الوقت كانت الجيوش الفرنسية التى عبرت نهر الراين قد صدت، فزاد ذلك من إظهار قيمة انتصارات بونابرت فى إيطاليا. وشهدت سنة ١٧٩٦ هزائم الفرنسيين فى محاولتهم إرسال حملة إيرلندا، فزاد ظهور أهمية بونابرت المنتصر ، وفى الوقت الذى فشل فيه الآخرون. فأصبح هو أمل فرنسا الوحيد. وتمكنت قوات بونابرت فى

١٤ يناير سنة ١٧٩٧ من هزيمة القوات النمسوية على هضبة ريفولى ، ثم تعقبت فلول النمسويين المنسحبين فى فوضى كاملة وبدأ بونابرت المفاوضات مع النمسا فى لويل ، فى ٧ أبريل ووقع على شروط الهدنة، ومفاتحات الصلح فى يوم ١٨ . وتوسعت الجمهورية بهذا الشكل فيما وراء حدودها الطبيعية عند الألب ، ولكن دون أن تصل إلى الحدود التى كانت ترغب فى الوصول إليها. ولم يكن فى وسع حكومة الادارة رفض ذلك ، وتحدى الرأى العام، وتحدى الجنرال سويا، فصدقت على الاتفاقية. وظهر بونابرت فى ذلك الوقت، وهو مقيم فى مومبيللو بمظهر الملوك وخاصة حين أنشأ جمهورية الألب الأمامية فى منطقة لومبارديا.

وخرجت النمسا من الحرب، وشعرت إنجلترا بمرارة إذ أنها وجدت نفسها تقف بمفردها فى مواجهة فرنسا، وكانت إنجلترا تمر بأزمة خطيرة، لها أصول إقتصادية ترجع إلى معاهدات بال ولاهاى ، ودخول إسبانيا الحرب. وأدي ذلك إلى إضطراب فى الحركة التجارية، كما أدى نشاط القراصنة الفرنسيين إلى إجبار إنجلترا على زيادة الانفاق على حراسة السفن التجارية . فظهر العجز فى الميزانية،وبدأ الذهب فى الخروج من المصارف البريطانية. وكان فى وسع فرنسا أن تفيد فى أية لحظة من نشوب الثورة فى إيرلندا. وبدأت مفاوضات فى ليل فى سبعة يوليو سنة ١٧٩٧، وطالب الانجليز بجزيرة سيلان ، وبمستعمرة رأس الرجاء الصالح ، ولكن حكومة الادارة رفضت ذلك ، خاصة وأن البرتغال ، آخر حليف لانجلترا، قامت بالتوقيع على الصلح .

٢- معاهدة كامبو فورميو :

كانت إنجلترا تعتمد على الوقت لإمكانية سقوط حكومة الادارة

أمام مـؤامرات الانجلو / ملكيـة تحدث فى فرنسـا. وقام اليمـين بالفعل بمهـاجمـة الجنرالات، وفى يوم ٢٣ يونيـو سنة ١٧٩٧ هاجمـوا الجنرال بونابرت بشـأن إقـليم البندقـيـة، فـرد الجنرال علـى ذلك ببـلاغ ملىء بالتـهديـد. واتبع الجنود مثـل قادتهم، وأرسلت الـقوات الموجـودة فى إيطاليا باحتجاجات شـديدة اللهجة إلى باريس، وكذلك قوات الراين ، وأثبتت تمسـكها بالثورة ، وبوحـدتها، التى ضـحوا لأجلهـا بأرواحهم، وشعـروا بأن من حقـهم الدفاع عنهـا ضد المنحـرفين ، الذين يقـومون بانتـخاب الملكيين . ولاشـك أن دور الجنرالات كان أسـاسيـا فى هذه الحركـة، وأكثـر من دور الجنود ، وكـان من الطبيـعى أن يلتف الجنود حول قادتهم ، خاصة وأنهم جميعا كانوا فى الخارج .

وفى ١٨ فيركيتدور من العام الخـامس (٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧) ، حطمت حكومـة الادارة المعـارضة المـوجودة فى المجـالس ، بمسـاعـدة الجيش ، وعـادت بالثورة إلى نظام الديكتاتورية، وكـان من نتائج ذلك هو تأكيد استـمرار القطيعة مع انجلترا والسمـاح لبونابرت بإملاء شروط صلح على النمسا، ولكن هذا الصلح لم يكن أكثر من مجرد هدنة .

وبعد إلغاء الـدستور، أعلنت القوانين الاسـتثنائية، التى اقتـرحها الأعضاء الثلاثة لحكومة الإدارة. وأبعدوا ١٧٧ نائبا عن المجالس ، دون السماح لغيرهم باحتلال أمـاكنهم الشاغرة، ونفوا ٦٥ نائبا إلى جويانه، وألغوا ٤٢ جريدة للمعـارضة ، وزادت سطوة السلطة التنفيذية وتدخلت فى أمر تعيين القضاة، وأخذت فى تطهـير محاكم الاستئناف ، وأصبح من حقها أعلان الطوارىء والأحكام العرفية فى أى وقت ، وهكذا أدى هذا الانقـلاب إلى إقـامـة الديكتـاتورية بالقـوة، دون أن ينظم هذه الديكتاتورية، وحدد دور الجيش إمكانيـة قيام ديكتاتورية عسكرية وزيادة ارتفاع نجم بونابرت .

وعلم بونابرت أن فرنسا تستعد للقيام بحملة جديدة فى أثناء فصل الشتاء وأن هذه الحملة ستعمل فى ألمانيا، الأمر الذى يضعه فى الدرجة الثانية من الأهمية. فعرض على النمسا، ومن نفسه ، أقاليم البندقية . وذلك فى نظير تنازلها عن الضفة اليسرى لنهر الراين، وباستثناء منطقة كولونيا، فوافق المفاوض النمسوى على ذلك ، وتم التوقيع على المعاهدة فى باساريـنو فى ١٨ أكتوبر سنة ١٧٩٧، وإن كانت قد حملت اسم كامبو فورميو ، القرية الصغيرة المجاورة، والتى أعدوا فيها أمر الأحتفال بالتوقيع على المعاهدة .

ورغم خيبة أمل حكومة الادارة فـإنها اضطرت إلى التصديق على المعاهدة ، نتيجة لعدم وثوقها فى عدد من الجنرالات . وكانت فرنسا ترغب فى ضمان البلاد التى كانت تحت حمايتها ، مثل جمهورية بتافيا، فى هولندا وجمهورية الألب الأمامية فى إيطاليا. وفكر نابليون فى الإستيلاء على منطقة الفالية ، إن لم يكن على كل سويسرا ، لكى يضمن اتصال فرنسا بجمهورية الألب الأمامية. وكان من السهل عليه أن يقيم حكمه المباشر على اقليم بيدموند وأخذ السفراء الفرنسيون الجدد فى كل من لاهاى ، وتورينو ، ومدريد يتحدثون بلهجة السادة الآمرين .

وتمكنت حكومة الثورة نتيجة لذلك من أن تعيد الشعور بحركة المد الثورى وتثير المشاعر من أجل الحرب حتى النهاية ضد الطغاة. وإن كان ذلك إستنادا إلى قوة الجنود والجنرالات، بعد أن كان فى فالمى وجيماب استنادا إلى قوة الجماهير. وعلى أى حال فقد بدأ الجمهوريون ، فى العام السادس ، يعتزون بانتسابهم إلى تلك الأمة العظيمة الى أخذت على عاتقها مهمة تحرير العالم. وتنبأ البعض بانتهاء السلطة البابوية ، وبانضمام سويسرا إلى فرنسا. وكان من الطبيعى أن ينضم القواد والموردون ، ونتيجة لميولهم الطبيعية أو لمصالحهم، لهذا

الأتجاه الذى كان يـزيد من أهميتهم ، ويزيد من مكاسـبهم وفى أقل من ستة أشهـر بعد ١٨ فركيتدور دخل الفـرنسيون كل من برن وروما، بموافقة من بونـابرت ، أو بتحريض منه ، وإن كان سفـره بعد ذلك إلى مصر سيتم عقد التكتل الثانى ضد بلاده .

٣- الحـرب الانجليزية الفرنسية :

زاد شعور انجلترا بأنها فى مـوقف خطير بعد أن تخلت عنها دول القارة وشعر بيت بضرورة زيادة الضرائب ، وبضرورة التوسع فى عملية التجنيد وشعرت إنجلترا بأنهـا تقف بمفردها فى وجه فرنسا، التى أتسعت حدودها، وسيطرت على هولندا، وتحالفت مع إسـبانيا. ولكن الأمر لم يكن يهددها بكثير فى المحيط الأطلسى إلا فى حالة قيام أسطول طولون بالتحرك، وبالانـضمام إلى الأسطول الإسبانى ، والوصـول إلى تدعيم أسطول برست . وكان التـوسع الفرنسى قد أثر على حـجم الصادرات وأثر بالتالى على الأرباح اللازمة لتـمويل القروض . فكان على انجلترا إذن أن تعمل على عودة التكتل من جديد . ولكن النمسا كانت منهوكة القوى ، وكانت بروسـيا تتطلع إلى الحصول على تعـويضات فى ألمانيا، أما بول الأول ، قيصـر روسيا، فإنه احتفظ بموقف المتـفرج [illegible] للثورة ، فـأصبح على انجلترا ، خـلال عام ، أن تعتـمد على نفسـها، وتضاعف من مجهوداتها.

ولم تتـمكن حكومة الادارة من أن تزعـزع قوة بريطانيـا العظمى البحرية والتجارية ، فقررت فى نهاية الأمر إرسال حملة عسكرية لمصر، الأمر الذى زاد من قلق انجلترا ، وإن كان قد منحها فرصة فريدة، إذ أنه ساعدها على إعادة تكوين التكتل من جديد .

وإذا كانت إنجلتـرا قد عملت علـى زيادة عدد قواتهـا العسكرية،

التى ستصل إلى ١٤٠ ألف جندى فى سنة ١٨٠١ ، فإن غالبية هذه القوات كانت موجودة فى المستعمرات، وكان هذا الأمر يجعل إنجلترا دائما تخشى من مواجهة عملية غزو للجزر البريطانية نفسها. ومع خوفهم من إمكانية نشوب ثورة فى إيرلندا، اعتمد الإنجليز على قوة أسطولهم قبل أى شىء آخر، وقدموا هذه القوة على غيرها، وعرفوا كيف يستخدمونها.

أما بالنسبة لفرنسا فقد تغيرت مظاهر الحرب ، مادامت موجهة ضد إنجلترا وحدها، وتسببت هذه الحرب فى خسائر فادحة لفرنسا على البحار وفى المستعمرات ولم تتمكن أساطيلها من السفر إلا فى السر، وتحاشت الإشتباكات ، وكادت بحريتها التجارية أن تختفى ، وسقطت معظم المستعمرات فى أيدى الإنجليز . وعادت إلى الأذهان ذكريات حرب المائة عام، وأخذ الفرنسيون يشعرون بالكراهية للإنجليز على أساس أنهم أعداء تقليديين ، وأخذوا يتمنون النزول فى جزيرتهم، وطرحت حكومة الإدارة فرضا بمبلغ ثمانين مليونا لعملية غزو إنجلترا، واقترح بعض المخترعين إستخدام مناطيد موجهة، وحتى استخدام الغواصات . وجمعت الحكومة ما يقرب من خمسين ألف رجل قرب برست ، واستلم الجنرال بونابرت قيادة جيش إنجلترا.

ومن ناحية أخرى أخذت الحرب الإقتصادية مظهرا جديدا أخذ شكل تشدد حكومة فرنسا تجاه المنتجات والمصنوعات البريطانية ، والتفتيش على البضائع المهربة ، ومصادرة السلع التى لها علاقة بالعدو، والتى كانت بريطانيا تتعامل بها مع الدول المحايدة . ولكن هذه الحرب الإقتصادية كانت تتطلب تعاون كل القارة من أجل تنفيذها، وصارت جنبا إلى جنب مع الدعاية الخاصة بتسهيل عملية التوسع الثورى .

وبعد إتمام الاستعدادات لعملية التجول فى بريطانيا ظهرت ضرورة التخلى عن المشـروع ، وتحول المشروع إلى حملة صـوب مصر . ومنذ وجود بونابرت فـى إيطاليا ، كانت أنظاره قـد اتجهت صـوب الشرق . وكان يخشى من أن يصيبه الخمـول وينساه الناس . وكانت لمصر مكانتها فى التاريخ منذ الحـروب الصليبية ، ونشـأة نظام الإمتيازات الاجنـبية. وكانت مصر هى مفتاح الطريق الموصل إلى الهند ، كان تيبو ، صاحب ميسور ، يوالى النضال ضد قوات ويلسلى . وبدت مصر ، أمام الرغبة فى التوسع الإستعمارى على أنها فريسة سهلة وعظيمة . وأخيرا وفى ٥ مارس سنة ١٧٩٨. تقرر أمـر إرسال حملة إلى مصـر. وتم الإعداد لها سرا. واشتـملت هذه الحملة على ١٣ بارجة و١٧ فرقـاطة و ٣٥ سفينة حربية أخرى ، عـلاوة علي ٢٨٠ سفينة نقل، و١٦١ ألف بحار ، و٣٨ ألف جندى وضابـط ، علاوة على ١٨٧ عالما. وتركت الحـملة طولون يوم ١٩ مـايو ، وصـارت ببـطء فلـم تصل أمـام مـالطة إلا فى يوم ٦ يونيو ، وسلمت الجـزيرة دون مقاومة. واسـتمرت الحملة فى سـيرها. وهربت من سفن الأميرال نلسـون بصعوبة ثم وصلت إلى الاسكندرية. وتمكنت الحملة من الاسـتيلاء على مـصر. وحين عاد الأميـرال نلسون تمكن من تحطيم الأسطول الفرنسى فـى مياه أبى قير وأدت هذه العـملية إلى حجـز بونابرت فى مـصر ، وإلى فـقد الأمل فى وصـول إمدادات إليه. كما أنها شجعت تركيا على إعلان الحرب على فرنسا.

وإذا كان بونابرت قد عمل على تنظيم المنطقـة التى غزاها، وإقامة نوعا من الحمـاية فيها، وأدخل إليـها الكثير من طرق الحكـم الحديثة ، وترك لجنة العلمـاء تتجول فى المجتمع المصرى ، وتبـدأ فى الاسـتعداد لوضع كتاب وصف مصر فإنه عجز عن معالجة الرأى العام الاسلامى ، والذى كانت تركيـا تتصل به ، وتدعوه للجهـاد. واستند هذا الرأى إلى

الأساليب الحديثة التى وضعها بونابرت فى مصر كأساس للقيام بالثورة . ولكن بونابرت عمل على كبتها بطريقة دموية .

واستعدت تركيا لغزو مصر ، بمساعدة الأسطول الإنجليزى ، فقرر بونابرت ضرورة الذهاب إلى سوريا، لتحطيم الجيش العثمانى، التى كانت تركيا تعده هناك ، فزحف فى شهر فبراير سنة ١٧٩٨ على رأس ١٥ ألف رجل ، وعبر الصحراء، ولكنه وقف أمام عكا، التى دافع عنها الجزار باشا بكل إصرار ، بمساعدة سيدنى سميث ، الذى تمكن من أسر السفن التى كان بونابرت ينتظرها، تحمل مدافع الحصار إليه. واضطر بونابرت إلى الإنسحاب فى ٢٠ مايو ، ووصل إلى مصر بعد أن تكبد خسائر جسيمة ، وإن كان قد أجل على الأقل عملية غزو تركيا لمصر .

ولكن سرعان ما نزل جيش آخر عند أبى قير ، فحطمه بونابرت وهزمه يوم ٢٥ يوليو . ومع ذلك فإن الموقف ظل بلا أمل، وعجزت حكومة الإدارة عن إمداه بونابرت ، وفى شهر أغسطس ، ترك بونابرت جيشه لكليبر وعاد لفرنسا بحثا وراء المغامرات . وفى ذلك الوقت كان التكتل الثانى ، الذى كان قد بدأ فى التجمع يهاجم الجمهورية من كل جانب .

٤- التكتل الثانى :

كانت إنجلترا تعلم ، وهى تقاوم فرنسا ، ضرورة إشعال الحرب على القارة من جديد ، حتى تتمكن مس التغلب على منافستها. ولكن الألمان لم يكونوا مستعدين للمشاركة ، فى العملية ، ومع ذلك فإن إرسال الحملة لمصر ، وإنشاء الجمهورية فى روما، ساعدتا على إعادة تشكيل هذا التكتل، ووصل بول الأول، الذى أصبح حليفا لتركيا، إلى

البحر المتوسط ، وأصبح حاميا لجماعة فرسان مالطة ،وحاميا لبلاط نابولى . وتشجع هذا الأخير ، نتيجة لوجود نلسون ، وبدأ العمليات الحربية ،الأمر الذى غير من الأوضاع الموجودة فى إيطاليا .

ووجدت حكومة النمسا، بعد سلسلة من التطورات نفسها منضمة لدول التكتل ، دون أن توقع على أية معاهدة ، . وإكتمل عقد التكتل الثانى، الذى إنضم اليه جوستاف الرابع ملك السويد ، فى شهر أكتوبر ١٧٩٩، دون أن يقدم قوات محاربة . وكان هذا التكتل الثانى أقل صلابة من التكتل الأول . وبدت إنجلتر فى هذا التكتل ، كما كانت دائما، على أنها هى حجر الأساس فيه، فكان عليها أن تمول على الأقل الجيش الروسى ٢٢٥٠ الف جنيه نقدا ثم ٧٥ ألف جنيه كل شهر، مع طمأنه روسيا إلى أن إنجلترا، رغم إحتلالها لمالطة، لاتنوى الإحتفاظ بها، وطمأنتها إلى فتح المضايق أمام السفن التجارية الروسية . ولكن مهما كان تساهل الأنجليز مع الروس ، فلم يكن من المعقول السماح لهم بالسيطرة على البحر المتوسط ، ورغم أن إقتصاد إنجلترا ، وهى أساسية فى هذا التكتل ، قد مر فى صعوبات واضحة فى سنة ١٧٩٩، وإلغاء إنجلترا لقاعدة الذهب ، وزيادة حجم العملة الورقية المطروحة فى الأسواق، وتأثير ذلك على الأسعار، وبالتالى على العمالة، وعلى ميدان الصناعة ، ورغم إستخدام بيت لوسائل القمع تجاه الحركات العمالية، والغاءه الإضرابات، فإن الرأسمالية الإنجليزية، والتى كانت الحكومة تحافظ على مصالحها، تمكنت من تحمل هذه الصدمات ، وظلت المالية سليمة .

أما من ناحية حكومة الإدارة ، فأنها استعدت للمقاومة منذ الخريف، وأن كانت لم تظهر رغبة فى الإسراع بالإشتباك فى العمليات . ولم تكن قد اتمت إستعداداتها، رغم مدها سن الخدمة

العسكرية، أو قانون التجنيد من ٢٠ إلى ٢٥ سنة ، ثم أصدرت قانونا آخر بالغاء الإعطاءات التى كانت ممنوحة قبل ذلك . وقررت عدد المجندين بمائتى ألف رجل ، ولم يكن جيش حكومة الإدارة يتفوق عدديا على قوات أعدائه ، ومع ذلك فإنه إتجه صوب الحدود دون أن يكمل إستعدده ويكمل معداته ، ونسب البعض إلى الحرب أمر تدعيم النظام الديكتاتورى لحكومة الإدارة ، ولكن الهزائم المتلاحقة تسببت فى تحطيم هذا النظام ، وتسببت الأخطار العديدة فى نشوب ثورات داخلية ، كما تسببت حركات الغزو من الخارج ، أو إمكانية وقوعها، فى اتخاذ إجراءات أمن مشددة. وأخذ الرأى العام على حكومة الإدارة أنها تسببت فى الحرب ، واتهمها اليعاقبة بأنها لم تأخذ الإستعدادات الكافية لها، وبأنها تركت الثورة المضادة تساعد الأعداء. وتأثر أغلب أعضاء المجالس التمثيلية بهذه الدعاية خاصةوأنهم كانوا يقاسون من ديكتاتورية السلطة التنفيذية .

ولقد تطور الوضع السياسى بعد ذلك فى ثلاث مراحل : تتمثل الأولى فى سقوط حكومة الإدارة الثانية ، وتتمثل الثانية فى انتصار واضح للعناصر اليسارية ، والثالثة فى رد فعل عنيف وشامل ضد اليعاقبة . وتمت العملية الأولى فى إنتصار اليعاقبة . ولكن الإنجليز نزلوا فى هولندا فى ٢٧ أغسطس فزاد الخوف فى فرنسا من بدأ عملية غزو جديد توجهه إلى بلادهم ، واقترحوا إعلان الوطن فى خطر ، ولكن بعض الإنتصارات غيرت الموقف ضد مصلحة العناصر اليسارية . واضطر الإنجليز إلى الانسحاب من هولندا، نتيجة لإستمرار هطول الأمطار، ولعدم تحرك الهولنديين فى ثورة كان الإنجليز ينتظرونها منهم ضد الفرنسيين ، فاستدعى بول الأول ، قيصر روسيا قواته ، وقطع علاقاته بالنمسا .

وفى ذلك الوقت وصلت الأنبـاء عن خبـر نزول الجنرال بونابرت يوم ٩ أكتوبر ، فى فـريجوس ، وسيره صوب باريس ، مشيرا الحماس من حـوله وكـانت عـودة هذا القـائـد « الذى لايهـزم » ضـمـانا بأن الجمهورية قد أنقذت .

ومـادام الخطر قـد زال، فلم يعـد هناك داع لوجـود اليـعـاقـبـة والمتطرفين ، وكان يكفى وجود المعتدلين . فزادت قوة الإتجاه الرجعى ، مع وجود المنفـذ الوحيـد، وهو عسكرى . فوافق المجلس عـلى تعديل القوانين الإستثنائية. وأخـذت الثورة المضادة تعمل فى هدوء ، مادامت تنتظر حماية فرد ، وكان من العسكريين.

وكـان من اللازم تنظيم الـديكتـاتورية الثـورية ، حـتى لاتقـسى البورجـوازية منها. ولقد أفادت البورجوازية من إنقلاب ١٨ برومـير من العام الثامن (٩ نـوفمبر سنة ١٧٩٩) ، ولكنها فـقدت فى نفس الوقت أمـر إدارة الدولة ، التـى أعطتـهـا الـظروف للجـيش ، أى أعطتـهـا لبونابرت.

واتجهت كـل الأنظار إلى بونابرت بعد وصـوله إلى باريس ، ولـم يفكر أحد فى أنه المسئول الأول عن نشوب الحرب. وأنه لم يشارك فيها بأي مجهود . ونظروا اليه على أن حكومة الادارة قد أبعدته إلى مصر ، وأنه قد أفلت من نلسون مـرتين !! وفكروا فى نفس الوقت فى ضرورة تغيـير الدستـور، رغم إمكانية سـيطرة العسكريين على العـملية ، التى ستتحول إلى عملية مضادة للنظام البرلمانى وفكروا فى ضرورة التخلص من المعارضة ، فقبضوا على إختصاصات البرلمانيين ولم يعرف أحد أنهم مهدوا لإنشاء ديكتاتورية عسكرية .

وكان هذا التفكير يلقى قبـولا من العسكريين ، كان الأمر يحتاج

إلى قائد له مركزه وهيبته ، وله ماضيه الثورى ، فإن الجنرال بونابرت ، كـان قـد وصل ، ولم يكـن هـناك من ينـافسـه فى ذلك ولم يكن فى وسع بونابرت أن يقوم بالعملية إلا بالإتفاق مع المتآمرين ، فكان قد ترك قيادته بدون تصـريح ، رغـم أنه كان قائـدا عاما، ولـم يكن فى وسعه أن يصـبح قـائـدا عـاما لمـنطقة باريس إلا بتـعاون مع أعـضاء حكومـة الادارة ، وفى داخل المجالس ، ولكن المهم هو أن أغلب الجنرالات قد وافـقـت على بونـابرت وإعـتـمد الآخـرون على أعـضـاء فى مـجلس الشـيـوخ ، وعلى لوسـيـان بونابـرت ، الذى أصـبح رئيـسـا لمجلس الخمسمائة .

وبدأت العـملية بإدعـاء وجود مـؤامرة ، وفـضـلوا الإبتعـاد عن باريس ، فاستـدعوا الشيوخ فى ١٨ برومير ، إلى دورة غـير عادية فى سـان كلو ، وقرروا تعـيين بونابرت قـائدا لقـوات باريس . واجتـمع الجنرالات عند بونابـرت ، وتجمـعت القـوات بدعـوى القيـام بعـرض عسكرى وفى ١٩ برومير حضر الجـيش إلى سان كلو ، وحاصر القصر الذى اجتمع فيه اعـضاء المجالس . وكان المتآمرون غير مـستعدين وكان الشيـوخ خائفين فـهاجم بونابرت اليـعاقـبة ، دون أن يتـقدم بـإقتـراح إيجابى . وكان لايعرف سوى إعـطاء الأوامر ، ورفض قيام أى شخص بالتعقـيب عليه. وحين ارتفعت بعض الأصوات مشيـرة إلى الدستور رد عليهم قائلا : « لقـد إنتهكتموه ، لقد إنتهى » !! وكـان الأمر أكثر من ذلك أمام مجلس الشـيوخ ، فلم يكن المجلس قد استدعـاه ، وهاجمة بعض النواب ، ووصفـوه بأنه خارج عن القانون . وحاول لوسـيان أن يحـمى أخاه ، ولكن بلا جـدوى ، وجـاء الحرس لإخـراجه . وكـان بونابـرت قـد خطب فى الجنـود ، دون أن يصل إلـى نتيـجـة ، فقـام لوسـيان ، وهو على ظهـر فـرسه ، بمهـاجمـة الذين باعـوا أنفسـهم

لإنجلترا، وهاجموا قائدهم فهجم الجنود وانتهت مقاومه حرس الهيئة التشريعية ، وأخليت قاعة الاجتماع. وفى المساء ، اجتمع عدد بسيط من لجنة الخمسمائة ، وقرروا تأجيل إجتماع المجالس ، وإبعاد ٦١ عضوا منهم ، وإستبدال المجالس بلجنتين تقومان بالتصويت على القوانين التى يقدمها لهما « القناصل » الثلاث ، والذين يأخذون مكان حكومة الادارة . وكان القناصل الثلاث هم بونابرت وسييس وروجيه ديكو . وإدعوا أنهم متساوون،ولكن أحدا لم يصدق ذلك ، وعلا نجم بونابرت بشكل واضح. إنها مرحلة تمثل عهد جديد فى تاريخ فرنسا وتاريخ العالم . أنها عهد القنصلية ، التى مهدت للامبراطورية . وانتهت أحداث الثورة الفرنسية . وستقع أهم أحداث هذه المرحلة الجديدة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

الفصل العشـــرون

عصـــر نابليون

تعتـبر الفترة المـمتدة من سنة ١٧٩٩ وحتى معـركة ووترلو سنة ١٨١٥ فترة قائمـة بذاتها فى التاريخ . حقيقة أنهـا كانت مرتبطة بالثورة الفرنسـية ، ونتـاج لها، إلا أنهـا تميزت بميـزات جديدة، أعطتـها هذه الشخصية الفريدة فى نوعـها. وكان أهم شيء في هذه الفترة هو وجود نابليـون على رأس فرنسـا، وقيادتـه لها ، كقنـصل ، ثم كأمـبراطور . وأخرج نابليون فرنسا من حدودها الطبيعية ، وسيطرت قواته على القارة الأوربية . وغطى نشـاطه وهمته الكثـير من ميـادين العمل ، وطبعـها بطابعه الخـاص . وكانت هذه الفترة تمـثل أطوارا مختلفة لهـذا الصراع على القارة الأوربـية ، بين فرنسـا وأعدائها ، وبخـاصة انجلتـرا. وبعد سيطرة نابليون على القارة تمكنت هذه الجزيرة من أن تهزمه ، وتعيد نظم الحكم إلى ماكانت عليه قبل الثورة الفرنسية .

١- القنصلية :

نص دستور سنة ١٧٩٩ الجديد على وضع السلطة التنفيذية فى يد ثلاث قناصل ينتخبهم مجلس الشيوخ لمدة عشر سنوات . وعهدوا بهذه السلطة ، فى الفترة الأولى إلى بونابرت ، وكامبـا سيريس ، وليـبران، على أن يكون بونابرت هو القنصل الأول ، ومنحوه حق إعلان الحرب، وعقـد المعاهدات وإصـدار القوانين ، وتعـيين الوزراء وكبـار الموظفين، ورئاسة الجـيش ، أما القنـصلان الآخران فكانـا مساعـدين له . وهكذا تطورت السلطة التنفيذية فى فـرنسا من لجنة للأمن العام فى سنة ١٧٩٣ ضمت ستة عشر عضوا ثم نقص عددهم إلى عشرة أعضاء فقط ، وإلى تكوين حكومـة الإدارة فى سنة ١٧٩٥ من خمسـة أعضـاء فقط، إلى

دستور سنة ١٧٩٩ الذى نص على تولى ثلاث قناصل السلطة وسيتطور الأمر فيما بعد ، فى سنة ١٨٠٢ إلى أن يصبح القنصل الأول لمدى الحياة ، وفى سنة١٨٠٤ التى أصبح فيها القنصل الأول امبراطورا على فرنسا وكان هذا يدل على تقليل عدد تلك المجموعة التى كانت تحكم فرنسا، والوصول بها إلى شخص واحد ، ولمدى الحياة ، وهو يدل على سير فرنسا صوب السلطة الديكتاتورية .

وكانت الهيئة التشريعية ، طبق لدستور سنة ١٧٩٩ فى يد ثلاث مجالس : هى مجلس الشيوخ ، والذى ينتخب أعضائه لمدى الحياة ، ويتولى القناصل انتخاب الأعضاء لأول مرة ، وكانت مهمته انتخاب أعضاء المجلسين الآخرين ، ومراقبة تطبيق أحكام الدستور . أما المجلس الثانى فكان هو مجلس التريبيون ، الذى يتكون من مائة عضو ، يسقط خمسهم كل سنة ، وكان يدرس مشروعات القوانين التى يقدمها له مجلس الدولة ، ويقبلها أو يرفضها. أما المجلس الثالث فكان هو المجلس التشريعى ، الذى يتألف من ثلاثمائة عضو ، ويقترع على مشروعات القوانين بعد استعراض من آراء مجلس الدولة والتريبيون .

والواقع أن السلطة قد انتقلت فى حقيقة الأمر إلى يد بونابرت ووزرائه وتم القضاء على النظام الجمهورى .

ولقد وجه بونابرت معظم اهتمامه إلى الحرب . وكانت كل من انجلترا والنمسا فى حالة حرب مع فرنسا ، فبدأ بمهاجمة جيوش النمسا ، باجتيازه جبال الألب من سويسرا ، ودخوله سهل لومبارديا، فهدد مواصلات النموسيين،ثم التقى بهم فى سهل مارنجو يوم١٤ يونيو سنة ١٨٠٠، وهزمهم هزيمة ساحقة ، فاضطروا إلى طلب الهدنة .

وبعد هزيمة ثانية ، فى شهر ديسمبر ، تم عقد صلح لونيفيل . فى ٩ فبراير سنة ١٨٠١، الذى تجددت به شروط معاهدة كامبو فورميو واعترفت النمسا بالجمهوريات التى أنشأها بونابرت فى إيطاليا وهولندا وسويسرا ، كما اعترفت بضم ديدموند إلى فرنسا . وساعدت هذه الانتصارات على تدعيم أقدام حكومة القنصلية فى فرنسا ، واطمئنان الفرنسيين إلى حكمهم .

أما فيما يتعلق بانجلترا ، فإن ضعف البحرية الفرنسية جعل بونابرت عاجزا عن مهاجمتها ولكنه عقد حلفا بحريا فى شهر يناير سنة ١٨٠١ ، ضم كل من السويد وبروسيا والدانمرك وروسيا ، موجها ضد انجلترا التى كانت تقوم بتفتيش السفن لمنع وصول المهربات الحربية إلى فرنسا. ولكن انجلترا أسرعت بتحطيم الأسطول الدانمركى ، ومات قيصر روسيا فانفرط عقد التحالف. وقلت آمال بونابرت فى النصر ، وقبل عقد صلح أميان فى ٢٥ مارس سنة ١٨٠٢ ، الذى تخلت به انجلترا عن كل ما أخذته من فرنسا وحلفائها ، فيما عدا سيلان وترانييداد ورأس الرجاء الصالح ، وتعهدت برد مالطة إلى فرسان القديس يوحنا ، ومينورقه إلى إسبانيا . أما فرنسا ، فإنها انسحبت من مصر وتركتها للدولة العثمانية .

وساعد هذا الصلح على أن يوجه بونابرت نشاطه إلى ميادين السلم ، فأخذ يشرف بنفسه على إدارة الحكومة ، ويدرس المسائل ، ويملى الرسائل وعمل على تدعيم الأمن والنظام، وقضى على المنازعات ، وجند كل الكفايات من أجل خدمة الدولة .

وأعاد بونابرت تنظيم البلاد ، وأصدر قانون ١٧ فبراير سنة ١٨٠٠ التى عهدت بادارة المقاطعات إلى موظفين يعينهم القنصل الأول،

بدلا من الحكام المنتخبين وهكذا أعادت القنصلية النظام المركزى فى حكم فرنسا بعد أن كانت الثورة قد قضت عليه .

وعمل بونابرت على حل الأزمة الدينية التى كانت قد نشأت عن النظام المدنى للكنيسة ، فألغى القرارات الخاصة بنفى رجال الدين المعرضين للنظام الجديد، وأعاد حرية العقيدة ، وكان يعلم أن للشعب لايزال متعلقا بالدين وبالكنيسة الكاثوليكية ، وتخلى كذلك عن مبدأ الكنيسة الوطنية، واتفق مع البابا، عن طريق كورنكوردات ١٥ يوليو سنة ١٨٠١، واعترف بالكنيسة الكاثوليكية وسيادتها الروحية ، وفى نظير ذلك وافق البابا على مصادرة أملاك الكنيسة وعلى أن يمنح رجال الدين مرتبات ملائمة ، وأن يكون تعينهم بالاتفاق مع البابا والحكومة الفرنسية . وهكذا أعيدت العلاقات الفرنسية مع البابوية .

وإهتم بونابرت كذلك بالنواحى الإجتماعية ، وأصدر القانون المدنى ، وهو ما يسمى بقانون نابليون ، فى شهر مارس سنة ١٨٠٤ . وتم هذا التنظيم الشامل فى مدة أربع سنوات ، أظهر نشاط حكومة القنصلية ، كما امتد هذا النشاط إلى ميادين التعليم ، حيث تقررت المجانية للفقراء من التلاميذ ، كما أنشيء بنك فرنسا ، ووسام جوقه الشرف « الليجيون دونير » للخدمة المدنية والعسكرية الممتازة . وأعطى كل ذلك نتائجه : وبعد أن وافق الشعب فى سنة ١٨٠٢ على تعيين بونابرت قنصلا مدى الحياة ، وإعطائه حق تعيين خليفته ، وإطلاق يده فى الحكم. نادوا به إمبراطورا فى شهر مايو سنة ١٨٠٤ ، وفى الوقت الذى تواترت فيه الأنباء عن إنشاء حلف جديد ضد فرنسا . وحضر البابا بنفسه فى آخر هذا العام وقام بتتويجه .

٢- الامبراطورية وحروبهـا :

كـان صلح اميـان فى واقع الأمر مـجـرد هدنه ، وجاء نتـيجـة للإرهاق الناتج عن حـرب طويلة المدى. وظلت إنجلترا بـعده مسـيطرة على البـحار، فى الوقت الذى كـانت فـيه فـرنسا تسـيطر على أوربا. وأخذت فرنسا فى تضييق الخناق على التجارة الإنجليزية ، وعمدت على زيادة قوتهـا البحـرية ، أمـا إنجلترا فإنهـا لم تنفذ وعـدها بالجلاء عن مالـطة ، وعملت على إنشـاء حلف جديد ضـد فرنسـا، وأعلنت هذه الحـرب فى ١٦ مـايو سنة ١٨٠٣ ، وبـدأ ذلك الصـراع الحـربى الذى سيمتد حتى سنة ١٨١٥ .

وحاول نابليـون فى أول الأمر أن يعد الأمر لغـزو إنجلترا ، ولكن الأساطيل الفـرنسية كانت مـوزعة بين موانىء فرنسـا وموانىء حليفـتها إسبانيا. وكان الأسطول الإنجليزى يراقبها، ويمنع تجمعها. وحين حاولت الخروج ، باغـتهـا نلسون عند رأس الطـرف الآخر فى ٢١ أكتـوبر سنة ١٨٠٥ ، وقضى على قـوتها، التى كانت أكـبر خطر يهـدد إنجلترا منذ عهد الارمادا .

وكان نابـليون قد حـول جمـهورية إيطاليـا إلى ملكيـة وراثية ، يحكمهـا ابن زوجته يوجين بورهانيـيه وضم بيدموند وبارمـا إلى أملاك فـرنسـا وتتدخـل فى شئـون سـويسـرا ، ودفع الولايات الألمانيـة إلى التحالف مـعه،وظهر خطر نابليون على أوربا، وأفادت إنجلترا من ذلك ، ومن تغـييره لنظـام التوازن الدولى ، وأفلحت فى تكوين حلـف جديد ضده، يضم كل من النمسا والسويد وروسيا. وشعر نابليون بالخطر، وقرر أن يهجم على النمسا قبل أن يأتيها العون من روسيا: وانتصر فى موقعة أول فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٥، التى ثبتت أقدام الإمـبراطورية الفرنسية

وتوج ذلك بإحتلاله فيينا. وقامت النمسا بتجميع جيوشها، وجاءت قوات روسية ، ولكن نابليون هزمهم من جديد فى موقعة أوسترليدز فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥ ، الأمر الذى أجبر القيصر على الإنسحاب إلى بلاده وأجبر النمسا على التوقيع على صلح بيرسبيرج ، فى يوم ٢٦ ديسمبر ، الذى تنازلت به لفرنسا عن البندقية ودالما شياو التيرول وأستريا ، الأمر الذى أعطى السيادة لفرنسا على إيطاليا وجنوب المانيا، وساعد ذلك على تنظيم شئون إيطاليا ، وعلى إنشاء إتحاد جديد من أمراء ألمانيا الجنوبية تحت حماية فرنسا، يسمى إتحاد الراين .

وزادت مخاوف بروسيا من نابليون ، وبخاصة بعد إنتصاره على النمسا ، ولكن إنشاء إتحاد الراين ، وسيطرة نابليون على إيطاليا ، وإنشائه مملكة فى هولندا ، أعطى تاجها لأخيه لوى بونابرت ، كان كل ذلك يهدد المصالح البروسية . وشعرت بروسيا أنها لن تحصل على هانوفر من نابليون، رغم أنه وعدها بها. وظهر أن بروسيا ستنضم إلى الاعداء ، وهما انجلترا وروسيا ، اللتان كان نابليون قد فشل فى عقد الصلح معهما. ولذلك فإن نابليون قرر ضرورة مباغته بروسيا ، قبل تكوين حلف جديد ضده . وتمكنت قوات نابليون من هزيمة قوات بروسيا ، التى كانت قد اشتهرت فى أوربا كلها منذ عهد فردريك الأكبر، وكانت موقعة أينا فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٦ موقعة فصلة، دخل بعدها نابليون إلى برلين ، وأعلن فيها مواسم برالين الشهيرة ، لحصار الجزر البريطانية ، ولتحريم التجارة معها على جميع الدولة الأوربية وتحريم فتح موانيها للسفن الإنجليزية .

ولكن ملك بروسيا جمع بقية قواته ، وأسرع إسكندر الأول قيصر روسيا لنجدته . فهاجم نابليون هذه القوات وانتصر عليها فى موقعتين حاسمتين : أبلو وفريدلاند ، وذلك فى شهر فبراير سنة ١٨٠٧ ، الأمر

الذى أجبر الحليفتين على عقد الهدنة ، ثم تقابل قيصر روسيا مع نابليون ، وإتفقا على شروط معاهدة تيلست ، التى تم التوقيع عليها فى ٨ يوليو سنة ١٨٠٧ ، والتى تخلت بها بروسيا عن أملاكها غرب نهر ألب ، وأنشأت مملكة ويستفاليا التى حصل على تاجها جيروم ، الأخ الأصغر لنابليون ، كما تنازلت بروسيا عن أملاكها فى بولندا الملك ساكسونيا، حليف الفرنسيين . واعترف القيصر بهذه التغيرات وتعهد بالانضمام اليه ، والاشتراك فى الحصار القارى الموجه ضد إنجلترا، وذلك نظير موافقة نابليون على أن تحقق روسيا أطماعها فى فنلندا ووادى الدانوب ، والاشتراك فى تقسيم أملاك الدولة العثمانية .

وبقيت إنجلترا فى مواجهة فرنسا. فأشهر نابليون عليها حربا إقتصادية، وأقفل أسواق أوربا فى وجه منتجاتها ومنتجات مستعمراتها، وهى القرارات التى أصدرها فى برلين، والتى نصت على مصادرة البضائع الواردة من إنجلترا ومن مستعمراتها. ولكن سياسة الحصار القارى ، التى عمد نابليون بها إلى مواجهة سياسة الحصار البحرى ، التى كانت إنجلترا تفرضها عليه، كانت تتطلب إجبار كل الدول الأوربية على تطبيق هذه السياسة. وإذا كانت كل من روسيا والنمسا والدانمرك قد وافقت على الانضمام إلى سياسة الحصار البرى ، فإن نابليون قد إضطر إلى الهجوم على البرتغال، حليفه إنجلترا ، والتى كانت قد رفضت تطبيق أمر أغلاق ثغورها فى وجه السفن الإنجليزية. وحتى بعد ذلك أصبح على نابليون أن يسيطر على أملاك البابوية واسبانيا، للتمكن من تنفيذ هذه السياسة. وقرر نابليون ضرورة الاستيلاء على ولايات البابا، وعلى شبه جزيرة أيبريا، ولكنه اصطدم هناك بعاملين قويين هما الشعور الدينى والشعور القومى . وفى مايو سنة ١٨٠٩ أعلن نابليون ضم أملاك البابا إلى فرنسا، فرد عليه البابا بحرمانه من الغفران ، فقبض عليه نابليون وسجنه

ولكن تطاوله على مقام البابوية أثار عليه ثائرة الكاثوليك فى كل مكان .

أما عملياته فى شبه الجزيرة الأيبيرية فإنها أثارت فى وجهه قوة الشعور الوطنى وكان نابليون قد اتفق مع اسبانيا على الاشتراك معه فى غزو البرتغال وإقتسامها وفى الوقت الذى إنشغل فيه الاسبان خارج بلادهم، دخلت القوات الفرنسية واستولت على المدن الاسبانية . وحين ثار الاسبان على ملكهم ، الذى أسلم البلاد للفرنسيين ، وأجبروه عن التنازل عن العرش لابنه ، لم يعترف قائد الحملة الفرنسية بهذا التغيير وأرسلهما، الأب والأبن إلى نابليون، وأرغمهما نابليون فى شهر أبريل سنة ١٨٠٨، عن التنازل عن العرش ، وتوج جوزيف بونابرت ملكا على اسبانيا. وأدى ذلك إلى ثورة الاسبان فى كل مكان : وتعاون الأسبان مع البرتغاليين للدفاع عن بلادهم، وكانت طبيعة الأرض تساعدهم ، فى شكل حرب عصابات ، أجبرت فرنسا على تشتيت قواتها. وعملت إنجلترا على تدعيم هذه العصابات الاسبانية بجيش قريب من الساحل ، ويستند إلى مساعدة الأسطول، فطالت المقاومة، وكانت قدوة لبقية شعوب أوربا للوقوف فى وجه الفرنسيين . وتمكن الاسبانيون من الإنتصار على الفرنسيين وأرغموهم عن الجلاء عن مدريد، فى شهر يوليو فى سنة ١٨٠٨، ثم تمكنت القوات الانجليزية من هزيمة القوات الفرنسية الموجودة فى البرتغال واضطرتها إلى إخلاء البلاد. فأضطر نابليون إلى العمل سريعا، وتوجه إلى إسبانيا، ونكل بأهلها ، واستولى على مدريد ، وأعاد أخاه إلى العرش ، ثم طارد القوات الإنجليزية فى البرتغال. ولكن الاسبانيين استمروا فى مقاومتهم للإحتلال الفرنسى لبلادهم، وبطريقة أرهقت فرنسا.

وفى هذا الوقت ، كانت النمسا تترقب الفرصة لمحاربة نابليون.

ورغم إتفاق نابليون مع روسيا ضد النمسا، إلا أن النمسا انتهزت فرصة إنشغال فرنسا بالثورات فى اسبانيا، واسرعت بمهاجمة الفرنسيين بغير اعلان حرب فى شهر أبريل سنة ١٨٠٩. ووجهت ثلاث جيوش إلى إيطاليا، وإلى غالسيا وإلى الحدود الفرنسية. ولكن نابليون أقدم بسرعة على إحتلال فيينا، ثم تعقب النمسويين حتى واجرام التى وقعت فيها موقعة فاصلة قضت على الجيش النمسوى رغم استبساله فى ٦ يوليو سنة ١٨٠٩. واضطرت النمسا إلى عقد صلح فيينا مع نابليون فى ٤ أكتوبر من هذه السنة ، الذى تنازلت به عن بعض أقاليمها لجيرانها من حلفاء نابليون ، وتنازلت به لفرنسا عن تريستا والأراضى المحيطة بها شمال بحر الأدرياتيك وفى ذلك الوقت كان نابليون قد طلق جوزفين ، فأعطته معاهدة فيينا فرصة للزواج من مارى لويز ، أبنة امبراطور النمسا، لتوثيق الصداقة بين الدولتين. ولكن هذ الزواج لم يعطى نتائجه السياسية، إذ أن النمسا ظلت تتحين الفرص التى تسنح للانتقام من نابليون .

واستمرت القوات الفرنسية مشغولة بالثورات فى اسبانيا ، التى اضطرت فرنسا إلى إرسال أشهر قوادها إليها، وزاد الأمر تعقيدا وصول قوات الجنرال ويلسلى إلى هناك ، وتهديده خطوط مواصلات الفرنسيين . وظلت الحرب سجالا بين الفرنسيين والانجليز ، ومعهم الثوار الاسبان، فى شبه جزيرة أيبيريا حتى سنة ١٨١٠، الأمر الذى عمل على إنهاك جيوش نابليون، وإستنزفها، وحينئذ جاءت أوربا لكى تتكتل فى وجه الفرنسيين ، وبشكل جعل نابليون يواجه كل القارة الأوربية .

٢- حـــرب الأمم :

كانت مقــاومة اسبانيا لنابليــون تمثل حركة وطنية أكثــر من كونها حرب بين ملوك، وسـيمتـد هذا المثل بعد ذلك، فى بروسيــا، وأقاليم ألمانيا ضد فرنسا، وبخاصة فى ذلك الذى سيزداد فيه ظهور ضعف فرنسا وضوحا. وإذا كــانت فرنسا قد تحملت الـكثير فى حرب اسبــانيا، فإن تدخله فى روسيا سيقضى على معظم قواتها المسلحة .

وكانــت هناك عوامل عــديدة تدفع روسيــا إلى الوقوف فى وجـه نابليون: ذلك أن صلح فيينا قد أقام حاجــزا منيعا بين روسيا وبقية أوربا يضم اقليم غالسيا إلى دوقية وارســو ، كما أن نابليون لم ينفذ وعده فى صلح تيلسيت بمســاعدة روسيا عــلى التوسع على حساب الامبراطورية العثمــانية، وكان الحصار البــرى يسبب ضيقــا لروسيا، كما أن مـصادفة فرنسا للــنمسا جعل فرنســا تهمل مصالح روســيا. فقرر القــيصر نقض معاهدة تيلسيت فى سنة ١٨١٠ ، وفـتح الموانى للسلع الانجليزية .وكان هذا القرار يتعارض مــع الأسس التى بنى نابليون عليها سياســته الخاصة بإنشاء الحصار البرى، حتى يصل إلى إخضاع إنجلترا ، ويتعارض كذلك مع كل الحروب التى خــاضها نابليون حــتى ذلك الوقت من أجل اعادة تنظيم أوربا. ولذلك فإن نابليــون قرر مهاجمــة روسيا. ولاشك فى أن تطبيق سياسة الحصار البرى كانت قد أدت إلى ازدياد أسعار السلع، كما أن تجنيــد القوات من أجل الحــروب المستمــرة كان قــد قلل من الأيدى العاملة، ومن الانتاج ، وجعل أوربا ترزح تحت أحكام عسكرية ، وفى ظروف تعبوية ، دون أن تكون أسـباب المعيشة ميســرة لها. ولذلك فإن نابليون قد لعب ببطاقــة الهجوم على روسيا لعبة خــطيرة، إذ أنه قام بها وهو يشعــر بحركــة عدم الرضاء عــليه وعلى نظامه فــى أوربا، وكانت امكانية عدم وصوله إلى نصر حاسم على روسيا تهدده بأن يواجه حركة

مقاومة عنيفة على كل القارة الأوربية .

وعلى أى حال فإن نابليون قد أعد لحملته على روسيا جيشا جرارا جمعه من جميع انحاء امبراطوريته ، ووصل عدد قواته إلى ٦٠٠ الف رجل، سار بهم صوب روسيا فى صيف سنة ١٨١٢ . وتلخصت خطة الروس فى الانسحاب ، استدرجوا القوات الفرنسية داخل أراضيهم الواسعة . وكانوا يخربون القرى والمزارع فى انسحابهم حتى لايفيد منها الغزاة . وظلت قوات نابليون تتقدم حتى دخلت موسكو فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨١٢، ووجد السكون من كل جانب بعد أن فر أهلها منها. وفى المساء، أشعل الروس النيران فى النطاق الخارجى لمدينة موسكو، الأمر الذى أجبر نابليون إلى الخروج منها. واعتقد أن الروس سيأتون ويطلبون منه الصلح ولكنه انتظر طويلا، واقترب فصل الشتاء، فاضطر إلى الانسحاب صوب أوربا. وكان الانسحاب صعبا والبرد شديدا، والثلوج تغطى الأراضى ،وفرسان القوازق وقوات الروس تهاجم المنسحبين فى كل مكان وفى كل مرحلة. ولم يتمكن نابليون ، رغم الجهود التى بذلها ماريشيلاته من الوصول إلى الحدود، إلا مع ١٠٠ الف فقط من رجال هذا الجيش العظيم .

وكانت هزيمة ساحقة ذاقها نابليون أو أذاقها له الروس فى مواجهة الطبيعة فى بلادهم، ولكنها كانت هزيمة واضحة أمام كل أوربا وتسببت وصول أنبائها فى تحرك البروسيين ، الذين رغبوا فى الانضمام إلى جانب الروس ، للانتقام والثأر مما حدث لهم فى أيينا. وكانت بروسيا قد قامت بعض الاصلاحات فى بلادها، سواء فيما يتعلق بالحكومة أو المالية أو الجيش، الأمر الذى أعطاها القدرة على أن تأمل فى أخذ جولة جديدة وحاسمة ضد نابليون وقواته. وكان البروسيون يرغبون فى انهاء ذلك الحصار الذى قيد وصول السلع ، وحد من خروجها. وكانوا

يرغبـون فى محـو آثار الهزيمة، واحـتلال الفـرنسيين لبـلادهم، فتـحالفت بروسـيا مع روسـيا فى مـعاهدة كـاليش فى ٢٨ فبـراير سنة ١٨١٣ .

وكون نابليـون جيشا جديدا يـتألف من الفتيـان، الذى ذكر جان جوريس أنهم كانوا يبلغـون الثالثة عشر من عـمرهم، وتقدم على رأسـه صوب وبورسيا وانتصر عليهم فى موقعة لوتزن ، التى لم تكن حاسمة مثل أوسترليـتز وأيينا. وكان نابليون هو الذى طلب الهدنة ووسـط امبراطور النمسـا فى عقـد الصلح . ولكن الأمبراطور اشـترط أن يقـوم نابليون باعادة أملاكه له قبل التدخل والوساطة ورفض نابليون ، فانضم امبراطور النمسا إلى بروسيا وروسيـا فى ٢٧ يونيو ، ثم انضمت اليهم السويد . وبذلك تفوقت جبـهة المتكتلين عدديا على فرنسـا. ولقد أضطر نابليون إلى أن يواجه قـوات كل دولة على حدة . وانتصـر فى أول الأمر على القوات النمسـوية قرب درسدن، ولكن قواده فشلوا فى بقـية الميادين ، واضطر فى منتـصف شهر اكـتوبر ، ونتـيجة لخـسائره الفـادحة ، إلى التقهقر إلى ما وراء الراين .

وتداعت الامـبراطورية ، ونشـبت الثـورة ضد نظام نابليـون فى إيطاليـا ، وأعادت هـولندا أسرة أورانج إلى الحكـم ، وعقـدت نابولى الصلح مع النمسـا وتمكن ويلسلى دون ويلنـجتـون من إنزال الهـزائم بالقوات الفرنسيـة فى اسبانيا، فأخذت القوات الفرنسـية فى الانسحاب من أوربا إلى فرنسا نفسها .

وحتى فرنسا نفـسها، بأنها شعرت بأنهـا دفعت أكثر من اللازم ، وأنها تعمل من أجل مجد نابليون ، ومـجد أسرته ، وشعرت كل أسرة بأنها قدمت الثمن من شـبابها، وحتى فتيانـها فى القوات المسلحة. وإذا

كانت الجيوش الفرنسية تعيش حسب طريقة نابليون ، على الأقاليم الموجودة فيها، فإن فرنسا كانت تعيش فى ضنك، وفى حالة تعبئة مستمرة وفى حرب بلا نهاية . وعرض الحلفاء المجتمعين فى فرانكفورت فى شهر نوفمبر سنة ١٨١٣ على نابليون أن يبقى ملكا لفرنسا بحدودها الطبيعية . ولكنه ثار ، ورفض وصمم على الحرب حتى النهاية . وعندئذ أعلن الحلفاء أنهم يحاربون نابليون ، لا الشعب الفرنسى ، وزحفوا على باريس عن طريق المارن والسين والبرانس . وكان نابليون يعتقد أن فرنسا ، قاعدة قيادته ستهب لنصرته إذا ما أصبحت البلاد فى خطر. ولكن قوة فرنسا تداعت وصمم الحلفاء فى أوائل سنة ١٨١٤ على ضرورة إرجاع فرنسا إلى حدودها السابقة للثورة . وأعلن نابليون رفضه لهذه الشروط المهينة ، فاتفق الحلفاء فى شهر مارس سنة ١٨١٤ على البقاء متحالفين مدة عشرين عاما لحماية السلم فى أوربا، وواصلوا زحفهم صوب باريس، وإذا كان نابليون قد دافع عن الأرض الفرنسية شبرا بشبر، فإن قوات الحلفاء دخلت باريس يوم ٣١ مارس سنة ١٨١٤. وكانت كارثة . ولكن نابليون لم يعترف بها. وجمع قواته وجنوده فى مونتنلو ، وطلب منهم مواصلة الكفاح ، وهنا عرضوا عليه حالة البلاد والإمكانيات ، فكتب وثيقة تنازله عن العرش لإبنه ، ملك روما، تحت وصاية والدته مارى لويز ، ورفض الحلفاء ذلك ، وأصروا على تنازل نابليون عن العرش ، بدون شروط مع إحتفاظه بلقب الإمبراطور ومنحه جزيرة ألبا.

ومنح عرش فرنسا للوى الثامن عشر أخ لوى السادس عشر ، وارث عرش البوربون . وتم عقد معاهدة باريس الأولى فى ٣٠ مايو سنة ١٨١٤ وبها أعيدت فرنسا إلى حدودها سنة ١٧٩٢ تقريبا مع استردادها لبعض المستعمرات ، وعادت أسرة أورانج لهولندا التى ضمنت

إليها بلجيكا واستقلت الولايات الألمانية، التى ارتبطت فيما بينها بإتحاد عام ، واستقلت سويسرا تحت حكومة قومية ، واستردت الولايات الإيطالية إستقلالها القديم إلا ما كان يخص النمسا من بينها. وأما بقية المسائل فإنها تركت لكى يبحثها مؤتمر دولى يعقد لذلك فى فيينا ، لتسوية أمور أوربا .

وفى جزيرة ألبا علم نابليون بالخلاف بين الحلفاء، وبعدم رضاء الفرنسيين على الأوضاع الجديدة ، فغادر الجزيرة سرا يوم ٢٦ فبراير سنة ١٨١٥ ، ونزل إلى فرنسا، وقدم إليه أنصاره وقواده وجنوده ، وفتحت له المدن أبوابها وفر لوى الثامن عشر إلى بلجيكا،ودخل نابليون قصر التويلبرى فى ٢٠ مارس . وبدأ حكم المائة يوم، وعمل نابليون على أن يجمع حوله قلوب الفرنسيين ، وأبلغ الحلفاء، الذين اجتمع وزرائهم فى فيينا، أن نياته سلمية ، وأنه يقبل معاهدة باريس ، رغم ما فيها، وأنه يتخلى عن سياسة الحرب، ويلتزم بسيادة السلم . ولكن دول أوربا أعلنت أن نابليون يعكر صفو السلام الأوربى . وأن واجبهم يحتم عليهم التعاون من جديد من أجل القضاء عليه .

وأسرع نابليون بإنشاء جيش جديد ، بلغ ١٢٠ ألف رجل ، وأسرع به لملاقاة جيوش بروسيا وإنجلترا التى كانت موجودة فى بلجيكا فى ذلك الوقت ، والتى بلغ عدد رجالها ٢٢٠ ألف رجل ، وكان يرغب فى مهاجمة كل جيش على حده يضمن النصر مع قلة عدد قواته. فبدأ بمهاجمة الجيش البروسى، ولكن هذا الجيش انسحب صوب القوات البريطانية فتم بذلك تكتل الجيشين ضد قوات نابليون. وحين أخذ نابليون فى مواجهة جيش الإنجليز بقيادة دوق ويلنجتون ، نشبت موقعة ووترلو الشهيرة التى عملت فيها الطبيعة ضده . وزاد هطول الأمطار وعجز نابليون عن تحريك جيوشه ومدفعيته. وصد الإنجليز

الفرنسيين، ثم جاء البروسيون لمعاونتهم ، وتعاون الجيشان على نابليون ، فكانت الهزيمة ، ونزل نابليون عن العرش للمرة الثانية ، وسلم نفسه لحكومة إنجلترا، حيث أرسل إلى جزيرة سانت هيلانه .

ودخل الحلفاء باريس يوم ٧ يوليو سنة ١٨١٥ ، ودخل معهم لوى الثامن عشر ، وعقدوا مع حكومته معاهدة باريس الثانية يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥ . وتعهدت فرنسا بها دفع غرامة حربية مقدارها ٧٠٠ مليون فرنك ، ووافقت على إحتلال الحلفاء لأقاليمها الشمالية والشرقية لمدة خمس سنوات وعلى أن تعود حدودها إلى ما كانت عليه سنة ١٨٩٠ . وكان ذلك بداية لعهد جديد . حقيقة أن بروسيا طالبت بأخذ مقاطعتى الألزاس واللورين بحجة إحتياجها لهما للدفاع عن أقاليمها، ولكن الحلفاء رفضوا ذلك ، وفضلوا الاعتدال، من أجل تثبيت الملكية العائدة، والاحتفاظ بالتوازن الدولى ، وإن كانت بروسيا لن تنسى هاتين المقاطعتين ، حتى سنة ١٨٧٠ .

٤- مؤتمر فيينا وعودة الحكم السابق :

يعتبر مؤتمر فيينا من أكبر المؤتمرات الدولية بعد مؤتمر أوستفاليا ، إذ أنه حاول تنظيم شئون أوربا بعد حروب طاحنة ، من أجل المستقبل . ولكن علينا أن نذكر أن هذا المؤتمر قد خضع لرغبات القائمين به ، وهم الحكومات ولم يهتم كثيرا برغبات الشعوب والحركات القومية . وتكاتفوا فى المؤتمر من أجل إعطائه ثوبا براقا ، باسم إرجاع الحقوق الشرعية إلى أصحابها، ولكنهم تناسو ذلك الأساس حين وجدوا تعارض مع أطماعهم ، فعملوا على اقتسام الغنيمة فيما بينهم .

وقرروا أن يعقد المفوضون من الدول الأربع الكبرى وهى إنجلترا

والنمسا وروسيا وبروسيا، إجتماعات سرية ثم يبلغوا ممثلوا الدول الأخرى أمر الإتفاقات النهائية . ولم يدعوا فرنسا للإشتراك فى المداولة،

ولكن حرصهم على رعاية الملكية الجديدة فى فرنسا ، دفعهم إلى دعوتها لحضور المؤتمر العام ، دون أن تشترك فى مداولات الدول العظمى شأنها فى ذلك شأن الدول الصغرى ولكن حضور تاليران لهذا المؤتمر جعله يتصل بمفوض الدول العظمى ، ويعرف حقيقة إتجاهاتهم ، وبشكل يمكنه من التأثير عليهم فيما بعد ، ومن أجل استعادة فرنسا لمكانتها .

وكانت هناك اختلافات بين الحلفاء : بين روسيا وبروسيا ، بشأن بولندا وساكسونيا، الأمر الذى أجبر النمسا وبريطانيا إلى الوقوف ، لتحديد أطماع كل من روسيا وبروسيا ، وعدم إخلالهما بالتوازن الدولى.

وظهر أن هناك انقسام فى المؤتمر، الأمر الذى يعطى لفرنسا أهمية خاصة فى إنضمامها إلى هذا الجانب أو ذاك . وانتهى الأمر بسيادة روح الإعتدال فى المؤتمر، أو تقسيم المكاسب بين الأربعة الكبار. وكان من نتيجة ذلك أن إنعكس هذا الموقف على ألمانيا ورغم ظهور رغبة قوية فى ألمانيا لإنشاء حكومة متحدة ، فإن الأمراء الألمان فضلوا المحافظة على إستقلالهم ، كما أن النمسا وبروسيا تنازعتا الزعامة ، فلم يحصل الألمان فى نهاية الأمر على أكثر من إتحاد اسمى ، بدون كبير قيمة ، إذ أنه سلب الدايت كل قوة تنفيذية ، وقيدت سلطته بقيود ثقيلة .

وكان المجهود الأسمى لواضعى معاهدات صلح سنة ١٨١٥ فى مؤتمر فيينا تتركز فى تسوية المسائل المطروحة نتيجة لإنهيار إمبراطورية نابليون ، وكان للمنتصرين مشغوليتان : الأولى هى تحقيق التوازن النسبى بين القوى . وكانوا يرغبون فى الوصول إلى ذلك مستندين ، فى عملية

رسم الحدود ، إلى أعمال « لجنة الإحصاءات » التى كانت قد جمعت الأرقام ، دون أن تلتفت إلى الإختلافات اللغوية ، أو الدينية وللتقاليد ، ولتعاطف مجموعات الأهالى أو تنافرهم . ولذلك فإن الخريطة السياسية قد وضعت لتخدم فكرة الدولة كما كانت موجودة فى القرن الثامن عشر ، وأهملت الروح القومية التى كانت لها، رغم ذلك دورا هاما فى ذلك الصراع الذى نشب ضد سيطرة نابليون على القارة .

ومن ناحية ثانية ، عمد هؤلاء الرجال وقف التغييرات السياسية والإجتماعية التى كان الحكم الفرنسى قد تسبب فيها، أو ساعد عليها، لا فى الأراضى الألمانية والإيطالية فحسب ولكن حتى فى بولندا .

وكانت إعادة الأسر الشرعية تلعب فى صالح السلطات التقليدية ، مثل كبار ملاك الأراضى ، وكذلك سلطات الكنائس ، وكانت الحكومات فى البلاد الكاثوليكية ترى فى الكنيسة الرومانية خط الدفاع ضد الأراء الثورية ، واستعدت سياسة البابوية لتنفيذ ذلك ، ولم تقتصر عبارة « تحالف العرش والمذبح » التى استخدمها أصحاب السلطة الشرعية الفرنسيين ، على فرنسا وحدها. ولذلك فإن تسويات سنة ١٨١٥ لم تكن تهدف مجرد تحطيم الإمبريالية الفرنسية ، بل أنها وضعت كذلك كعقبة أمام انتشار « الأراء الفرنسية » أراء سنة ١٧٨٩ ، وكخط دفاع يمكن للقوى المحافظة والتقليدية أن تعود فى ظله .

ولكن ، هل سيكتب لهذه النتائج أن تعيش لفترة طويلة ؟ لقد كان كاسليرى ، والذى كان دوره رئيسيا فى مؤتمر فيينا ، يأمل فى أنه قد ضمن السلم فى « السنوات السبع القادمة » .

ولم يحاول مؤتمر فيينا إعطاء حل للأزمات الداخلية للامبراطورية

الإستعمارية الاسبانية ، وللإمبراطوريتين العثمانية ، والتى كان مداها يزيد كثيرا عن إطار هاتين الإمبراطوريتين ، وكان من الصعب معالجة مسألة المستعمرات الاسبانية فى ذلك الوقت الذى كانت الدول العظمى المنتصرة تعيد فيه الملك فرديناند لعرش مدريد ، وكان كاسلبرى نفسه قد وافق على حق الأسرة المالكة الاسبانية فى سحق ثورة المستعمرات ، وكان قد حصل فى نظير ذلك لإنجلترا من إسبانيا على مجرد وعد بالحصول ، من وجهة النظر التجارية ، وفى المستعمرات الاسبانية ، على معاملة الدولة الأكثر ودا . أما فى مسألة الدولة العثمانية ، فلقد اقترح كاسليرى ، وميزنيخ على الدول العظمى الأخرى ، وهى بروسيا وروسيا ، أن يضمنوا حدود الامبراطورية العثمانية أى أنهم حاولوا حمايتها تجاه إمكانية التوسع الروسى . ولكن القيصر عمل على تأجيل بحث هذا الاقتراح ، وطالب بالبدء بتسوية الخلافات الروسية - التركية، فى منطقة البحر الأسود ، وبحر قزوين ، أى فى شرق البلقان وأقاليم جورجيا، ولم يكن سلطان الدولة العثمانية مستعدا للدخول فى مثل هذه التسوية ، خاصة وأنه لم يكن عضوا فى مؤتمر فيينا .

لن تتأخر مثل هذه المشكلات عن فرض نفسها على العالم ، أنها مشكلات القرن التاسع عشر ، وهى فترة جديدة فى التاريخ الحديث ، وإن كانت قد نتجت عن نهاية عصر نابليون .

الباب السادس
القرن التاسع عشر

الفصل الحادى والعشرون

أوربا بعد مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥

أثر مؤتمر فيينا ، بقرار ليه ونتائجه ، على مستقبل أوربا لفترة سنوات طويلة ومنذ نهايته أخذت مظاهر تضارب المصالح بين الدول معانيه داخل نطاق الخطوط العامة للوسط الاجتماعى والاقتصادى ، واتجاهات الفكر السياسى .

١ - عودة القوى التقليدية والمقاومة :

اصطدمت التسوية ، التى وضعت سنة ١٨١٥ ، بمعارضة مجموعات إجتماعية . كانت آمالها ومصالحها مهددة باعادة النظم التقليدية ، وكذلك بمعارضة الشعوب التى لم تعترف عملية رسم الحدود بآمالها . ولكن هذه الظواهر كانت متفرقة بعد مؤتمر فيينا . وكانت هذه المجموعات الإجتماعية المهددة بالإتجاهات « الرجعية » هى الفلاحين، وبخاصة فى تلك المناطق التى كانوا قد أفادوا فيها من الإصلاحات التى ترتبت على نشر أراء الثورة الفرنسية ، وكذلك التجار ورجال الصناعة الذين كانوا قد أفادوامن تدهور نفوذ كبار ملاك الأراضى ، والمثقفين الذين أغرتهم مبادىء سنة ١٧٨٩ . ولكن ردود فعل هذه المجموعات كانت غير متساوية. فاحتفظ الفلاحون بالفعل ، وفى معظم الدول ، بالمكاسب المادية التى كانوا قد حصلوا عليها تحت النظام الفرنسى مثل إلغاء الحقوق الإقطاعية وتحويل الملكية. ولذلك فان إعادة النظم القديمة لم تتعرض للمزايا التى حصلوا عليها .

أما الحرفيون والتجار والصناع ، فكانت رغبتهم تتمثل فى تنمية دوافعهم دون خوف من تدخل البيروقراطية ، وللتحرر من العقبات التى كانت تحد من حرية التعامل فى بروسيا والنمسا ، وللحصول على نظام

يساعد على نمو النشاط التجارى، فى نطاق حرية الإشتراك . وكانوا يخشون من أن تقوم الحكومات العائدة بممارسة سياسة جمركية تخضع لمصالح كبار الملاك العقاريين .

وليس فى وسعنا أن نقدر عدد العناصر الغير راضية بدقة . ولكن يمكننا أن نعد بينهم الضباط الذين خدموا فى الجيش الكبير، والذين أصبحوا بدون عمل، والموظفين الذين شاركوا فى الإدارات سواء تحت الإحتلال الفرنسى ، أو تحت حكومات الدول التى خضعت للامبراطورية الفرنسية ومما لاشك فيه أن المثقفين وأصحاب المهن الحرة قابلوا إعادة سيطرة الأرستقراطية ورجال الدين بكل حذر . ولذلك فان المعارضة كانت لها قيادتها ، دون أن يكون لها جنود . وحتى فى الدول الإيطالية كان عدد أعداء النظم العائدة قليلة . ولم يكن للجمعيات السرية ، التى حاولوا أن يتجمعوا فيها ، تأثير على الجماهير. وأما فى الأقاليم الألمانية، فقد اعتبر الحرفيون والفلاحون هذه الأوضاع القائمة ، كضرر لابد منه ، ولذلك فإن المقاومة كانت لها قواعد أكثر إتساعا ورجع ذلك إلى الجامعات، والتى كان الأساتذة يحتفظون فيها بحرية تعبير نسبى، وإلى نمو بورجوازية من رجال الأعمال فى منطقة الراين بشكل خاص كانت تحاول محاربة « التنظيم الاقطاعى » للمجتمع ، وتخشى عودة النبلاء . وكانت مجموعات صغيرة ، وقليلة العدد ، ولكنها كانت تتميز بقوة معنوية ، لأنها إحتفظت ، فى الدول الخاضعة لنظم إستبدادية ، بمراكز عاشت فيها مبادىء سنة ١٧٨٩

٢- التحرر السياسى وحركة القوميات

كانت المعارضة السياسية تطالب بالتحرر السياسى ، سواء كان ذلك عن عقيدة ، أو لمصلحة . وكان البرنامج العام يتمثل فى أن يأمنوا

للفرد ضمانات أساسية : هى الحربة الفردية ، وحرية الصحافة ، وحرية الاجتماع والاشتراك وأن يحصلوا للمواطنين على حق المشاركة فى الادارة وفى سن القوانين ، عن طريق مجالس تمثيلية ، ويحصلوا على ضمان لهذه الحريات والحقوق فى أحد الدساتير ، الذى يحدد سلطة الحاكم تجاه الفرد وتجاه التمثيل الوطنى . ورغم عدم وجود تطابق داخل هذه الحركة الحرة ، وبين كل من يعتقدها ، بشأن إمتداد حقوق الانتخاب ، أو فيما يتعلق بتنظيم الهيئات التمثيلية ، إلا أنه كانت هناك فكرة وعقيدة عن الحرية الى بدت وكأنها الشرط الأساسى لتقدم البشرية .

وكان هذا البرنامج يهدف فى أساسه ، لمجرد الحصول على إصلاح النظام السياسى ، داخل إطار الدول العائدة . ولذلك فانه كان لايتعرض بطريق مباشر الوضع الأقليمى الذى رسمته المعاهدات . ولكن مما لاشك فيه أن إنتصار حركة حرة فى إحدى دول القارة الأوربية كان يعنى قلقلة للنظام المقام ، ويمكنه أن يصبح فاتحة لازمة ثورية جديدة ، قد تزيد نتائجها عن الإطار الوطنى بكثير .

أما بالنسبة للقوميات ، فلقد كان من طبيعة عمل مجموعات الأهالى الذين يحتجون ضد رسم الحدود أن يكون تهديدا أكثر مباشرة ، وأسرع ، بالنسبة للوضع القائم ، وكانت هذه الاحتجاجات تعتمد ، فى مناطق مختلفة من أوربا، على الفروق الموجودة بين الشعوب من وجهة نظر اللغة والدين، والعادات والتقاليد ، والذكريات التاريخية ، وعلى الميول الثقافية والعاطفية . وكانت مجموعات الأهالى التى تتميز عموما بهذه الصفات أو هذه المشاعر تكون « أمة » يمكنها أن تطالب بحقوقها لكى تكون لها حياة خاصة بها. وكان هذا الشعور بالقومية قد تأكد قبل ذلك فى المقاومة التى وقعت ضد سيطرة نابليون ، ولكنها

كانت فى ذلك الوقت متطابقة مع الشعور الوطنى ، ومع رد الفعل ضد الإحتلال الأجنبى والجديد فى الموضوع هو أنها قد أخذت شكل « نظرية » بعد سنة ١٨١٥ : فليس من حق الحكومات فرض سلطتها على الأهالى الذين يعتبرونها أجنبية ، وتقسيم الخريطة السياسية أمر مرفوض حينما يجبر الأهالى الذين يلتمسون إلى نفس الأمة على المعيشة فى دول مختلفة . ويعنى هذا بإختصار محاولة إيجاد تطابق وبدرجة وعى نسبية بين الدولة والأمة .

ولكن الطريق كان لايزال طويلا ، فى سنة ١٨١٥ ، أمام الشعور القومى لكى يستيقظ فى كل مكان . فلم يكن هذا الشعور واضحا فى ذلك الوقت فى إمبراطورية النمسا ، التى كان يعيش فيها أهالى يختلفون فى اللغة والدين وفى التقاليد جنبا إلى جنب ، ولم يكن الأمر أحسن من ذلك فى الأراضى المنخفضة أما فى الاقاليم البولندية ، والتى كانت مقسمة بين ثلاث إمبراطوريات ، فإن مجموع الفلاحين كان ساكنا، فى الوقت الذى بقيت فيه الرغبة للاستقلال الوطنى فى أوساط النبلاء وبين صفوف رجال الدين الكاثوليك . ولكن المسألة البولندية لم تطرح بشكل جاد ، إذ أن وجود التقسيم أدى إلى وجود [illegible] بين الدول الثلاث التى حصلت على بولندا .

وفى شبه الجزيرة الإيطالية ، التى تحولت بعمق فى أثناء فترة حكم نابليون ، فإن المعاهدات أعادت وضع تقسيم سياسى ، ورسمت سبع دول لايوجد بينها أى رابط إتحادى ، وضمنت للنمسا إمتلاك لومبارديا والبندقية ، ونفوذا مسيطرا على إمارات بارما ومودينا وعلى دوقية توسكانيا الكبرى . وقد خيبت هذه التسوية آمال هؤلاء الايطاليين الذين كانوا قد تطلعوا أثناء العهد الفرنسى، إلى إمكانية الوحدة القومية . ولذلك فقد كان من النطقى أن يحتج هؤلاء ضد مبادىء ونتائج

وتسويات السلم ولكن عدد هؤلاء المحتجين كـان صغيرا جدا، وكانوا يقتـصرون تقـريبا على المثـقفين وأحـرار النبلاء والبرجـوازيين ، وعلى الضـباط الذين خـدموا فى الجـيش الكبيـر ، ولم يكن فى وسعـهم أن يجدوا سنـدا سواء فى مجـموعـة الفلاحين الذين كـانوا غالبـا بؤساء، ودائما لايأبهوا للحياة السياسية ، أو فى أوساط الحرفيين فى المدن، إلا فى حالات نادرة ، وهم الذيـن كانوا نشطين وأذكيـاء ولكنهم ظلوا من أنصار « الفكرة البلدية » .

وأما فى ألمـانيا نفسـها ، وحـيث قام الأهالى فى مـجمـوعهم «بحرب تحرير » وحيث ظهرت حركة فكرية واسعة وقت مؤتمر فيينا من أجل الوحدة القومـية فان تطبيق بنود الاتفـاقية العامة للـمؤتمر، وتطبيق نظام الاتحـاد الألمانى ، تواجه مـقاومـة . حقـيقـة أن رؤساء الحـركات الوطنية لم يخفوا خيـبة أملهم فى هذا الاتحاد، وفى الدايت ، وفى بقاء ألمانيا مقسمة ، ولكنهم لم يجندوا الأعضاء العاملين النشطاء فى حركتهم الوطنية إلا بين الشـباب الجامعى . وأصبـحت اتحادات الطلاب فى كل جامعة مركزا للأراء والأفكار القومية . أما الحركة الوحدوية فانها لم تزد عن نطاق معارضة المبادىء رغم أنه كانت لها قاعدة أكثر صلابة منها فى الدول الإيطالية .

ولذلك فـان حركـة القـوميـات ، مـثلها فـى ذلك مثل الاتجـاه التـحررى ، لم تكن من القـوة بدرجة تقلقل أسس الـسلام ، وكانـتا تمثلان خطرا مـحدودا . ومع ذلك فان الحكومـات لم تهمل أمر مـواقبة مراكز هذه الأراء « الهدامة » خاصـة وأن تجربة سنوات الأزمة كانت قد علمتهم الخطر . ولكن الخطر ظل كامنا .

٣- دور المصالح الاقتصادية

إحتفظت إنجلترا بعد تسويات سنة ١٨١٥ بتفوقها الإقتصادى التى كانت قد حصلت عليه أثناء القرن الثامن عشر ، وكانت على رأس التقدم فى وسائل الصناعة ، التى كان إستخدام الآلة البخارية قد أخذ فى تحويلها. وكانت تمتلك فى ميدان النسيج معدات آلية تنمو بسرعة ، وفى التعدين كانت تستخدم على نطاق واسع مسخن الأفران بفحم الكوك ، وهو الذى كان يسمح بخفض قيمة التكلفة. وكانت وفرة الأيدى العاملة تخدم هذا النشاط الصناعى ، خاصة وأن عدد سكانها زاد من ١٢,٥ مليون نسمة فى سنة ١٨١١ إلى ١٦,٥ مليون نسمة فى سنة ١٨٣٠. وكانت مزودة بتنظيم تجارى ومصرفى متفوق . وكان أصحاب رؤوس الأموال الانجليز قد كدسوا الأرباح التى سمحت لهم بالقيام باستثمارات بالخارج . وبلغت مجموع هذه الاستثمارات فى سنة ١٨٢٧ ما يقرب من ٩٣ مليون جنيه ، كانت غالبيتها فى شكل سندات وديون لفرنسا وروسيا والدول الألمانية .

وكان هذا المركز المتفوق يجعل الحكومة الانجليزية لاتخشى بعد ذلك من « تعليم » دول القارة. وبعد أن كانت قد رفضت ومنعت ، حتى سنة ١٨١٥ تصدير الآلات ، لكى تحتفظ بالتفوق التقنى لصناعاتها، تركت بعد ذلك هذه القيود ، خاصة وأن صانعى آلاتها كانوا يرغبون فى أن يوجدوا لأنفسهم مجالات توزيع . وكان عمالها المهرة يأملون فى أن يطلبوا إلى الخارج ، لكى يعطوا « دروسا » لزملائهم على القارة .

وظهرت سيطرة المناهج والوسائل الانجليزية بشكل واضح فى الأقاليم البلجيكية من مملكة الأراضى المنخفضة . من خلال العشرين

سنة التالية لعام ١٨١٥. وفى بقية المناطـق كان النمو الصناعى أكثر بطئا:

ففى فـرنسا ، استنجـد بعض أصحـاب المشروعات ، وبخـاصة فى صناعة القطن ، بعد سـنة ١٨١٥ مباشرة، بالوسائل التـقنية الانجليزية، وبخبرة عمال مـا وراء المانش . ويظهر أن ١٥ ألف عامل إنجليزى كانوا يعملون سنة ١٨٢٤ فى فرنسا وفى الـدول الألمانية لم يختلف الحال عن ذلك كثـيرا. فنشأت الصناعـات المعدنية الحديـثة غالبا بمسـاعدة رؤوس الأموال الاجنبية ودائما بمساعـدة الفنيين الانجليز. ولم تكن موجودة قبل سنة ١٨٣٠ إلا فى بعض المناطـق : مثل صناعـة النسـيج وفى كليـفلد وبريمن ، وصناعة التعدين فى إيفل ، التى استخدمت سخان الكوك ولم يبدأ النـمو إلا بعد سنة ١٨٣٥، وحين وسـعت الوحدة الجـمركـية من السوق وبدأ فى اقليم الراين . وكذلك فى إقليم الرور . أما فى إيطاليا،

وحيث كانت لكل الدول نظم حماية جـمركية، وحيث كانت رؤوس الأموال نادرة ، وظلت وسـائل المواصلات ضعـيفة ، فأن التـصنيع قد إصطدم بعـقـبـات أكبـر ولم تظهـر بعض المجـهـودات إلا فى منطقـة لومبارديا، أى فى الأقليم الملحق بأمبراطورية النمسا. ومع ذلك فقد كان هـناك فى منطقـة مـيلانـــو مصنع غـزل واحد مـزود بوسائل آليـة سنة ١٨١٥ . وأما فى فـرنسا ، فان صناعة القطنيـات فى بوهيميا والنـمسا السفلى ، وصناعـة المعادن فى أيستريا، كـانت متخلفة تقنيـا عن منطقة الراين وأخيـرا نصل إلى روسيا، التى زاد تعداد سكانهـا عن ٥٠ مليون نسمـة ، ولم يكن بينهم سوى ٢١٠ ألف عـامل مقـسمين بين ٥ آلاف ورشة ، وظل الانتـاج الصناعى ، سواء صناعة التـعدين فى الأورال ، ومعامل التكرير وصناعة المنسوجات ، يسير على طرق قديمة .

ورغم تقدم الحياة الصناعية ، فان الاقتصاد الزراعى ظل سائدا فى كل مكان، ولكن ظهـور أشكال جديدة للحـياة الصناعيـة ، فى بعض

المناطق أثر فى الأوضاع السياسية ولم يرجع ذلك لمجرد أن نمو البورجوازية الصناعية والمتاجرة كان يساعد على تقدم الأراء المتحررة فى فرنسا وفى بروسيا أو فى لومبارديا والبندقية ، ولكن كذلك لأن المصالح الاقتصادية كانت لها تأثير مباشر على السياسة الخارجية للدول . وكان نمو النشاط الصناعى يطرح مسألة الأسواق وكانت هذه المشغولية واضحة فى بريطانيا العظمى وبشكل خاص ، فكان الانتاج فى ميدان النسيج وفى ميدان صناعة الآلات يزيد عن إحتياجات السوق الداخلى ، ولذلك فان رجال الصناعة الانجليز قد أجبروا على البحث عن عملاء أجانب . ونجح صانعوا الآلات فى ذلك بسيولة ، مادام أصحاب الصناعة الحديثة على القارة كانوا لايجدون معداتهم إلا فى بريطانيا العظمى . ولكن صانعى المنسوجات بدأوا فى مواجهة منافسين فى بعض مناطق أوربا، وأصبح عليهم أن يبحثوا عن أسواق جديدة ، وأخذ أعضاء مجلس العموم يطلبون إلى الحكومة أن تعقد معاهدات تجارية تحصل بها على خفض الرسوم الجمركية أو تعمل بها على إزالة العوائق الموضوعة أمام الإستيراد فى الدول الأجنبية .

وكان تأثير المصالح الاقتصادية واضحا فى حركة القوميات . فالمعارضة البلجيكية للسيطرة الهولندية ، ومقاومة لومبارديا والبندقية للوجود النمسوى كانت خاضعة لحد بعيد للظروف الاقتصادية : فمصالح رجال الصناعة والتجار البلجيكيين كانت تصطدم بمصالح الهولنديين ، ورجال الصناعة فى ميلانو كانوا يشكون من خضوع منتجاتهم لرسوم جمركية عند دخولها النمسا فى الوقت الذي فتح فيه سوق لومبارديا على مصرعيه للسلع النمسوية. كما أن النمو الاقتصادى كان عاملا فعالا يدفع التجار ورجال الصناعة فى أقليم الراين إلى الرغبة فى إقامة اتحاد جمركى بين الدول الألمانية، يمكنه أن يضمن لهم الأسواق

وكـان الزولفيـرين الذى وضعت أسـسه إبتـداء من سنة ١٨١٨، والذى أنشىء فى سنة ١٨٣٤ ، يعتبر إستجابة لهذه الرغبة .

٤- المناخ الثقـافى :

فى خلال السنوات التالية لعام ١٨١٥ إمتـدت الحركة الرومانتيكية من ألمانيـا وإنجلترا فى فـرنسـا وفى إيطاليا ، ثم فـى الأقاليم البـولندية والتشيكية والبلقانية والمجرية، وأخيرا فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، بمساعدة الإتصالات الشخـصية بين كبـار الكتاب . وإحتفظت هذه الحـركة حتى سنة ١٨٢٠ بوحـدتهـا، وقـامت بمجـهـودات لقطع الصلة بالتـقـاليـد الكلاسيكيـة ، ولكى تعطى المؤلفات الأدبية هدفـا جديدا ، هو التعبـير عن حالة الروح والنفس . ولكن إنـشقاقا حـدث بعد سنة ١٨٣٠ فظن البعض مخلصـا لسياقه الأساسيـة ، وبحث الآخرون عن إقامة صلة بين الإتجاهات الأدبية الجديدة وبين الروح « الراديكالية ». ومنذ ذلك الوقت ساد الإتجاه « التـحررى » عند الرومانسـيين الإيطاليين والبولنديين وعند بعض الرومانـسيين الألمان ، الذين رغبـوا فى إستـخدام الأدب لتوجـيه الشعور القومى . وأصـبحت هذه « الرومانتيكية التقدميـة » عاملا هاما فى حركات التحـرر الوطنى . وهذا التيار للحياة الثقـافية مهم ، إذ أنه يسمح برؤية الصورة التـى كان كل من الشعوب الأوربية الكبـيرة يكونها لنفسه عن جيرانه . وظهرت فى هذا الميدان ظاهرتان واضحتان : الأولى تتمثل فى الجهل التام لدى الأوساط الغربيـة بروسيا وشعبها، ولكن هذا الجهل بدأ فى الانقشاع فى الثلاثينات ، والثانيـة تتمثل فى نشاط التبادل الثقـافى بين أقاليم أوربا الغـربية ، وفى هذه الناحـية كان إتجـاه أوساط المثقفين فى فرنسا المهزومة له قيـمته ، فبدلا من الانطواء على أنفسهم، أظهـرت هذه الأوساط الفـرنسيـة فضـولا لطيفـا تجاه أعـداء الأمس ، وحاولت فهمهم فبالنسبة للألمان ذهب هذا الفضول إلى أقصاه حين ظهر

كتاب مدام دى أستايل عن « ألمانيا » والذى كان صورة للحياة الثقافية فى ألمانيا ، لأخلاق الشعب الألمانى . ومدح هذا الكتاب طبيعة الآلمان ، من الولاء الكامل والقوة والمثابرة والشعور العميق بالعدالة . وذهب إلى حد تأكيد أن حرية الفكر فى ألمانيا كانت أكثر منها فى فرنسا . وأصبح هذا الكتاب دستور الرومانسيين . وإن كان قد ظهر له رد فعل فى كتب أخرى ، أظهرت خوفها من المستقبل ، ومن أن تستسلم كل ألمانيا لبروسيا ، التى ينمو فيها تيار قومى ، وحالة فكرية ، مع إستبداد مستنير قد يصل بها الحد إلى قتل فرنسا .

ومع الانجليز ، أخذ « المجتمع الراقى » الفرنسى فى إقامة صلات دائمة بمجرد عودة السلام العام . وكان هناك جنون حقيقى فى الصالونات بطرق وآراء الأرستقراطية الانجليزية . ووضح تأثير بايرون على الأوساط الأدبية الفرنسية ، واشتهرت كتابات والتر سكوت وشيلى فى فرنسا . وكان هناك مسرحا إنجليزيا فى فرنسا ، وكتب الكثيرون عن عبقرية شكسبير . وأصبح المتحررون الفرنسيون ، الذين كانوا فى أول الأمر معادين لهذا التقارب الانجليزى ، حتى وإن كان مجرد أدبى ، أكثر ودا بعد ذلك ، وأكثر لطفا ، حين تأكدوا أن التفوق السياسى للأرستقراطية الانجليزية قد هزته مجهودات « الاتجاه الراديكالى » . حقيقة أن هذا التقارب مع بريطانيا قد ظل محصورا فى أوساط صغيرة ، ولكنه كان يتمثل كذلك فى العلاقات الرسمية ، وعند بعض كبار الكتاب الذين أعجبوا بالحضارة الإنجليزية . وقد مهد ذلك ، وكعامل ثقافى لتفكير الكثيرين فى محاولة إيجاد طريق لتنظيم الحياة الدولية بطريقة سلمية : فانتشرت فكرة إنشاء المنظمات العامة ، لتوحد بين الشعوب الأوربية ، ولبحث المسائل المتعلقة بالصالح العام للمجتمع الأوربى كما ظهرت فكرة إقامة حكومة فيدرالية أوربية ،

وإقامة برلمان أوربى .

ومن ناحية أخرى عمل التأثير الكبير لهيجل فى إتجاه مضاد تماما. وفى سنة ١٨٢٠ شرح أستاذ الفلسفة الألمانية ، فى كتابة عن « أسس فلسفة الحق » فكرته عن الدولة التى يجب أن تتمثل فيها - كما يقول - وحدة الثقافة والوحدة الوطنية ، وتمارس سلطات غير محدودة ، حتى تتمكن من منع « الأعتداءات الألمانية » ، وتحد من تحكم الرغبات الفردية . ووظيفة الفرد الرئيسية هى أن يعمل من أجل خدمة الدولة ، التى سيكون واجبها هو إستخدام « سياسة القوة » . ويتركز تاريخ العالم حول تاريخ الدول ، أى حول تاريخ هذه السياسة . فالدولة التى تمتلك درجة أعلى من التنظيم والثقافة من حقها أن تبتلع الدولة « الأدنى » إذ أن الدولة المنتصرة تثبت بانتصارها نفسه أنها متفوقة . ومن الطبيعى ، بالنسبة لوجهة النظر هذه ، صرف النظر عن فكرة كونت عن « مجتمع الدول » مادام هيجل يقول عنها أنها لاتتمتع « بحقيقة تاريخية » ولايمكننا ان نتناسي أن نظرية القوة هذه ، وتبرير إستخدام القوة قد أعطت التسلط الدولى أساسا منطقيا، ولا أن نتناسى أن تعاليم هيجل قد إمتدت وإنتشرت إلى ما هو أبعد من الجامعات الألمانية .

الفصل الثانى والعشرون

تحرر أمريكا اللاتينية

لقد عاشت هذه الامبراطورية الأمريكية التى منحها الغزاة لقشتاله مدة ثلاثة قرون . عاشت مع التحكم ومع الروتين ، ولكنها عاشت على أى حال وإستمر الإسبانيون فى إستغلال الوطنيين وفى إجبارهم على شراء ملابسهم وتموينهم بأعلى سعر ممكن . ومنعوا زراعة عدد من المحصولات ومنعوا عدد من الصناعات حتى لاينافسوا إسبانيا، وأهمل الإسبانيون بعض المقاطعات مثل الجزء الاسبانى من سان دومنجو . ورغم كل ذلك فلقد إحتفظت إسبانيا بممتلكاتها ودون أن تكون سياستها هى سياسة الطغيان على طول الخط . فنلاحظ أن بعض الاصلاحات المتحررة قد عملت على إستقرار نظام التجارة الخارجية ، ووضعية الحدود ، فازدهرت الزراعة ونمت المدن . أما فى كاليفورنيا فإن الاستعمار قد تقدم، واخذت المكسيك تنتج ثلثي معدن الفضه فى العالم ، وأخذ ميناء بونس إيرس فى تصدير جلود مواشى البمبا .

١ – الأوضاع الموجودة فى أمريكا اللاتينية :

وإذا كانت أمريكا قد أخذت فى التحرك ثم فى الغليان فإن الاسبانيين كانوا مسئولين عن ذلك إلى درجة كبيرة . لقد إحتفظت إسبانيا للاسبانيين المولودين فيها بشغل وإحتلال الوظائف العامة، أما المخلطين ، وعدد منهم من دماء إسبانية ، رغم أنهم ولدوا فى أمريكا، فانهم قد أخذوا يحسدون ثم يحقدون على من ولدوا فى إسبانيا . وأما المخلطين من الهنود والزنوج ، والذين كانوا يكونون طوائف أدنى . فلقد كان لهم أن يشتكوا أكثر من غيرهم . وحينما أعلن توياك أما دور

الثورة ثم قتل ، إعتبره الهنود آخر أبناء الشمس ، رغم أنهم إحتفظوا باتجاه سلبى تجاه الحكومة

وكان الإسبانيون المولودون فى أمريكا هم العناصر الرئيسية التى يمكنها أن تتخلص من الطغيان . وكانوا قد قرأوا روسو ورينال وديديور ، وعرفوا ، كيف قام روبيرتسن بالقضاء عن الطغيان الاسبانى فى كتابه عن تاريخ أمريكا، التى منعت مدريد نشره وتداوله . وكانوا يعرفون مثل التحرر الذى أعطاه لهم معمروا أمريكا الانجليزية وزنوج سان دومنجو . وساعدت كل هذه العوامل على إرتفاع درجة الحمى تحت شمس المناطق المدارية .

وكان للحركة التحررية أنصارها فى مدريد نفسها فنجد ، أن الكونت دارندا يقترح الا تحتفظ إسبانيا إلا بكوبا وبورتويكو وبجزء من أمريكا الجنوبية ، وتضحى ببقية أمبراطوريتها، وتنشىء عددا من الممالك المستقلة فى المكسيك وفنزويلا وبيرو ، ولصالح أبنائها فى العالم الجديد . ولم يهتم أحد بهذا المشروع . ولكن الاسبانيين فى أمريكا اللاتينية كانوا يعرفون أن البذور قد أخذت فى الانبات .

ووجد الاسبانيون فى أمريكا حلفاءا يعضدونهم ، خاصة وأن الولايات المتحدة الامريكية كانت تعارض الاتجاه التجارى الاسبانى ، وكانت انجلترا قد بدأت فى الاتصال بالصادرات الأمريكية، أما اليسوعيون الذين كانوا بعيدين عن نسيان الظروف التى طردوا فيها من باراجواى فانهم قد رحبوا بالأراء الثورية فى العالم الجديد وعضدوها ضد مدريد .

٢- القــواد والثــورات :

ولم يكن من الســهل قيام ثورة بدون قـيادة . ولـم يفـتقـر العالم الجديد لقوادِ ثوار في هذا العصر . فنجد أن ميراندا قد ولد فى كاركاس من أبوين إسبانيين ودرس الثورة على واشنطون ثم فى جيش دى مورييه، ثم يقوم ببعض المناورات والمؤمرات فى فـرنسا ، ويفاوض فى انجلترا وفى الولايات المتحدة ، ويبـدأ أولى عمليات الثورة . أمـا سان مارتان فكان من أبـناء منطقـة لابـلاتا وبطلا مـصـمـمـا يمكنـه أن يصل إلى الاستـقلال. وأخيـرا فهناك بوليـفار الذى ولد فى كاراكـاس والذى قرأ بلوتارك وروسو وكان رومانتيكيا أمام الرومانتيكيين فى الوقت الذى كان فيـه عمليا ومـنظما. وامتـاز على الآخرين بشـعبيـته وكرمـه ، وكان لايخشى شيئا ، كمـا كان يحب المواقف الطنانة والبلاغات . لقد أقسم أمام محفل قادس الماسونى على ألا يعترف بحكومة وطنية إلا تلك التى تنتخبها الارادة الحرة والتلقائيـة للشعب . كما أقسم فى روما وهو راكع على تحريـر وطنه . ورغم هذه الحركـات المسرحيـة فقـد كان مخـلصا ومصـمما عـلى الوصول إلى مبـتغاه . وكـان ذلك فى سنتى ١٨٠٣ ، ١٨٠٤ ، وبقى عليه أن ينتـهز الفرصة التى سنحت حينـما طرد نابليون البوربون من مدريد ، وترك أمريكا يتيمـة بدون أسرة حاكمة . وحينما ثارت إسبانيا حاولت أمريكا الاسبانية أن تبقى مخلصة للبوربون، ولكن نابليون أعلن أنه لن يعـارض فى تكوين دولة مستقلة فيـها، وسمح هذا لأحد رجال الدين القرويين فى المكسيك ، وهو ميجويل هيدالجو باعلان الاستقلال الذاتى . أما فى بونس إيدس فإن الثوار قد أعدموا نائب الملك رميا بالرصاص . وتكونت جمـاعة حربية ، أو مجلس ثورة فى فنزويلا وأدعت أنها تحتفظ بحـقوق السيادة الشرعية ، وسمـحت بإنتخاب مؤتمر تضاربت فـيه وجـهات نظر الملكيين أنصـار إسبـانيا ، ووجـهات نظر

الجمهوريين أنصار الحرية وإختار هذا المؤتمر ميراندا قائدا عاما سنة ١٨١١ مما سمح له بالوصول إلى سلطات الدكتاتور فيما بعد .

ورغم كل ذلك فإن العملية لم تكن قد انتهت بعد . ذلك أن الانجليز ، حلفاء إسبانيا ، كانوا لايقدرون على تعضيد الثوار واكتفوا بالحصول على حرية التجارة مع أمريكا، وساعد ذلك على عودة الاسبانيين إلى السلطة هناك . أما المكسيك فإنهم قد تمكنوا من القضاء على هيدالجو، أما فى فنزويلا فإنهم قد نجحوا فى إثارة الزنوج ضد المخلطين ، وجاء أحد الزلازل لكى يثبت أن السماء كانت ضد الحكومة الثورية ، ويدفع السذاج إلى ضرورة العودة للولاء للحكم الشرعى . ولقد إضطر ميراندا إلى التسليم ، وأنهى حياته فى سجون إسبانيا.

وجاءت بعد هذه موجة ثانية قام فيها بوليفار بالسيطرة على العمليات وبدون رحمة وفضح فيها الاسبانيين كأعداء طبيعين لايمكن مهادنتهم ، بل من الواجب محاربتهم حتى الموت وبدون شفقة أو رحمة ولكن مع العزم والتصميم على إنهاء الطغيان ، حتى ولو كان ذلك عن طريق مواجهتهم بطغيان آخر . لقد كانت حربا أهلية بين الامريكيين تتواجه فيها قوات أنصار التحرر وأنصار الولاء لمدريد. أما الاسبانيين المولودين فى أمريكا والذى نجح بوليفار فى إثارتهم فإنهم قد إضطروا إلى مواجهة المخلطين الذين يسكنون السهول ويعملون كمعمرين ويحصلون على الأسلحة من إسبانيا. ولقد نجح بوليفار فى أخذ كاراكاس، ولكنه فقدهم بعد ذلك . وحينما عاد البوربون إلى عرش مدريد سنة ١٨١٥ أرسلو جيشا يبلغ عشرة آلاف رجل ، مزودا بالمدفعية وتمكنوا من إعادة غزو أمريكا ، فيما عدا الأرجنتين ، فاضطر بوليفار إلى الاتجاه إلى جامايكا

ولكن إنتصار الاسبانيين كان ضعيفا، ولم يكن فى وسع إسبانيا أن تستمر فى كبت الشباب الأمريكى . وكانت إسبانيا قد ضعفت فحاولت أن تجد لها مخرجا مع مبادىء الحرية التى كانت قد أخذت فى الإنتشار فى كل مكان . وأعطى الاسبانيون أنفسهم مثلا لأسبانى أمريكا حين غيروا نظمهم الدستورية فى الوطن الأم ، وكان ذلك مثلا يمكن لأبناء أمريكا أن يفيدوا منه .

٣- التحرر ومعناه :

وجاءت عملية الهجوم الثالث ونجحت فى كل مكان . فتمكن إيتوربيد بإستناده إلى اليسوعيين فى المكسيك من إعلان العصيان، وأعلن نفسه إمبراطورا، أما بوليفار فقد اختارته فنزويلا رئيسا للجمهورية . فزحف عبر المناطق الهندية وفاجأ الحاميات الاسبانية فى غرناطة الجديدة سنة ١٨١٩ ، ووحد الأمتين تحت أسم كولومبيا العظمى واعترف بأن هذه التسمية كانت تخليد ذكرى هؤلاء الرجال الذين عملوا من أجل الانسانية . وكان كولومب إسبانيا فى نظر الاسبانيين، كما كان واشنطون انجليزيا فى نظر الانجليز . انهم أبناء أوربا الذين يتحررون من الوصاية الأوربية ، وفى الوقت الذى لايكسب فيه الوطنيون أي شىء : لقد أعلن بوليفار أنه ورجاله ليسوا من الهنود ولا من الأوربيين ، ولكن من عنصر متوسط يقف بين الملاك الشرعيين للبلاد والمغتصبين الاسبانيين ، أى أنهم أمريكيون بالمولد، وأن حقوقهم هى حقوق الأوربين وعليهم بعد ذلك أن ينتزعوا بقية حقوقهم من الأهالى .

ولقد تمكن الجنرال سان مارتان سنة ١٨١٧ من المجىء من لابلاتا ومن عبور مناطق الهنود ومن تحرير شيلى ثم بيرو حيث اتصل ببوليفار الذى أتى من كولومبيا فى سنة ١٨٢٤ . وقامت حملات أخرى برئاسة

الجنرال سكر وانتهت بتحرير الأقاليم التى أصبحت بوليفيا وإبعاد الاسبانيين منها نهائيا سنة ١٨٢١ . أما الولايات المتحده فأنها كانت قد حصلت من مدريد على فلوريدا، فلم تتمالك إلا إعلان أعجابها بتحرر العالم الجديد.

لقد انهارت الأمبراطورية التى عاشت ثلاثة قرون فى عشر سنوات.

ورغم فظاعة القواد والجنرالات المنتصرين فإن الحرب، لم تكن قاسية ، لقد كان من الطبيعى قتل أسرى الحرب ومشاهدة انتشار السلب والنهب والسبى الذى يزيح الجنود بعد عملياتهم الحربية، ولكن أعداد هذه الجيوش كانت لاتزيد على بضعة آلاف أو بضعة مئات، ونجحت فى هذه العمليات . ووصل الحال إلى أن تنتهى بعض المعارك بأقل من عشرين قتيل. وربما كان تحرير أمريكا من هذه الناحية لايثير إهتمام دارسى الحروب إلى مدى بعيد وعلينا أن نقرر بأن أغلبية سكان أمريكا سواء أكانوا من المخلطين بين الاسبانيين والهنود، أو من المخلطين بين الاسبانيين والزنوج أو من الزنوج، لم يتغير حالهم لدرجة كبيرة، رغم أن الاسبانيين المولودين فى أمريكا كانوا قد تمكنوا من التخلص من منافسة الاسبانيين القادمين من الوطن الأم ، وبدأوا فى التنازع على السلطة ، وبعد عصر طويل من السلم الاسبانى الذى يمكن تشبيهه بالحلم الذى فرضته روما فى العصور القديمة جاء عصر ملىء بالثورات والفورات والخصومات بين الأحزاب وبين المدن والمناطق والأقاليم والدول، ولقد فشلت أمريكا الاسبانية فى التخلص من مؤمراتها ومن بلاغاتهم ومن ظهور الدكتاتوريات فيها وكم من رجال عملوا باسم تحريرها أنهوا حياتهم كمجرمى أطلق عليهم الرصاص أو فى المنفى ، مثل سان مارتان،وبوليفار نفسه .

٤- البرازيل وبقية المستعمرات :

وكذلك نجحت البرازيل فى الانفصال عن البرتغال وإن كان ذلك الانفصال قد حدث دون مشكلات . فعندما طرد الفرنسيون الملك يوحنا السادس من دولته ذهب وأقام فى ريو سنة ١٨٠٨ وفتح البرازيل التجارة الأجنبية وأعجبته البرازيل بدرجة أنه نسى أن يعود إلى بلاده بعد أنهيار إمبراطورية نابليون، فاضطر الكورتيز إلى الاصرار على ضرورة عودته إلى البرتغال سنة ١٨٢١ وسمحوا له بترك إبنه بيدور نائبا عنه هناك ، ووصيا على العرش.ولم تكن كل المستعمرات الاسبانية المجاورة كانت قد نجحت فى التخلص من سيطرة مدريد ولذلك فإنه حينما قام الكورتيز فى لشبونة بمحاولة إعادة البرازيل إلى وضعيتها كمستعمرة وطلب من بيدرو فى سنة ١٨٢٢ العودة إلى البرتغال، أعلن البرازيليون أن بيدرو هو حاميهم ثم إمبراطورهم الدستورى فانتهى الانفصال برئاسة أباطرة من نفس الأسرة المالكة فى البرتغال، قبل أن تأخذ البرازيل سيرها فى شكل جمهورية لها معيشتها الخاصة .

لقد تحررت كل أمريكا اللاتينية ولم يبق فيها إلا المستعمرات الأوربية فى غيانا وهندوراس البريطانية ، ورغم ذلك فإن اسبانيا قد احتفظت بجزر الأنتيل وخاصة كوبا التى حضر اليها أنصار الملكية بعد طردهم من شبه جزيرة إيبيريا. أما إذا تساءلنا عن السبب الذى لم تسمح لكوبا بالتحرر فإننا نلاحظ أن الولايات المتحدة بعد ضمها لفلوريدا كانت تعتبر أن كوبا هى إمتداد طبيعى لشبه جزيرة فلوريدا فلتترك فيها الاسبانيين حتى لاتقع فى أيدى الأنجلوسكسون .

وكانت سان دومنجو آخر المستعمرات ، لقد عاد القسم الغربى من هذه الجزيرة لفرنسا على الورق سنة ١٨١٥ وفى أثناء معاهدات الصلح.

ولكن المخلطين والزنوج كانوا يسيطرون عليها، رغم أنهم كانوا يتحاربون فيما بينهم ، فرفضوا المفاوضة مع مندوبى باريس . ولم يكن هناك داع للاصرار ، خاصة وأن تحرير العبيد كان يغير أحوال الانتاج، كما كانت منافسة سكر البنجر قد هزت إحتكار سكر قصب السكر من أساسه . ولذلك فإن حكومة باريس قد تنازلت عن إدعاءاتها سنة ١٨٢٥ نظير وعد بتعويض المتوطنين القدماء. وأصدرت فرنسامرسوماملكيا فى نفس السنة منحت فيه الاستقلال للمواطنين فى سان دومنجو، رغم أنهم كانوا مستقلين بالفعل منذ سنوات طويلة .

وحينما اشتملت جمهورية هايتى على كل الجزيرة ، كانت تختلف عن جمهوريات أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، لأنها لم تكن دولة للمعمرين ، بل كانت أولى العمليات التى ينجح فيها الرجال الملونون أمام استعمار الرجل الأبيض .

٥- أوربا وأمريكا والمستعمرات :

لقد مر الوقت سريعا ، ومرت سبعون سنة منذ أن فقدت فرنسا الهند وكندا ، ولم تكن فرنسا قد قبلت هذه الخسارة إلا أنها كانت تحتفظ بسان دومنجو . ولكن الوقت جاء لكى تفقد فرنسا سان دومنجو بعد أن فقدت جزيرة فرنسا، « إيل دى فرانس » .

وكانت انجلترا فى أثناء ذلك الوقت قد قبلت فقدان مستعمراتها الثلاثة عشر الأمريكية ، كما كانت هولندا قد فقدت مستعمرة الرأس وسيلان، أما البرتغال فإنها كانت قد فقدت البرازيل، وأما إسبانيا فإنها كانت قد فقدت كل ممتلكاتها على القارة الأمريكية . لقد أصاب النظام الاستعمارى إضطراب عنيف ، وأثر هذا الاضطراب على كل الدول الاستعمارية . فهل كان ذلك نهاية حكم أوربا للعالم ؟.

لقد كانت أسباب هذا الاضطراب معروفة ، وترجع فى غالبيتها إلى موقف الرأى العام وخاصة المثقفين الذين هاجموا النظام الاستعماري تحت شعار المساواة . ولم يكن من مجرد الصدفة إشتراك كل من لافاييت ، وواشنطن ، وسان مارتان وبوليفار فى ألواج الماسونيين الأحرار. لقد درسوا فى هذه الألواج الماسونية روح التحرير والتحرر.

والواقع أن حركة الاستقلال كانت قد بدأت فى أوربا قبل أن تبدأ فى المستعمرات . وإذا كان بعض الناس قد نظر اليها كعملية سلمية ، فإن غيرهم قد إعتبرها علامة ضعف من الدول الاستعمارية . ولذلك فإن الغاء قانون الدمغة ثم تراجع إنجلترا فى أمر رسوم الاستيراد لأمريكا الانجليزية ، وكذلك المرسوم الذى أعطى حق الانتخاب للرجال الملونين فى سان دومنجو ، وموقف جان السادس البرتغالى الذى ترك إبنه بدرو للبرازيليين كانت كلها تعتبر مظاهر لضعف الدول الأوربية .

وكانت مواقف الشدة لاتأتى فى الوقت المناسب لها. بل كانت تجيء فى أوقات يظهر فيها ضعف الوطن الأم أو إشتداد الروح التحررية فى المستعمرات وعدم التمكن من كبحها. فإذا كانت انجلترا قد حاولت أن تفرض نفسها على أمريكا، وإذا كان بونابرت قد حاول إعادة غزو دومنجو ، وإذا كان البوربون الاسبانيون قد حاولوا إستعادة إمبراطوريتهم الامريكية ، فإن هذه القرارات كانت قدجاءت متأخرة ، وبعد فوات الفرصة .

وأخيرا فإن المواطنين فى دول أوربا نفسها كانوا قد بدأوا فى الثورة بإسم الحرية، وأخذ المعمرون فى التأثر بهذه الأراء . فإذا كان الفرنسيون قد إستولوا على الباستيل فما الذى يمنع الزنوج من التحرر ؟ وإذا كان

الاسبانيون قد ثاروا ضد رجوع البوربون فلم لا يشارك المعمرون فى هذه الحركة ؟

وكانت أخطاء أوربا هى السبب فى فقدهم لمستعمراتها نتيجة لضعف السلطة المركزية فى بلادها. وكان هذا المثل ينطبق على الدولة العثمانية والتى أخذت فى الضعف والتفكك وحاول بونابرت أن يأخذ نصيبه من ميراث الرجل المريض، فإحتل مصر ومهد بذلك لظهور محمد على تحت السيادة الاسمية للسلطان . وقامت ثورات أخرى فى جانينا والمورة وإنتهت باستقلال اليونان. لقد بدأت الدول الأوربية القديمة فى التفكك ، فما هو موقف رؤساء الدول ؟

لقد كان أول صوت إرتفع هو صوت مونرو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، والذى كان قد فارض فرنسا لشراء لويزيانا. لقد أخذ موقفا صريحا هذه المرة مع إستقلال الشعوب المستعمرة وإلى جانبها. وبعد تحطيم الأسطول العثمانى فى موقعه نافارين حصلت اليونان على إستقلالها سنة ١٨٢٧ . وبعد ذلك نجح السلاف والرومانيون فى التحرك داخل نطاق الامبراطورية العثمانية التى عجزت عن الاحتفاظ بسلطتها عليهم وإن كانت سكرات موتها إمتدت لمدة سنوات .

وليس معنى ذلك أن كل المشروعات الاستعمارية قد انتهت ، بل أنها لم تنتهى إلا تلك المشروعات الى عجز القائمون عليها عن مواصلتها. وإستمرت دول ثلاث فى عملية توسعها الاستعمارى وهى : إنجلترا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وروسيا ، التى مدت حدودها إلى أقصى درجة ممكنة .

ولقد إختار التوسع الانجليزى نصف الكرة الأرضية الجنوبى ميدانا لتوسعه بعد أن أخذ الهند وكندا من فرنسا، واختار مستعمرة الرأس التى

لم تعد مجرد محطة بحرية ، واستراليا التى أنزل اليها قطعان الأغنام فى نفس الوقت الذى أرسل اليهـا المحكوم عليهم بالأشغال الشـاقة ، والتى ستصبح مستعمرة للصوف .

وتوسع الأمريكيون فى سهـول الغرب وأخذوا فى تكوين ولايات جديدة ، الواحـدة بعد الأخـرى . وبعد أن كان النهـر الكبيـر هو حد الولايات المتحدة الغـربى ، نشأت ولاية ميسورى على الضـفة المقابلة ، وأخذ المضـاربون فى شراء الأراضى وأخذ المزارعـون فى فلاحتـها، فى الوقت الذى إستـمر فيه المضـاربون فى عمليات البـيع والشراء. ووصل بعض الأمـريكيين إلـى الغرب من جبال روكى الصخرية وحتى المحيط الهـادى . ولم يكـن الأمـريكيـون بمفـردهم علـى هذا السـاحل إذ أن الإسبانيين كـانوا قد وصلوا اليه فى الجنوب ، كمـا أن الكنديين كانوا قد وصلوا إليه فى الشمال ، وبدأوا إتصالهم مع الروس .

وكـان الروس قد وصلـوا إلى القارة الأمـريكيـة بعـد أن عبـروا سيبيريا، وهاجملـوا سخالين وَوصلت شركة بيرنح إلى ألاسكا، وأعطى القيصر بولس عقد إمتياز لشـركة روسية أمريكية لاستكشاف هذه المناطق وللاتجار فى أنحائها والقيام بإنشاء التـحصينات الحربية ، ولكنها أعلنت إفلاسهـا وخاصة بعد أن بدأ المعمرون يموتون من الجـوع والاسقربوط . وحاولت روسيا أن تستغل زراعة القمح إلى الجنوب من هذه المستعمرة ، التى لاتشتهـر إلا بالفراء حتى تدعم بقاءها فيـها. ووصل ريزانوف سان فرنسيسكو فى سنة ١٨٠٨ ، وكان الاسبانيون يقيمون فيها ، فتزوج من إبنة الحـاكم المحلى ، وعـاد بسفنه مـحـملة بالقمـح واللحوم اللازمـة لمسـتعـمرة ألاسكا وأنشـأ الروسَ قلعـة إلى شمـال سان فـرنسيـسكو، وحجـزوا لنفسـهم التجـارة فى الجزء الشـمالى من المحيط الـهادى سنة ١٨٢١.

٦- مونـرو وإعلانـه :

لقد كان هـذا سببا أساسـيا فى تدخل الأمريكيين الذين يعـتبرون أنفسهم فى بلادهم، ويعـتبرون ساحل المحيط الـهادى ملكا لهم ، مثل ساحل المحيط الأطلـسى وإذا كان الأمريكيين قد تخلصوا مـن الفرنسيين والاسبـانيين فإنهم لـن يقبلوا مجـىء الروس ، خاصة وأن الأمـريكيين يعتبرون أنفـسهم فى ذلك الوقت أعداء الاستعمار، الاسـتعمار الأوربى فى المناطق التى حجزوها لأنفسـهم. فوقف مونرو فى الكونجرس وأعلن موقف الولايات المتحدة سنة ١٨٢٣ :

« إننا مـضطرون ، مع العـلاقـات الودية القـائمـة بين الولايات المتحدة والدول الأوربية ، إلى أن نعلن أننا نعتبر كل محاولة من جانبهم لمد نظمـهم إلـى أى جـزء من نصف العـالم هذا كـخطـر يهـدد أمننا وسلامـتنا. إننا لم نتدخل ولن نتـدخل فى شئـون المستعـمرات الحـالية للدول الأوربيـة . ولكننا لانتـمكن من قـبـول أى تدخل من أى سلطة أوربيـة كانت فى الدول التى أعلنت وحـافظت على إسـتقلالـها، وأى تدخل يهدف التـحكم فيهـا أو السيطرة على مـستقبـلها بأى شكل من الأشكال » .

لقد كـان ذلك إنذارا للاسبانيين إذا ما أراوا إعـادة غزو ممتلكاتهم الأمريكية « فمن المحال أن يمد الحلفاء نظمهم السياسية إلى أى جزء من إحدى القـارات الأمريكيـة دون أن يهددوا سـلامنا وسعـادتنا. ولايمكن لأحد أن يعتقـد أن إخواننا الجنوبيين أنفسهم سيقـبلون الخضوع لمثل هذا النظام » .

وكـان هذا تهـديدا للروس إذا مـا فكروا فى الـتـوسع صـوب كاليفورنيا .

« إن القارات الأمريكية لايمكنها ، بعـد أن انتزعت إستقلالها، أن تقبل أبدا العودة إلى نظام المستعمرات لأى دولة أوربية كانت » .

لقد كان هذا الانذار واضحا ، وكان عـلى أوربا أن تفهمه جيدا. ولم يكن فى وسع إسبانيا أن تتحرك ، وأما روسـيا فقد فهمت ، وأما انجلترا فقـد وافقت ، لأنها كانت ترغب فى ابعـاد المنافسين ، رغم أنها كانت قد أخطأت فى حساب مقومات الاستقلال الأمريكى ، خاصة وأن الولايات المتحـدة كانت قـد بدأت فى التصنيع ، وعمـلت على فرض الرسوم الجمركية لحماية صناعتها ومصنوعاتها، واستغنت عن المصنوعات البريطانية .

لقـد دلت كل الدلائل على أن الاسـتـعمـار الأوربى قـد بدأ فى الانهيار، خاصة وأن الروح التحررية القـومية قد أخذت فى الانتشار فى أوربا نفسها، سواء فى بلجيكا أو فى بولندا أو فى إيرلندا ، وأخذ الرأى العام ينظر إلى مـذابح الأتراك فى خيوس نفس نظرتهم لعملـيات القمع التى يقوم بها النمسويون ضد الثوار الايطاليين . وبدأ أن مناجم الذهب قد أخذت فى النضوب ، أما التوابل فتوجد فى كل مكان ، وأما السكر فقد وجد منافسات قوية ، واصبحت القوة من صفات الدول التي تمتلك الفحم ، وظهر ان النمو الصناعى مربح أكثـر من المنتجات الاستوائية . لقد دخل العالم عـصر البخار ، وأخذ الناس يظهرون دهشـتهم لاهتمام أسلافهم بالقرفـة والجنزبيل ، وأخذ غيرهم يفكر فى قيمة الاسـستغلال الزراعى فى المستعمرات بعد تحرير العبيد .

لقـد كانت انجلتـرا أول دولة أعلنت الغاء نظام الرق والإتجـار فى الرقيق سنة ١٨٠٧ ، وإن كـانت تفكر فى تحطيم إقتـصاد المستعـمرات الأمريكية السابقة وبشكـل يسمح لهـا بالتفـوق فى الاستغلال الزراعـى

والتجارى فى الهند ، وأعن نابليون فى أثناء حكم المائة يوم سنة ١٨١٥ الغاء الرقيق . وتمكنت انجلترا مؤتمر فيينا فى الحصول على إعلان دولى ضد هذه التجارة الشائعة ، رغم أن عدم إنضمام أسبانيا والبرتغال كان يجعله غير كبير قيمة . ولكن الدول العظمى كررت تعهداتها فى كل مؤتمر دولى . وألغت الولايات الشمالية ، من الولايات المتحدة الامريكية ، والتى لم تكن فى حاجة إلى العبيد ، نظام الرق فيها، وأعلنت كل من واشنطن ولندن أن تجارة الرقيق تعتبر عملا من أعمال القرصنة واستندت البحرية البريطانية الى ذلك لزيارة السفن وتفتيشها فى المحيطات والسيطرة بالتالى علي كل بحار العالم .

لقد كان الغاء تجارة الرقيق ، وتغير طرق استغلال المستعمرات، واقفال أمريكا أمام المشروعات الأوربية ، ويعتبر أساسا لمناقشة مبدأ الاستعمار والغاء ضرورية ، وذكر بوليفار أن حالة أمريكا فى ذلك الوقت تشبه حالة انهيار الأمبراطورية الرومانية .أما نابليون فقد ذكر وهو فى سانت هيلانه أن العصر الاستعمارى الذى عرفه الأوربيين قد انتهى بالنسبة اليهم وانتهى بالنسبة لكل القارة الأوربية،وان على الأوربيين أن يقبلوا ذلك.ولكن عظماء الرجال كانوا يعتقدون دائما أن العالم سيتغير ماداموا قد تغيروا ،وانه سينتهى ماداموا قد انتهوا. وكان هذا السؤال قد وضع من قبل ولمرات عديدة،ولم ينتهى الاستعمار.

الفصل الثالث والعشرون

الوحـــدة الايطاليـة

كان الحكم النابوليونى فى أوربا قد أيقظ حركـة القوميات ، ونشر مبـادىء الثورة الفرنسيـة فى أنحاء القارة الأوربية . وجاءت تسويات سنة ١٨١٥ ، وكرس واضـعوا مـعاهدات الصلح فى هذه الـسنة مجـهودهم لتسوية المسائل الناتجة عن أنهيـار الإمبراطورية النابوليونية ، وكانت لهم فى ذلك ، وبصفتهم متـصرين مشغوليتان: المشغـولية الأولى تتمثل فى إقامة توازن نسبى بين القوى ، ووضعوا لذلك خريطة سياسية تمثل فكرة الدولة الى كـانت مـوجـودة فى القـرن الثـامن عشـر ، دون إلتـفـات للاختـلافات اللغوية أو الدينية ، ولـلتقاليد ، ولتـعاطف مجمـوعات الأهالى أو تنافرهم وأهملوا بذلك الروح القومية التى كانت لمظاهرها دور هام فى ذلك الصـراع الذى كان قـد نشأ ضـد السـيطرة النابوليونيـة ، والمشغولية الثـانية تتمثل فى وقف التغيـرات السياسية والاجتـماعية التى كان الحكم الفـرنسى قد تسـبب فيـها ، أو ساعـد عليهـا . سواء فى الأراضى الايطالية أو الأراضى الألمانية ، أو غيـرها. وكانت إعادة الأسر « الشرعـية » تلعب فى صالح السلطات التـقليدية ، مـثل كبـارملاك الأراضى ، وكـذلك سلطات الكنائس وكـانت الحكومات ، فى البـلاد الكاثوليكية ، ترى فى الكنيـسة الكاثـوليكية خـط الدفاع ضـد الآراء الثورية ، واستـعدت سياسة البـابوية لتنفيذ ذلك . ولم تقتصـر عبارة «تحالف العـرش والمذبح » التى إستخدمهـا أصحاب السلطة الشـرعية من الفرنسـيين، على فرنسا وحدها ، ولذلك فـإن تسويات سنة ١٨١٥ لم تكن تهدف مـجرد تحطيم الامـبرياليـة الفرنسيـة ، بل أنها قـد وضعت كذلك كعقـبة أمام إنتشار « الآراء الفرنسـية » أرآء سنة ١٧٨٩، وكخط دفاع يمكن للقوى المحافظة أن تعود فى ظله .

ولقد اصطدمت هذه التسوية التى وضعت فى سنة ١٨١٥ بمعارضة مجموعات إجتماعية ، كانت آمالها ومصالحها مهددة بإعادة النظم التقليدية ، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أيضا تلك الشعوب التى لم تعترف عملية رسم الحدود بآمالها. ولقد كانت هذه الظواهر متفرقة غداة مؤتمر فيينا ، ولكن بعضها سيستمر فى مقاومته لهذه الأوضاع، حتى يتمكن من تحقيق أمانيه القومية ، ونأخذ لذلك مثال حركة الوحدة الإيطالية ، ثم حركة القومية فى ألمانيا. ورغم اختلاف معطيات كل منهما، فإن كل منها سينجح فى تحقيق مصالحه وآماله القومية .

ففى شبه الجزيرة الإيطالية ، التى كانت قد تحولت بعمق فى أثناء الفترة النابوليونية، أعادت المعاهدات وضع تقسيم سياسى ، ورسمت سبع دول، لايوجد بينها أى رابط إتحادى ، وضمنت للنمسا إمتلاك لومباردى والبندقية ، ونفوذا مسيطرا على إمارات بارما ومادينا ، وعلى دوقية توسكانيا الكبرى . ولقد خيبت هذه التسوية آمال الآيطاليين ، الذين كانوا - فى أثناء العهد الفرنسى - قد تطلعوا إمكانية الوحدة القومية. ولذلك فقد كان من المنطقى أن يحتج هؤلاء ضد مبادىء ونتائج تسويات السلم . ولكن عدد هؤلاء المحتجين كان صغيرا، وكانوا يقتصرون تقريبا على المثقفين ، وأحرار النبلاء والبورجوازيين ، أو على الضباط الذين كانوا قد خدموا فى الجيش الكبير، ولم يكن فى وسعهم أن يجدوا سندا لهم سواء فى مجموعة الفلاحين، الذين كانوا غالبا بؤساء ، ودائما لا يأبهون للحياة السياسية ، أو أوساط الحرفيين فى المدن إلا فى حالات نادرة ، وهم الذين كانوا نشطين وأذكياء ، ولكنهم بقوا من أنصار « الذكرة البلدية » وحتى فى داخل هذه المقاومة ، فإن وحدة وجهات النظر كانت غير كاملة ، فكان البعض يفكر فى مجرد ضمان إستقلال حقيقى للدولة الإيطالية بإبعاد النفوذ النمسوى ، أما

الآخرين ، والذين كانوا أقل عددا . فإنهم كانوا يفكرون فى تحقيق الوحدة القومية ، ولكن دون أن يعطوا لفكرتهم شكلا محددا [1] .

وهكذا لم يكن الأعداء النشطين للنظم العائدة ، فى الدول الإيطالية ، إلا عددا قليلا ، ولم يكن للجمعيات السرية التى حاولوا أن يجتمعوا فيها تأثير على الجماهير، ولم يكونوا إلا مجموعات صغيرة ، ومع ذلك ، ورغم قلة العدد فإن هذه المجموعات كانت تتميز بقوة معنوية ، لأنها احتفظت ، فى الدول الخاضعة لنظم إستبدادية ، بمراكز عاشت فيها مبادىء سنة ١٧٨٩ . ولكن الشوط كان لايزال طويلا أما الشعور بالمصير القومى لكى يستيقظ فى كل مكان .

وكانت الظروف الاقتصادية تساعد إلى حد كبير إلى مقاومة لومبارديا والبندقية للبقاء النمسوى، وكانت مصالح رجال الصناعة فى ميلانو تدفعهم إلى الشكوى من رؤية منتجاتها تخضع لرسوم جمركية عند دخولها النمسا ، فى الوقت الذى فتح فيه سوق لومبارديا على مصراعيه للسلع النمسوية .

وكان النظام الأوربى ، الذى وضع سنة ١٨١٥ يقوم على أساس التحالف المقدس بين الملوك والأباطرة ، وتدخلهم ، مع تشاورهم سويا فى مؤتمرات دورية ، للقضاء على الحركات الثورية .

وسرعان ما ظهرت فى إيطاليا الأخطار ، وذلك فى نابلى فى شهر يوليو سنة ١٨٢٠ وفى تورينو فى شهر مارس سنة ١٨٢١ . وفى الحالتين ، جمعت الحركة الثورية بعض الضباط السابقين فى جيش نابليون ، وبعض أصحاب المهن الحرة ، وكانت تهدف أولا إلى إجبار

---

(١) أنظر د جلال يحيى : تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ - ١٩١٤ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١ ، ص ص ٥ - ١

الملوك والأمراء على قبول نظام دستورى ، ومع ذلك فقد كانت تشتمل على برنامج وطنى : فمندوبى جمعيات « الكربونارى » فى نابلى، حاولوا أن يبعثوا فى بقية الدول الإيطالية الأخرى حركة فى صالح إتحاد إيطالى ، وفكر سانتا روزا Santarosa رئيس الثوار فى بيدمونت ، فى تحرير لومبارديا والبندقية من الحكم النمسوى ، ولكنها لم تكن إلا مجرد أمنيات . ولم يكن ذلك نتيجة لحركة جماهيرية ، بل كان نتيجة لعمل مجموعات محدودة ، وجمعيات سرية ولم تكن هذه الحركات تهدد الوضعية الإقليمية التى أنشأتها معاهدات سنة ١٨١٥ بطريق مباشر : فلم يتعرض أحد للحدود . ولكنها هددت النظام الإجتماى والسياسى . ولذلك فإن قيصر روسيا حاول أن يرجع إلى مشروع سابق له بشأن « التدخل المشترك » فى المناطق المهددة بالحركات الثورية . ولكن بريطانيا إعترضت على ذلك ، حين عرض على مؤتمر إكس لاشابيل . ورغم ذلك فان بقية الدول الأوربية قد إضطرت إلى السير ، فى مؤتمر تروباو فى ديسمبر سنة ١٨٢٠ ، وفى مؤتمر ليباخ فى يناير سنة ١٨٢١ ، وفى مؤتمر فيرونا فى صيف سنة ١٨٢٢ ، على الطريق الذى أشار إليه قيصر روسيا : العمل ضد ثورة نابلى ، وأعطت النمسا إذنا للتدخل بقواتها باسم مصالح « النظام الأوربى » .

وكانت ثورة نابلى تهدد المصالح النمسوية بطريق مباشر . ولم يكن فى وسع النمسا أن تتخلى عن ملك الصقليتين . الذى كان قد وعدها ، بمعاهدة سرية فى ١٢ يونيو سنة ١٨١٥ ، بألا يقوم بأى إصلاح سياسى لايتمشى مع النظم الملكية التقليدية . وكان هذا التخلى يهدد كل النفوذ النمسوى فى إيطاليا ، ولذلك لم يكن مثيرا للدهشة أن يرى مترنيخ فى هذه الحالة ضروزة الإلتجاء إلى تدخل مسلح . وكان مستعدا للقيام بهذا العمل بنفسه ، ودون أن يثير المصالح الجماعية لأوربا » ولكنه كان

يرغب فى أن يضمن عدم إعتراف أي دولة أخرى بحكومة نابلى ، الناتجة عن الثورة ، فطرح الأمر على مؤتمر ليباخ ؛ وحصل على « تكليف أوربى » بالتدخل النمسوى . وأعاد الجيش النمسوى فى نابلى ، عند نهاية شهر فبراير سنة ١٨٢١ ، سلطة فرديناند الأول المطلقة ، وقضى فى أبريل، وحسب طلب ملك سردينيا ، على الثورة الحرة فى بيدمونت . وهكذا كان مترنيخ هو الذى يدير فعليا، وأكثر من قيصر روسيا ، سياسة التدخل ضد الثورات ، وبخاصة فى شبه الجزيرة الايطالية .

ورفضت بريطانيا المشاركة فى مؤتمرات تروبار وليباخ . واكتفت بمجرد ارسال مراقب » إليها ، ولكن كاسلرية أعلن فى مجلس العموم ، فى ٢١ فبراير ١٨٢١ أنه يقبل إرسال حملة عسكرية نمسوية ، إذ أن ثورة نابلى قد تحققت عن طريق حركة « تمرد » ، وهكذا إعتقدت بريطانيا أنها لم تتعرض (للمذهب المتحرر) ، ولكن دون أن تشترك فى تصريح عام يعطى تأييدا معنويا لعمل النمسا . وقبلت بريطانيا تدخل النمسا ، على الا يكون هذا التدخل جماعيا، وبشكل يوقف أطماع روسيا ، ولا يغضب النمسا. وهكذا لم يتمكن هذا التضامن الذى أعلنته الدول الأوربية فى سنة ١٨١٥ أن يعيش لفترة طويلة ، وذلك بعد ثمانية أعوام من رسم خطوطه ، ولكن بعد أن كان قد سمح بالقضاء على الحركات الثورية الأولى فى إيطاليا.

ثم جاءت الثورة الباريسية ، فى شهر يوليو سنة ١٨٣٠ التى أعطت تأثيراتها على إيطاليا . وسرعان ما نشبت الثورة فى شهر فبراير سنة ١٨٣١ فى إقليم رومانا، وكانت ثورة تحررية ، موجهة ضد طرق الإدارة البابوية. وإحتفظت بنفس صفاتها حين إمتدت إلى دوقيات مودينا وبارما: فكانت تمثل مجهودا للقضاء على سلطة الأمراء المطلقة . وكان

لبعض رؤساء الحركة وحدهم هدفا أكثر بعدا، يتمثل فى إقامة روابط فيدرالية بين الدول الإيطالية .

وأخذت المسألة مدى دوليا بسبب تدخل النمسا . وكان مترنيخ ، يرغب فى القضاء على الحركة الثورية فى دولة البابوية فى سنة ١٨٣١ ، بنفس الشكل الذى كان قد قضى به على الحركة المماثلة لها فى سنة ١٨٢١ فى مملكة الصقليتين (نابلى) ، ولنفس الأسباب فكان يرى أن بقاء نظام مطلق فى الدول الإيطالية يتطابق مع مصالح النمسا ، وضرورى للاحتفاظ بسيطرتها ، وربما كان يرى كذلك أن إعطاء حماية مسلحة لسلطة البابا الزمنية ستضمن له نفوذا فى توجيه السياسة الروحية للكرسى البابوى . ولكن هذا العمل أقلق الحكومة الفرنسية التى كانت ترغب فى معارضة النفوذ النمسوى فى شبه الجزيرة الإيطالية بنفوذ معادل ، ونتيجة لتهديد بالتدخل ، حصلت على وعد بسحب الجنود النمسوية بمجرد إستقرار النظام ، وحافظت النمسا على هذا الوعد . ولكن الثورة إشتعلت من جديد بعد ستة أشهر ، وإحتلت القوات النمسوية بولونيا . وفى ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٢ ، وأعلنت نيتها فى الاحتفاظ بهذا الإحتلال طوال مدة بقاء الإحتلال النمسوى .

وأعطى تدخل فرنسا أملا للعناصر الثورية الايطالية فى الحصول على مساعدة خارجية ، وحفر الكاربونارى إلى توسيع أهداف الحركة : فبدلا من أن يقصروا مجهودهم على محاولة إسقاط النظم السياسية المطلقة ، فكروا فى ذلك الوقت فى أن يشعلوا نار ثورة كبرى فى كل شبه الجزيرة ، يمكنها أن تنتهى « بطرد » النمسويين وبوحدة الدول الإيطالية « فى جسد واحد للأمة » فما هى إمكانيات النجاح التى يمكنهم الحصول عليها ؟

مساعدة أحد الملوك الإيطاليين ؟ ففى الدولتين اللتين كانتا وحدهما ، تمتلكان جيوشا ولا تخضع بطريق مباشر للنمسا. وهى مملكة الصقليتين ، ومملكة بيدمونت وسردينيا . كان الملوك يأملون بكل تأكيد فى التمكن من أبعاد النفوذ النمسوى من شبه الجزيرة . وفى نابلى كان فرديناند الثانى ، الذى وصل إلى العرش فى سنة ١٨٣٠ يرغب فى تأكيد إستقلال سياسته الخارجية ، أما فى تورينو فإن الملك الجديد شارل البير كان يرغب ، وطبقا لما قاله للمحيطين به ، فى « تحرير إيطاليا » ، وربما كان يفكر حتى فى تكوين الوحدة ولكن هذين الملكين كانا يهتمان بنوع خاص بعدم الاضرار بسلطتهما الملكية ، ويخشيان من الحركات التحررية. وبين نارين ، لم يترددوا فى تضحية آمالهم فى الإستقلال من أجل مصالحهم الأسروية .

مساعدة إيجابية من فرنسا ؟ كانت الحكومة الفرنسية تتخذ لنفسها هدفا واحدا وقت إنزالها قواتها فى أنكونا ، وهو مجرد وقف النفوذ النمسوى فى الدولة البابوية ، وبنفس الهدف أعلنت إستعدادها لتعضيد دولة سردينيا، وإذا ما قررت النمسا تدخلا مسلحا فى بيدمونت ، ولكنها لم تكن تنوي تعضيد حركة إستقلال إيطالى ، تدخلها فى مغامرة كبيرة . وعلاوة على ذلك فكان التدخل الفرنسى سيصطدم بجيش سردينيا ، الذى كان يسيطر على ممرات جبال الألب ، ورغم أن شارل البير قد ذكر فى مذكراته الخاصة « حقده » على النمسا ، فإنه كان يخشى أكثر من ذلك من وجود القوات الفرنسية فى أنكونا، إذ أن هذا التدخل كان يشجع « الثوريين » . وحينما علم ، بطريقة سرية ، بنيات الكاربونارى ، أكد فى الحال تصميمه على المقاومة ، فكتب فى مذكراته « إن ماهو مؤكد هو أنه لن يكون هناك أى نوع من التنازلات مادمت باقيا على قيد الحياة . وسأعمل بشكل يؤدى إلى موت الحزب الحر

عندنا». وكـان واثقا من أن « المجـموعة » الثورية كانـت تعتمـد على تعضيد فرنسا ، ولكي يحـمي نفسه من « الخطر الفرنسي » . قبل طلب التحـالف النمسوى ، ووقع عـلى معاهدة سـرية ، قررت القيـام بعمل مشترك للقوات العسكرية في حالة « الإعتداء الفرنسي » . واعتقد شارل ألبير أن هذه المعاهدة « مشرفة جدا ومفيدة » ، إذ أن القوات النمسوية- البيدموتية ستوضع تحت قيادته . ولاشك في أن هذا التحالف كان وليد الظروف ، فملك سردينيا ظل في قرارة نفسه عدوا للنمسا ، ولكنه كان يحتاط لأقرب الأخطار .

واحتاجت الحركة إلى نضج أكثر ، وإلى ظروف جديدة . . .

١- حركة البعث الايطالية [1]

كانت اليقظـة القومية من عمل مـجموعة مـحدودة من الرجال ، المختلفين في أصلهم وفـي ظروفهم الإجتمـاعية كـان هدفهم الأول هو استقـلال شبه الجزيـرة ، أى إبعاد النفوذ النمسـوى عن الدول الإيطالية «وتحـرير » لومبـارديـا والبندقيـة ، وكانوا يـتمنون ، عـلاوة على هذا الهدف ، تحقيق الوحدة .

وفي هذا « البعث » Risorgimento كان دور الحرفة الثقافية أكثر أهمية بكثير من المصالح الاقتصادية .

ومنذ سنة ١٨٣٢ ، أظهـر رجال الفكـر رغبـة في البدء بالعـمل: فحـاولوا أن يجندوا أنفسهم «في خـدمة التربيـة القوميـة» ويمهدوا بتلك الآراء للمجهود القومي وتعرضت قـصائد توسكان جوزيف جوستي Toscan Giu-

---

(١) انظر . د جلال يحيى . تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ - ١٩١٤ القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ ،ص ص ٧٦ - ١٨٣

seppc Ginsti التهكمية ومسرحيات نيكولى G. B. NIcoli الغنائية لآمال الإستقلال والوحدة وذكرت القصص التاريخية ، مع فرانشيسكو جيرازى Suceso Gusrrazi بأحداث الماضى الكبرى ، لكى تعطى منها أمثلة ودروس بالنسبة للحاضر والمستقبل . وحاول المورخون - مثل سيزار كانتو Cesore Cantu الذى كتب تاريخ العلم فى خمسة وثلاثين مجلداء . ولويجى فارينى Luigi farini فى كتابه عن الدولة الرومانية منذ ١٤١٨ ، وكارلو تروجا Carlo troja فى كتابة عن تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى - أن يشرحوا أسباب التقسيم السياسى ، وأعادوا ذكرى العصور التى كانت إيطاليا فيها فى مركز الحياة السياسية والاقتصادية للعالم .

وعلاوة على عمل هؤلاء الأدباء والشعراء والمؤرخين ، أليس من الواجب إضافة مجهود الإيطاليين المهاجرين ، الذين كانوا فى مرسيليا ، وفى ليون ، وفى باريس ، على إتصال بالفكر الفرنسى ؟ وفى هذه الأوساط الخاصة بالمهاجرين ، كانت الفوارق تمحى ، والشعور القومى يتأكد بدرجة أسرع منها فى إيطاليا نفسها .

وكان ركز الأهتمام فى هذه الحركة الفكرية هو عمل الكتاب السياسيين الذين إقترحوا حلولا للمسألة الإيطالية. وكانت وحدة وجهات النظر غير موجودة بعد ، بين موجهى الحركة القومية فى السنوات التى تلت عام ١٨٤٠ مباشرة .

فكانت بعضهم ، وهم الثوار ، مجتمعين حول ماتزينى . وكان ماتزينى ،بعد أن كان قد انضم فعليا إلى حركة الكاربونارى منذ أن كان له ثلاثة وعشرون عاما، يعيش فى المنفى ، منذ سنة ١٨٣١ ، فى مرسيليا ثم فى لندن . وكان فيلسوفا وعلى الأقل من وجهة نظرياته ،

وله فكرة شخصية عن تقدم الاسبانية ويحاول بناء نظام للعقائد . وكان يؤمن « بوحدة الجنس البشرى » ، وبضرورة التعاون بين الشعوب ، ويعتقد أن البشر سيتمكنون من الوصول إلى تحسين مصيرهم ، إذا ما ساروا على هدى مثل أعلى ، وعلى هدى عقيدة تعلمهم « الرغبة فى التضحية » فالمسيحية ، التى كان عليها أن تقيم المساواة والاخاء تناست رسالتها ، على حد قوله . ولذلك فقد كان من اللازم تزويد الانسانية بعقيدة جديدة ، وكانت هذه العقيدة التى يبشر بها ماتزينى وأنصاره مبنيه على أساس فكرة الواجب الاجتماعى وفكرة المشاركة . فاللفرد رسالة يقوم بها حيال إخوانه ، وعليه أن يكون مستعدا للعمل ، دون إنتظار لمكافأة . وفى نطاق نفس الدولة ، سينظم المواطنون أنفسهم للتعاون فى أعمال المصلحة العامة وستتوج مشاركة المواطنين بالمشاركة بين الأمم . ومن هذا النظام الفكرى يتفرغ البرنامج السياسى : فعلى الشعوب أن تحصل على « حرية ممارستها لسيادتها » ، ويمكنها أن تصل إليها إذا ما تطابقت الدولة مع « القومية » وإذا ما كانت منظمة طبقا للمبادىء الجمهورية والديمقراطية . وإذا كانت يسيرها « مركز دفع » واحد وكان على الايطاليين أن يقوموا بدور كبير فى تحقيق هذا البرنامج فسيفتتحوا الطريق ، إذ أنهم ، باتباع مبادىء ماتزينى ، سيوجهون ضربة واحدة لمركزى المقاومة الرئيسيين – الكرسى الرسولى ، الذى أخفق فى رسالته والذى كان يعرقل التقدم الانسانى : وامبراطورية النمسا التى كان وجودها « رمزا للجمود » و « لسلبية المبدأ القوى » ولكى يؤثر فى الايطاليين لامجرد المثقفين فحسب بل وكذلك الجماهير ، واعتمد ماتزينى فى أول الأمر على الدعاية . إذ أن « الشعور وحده هو الذى يحرر الشعوب » ، أما فى المناطق التى لم يكن النظام البوليسى يسمح فيها بعمل الدعاية ، فكان يعتمد على الثورة ، لا لأنه كان يتوقع

نجاحها المباشر ، ولكن لاعتقاده فى ضرورة التعلم من محاولة ، حتى وإن لم تنجح : فعلى الحركة الوحدوية أن تقدم « شهدائها » إذ إن روح تضحية هؤلاء الثوار، سيكون لها قيمة مثالية عند الجماهير .

وكان ماتزينى يمارس نفوذه ، أكثر من نظريته ، بمواهبة كرئيس ، وبالمجموعات الى كان يحركها مثل « إيطاليا الفتاة » و (أوربا الفتاة) . وأثار برنامجه قلق البرجوازية ، ولكنه وجد أعضاء متحمسين فى « جماهير المدن » فى بعض المراكز الكبيرة ، مثل جنوه .

وفى مواجهة هذا التهور الثورى ، تهور أحد المهاجرين الذى كان لايعرف تماما الأحوال الحقيقية للحياة السياسية فى إيطاليا ، ومبشر مصمم على عدم التنازل عن « خط واحد ومع أى كان » - كانت هناك الفكرة السياسية « المعتدلين وكان هؤلاء الأخيرين لايفكرون فى تحقيق الوحدة إلا فى شكل فيدرالى » وتحت رئاسة أحد الملوك الايطاليين ، ولكن أيهم ؟ لقد فكر البعض فى البابا، وفكر آخرون فى ملك بيدمونت وسردينيا .

وكان الحصول على تأييد البابوية ورجال الدين الكاثوليك لحركة البحث القومى ، والتوفيق بين « المبدأ الدينى » والفكرة القومية ، منذ سنة ١٨٣٦ ، هو مشروع نيكولو توماسيو Nicolo tommaseo فى كتابه عن « أمل إيطاليا الجديد » وفى بولندا ، وفى أيرلندا، ألم يؤثر عمل رجال الدين فى صالح المطالب الوطنية ؟ والبابا،ألم يكن فى وسعه أن يصبح . بإعادته تقاليد العصور الوسطى « حامى الاستقلال الوطنى » ؟ ولم يأخذ هذا الاتجاه ، إتجاه « الحلف الجديد » ، أهميته إلا ابتداء من سنة ١٨٤٣ ، حينما ظهرت فى بروكسل جريدة مرشد إيطاليا Ptimato d'Italia لجيوبرتى Gioberti ، وكان جيوبرتى من رجال الدين فى

بيدمونت ، واشترك فى سنة ١٨٤٣ فى حـركة ماتزينى « مما أجبره على الذهاب إلى المنفى ، ومع ذلـك فقـد تخلى عن الأراء الماتزينيـة ، لأنه أعتقد أنـه لايمكن لمنهج الثورات أن يؤدى إلا لتضحيات بدون نـتيجة ، وأنه سـيكون من طبيـعة إنشـاء نظام جمـهورى أن يفـرق بين الوطنيين الإيطاليين . ولكى يصل إلى ضم أكبر عـدد ممكن من مواطنيه ، حاول أن يتبع « طريقا أخلاقيا » ودينيا إيـطالى . . . مختلف تماما عن مشاعر الغوغاء مثل اختلافه عن مـشاعر الحكام الطغاة » وشرح فى « المرشد » وبلهجة خطابيـة ومنمقة ، كيف يمكن لإيطاليا أن تجد فى نفـسها كل الامكانيات الخـاصة باليقظة القـومية ، ولم يجـادل فى أنه سيكون على بيدمونت أن تحتل مكانا هاما فى تطور الأمة ، إذ أن لها شعبا أكثر ذكاء وأكثـر من الدول الأخرى ، ولأنها الوحيـدة التى كان لها جـيش جدير بهذا الاسم ، ومع ذلك فـقد احـتفظ للبابوية بالـدور الرئيسى ، إذ أن الكرسى البابوى كـان هو وحده الذى يتمتع بقـوة أخلاقية تكفى للـقيام بدور الحكم ، وكـان هو وحـده القادر على ضـمـان اسـتقـرار الوضع الاجتمـاعى « يتوقف مصيـر إيطاليا على اتفاق روما وتوريـنو » فما هو هذا المصـير ؟ لم يكن جـيوبرتى يفـكر فى توحيـد كل الإيطاليين تحت سلطة واحدة فـستبقى الدول : ولكـنها ستدخل فـقط فى اتحاد ، يرتفع على رأسه البـابا ، ويعاونه « مجلس دولة » يدبر المصـالح العامة لشـبه الجزيرة .

وبالإختصـار ، فإن « المرشد » كان يرغب فى التـوفيق بين الدين والحرية ، واقتـرح حلا يحسب حسـابا لمشاعر الجمـاهير ، ولكن يمكنه كذلك أن يطمئن كل الرجال الهادئين وأنصار أقل مخاطرة ممكنة . وكان هذا هو السبب الرئيسى لنجاحه فأصدقـاء جيوبرتى الإيـطاليين كتبوا له « يعجبون به ويحتـرمونه » . ولكن اليسوعيين Jeuites الأعداء المتشبثين

للاتجـاه الكاثوليكى المتـحرر. كـانوا مـعادين لـه . ولم يكن الكردينال لامبروشينى Lambruschini ، وزير دولة جريجـوار السادس عـشر أى ميل لاتجاه « الجلف الجديد » يزيد عى ميله لحركة ماتزينى .

وبرنامج « الجلف الجديد» إصطدم باتجاهات «المعتدلين» الأخرى ، والتى كانت ترغب فى وضع ملك بيدمونت وسـردينيا على رأس الحركة القوميـة وكان الإتجاه قد شرحه مـاميانى Mamiani منذ سـنة ١٨٤١ ، وزادت صلابتـه ابتداء من سـنة ١٨٤٥فى كتـابات سيزار بـالبو Cesare Balbo وماسيمو داريجليو Mesimo d'Areglio ، وكانا من بيدمونت ، وكل منهمـا يرغب فى الكفاح ضد نجاح « المرشـد » . وفى أمل إيطاليا أصر بالبو على الوحـدة أقل من إصراره على الاستقلال: فـما دام أحد أقاليم شبـه الجزيرة - وهو لومبارديا والبندقية - لايزال خـاضعا للحكم الأجنبى ، فلا يبدو من المـمكن إقامة الاتحاد، ولذلك فإن تحـرير ميلانو والبندقية كان هو « النقطة الرئيسـية فى المشروع » وكان فى وسع « أسرة سافـوا » المجاورة للأقاليم الخاضـعة للأجانب ، وحدها إرجـاعهم إلى إيطاليا،ولم يذهب بالبو إلى أبعد من ذلك ، ولكن أليس من الواضح، فى تفكيـره ، أن صانع هذا التحـرير ستكون من خـصائصـه أن يصبح الرئيس المقبل للاتحاد ؟ أما بالنسبـة لداريجليو فإنه هاجم السلطة الزمنية للبابا ، وفضح التناقض الموجـود بين الوسائل الادارية فى الدولة البابوية وبين تعـاليم الانجيـل ، وأوضح أن بقاء هذه السلطـة الزمنية هو لمجـرد وجود الحامية النمسوية فى فرارا، وجـيش صغير من المرتزقة السويسريين فى روما، فكيف يمكن الوثوق فى البـاب حين يرأس الحركة القـومية ؟ لكن داريجليو لم يشـرح بوضوح الشكل الذى يمكن لإيطاليـا أن تأخذه فى المستـقبل واكتفى ، حتى فـى عام ١٨٤٧، باقتراح تطبـيق دول شبه الجزيـرة نفس النظم العسكرية ، ونـفس القوانين ، ونفس نظم العـملة

والنظم الجمركية ، ونفس برامج التعليم .

ولايمكننا أن نشك فى أن هذه الردود على حركة « الجلف الجديد » كانت تهدف تمهيد الطريق أمام سياسة سردينيا : فكان الملك شارل ألبير Charles Aibert قد استلم نسخة من مخطوط بالبو ، وكان على اتصال شخصى بداريجليو ، قبل نشر كتابه مباشرة . ومع ذلك فقد اكتفت الأسرة الحاكمة فى سافوا بمحاربة الحل « البابوى » ، دون أن تتقدم بحل آخر من جانبها وكان شارل ألبير يخاطر ، من وقت لآخر ، بلفتة تهدف إظهاره بمظهر للنمسا أمام الرأى العام فأكد ، فى مقابلاته الشخصية ، أنه حينما تحين الفرصة المواتية ، سيرأس الكفاح من أجل الاستقلال الوطنى ، وكلف سكرتيره الخاص الاتصال بأنصار الوحدة الإيطالية التى ستتحقق برئاسة أسرة سافوا ولكنه امتنع عن اعلان أى برنامج . أكانت انتهارية أم تردد ؟ ربما كان يخشى ، إذا ما أعلن مخططاته قبل الأوان ، من أن يتعرض إلى قطيعة مع النمسا ، ويهدد بذلك أمن دولته ، وكان متأثرا كذلك بمعتقداته الأوتوقراطية الى تجبره عى الحذر من حركة فى الرأي العام مستوحاة من الإتجاه الليبرالى ويبدو أنه كان يحذر من فرنسا أكثر من حذره من النمسا .

ورغم هذه الإختلافات ، فإن المناقشة حول (المسألة الإيطالية) - وهى الأساس - قد اتسعت إلى أقصى درجة .

ففى السنوات الواقعة بين عامى ١٨٤٥ و١٨٤٨ ، احتفظت مجموعة من الكتب والنشرات ، ورغم أنها لم تأت بشىء جديد، بحالة (غليان) لدى الرأى العام . وتم توزيع هذه المطبوعات . هنا وهناك ، بطرق سرية ، ولكن الدعاية على نطاق واسع لم تكن ممكنة فى الدول الإيطالية الخاضعة لنظم بوليسية إلا إذا ما سمحت الحكومات بها. وكان

موقف هذه الحكومات متباينا ففى توسكانيا، قام الدوق بطبيعة الحال بمنع دعاية أنصار ماتزينى ، ولم يوافق على نشر أراء « الحلف الجديد » ، ولكنه لم يتعرض لتداول كتاب دازيجليو ، وفى بيدمونت ، لم يضع شارل ألبير عقبة أمام نشر « المرشد » رغم أن تفضيله كان يتجه بطبيعة الحال صوب دعاية « الالبيرتيين » . ومنع البوليس النمسوى فى لومباردیا والبندقية كل كتابات الوطنيين ، ولكنه لم ينجح فى وقف تسربها من الحدود السويسرية . وذكر مدير شرطة البندقية ، فى مارس سنة ١٨٤٧ ، أن « سم الدعاية الأدبية ينتشر قطرة بقطرة فى النفوس » .

وعلاوة على هذا التأثير للحركة الفكرية ، ماهو الدور الذى يمكننا أن ننسبه لتأثير المصالح المادية وللتطور الإقتصادى ؟

كان هذا التأثير واضحا فى السياسة الخارجية للدول ، التى كانت التنمية الصناعية فيها قد بدأت فى تعديل البنيان الإجتماعى . ولكن علينا ألا نبالغ فى مدى هذه التعديلات . فكان الدور السياسى للطبقة العمالية ، والذى تمثل على الأكثر ١٥ ٪ من الأهالى ، بسيطا جدا . وكان من الممكن، فى سنة ١٨٤٦ فقط ، أن نلاحظ المظاهر الأولى لدعاية اشتراكية ، محددة ببعض المراكز القليلة فى توسكانيا. ولكن البورجوازية الجديدة كانت أكثر نشاطا : فكان التجار ورجال الصناعة هنا، وفى أي مكان آخر فى تلك الفترة ، يرغبون ، ولكى يتمكنوا من تنمية دوافعهم ، من التحرر من التعليمات الإدارية المعوقة ، وكانوا يطالبون « بالحرية الإقتصادية» ويرون فى التحرر السياسى وسيلة لبلوغ هذا الهدف، وكان هذا هو أحد الموضوعات التى بحثتها الرابطة الزراعية فى بيدمونت والتى كانت تهتم بالمسائل التجارية، والصناعية والمصرفية مثل اهتمامها بالمسائل الزراعية، والتى ضمنت ٢٧٠٠ عضوا فى سنة ١٨٤٤.

وأسهمت المصالح الإقتصادية بدرجة واسعة كذلك فى مولد شعور بالتضامن بين شعوب دول مختلفة ، وفى إثارة النقد الموجه ضد التقسيم السياسى، الذى يعوق تنمية التبادل أو انتقال رأس المال. ولم يكن فى وسع الصناعة الجديدة أن تقنع بالأسواق التى وجدتها داخل نطاق كل من الدول وكانت ترغب فى رؤية تحطيم الحواجز الجمركية، والتعامل فى سوق « قومى » إيطالى ، تخدمه سكك حديدية وكانت « الوحدة التجارية » لشبه الجزيرة هى إحدى مشغوليات الرابطة الزراعية وأثيرت كذلك فى مشاورات « مؤتمر العلوم التطبيقية » الذى كان يجتمع سنويا، ومنذ سنة ١٨٣٩، وعددا من العلماء ، ورجال الإقتصاد والصناعة ، والتجارا الذين كانوا يأتون من كل الدول الإيطالية: فالمؤتمر الذى عقد فى فلورنسا فى سنة ١٨٤١، اقترح تنظيم معرض « إيطالى » للمنتجات الصناعية، وتكوين رابطة « إيطالية » للمزارعين، وطالب بإنشاء نظام موحد للعملة، وللأوزان والمقاييس وفى خطاب ختام هذ المؤتمر أصر كوزيمو ريدولفى Cosimo Ridolfi على تضامن المصالح الاقتصادية بين أجزاء إيطاليا المختلفة. ولاشك فى أنه كان من الممكن إقامة هذا التضامن – على المثال الألمانى – باتحاد جمركى . ولكن الحكومات كانت . فى غالبيتها . إما مترددة أو معادية إذ كانت تخشى من رؤية الوحدة الإقتصادية تمهد الطرق للوحدة السياسية وحاول البابا جريجوار السادس عشر ، ودوق مودينا، أن يمنعا رعاياهما من الإشتراك فى مؤتمر العلوم التطبيقية . وقلق مترنيخ كذلك من هذه المحاولات، التى يمكن « لخيال الإيطاليين الخصب والمندفع » أن ينقلها بسهولة من فكرة العمل الإقتصادى إلى ميدان العمل السياسى . وشعر المعاصرون بوجود روابط بين نمو الشعور القومى والمشغوليات الجديدة للأوساط الإقتصادية . فالصحف « الوطنية » هى التى كانت تطالب كذلك ببناء شبكة حديدية

« إيطالية » وبإنشـاء سوق تجارى « إيطالى » ولم تتـردد مؤتمرات العلوم التطبيـقية فى ذكر أن المصـالح الإقتصاديـة للنمسا تتعـارض مع المصالح الإقتصادية لإيطاليا .

وكذلك كان المثقفون ، ورؤساء المشـروعات الصناعية أو التجارية وبعض كبار الملاك العقـاريين ، هم الذين يكونون العناصر الفعالة ، فى هذه اليقظة الإيطالية وبالإختصار، فهى أقلية تجند نفسها بنوع خاص بين صفـوف البورجوازية فى المدن، ولاشك فى أن الشعب لم يكن « غائبا» عن نطاق هذه الحركة : فكان الحرفيين من إقليم رومانا، وعمال بعض المدن الصناعـية أو بعض الموانى ، يزودون عـمل الوطنيين ، وبخـاصة أنصار مـاتزينى . بتدعيم عـارض . ولكن الجماهيـر - التى كانت هى الفلاحين - بقيت ساكنة .

وإبتـداء من سنة ١٨٤٦ فـقط ، بـدأت نتـائج البـعث الثـقـافى والإقتصـادى فى الوضوح فى العمل السيـاسى . والحدث الجديد الذى يفتح إمكانيات غير متوقـعة كان هو تولى بيو التاسع الكرسى البابوى . وإذا كان البابا قد ألغى فى دولته وسائل«القمع التى كان سلفه قد احتفظ بها، وأعلن إصـلاحات إدارية وسياسـية، فإن هذه كـانت ظاهرة يفهم مترنيخ أهميـتها وتمتم«بابا متحرر، إنه شيء جـديد ؟؟. وظهر حتى أن بيو التاسع كان مستعدا للتخلى عن السياسة الإقتصادية التقليدية . ففى سبـتمـبر سنة ١٨٤٧ فكر فى مـشروع « لرابطة جـمركيـة » بين الدول الإيطالية . وأخذ هذا المظهر الجديد السياسة الزمنية الكرسى البابوى متى يزيد فى نطاقه عن جـهود الدولة البابوية ، ويعدل من المعطيـات العامة للمسألة الإيطالية . ألم يكن فى وسـعه أن يوفق بين البابا والمتحررين ، ويعطى إزدهارا لإتجاه « الحلف الجديد » إتجاه جيوبرتى ؟ .

٢- المد الثورى سنة ١٨٤٨ :

كانت « أيام فبراير » سنة ١٨٤٨ فى فرنسا هى التى أعطت للهياج المتحرر والقومى . فى كل أوربا ، مظهرا ثوريا. ومنذ وصول نبأ سقوط لوى فيليب شعر مترنيخ بذلك ، ثم سقط نظام مترنيخ ، وكان لإنهيار هذا النظام ، وأكثر من ثورة باريس . أثر فى إعطاء دفعة لقوى التغيير. وفى خلال أربعة أشهر - حتى يونيو سنة ١٨٤٨- إنتشرت حركة « المد الثورى » دون أن تلقى تقريبا أية مقاومة ، وأمام الهجوم الذى شنته على النظم السياسية كل قوى المعارضة - الليبراليون والديموقراطيون والإشتراكيون - كان فشل القوى التقليدية كاملا. وكان نجاح الحركات المتحررة والديمقراطية بفتح الطريق أمام الحركات القومية، التى كانت تهدد بتغيير الخريطة السياسية لأوربا .

وفى إيطاليا نشبت الثورة فى لومبارديا والبندقية ضد الحكم النمسوى فى ١٨ مارس ، وحصلت على تأييد مسلح من شارل ألبير ، ملك سردينيا، الذى أذاع ، فى ٢٥ مارس ، نداء من أجل « الوطن الإيطالى » و « إتحاد الإيطاليين » ، ودون أن يتقدم بأى برنامج محدد ، ولكن الحكومة البابوية وحكومة نابلى ، بعد أن كانت قد قدمت معونة مترددة ، تراجعتا، وبقى شارل ألبير بمفرده فى مواجهة النمسا .

ولكن الدفع الثورى خف ، فيما بين يونيو ونوفمبر سنة ١٨٤٨، وكان المثال الفرنسى ، من جديد هو الذى أتبع ، كما سحق الجيش والحرس الوطنى ثورة العمال فى فرنسا فى « أيام » يونيو سنة ١٨٤٨، إنبعث نفس الطريقة مع الثوار فى فيينا وبرلين وفرانكفورت وبوخارست. أما فى إيطاليا ، فرغم أن شارل ألبير قد أنهزم ، فى ٢٥ يوليو ، أمام الجيش النمسوى ، فى كوستوزا ، فقد بدا أن الحركة الوحدوية قد

قويت شيئا ما بسبب عودة التهديد النمسوى ففى أغسطس ، مشروع سردينى لإنشاء رابطة أو جامعة بين الملوك الإيطاليين وفى سبتمبر مشروع باتحاد دول وضعه جيوبرتى الذى أصبح رئيسا لمجلس وزراء تورينو ، وفى أكتوبر فكرة الديمقراطى التوسكانى مونتانيللى باقتراح جمع جمعية تأسيسية إيطالية . وأثارت هذه المشروعات ضجة كبيرة ، لأن الملوك والأمراء الذين أجمعوا على أبعاد فكرة جمعية تأسيسية لم يتمكنوا من الإنفاق على إنشاء إتحاد دول ففى روما وفى نابلى لم تكن الحكومات ترغب فى الموافقة على حل يضمن لدولة سردينيا تفوقا ،ولكن الديمقراطيين إستغلوا هذا الفشل وخيبة الآمال هذه ، وما دام الملوك والأمراء لم يعرفوا أو لم يرغبوا فى إرضاء الشعور القومى ، فلماذا لا يحاولون العمل بدونهم ؟ وفى روما ، وأمام الثورة ، ترك بيو التاسع دولته ، وأنشأ ماتزينى جمهورية روما، وفى فلورنسا إضطر الغراندوق إلى الفرار.

وأخيرا تحطمت الحركات الثورية فى اثناء سنة ١٨٤٩، ولكن بعد إنتقامات جديدة. ذلك أن ملك سردينيا خضع ، فى ١٢ مارس ، لضغط الديمقراطيين ، الذين طالبوه بالعودة إلى محاربة النمسا. وكانت لدى النمسا قوات عسكرية كافية للقضاء فى إيطاليا على محاولة شارل ألبير ، وفى ٢٣ مارس سنة ١٨٤٩ أنهزم جيش سردينيا فى نوفارا. وحاولت النمسا أن تعيد تدعيم نفوذها فى إيطاليا، سواء أكان الأمر يتعلق بشروط الصلح التى تفرض على دولة سردينيا، أو بمصير البندقية وتوسكانيا .

وبعد هزيمة نوفارا، التى كان من نتائجها تنحى شارل ألبير ، طالبت النمسا حكومة سردينيا . علاوة على غرامة الحرب وعقد إتفاقية تجارية بحق إحتلال قلعة الكساندريا: فأصبحت بيدمونت بهذا الشكل

مهددة فى إستقلالها. فهل كان فى وسعها أن تعتمد على تأييد ؟ لقد إقتصرت الحكومة الإنجليزية على أن تعطى للنمسا نصائح بالإعتدال. ولكن فرنسا كانت لها مصلحة مباشرة أكثر من انجلترا فى تفادى إمتداد النفوذ النمسوى فى كل شمال إيطاليا . فمنذ ٣١ مارس سنة ١٨٤٩، أى ثمانية أيام بعد نوفارا ، صوت المجلس على جدول أعمال يسمح للسلطة التنفيذية « بضمان أراضى بيدمونت عن طريق مفاوضات ، وأن لزم الأمر بتأييد إحتلال جزئى ومؤقت لإيطاليا»، وفى نهاية شهر أبريل، فكروا فى إرسال جيش إحتلال فرنسى إلى جنوا، فى حالة استمرار النمسا بمطالبتها بألكساندريا. وكان هذا التهديد فعالا، فتنازلت الحكومة النمسوية السردينية فى ٦ أغسطس ١٨٤٩، عن الإحتلال الإقليمى ، ولم تعارض فرنسا ولا إنجلترا مع ذلك فى حق النمسا المنتصرة فى الإحتفاظ بلومبارديا والبندقية. ولم يتركا أى أمل لمانان Manin حينما أطال مقاومة البندقية حتى نهاية شهر أغسطس . ولم يعرضا أكثر من ذلك فى إعدة إقامة النفوذ النمسوى فى توسكانيا، حيث مهد لعودة الغراندوق، فى ٢٥ مايو ، بعملية تدخل مسلح .

ولكن تعارض المصالح الفرنسية والمصالح النمسوية عاد إلى الظهور من جديد بشأن « مسألة روما ». وكان من الواضح أن الجمهورية الماتزينية التى انشئت فى روما مقضى عليها، منذ حركة نوفارا. وكان السؤال الوحيد هو معرفة ما إذا كانت إعادة السلطة البابوية ستكون من عمل النمسا. وستحدث بالتالى فى صالح النفوذ النمسوى ، وكان من الطبيعى أن تحاول الحكومة الفرنسية وضع عقبات فى سبيل ذلك ، كما كان لوى فيليب قد عمل فى سنة ١٨١٢ . وبهذه الفكرة قرر لوى نابليون ٢٢ أبريل سنة ١٨٤٩، إرسال حملة، وكان الموضوع ، من أول الأمر، لايتعلق بتحطيم جمهورية روما بالسلاح،

ولكن بالتمهيد لحل وسط : فالبابا ، بعودته إلى روما، الذين يطمئنهم وجود القوات الفرنسية من خطر رد فعل وحشى ، على هذه العودة . وفشلت هذه السياسة ، لأن البابا ورؤساء، جمهورية روما كانوا غير مستعدين للتفاهم. فهل كان من الحكمة التخلى عن الموضوع؟ لقد رأى الممثل الدبلوماسى الفرنسى لدى الكرسى البابوى، « من اللازم أن تنسحب ، ولكن هناك النمسا !! » ولذلك فقد إحتفظت فرنسا بالحملة، ولكنها تحولت عن هدفها الأول : فالحكومة الفرنسية ، رغم أنها كانت لاتزال تحاول أن تصل ، عن طريق بعثة فرديناند ديلسبس ، إلى حل يتمشى مع « حق الشعوب » - فى إستفتاء يسمح لأهالى روما بالإختيار بين الجمهورية وإعادة السلطة البابوية- كانت مضطرة إلى التراجع أمام رغبة المجلس الذى نتج عن إنتخابات مايو سنة ١٨٤٩، حيث سيطر الكاثوليكيون ، فقررت المحافظة على السلطة الزمنية للكرسى البابوى . وفى ٣٠ يونيو إحتلت القوات الفرنسية روما وأعادت هذه السلطة الزمنية بدون أى قيد .

ماهو الحساب الختامى ؟ لقد تحطم مجهود أنصار ماتزينى « ولكن النظام البابوى لم يكن فى وسعه أن يحتفظ بالسلطة إلا نتيجة لوجود الحملة الفرنسية ، ولذلك فإنه كان لايتمتع بثقة الوطنيين الإيطاليين » وحتى الأكثر إعتدالا من بينهم : فكانت هزيمة الحزب« الجلف الجديد » وحينما نشر جيوبرتى فى سنة ١٨٥١ مؤلفه « التجديد المدنى لإيطاليا» تخلى عن خططه السابقة ، وسيوكون لأسرة إسافوا وحدها، ورغم الهزيمة الثنائية التى كانت قد لحقت بها فى الكفاح ضد النمسا، صفة تجسيد الحركة القومية ، وبالنسبة للتطور المقبل للمسألة الإيطالية ، كانت هذه الهزيمة المعنوية للبابا لاتقل أهمية عن الهزيمة التى لحقت بالجمهوريين على أيدى الحملة الفرنسية. ولكن ، ماهى المكاسب بالنسبة

للمصالح الفرنسية ؟ لقد أصبحت الحكومة الفرنسية ، ودون أن تأمل فى ذلك ، حامية الدولة البابوية ، ولذلك فانها قد حصلت على دور تحكيم ، مادام إنشاء الوحدة الإيطالية غير ممكنة بدون الوصول إلى حل بشأن « مسألة روما » ، ولكنها لم تكن حرة فى ممارسة هذا التحكيم ، إذ أنها كانت مضطرة إلى عمل حساب لرغبة الكاثوليكيين الفرنسيين ، والواقع أن وجود الحملة الفرنسية فى روما كان ضربة للتأثير المعنوى الذى كانت فرنسا قد إحتفظت به ، حتى ذلك الوقت على تفكير الإيطاليين الأحرار. ولم يكن فى وسع الحكومة البريطانية إلا أن تغتبط من ذلك . فبينما كانت فى العام السابق قد عارضت تدخلا فرنسيا فى بيدمونت ، إمتنعت تماما عن تقديم أى إعتراض على حملة روما، لأنها اعتقدت أن فرنسا، بمجيئها لمعاونة القوى « الرجعية »، ستؤثر على شعبيتها فى إيطاليا. وأكدت الأحداث هذا التفكير .

وعرفت الحركة القومية بضع سنوات من الشلل ، بعد هزائم سنة ١٨٤٩ وفقدت جزء من قيادتها ومناضليها ، الذين لم يتمكنوا من تحمل ظروف الحياة السياسية فى الدول الى سادت فيها الرجعية ، وهاجروا فى أعداد كبيرة . ومع ذلك فقد ظهرت اليقظة من جديد ، مع تهيئة ظروف دولية مواتية ، وإستعادت الحركة القومية الايطالية قوتها إبتداء من سنة ١٨٥٧ ، وذلك مع زيادة التغيرات الإقتصادية ، وزيادة التبادل التجارى وحركة رؤوس الأموال فى أوربا، وبظهور شخصية يمكنها أن تؤثر على مجرى الأحداث من شخصية كافور .

٣- كافور :

كان كافور قد أصبح ، وله من العمر إثنين وأربعين عاما، رئيسا لوزراء مملكة بيدمونت سردينيا ، فى نوفمبر سنة ١٨٥٢ . وكان ينتسب

عن طريق أصل أسرته إلى طبقة نبلاء بيدمونت ، وتأثر عن طريق والدته ، التى كانت من جنيف ، بمؤثرات إختلفت عن مؤثرات هذا الوسط التقليدى ، ولمدة تزيد عن خمسة عشر سنة ، بعد فترة قصيرة فى الجيش ، حيث خدم كضابط مهندس ، عاش حياة كبار ملاك الإراضى ، ولكن رحلاته إلى الخارج ، وإلى جنيف ، وإلى باريس، وإلى لندن . وسعة أفقه الثقافى من وقت مبكر. وكان يهتم ، فى أثناء هذه الفترة من حياته وبوجه خاص، بالمسائل الإقتصادية فلم يقتصر على الإهتمام بتحسين وسائل الانتاج الزراعى فى أملاك الأسرة، بل حاول كذلك أن يقوم بنشاط صناعى بإنشائه معملا للتكرير ، ودخل كذلك فى الأعمال الكبيرة: فكان أحد الأوائل فى إيطاليا ، الذين إهتموا ببناء السكك الحديدية ، وعرف الدور الأساسى الذى يؤديه التنظيم المصرفى وكان أول ما نقله من إقامته فى الخارج هو الملاحظات الخاصة بالحياة الإقتصادية : وتشهد على ذلك ، « المكتبة العالمية » Bibliotheque universelle فى جنيف ،مقالاته عن مسألة القمح فى إنجلترا أو عن سياسة حرية التبادل ولذلك فإنه قد بدأ فى أول الأمر على أنه تقنى نشط ورجل أعمال قبل أى شىء آخر. وحاول ألا تكون له مشغوليات أخرى : « أما عن السياسة ، فإنى أغمض الطرف » كما كتب إلى أحد أصدقائه السويسريين ومع ذلك فقد دخل ، فى سنة ١٨٤٧ ، فى الحياة السياسية وكان أحد منشئى جريدة Risergimento والتى كان برنامجها «إستقلال إيطاليا » وفى نفس الوقت إنشاء نظام سياسى متحرر وبرلمانى فى دولة سردينيا، ولكنه لم يقم فى أثناء أزمة سنة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ بتحمل مسئولية مباشرة : فعاش هذه الأحداث بصفته مجرد صحفى ، وإن كانت الحقيقة أن نفوذه قد إزداد بإستمرار ، كصحفى ، ولذلك فقد ظهر على أنه رجل جديد بين رجال السياسة ، حينما وصل إلى السلطة.

ولم يكن هدفه القومى مجرد طموح وزير يرغب فى « توسيع بلاد ملكه »، فكان يشعر ، منذ صباه ، بأن الشعب الإيطالى كان ، بسبب التقسيم السياسى ، فى حالة لاتقبل من الضعف ، وأعلن إيمانه بضرورة « بعث » إيطاليا ،و « إخراجها من الوحل » . وأعلن فى إحدى مقالاته فى Risorgimento ، فى مارس سنة ١٨٤٨، إن أوربا « ستشهد قيام دولة عظمى جديدة .... الدولة الإيطالية »إيطاليا الدستورية والحرة ، وأقنعته تجربة سنة ١٨٤٨- ١٨٤٩ بأنه لايمكن الوصول إلى هذه الأهداف بدون مساعدة إحدى الدول العظمى الغربية .

ومع ذلك فقد ظلت هذه المشغولية « الإيطالية » مرتبطة تماما فى فكره بالمشكلات السياسية والاقتصادية لدولة سردينيا، . وكان يرغب فى ممارسة نظام متحرر ، لا لمجرد أنه كان « غربيا » بثقافته ، وبكل ملامح تكوينه الثقافى ، بل أيضا لأنه كان يعتقد فى أن الدولة تحصل على قوة حقيقية إضافية حينما تستند إلى الرأى العام. وكان يؤمن كذلك بأن المسائل الاقتصادية كانت « قناعا للسياسة » : فالتقدم فى تنظيم الانتاج والتبادل يجب أن يمهد الطرق لتحقيق مخططاته وأهدافه ، وكان عقد معاهدات التجارة مع فرنسا وبريطانيا العظمى بعد سنة ١٨٥٠ ، وسيلة فى فكرة الحصول على عطف هذه الدول . ولذلك فقد بدا له أن التحرر السياسى والتحرر الاقتصادى هى وسائل لتحقيق المثل الأعلى القومى .

فهل معنى ذلك أن نقول أنه كان له مسبقا ، فى هذا الشأن ، برنامجا محددا، وأنه كان قد فكر فى خطواته ؟ لايبدو الأمر كذلك فحتى فى سنة ١٨٥٨، كان يأمل ، ولكنه كان يخشى ومع ذلك فقد كان مستعدا للأفادة من الظروف المواتية فى الحال ، وعمل من أجل خلق هذه الظروف .

وبالاختصار، فـربما لم يكن كافور مدفوعا بعـاطفة قوية ، ولكنه كان ، برلمانيا كبيرا، ودبلوماسيا عظيما. وكان يحسب بهدوء ، وكرجل واقـعى ، ولم يكن مـرتبطا بأى نظـام ، ولا بأية نظرية ، وكـان يلائم نفسه مع إمكانيات أى وقت ومع الضـرورات العملية ، بإصرار وبرقة ، ولكن يحذر كذلك . وكان يتميز بوضوح الرؤية وبملكة التنبؤ بالتسلسل الممكن للأحـداث ، وكان يظهـر فى العمل شـجاعـة، وقوة عـزيمة ، وسرعة وشجاعة فى إتخاذ القرارات ، وأدب ملحوظ .

٤- إنشاء مملكة إيطاليا [١] :

لقد وضـعت مقابلة بلومبـير Plombieaes فى يوليـــو ١٨٥٨، أسس عمل فـرنسى سردينى ضد الـنمسا ، تحـددت شروطه ، فى يناير سنة ١٨٥٩ ، فى مـعاهدة سـرية ، ولم يكن الأمـر يتعلق حـتى ذلك الوقت إلا بإنشاء مملكة لايطاليا العليا، وبدأت حرب الاستقلال الايطالية فى مـايو سنة ١٨٥٩ ، ولكن نابليون الثـالث أوقفـها فى ١١ يولـيو ، بهدنة فـيلافرانكا. قـبل أن يحقق كل وعـوده ، ومع ذلك فإن سيـاسة سردينيـا لم تتخلى عن أهدافـها. وحـصل إصرارها فى بعض الأحـيان على موافقـة الامبراطور الضمنية وفى أحيـان أخرى على رضائه العلنى على ضم دوقيات إيطالـيا الوسطى وروماتا وسرعان مـا أخذت حكومة سردينيا فـى تنفيذ المرحلة الثانيـة من برنامجها فحـققت فى سنة ١٨٦٠ ضم مملكة الصقليتين ، ثم منطقة مارشا ومنطـقة أومبريا . وحينما إتخذ فـيكتور إيمانويل لقب ملـك إيطاليا فى سنة ١٨٦١ كـانت الوحدة قـد تحقـقت إلى حد بعـيد، ولكن إقليم البندقـية والترنتـينو ودولة الكرسى

---

(١) انظر : د. جلال يحيى ، تاريخ العلاقـات الدولية ١٨١٥- ١٩١٤ القاهرة ،دار المعارف ، ١٩٧١ ، ص ص ٣٦١ - ٣٨٠ .

الرسولى التى إنحصرت فى روما وفى إقليم صغير، كانت لم تنضم بعد.

وفى تفسير هذه الأزمة الايطالية ، تثير أسئلة ثلاث الانتباه الأسس القومية لسياسة سردينيا، ودور نابليون الثالث ، وموقف بريطانيا العظمى .

لم تكن الحركة القومية الايطالية فى سنة ١٨٥٩ حركة جماهير أكثر مما كانت عليه فى سنة ١٨٤٨ . وكانت أوساط الفلاحيين ، التى تكون غالبية الأهالى قد ظلت بلا حركة . وكان الوطنيون الايطاليون - الأنصار الفعليون للوحدة يجندون من بين المثقفين الذين كان لديهم شعور بالمصير القومى والذين كانت تدفعهم ذكريات تاريخية ، ومن بين رجال الأعمال ورجال الصناعة الذين كان من مصلحتهم خلق « سوق » إيطالى ، والتجار الذين رأوا تفتح إمكانيات جديدة تزايد بناء السكك الحديدية فى الدول المختلفة فى شبه الجزيرة وأخيرا من بين العمال الحرفيين الذين تأثروا بدعاية ماتزينى ، وليس من الصعب تقدير الدور الخاص بالقوى العاطفية وبالمصالح المادية ، ولكن علينا ألا ننسى أنه إذا ما كان نمو الحياة الإقتصادية سريعا فى بيدمونت وفى لومبارديا ، فقد كان بطيئا فى توسكانيا ، وفى دولة البابوية ، وفى مملكة الصقليتين ، ألن يكون من التحيز الواضح أن تنسب للتأثير الإقتصادى نصيبا هاما ؟

وتمت الرعاية « القومية » فى ظروف مواتية أكثر مما كان عليه الحال قبل سنة ١٨٤٨، إذ أنه يبدو أن المناضلين الآن قد اتفقوا على الحل الذى يسعون إليه . الوحدة تحت أسرة آل سافوا. وكانت دولة سردينيا هى الوحيدة التى شاركت مشاركة فعالة ، فى سنة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ ،

فى المجهود القومى والتى خاطرت فـى ذلك بوجودها، وكانت الوحيدة التى احتـفظت ، بعد الهزيمة ، بنظام دسـتورى كان يضـمن لها عطف المتـحررين فى كل شـبـه الجزيرة ، وكـان كـذلك ، بالنسبـة للمنفـيين والسيـاسيين من الدول الإيـطالية الأخرى ، مكـان الإلتجاء وقـبل سنة ١٨٤٨ ، كان هذا الحل الخـاص بسردينيا، قد لقى منافسـة ، مشروع « الجلف الجديد » والبرنامج الجمهورى . ولكن هذه العقبات أزيلت بعد ذلك فانصرف الناس عن « الجلف الجـديد » منذ أن تخلى بيوس التاسع فى سنة ١٨٤٩ عن القضية الوطنية . وفى سنة ١٨٥٥ ، ظهر أن العقبة الجمهورية قد امحت بدورها . فاعـترف ماتزينى بأن آل سافوا يمكنهم ، وحدهم ، أن تكون لهم فرصة تحقيـق الوحدة ولذلك فإن تجميع القوى الوطنية قد تم حول الأسرة المالكة السردينية .

ولكن الحركة الوحديـة ظلت تلقى مقاومة من مشاعـر إنفصالية، كانت دائمـا تثور فى هذه البلاد التى ظهـرت فيهـا « وطنية المدن » منذ زمن بعيد، والتى كـان البنيان الإجتمـاعى يختلف فيها تمـاما من منطقة لأخرى ، وتلـقى مقاومـة كذلك من مـصالح الأمـراء والملوك، والذين كانت دولهم مهددة بأن تحتويها مملكة سردينيا. ومع ذلك فقد كانت هذه المقاومة غير متساوية . فـفى مملكة الصقليتين أصبح الأهالى لايثقون فى الملك ، وفى دوقيات إيطـاليا الوسطى ، لم يستعـد الأمراء، الذين كانوا قد سقطوا بسـهولة فى هزات سنة ١٨٤٨، إلا سلطة ضعيـفة . وكانت العقبة الأكبر هى وجود الدولة البابوية ، ورغم أن هذه الدولة كانت لها إدرة سيـئة ، وأن المعارضة المتـحررة كانت متـوغلة فيها ، وخـاصة فى إقليم رومانا ، وأنها كانت عاجزة حتى عن تجنيد قواتها المسلحة من بين أهاليـها، فقـد احتـفظ البابا ببـعض الإمكانيـات ، مادام الأمر يتـعلق بالسلطة الزمنية . ولكى يدافع عن هذا المبدأ، كان فى وسـعه أن يعتمد

على تأييد كبار رجال الدين فى كل إيطاليا ، وعلى النفوذ الذى يمارسه كل رجال الكنيسة على جماهير الشعب الذى كان شديد التمسك بالتقاليد الدينية، وكان فى وسعه أن يعتمد أكثر من ذلك على وجود الحملة الفرنسية، والتى كانت قد بقت فى روما منذ سنة ١٨٤٩ وكذلك وجد اتجاه ، فى الأوساط المحافظة وفى قطاع من رجال الدين ، اتخذ موقفا سلبيا تجاه أحداث سنة ١٨٤٩ ، وكان لهذا الإتجاه « جذور عميقة » فى البلاد.

فما هى حالة تفكير كافور خلال سنوات الإنتظار هذه ؟ كانت أفكاره فى أول الأمر غير مؤكدة فكان قد فكر فى سنة ١٨٥٦، فى ممارسة سياسة ضم جزئى ، فى صالح دولة سردينيا : ففكرة تنظيم « حزب بيدمونتى » فى صقلية يمهد لقيام ثورة ، وحرب أهلية ثم إنضمام إلى بيدمونت ، ظهرت له على أنها « متهورة » ، وليس على أنها . «غير معقولة » ، وإمكانية ضم دوقية بارما كانت قد لفتت انتباهه كذلك ولم يظهر ، فى هذا الوقت ، على أنه يعتقد فى أن حلا شاملا للمشكلة الإيطالية سيكون ممكنا : ففى خطاب إلى راتارى Rattazzi اعتبر مانين Manin على أنه خيالى يرغب فى « وحدة إيطاليا وأحلام أخرى » ، إذ أنه لم يكن يعتقد فى أن الأهالى الإيطاليين قد « نضجوا » من أجل الوحدة وظلت وجهات نظره غير مؤكدة كذلك فيما يتعلق بالشكل الذىأيمكن ايطاليا هذه أن تأخذه : دولة اتحادية ؟ أو تعاهدية ؟ ولم يعلن إلا فى سنة ١٨٥٧ : « إننى أثق فى أن إيطاليا ستكون دولة واحدة وستكون روما عاصمتها » . ولكى يتغلب كافور على هذا التردد فإنه عمل على تنظيم دعاية . فالجمعية القومية Societe nationale التى أنشئت بدافع منه، فى أول أغسطس سنة ١٨٥٧ كان برنامجها هو « إيطاليا وفيكتور إيمانويل » وضمت بين أعضائها عددا من الجمهوريين

– مانين وغاريبـا لدى ولافارينا La forina الذى كان سكرتيـرها العام . ورغم أن الجمعـية لم تكن لها صـلات رسمية ، فإن لافـارينا كان على إتصال دائم بكافور، وأيدت دبلوماسية سردينيا هذا العمل فى بقية الدول الإيطالية .

وإذا كان الهدف النهائى قد بقى غـير مؤكد خلال عدة سنوات ، فإن الطرق السيـاسية كانت ، على العكس من ذلك ، مـحددة بوضوح منذ سنة ١٨٥٢ . فكان كافور يـعلم أن تحقيق برنامجه، حـتى جزئيا ، لم يكن ممكنا بدون مساعدة دولة أجنبية ، وكان يأمل فى أن يحظى بهذا التأييد من جـانب فرنسا أو بريطانيا العظمى « مـن بين الدول الغربية » فهى رغـبة تتمـشى مع إتجاهات فكره، ولكن الظـروف كانت هى التى فرضتها عليه بشكل خاص، فأين يمكنه خلاف ذلك أن يجد من يعينه ؟ وبين بريطانيا العظمى وفـرنسا . كانت تفضـيلاته الخاصة تتـجه صوب بريطانيا العظمى ، ومع ذلك لم يكن يعقد آمالا على السياسة الإنجليزية الحذرة والواقعية ، ولا على القيمة الفعلية التى يمكن أن تكون ، لعملية تدخل مسلح .والتى ستقتصـر على عمل بحرى وكان فى وسع فرنسا، على عكس ذلك ، أن نعطيه ثقل القوة الحربية . وكان كافور قد فهم ، منذ سنة ١٨٥٢، أن نابليون الثالث سينتهج سياسـة شخصية ، توجهها الرغبة فى إعادة نفوذ فرنســا ، وأن هذه السياسة يمكنها أن تخدم أهداف إيطاليا. وكتب إلى أحد أصدقائه السياسيين : « إن مصائرنا تتوقف على فرنسا » ، « وبرضانا أو رغما عـنا ، علينا أن نكون رفقاءها فى العملية الكبـرى التى ستـقع قريبـا فى أوربا » . ومع ذلك فإنه لم يكن يجـهل المخاطر فلم يكـن الأمر يقتـصر على مجـرد تعرضه للنقـد العنيف من جانب أنصار مـاتزينى ، الذين اعتبروا كل طلب لمساعدة خـارجية على أنه خيانة ، ولكنه كان ينتظر أن تقـوم فرنسا بطلب تعويض من حكومة

سردينيا .

وكان تأييد فرنسا مقررا ، فى عامى ١٨٥٨ و ١٨٥٩ . ومع ذلك فقد كان الرأي العام الفرنسى مترددا، وكان حتى معاديا، فى بعض الأوساط الهامة : فكان الكاثوليكيون يخشون من أن تؤدى الحركة القومية الايطالية إلى اختفاء السلطة الزمنية ، ورأت أوساط رجال الأعمال، عموما، أن هذه المغامرة كانت بلا مبرر وحاول مورنى Morny وبرسنى Persigny أقدم أصدقاء الإمبراطور أن يثنوه عن عزمه ، وكرر والويسكى Walewski وزير الخارجية اعتراضاته وكان العسكريون ، وحتى دخول الحرب ، فى غاية التحفظ . وكانت العزيمة الشخصية للامبراطور هى التى تغلبت على هذه الاعتراضات . فلأى سبب كان نابليون الثالث يرغب فى مساعدة الوحدة الإيطالية ، وكيف كان يتصورها؟ ولم يواصل العملية حتى النهاية بعد أن كان قد بدأها؟ علينا أن نحاول تتبع سير التفكير الإمبراطورى .

كان لنابليون بكل تأكيد ، منذ صباه ، عطفا على القضية الإيطالية وحينما أصبح إمبراطورا ، لم يكن قد نسى الدور الذى قام به ، فى سنة ١٨٣١ ، ١٨٣٢ فى عملية الهياج الثورى فى الدولة البابوية ، والصلات الى كان قد عقدها فى لندن مع المهاجرين الإيطاليين ، بما فيهم أنصار ماتزينى . ومنذ سبتمبر سنة ١٨٥٢ قال أمام لامارموا La marmora « إننى مصمم على أن أفعل شيئا من أجل إيطاليا التى أحبها بصفتها وطنى الثانى » وفى محاولة أخرى مع فيلامارينا Villamarina سفير سردينيا ، فى مارس سنة ١٨٥٣ ، أشار إلى الحركات الكبرى التى يمكنها أن « تعيد إحياء القوميات » ، وخصوصا القومية الإيطالية . وهذا العطف تأكد بوضوح حينما دعا كافور، فى ديسمبر سنة ١٨٥٥ ، لكى يشرح له أية خدمات يمكن لحكومة فرنسا أن تقدمها لإيطاليا.

وكتب إلى والويسكى ، وزير خارجيته أن « بيدمونت حليف طبيعى لفرنسا » التى عليها أن تؤيدها فى حالة نشوب حرب ضد النمسا ، ولذلك ، فإنه كان يتوقع ، منذ هذا الوقت ، نشوب حرب فرنسية - نمسوية بشأن المسألة الإيطالية ، ومع ذلك . فإن الإمبراطور لم يكن قد قرر بعد أن يقوم بعمل فعال. « علينا أن نعرف كيف نصبر » كما نصح لكافور فى يوليو سنة ١٨٥٧ . لماذا ؟ لاشك لأنه كان لايجهل أن للدول العظمى كانت فى غالبيتها، معادية للتغيرات الإقليمية، ولكن أيضا لأنه كان يتردد فى إثارة الرأى العام للأوساط الكاثوليكية الفرنسية والتى كان تأييدها ضروريا لاستقرار النظام، ومع ذلك فقد قرر ، فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٥٨، أن يأخذ خطوة هامة : فأبلغ فيكتور إيمانويل أنه مستعد ، فى حالة نشوب حرب نمسوية - سردينية ، لكى يمنح المملكة الصغيرة تأييد فرنسا العسكرى .

وبين هذا القرار ومحاولة الاغتيال التى وجهها أورسينى Orsini ضد الإمبراطور ، قبل ذلك بخمسة أسابيع ، يرجع وجود علاقة مباشرة . ولكن ، أى علاقة ؟ هل من الضرورى أن نعتقد أن الإمبراطور قد تأثر بالإنذار وبالنداء التى وجهها اليه من حاول القيام بعملية الاغتيال، فى ١١ فبراير فى اليوم السابق لمحاكمته : « مادامت إيطاليا ستظل غير مستقلة ، فإن هدوء أوربا وهدوء جلالتكم لن يكونا إلا خيالا. فلتقروا جلالتكم ألا ترفضو الأمل الأعلى لوطنى يقف تحت المقصلة ، ولتقروا إنقاذ وطنى ؟»والظاهر أن هذا الخطاب قد تسبب ، طبقا لأغلبية المؤرخين ، فى « صدمة نفسانية » بإثارته نوعا من التأنيب لدى الإمبراطور. ومع ذلك ، فإذا ما كان هذا التفسير حقيقيا ، فسيكون مما يثير الدهشة تماما أن يقوم نابليون الثالث بنشر خطاب أورسينى حيث تساعد إشارته « لهدوئه » الشخصى على التفكير فى أنه

كان يحـاول بوجه خاص، بإعطاء تأييـده للقضيـة الإيطالية، أن يتجنب محاولة جديدة . وإن ما هو مـرجح أكثر من ذلك هو أن فعل أورسينى قد خـدمه وساعـده على التخلص من اعـتراضات الـوسط المحيط به ، وخاصـة اعتراضات الامـبراطورة واعتراضـات والويسكى، الذين كانوا يحاولون الدفاع عن المصـالح الكاثوليكية. وفى هذا التفسيـر نجد شرحا أكثـر إرضاء لعملـية نشر خطاب أورسـينى ، فالإمبـراطور ، ألم يكن يرغب فى وضع الخصوم للـفرنسيين لسياسـته الإيطالية أما مسـئولياتهم بتذكيـرهم بالأخطار التى يعرضونه لهـا؟ وعلينا أن نتفق على أن هذا هو مجرد افتراض .

وفى هذا القـرار الإمـبـراطوري ، لم يكـن العطف الشـخـصى للامبـراطور على القضـية الإيطالية ، والذى دعـمه إبن عمـــه نابليون جيروم Napoleon-Jerome وطبيبه الدكتور كونر Conneau هو السـبب الوحيـد . فنابليون الثـالث وجد كـذلك فى التأييـد المسلح الذى أعطاه لبيـدمونت وسيلة تخـدم المصالح الفـرنسية : فكان يرغب فى إضـعاف النمـسا، التى كانـت، فى أساسهـا، الدولة « المحافظة » عـلىالأوضـاع القائمة ويفـتح فى التسوية الاقليمية التى وضـعت فى سنة ١٨١٥ فجوة يمكن توسيعها فيما بعد، إذ أنه اعتقد أن فى وسع انتصاره فى إيطاليا أن يدفع بلجيكا والدول الألمانية إلى التحالف مع فرنسا، وكان يعتقد فى أن تدخله المسلح سـيعطيـه تعويضـا إقليمـيا، ويأمل أخـيرا فى أن تصـبح إيطاليـا «تابعة» Satellite لفرنسا .

ولاشك فى أنه كان من أجل الاحتياط ضد أى خطر للتنافس ضد المصالح الفـرنسية أن قام نابليـون الثالث بإبعاد إمكانيـة الدولة الايطالية الوحدوية ولم يتصور إيطاليا المسـتقبل إلا فى شكل اتحاد دول ، مشابهة للاتحاد الجـرمانى وضـعيف كذلك مـثله . وكان هذا الحل يعطى مـيز

أخري ، فهو يتفادى أمر طـرح مسألة السلطة الزمنية فى التو ، مادامت الدولة البابـوية ستوجـد داخل نطاق الإطار الكونفيـديرالى وهو يتطابق كـذلك مع أمـال هؤلاء الإيطاليـين الذين كـانوا يخـشـون من سـيطرة بيدمـونت . ولايمكننا الإحتفـاظ بأي شك فيمـا يتعلق بهـذا المظهر من برنامج الإمبراطور: فمنذ يناير سنة ١٨٥٦ كان الحل الخاص باتحاد الدول Confederation d'Etats هو الذى ذكره، لوزير خـارجية سردينيـا لامار مورا وكـان هو كذلك ،وفى يوليو سنة ١٨٥٨ ، الموضـوع الرئيسى فى مقابلات بلومبيـر حيث قبل كافور أن تصبح الأقاليم الإيطاليـة المتجمعة أربع دول ، تحت رئاسـة البـابا ، ولـكن تحت الإدارة الفـعليـة لأسـرة سافوا. ولاشك فى أنه ، في معاهدة التحالف الموقع عليها فى ٢٨ يناير سنة ١٨٥٩ـ والتى عالجت مسألة تحرير لومـبارديا والبنـدقية ، وإنشـاء « مملكة لإيطاليا الـعليا من أحد مليـونا من السكان تقريبا » - لم تتـحد الوضعية المستقـبلة لإيطاليا فى شبه الجزيرة ، والأرجح أن ذلك قد رجع إلى أن الطرفين قد وجـدا من الحكمة عدم التقـدم بأى شىء مكتوب ، وإن كانت شهادة الماريشـال فييان Vaillant تدل على أن وجـهات نظر الامبراطور بقيت على ما كانت عليه فى هذا الوقت .

ومع ذلك ، فلقد تردد نابـليون الثالث. فى الوقت الذى بدأ فـيه فى تنفـيذ خطـته. فـحاول أن يؤجـل الحرب، ووصل فى مـارس سنة ١٨٥٩ حتى إلى اقـتراح حل للمـسألة الإيطالية مـختلفـا تماما عن ذلك الحل الذى كان قد وعـد كافور به: فالاتحاد الإيطالـى لن يضم لومبارديا والبندقيـة التى ستظل إقليمـا نمسويا. وهذه التحـولات مرتبطة بالمواقف الدولية .

ففى ديسمبر سنة ١٨٥٨ ، وقبيل المعاهدة الفرنسية السردينية، كان نابليون الثـالث قد قدر أن الخصم سـيبقى منعزلا فى اللحظـة الحرجة.

ولكن هذه التنبؤات المتفائلة لم تصدق : فقبل القيصر ، بمعاهدة ٣ مارس سنة ١٨٥٩، مجرد إعطاء وعد « بحياد مشرب بالود» فى حالة نشوب حرب نمسوية سردينية ولكنه رفض التحالف، رغم أن نابليون قد جعله يأمل فى إعادة النظر فى معاهدة باريس وحتى فى غزو غاليسيا، وحكومة بروسيا رفضت ، رغم إلتماسات كافور ، أن تتخذ موقفا ، إذ أنها كانت تخشى فى حالة تأييدها لاعادة النظر الجزئية فى معاهدات سنة ١٨١٥ ، من أن تثير فرنسا مسألة الراين فيما بعد ، وبريطانيا العظمى أخيرا، وحيث تولت السلطة فيها وزارة محافظين ، فى فبراير سنة ١٨٥٨، بدلا من وزارة الأحرار، فإنها قد أعلنت أنها ضد التغييرات الاقليمية فى إيطاليا، لأنها ند للنمسا إذا ما حاولت روسيا الانتقام، ولأنها لاتوافق على وجود نفوذ احتلال فرنسى مسيطر فى شبه الجزيرة، وأخيرا لأنها وجدت فى الاحتفاظ بالوضعية الاقليمية لسنة ١٨١٥ أحسن ضمان لتوازن القارة .

وهذه العقبات تشرح تردد الامبراطور: فقال أنه لايمكن لفرنسا أن تخاطر بأن تجد « كل أوربا ضدها » واعتقد كافور أن « الامبراطور قد غرر به أو أنه خائن » وكان تطرف الحكومة النمسوية غير المتعقل - الانذار الموجه لدولة سردينيا فى ٢٣ أبريل- هو الذى قلب الموقف الدبلوماسى وثبط عزيمة الوساطة الانجليزية وجعل نابليون الثالث يترك سياسة كافور تفرض نفسها عليه فلماذا قرر نابليون الثالث ، بعد إنتصاره فى سولفرينو، ورغم كافور عقد صلح « سابق لأوانه » ؟

عامل عسكرى : فالامبراطور ، رغم انتصاره ، لم يكن قد أصبح سيد الموقف بعد ، إذ أن الجيش النمسوى كان قد انسحب ، بعد سولفرينو ، إلى الجنوب من فيرونا ، وفى مواقع حصينة ، وكان على القوات الفرنسية أن تبذل مجهودا كبيرا لاخراجه من هذه المواقع .

وعامل سياسى : فالامبراطور قد أوضح ، منذ مقابلة بلومبيير ، أنه لايرغب فى رؤية الحـرب تأخذ طابعا « ثوريا » وأنـه لايوافق كذلك على العمل من أجل إنشـاء دولة ايطالية وحدوية، ولكن كـافور تخطى - حدود هذا البرنامج فى أثنـاء العمليات الحربية ، فـمن ناحية ، لم يكن قانعـا بإثارة حركات « قومـية » فى بارما ومـودينا، وفى رومانا (وهى الحالة التى بحثت فى بلومبـيير) بل أرسل كذلك قومسيـيرا من سردينيا إلى توسكانيـا، بعـد قرار الغـراندوق ، ولكن توسكانيـا كـانت طبقـا لمحادثات بلومـبيير ، سـتكون نواة لدولة إيطاليا الوسطى، ولذلك فـقد اظهرت هذه المسألة ان سياسة سردينيا تعمل ، فى صالح حكم أسرة آل سـافـوا علـى تحـقـيق برنامــج ضـم سـيـقـضى علـى فكرة الاتحـاد الكونفيدرالى . وأعلن الامبـراطور فى ٥ يوليو للكونت بيبولى Pepoli:

« إننى لا أريد الوحـدة ، ولكن الاستـقـلال» فالوحـدة ستـثيـر لى صعوبات فى فرنسا، بسبب مـسألة روما، وفرنسا لن تنظر بعين الارتياح إلى نشوء أمة كـبيرة إلى جوارها، يمكنها أن تقلل من درجـة سيطرتها، ومن ناحية أخرى حاول كافـور ، بمفاوضة مع كوشوط Kossuth، أن يتسـبب فى نشوب ثورة المجـر. وكانت إمكانيـة التحالف مـع العناصر الثورية غير مقـبولة من الامبراطور خاصة وأنها كانت ستثـير اعترضات حكومة روسيا .

وعـامـل دولى : الخـوف من تدخـل بروسى فكانت الحكـومـة البروسية ترى فى حرب الاسـتقلال الإيطالية مقدمة ممكنة لتـغيير إقليمى يمكنه أن يمتد إلى منطقة الراين ، ولكنها كانت فى نفس الوقت ، ترغب فى الافادة من مشكلات النمسا لكى تـدعم مركزها فى المسألة الألمانية . وحكومـة بروسيـا، مع أنها ، رغم وجـهة نظر الوصى على الـعرش، كانت تتردد دائمـا فى أمر تحالفها مـع النمسا، فإنها قـد وجهت تحذيرا

لفرنسا ولسردينيا : ففى نفس الوقت الذى أكدت فيه عدم وجود نيات عدائية لديها، أظهرت بوضوح أنها كانت تخشى من النتائج التى يمكنها أن تترتب على حرب إيطاليا، وأنها كانت ترغب فى أن « تخمن القرار الأخير للإمبراطور » وأنها كانت تأمل فى أن يوقف الفرنسيون السردينيون عملياتهم العسكرية عند خط مينشو . ولم يظهر أى تهديد محدد: ولكن « التهديد الفعلى » كان من الممكن أن يصبح خطيرا فجأة، . فى حالة إذا ما تحقق الاتفاق النمسوي البروسى فى آخر الأمر وطبقا للتقارير التى استلمتها من وكلائها فى ألمانيا، كانت الحكومة الفرنسية تتوقع « أزمة خطيرة » فى حالة عدم استماعها إلى التحذير البروسى وقيامها بغزو إقليم البندقية . ولقد ذكر نابليون لكافور فى ١٠ يوليو ، «فى حالة التنظيم الحالى للقوات، لايمكن لفرنسا أن تقوم بحرب مزدوجة ، على الراين وعلى الأديج ».

وباستمرار الحرب، كان الأمبراطور إذن سيعرض فرنسا لأخطار جسيمة وربما يصبح مهددا ، حتى فى حالة النصر ، بأن نحصل المسألة الايطالية على حل لايتطابق مع مصالحه ، وفى هذا لايكفى لشرح قراره الخاص بالتوقيع على الهدنة ودل ذلك على أنه قد تخلى عن هدفه « الايطالى » ، وكذلك عن أهدافه « الفرنسية » فتخلى عن التعويض ، مادام لم ينفذ الوعد الموجود فى المعاهدة السردينية ، ولم يبعد النفوذ النمسوى تماما من شبه الجزيرة، لأن مندوبى الصلح قبلوا اشتراك النمسا فى الاتحاد الكونفيديرالى الايطالى ، وأخيرا كيف كان فى وسعه أن يفكر فى إيطاليا «تابعة»، مادام قد خيب تماما آمال الوطنيين الإيطاليين ، بتخليه عن العملية قبل إتمامها؟

والواقع أن الحل الذى حاولت محادثات فيلا فرانكا أن تصل إليه سيبقى بدون تنفيذ. وفى مدة خمسة عشر شهرا، من أغسطس سنة

١٨٥٩ إلى أكتوبر سنة ١٨٦٠ ، ستنطور مراحل إنشاء مملكة إيطاليا بسرعة زائدة وفى هذه المرحلة الجديدة من مراحل المسألة الإيطالية ، ماهو الدور الذى يمكننا أن ننسبه للمجهودات الايطالية ، والدور الذى يمكننا أن ننسبه لسياسة فرنسا أو لسياسة بريطانيا العظمى ؟

وفى إيطاليا ، لم تكن العزيمة « القومية » دائما إجماعية . فالمقاومة التى كانت قد أثارت قلق كافور فى سنة ١٨٥٧ ، كانت قد أصبحت أكثر اعتدالا إذ أن النجاح الأول لسياسة سردينيا قد تسبب ، بطبيعة الحال ، فى انضمام والتفاف عناصر حول أسرة آل سافوا، ومع ذلك فقد ظلت موجودة . ففى توسكانيا ، وفى الوقت الذى ترك فيه الغراندوق ، وهو أمير نمسوى فلورنسا، إصطدم أنصار الاتحاد مع دولة سردينيا بعقبتين : فكان قطاع من الرأى العام يأمل فى المحافظة على الاستقلال، سواء تحت شعار أسرة اللورين ، أو تحت شعار أسرة حاكمة جديد (الأمير نابليون جيروم Napoleon Jerome) ، وكان قطاع آخر يأمل فى الوحدة، ولكنه يفضل الجمهورية على الأسرة الحاكمة فى سردينيا. وفى صقلية ، وحيث كانت لحركة أبريل سنة ١٨٦٠ الثورية الموجهة ضد الأسرة الحاكمة فى نابولى ، أسبابا اقتصادية واجتماعية كما كانت لها أسبابا سياسية ، فإن الثوريين لم يكونوا متفقين إلا على الانفصال. ولكنهم كانوا منقسمين إلى مجموعات ثلاث أنصار ماتزيني وأعضاء الجمعية القومية، وأنصار مورا، وفى الدولة البابوية – مع ترك جانبا إقليم رومانيا الذى كان موطنا للمعارضة منذ وقت بعيد – لم تظهر أغلبية السكان أى شغف بالدخول سريعا فى نطاق دولة إيطاليا .

والواقع أن « الحركات القومية » كانت فى كل مكان تدعم وتنظم عن طريق مجهودات خارجية : مثل مجهودات كافور ومندوبى سردينيا أو مجهودات غاريبالدى . ففى دوقيات إيطاليا الوسطى كانت مجهودات

سردينيا، فى أغسطس وسبتمبر سنة ١٨٥٩ ، هى التى نشرت شعارات الثورة ضد الأسر الحاكمة المحلية هى التى تسببت فى اجتماع المجالس الدستورية التى عبرت عن « عزيمة الشعوب » وفى مملكة الصقليتين ، كان غاريبالدى هو الذى أعطى ، وأسرع مما كان يأمل فيه كافور، تأييدا مسلحا لحركة كان قد أعد لها أنصار ماتزينى وكانت هذه المجهودات رغم كان من الممكن تكاملها، متنافسة فيما بينها فى حقيقة الأمر، وحينما تركت حملة « الألف » جنوا فى ٦ مايو سنة ١٨٦٠ لكى تسافر إلى صقلية لعب كافور لعبة مزدوجة بالنسبة لغاريبالدى . فشجع سرا الحملة - التى لم يقم بإعدادها- ولكنه راقبها بشكل يؤدى بها إلى أن تتحول إلى صالح أسرة سافوا، وليس لصالح أنصار ماتزينى . وحينما قام غاريبالدى ، من نفسه بعبور مضيق مسينا، فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٦٠، وزحف على نابولى ، زادت سياسة سردينيا من الأصرار على نفس التكتيك . فكتب الملك إلى غاريبالدى لكى يوافق - سرا- على الحملة ، ولكن حكومة تورينو حاولت أن تسبق حملة غاريبالدى سواء بإرسال أسطول بيدمونت لاحتلال موانى سواحل نابولى ، أو بمحاولة السبب ، فى نابولى وباشتراك قائد الشرطة فى « ثورة بمعنى الكلمه » قبل وصول حملة « الألف » وكان كافور يخشى من أن يتجاوزه رجل قد يصبح أداة فى يد ماتزينى . سواء أكان ذلك عن علم أو عن جهل منه « سيفقد الملك كل نفوذه ، ولن يصبح ، فى نظر الايطاليين ، إلا صديق غاريبالدى » وأخيرا حينما وجدت الدولة البابوية نفسها ، فى سبتمبر سنة ١٨٦٠ ، فى انتظار غزو أعده أنصار غاريبالدى وأنصار ماتزينى الذين ظهروا هذه المرة ، على أنهم قد اتفقوا فيما بينهم، أمر كافور بدخول قوات سردينيا فى أومبريا، وهى القوات التى قامت فى نفس الوقت الذى حاربت فيه جيش متطوعى البابا فى كاستلفيدارو ،

بإبعاد التهديد الذى كانت تمثله مجهودات الجمهوريين على مصالح أسرة سافوا. والحقيقة هى أن هذا التنافس ، الذى كان خفيا ثم أصبح علنيا بين الماتزينى وحل سردينيا، هو الذى أسرع يسير وتطور الأحداث . ومن هذا الجانب ومن ذلك ، كان عمل الرؤساء أكثر أهمية من تأثير التيارات العميقة. وعلينا أن نخدع بالأصوات التى أعطيت فى أثناء الاستفتاء : فالواقع أنه فى مناطق عديدة، كان الأهالى قد « دخلوا بطريقة خاملة » حسب قول جياشينو فولبى Giaechino Volpe ، فى الدولة الجديدة ، وكانت قيادات المجتمع بعيدة عن الموافقة على الحل الوحدوى .

ولم يكن فى وسع هذه المجهودات أن تصل إلى النجاح ، إذا لم تكن حكومة سردينيا قد حصلت على موافقة فرنسا، وعلى الأقل بطريقة ضمنية . ووصلت إلى هذه النتيجة عن طريق الافادة من المنافسة الفرنسية الانجليزية .

وكانت السياسة الفرنسية ، فى فيلانكا ، قد بدت على أنها قد تخلت عن القضية الايطالية، وكان كافور يعلم مع ذلك أن الأمبراطور كان يحتفظ بمشاعره الشخصية من أجل إيطاليا، وكان يحتفظ كذلك بالرغبة ، ولكن يبرر أمام الرأى العام الحملة « غير المجدية » لسنة ١٨٥٩، فى الحصول على امتيازات إقليمية لفرنسا وكان فى وسعة إذن أن يعتقد فى أن الأمر لم تنته تسويته بعد . ولكن كيف يمكنه أن يجعل نابليون الثالث يوافق على حل المسألة الايطالية - الدولة الوحدوية - يتخطى مداه تلك الخطة التى كانت قد رسمت فى بلومبير والذى يمكن أن يكون مناقضا للمصالح الفرنسية ؟

وكانت السياسة البريطانية مترددة للغاية فى المسألة الايطالية،

مادامت المجهودات الفرنسية كانت فعالة، وكانت الحكومة الانجليزية قد خافت من أن تصبح إيطاليا « تابعة » لفرنسا، وكانت لاتزال تخشى من ذلك . وكتب جون راسل John Russell إلى المملكة : « لقد حكمت النمسا إيطاليا منذ سنة ١٨١٥ حتى سنة ١٨٥٩. وإذا كان لدى الايطاليين أسبابا للشكوى ، فلم يكن لانجلترا أى سبب للخوف من استخدام هذا النفوذ النمسوى ضد المصالح البريطانية ولكن إذا ما سيطرت فرنسا على الأساطيل المتحدة لجنوا ونابولى ، فربما تضطر بريطانيا إلى الدفاع عن ممتلكتها فى مالطة وكورفو وجبل طارق » . ومنذ أن انهى نابليون الحرب ضد النمسا « قبل الأوان » . حانت الفرصة أمام بريطانيا العظمى لأخذ الدفع فعرضت على حكومة سردينيا وساطتها، ودون أن تعدها بمساعدة مسلحة ، لم يكن فى وسعها أن تمنحها لها، منحتها تأييدا دبلوماسيا. ففى نفس الوقت الذى أعلنت فيه أنها من أنصار مبدأ « عدم التدخل » ، أظهرت رغبتها فى إبطال أية محاولة نمسوية للأنتقام. ومع ذلك فإن الحكومة الانجليزية، رغم أنها كانت توافق ، كما كان عليه الحال فى سنة ١٨٤٨، على إنشاء مملكة فى شمال إيطاليا، لم تكن تأمل فى الوحدة الايطالية التى كانت ستبدل من معطيات مسألة البحر المتوسط وكان هدفها هو إبدال النفوذ الفرنسى فى تورينو بالنفوذ الانجليزى .

وتمكنت مواهب كافور من الافادة من هذا الموقف . فلعب ، أو تمكن من أن يلعب ، بالبطاقة البريطانية : « ولقد جاء دور إنجلترا لكى تعمل من أجل القضية الايطالية» ولكنه رأى فى ذلك قبل أى شىء وسيلة لاثارة قلق نابليون الثالث لأجتذابه إليه .

وفى مسألة إيطاليا الوسطى - بارما ، ومودينا ، وتوسكانيا وروما، حصل كافور فى أول الأمر على موافقة بريطانيا العظمى ، فى

٢٥ نوفمبر سنة ١٨٥٩ فلماذا تتردد الحكومة الإنجليزية فى منحه هذه الموافقة ، مادامت قد قبلت فكرة توسع دولة سردينيا ولم تكن يأته كثيرا بأمر الكرسى البابوى ؟ وهذا الموقف الإنجليزى أسهم كثيرا فى جعل نابليون الثالث يقرر فى ديسمبر الاعتراف بالأمر الواقع ، وحتى فى إقليم رومانا: فالإمبراطور ، رغم الصعوبات الجسيمة التى ستترتب على هذا القرار من وجهة نظر سياسته الداخلية، لم يكن يرغب فى المخاطرة برؤية إقامة تعاون إنجليزى - سردينى ولكنه كان على كافور ، فى نظير هذه الموافقة، أن يعطى لفرنسا التعويض الذى كان قد وعد به . ليس وسافوا، وأثار هذا القرار شعورا قويا بعدم الرضاء فى بريطانيا العظمى ، حيث ظهر إتساع الأقاليم الفرنسية على أنه مقدمة لتعديلات مة.ا؟ وعلى أنه تهديد لاستقرار أوربا، ومع ذلك فإن حذر بريطانيا لم يظهر إلا تجاه السياسة الفرنسية وحدها وليس ضد سياسة سردينيا.

وفى مسألة إيطاليا الجنوبية ، لم يصل كافور إلى أهدافه إلا بلعبه على عدم التوافق الفرنسى الانجليزى . وفى هذه المسألة عرقل نابليون الثالث سياسة سردينيا، ففى يونيو سنة ١٨٦٠ إقترح وساطة كان هدفها هو إنقاذ الأسرة الحاكمة فى نابولى : فتصبح صقلية دولة مستقلة . ولكن « تحت حكم فرع من الأسرة الحاكمة فى نابولى » وتوقع دولة سردينيا على معاهدة تحالف مع مملكة نابولى ومع مملكة صقلية الجديدة ، وبالتالى تمنع نفسها من أن تقوم بضمها. ولم يكن هذا الاقتراح يمثل مرحلة قائمة بذاتها، بل كان الامبراطور يعتبره -.كما أثبت ذلك أبحاث الأستاذ شارل بوتاس Charles Pouthas - على أنه مسألة فائقة الأهمية : فنابليون الثالث كان يخشى من مخططات بيدمونت ، التى كانت ترغب، كما ذكر ثوفينيل Thouvel فى « أن تلعب دور بطل

الوحدة الإيطالية » ، وبقى مصرا على فكرته الأولى وهى فكرة إيطاليا الأتحادية أو الفيدرالية. ولذلك فإنه اقترح ، فى يوليو إتخاد إجراءات لمنع قوات غاريبالدى من عبور مضيق مسينا. ولم تفشل هذه المجهودات الفرنسية إلا أمام مقاومة بريطانيا العظمى . فهل معنى ذلك أن السياسة الإنجليزية كانت تأمل فى رؤية دولة سردينيا تقوم بضم إيطاليا الجنوبية ؟ لا ، بالتأكيد . فسيكون بطبيعة الحال من الأفضل الاحتفاظ بوجود دولة متفصلة ، ستضع نفسها، كما كتب بلمرستون إلى الملكة « فى مدار » الدولة البحرية الأقوى ، أى بريطانيا العظمى ولكن هذه الدولة لم تظهر على أنها ستعيش طويلا ، مادامت حكومتها فاسدة . وكان انهيارها يهدد بفتح الطريق أمام حل كان فى وسع نابليون الثالث أن يفكر فيه بإستناده إلى أنصار مورا. « فوجود أمير من أسرة نابليون على عرش نابولى سيكون إمكانية مثيرة للقلق أكثر من غيرها». وذلك فقد رأى بلمرستون أنه من الأفضل أن توافق بريطانيا العظمى على الحل الذى اقترحته سردينيا. وبعد كل هذا فقد كان فى وسع إيطاليا المتحدة هذه أن توازن فرنسا فى البحر المتوسط .

فكيف يمكننا أن نتجاهل فى هاتين المسألتين ، فاعلية المناورات الدبلوماسية وحدها ؟

ولكن هذه البراعة فى المناورة لاتشرح كل شىء ، ففى مسألة الدولة البابوية - وكانت الأكثر خطورة ، لأنها كانت فرصة تسمح للنمسا بأن تهدد دولة سردينيا بحرب انتقامية - لم يكن التأييد الدبلوماسى الذى وعدت به بريطانيا العظمى كافيا لضمان حماية فعالة لسياسة سردينيا. وكان موقف فرنسا من جديد ، هو الأساسى . فنابليون الثالث ، رغم قيامه رسميا بالاحتجاج ، ترك الامور تأخذ مجراها، ولم يقتصر الأمر على مجرد ذلك : فأكد الأمير نابليون

جيروم Napoleon Jerome لكافور أن الإمبراطور مصمم على « إنقاذ » إيطاليا ، فى حالة ما إذا قامت النمسا بمحاولة للانتقام . فلماذا يوافق نابليون الثالث على استئصال أجزاء جديدة من الدولة البابوية ، وكان ذلك يعنى بالنسبة معارضة رجال الدين الكاثوليك فى فرنسا ؟ ووجد أن أسوأ حل سيكون هو ذلك الذى يمثل إشتباكا بين قوات الحملة الفرنسية فى روما وبين الإيطاليين ؛ إذ أنه سيهدد بالقضاء على الأمل فى الاحتفاظ بصلات ود مع الإيطاليين .

وفى هذه المرحلة الأخيرة من إنشاء مملكة إيطاليا، كان دور الرجال إذن - كافور ونابليون الثالث - هو الذى يعطى تفسيرات نهائية. ولاشك فى أنه كان فى وسع « القوى العميقة » أن تصل إلى تحقيق الوحدة ، بعد فترة من الزمن . ولكن أليس الأمر مختلفا أن يتحقق فى هذا الوقت ؟

وهكذا ، كان دور فرنسا أساسيا ، وعلى طول الخط ، وترك نابليون الثالث أخيرا الوحدة الإيطالية تتحقق فى شكل يختلف تماما عن ذلك الذى كان قد فكر فيه سنة ١٨٥٨ . وهذا التحول في برنامجه المبدئى هل يكفى لشرحه أن نشير إلى قوة الأمر الواقع ، وأن نقول أن الأمبراطور بعد أن كان قد أيد القضية الإيطالية ، لم يكن فى وسعه أن يصبح عدوا لها دون أن يفقد منزلته ؟ ودون أن نهمل دور هذه الاعتبارات الشخصية والأسروية ، ويمكننا أن نعتقد فى أن سياسة الإمبراطور كانت لها أهداف أخرى كذلك . فباشتراكه فى هذه المسألة الإيطالية ، كان قد فكر فى أن إيطاليا ستصبح « تابعة » بالنسبة لفرنسا : فوضع عقبة أمام سياسة كافور كان يعنى فقد هذا الأمل، وترك هذه السياسة تتحقق ، ربما كان يعنى الاحتفاظ بوسيلة لتحقيق ذلك .

ولكن إحدى العقبات كانت تعترض طريق هذه الفكرة عن إيطاليا « التابعة » فكانت مسألة روما تهدد مستقبل العلاقات الفرنسية الإيطالية، فكيف يمكننا أن نتصور مملكة إيطالية لن تكون روما عاصمة لها؟ وكيف يمكننا أن نعتقد أن نابليون الثالث، رغم مشاعره الشخصية ، كان يمكنه وبإثارته غضب الكاثوليكيين الفرنسيين ، السماح للحكومة الإيطالية بضم هذه المدينة ؟ ولم ير الإمبراطور فى ذلك إلاتسوية مؤقتة ، تهدف تهدئة ثائرة الرأى العام وكان من اللازم ، كما ذكر للكونت بيبولى Pep-oli « العثور على حل يسمح لى بأن أظهر أنكم قد تخليتم عن روما، وعليكم أن تظهروا أنكم لم تتخلوا عنها » . وستقوم الحكومة الفرنسية بسحب قوات إحتلالها، ولكن الحكومة الإيطالية ستتعهد بعدم مهاجمة روما وبعدم ترك غاريبالدى يحتل المدينة. وعلى هذا الأساس بدأت المفاوضات منذ بداية سنة ١٨٦١، وبعد تأخرها نتيجة لوفاة كافور فى يوليو سنة ١٨٦١، ثم نتيجة لمعارضة الأوساط الكاثوليكية الفرنسية ، إنتهت فى سنة ١٨٦٤« بإتفاقية سبتمبر » وكان حلا وسطا ضعيفا، ولم يكن أحد يعتقد فى أنه سيعيش لفترة طويلة . والواقع أن نابليون ، الذى كان موزعا بين مطالب سياسته الداخلية والرغبة فى عدم التضحية بالصدقات التى لايزال يعتقد فى أن فى وسعه أن يحتفظ بها فى إيطاليا، لم يحاول إلا أن يكسب الوقت وينتظر اليوم الذى يمكن فيه لموت بيوس التاسع أن يوصل إلى الكرسى الرسوى أحد البابوات الذين يمكنهم أن يقبلوا أمر تحديد السيادة الإقليمية للدولة البابوية بحدود قصر الفاتيكان . فسياسة فرنسا الإيطالية كانت مجرد رسم ظاهرى ، بدون عمق أو تنفيذ .

وبالنسبة لمجال السياسة الأوربية عموما ، حصل الإمبراطور على نتيجتين : فتسبب فى مراجعة أولى لمعاهدات سنة ١٨١٥ ، وأضعف

أمبراطورية النمسا التى كانت ، فى جوهرها ، تدافع عن الوضع القائم . وهكذا فتح الطريق إذن أمام هذه التعديلات الأكثر إتساعا والتى لم تتدخل السياسة النابليونية عن أمر إعدادها .

وظلت إيطاليا متحدة ، ولكن دون أن تكون روما عاصمة لها، حتى هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية، وسحبها قواتها من روما، فقامت مملكة إيطاليا باتخاذها عاصمة لها، وأبقت سلطة البابا ، كدولة ، داخل حدود الفاتيكان .

الفصل الرابع والعشرون

الاتحـاد الألمـانى

إصـدمت تسـويات سنة ١٨١٥ فى الإقـاليم الألمانيـة، بمعارضـة مجموعات هددت عـودة النظم التقليدية آمالها ومصالحهـا، ولقد إعتبر الحرفيون والفلاحون أن عـودة النظم التقليدية كان شرا لابد منه، ولكن معارضتهم له كانت لها قواعـد أوسع عما كانت عليه الحال فى إيطاليا، وذلك بسبب ، إشعاع الجـامعات ، والتى كان الأساتذة فيـها يحتفظون بحرية تعبير نسبى وكذلك بـسبب نمو البورجوازية من رجال الأعمال فى منطقة الراين بشكل خاص ، وكانت تريد محاربة « التنظيم الإجتماعى» للمجتمع، وتخشى عودة حكم النبلاء.

وكانت المعـارضة تطالب بالتـحرر السيـاسى ، وبضمـان حريات أساسية للأفراد، وبضمان أحد الدساتير، الذى يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم لهذه الحـريات . وكانت هذه المعارضة تحـتج على رسم حدود تفـرق بين من يتحـدثون لغـة واحدة، ولهم عـادات وتقاليد واحـدة، وذكريات تاريخية ومـيول ثقافية متقربة. وكـان هذا يعى محاولة لإيجاد تطابق بين « الدولة » وبين الأمة .

ولـم تكن هذه النظرية قد وضـحت بعد فى سنة ١٨١٥ ، وبقيت فكرة القومية غير واضحة، والـنظرية مهزوزة . وقال فيشته Fichte فى «الخطبة الخامسة إلى الأمة الألمانية » . « إن من يتحـدث نفس اللغة هو « كل » قامت الطبـيعة بتوحـيده مقدمـا بروابط عديدة وغير مـرئية ». والواقع أن الوحدة اللغوية يمكنها أن تعطى لمجـموعة من الأهالى طريقة واحدة للتـفكير،وثروة من المدركـات العامة ، نتيـجة لبنيان هـذه اللغة وألفاظها وآدابها. ولكن الفلسفة الألمانيـة جهلت المظهر الثانى للمشكلة،

وهو رفض « أقلية قومية » سيطرة إحدى الدول عليها. وكان هذا التجاوز فى فكرة « القومية » هو الذى يعتبر العقبة الأساسية ، وحين حاول بوشيه فى سنة ١٨٣٤ أي يعطى تحديدا لهذه الفكرة، فشل فى التغلب عليها. وفى سنة ١٨١٥ كان الشوط لايزال طويلا أمام الشعور بالمصير القومى لكى يستيقظ فى كل مكان .

وفى ألمانيا نفسها ، وحيث قام الأهالى فى مجموعهم « بحرب تحرير » ، وحيث ظهرت حركة فكرية واسعة وقت مؤتمر فيينا، من أجل الوحدة القومية ، فإن تطبيق بنود الإتفاقية العامة للمؤتمر، وتطبيق نظام الإتحاد الألمانى ، لم تواجهه مقاومة. ومع ذلك ، فهذا الإتحاد بين الدول ، والذى إحتفظ فيه كل عضو بحقوق سيادته ، ألم يكن بعيدا عن أراء شتاين Stein وآرن Arndt وغورس Gorres ؟ ولم يكن الدايت فى فرانكفورت إلا مؤتمر للوزراء المفوضين ، ولم تكن له أية وسيلة لتنفيذ قراراته ، ولم يتعرض قانونه الأساسى لإنشاء جيش إتحاد منظم ، ولا لتمثيل دبلوماسى موحد لدى الدول الأجنبية، ولا لسياسة إقتصادية مشتركة . فكيف يمكن التحدث عن ألمانيا؟ وماهو قيمة هذا الاتحاد الجرمانى فى العلاقات الدولية ؟ إن رؤساء الحركات الوطنية لم يخفوا خيبة أملهم ، ولكنهم لم يجندوا الأعضاء العاملين النشطاء إلا من بين الشباب الجامعى : وفى سنة ١٨١٧- ١٨١٨ كانت إتحادات الطلاب التى تكونت فى كل جامعة هى التى بقت مركزا للآراء والأفكار القومية. والحركة الوحدوية لم تزد عن نطاق معارضة المبادىء رغم أنه كانت لها قاعدة أكثر صلابة عنها فى الدول الإيطالية [1] .

(١) انظر د. جلال يحيى : تاريخ العلاقات الدولية ، ١٨١٥ - ١٩١٤ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١ ، ص ١٠ .

وعلينا أن نضع حسابنا كذلك العامل الإقتصادى . ذلك أنه لم يبدأ « الانطلاق » الحقيقى فى الإنتاج الصناعى لألمانيا إلا إبتداء من سنة ١٨٤٠. فنشأت المشروعات الصناعية الحديثة فى الدول الألمانية فى غالبية الأحوال بمساعدة رؤوس الأموال الأجنبية، ودائما بمساعدة الفنيين الإنجليز، ولم تكن قائمة بعد - قبل سنة ١٨٣٠- إلا فى بعض المناطق، مثل صناعة النسيج فى كريفلد وبارمن وصناعة التعدين فى إيفل، وهى التى إستخدمت سخان الكوك ، فى الوقت الذى بقى سخان الخشب مستخدما فى هيس - كاسل وفى الإمارات السكسونية . ورغم هذه المحاولات فإن الإنتاج الصناعى قد ظل - فى مجموعه - حَرفيا ولم يبدأ النمو إلا بعد سنة ١٨٣٥ ، حينما وسعت الوحدة الجمركية من السوق ، وبدأ فى إقليم الراين ، وهي المنطقة الوحيدة فى بروسيا التى إستمر فيها نظام حرية العمل ، وكذلك فى إقليم الرور .

وكان العامل الإقتصادى تأثيرا واضحا على الحركة القومية . ذلك أنه من المؤكد أن النمر الاقتصادى كان يدفع التجار ورجال الصناعة فى إقليم الراين إلى الرغبة فى إقامة إتحاد جمركى بين الدول الألمانية، يمكنه أن يضمن لهم الأسواق ، وكان الزولفرين Zollverein الذى وضعت أسسه إبتداء من سنة ١٨١٨، والذى أنشىء فى سنة ١٨٣٤. يعتبر إستجابة لهذه الرغبة . وكان فى وسع الوحدة الجمركية أن تمهد للوحدة السياسية. وفكرت حكومة بروسيا فى حين أخذت الخطوات الأولى فى هذه السياسة الاقتصادية. وكتب موتز Motz وزير المالية فى تقرير للملك فى يونيه سنة ١٨٢٩. « ستولد من هذا الاتحاد، والذى يستند إلى تطابق المصالح وعلى أسس طبيعية وسيمتد بالضرورة إلى ألمانيا الوسطى، ألمانيا مترابطة بشكل حقيقى ، وحرة تماما من الداخل وفى الخارج وتحت إدارة بروسيا» وأضاف إلى ذلك . « إن وحدة هذه الدولة

فى جامعة جمركيـة وتجارية سيتسبب فى نفس الوقت فى الوحدة : فى نظام سياسى واحد » .

أما من حيث التأثير الثقافى فنـجد أن النفوذ الكبير لهيجل Hegel كان يعمل فى إتجاه مضـاد تماما وفى سنة ١٨٢٠ ، وفى « أسس فلسفة الحـق » شـرح أستـاذ الفلسفـة الألمـانية فكـرته عن الـدولة التى يجب أن تتمثل فـيها - كما يقـول - وحدة الثقافـة والوحدة الوطنية ، وتمارس سلطات غير محدودة حتى تتمكن من منع « إعتداءات الأنانية » وتحد من تحكم الرغبـات الفردية . ووظيفة الفرد الرئيسـية هى أن يعمل من أجل خدمـة الدولة ، التى سيكون واجبـها هو إستـخدام « سيـاسة القوة » ويتـركز تاريخ العالم حـول تاريخ الدول ، أى حول تاريخ هذه السيـاسة، فـالدولة التى تمتلك درجة أعلى من الـتنظيم والثقـافة ، من حقها أن تبتلع الدولة « الأدنى » إذ أن الدولة المنتـصرة قد أثبتت - بهذا الإنتصار نفسه - تفوقها ونظريـة القوة هذه، وتبرير إستـخدام القوة ، تعطى للتسلط الدولى أسـاسا منطقيـا. وأعطت تعاليم هيجل إشعـاعا إمتد إلى أبعد من الجامعات الألمانية .

وفى الوقت الذى خـشى فيـه « النظام الأوربى » من عـودة قيـام حركة ثورية فى فـرنسا ، جاء التهـديد الأول لهذا « النظام » فى الدول الألمانية، حـيث حصلت الحركـة المتحررة على نجـاح فى مملكة بافاريا، وفى دوقـية بـاد وحـيـث منح الملوك والأمـراء نـظمـا دستـورية ، وظهـرت الحركـة الوطنيـة فى الأوسـاط الجـامعيـة ، وتحـت ضـغط إتحادات الطلبـة الذى ، بعد تنظيمـه ، عيد فـارتبورج فى سنة ١٨١٧، وعـمل على جمع ممثلين عـن كل الجامـعات الألمانيـة فى إينا Iena فى أكتوبر سنة ١٨١٨ .

وتدخل مترنيخ ضد الحركات المتفرقة التى ظهرت فى ألمانيا، ووضع أسس القمع بتفاهم مباشر مع بروسيا والأمراء الألمان فى مؤتمر كارلسباد ، وفسرت معهدة فيينا ، فى سنة ١٨٢٠ ، المعاهدة الفيدرالية بشكل يعطى الدايت ، بعد ذلك ، حق التدخل ، فى بعض الحالات ، فى المسائل الداخلية للدول الألمانية .

ثم نشبت ثورة يوليو فى باريس فى سنة ١٨٣٠ ،وكانت نتائجها، فى ألمانيا. فى أول الأمر أضعف منها فى إيطاليا. وكانت الحركات التحررية فى ساكس برنزويك وفى هيس الانتخابية فى أثناء شهر سبتمبر سنة ١٨٣٠ ، والمظاهرات فى أقاليم بروسيا الرينانية ، وحتى الاضطرابات التى كانت أكثر جدية والتى وقعت فى هانوفر فى بداية شهر يناير سنة ١٨٣١ - كانت كل هذه الحركات غير متناسقة ، وبقيت متفرقة. ولكن المجهود القومى فى بولندا الروسية أيقظ سريعا بين المثقفين الرغبة لتمهيد الطريق للوحدة الألمانية . وأصر رانك Banke فى مجموعة من المقالات الى نشرها إبتداء من سنة ١٨٣٢ على فكرة كان قد أقترحها منذ بضعة سنوات كتاب برنولد نيبور Berthold Nieubur « إن النمو التاريخى لأحد الشعوب هو وظيفة نبوغه القومى » وبتطبيق هذه الفكرة على تاريخ الشعوب الجرمانية ، أكد « نماذج القومية الألمانية » وضرورة تحقيق الوحدة السياسية .«علينا واجبا ألمانيا عظيما : خلق الدولة الألمانية الحقيقية التى ستمثل نبوغ الأمة » .

ولأول مرة منذ سنة ١٨١٥ عبر عن هذه الآمال الوطنية فى إحدى المظاهرات العامة . ففى هامباخ فى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ ، وبمناسبة إحتفال أقيم للمهاجرين البولنديين ، رفع ثلاثون ألفا من الأحرار علم « إتحاد الطلاب » Burschenschaft وكان مسيرو هذه المظاهرة يفكرون فى تنظيم « وفاق وطنى » أي نوع من الحكومية الألمانية المؤقتة ، التى

ستكون منافسة للدايت الجرماني ، ولكنهم عادوا وتخلوا عن هذه الفكرة وذكروا أنهم لم يحصلوا على « تفويض شعبي » بذلك . أهي أمانة قانونية؟ أو شعور بعدم تغلغل الفكرة القومية بعد في مجموع الرأي العام ؟ وقامت حفنة من الراديكاليين من الطلاب والصحفيين وحدها، بإتخاذ قرار لمحاولة الإعتداء على الدايت، وفي ٣ إبريل سنة ١٨٣٣ نشروا نداء في فرانكفورت ، « لتخليص ألمانيا » وحاولا الإستيلاء على مركز الشرطة المركزي ، ولكن المسألة سويت في ساعة واحدة ، ودون أن تجد هذه المحاولة أي صدى لدى الشعب .

فهل كان سيكون للجماهير وحده هو الذي عرقل الحركة الوطنية؟ لقد كان الافتقار الى برامج مسئولا كذلك .

في سنة ١٨٣١ ، إفتقد فيزر Pfizer نظام الحلف الفيدرالي سنة ١٨١٥ وأظهر أن وجود الدولتين الكبيرتين - النمسا وبروسيا - داخل الاتحاد الجرماني يشل عمله ، وكان يرى ضرورة إعادة النظر في النظام الإتحادي ، في صالح التفوق البروسي ، ولكنه أظهر صعوبة توافق المصالح البروسية والمصالح الألمانية ، دون أن يقترح أي حل . وفي سنة ١٨٣٣، حاول فردريك فون جاجيرن Friedrich Von Gagern أن يضع خطوط مشروع لإمبراطورية ألمانية إتحادية . ولكن الشرطين الذي أصر عليهما كانا يكفيان لإظهار جسامة العقبات . وقال أنه من الواجب أن تكون للدول في هذا الإتحاد نفس القوة تقريبا، وإلا فإن أكبرها هي التي ستسود ومن اللازم كذلك أن يختار الإمبراطور من خارج الأسر الحاكمة ، إذ يجب الا تكون له أية « مصلحة خاصة » . وكان يتمنى بهذه الطريقة أن يتخلص في الوقت من آل هوهنزلرن Hohenzollern وآل هابسبورج Habsbourg ومن تقسيم بروسيا والنمسا .وكانت هذه مشروعات « أكاديمية » ، ووجهات نظر « نظرية » .

ورغم أن هذه الحركة الوطنية كانت من الضعف ومن عدم التماسك بشكل واضح ، إلا أنها أثارت قلق ميترنيخ ، الذى كان يرغب فى القضاء عليها ، ولجح المستشار النمساوى فى ذلك بكل سهولة ، خاصة وأنه إستند إلى معونة ملك بروسيا. وكان فردريك وليم الثالث ، رغم وجهات نظر وزير خارجيته الذى كان يرغب فى تأكيد «إستقلال» السياسة البروسية ، يخشى من تهديد الحركة المتحررة ويشكل يمنعه من الإنفصال عن النمسا: وفى مايو سنة ١٨٣٢ ، أبعد الملك وزيره كذلك قام ميترنيخ بدفع الدايت إلى التصويت ، ٢٨ يونيو سنة١٨٣٢ ، على « بروتوكول الواد الستة » الذى كان موجها ضد الحركات التحررية والحركات القومية فى نفس الوقت ، وأصبح على الحكومات الألمانية ألا توافق على قيام الجمعيات التشريعية، فى حالة التصويت على الضرائب مثلا، بأخذ السلطة التنفيذية من أصحاب السلطة الفعلية وألا تقبل كذلك أى إنتقاد يوجه من منصة هذه الجمعيات إلى النظام الاتحادى الذى أنشىء فى سنة ١٨١٥. وأصبح على الدايت أن يشكل لجنة خاصة « لمراقبة » الجمعيات التشريعية فى الدول. وفى أغسطس سنة ١٨٣٣ ، وبعد محاولة الاعتداء فى فرانكفورت، زودت لجنة جديدة بسلطة التحقيق ، لكشف نشاط « الثوار » وبمساعدة شرطة سرية. وفى ١٢ يونية سنة ١٨٣٤ ، ونتيجة لإحدى المحاضرات فى فيينا، قررت الحكومات الألمانية مع الجمعيات التشريعية الخاصة بدولهم من كل مناقشة على صحة القرارات التى أخذها الدايت ، أو السياسة الخارجية للاتحاد، واتفقت على منع إصدار جرائد جديدة ، وعلى توحيد تعليمات الرقابة ، وأخذت إجراءات ضد أعضاء إتحاد الطلاب ، الذين كانوا قد حرموا سابقا منذ سنة ١٨١٩ من الدخول فى الوظائف العامة ، وأصبحوا الآن محرومين حتى من ممارسة المهن الحرة. وكان

هذا تأكيدا ومضاعفة لقرارات كارلسباد. وهكذا ضرب ميترينخ المقاومة الذى كان فى وسع المتحررين أن يستخدموها داخل - الجمعيات التشريعية.

١- يقظة الحركة القومية الالمانية :

فى هذه اليقظة، كانت المؤثرات الاقتصادية، والمؤثرات الثقافية متشابكة، فمن وجهة النظر الإقتصادية ، سادت ظاهرتان : وجود الإتحاد الجمركى والذى يحاولوا بها معارضة تفوق النمسا فى الإتحاد، ونجح فى تدعيم نظام إحتفظ بالمجموعة الألمانية فى حالة من الضعف ، بالنسبة للعلاقات الدولية .

هل كان هذا نجاحا حقيقيا؟ فى الوقت الذى حصل فيه ميترنيخ على ذلك ترك بروسيا تحقق الوحدة الجمركية بين الدول الألمانية طبقا للمشروع الذى وضعه موتزو قبل سنة ١٨٣٠. كانت الحكومة البروسية قد حصلت على دخول الدول الصغيرة فى شمال ألمانيا ودوقية هيس ، فى النظام الجمركى البروسى ، ولكن اتحادين جمركيين آخرين تكونا بعد ذلك ، وضم الأول دول الوسط ، وضم الثانى بافاريا وفرتنبرج وكانت سياسة بروسيا ترغب فى القضاء على مقاومة هاتين المجموعتين . ونجحت فى سنة ١٨٣١، فى الحصول على إنضمام هيس الإنتخابية. وفى سنة ١٨٣٣، على إنضمام بافاريا وفرتنبرج وساكس . وأصبح أول يناير سنة ١٨٣٤ هو التاريخ الرسمى لميلاد الزولفرين Zollverein الذى لم تشارك النمسا فيه « ستصبح المانيا كلها، وبإدماج مصالها الاقتصادية شعبا واحدا، ووحدة قوية » ولقد فهم ميترنيخ ذلك ، وكتب فى يونيو سنة ١٨٣٣، إلى الامبراطور : إن الدول الألمانية ستكون بعد ذلك « جسما متماسكا تحت إدارة بروسيا » . وستعبر النمسا على أنها

«جسم غريب وسيكون لهذا الأبعاد المادى نتائج سياسية » ، فما هو السبب فى عدم تحركها؟ لقد كانت محتاجة فى هذا الوقت بالذات للتعاون مع الحكومة البروسية ، حتى تقضى على الاضطرابات السياسية فى ألمانيا، ولكى يحصل المستشار النمسوى على هذه النتيجة القريبة ، أقفل على النمسا الباب بالنسبة للمستقبل البعيد .

كان قد تحقق بين معظم الدول الألمانية - ولكن بدون النمسا - وإنشاء شبكة السكك الحديدية .

وكان الزولفراين يشتمل على أقاليم تضم، فى المجموع ستة وعشرين مليونا من السكان، ولكنه كان لايصل إلى بحر الشمال، إذ أن هانوفر ، وإمارة أولدنبرج والمدن الهانسية كانت لم تشترك فيه بعد ، واجتاز فى سنة ١٨٤٢ فترة عصيبة ، وقت تجديد الاتفاق الذى كان قد عقد فى سنة ١٨٣٤ ، لمدة ثمانية أعوام. وفى مؤتمر شتوتجارت واجه أنصار إتجاه حرية التبادل أنصار إتجاه الحماية : فمن ناحية كان هناك كبار التجار والمنتجين الزراعيين المصدرين ، ومن الناحية الأخرى كان هناك معظم رجال الصناعة الذين كانوا يرغبون فى زيادة الرسوم الجمركية لكى يتمكنوا من الوقوف بسهولة فى وجه المنافسة الأجنبية ، وكان إتجاه الحماية هو الذى إنتصر فى نهاية الأمر، وكان يساعد على تقدم الصناعات القطنية والتعدينية. وقلل عمل الإتحاد الجمركى من المشاعر الإقليمية وعود الدول الألمانية على التعاون سويا تحت إشراف بروسيا .

وسمحت تنمية السكك الحديدية ، التى سهلها إلغاء الحواجز الجمركية فإقامة تيارات للتبادل بين المناطق الاقتصادية الألمانية، ونشأت الخطوط فى أول الأمر دون خطة شاملة، ووفقا لدوافع المجموعات

التجارية أو الصناعية التى ضمنت تمويلها، ولكن الحكومة البروسية أنشأت فى سنة ١٨٤٧ « إتحاد السكك الحديدية الألمانية » الذى كان عليه، فى فكرها، أن يكمل عمل الزولفراين .

ونتيجة للاتحاد الجمركى وللسكك الحديدية نشأت فكرة « ألمانية » وتمت ، وخاصة لدى البورجوازية الكبرى التى كانت الأولى فى فهم أهمية هذه المخترعات بالنسبة لازدهار الحياة الاقتصادية، والتى كانت كذلك المستفيدة الأساسية من هذا التضامن بين المصالح .

وليس هناك شك فى أن هذه الظروف الإقتصادية الجديدة [١] ، ومن حيث كونها تسهل نشر الفكر ، كان من طبيعتها أن تلائم نمو تفكير مشترك بالنسبة للشعوب الألمانية المختلفة. ومع ذلك فقد كان للحركة الفكرية مواردها الخاصة، التى لم تعتمد فى أى شىء على هذه المؤثرات للمصالح المادية: فقبل إنشاء الإتحاد الجمركى ، وقبل إنشاء أول سكة حديدية كان الفكر الألمانى قد أظهر فلسفة التاريخ - هى فلسفة فيشته Fichte ، وفلسفة هيجل Hegel وفلسفة رانك Ranke - والتى إستمرت فى تنشيط الحركة الثقافية . وفيما بين عام ١٨٤٠ و ١٨٤٨ إتجهت هذه الحركة الثقافية بوضوح صوب أهداف « قومية » رنى مؤلفات مؤرخو القانون أو مؤرخو اللغة مثل سافينى Savigny أو جاكوب جريم Jacob Grimm كانت المشغوليات هى نفس المشغوليات الموجودة فى يكتب التاريخ السياسى : البحث عن السوابق التى تسمح بإظهار القرابة الوثيقة بين الشعوب الجرمانية. وكان نشر Moumenta germanie historiea فى نفسه مستوحى من مخطط وطنى وكان العلماء

(١) أنظر : د. جلال يحيى : تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥- ١٩١٤ ، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٧١ ، ص ص ١٨٥ - ١٨٨ .

الذين يشرفون عليه يرغبون فى إظهار وجود « وحدة ثقافية » منذ العصور الوسطى « بين الفروع » المختلفة للشعب الألمانى . ولكن النية لم يقتصر ظهورها على مجرد التلميح ففى كتابات دوريسن droysen أو دالمان Dahlmann مثلا، يظهر الهدف السياسى فى المجال الأول، وكان الأمر يتعلق بالعثور فى التاريخ على دروس نافعة للتعليم السياسى للشعب الألمانى ، وعن « أسلحة » لخدمة مخططات الحركة القومية وكانت العلوم الألمانية ترغب فى أن تخدم الحاضر، وحمل الأدب طبيعة نفس النيات . فكان هنرى هين Henri Heine هو الذى أدار بشكل مخل ذكريات بروسيا وبافاريا لكى يحطم العقبات التى وضعتها الإنعزالية الأسروية على طريق الفكرة القومية ، وكان فريليجرات Frei-ligrath هو الذى أحيا ، فى سنة ١٨٤٣، الإنتصار المقبل للعلم « الأحمر والأسود والذهبى » لألمانيا المتحدة ، وكان هيرفيج Herwegh هو الذى وجه نداءا حماسيا للشعب الألمانى :« أنت الشعب الذى يحمل أمل العالم. . . وعليك أن تكسب العالم » .

وكانت الجامعات هى المسئولة عن إنتشار هذه الطريقة لكتابة التاريخ وعن هذه المادة . وفى المدن الألمانية ، إحتفظ الأستاذ ، رغم التقاليد البوليسية ، بنوع من الحرية ، لأن حكومات الدول الصغيرة كانت تزهو برؤيته يجمع الشباب حول كرسيه ، فكان « سيدا » تحيط به زمرة من الأتباع المخلصين . وهكذا تكونت فى البورجوازية الألمانية حركة فكرية كبيرة : فالوحدة مطابقة لمعطيات التاريخ ، كما هى مطابقة للمنطق ، وهى ضرورة لكى تسمح للشعب الألمانى بالحصول على « القوة » .

وظهر تقدم هذه الحركة الفكرية عن طريق مشروعات إصلاح الإتحاد الجرمانى . وبعد الأزمة الدولية لسنة ١٨٤٠، التى إستيقظ فيها

الشعور القومى ضد فرنسا، بدأ غالبية الجمهور فى الاهتمام بنشاط مؤلفات الكتاب السياسيين، وزاد عدد الكتب والنشرات . وفى سنة ١٨٤٦ ظهرت محاولتان كبيرتان. كانت الأولى هى إنشاء جريدة يوتش زيتونج Deuische Zeitung فى مانهايم، وهى الى تحدثت إلى كل « الأمة الألمانية » وجمعت كتابها من المتحررين فى ألمانيا الجنوبية ومن غرب ألمانيا وكانت الثانية هى عقد إجتماع فى فرانكفورت ، ونتيجة لمحاولة رايشر Reyscher - من أسرة سواب فى وسط ألمانيا- لمجلس للأساتذة الذين ناقشوا، تحت غطاء المناظرات العلمية مسائل الأحداث السياسية ، والذى أخذ شكل « المجلس الثقافى للشعب الألمانى » حسب قول صاحب فكرته .

ومع ذلك فلم يكن أنصار الوحدة متفقين على الشكل الواجب إعطائه للدولة الألمانية المقبلة ، وكانوا موزعين بين ثلاثة إتجاهات. فكان المحافظون ينوون تحقيق الوحدة دون أن يتعرضوا لحقوق الملوك ولذلك فإنهم لم يفكروا إلا فى إتحاد كونفيديرالى للدول، ولكن مع تغيير وضعية سنة ١٨١٥ بدرجة كبيرة لكى يضمنوا توافقا فى السياسة الخارجية وفى السياسة العسكرية . وكان الليبراليون يفكرون فى دولة إتحادية (فيدرالية) يكون على رأسها إمبراطور، ولكنها تترك الأسرة الحاكمة باقية ، فى نفس الوقت الذى تحدد فيه سلطات الملوك لدرجة بعيدة . وكان من الممكن الوصول الى هذا الحل عن طريق المفاوضة ، إذا ما وافق رؤساء الدول على ذلك ، أما الديمقراطيون فكانوا يرغبون فى « كنس » الأمراء والقضاء على كل آثار « ألمانيا القديمة » ، وكانوا مستعدين لإستخدام القوة للوصول إلى ذلك .

ومع ذلك فلم يجد كل هذا الهياج فى الرأى العام أي صدد لدى الدايت الجرمانى ، الذى بقى « مركزا لعدم المبالاة » حسب قول

تريتشكه Treitschke .

ولكن الحركة القومية الألمانية لم تقصر آمالها على مجرد إقامة شكل من أشكال الوحدة السياسية بين الدول الألمانية : فكانت تنظر صوب الشعوب الالمانية التى كانت خاضعة لحكم أجنبى . والحقيقة هى أن الجمهوريين قد أكد اتجاههم السلمى فى العلاقات مع الدول الأخرى، ولكن الاتجاهات المتحررة والمحافظة كانت موجهة « بالرغبة فى إستخدام القوة » . وظهر هذا الاتجاه بوضوح فى مسألة الدوقيات الدنمركية .

وفى هذه الدوقيات - شليزفيج ، وهو لشتاين ولوينبرج ، التى كان عدد سكانها يقل عن المليون نسمة - كان الأهالى يتحدثون اللغة الألمانية ، فيما عدا الجزء الشمالى من شليزفيج ، حيث عاش ما يقرب من مائة وخمسين ألف شخص يتحدثون الدانمراكية . ومنذ سنة ١٧٢١ كانت هذه الأقاليم قد انضمت للتاج الدانمراكى عن طريق الاتحاد الشخصى . وكان لها نظام إدارى خاص، ولها دايت . ونمت بين الأهالى الألمان، وخاصة فى هولشتاين التى كونت منذ سنة ١٨١٥ جزءا من الاتحاد الجرمانى ، حركة للاحتجاج ضد السيادة الدانمركية. وكان لورنسن Lornsen باعث هذه الحركة ، قد أثار منذ سنة ١٨٣٢ حق القوميات وقبل بالتالى أن من حق أهالى شليزفيج الشمالية أن يحتفظوا بإنتمائهم للدولة الدانمركية. ولكن فقهاء القانون فى جامعة كييل وضعوا « الحق التاريخى » فوق « مبدأ القوميات » : وقالوا أن هذه الدوقيات « لايحق فصلها» ، ففى اليوم التى تحصل فيه على الاستقلال، لن يكون من الممكن الموافقة على تقسيم شليزفيج. وتعقد موقف الحكومة الدانمركية الصعب نتيجة لمسألة الوراثة ، إذ أن الملك فردريك السابع، الذى كان قد أعتلى العرش فى يناير سنة ١٨٤٨ ، لم يكن له ابن وكان الوريث المتوقع ، كريستيان دى جلوكسبورج هو ابن عمته، أي إبنا

للبطون ، ولكن تقاليد الوراثة في الدوقيات كانت مخالفة عن قوانين وراثة الدانمرك : فكانت تحتفظ بالميراث لأبناء الظهور ، والتي كان وليها دوق أوجستنبورج ، ابن عم الملك . وكانت مجرد فرصة ، بالنسبة لدعاة الحركة الألمانية في الدوقيات ، يتسببون بها في الإنفصال. ولكن ملك الدانمرك الجديد أظهر بعد ذلك رغبته في الإحتفاظ بسلامة دولته ، وقرر عن طريق دستور ٢٨ يناير سنة ١٨٤٨ جمع مجلس تشريعي يجلس فيه جنبا إلى جنب ممثلوا الدانمرك والدوقيات وحيث ستكون الأغلبية بالتالى للدانمركيين . وطبيعة الحال إعترض دايت الدوقيات على هذا الحل . وفى هذا الصدام تدخل أنصار الحركة الوحدوية الألمانية : حملة صحفية متحررة ، وكتابات متعاطفة أرسلتها جامعات عديدة إلى جامعة كييل . وبدخولها فى العملية ، هددت الحركة القومية الألمانية بتقسيم دولة مجاورة .

٢- المد الثورى سنة ١٨٤٨ :

إمتدت الحركة الثورية فى كل أوربا بعد «أيام فبراير» سنة ١٨٤٨ فى فرنسا ، وكان من نتيجة ذلك سقوط نظام مترنيخ . وفى ألمانية ، طالبت مجموعة من المتحررين فى ألمانيا الجنوبية ، منذ ٥ مارس ، بتكوين مجلس وطنى منتخب ، يحل محل دايت الإتحاد، وهذا المجلس الذى سيمهد لإجتماعه « مجلس أعيان » ،سيجتمع فى ٢٨ مايو فى فرانكفورت ، وبشكل حكومة ألمانية مؤقتة .

وكانت مسألة حدود ألمانيا المستقبلة تطرح مشكلتين سريعتين : مشكلة الدوقيات الدانمراكية ، ومشكلة بولندبين بروسيا. فهل كان فى وسع دوقيات سليزفيج وهولشتاين أن تنضم إلى الحركة القومية الألمانية ؟ كانت الحكومة المؤقتة التى تشكلت فى كييل برؤساء الحركة الألمانية فى

الدوقيات مؤيدة ببروسيا التى حصلت على تفويض من الدايت الجرمانى ، أى من الأمراء الألمان ، ووافق على ذلك إجماع الرأي الألمانى . ولكن الحرب الألمانية الدانمركية كانت تؤثر على المصالح الروسية والانجليزية . فهل كان فى وسع روسيا أن تتمنى رؤية بروسيا تحتل ميناء كييل وتصبح دولة بحرية عظمى على البحر البلطى ؟ وهل يمكن لبريطانيا أن تفكر فى إنهيار الدولة الدانمركية ، حارسة مضايق سكاجراك والسوند ؟ ومن ناحية أخرى ، فالأقاليم البولندية لبروسيا ، التى لم تدخل فى الاتحاد الجرمانى لعام ١٨١٥ ، هل ستدخل فى نطاق المانيا المقبلة ؟ وكان الأهالى البولنديون هؤلاء يطالبون ، فى هذه الحالة بوضعية إستقلال ذاتى ، ولكن الأقلية الألمانية فى الإقليم عارضت فى ذلك ، فرفض فردريك غليوم الرابع فكرة الاستقلال الذاتى لهذه العناصر البولندية ، وكانت روسيا لاتتمنى ، بطبيعة الحال ، نشوء دولة كبرى ، فى وسط أوربا ، تكون « جارا ضخما » ، وكان يبدو لها خطيرا بنوع خاص إمكانية نشوء ألمانيا جمهورية ، ففى مثل هذه الحال قال القيصر أنه سيصل إلى التدخل المسلح . ولكنه رغم هذه التأكيدات التى تتعلق بالمبدأ ، تردد ، وحتى النهاية ، فى أن يتدخل ، ولاشك فى أن ذلك كان يرجع إلى شعوره بأن الموقف الداخل فى الإمبراطورية الروسية لم يكن تام الصلابة .

أما بالنسبة لبريطانيا فإن بلمرستون كان يخشى من رؤية الأحداث الثورية يزيد عن نطاقها ، وأظهر الحذر من النتائج الممكنة لها . وتشهد تعليماته فى ٢٥ مارس سنة ١٨٤٨ إلى الممثل الديبلوماسى الانجليزى فى فرانكفورت بتحفظاته ، فأعلن أنه يوافق على « كل تسوية تهدف توحيد وتدعيم الدول المنفصلة التى تكون ألمانيا » ومعنى ذلك أنه كان لايأمل فى إنشاء دولة ألمانية وحدوية ، ولكنه كان يفكر فى مجرد تقوية الروابط

الفيدرالية ، دون أن تخضع الدولة لحكومة مركزية .

وأما بالنسبة لفرنسا فإن موقف الحكومة الفرنسية المؤقتة قد ظهر أولا تصريح لامارتين : وزير الشئون الخارجية ، فى بيانه يوم ٤ مارس سنة ١٨٤٨ ، والذى أعلن فيه أن فرنسا الجمهورية لاترغب فى « تقطيع خريطة أوربا » . وكانت هذه الحكومة المؤقتة تخضع لضغط الديمقراطيين الذين أثاروا ذكريات الثورة الفرنسية ولكن إذا ما قامت فرنسا بإلقاء نفسها فى المعمعة ، وأيدت الحركات الثورية فى أوربا، فكيف يمكن منع الوصول إلى حرب عامة ؟ ولذلك فإن مسيرى السياسة الخارجية الفرنسية فى ذلك الوقت كانوا ، مع رغبتهم فى محو إذلال سنة ١٨١٥ ، ومع رغبتهم فى أن يعيدوا العمل « بحقوق الشعوب » ، كانوا من الحذر بدرجة تمنعهم من الخضوع للمطالب الداخلية . وكان معنى تأييد فرنسا للحركات الثورية أن تجد نفسها فى حرب ، وستكون فيها بمفردها فى مواجهة النمسا وروسيا وربما حتى إنجلترا، وكانوا يفكرون فى أن الجيش الفرنسى ، الذى أثرت حملة الجزائر على تنظيمه، لم يكن فى حالة يقدر فيها على مواجهة مثل هذا الصدام ، وكانوا يتساءلون كذلك عن مدى توافق الحركات القومية بالفعل مع مصالح ومع أمن فرنسا. ومع ذلك فإن موقف فرنسا من المسألة الإيطالية كان مختلفا عن الموقف الذى ستتخذه من المسألة الألمانية، ورغم أن الديمقراطيين والاشتراكيين الفرنسيين كانوا قد أعلنوا اعتقادهم فى أن من مصلحة فرنسا أن ترى جمهورية ألمانية كجارة لها، لكى تحمى نفسها ضد « الخطر الروسى » فإن لامارتين كان حذرا من إتجاهات الحركة القومية الألمانية ، وبذلك يكون قد اقترب من إتجاهات اليمين، الى رأت فى الوحدة الألمانية خطرا على فرنسا وكان من طبيعة التجربة، التى وقعت لأهالى الأقاليم البولندية الخاضعة لبروسيا، ورفض فردريك غليوم الرابع

إعطائهم حق إستقلالهم الذاتى رغم كونهم الأغلبية العظمى فى إقليمهم، أن تزيد من هذا الحذر. ولقد طالب لامارتين من فردريك غليوم ، فى ٧ مايو سنة ١٨٤٨، إلا يتخلى عن « مبادئه العامة» ، وألا يحتفظ بحالة تتعارض مع حقوق الشعب البولندى . ورغم أن هذا الطلب قد بقى بدون جدوى ، فانه لم يصر عليه، مادام لاترغب فى أن يخاطر بالحرب .

ولقد خف الدفع الثورى فيما بين يونيو ونوفمبر سنة ١٨٤٨ ، نتيجة لانفراط عقد التحالف الفعلى ، الذى كان يجمع البورجوازيين المتعدلين أو النبلاء المتحررين مع الديمقراطيين والاشتراكيين :نتيجة لتهديدهم بأن يطغى عليهم « المتطرفون » ويفقدوا تفوقهم الاجتماعى ، بدأ المعتدلون فى العمل وإستخدموا القوة، وفى برلين ، سحقت محاولة لثورة الديمقراطيين ، وفى فرانكفورت فشلت محاولة إعتداء «الراديكاليين » فى شهر سبتمبر على المجلس الوطنى ومع ذلك فإن الحركة القومية لم يقبض عليها نهائيا. وفى فرانكفورت،حاول المجلس الوطنى أن يضع دستورا، وبعد القطيعة بين الأحرار والديمقراطيين ، أبعد الحل الجمهورى واتجهوا صوب إنشاء جمهورية إتحادية ، حيث قرر أن يقبل فيها الدول أعضاء الاتحاد القديم، بإستثناء النمسا. ولذلك فإن مشروع ألمانيا الصغرى هو الذى أنتصر على مشروع ألمانيا الكبرى .

وأخيرا، وفى أثناء سنة ١٨٤٩ ، تحطمت الحركات الثورية ، وفى ٢٣ مارس قرر المجلس الوطنى فى فرانكفورت إنشاء إمبراطورية ألمانية، وعرض التاج الإمبراطورى على ملك بروسيا. ولكن فردريك غليوم الرابع تراجع ، وخدم بذلك النمسا، وفى ٢ أبريل رفض لقب الإمبراطور وقال أنه لايرغب فى لبس تاج « صنعه مجلس نتج عن أصل ثورى »، وكان يخشى كذلك معارضة الأمراء الألمان، وربما حتى معارضة الدول العظمى . وانفض المجلس الوطنى ، الذى خاب أمله،

ورغب الأعضاء الديمقراطيون وحدهم فى الاستمرار فى الإجتماع، وحاولوا أن يجتمعوا فى شتوتجارت ، ولكن القوات البروسية قامت بطردهم .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح فى وسع حكومة فيينا أن تأخذ دورا أوربيا من جديد. وعملت النمسا على إفشال سياسة فردريك غليوم الرابع الذى، بعد أن كان قد رفض التاج الإمبراطورى، حاول أن يحيى لصالحه، وهذه المرة عن طريق مفاوضته مع الأمراء مشروعا لأتحاد الدول الألمانية .

وكان قيصر روسيا لايوافق على المشروع البروسى الذى يستبعد النمسا من الاتحاد الألمانى ، كما كان يعارض فى مشروع ألمانيا الكبرى ، التى تضم النمسا، ونصح كل من فيينا وبرلين بالتشدد فى الشئون الداخلية ، وكان يخشى الأراء الحرة، ويخشى من نشأة دولة مجاورة له يبلغ عدد سكانها سبعين مليونا وكانت إنجلترا تهتم بمصير الدانمرك، وترى ضرورة الإكتفاء بوصول حركة الوحدة الألمانية إلى تدعيم النظام الإتحادى فى فرنسا. كانت الأوساط السياسية اليمينية ، فى مجموعها ، معادية للوحدة الألمانية . وحين تخلصت الحكومة المؤقتة من ضغط العناصر الديمقراطية عليها . أعلن تييد فى يونيو سنة ١٨٤٨ أنه ضد الوحدة الألمانية، ورأى الممثل الدبلوماسى لفرنسا في فرانكفورت أن ألمانيا الموحدة ستصبح « غازية » ولها إتجاه الجامعة الجرمانية، ولم يخف باستيد، وزير الخارجية الجديد حذره بالنسبة « للديمقراطيين الألمان، الذين كانوا قد بدأوا ، فى فرانكفورت ، بخلق إمبراطور» ، ومن حركات « الاجناس التى أثارتها الرغبة المغرورة فى إنشاء -- على حساب الضعفاء - دولة شعبية تؤسس على القوة والغزو »،وكان يراقب مظاهر القومية الألمانية ، وكانت بطبيعة الحال، مسألة الالزاس هى التى تشغله

بطريق مباشر .

وبالإجمال فإن الحركة القومية الألمانية لم تجد تعاطفا إيجابيا فى أي مكان، ولكنها لم تجد كذلك مقاومة عنيدة، رغم أنها كانت تثير عدم الثقة . والحقيقة هى أن الموقف قد ظل غير مؤكد ، وحتى فى فرانكفورت نفسها وبشكل لايجعل الدول العظمى المجاورة تشعر بأنها مضطرة إلى إتخاذ موقف بسرعة .

وبقيت وضعية أوربا الوسطى موضوع مناقشات حادة حتى نهاية سنة ١٨٥٠ فكان المشروع البروسى يعود إلى مشروع الدولة الاتحادية الذى لم يكن المجلس الوطنى فى فرانكفورت لم يتمكن من السير به بنجاح ولكنه حاول أن يحققه الآن بموافقة الأمراء : فستكون هذه الدولة الفيدرالية مشكلة تحت إدارة بروسيا، حسب برنامج المانيا الصغرى وكان المشروع النمسوى ، هو مشروع ألمانيا الكبرى ، التى ستدخل فيها أجزاء من أقاليم إمبراطورية النمسا ، وسيعهد بإدارة الشئون المشتركة إلى حكومة إدارة Directoire تتكون من ممثلين عن النمسا وبروسيا والدول « المتوسطة » التى كان من مصلحتها الإحتفاظ بثنائية نمسوية – ألمانية، ترى فيها أحسن ضمان لاستقلالها.

وكانت بروسيا قد اقترحت ، فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٤٩ قيام مؤتمر للأمراء بوضع دستور للامبراطورية الألمانية، وبقيت بافاريا وحدها بعيدة عن هذا المشروع، وكان رجال الدين الكاثوليك ورجال الأعمال فيها فى غاية التحفظ. ولكن النمسا تمكنت ، بمساعدة روسيا ، من تسوية مشكلة المجر، فشعرت هانوفر وساكس بالشجاعة الكافية للتخلى عن بروسيا، ففشل مشروع ألمانيا الصغرى . ومع ذلك فقد إستمر إعناء فردريك غليوم الرابع، وبعد فشل مشروعه الأول ، حاول أن يقيم

«إتحاد على نطاق ضيق » ، تجمع فيه بروسيا تحت إدارتها الدول الصغرى فى المانيا الوسطى ، وأعد ، فى شهر يناير سنة ١٨٥٠ ، إجتماعا لمجلس دستورى ، كان عليه أن يجتمع فى إيرفورت . وعارضت النمسا هذا المشروع بمشروع آخر حصل على موافقة هافر وساكس وفرتنبرج وبافاريا. وهكذا انقسمت ألمانيا إلى معسكرين ، وفى الوقت الذى إجتمع فيه المجلس الدستورى فى إيرفورت ، جمعت الحكومة النمسوية فى فرانكفورت ممثلى الدول « المتوسطة » الذين إنضم إليهم ممثلو هيس-كاسل وهيس دارمشتاد. وانجلت الأزمة فى نوفمبر سنة ١٨٥٠، حينما وقعت حادثة فى هيس كاسيل أثارت تهديدا مباشرا بالحرب . وإجابة على أمر تعبئة الجيش البروسى ، الذى كان يدل على الخوف أكثر من دلالته على القوة، قدم مستشار النمسا إنذارا ، فانهارت السياسة البروسية. وفى ٢٩ نوفمبر ، قبلت الحكومة البروسية أن توقع على « نقاط أولمتز » فسحبت أمرها الصادر بالتعبئة، وتخلت عن مشروع « الإتحاد على نطاق ضيق » وقبلت إجتماع مؤتمر عام للدول أعضاء الإتحاد الجرمانى، الذى سيعهد إليه بعملية « إعادة بناء» هذا الاتحاد. وترك استسلام بروسيا مسألة إعادة تنظيم الإتحاد مفتوحة. واستمرت مناقشتها فى مؤتمر الأمراء الألمان ، الذى انعقد فى درسدن فى بداية سنة ١٨٥١ ولاشك فى أن النمسا حاولت أن تعيد مشروعها من جديد، وأن تحصل على قبول إمبراطورية النمسا كلها فى الاتحاد وفى الزولفراين . ولكن بروسيا لم تجد صعوبات كبيرة فى إبعاد هذه المطالب، والتى لم تكن أي واحدة من الدول العظمى « غير الألمانية » تتمنى لنجاحها فلم تكن بريطانيا العظمى ترغب فى إزدياد قوة النمسا، ولا فى تكوين إتحاد جمركى بين كل دول أوربا الوسطى ، ووقفت الحكومة الفرنسية تدافع عن إستقلال الدول الألمانية الصغرى،، وأخيرا فإن قيصر روسيا قد لفت

انظار مستشار النمسا . فى مارس سنة ١٨٥١، إلى أن روسيا ستبقى على الحياد فى حالة قيام فرنسا، بالسلاح بمعارضة تحقيق المشروع النمسوى. ولذلك فإن المؤتمر قد اقتصر على أن يعيد الوضعية الإتحادية كما كانت عليه فيما بين عامى ١٨٤٦ ، ١٨٤٨ .

وإحتاجت مسألة الإتحاد الألمانى إلى ظروف جديدة، وإلى خطط محددة ، وضعها بسمارك ، المستشار الحديدى، وعرف كيف ينفذها .

٣- بسمارك :

لم يصل بسمارك إلى السلطة إلا فى سبتمبر سنة ١٨٦٢ . وكان قد شغل خلال العشر سنوات السابقة مراكز دبلوماسية من الدرجة الأولى ، كمندوب لبروسيا فى الدايت الجرمانى ، ثم كسفير فى سان بطرسبرج وفى باريس ، ولذلك فإنه قد اتصل بالمشكلات الدولية الكبيرة. وكان هذا الإتصال ضروريا للغاية، إذا ما فكرنا فى الدور الذى كان قد قام به من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٠ فى السياسية البروسية الداخلية ، حيث كان أحد الرجال الأكثر نشاطا والأكثر تطرفا فى أقصى اليمين ، والذى كان له أفقا بروسيا تماما: ألم يكن من بين أولئك الذين كانوا يخشون من أن تفقد دولة آل هوهنزلرن Hohenzollern شكلها وقوتها إذا ما أصبحت جزءا من دولة ألمانية كبيرة، وألم يوافق على رفض فردريك غليوم الرابع للتاج الإمبراطورى ؟ ولكن المسئوليات التى تحملها بعد ذلك فى الحياة الدبلوماسية وسعت من أفقه : ففى فرانكفورت عرف المعطيات الأساسية للمشكلة الألمانية ، وأصبح يفكر فى أن الصراع ضد النمسا قد أصبح محتوما، وفى بطرسبرج ، قاس ضعف إمبراطورية روسيا، وتمكن فى باريس من أن يقترب من نابليون

الثالث ومن تقييمه ومع ذلك ، فالملك حينما استدعاه ، فى سبتمبر سنة ١٨٦٢، لرئاسة مجلس الوزراء ، كان لايزال يرى فيه زعيم اليمين المتطرف ، والرجل ذو القبضة الحديدية ، أكثر من الدبلوماسى : فأعطاه السلطة مع شيء من القلق لكى يحل أزمة داخلية تمثلت فى الصدام بين الحكومة والأغلبية البرلمانية بشأن القوانين المتعلقة باعادة تنظيم الجيش. ولقد أبدى بسمارك من أول أعماله، قوة مخططاته واتساعها. فلم يكن إسكات البرلمان ، والعمل على إصلاح الجيش إلا مقدمة للعمل الخارجى ، بالنسبة إليه ، وطرح فى أحدى مقابلاته مع سفير النمسا ، وبألفاظ محددة ، مسألة مستقبل ألمانيا : فعلى دولة آل هابسبورج Habsbourg أن ترضى طوعا أو كرها ، بالتخلى عن الدور الذى كانت تمارسه فى الشئون الألمانية، و « تحول مركز ثقلها إلى بست » .

ومنذ هذه اللحظة ، تأكد شكل بسمارك (وكان له سبعة وأربعون عاما فى سنة ١٨٦٢) ومع الملامح التى ستصبح « كلاسيكية » بعد قليل: الرغبة فى السيطرة، وحدة وجهات النظر ، وخصومة الفكر السياسىء والعزيمة الصلبة . وبميوله ، كان يدأب على تأييد السمعة الى كان قد حصل عليها منذ كان يجلس فى الدايت الجرمانى : فكان يحب تراء س يحدثه يصدع بجفاف نغمته، ووحشية عباراته، وإظهار الإحتقار بالنسبة لأسس القانون ، وكان يهمل الأسلوب الرقيق للدبلوماسية التقليدية ، ويستخدم التهكم ، وفى بعض الحالات السخرية ، ويضيف إليها ألوانا من الإحتقار . وكانت هذه هى الوسائل التى يتغلب بها على من يتحدث اليه . ولكن القناع الصلب كان يخفى طبيعة عصبية ، وعاطفية وغير راضية، وحذره وحقوده، حتى بالنسبة لخصومه الألمان أو منافسيه المكين وكان فى وسع قوة العزيمة وحدها أن تسيطر على هذه المشاعر الصاخبة ولم يلبث معاصروه أن اعترفوا سريعا بسيطرته . ومع ذلك فلم

يكن فكره ذا ثقافة واسعة : فلم يكن له دوق فني ولا إحساس موسيقى، ولم يكن يهتم كثيرا بالشئون العلمية ، ولا حتى بالدراسات التاريخية مع قربها الشديد من مشغولياته السياسية اليومية، ولكنه كان يتمتع بهبات رجل الدولة : الوضوح القوى ، غير المختلط بأي تقليد ، أو بأية نظرية ، ولا بأية عاطفة مسبقة والاستعداد لرؤية المصالح المؤثرة وتقدير القوى الموجودة والحكمة فى إستخدام أكثر من سلاح ، والدقة فى الملاحظة النفسية ، التى سمحت له بأن يقدر حالة تفكير الخصم ، ويرى نقط ضعفه ، والفراسة والنفاذ فى تقديراته البعيدة المدى ، أى إلى مدي ثلاث سنوات (إذ أنه قال أن العمليات الحسابية تكون غير مضمونة أبدا لفترة أطول من ذلك)، والشجاعة الفائقة التى تدفعه إلى التدخل بكل إمكانياته ، حينما يبدو له أن الفرصة قد أصبحت سانحة .

٤- بسمارك والنمسا :

ولقد عمل بسمارك على أن ينفذ سياسته من أجل تحقيق الاتحاد الألمانى، وعن طريق إستخدام الوسائل العسكرية ، رغم أنه كان يعلم أن أغلبية الرأى العام كان ضد الحرب ، وبخاصة إذا ما كانت موجهة ضد النمسا، ولم يكن له من الأنصار إلا عدد قليل من العسكريين . وبدأ بسمارك حياته بإتخاذ موقف صريح ضد الحركة البرلمانية فى بروسيا ، والتى كانت ترغب فى أن تحتفظ لنفسها بالقرارات الرئيسية فيما يتعلق بالسياسة وفيما يتعلق بالجيش ، وأصر بسمارك على ضرورة عدم خضوع شئون الجيش ، والخطط الخاصة بنفقاته وتسليحه ، وحتى مدة الخدمة فيه لأية سيطرة برلمانية وعمل بسمارك على سحق العناصر المتحررة فى بلاده، أو تحييدها، حتى يتمكن من تنفيذ برامجه الحربية دون معارضة ، وعمل ذلك كتمهيد لإستخدام الحرب سلاحا ضد النمسا، ولكى يصل منها إلى الاتحاد الألمانى .

وتقدمت النمسا بمشروع لإصلاح الإتحاد الألمانى فى سنة ١٨٦٣، ودعت الأمراء الألمان إلى الإجتماع ومناقشته فى فرانكفورت ، ورأي بسمارك أن هذا المشروع يمثل مكسبا للنمسا، وعلى حساب بروسيا، ولذلك فإنه عمل على إفشاله ولم يشارك فى المؤتمر، وأرسل برأيه إلى المؤتمر مصرا فيه على ضرورة أن يكون لبروسيا مثل ما للنمسا فى الإتحاد، وبخاصة فى رفض التصديق على إعلان الحرب ، وفى مسألة رئاسة الاتحاد، وأنها لن تتنازل عن أى حق من حقوقها الا البرلمان يمثل الأمة الألمانية كلها .

وكانت ضربة قوية وجهها إلى النمسا فى بداية حكمه ، ثم إنتهز بسمارك فرصة ثورة بولندا فى نفس السنة ، وعمل على عدم مضايقة روسيا، التى كانت قد إستخدمت الشدة فى قمع الثورة البولندية ، وإنفصل بذلك عن إتجاه الرأى العام فى إنجلترا وفرنسا وحتى النمسا، الذى كان يعطف على الثورة البولندية، ومد يده إلى روسيا وعقد معها إتفاقية حربية تحمل فى ظاهرها دلائل الإهتمام المشترك فى بسط الأمن فى بولندا، فتمكن بهذا التحالف العسكرى مع روسيا أن يشعر بإطمئنان فى حالة إعلانه الحرب على النمسا، وربما حتى على فرنسا فيما بعد.

وبدأت عملية بناء الإتحاد الألماني ، بضرب بروسيا للنمسا. وبدأت هذه العملية بمشكلة دوقيتى شليزفيج وهولشتان، والتى كانت تقع بين بروسيا وبين الدانمرك . وكانت هاتان الدوقيتان عضوا فى الاتحاد التعاهدى الألمانى منذ سنة ١٨١٥ ، وإن كانتا قد وقعتا تحت طمع الدانمرك من ناحية ، وطمع بروسيا والنمسا من ناحية أخرى . وتأزمت المشكلة بشأن نظام الوراثة ونظام الحكم فيهما. ثم عقد مؤتمر فى لندن سنة ١٨٥٢ ضمن إستقلال الدانمرك، وضم الدوقيتين إلى ملك الدانمرك، دون المساس بحقوق الإتحاد الألمانى فيهما ولكن ملك الدانمرك

قام بـضم الدوقيـتين فى سنة ١٨٦٣ إلى الدانمرك وبشكل يتعـارض مع مـعاهدة لندن سـنة ١٩٥٢ . فبـدأ بسـمارك عـمله ، وإعـترف بإمـارة كريستيـان التاسع ملك الدانمرك عليهما، وإشتـرك فى ذلك مع النمسا، وهى من الدول الموقـعة كـذلك على معـاهدة لندن ثم بعث إليـه بإنذار نهـائى طلب منه فيـه الغاء الدسـتـور الذى منحه للأهالى هناك وكـتب الإنذار بأسلوب يجعل قبول طلبه أمرا متعذرا . وإعتمد الدانمركيون على عطف إنجلترا ورفضوا الإذعان للانذار البروسى ، فغزت الجنود النمسوية والبروسية المقاطعـتين فى شهر يناير سنة ١٨٦٤ . وهزمت الدانمركيين ، وأجـبـرت ملك الدانمرك على التنـازل على هاتين المقـاطعـتين ، وذلك بمعاهدة فيينا فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٦٤، الأمر الذى أدى إلى وضعهما تحت حكم ثنائى بروسى نمسوى، وسـرعان ما نشأ الخـلاف بين بروسيا والنمسـا. وكاد الأمـر أن يصل إلى إصطدام بينهمـا فى شهـر أغسطس ١٨٦٥ ، ولكن بسمارك عمل على كـسب الوقت حتى يتمكن من إعداد قواته العـسكرية ويتمكن كذلك من عزل النمـسا، حتى فرنسـا وإنجلترا وبخاصـة بعد أن كـان قد ضمن مـوقف روسيـا معه. وقـبل إتفاقـية جاشتين، الـتى رسم لها بحكمه، ثم وقع عليهـا فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٦٥ وهى التى الغـت الحكم الثنائى ومنحت الـنمـسـا هولشتاين ومنحت بروسيا شليزفيج ولاوبنرج .

وفى ٣ سبتمبر سنة ١٨٦٥ تقابل بسمارك مع نابليون الثالث فى بياريتـز وصارح بسمارك الإمبـراطور بأمر الحرب المنتظرة ضد الـنمسا، وتعديل دستور الاتحاد الالمانى ، والاستيلاء على الدوقيتين الدانمركيتين: وعقد تحالف إيطالى بروسى ، وإستعـداده للنظر فى توسيع حدود فرنسا إذا ما ضـمن حيادها فى الحـرب القادمة مع الـنمسا، وأظهـر نابليون الثالث رضاءه عن خطة سـمارك وموافقته على إتخـاذ موقف الحياد فى

حالة الحرب ثم وعد بسمارك ايطاليا بضم مقاطعة البندقية إليها إذا ما إشتركت معه فى حرب ضد النمسا، بشكل يجعل الامبراطورية النمسوية تواجه حربا على جبهتين ، وتم عقد التحالف البروسى الايطالى فى ٨ أبريل سنة ١٨٦٦ وفى اليوم التالى عرض بسمارك مشروعا على الدايت الألمانى ، بشأن إصلاح عام للاتحاد التعاهدى الألمانى ، وانشاء برلمان ألمانى ينتخب بالاقتراع العام . وأتم بذلك بسمارك استعدادته السياسية والدبلوماسية . بعد أن كان قد أتم إستعدادته العسكرية ، ولاشك فى أن الحرب التى نشبت فى منتصف شهر يونيو سنة ١٨٦٦ كانت حربا أرادها بسمارك ، وخطط لها بكل دقة ودامت هذه الحرب سبعة أسابيع ، وظهرت فيها براعة البروسيين ودقتهم العسكرية ، سواء فى التدريب ، أو الحركات، ولذلك تفوق مدفعيتهم وحسن إستخدامهم لوسائل النقل وبخصة السكك الحديدية. وتمكنت بروسيا فى الأسبوع الأول من سحق القوات النمسوية التى واجهتها من الشمال الغربى ، ثم تمكنت فى الأسبوع الثالث (٣ يوليو) من سحق الجيش النمسوى الرئيسى فى موقعة سادوا. وتحطمت مقاومة النمسا، وأصبح الطريق مفتوحا أمام القوات البروسية صوب فيينا.

وفى وقت الإنتصار، أظهر بسمارك إعتداله تجاه المهزومين، وربما كان يحسب أنه قد يحتاج اليهم فى حرب مقبلة ، يقفون فيها على الحياد فى الوقت الذى تواجه فيه بروسيا عدوا جديدا، ربما كان هو فرنسا. وكان يكفى بسمارك أن تنسحب النمسا من ألمانيا، وتسلم بسيطرة بروسيا على الدوقيتين الدانمركيتين ، وتمتنع عن معارضة إنشاء إتحاد تعاهدى ألمانى شمالى تحت زعامة بروسيا، ودون أن يكون فى إنشاء هذا الإتحاد أى إجبار أو إرغام وفرض للرأى على الحكومات الالمانية الجنوبية : ورفض بسمارك فكرة المنادين بضرورة الوصول إلى

إقامة ألمانيا متحدة ،وذلك بضم الاتحاد الألماني الجنوبي لبروسيا ، وفضل على ذلك أن يترك للألمان الجنوبيين أمر إندماجهم في الاتحاد البروسي حينما يرغبون . وعمل على عدم اثارة الولايات الألمانية الجنوبية، رغم أنها كانت قد إنضمت إلى النمسا في الحرب، ولم يفرض عليها غرامات عسكرية ، فلم يمر شهر أغسطس سنة ١٨٦٦ حتى كانت بافاريا وفرتمبرج وبادن قد عقدت إتفاقيات عسكرية مع حكومة بروسيا .

وقبلت النمسا شروط بسمارك ، وتم التوقيع على معاهدة براغ في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٦٦ قبل أن تفيق أوربا من دهشتها من هزيمة سادوا- وسويت المسألة بين بروسيا والنمسا، وشعرت فرنسا بالحنق لأنها خرجت من هذه العملية السريعة خالية اليدين . أما بسمارك فإنه وضع دستورا للاتحاد الألماني الشمالي . وأنشأ مجلس نواب يسمى الرايشستاج على الطريقة البسماركية . ثم إستعد بعد ذلك لجولة جديدة من أجل إتمام الاتحاد الألماني.

٥- بسمارك وفرنسا

وكما أجبر بسمارك كل من الدانمرك ثم النمسا على محاربة بروسيا ، أخذ بعد ذلك في الاستعداد على إجبار فرنسا عى أخذ نفس المسلك ، واستند الى روح العدائية التى إنتشرت في فرنسا تجاه إزدياد تفوق بروسيا، وإمتداد سيطرتها إلى ماوراء نهر المين ، وأخذ في إكمال إستعدادته العسكرية .

وكانت سياسة فرنسا غير محددة ، وتعتقد أن في وسعها عقدمحالفات مع النمسا مع إيطاليا لمواجهة الخطر البروسي ، وكانت تأمل فى أن الدانمرك وهانوفر وبافاريا سوف تنقلب ضد بروسيا، وتنتهز أول فرصة للانتقام منها، إذا ما أقدمت بروسيا على محاربة فرنسا.

وكان نابليون الثالث يحاول الحصول على تعويضات في ولاية بالاتينات، الراين، لكسمبرج أوبلجيكا ، نتيجة لانتصار بروسيا، ولكن مثل هذه التطلعات كانت تبعد بقية الألمان عن فرنسا وتجبرها على زيادة ترابطها مع بروسيا . أما مشروع فرنسا لغزو بلجيكا، فإن بسمارك قام بنشره بعد انتهائه من حربه مع النمسا ، ففقدت فرنسا فى ذلك الوقت عطف بريطانيا العظمى عليها، خاصة وأن حياد بلجيكا كان ضروريا بالنسبة لأمن الجزر البريطانية، وتحولت الحكومة البريطانية إلى جانب البروسيين، الأمر الذى أدى إلى عزلة فرنسا. وكان موقف فرنسا حرجا نتيجة لصراع القوى الداخلية فيها، فكانت العناصر اليمينية والكاثوليكية تدفع نابليون الثالث إلى ضرورة الاستمرار فى التدخل لحماية البابا فى روما، بينما كانت العناصر الجمهورية والاشتراكية تعارض هذا الاتجاه، وتطالب بنظام نيابى حر، وبتشكيل حكومة مسئولة أمام البرلمان. وبعد انتخابات سنة ١٨٦٩ ، تشكلت فى باريس حكومة حرة وعدل الدستور وفق مبادىء حرة ووسط فرنسا انجلترا لمفاتحة بروسيا فى أمر تخفيض التسليح على القارة ، ومن الجانبيين ولكن مجىء أزمة العرش الأسبانى وتطورها غيرت الموقف فى صالح بروسيا ، وفى صالح الاتجاه الألمانى .

وكان عرش إسبانيا قد عرض على الأمير ليوبولد من آل هوهنزلرن فى سنة ١٨٦٩، واعترضت فرنسا على مثل هذا الترشيح . ولكن الأنباء وصلت إلى باريس يوم ٣ يوليو سنة ١٨٧٠ بأن الأمير قد وافق على هذا الترشيح ، وبشرط أن يصدق مجلس الكورتيس الإسبانى على هذا الإختيار ورأت فرنسا فى ذلك فخا ينصبه لها بسمارك ، وفى الوقت الذى تحاول فيه الوصول إلى تفاهم مع النمسا، تعمل بروسيا على ملء عرش مدريد، فى الجانب الأخر من فرنسا بأمير من أسرة

هوهنزلرن وكان معنى ذلك أن على فرنسا أن تختار إما القيام بحرب بروسيا قبل يوم ٢٠ يوليو ، وهو يوم إنعقاد مجلس الكورتيس للتصديق على هذا الترشيح أو على الأقل أن تعيش فيما بين نارين، وعلى علاقات سيئة مع حكومة فيما وراء البرانس ، وعلاقات مهددة مع حكومة بروسيا فيما وراء الراين . ولكن سرعان ما وصلت الأنباء ، فى ١١ يوليو ، أن والد الأمير قد أعلن ، بإسم ابنه ، نزوله عن ترشيحه للعرش الاسبانى وإرتكب رئيس وزراء فرنسا عملا طائشا حين قرر ضرورة الحصول على تأكيد رسمى من ملك بروسيا يصدق فيه على التنازل ، ويتعهد فيه بعدم تجديد هذا الترشيح . وقد قابل السفير الفرنسى ملك بروسيا بعد يومين فى إمز ، ورفض الملك إعطاء السفير أى وعد ، ولكن الملك أرسل بعد ذلك برقية بسمارك يبلغه فيها أنه قد وصله إخطار رسمى من الأمير ليوبولد بتنازله عن الترشيح ، وأنه موافق على ذلك ، كما أخبره بالمقابلة التى تمت مع السفير الفرنسى ، وأن كل منهما كان يحاول أن يجنب بلاده ويلات الحرب. وكانت فرصة فريدة أمام بسمارك فانتهزها، وقرر أن يصدر بيانا للصحف يتضمن معنى البرقية ، ولكن بعد أن يدخل عليها تعديلا بسيطا ، يبدو منه وكأن السفير قد أهان الملك ، وأن الملك قد رد الإهانة أضعافا ، ووصلت الصحف إلى باريس وهاجت المشاعر وفى مساء ١٤ يوليو استدعت فرنسا قوات الاحتياطى ، وأعلنت الحرب على بروسيا. وكان بسمارك يسعى إلى ذلك ، ففرنسا هى التى أعلنت الحرب، وعليها أن تدفع الثمن .

وكان الجيش البروسى قد أتم تدريبه وتسليحه، وأتم وضع خططه للهجوم على فرنسا منذ ثلاث سنوات ، وكانت تسوده روح النظام وتستند إلى سلاح مدفعية قوى ويعرف كيف يفيد من استخدام السكك

الحديدية فى النقل أما الجيش الفرنسى فكان جزء كبير منه موجودا فى الجزائر ، أما مخازن مهماته وأسلحته فكانت موزعة فى طول البلاد وعرضها وكان أضعف من الجيش البروسى فى التنظيم . وكانت الحكومة الفرنسية تتوقع دخول النمسا معها فى الحرب ضد بروسيا، ولكن النمسا لم تكن أكثر إستعدادا من فرنسا ، وكانت ترغب فى أن ترى انتصارا فرنسيا على بروسيا ، قبل أن تغامر من جديد بالدخول فى حرب ضد بروسيا .

وبدأ العمليات العسكرية بسرعة ، وفى يوم ٦ أغسطس ، أي بعد يومين من وصول القوات البروسية إلي الحدود، تمكنت هذه القوات من تسجيل انتصارين الواحد فى الالزاس والثانى فى اللورين ، وإضطر نابليون الثالث إلى التخلى للماريشال بازين عن منصب القائد الأعلى . وإضطر بازين أمام هجوم البروسيين الكاسح إلي التراجع صوب ميتز ، ولكن القوات البروسية قامت بمحاصرته ومحاصرة قواته .

وكان جيش فرنسا الثانى ، الموجود فى شالون ، يرغب فى التقهقر للدفاع عن باريس ولكن الأوامر صدرت إليه بضرورة التقدم صوب الشرق ، لانقاذ بازين ولكن فوق مولتكه قام بتعقب، هذا الجيش وحاصره فى سيدان وأذاقه معنى ضرب المدفعية الثقيلة ، وأجبره على التسليم ، وحصل البروسيون فى هذه الموقعة على الإمبراطور نابليون الثالث نفسه ، وانتهت موقعة سيدان يوم ٢ سبتمبر ، وبعد يومين أعلنت الجمهورية فى باربس ، والجمهورية الثالثة وفى ذلك الوقت كان جيش بازين، لايزال سليما في ميتز ، وتحولت الحرب إلى حرب شاركت فيها كل الأمة الفرنسية. ولكن الماريشال بازين سلم للبروسيين يوم ٢٧ من أكتوبر ، وفتح بذلك الطريق أمام ٢٠٠,٠٠٠ جندى لكى يندفعوا لغزو فرنسا.

ووقعت المعارك فى شاترى وفى لى مان، وفى سان كانتين ، ونزع سلاح جيش جنوب شرق فرنسا الذى إضطرت إلى دخول الحدود السويسرية بشكل مزرى وأصبحت باريس محاصرة ، وإضطرت أمام ضرب المدفعية ونقص التموين إلى الدخول فى مفاوضات مع البروسيين عن طريق هدنة فى ٢٨ ينـاير سنة ١٨٧١، ثم إنتخابات نتجت عنها جمعية وطنية، إنعقدت فى بوردو يوم ١٢ فبراير ، وانتخبت تيير، ذلك المؤرخ الهرم رئيسا للسلطة التنفيذية .

وفرض بسمارك شروط الصلح على فرنسا بكل تشدد، واشتملت علي إقتطاع الالزاس واللورين من فرنسا وأعطائهما لبروسيا، والتى قامت بتحصين ميتز واستراسبورج ، عاصمتيهما، كما اشتملت على دفع غرامة حربية بلغت ٢٠٠ مليون جنيه، ذهبا وتم ذلك فى صلح فرانكفورت ، الذى عقد يوم ١٠ مايو سنة ١٨٧١ ، وبعد أن فشل تيير فى الحصول على أية معونة أجنبية .

وفى يوم ١٨ يناير سنة ١٨٧١ أعلن تأسيس الامبراطورية الألمانية فى بهو المرايا، فى قصر فرساى ، قرب باريس . وكانت ولايات المانيا الجنوبية ترغب فى الدخول فى الاتحاد الألمانى الشمالى . ولكن بسمارك رأي ضرورة التريث ، ورفض فكرة ضم بافاريا إلى بروسيا ، ورأى ضرورة الاكتفاء بإقامة إتحاد مع دول ألمانيا الجنوبية ، فأصبح الشكل النهائى للامبراطورية ، هى إمبراطورية إتحادية وأرضى ذلك دول ألمانيا الجنوبية ، وكان ملك بافاريا هو الذى وضع تاج الإمبراطورية على رأس ولهلم الأول ملك بروسيا فى حفل تتويج الإمبراطور.

وهكذا تم الإتحاد الألمانى ، بالاستعداد، والتدريب ، والتسليح ، والحرب السريعة، وعلى ثلاث مراحل . الأولى ضد الدانمرك والثانية

ضد النمسا ، والثالثة ضد فرنسا . وأصبحت الإمبراطورية الألمانية قوة رئيسية على القارة الأوربية ، يحسب الجميع حسابها، وحتى روسيا، وبريطانيا العظمى التى لم تدخل معها، حتى ذلك الوقت ، فى حرب .

وكان هذا الاتحاد إنتصارا لحركة قومية ، وبداية لمرحلة جديدة زمنيا، لخريطة جديدة ، استراتيجية ، لتاريخ أوربا ، وتاريخ العالم .

الفصل الخامس والعشـــرون

نمو الولايــات المتحدة واليابــان

فى الوقت الذى سارت فيه عمليــة إنشاء الوحدة الايطالية والاتحاد الألمانى بخطوات ثابتة ، كانت هناك تغـيـيرات كبيرة وعمـيقة تحدث فى كل القارة الأمـريكية ، وفى الشـرق الأقصى . ولقـد تمكنت الولايات المتحـدة الامريكيـة فى هذه الفترة أن تحـقق توسعهــا الأقليمى الكبـير، وأخذت هذه الجـمهورية الكبـيرة فى الانصهــار، من أجل إخراج شكل جديد لهذه الدولة الضخمـة، مع تلك الحرب الأهلية التى انتجت ، عن عوامل كثيـرة ، وأعطتها إنطلاقه كبرى على طريـق المستقبل، ودون أن تتمكن الدول الأوربيــة من التدخل فى هذه العمـلية. وفى نفس الوقت تمت تغيـيرات كـبيرة فى الشـرق الأقصى ، وكانت أهمــها هى إنفـتاح اليابان، وإتخاذها المنهج الأوربى وسيلة للعمل ، الأمر الذى ساعد على أن تصبح اليــابان أقوى دولة فى منطقة الشرق الأقـصى ، وكان نمو كل الولايات المتحدة الأمريكية واليابان يدل على ظهور منافسين أقوياء ، غير أوربيين ، الأوربيــة ، وللقارة ، الأوربيــة ، ويبشــر بأن يصبح لهــاتين الدولتين ثقلهما بالنسبة لتاريخ العالم .

١- مســألة تكســاس :

كانت الولايات المتحدة الأمريكيــة قد بدأت توسعها سنة ١٨١٩، وحين قامت بضم فلوريدا، منتهزة بذلك ثورة المستعمرات الأسبانية، ثم تمت سياسة التوسع إبتداء من سـنة ١٨٣٨ ، حتى إمتد الاتحاد الأمريكى فى مدة عشر سنوات صوب خليـج المكسيك ، وصوب المحيط الهادى، فى المناطق التى كانت تابعة لاسبــانيا. وما أن وصلت إلى ساحل المحيط الهادى حتى ألفت مشروع القناة الموصــلة بين المحيطين الإنتباه، فدخلت

أمريكا الوسطى بدورها ميدان المشغولية السياسية .

وكانت دوافع هذا الاتجاه التوسعى للولايات المتحدة مرتبطة بالمصالح الإقتصادية وبمشغوليات السياسة الداخلية وبالأتجاهات النفسية الجماعية .

فكانت هناك الضرورات الإقتصاية فكان مجموع أهالى الولايات المتحدة فى سنة ١٨٤٠ يصل إلى ١٧ مليون نسمة ولكنه زاد بنسبة ٣٦٪ خلال العشر سنوات التالية ، ورجع ذلك إلى الهجرة ، وإلى مجىء الأوربيين ، من أيرلنديين طردتهم المجاعات، ومن ألمان ، ضايقتهم فشل الحركات الثورية . وكان إستصلاح الأراضى البكر الموجودة فى السهول الوسطى الكبيرة للولايات المتحدة ، وبالتالى تغيير مكان « الحدود » على صلة مباشرة بهذا التزاحم وكانت هذه الهجرة تهدد بإنهاء ذلك التوازن الموجود بين ولايات الشمال وولايات الجنوب، فقد كانت هناك ثلاثة عشر ولاية فى الشمال، ومثلها فى الجنوب . ولكن معظم الهجرة كانت تصل إلى ولايات الشمال، وتنتقل منها صوب منطقة البحيرات العظمى ، الأمر الذى دفع ولايات الجنوب إلى محاولة التوسع بدورها صوب الغرب ، حى يحافظوا على المكانة التى كانوا يحتلونها فى الاتحاد، ويقاوموا الضغط الذى كان يمارسه أنصار تحرير العبيد فى الكونجرس الأمريكى . وكانت الأنظار تتجه بنوع خاص صوب تكساس وكاليفورينا وأمريكا الوسطى ، حيث إصطدمت بمصالح بريطانيا العظمى، وبمصالح فرنسا فى بعض الحالات .

وحين حصلت الولايات المتحدة من فرنسا ، فى سنة ١٨٠٣ ، على لويزيانا، لم تكن حدود هذا الآقليم قد تحددت بعد من ناحية الجنوب الغربى . وحين حصلت الولايات المتحدة فى سنة ١٨١٩ على

فلوريدا، عملت على الحصول على إعتراف بحقوقها في هذا الأقليم الصالح لزراعة القطن ، وإن كان رئيس الولايات المتحدة يخشى من إستخدام المزارعين فيه للعبيد السود. وضمت الحكومة الأمريكية هذا الأقليم اليها، وأتي المعمرون لإستعماره، دون أن تتمكن حكومة المكسيك، وهى واقعة تحت تأثير الإضطرابات الثورية، فى التدخل هناك . وأصبح الأمريكيون يكونون أغلبية الأهالى ، وطلبوا الإنضمام إلى الولايات المتحدة الأمريكية، رغم أن أراضيهم كانت تابعة لنيابة مملكة المكسيك. واعترفت الولايات المتحدة بإستقلال هذه الدولة الجديدة، دون أن توافق على ضمها، ولم تكن حكومة المكسيك توافق على التنازل عن حقوقها. ورجع تردد الولايات المتحدة إلى إنقسام فى الرأى العام : فكانت ولايات الجنوب توافق على هذا الضم الذى سيدخل فى الاتحاد إقليما، كانت حياته الاقتصادية وبنيانه الإجتماعى مشابه لحياتهم ولبنيانهم، ولنفس هذا السبب أخذت ولايات الشمال موقفا معارضا للضم إذ أنها كانت لاترغب فى زيادة عدد الولايات التى تستخدم العبيد. ولذلك فإن مسألة تكساس كانت تكون إحدى مراحل الصراع بين أقاليم الاتحاد الأمريكى وحافظت حكومة هذه الولاية على إستقلالها، كما حافظت على موقفها من الإنضمام إلى الولايات المتحدة ، وإن كان عدم إتمام الإنضمام يساعدها على إقامة علاقات تجارية مع الدول الاجنبية ، وبخاصة مع انجلترا وفرنسا. وإذا كانت انجلترا قد حاولت دفع حكومة المكسيك للإعتراف بإستقلال تكساس ، إلا أن حكومة تكساس كانت تفضل الحصول على دعم إقتصادى ، وقروض مالية ، أكثر من حصولها على إعتراف بإستقلالها السياسى ، وحين سادت تكساس الاضطرابات الداخلية ، وخشيت فى سنة ١٨٤٣ من عملية غزو مكسيكية، عاود مزارعوا تكساس طلباتهم من جديد

بالإنضمام إلي الولايات المتحدة .

وفكرت إنجلترا فى التدخل ، وعلى أساس الضغط على حكومة تكساس لإلغاء نظام الرق . وزاد إستعداد الولايات المتحدة الأمريكية، باعتبار أن هذا الإلغاء للرق سيكون مقدمة لإلغائه فى كل القارة الأمريكية، وخوفا من أن يزيد نفوذ إنجلترا فى هذا الأقليم، الذى يمكنه أن ينافس بإنتاجه من القطن ، إنتاج القطن فى الولايات الأمريكية على السوق الانجليزى . وكانت الولايات المتحدة لاتزال تخشى من ضم هذا الإقليم، الذى يستخدم العبيد ، والذى قد يهدد بفرار العبيد منه إلى بقية الولايات المتحدة الأمريكية المجاورة له ، حتى بعد إلغاء نظام العبيد فيه . ومع ذلك فإن رئيس الولايات المتحدة قرر أن يسبق الأحداث، وحصل فى ١٢ أبريل سنة ١٨٤٤ من حكومة تكساس على معاهدة الضم. وإقترح رئيس الولايات المتحدة فى رسالته إلى الكونجرس فى ٢ ديسمبر سنة ١٥٤٥، نتيجة بديهية لمبدأ مونرو:« إذا ما إقترح جزء من شعب من شعوب هذه القارة ، الذى يكون دولة مستقلة . أن يتحد مع إتحادنا، فأنها تكون مسألة تسوى بينه وبيننا، دون تدخل أجنبى . أننا لانوافق بتاتا، على تدخل الدول الأوربية لكى تمنع مثل هذا الاتحاد ، بدعوى تعارضه مع التوازن الذى ترغب فى المحافظة عليه فى هذه القارة ».

٢- الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك :

حصلت الولايات المتحدة بضمها فلوريدا ثم تكساس ، على كل الساحل الشمالى لبحر الأنتيل، وكانت فى نفس الوقت قد بدأت فى إستعمار لويزيانا القديمة فوصلت أراضى الاتحاد إلى جبال روكى . أما فيما وراء ذلك ، فقد إصطدم التوسع صوب المنطقة الأكثر إغراءا من

ساحل المحيط الهادى وساحل كاليفورنيا . بحقوق المكسيك وبمصالحها.

وكانت الأزمات الداخلية التى إجتازتها حكومة المكسيك قد أدت عند نهاية سنة ١٨٤٤، فى كاليفورنيا ، لعملية هياج من أجل الإستقلال الذاتى هددت بأن تأخذ شكل حركة إنفصالية وفى قرب نهاية سنة ١٨٤٥ أعدت حكومة المكسيك حملة عسكرية لإعادة سيطرتها على كاليفورنيا. وكانت واشنطون تراقب مسألة كاليفورنيا بإهتمام كبير، وترى أن حكومة الولايات المتحدة وحدها هى التى تقدر على تنميتها وبخاصة منطقة ميناء سان فرنسيسكو وفى الوقت الذى طلبت فيه الولايات المتحدة إعادة علاقاتها الدبلوماسية مع المكسيك. وكانت سطوعه منذ مسألة تكساس ، طلبت أن تتنازل لها عن كاليفورنيا . أو على الأقل عن خليج سان فرنسيسكو، وذلك نظير تعويض مالى من ٢٠ إلى ٣٠ مليون دولار. وذكر المفوض الأمريكى أن بلاده كانت ترغب فى الوصول إلى تسوية سريعة ، خوفا من أن تسبقها بريطانيا، وهى منافسة تجارية لها.

ورفضت حكومة المكسيك ، وكانت قد جمعت قواتها قرب ريو جراند ووقعت حادثة حدود فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٤٦ ، فبدأت الحرب بين الدولتين. ولم تكتفى أركان الحرب الأمريكية باحتلال كاليفورنيا، بل قامت بهجوم صوب مدينة المكسيك : فاضطرت الحكومة المكسيكية عندئذ لطلب الصلح .

وكان فى وسع الولايات المتحدة الأمريكية أن تعمل على ضم المكسيك نفسها. ولكن هذه السياسة كانت تهدد بزيادة عدد الولايات التى تستخدم العبيد ، وتؤدى بالتالى إلى إختلال التوازن بين الدويلات الداخلة فى نطاق الإتحاد،أى الولايات المتحدة الأمريكية؛ ولذلك فآن

الولايات المتحدة قد وافقت في معاهدة ٢ فبراير سنة ١٨٤٨ على الحصول على الأراضى المكسيكية الواقعة إلى الشمال من المكسيك الجديدة ، وكاليفورنيا والمنطقة الجنوبية من جبال روكى ، أى أوتا ونيفادا ، وأريزونا. أما بريطانيا فقد إكتفت بموقف المتفرج أمام هذا الصدام، وحصلت منه على ميزة ، نتيجة لإمتناعها عن مساعدة المكسيك ، فحصلت على الجزء الشمالى من كولومبيا ، وهو أقليم كولومبيا البريطانية .

ولقد أعاد ضم الولايات المتحدة لساحل المحيط الهادى مشروع إنشاء قناة تصل بين المحيطين إلي نطاق الفكر، خاصة وأن المواصلات البرية بين كاليفورنيا والولايات الامريكية فى الشرق غير ممكنه عمليا، وستظل بذلك مالم تنشأ سكة حديدية عبر القارة. وكانت مسألة القناة هذه قد طرحت من قبل، ومنذ سنة ١٨٢٦ ودرستها مجموعات امريكية ، ومجموعات أوربية وفكروا فى حفر القناة فى أراضى نيكاراجوا، ولكن الاضطرابات الداخلية فى هذا الأقليم، وكذلك مسألة التموين ، كانت عقبات أساسية تواجه التنفيذ. كما أن بريطانيا العظمى كانت تحتفظ فى هذه المناطق ببعض المواقع والجزر والقواعد البحرية ، قرب جواتيمالا، ما يسمح لها بالتحكم فى هذه القناة المقترح حفرها فى أراضى نيكاراجوا. ومع ذلك فقد حصلت الولايات المتحدة من حكومة كولومبيا، بمعاهدة ١٠ يونيو سنة ١٨٤٨ على الحق فى إنشاء سكة حديدية ، أو حفر قناة عبر برزخ بنما، وضمنت فى نفس الوقت لحكومة بوجوتا إمتلاك البرزخ فى حالة قيام دولة ثالثة بمهاجمته. وفى العام التالى عقدت الولايات المتحدة إتفاقية مع حكومة نيكاراجوا من أجل إقامة ريق ترانزيت ، أو عبور ، عبر أراضيها. ولكنها لم تعرض هذه الإتفاقية لتصديق الكونجرس عليها، خوفا من دفع بريطانيا العظمى

إلى الإصطدام بها، وبعد مفاوضات مع إنجلترا تم التوقيع على معاهدة فى شهر أبريل سنة ١٨٥٠ تتعلق بإنشاء قناة تصل بين المحيطين ، عن طريق شركة أنجلو امريكية. وتبادلت الحكومتان الوعود ، بالإمتناع عن الحصول على إشراف منفصل على القناة، التى ستكون محايدة، والإمتناع عن إقامة تحصينات على ضفافها. والتعهد بعدم ممارسة أى سيطرة على نيكاراجوا، أو على كوستاريكا. ونتيجة لنشأة صعوبات مع الأهالى هناك ، وتدخل بريطانيا عسكريا، بدأت المحادثات مرة أخرى بين الولايات المتحدة وإنجلترا، وانتهت بعقد معاهدة جديدة فى سنة ١٨٥٦ ، وضعت العلاقات بينهما. فى أمريكا الوسطى ، على أساس ثابت لمدة أربعين عاما.

وعلاوة على مسألة البرزخ ، أخذت الولايات المتحدة تفكر، منذ ذلك الوقت فى مصير كوبا، والتى كانت مركز الإمبراطورية الأسبانية فى أمريكا، وكانت هذه الجزيرة ستحصل على أهمية كبرى بعد شق القناة ، وكانت أرضا ممتازة بالنسبة لمزارع القصب السكر أى بالنسبة لإنتاج أحد المواد الغذائية التى كانت الولايات المتحدة تستوردها، وكان الحكم الاسبانى فيها مهددا بثورات الزنوج، وفكرت الولايات المتحدة كثيرا فى كوبا، ولكن دون أن تقوم بضمها، وتأجلت هذه المسألة إلى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر .

٣- الحرب الأهلية :

كان من نتيجة الولايات المتحدة صوب الغرب التأثير فى المرشحين للرئاسة، الذين كانوا قبل ذلك ، جميعهم من الشرق . كما أثرت هذه العملية على إقتصاد شرق الولايات المتحدة ، بعد أن تفتحت أسواق جديدة فى وجهها، وساعد ذلك على زيادة الإنتاج وزيادة نقل السلع،

وكـذلـك إلى زيادة رؤوس الأعـمـال المـسـتـثـمـرة فى الأراضى وفى الصناعات ، وإمـتدت المزارع صوب الجنوب الغـربى ، وبشكل منافس لمزارع الأقاليم الشرقية للولايات المتحدة .وفى نفس الوقت كانت الثورة الصناعية، وإستخدام الآلة البخارية فى شرق الولايات المتحدة قد أصبح أمرا مؤثرا على المناطق الغربية للإتحاد .

وزاد عدد المدن التى إنتشرت صوب الغـرب، كما زادت أهمـية المدن التي تعـتمـد على الصناعـة ، وتزايد عـدد الأهالى فى هذه المدن الصناعية ، وبشكل أثر على المناطق الزراعية المحيطة بها. وتمت الصناعة فى الولايات الشمـالية وأعتـمدت على الهـجرة ، وبخاصـة من القارة الأوربية اليـها وبلغ عدد المهـاجرين الأوربيين إلي المناطق الصناعـية فى الولايات المتحـدة من سنة ١٨٢٠ إلى ١٨٦ مايزيد على خمسـة ملايين مهاجر ومع زيادة عـدد العمال فى المراكز الصناعية الكبيـرة زاد الاعتماد على الآلات وأصبح النظام الإنتاجى يعتمـد على ساعات العمل ، أكثر من إعتماده على الأجر اليومى ، وأصبح العامل يعتمد على الأجر، كما يعتمد صاحب رأس المال على الأسواق، وعلى العمالة. وأصبحت هذه الحالة تتناقـض تماما مع نظام الإنتاج فى ولايات الجـنوب ، التي كانت تعتمـد على الزراعة وعلى الأيدى العاملة من الزنوج ، وهم عـبيد من أجل الانتاج الموسمي ، وأدى ذلك إلى صدام ظهر فى الأفق بين المناطق الصناعيـة فى الشمال، والمناطق الزراعـية فى الجنوب وأصبح الشـمال الصناعى يتميز بإتجاه ديمقـراطى فى تفكيره بينما إحتفظ الجنوب الزراعى بإتجاه جمـهورى . ولقد أدى ذلك إلى نشوء طريقين للتفكير . ويـعتمد كل منهمـا على حالة المجتـمع، والأوضاع الاقتصـادية الموجودة فى كل منطقة من المنطقـتين. وتم الانقسام بين جـماهير الناخبين بشـأن الابقاء على نظام الرق أو الغائه، والاحتفاظ بالمزارع الكبيرة ، أو الأعتماد على مزارع متـوسطة الحجم يمكن زراعتها بسـهولة دون الاعتماد على العـبيد

وظهر الانقسام واضحا فى انتخابات سنة ١٨٦٠ ، التى انتخب فيها أبرهام لنكولن رئيسا للولايات المتحدة ، وانسحبت كارولينا الجنوبية من الاتحاد فى نهاية هذا العام وتبعتها ست ولايات أخرى فى بداية العام التالى وهى فلوريدا وجورجيا وألاباما ومسيسيبى ، ولويزيانا، وتكساس وفى شهر فبراير إجتمع ممثلوا هذه الولايات وأنشأوا إتحادا بإسم الدول الأمريكية الكونفدرالية، ووضعوا دستورا إئتلافيا، صدقت عليه الولايات المنسحبة، وتم انتخاب رئيسا لهذه الدولة . وكان البديل لموافقة بقية الولايات المتحدة على هذا الانفصال، بموقف سلمى، هو نشوب الحرب بين الجانبين. رغم أن ولايات الشمال كانت تتفوق على ولايات الجنوب فى تعداد السكان وبإستنادها إلى الصناعة، إلا أن هناك أسباب كانت تربط بين الجنوب وبين كل من إنجلترا وفرنسا، فكانت إنجلترا فى حاجة إلي القطن ، وهو المحصول الأساسى فى ولايات الجنوب ، أما نابليون الثالث ، فكان مرتبطا بارستقراطية كبار ملاك الأراضى ، وكان مستعد دائما للتعاون مع إنجلترا فى كل مكان. وكان الجنوب يعتقد فى أن الأقاليم والولايات الزراعية فى الشمال لن تحارب ، وأن عددا منها سوف ينضم اليه ، خاصة وأنه كان فى وسع الجنوب إقفال الملاحة على نهر المسيسبى فى وجه الشمال وواجه أبرهام لنكولن هذا الموقف، وكان عليه أن يحافظ على الاتحاد بقوة السلاح. وبدأ إشتباك صغير بهجوم قام به الائتلافيون ضد إحدى الحاميات الصغيرة، تطور الأمر إلى حرب بين الشمال والجنوب ، إلى حرب أهلية. وكان تعداد السكان الجنوبيين فى هذا الوقت تسعة ملايين نسمة ، ثلثهم من العبيد، بينما بلغ عدد السكان الشمال ٣٢ مليون، كانوا فى غالبيتهم العظمى من الأحرار. وفى الأشهر الأولى من الحرب، اعتمد كل من الشمال والجنوب فى قواته على نظام التطوع، ولكن سرعان ما حل نظام التجنيد الإجباري محل

نظام التطوع، وتطور الوضع ، عند نهـاية الحرب ، إلى موافقـة الشمال على تجنيـد الزنوج، الذين يفـرون من الجنوب مع اعلان حـريتهم. وفى الوقت الذى كانت فيـه حكومة واشنطن معتـرف بها من الدول ، وتصر على مبدأ وحدة الجمهـورية الاتحادية، كان الجنوب يحاول الحصول على إعتـراف بدولته الائتـلافية، فى نفس الوقت الذى كـان يسعى فـيه إلى الحصول على قروض مالية .

وتسببت الحرب الأهلية الأمريكية فى نتائج سريعة وخطيرة للحياة الاقتصادية والاجـتماعية فى الدول الصناعية ، وخاصـة انجلترا وفرنسا. فالحـصار الذى فـرضه الشـماليـون على موانىء الجنوبيين منع المنـتجين الأمريكيين من تصدير القطن الخام لأوربـا، فلذلك فإن صناعة القطنيات فى أوربا قد حـرمت من مصدر تموينها الرئيـسى بالمواد الخام، ولم يكن فى وسع المجهودات التى بذلت لكى تجد ، فى مصر مثلا، ما يعالج هذه الحالة، أن تكون دائمة ، وأجبرت « جماعة القطن » المصانع على تحديد إنتاجها، وتسببت في البطالة .

ولذلك فقد كانت هـناك مصلحة مباشرة لحكومتـى إنجلترا وفرنسا لتخفـيف نظام الحصار، وكانت هذه الإجراءات التى إتخذها الشـماليون تجاه التجارة البحرية تثير الكثير من المبادىء الخاصة بحرية البحار .

وفى بداية الصدام ، الذى تميـز بنجاح جيش الجنوبيين ، إكـتفت الحكومتان الانجليزية والفرنسيـة بالمراقبة والإنتظار. وكانت إنجلترا تخشى على كندا فى حالة إنتصـار الشماليين ، وكانت فرنسـا ترغب فى القيام بمشروعها المكسيكي ، وتعطيه إهتمامـا أكثر من إهتمامها بالحرب الأهلية الأمريكيـة، وفى نفس الوقت الذى قاست فـيه فرنسـا من نقص القطن ومن البطالة فى قطاع إنتـاج المنسوجات، كـان الانفصال بين الشـماليين

والجنوبيين يمهد لها الطريق من أجل التفاهم مع الكونفدراليين حتى يوافقوا على إرسال الحملة الفرنسية إلى المكسيك . ومع ذلك ظلت كل من فرنسا وانجلترا على الحياد ، ورفضت كل منهما الاعتراف بحكومة الجنوب . وفى الوقت الذى زاد فيه الموقف دقة نتيجة لتهديد قوات الجنوبيين لواشنطون ، عاصمة الشماليين ، ظهرت فكرة توسط انجلترا بين المعسكرين ، ولكن هذه الفكرة لم تترجم إلى الواقع عملى وخاصة بعد إنتصار الشماليين على الجنوبيين . ولم تكن لبريطانيا ولا فرنسا، فى أثناء السنوات الأربع للحرب الأهلية الأمريكية ، خطة عمل ثابتة ، بل كانت مواقفهم ردود فعل لبعض الأحداث الصغيرة ، مثل حصار بعض الموانى أو تفتيش بعض السفن . ولقد أدت الحرب الأهلية نتيجة لاصابتها الولايات المتحدة بالفشل المؤقت إلى وقوع المغامرة المكسيكية .

٤- المغامرة المكسيكية :

كانت المكسيك قد مرت فى أحوال صعبة منذ الصراع الخاسر الذى كانت قد قامت به ضد الولايات المتحدة سنة ١٨٤٨ . ونشبت سنة ١٨٥٥ صراع على السلطة بين الأحرار العلمانيين وبين المحافظين من الكاثوليك. وكان العلمانيون يرغبون فى طرد اليسوعيين ، ويهددون بالتالى الاستيلاء عى تلك الأملاك الشاسعة التى كان يمتلكها رجال الدين. ووصل الأحرار الى السلطة فى سنة ١٨٦٠ ، مما أثار فكرة الوصول إلى حل ملكى عند بعض المهاجرين المكسيكيين فى أوربا .

وكانت للمكسيك أهمية خاصة فى نظر الأوربيين ، نتيجة لمواردها المنجمية ، وكان عدم الاستقرار السياسى فيها هو الذى يعرقل عملية استغلالها. وكان معظم الأوربيين المقيمين فى المكسيك من الاسبانيين

والفرنسيين والانجليز ، وأصابتهم الحرب الأهلية بأضرار وخسائر ، وكانت حكومة الأحرار التي تولت السلطة في المكسيك قد رفضت الاعتراف بالديون الأجنبية . كانت هذه دوافع للتدخل . ولكن التدخل سيتمثل في عمل نابليون الثالث شخصيا، وإن كانت له دوافع دينية ومالية واقتصادية في المسألة . فكان نابليون الثالث يرغب في اظهار فرنسا على أنها حامية للكاثوليك في كل مكان ، وكان يرغب في ضمان حصول الفرنسيين على ديونهم ، وكان شديد الاهتمام بمسائل القناة الموصلة بين المحيطين ، واستغلال الموارد المنجمية ، وتصدير المصنوعات الفرنسية .

ووجد الأمبراطور في سنة ١٨٦٠ أنه من الحكمة أن يشرك معه اسبانيا وانجلترا في مشروعه ، وكان لكل منهما رعايا في المكسيك ، وديون على الدولة المكسيكية. ولكنه فشل في فرض برنامجه . وقرر الاتفاق الفرنسي الانجليزي - الاسباني في سنة ١٨٦١ مجرد إرسال حملة لإجبار الحكومة المكسيكية عى إحترام ممتلكات الأجانب . ولكن سرعان ما ظهر الخلاف بعد نزول الحملة العسكرية للدول الثلاث في المكسيك. وعندئذ سحبت الحكومتان الانجليزية والاسبانية قواتهما وأصبحت حملة المكسيك مجرد مسألة فرنسية .

واعتقد نابليون الثالث بعد تخلي الدولتين عن العملية أن الطريق مفتوح أمامه، وقرر تنصيب الأرشيدوق مكسميليان النمسوي عرش المكسيك في سنة ١٨٦٣. وحاول إمبراطور المكسيك الجديد، خلال عامين أن يحكم ، ولكنه لم يسيطر إلا على الجزء الأوسط من البلاد، وكان النظام الملكي ضعيفا، وخشي من المعارضة . فتردد في إعادة أملاك رجال الدين المصادرة، مماجعل رجال الدين يغيرون موقفهم منه. وكان سنده الوحيد هي الحملة الفرنسية، التي أرسلها نابليون الثالث إليه ،

وكانت تتألف من ٣٠ ألف جندى ، ووعد ببقائها هناك طوال الوقت اللازم لضمان الحكومة الجديدة .

وانتهت الحرب الأهلية، فى الولايات المتحدة فى مايو سنة ١٨٦٥ . وأظهرت حكومة واشنطون موقفها بوضوح ، فرفضت الاعتراف بمكسميليان ، وطلبت بأسم مبدأ مونرو، سحب الحملة الفرنسية . فاضطر نابليون الثالث إلى أن يقرر إستدعاء قواته على دفعات ومنذ هذا الوقت تحدد مصير النظام المكسيكى الجديد الذى كانت مأساة كيرتيارو فى مايو سنة ١٨٦٧ ، وبعد انسحاب القوات الفرنسية ، آخر فصوله .

وضعف مركز نابليون أمام المعارضة الفرنسية، كما ضعف مركز فرنسا فى أوربا. وكان إرسال حملة تبلغ خمس الجيش الفرنسى إلى ميدان عمليات بعيدة، يجعل التعبئة الفرنسية أكثر صعوبة، فى حالة وقوع أزمة على القارة الأوربية ، وهو ما سيحدث لفرنسا بعد ثلاث سنوات أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، فإنها حافظت على وحدتها وعملت على إتساعها وطبقت مبدا مونرو على إحدى الدول الأوربية التى كانت قد أرسلت حملة إلى العالم الجديد ، وأجبرت فرنسا على سحب قواتها من المكسيك .

٥- إنفتاح اليابان :

فى الوقت الذى مرت فيه الولايات المتحدة بأزمات مع مسألة تكساس والحرب الأهلية، ومواجهة المغامرة المكسيكية أرغمت اليابان فيما بين عامى ١٨٥٤- ١٨٦٠ للخضوع لنفوذ الغربيين .

ومنذ أن أجبرت الصين ، بعض حرب الأفيون ، على التخلى عن سياسة الانغلاق فكرت الدول الغربية فى الحصول على مميزات مشابهة

من اليابان : إتفاقيات تجارية ، وإمكانية إستقبال الموانىء اليابانية للسفن الأجنبية، وكانت دول شمال المحيط الهادى ، وهى الولايات المتحدة وروسيا هى أول من أظهر إهتماما بهذه المسألة، واقنعت نفسها بأن حكومة اليابان أن توافق على الدخول فى مفاوضات ولذلك فكرت فى ممارسة الضغط عليها. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قد أصبحت ، بعد حربها مع المكسيك من دول المحيط الهادى ، أما روسيا فإنها أنشأت ميناءا حربيا على ساحل المحيط الهادى واحتلت مصب نهر آمور ولم يكن فى وسع اليابان أن تقاوم هذا الضغط .

وأخذ قرار الالتجاء إلي تهديد مسلح بطريقة تلقائية تقريبا فى واشنطن وفى سان بطرسبرج فى سنة ١٨٥١ وكان الأمريكيون هم الذين سبقوا فى الإستعداد ووصل أسطولهم إلى السواحل اليابانية فى سنة ١٨٥٣ قبل الاسطول الروسى الذى وصل من بحر البلطيق. وسلم الاميرال الامريكى خطابا للحكومة اليابانية وأعلن أنه سيعود لأخذ الرد فى العام التالى . وفى رحلته الثانية فتحت المفاوضات بسهولة فى سنة ١٨٥٤ . وحصل الامريكيون على حق الرسو والبيع والشراء في ميناثين يابانيين . وفى سنة ١٨٥٨ ، وفى الوقت الذى أظهرت فيه أحداث الصين لليابانيين الاخطار التى قد تنتج عن الرفض وافق اليابانيون على فتح خمس موانىء جديدة، وأعطوا الامريكيين بعض الامتيازات الاجنبية، وحق الاحتفاظ بتمثيل دبلوماسى . ثم حصلت انجلترا وروسيا وفرنسا وهولندا على إتفاقيات مشابهة وهكذا إنفتحت اليابان فى فترة أربع سنوات أمام النفوذ الغربى وتخلت عن سياسة العزلة. وفهمت الحكومة اليابانية ما يمكنها أن تكسبه من هذا الموقف الذى فرض عليها وفهمت أن على البلاد أن تسير بعد ذلك فى طريق جديد وتستوحى طرق الغربيين ووسائلهم التقنية، وأن تنمى مثلهم مواردها الاقتصادية ،

وقوتهـا العسكرية فيـمكنها عندئذ أن تدخل مـجموعـة الأمم ، وتتصل بالدول التى تتطابق معها فى المبادىء ، ويمكن لليابان أن تلعب دورا هاما فى العالم وتصل إلى مستقبل كبير. وكان الحرص على المصلحة الوطنية هو الذى دفع بعض اليـابانيين والذين كانوا لايزالون قلة ، إلى التـفكير فى تغيير عميق للحياة الاقتصادية والاجتماعية .

ورغم وقوع حركة مضادة لطرد الاجانب من البابا فى سنة ١٨٦٣ إلا أن هذا الاتجاه قد تسبب فى تدخل من جانب الدول الغربية. وقامت الاسـاطيل الانجليزية والفـرنسيـة والامـريكية بضـرب بعض الموانىء ، وتحطيم بعض القلاع مما قـضى علي هذه الحركة . وفهم اليـابانيون عدم جدوى مقاومة الاجانب وكان أهم شىء فى قراراتهم هم أنهم قد وافقوا على أن يتعلموا على أيدى الغرب ورأوا فى ذلك وسيلة لأعطاء بلادهم القوة .

وكان نمو اليابان ، كما كـان نمو الولايات المتحدة الامريكية، يمثل الخطوات الأولى انشأة، دولتين خارج حدود أوربـا، سيكون لكل منهما وزنا فى تاريخ العالم .

الفصل السادس والعشرون

تفوق ألمانيا في أوربا

كانت ألمانيا، بعد حربها مع فرنسا سنة ١٨٧٠ ونجاحها فى إقامة الاتحاد الالمانى امكانيات قوية ولها قيمتها. ولقد استندت ألمانيا، ممثلة فى شخص المستشار بسمارك إلى هذه الامكانيات، وإلي نتائج انتصاراتها، لكى تعمل على تدعيم تفوقها على القارة الأوربية. وكان هذا التفوق الألمانى يهتم قبل كل شيء بمنع فرنسا من القيام بحرب انتقامية من أجل استعادة أقاليمها المنقولة ، ويهتم كذلك بحرمان فرنسا من امكانية الحصول على حليف قد يساعدها عى إجبار ألمانيا على أن تحارب على جبهتين. ولذلك فإن عملية تسيير العلاقات الفرنسية الألمانية كانت تحتاج إلى ذكاء ومواهب غير عادية . وتميزت الدبلوماسية البسماركية بهذا الذكاء وتمكنت من أن تخلق وتسيير مانسميه « بالنظام البسماركى » الذى هدف اقامة واستمرار السلام في أوربا، وتدعيم تفوق ألمانيا على هذه القارة. وظل الأمر كذلك حتى نهاية عصر بسمارك .

١- الامكانيات الالمانية :

كانت ألمانيا فى سنة ١٨٧٠ دولة مسيطرة فمن ناحية السكان بلغ، تعداد أهلها ٤١ مليونا فى سنة ١٨٧١، وسيصل عددهم إلى ٤٩ فى سنة ١٨٩٠ وكانت كذلك قوة اقتصادية ، خاصة وأن الصناعات الضخمة كانت قد تقدمت فيها، وأصبحت الأمبراطورية الألمانية ، منذ سنة ١٨٧١ هى المنتج الأول للفحم على القارة الأوربية وسمح لها ذلك باستخراج المعادن ، وفتح لها بالتالى الطريق للأزدهار الكبير فى الانتاج الصناعى وتتضاعف انتاج الزهر فى ألمانيا فى ثلاث سنوات فقط (١٨٧٠- ١٨٧٣) ثم استمر فى الزيادة ، حتى زادت قيمته علي قيمة

وكانت ألمانيا قوة مسلحة ، وكانت تمتلك أحسن جيش فى العالم وكان عدد القوات الموجودة فى الخدمة العاملة يتزايد باستمرار من ٤٠٠ ألف فى سنة ١٨٧٤ حتي بلغ ٤٨٩ ألف فى سنة ١٨٨٨ وذلك رغم أن هذا الجيش كان لايضم إلا جزءا ممن يمكن تجنيدهم. وفى حالة الحرب كان دعوة الإحتياطيين تسمح بزيادة عدد هذه القوات الي مليون و ٨٠٠ الف . ورغم أن الامبراطورية الألمانية كانت دولة حربية كبرى إلا أنها لم تكن دولة بحرية ، واكتفت بأسطول حربى صغير رغم إمتلاكها واجهة تطل على بحرين ولم يحتل هذا الأسطول فى مدة خمسة وعشرون سنة إلا المكان السادس والسابع فى قائمة البحريات العالمية .

وكانت لدى الشعب الألمانى ، وعند رؤسائه رغبة فى القوة : فكانت التيارات الرئيسية للرأى العام متفقة فى التفكير على أن ضم الالزاس واللورين كان شرعيا. وكانت ألمانيا الجديدة تختلف بوضوح عن تلك التي كانت مدام دى ستايل قد وضعتها فى أوائل القرن التاسع عشر . فكانت لها موهبة بحث كل الأمور من وجهة نظر إمكانية تحقيقها وكانت لها روح المشروعات والمقدرة علي التنظيم وكانت تحتاج للنظام وتحب أن تكون موجهة . وكانت تمتاز بالشعور بالواجب - فى الجيش ، والواجب فى العمل - وتمتاز بحب النظام وتسلسل القيادة فكان الخضوع للدولة أمرا سهلا بالنسبة إليها وجاءت الظروف التاريخية التالية لكى تضيف خصائص أخرى إلى هذه الصفات الأساسية. وأصبح لهذا الشعب الألمانى تفاؤل متزايد ، نتيجة لانتصاراته الكبيرة ، وأصبح لديه شعور بالتفوق ، وإعتقاد بضرورة توسيع النبوغ الألمانى لميدان عمله، وعملت هذه الأمال على توجيه السياسة الخارجية للأمبراطورية .

وكان للمستشار أكبر سلطات قانونيــة وفعلية لتسيير هذه السياسة: فلم يكن مسـئولا أمام الرايشتـاج ولم يكن يخشى من شدة النقـد وكان الامبراطور غليون الأول ينتهي دائما بالتراجع أمام رغبته وكانت مشغولية المستشار الكبري تتمـثل في اتمام العمل الوحدوى ودفعه ذلك إلى العمل على تحطيم المجموعات السياسيـة التى كان فى وسعها أن تجد تجاوبا مع الخارج. وأخيـرا فإن بسمارك كان يلاحظ بانتبـاه اتجاهات فردريك ولى العهد الـذى اشتهر بالتحـرر، والذى كانت له ميول الجليـزية مع زواجه بأبنة الملكة فيكتوريا، ولكنها كانت مخاوف فى غير محلها، مادام حكم فردريك لن يستمر إلا ثلاثة أشهر .

٢- نتائج انتصارات ألمانيــا :

كان بسمــارك فى سنة ١٨٧١ ، قد بلغ من العمر ستة وخـمسون سنة وكان قـد حصل بتلك السـلسلة المتواصلة من العـمليات الناجـحة ١٨٦٢ حتى سنة ١٨٧٠ على سلطة لامثيل لها وإعترف له رجال الدول الأوربيين بتفوق غير منازع وبذكـاء حاد فى المشكلات الدولية، وبسيطرة تسود على جو المفـاوضات وإذا كان يخشونه أو يكرهونه أو يعجبون به ، فقد كان الجميع يتساءلون فى كل فرصة عما يفكر فيه .

وكان متــأكدا من أن فرنسا كـانت تأمل فى حرب انتقامـية وكان يرى من المنطق أنهـا لاتقدر علي الاستــسلام لفقـد الالزاس واللورين، وأنها ستـحاول فى اقرب فرصـة تحرير هاتين المقاطعتين ولذلك فإنه كان مصمما على أن يأخذ بعنصر المبادأة فى حالة رؤيته أي مظاهر تثير القلق وذكر أنه لن ينتظر أن تصبح فرنسا مستعدة ، لكى يحاربها .

ولكن فـرنسا لم تكن قـادرة على محاولة هذا الانتـقام مـادامت بمفردهــا وذكر أن ألمانيـا فى حاجة لكـى تتركها فرنسا فى هدوء ، وإن

المانيا فـى حاجة لمنع فـرنسا من أن تجـد حلفاء ، وأن فرنســا لن تكون خطيـرة بالنسبـة لألمانيـا مادامت بدون حلـفاء . ولذلك فـقد كـان من الضروري عزل الخصم .

ولكن الانتـصـار الألمانى كان قـد أثار الغـيـرة والقلق بين الدول العظمى التى كـانت قـد بقيـت محـايدة فى سنة ١٨٧٠ . ولذلك فـإن بسمارك كان يخشى من كابوس التكتلات . ولكى يمنع مثل هذا الخطر، ويمنع فرنســا من أن تجد لهـا حلفاء، كان على الدبلـوماسيـة الألمانية أن تعمل لكى تهدأ من روع النمسا والمجـر وروسيا، وأن تعمل كذلك على تجنب أمكانية وقـوع اصطدام نمسوى روسى في البلقـان، إذ أنه كان فى وسع مـثل هذا الاصطدام أن يعطى لفـرنسا الفـرصـة التي تبحث عنهـا ولذلك فـــإنه رأى أن الحل الأمـثـل سـيكون هـو إقـامـة وفـــاق بين الامبراطوريات الكبـري الثلاث والعمل بطريقة لاتجعل النمـسا والمجر أو روسيـا تحاول النظر صـوب فرنسا، وأن يوجـد تحت نفس المظلة هذين الجاريين المتنافسين ، وبطريقة تسمح بمراقبـة اعمالهما وفرملتها. وتمكن المستشار الألمانى من أن يحقق هذه الفكرة الاساسية لسياسته سنة ١٨٧٣ بالتوقـيع على اتفاقيين الأول الماني روسى ، والثـانى نمسوى روسى مع انضـمـام المانيـا اليه . وكـان هـذا هو الشكـــل الأول لوفـاق الأباطرة الثلاث .

وكان التفكير الأول فى هذا « النظام » هو قـاري فى أساسه وكان بسمارك لايرى فى المســائل الخارجة عن نطاق أوربا إلا مدخلا لسيـاسته الأوربية، فلم تكن للخصومات الاستعمارية قيمة فى نظره إلا من حيث كونها تعطيه فرصا لتدعيم نظامه القارى .

وبالاختصـــار فإن بسمارك ، رغم كونه لايتردد ابدا فى اســتخدام

النهديد لتخويف فرنسا، ورغم كونه لم يترك امكانية نشوب حرب وقائية لم يكن يأمل بعد سنة ١٨٧١ فى أن يلتجأ إلي الحـرب وكان يعتقد أن المانيا لن تكسب شيئا من صدام جديد، وكان يرى أن حربا فرنسية ألمانية جديدة تهـدد بعدم الاقتـصار على هذين العدويـين ، وأنه سيكون على المانيا أن تغامر بالمكاسب التى حصلت عليـها فى مواجهة تكتل أوربى .
ورأي أن السلم ضـرورى لألمانيا، ويسـمح لها بتكريس رؤوس الأموال اللازمة للأزدهار الصناعى ، وكان يعتـمد على هذه الاقتصادية لكى يدعم الوحدة الألمانيـة . ولذلك فإن سيـاسته كـانت محافظة بالنسـبة للوضع القائم لا عن مبدأ ، ولكن خوفا على المصالح الألمانية .

٣- العلاقات الفرنسية الالمانية :

كانت العلاقات الفرنسية الألمانية خاضعة ، منذ سنة ١٨٩١ وحتى سنة ١٨٩٣ لمسألـة الألزاس . وكانت الخطوة الأولى فى هذه العـلاقات خاضعـة للأهداف الرئيسية لسيـاسة بسمارك ، أي الحصـول على التنفيذ الكامل لمعـاهدة فرانكفـورت ، ودفع غرامـة الحرب قبل ٢ مـارس سنة ١٨٧٤ وتعطيل إعـادة بناء القوى الاقتـصادية والعـسكرية لفرنسـا بهذه الطريقة .

وفى مسألة غرامة الحرب كـان المستشار الألمانى يميل فى أول الأمر إلى الاعتقـاد بأن فرنسا ستحـاول التهرب من الأقساط الأخـيرة فأعلن تصميمه على إبقاء احتلال الأراضى التى احتفظ بها كضمان حتى أنهاء الدين الفرنسى تماما. ولكن هدفه الأساسى كـان يتمثل فى حصوله على الغـرامة، حـتى لايصطدم باعـتـراضات الـدول العظمى التى رأت فى الاخلاء المقبل للأراضى الفـرنسية ضمانا للهدوء . ولقـد عملت فرنسا على ارضاء رغبات بسمارك حتى تتمكن من إعادة بناء الدفاع الوطنى ،

وأظهرت استعدادها للوفاء بالتزاماتها وتنفيذها بأسرع مما نصت عليه معاهدة الصلح . فتحررت الأراضى الفرنسية ستة أشهر قبل المدة التى نصت عليها معاهدة فرانكفورت .

وهنأ بسمارك نفسه بذلك . وكان يرغب فى رؤية الرئيس تيير رئيس الجمهورية باقيا فى السلطة مادام إتجاهه مطابقا لما ترغبه السياسة الألمانية، وكان يخشى من وصول البوتابرتيين إلى الحكم. وخاب أمله حين سقط تيير فى سنة ١٨٧٣ . وكان لايثق فى الحكومة الجديدة، بسبب إتجاهات مكماهون الملكية والكاثوليكية . وكان يعتقد أن نجاح أعادة الملكيين سيسمح لفرنسا بأن تجد حلفاء بسهولة أكثر .

وكان جو الحذر والشك هو الذى تسبب فى تلك الأزمة الصغيرة بين ألمانيا وفرنسا بسبب إعادة تنظيم الجيش الفرنسى . وكانت فرنسا قد قررت قانون سنة ١٨٧٢ لإعادة تنظيم الجيش ، ومد فترة التجنيد إلى خمس سنوات ، دون أن تعترض ألمانيا على ذلك . وفى سنة ١٨٧٥ صوت المجلس الوطنى على قانون القيادات ، الذى زاد عدد الكتاب الموجودة بمقدار الربع، دون أن يزيد عدد المجندين ، وكان هذا القانون يهدف مواجهة مشكلة الترقيات بزيادة عدد القيادات ومع ذلك فقد رأي بسمارك فيه وسيلة تهدف تسهيل التعبئة ، وبالتالى دلالة على إعداد فرنسا للحرب فتحدثت الصحافة الألمانية عن قرب وقوع الحرب ، وتحدثت بعض الأوساط الألمانية عن أن من مصلحة ألمانيا أن تقوم بحرب وقائية . ولم يكن بسمارك فى حقيقة الأمر يفكر فى مثل هذه الحرب الوقائية ، ولكنه كان يرغب في تخويف فرنسا، حتى يدفعها إلى وقف إعادة التسلح . وإن كان قد فشل فى ذلك .

ولقد عمل بسمارك على تشجيع الحكومة الفرنسية فى ميدان

المشروعات الاستعمارية الى تحول أنظار فرنسا عن الألزاس واللورين ، وترضى كرامة الفرنسيين فى ميدان عمل لم يكن لألمانيا فيه مصالح مباشرة. ولاشك فى أنه رأي إمكانية إصطدام فرنسا فى هذا الميدان الاستعمارى بمصالح بريطانيا العظمى ، أو بمصالح إيطاليا التى يمكنها، الواحدة والأخرى أن تشعر بحاجة إلي التقرب إلى المانيا. وكان هذا المظهر الجديد يعمل على تدعيم تفوق الرايخ علي القارة وتأكد هذا الموقف فى سنة ١٨٧٨ وفى سنة ١٨٨١ مع المسألة التونسية ، وفي سنة ١٨٨٤ بشأن مسألة الكونغو والحرب الفرنسية الصينية . ودفع المستشار الألمانى الحكومة الفرنسية كذلك إلى أتخاذ موقف صارم للغاية تجاه بريطانيا العظمى ، فى المسألة المصرية ، ولفترة عدة أشهر من أغسطس إلى ديسمبر سنة ١٨٨٤ . وكان يهدف تحويل أنظار فرنسا عن الراين ، ووعد بمساعدتهم فى الحصول على الترضيات التى يمكنهم أن يأملوا فيها فى كل النقط الأخري .

وبعد سنة ١٨٨٥ ، والتوقف فى ميدان التوسع الاستعمارى، ظهرت المشغوليات القارية فى المكان الأول بالنسبة لفرنسا وساعد وجود الجنرال بولانجيه فى وزارة الحرب على عودة ظهور فكرة الانتقام فى الجيش وعند الرأى العام ،وتحت الجريدة شبه الرسمية لوزارة الحربية إلي ضرورة تقوية الجيش الفرنسى الى «ستهرب دم الأمراء الألمان من بعيد» وكان من حق المانيا أن تراقب هذا الموقف بأنتباه. وأظهر بسمارك قلقه ، وحصل من الرايشتاج على زيادة قوات الجيش العامل ، وإستدعى الاحتياطين فى أقصى أشهر الشتاء لفترة تدريب قرب الحدود الفرنسية، وكان يفكر فى إمكانية وصول بولانجيه إلي منصب رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية وكتب يقول أنه فى هذه الحالة « ستكون الحرب ».

ووصل التوتر الفرنسى الألمانى إلى مداه فى ٢٠ أبريل سنة ١٨٨٧

مع إحدى حوادث الحدود ، ومع ذلك فإن هذا التوتر قد هدأ في الشهر التالى ، حين أبعد بولانجيه عن وزارة الحربية وأعلن جريفى رئيس الجمهورية للسفير الألمانى أنه قد عمل شخصيا لكى يبعد عن الحكومة هذا « المنهج » الذى كان « نفوذه وقوته » أكثر من اللازم ، وأعلن ثقته فى مستقبل سلمى يتمشى مع رغبات الغالبية العظمى للشعب الفرنسى. إنه الانسحاب . وبعد بضعة أسابيع ذكر بسمارك أنه قد أصبح الآن « راضيا » عن العلاقات الفرنسية الألمانية .

٤- الدبلوماسية البسماركية :

وكانت العداوات بين الشعور الوطنى ، وبين التسلطيات الاستعمارية هى الخلفية التي ظهرت أمامها الصعوبات على مسرح السياسة في أوربا وكان بسمارك يعرف كيف يفيد من أختلاف المصالح لكى يحتفظ بالتفوق القاري الذى حصلت عليه ألمانيا، وعمل علي بناء نظام يسيطر على تفكير الحكومات والشعوب لتدعيم تفوق ألمانيا . على القارة، ولمنع إمكانية نشوب حرب بين روسيا والنمسا والمجر بشأن البلقان .

وأنشأ بسمارك أول شكل لنظامه في شهر مايو/ يونيو سنة ١٨٧٣ . وهو المسمى « وفاق الأباطرة الثلاث » وقام هذا التحالف على وثيقتين الأولى هى إتفاقية ألمانية روسية وقعت فى ستة مايو سنة ١٨٧٣ : « إذا هاجمت إحدي الدول الأوربية إحدي الامبراطوريتين، فإنها ستمد فى أقصر وقت ممكن بجيش من مائتى ألف رجل من القوات العاملة». وعقدت هذه الإتفاقية ، والتي لم تأخذ شكل المعاهدة ، وحملت مجرد توقيع الإمبراطورين ، بدون تحديد لمدتها، وكانت لها

خاصية التحالف الدفاعي . والوثيقة هى إتفاقية روسية نمساوية وقع عليها فى ستة يونيو سنة ١٨٧٢ . ولم تكن معاهدة تحالف ، ولكن مجرد وفاق شخصى بين الإمبراطور فرانسوا جوزيف والقيصر اسكندر، الذين تعهدا « بالتشاور » سواء فى حالة إختلاف وجهات النظر بين دولتيهما، أو في حالة إفتراض أن الصلح سيصبح مهددا بإعتداء دولة ثالثة. وانضم الإمبراطور الألمانى لهذا الإتفاق في شهر أكتوبر . وكان بسمارك يأمل عن طريق هذه الإتفاقيات فى التمكن من الإشراف على السياسة الروسية ، والسياسة النمسوية المجرية ، وكان يعتقد فى إمكانية الإحتفاظ بجارته « في نفس المربط » .

وعجز وفاق الأباطرة الثلاث الذى كان قد هزه « إستعداد» سنة ١٨٨٢، فى أن يعيش بعد الأزمة البلقانية فى سنة ١٨٧٧ - ١٨٧٨ . وفي نهاية سنة ١٨٧٨ تم إنهاء « النظام » الذى كان بسمارك قد أنشئه فى سنة ١٨٧٣. ولكن بسمارك سيعيد بناءه بسرعة وعلى أسس جديدة ولاشك أنه قد إضطر إلى الإختيار بين روسيا والنمسا والمجر فى سنة ١٨٧٩ ، وفضل النمسا والمجر ومع ذلك فقد نجح في سنة ١٨٨١فى إقامة روابط مع روسيا ، وضمن لنفسه فى سنة ١٨٨٢تطويق فرنسا عن طريق التحالف مع إيطاليا وكان النمسوى الألمانى ، ومعاهدة الأباطرة الثلاث ، والتحالف الثلاثى ، هى أجزاء هذا النظام البسماركى الجديد .

ولاشك أن بسمارك قد أعطى لسياسته فى سنة ١٨٧٩ ، وبعمله عى التحالف مع النمسا والمجر، إتجاها معاديا لروسيا، ولكنه تمكن من عقد هذه المعاهدة فى سبعة أكتوبر والتى نصت على أنه : فى حالة وقوع هجوم على إحدى الدولتين من جانب روسيا فإن الدولتين ستضعان بالاشتراك كل قواتهما ضدها، وفى حالة هجوم يأتى من دولة أخرى

فإنهما تعدان بعـضهما فقط بإتخـاذ موقف حـياد مشرب بالود. وكانت هذه المعاهدة تمنع النمسا والمجر من التحـالف مع فرنسا . كما أن روسيا ستـشعر بعـزلتها حين تثق من وجـود مثل هذا التـحالف ، وتطلب من نفســها إعـادة اقامة نظام الأباطرة الـثلاث القديم، وستـوافق ألمانيا على ذلك . وهكذا يكون بسمـارك قد أبقى على عزلة فرنسا، ودعم مـوقفه بتحالف مع النمسا، وأجبر روسيا على أن تطلب بنفسها البقاء مع دولتى الوسط ، وخاصة إذا ما شـعرت بتهديد بريطانيا لها، ســواء مخططاتها فى البلقان ، أو توسعها فى وسط آسيا .

وفى ١٨ يونيـو سنة ١٨٨١ عـقـدت المعـاهدة الجـديدة للأباطرة الثلاث، ولم تكن تحـالفا، بل كانت مـجرد وفاق . فـالدول الثلاث ، ألمانيا والنـمسا والمجـر وروسيا لم تعـد بعضـها بأي تأييد مـسلح ولكن بمجرد حياد مـشرب بالود، فى حالة إذا ماوجد أحد الأعضـاء المتعاقدين نفســه فى حالة حرب مع دولة رابعة وهكذا تعـهدت روسيا بالبـقاء على الحياد فى حـالة نشوب حرب فرنسـية ألمانية، حتى إذا كـانت ألمانيا هى التى بدأت بالهـجوم . وبنفس الطريقـة ستـبقى ألمانيـا والنمســا والمجر محـايدتان فى حالة نشوب حـرب روسية إنجـليزية، حتى إذا مـا كانت روسيـا هى التى تسببت فى هذه الحـرب. ولكنه كان من اللازم ،ولكى يستمر هذا الوفق ، تجنب إثارة المشـكلات البلقانية ، ولذلك فإن الدول العظمى الثلاث تعـهدت بعمل حسـاب لمصالحها الخاصـة فى البلقان ، وبعدم قـبول أى تعديل للوضع الاقـليمى للإمبـراطورية العثمـانية إلا باتفاق مشترك .

وفى سنة ١٨٨٢ أضاف بسمارك إلى التحالف مع النمسا والمجر ، وإلي الوفاق مع روسيا ، تحالفا مع إيطاليا، وبعـد إعلان فرنسا حمايتها على تونس ، رغبت إيطاليا فى أن تتقرب إلى ألمانيا وتتحالف معها وكان

فى وسع إيطاليا. فى حالة نشوب حرب فرنسية ألمانية ، أن تجبر فرنسا على وضع جيش فى منطقة جبال الألب ، وتخفف بذلك العبء على المانيا. وكانت فى هذا المجال أكثر نفعا لألمانيا على حدودها الغربية ، من النمسا والمجر . كما أن إنضمام إيطاليا الى التحالف الثنائى الألمانى النمسوى كان يطمئن النمسا من حركة العداء الإيطالى ضد وجود القوات النمساوية شمال إيطاليا، ووضعت معاهدة ٢٠ مايو ١٨٨٢ بشروط التحالف الثلاثى ، وحددت حالة العلاقات بين إيطاليا ودولتى الوسط ، فى الوقت الذى احتفظت فيه العلاقات النمسوية الالمانية بمعاهدة سنة ١٨٧١ كأساس لها.

ولقد تعرض النظام البسماركى لتهديد جديد فى شتاء سنة ١٨٨٦ - ١٨٨٧ ونتج ذلك عن أزمة العلاقات الفرنسية الالمانية من ناحية ، وعن التوتر النمسوى الروسى بشأن المسألة البلغارية من جانب آخر . وخشى بسمارك من إمكانية حدوث تقارب روسى فرنسى يهدد بقلب الأوضاع فى أوربا ، وإجباره المانيا على أن تواجه حربا علي جبهتين ولذلك فإنه أدخل تعديلا على نظامه ، شكل إضافات جديدة له : إتفاقيتين ، الواحد ، بين المانيا وايطاليا بشأن مسائل البحر المتوسط ، والثانية بشأن المسائل البلقانية. وتغيرت طبيعة التحالف الثلاثى ، وأخذت المعاهدة ، التى كانت دفاعية فى الأصل ، نقطة هجومية . مادامت قد حددت الحالة التى ستهاجم إيطاليا فيها فرنسا فى أوربا .

وعمل بسمارك ، فى الوقت الذى تعهد فيه بتأييد إيطاليا بالسلاح فى مسألة طرابلس ، إلى تخفيف الأعباء الجديدة التى كان قد قبلها. وحث حكومة إيطاليا على عقد إتفاق بشأن البحر المتوسط ، ونصح إنجلترا بالتقرب من النمسا والمجر ومن ايطاليا. وكان يأمل بهذا الشكل

فى أن يربط بريطانيا العظمي ، بطريق غير مـباشر : فيكون لإيطاليا مع إنجلترا فعالية ضد فرنسا فى البحر المتوسط ، ويكون لبريطانيا مع النمسا والمجر وايطاليـا فاعلية فى البلقان والمضايق ضد روسـيا ، من جانب آخـر ، إذا ما تطلب الأمـر ، علاوة على إرتـباطه مع روسـيا بمعـاهدة الضمانات ووفاق الإباطرة الثلاث .

ومعاهدة الضـمانات هذه ، وقعها بسمـارك مع روسيا فى شكل معاهدة سرية ، ووعدت فيها كل من ألمانيا وروسيا الأخرى وعدا متبادلا بالإحتفاظ بالحياد فى حالة نشوب حرب مع دولة عظمى أخرى ، ولكن إذا كانت هذه الدولة العظمى هى النمسا والمجر أو فرنسا، فإن الحياد لن يكون إلا فى حالة حـرب عدوانية ، ونتيـجة لذلك فإن روسيـا ستكون غير مرتبطة بأي تعهد إذا ما هاجمت ألمانيا فرنسا. وتم التوقيع على هذه المعاهدة فى ١٨ يوليو سنة ١٨٨٧ .

وفي هذا الوقت بلغ النظام البسماركي أوجـه ولكن بسمارك وجد بإستـمرار ، ورغم كل خـبرته ، وكل مهـارته الفائقـة صعوبة أكـثر ، إزدادت كل يوم لإدارة هـذه الآلـة التـي أصبـحت عجـلاتها مـعقـدة للغاية. وكـان بالتالى من الصـعب على أي شخص غيـره أن يتمكن من تسييرها.

٥- نهاية أوربـا البسماركية :

كانت إستقالة المستشار نتـيجة لصدام مع الإمبراطور الشاب غليوم الثانى وفي هذا الصدام ، كانت للأسباب الشـخصية مكانا كبيرا، فكان من الطبيعـى أن تكون الوفاق غير مسـتقر بين وزير بلغ من العمـر ستة وسبعين عاما وملك عمره سبعة وعشرون سنة ، وزاد من ذلك أيضا أن الملك كان طمـوحا وشغوفا بأن يكون حـكمه عظيما، ووجد نـفسه فى

مواجـهة مسـتشار إعـتاد على السيـطرة . وقال بسمـارك فى أحد الأيام للامبراطور « إنني أشعر بأنى عقبة فى طريق جلالتكم » .

وكان هناك خلاف بشأن الـسياسة ، خاصة وأن المستـشار كان قد واصل صراعا مريرا ضد الاشتراكية والحـركة النقابية ، ولم يكن مستعدا للتـراجع فى هذا الميـدان ، وظهـر الإخـتـلاف كـذلـك فى السـياسـة الخارجية ، وأظهر غليوم الثانى إستعداده للاستماع للنقد الموجه لسياسة بسمارك الروسية ، سـواء كان من الأوساط العسكرية ، أو من مكاتب وزارة الشئون الخارجية .

وما أن طلب غليوم الثانى إلى بسمارك تقـديم إستقالته ، وحصل عليها ، حتى اغيـر الرجال الجدد من إتجاه السياسة الألمانيـة تجاه روسيا . وظهر تحول فى السـياسة الألمانية فى شكل ضرورة التـخلى عن معاهدة الضمانات ، مع روسيا ، وعلى أساس أن هذه المعاهدة كانت تتناقض ، إن لم يكن فى لفظهـا فعلى الاقل فى روحـها مع التـحالف النمـسوى الألمانى واعتقـدوا أن مثل هذا التحول لايمكنه أن يتـسبب فى أي ضرر . ولكن هذا القرار الألمانى تسبب فى توجيه جديد للسياسة الخارجية لقيصر روسيا وأدى إلى تكوين التحالف الفرنسى الروسى .

وفكرت الأوساط المسيرة للامبراطورية الروسية فى ضرورة التقرب من فرنسـا ثم شعـرت بضرورة الذهاب إلي أبعـد من ذلك حين علمت بوجـود إرتباطات بين بريطانيـا العظمى والتحـالف الثلاثى. وكـان أمل فرنـسا من ناحـية أخـرى هى أن تخرج من العـزلة. وتبلور الوضع فى ضرورة الحـصول على تعهد بتـعبئـة تلقائية ومـتبادلة للقوات الروسـية الفرنسية فى الحالة التى تعبأ فيـها دول التحالف الثلاثى قواتها . ولذلك فقـد كان من اللازم أن يكون العـقد الأسـاسى للتحـالف هو إتفاقـية

عسكرية . وتحـدد البرنامج منذ يوليو سنة ١٨٩١ ، ولكن الأمـر احتاج إلى مـا يقرب من عـامين ونصف عام لـكى يتمكن أحـرار فرنسـا من التغـلب على تمنع روسيـا وترددها. وشكلت هذه الإتفاقـية العـسكرية معاهدة تحـالف فعلية، وإن كان بعـض الوقت قد مر حتى ٢٧ ديسـمبر سنة ١٨٩٣ لكي تبلغ حكومـة روسيا سفـير فرنسا رسـميا أن الإتفاقـية الروسية الفرنسية « يمكن اعتبارها قائمة بشكل نهائى». واجابت الحكومة الفرنسية فى ٤ يناير سنة ١٨٩٤ بتصريح مماثل . وأخيرا أصبح التحالف قائما، وخـرجت فرنسا من العـزلة التى كانت السياسـة البسماركـية قد وضعتهـا فيـها. وكانت هـذه نقـطة تحول خطيـرة بالنسـبة لتوازن القوى فى أوربـا وأصـــبح من الممـكن أن تواجـــه المانيـا خطر حـــرب عـلى جبهتـــين ،وتدهورت العلاقات الألمانية الروسية بســرعة . وهكذا إنهار كل ما بناه بســمارك وفى أهم نقـاطه ، ومع أهم الأجزاء الأساسـية فى هذا النظام الضخم والمعقد. ولذلك فإن نهاية أوربا البسماركية تمثل عهدا جـديدا، وتوازنا جديدا بين القـوى على القـارة الأوربية ، ويمكنهـا أن تعطى مؤثراتها على السياسة الدولية فى أوربا وفى بقية العالم .

الباب السابع
صوب الحرب العالمية الأولى

الفصل السابع والعشرون

إزدهار التسلطيات (١٨٩٣ - ١٩٠١)

ظهر مجهود توسع الدول العظمى على حساب الدول الضعيفة أو « المتخلفة بسرعة متزايدة فيما بين عامى ١٨٩٣ و ١٩٠١ ، وبدأ فى أثارة تغيرات هامة فى أشكال الحياة الإقتصادية والإجتماعية فى الشرق الأقصى وفى إفريقية وفى أمريكا اللاتينية ، أصبح كذلك مركز إهتمام فى العلاقات السياسية بين الدول العظمى. وبدت الخصومات الأوربية ، وحتى المنافسات البلقانية ، التى كانت قد تسببت منذ بضعة سنوات في خطر حرب عامة ، على أنها قد سكنت .

وفى هذا المجهود للتوسع ، وحيث إنتسبت المحاولات غالبا لرجال الأعمال وإن كانت قد إعتمدت غالبا علي الحكومات، ماهى المناطق الجغرافية التى إتجهت إليها أنظار الدول العظمى الأوربية في ذلك الوقت ؟

عملت فرنسا على أن تنمى بطريقة منهجية فى إفريقية الغربية والوسطى خطة عمل لعبت فيها إعتبارات الكرامة دورا أكثر أهمية من المصالح الاقتصادية : فمنذ سنة ١٨٩٣ فكرت الأوساط الإستعمارية فى خطة توغل عن طريق الأوبانجى صوب أعالى النيل . وبحثت روسيا فى منشوريا ، وحتى في كوريا، عن وسيلة لإقامة قاعدة بحرية كبيرة « فى المياه الحرة » تسمح لها بممارسة ضغط على الحكومة الصينية ؛ وأهتمت كذلك بإستغلال موارد المناجم المنشورية والكورية ووجهت إيطاليا رغباتها صوب إثيوبيا. وفى هذا القرار، لم يكن للدوافع الإقتصادية إلا نصيبا ضعيفا، وكذلك الدوافع الديموغرافية، أي فتح أراض جديدة للهجرة الإيطالية، فإنها لم تكن إلا عوامل ثانوية. وكان هدف هذا

المجهود بنوع خاص هو إعطاء ترضية للشعور الوطنى ، بعد خيبات الأمل التى كان قد لقيها فيما بين عامى ١٨٨٠ و ١٨٨٣ فى مسائل البحر المتوسط ، ولكنه انتهى فى مارس سنة ١٨٩٦ بكارثة عدوة . وكانت ألمانيا تهتم بنوع خاص بآسيا الصغرى رغم أنها قد أخذت دورها مع غيرها بالنسبة للصين . أما بريطانيا العظمى والتى كانت لها مصالح إقتصادية واستراتيجية فى جميع أنحاء العالم ، فإنها قد اشتبكت فى كل مكان مرة واحدة سواء للدفاع عن مركز كانت قد حصلت عليه من قبل ، أو لكى تجد ميادين عمل جديدة . وفى الصين عملت للدفاع عن تفوقها الإقتصادى الذي هدده المنافسون وبعملها فى منطقة أعالى النيل كانت ترغب فى أن تضمن أن أي من بين الدول الأخرى لن تتمكن من تعديل نظام مياه هذا النهر، وتهدم بذلك حياة مصر الزراعية . وفى جنوب إفريقية وتحت دفعات سيسل رودس كانت بريطانيا مهاجمه.وعلى العكس من ذلك فإنها تركت مواقع أقدامها فى أمريكا الوسطى أمام مخططات التسلطية الجديدة للولايات المتحدة .

ومن المحال فى الحالة الحاضرة للأبحاث التاريخية أن نقيس بدقة فى معظم هذه الحالات – وربما باستثناءحالة جنوب إفريقية – التغيرات التي وقعت للمجتمعات الإنسانية فى المناطق التى عملت فيها هذه المجهودات التوسعية ، وإن كان من السهل تتبع مجرى المنافسات بين التسلطيات .

ففى إفريقيا لم تتوقف المنازعات ، وأعطى نشاط بعثات التوغل التى قام بها الإستعماريون الفرنسيون ، والإنجليز، والألمان ، فى حوض النيجر وعلى مشارف بحيرة تشاد، في كثير من الحالات ، وخاصة فى ربيع سنة ١٨٩٨، فرصا لأحداث خطيرة ، وإن كانت لم تثر عواطف

فى خارج الأوساط الإستعمـارية، ولكن هذه الخلافات كانت خطيرة ، فى منطقتين هما جنوب إفريقية وسودان وادي النيل .

ففى جنوب إفريقيـة ، وحيث امتلكت بريطانيا العظمى مسـتعمرة الرأس وناتال، وامتلكت ألمانيـا منذ سنة ١٨٨٤ مستعـمرة جنوب غرب إفريقية ، وكان للبـرتغال مستعمراتها القـديمة فى أنجولا وفى موزمبيق، اتجهت مـخططات التوسع البريطانى صـوب مناجم الذهب والألماس فى الترانسـفال وأورانج، وهددت المصالح الألمانية : المصـالح المالية، إذ أن رؤوس الأموال الألمانية كـونت ٢٠٪ من مجموع الإستثـمارات الموجودة فى مشروعات مناجم الترانسفال، ومصالح النفوذ الألمانى فى العالم، إذ أن مصير جنوب غرب أفريقية سيـصبح قليل القيمة في حالة تحقيق خطة سيـسل رودس ، وأعلن وزير الدولة للشئون الخـارجية فى أكـتوبر سنة ١٨٩٥ ، « أننا لن نسـمح بأن تصـبح التـرانسفـال فـريسـة لمشروعـات رودس». ووضحت المقاومة الألمانـية في شتاء ١٨٩٥ - ١٨٩٦ وقت الغارة التى قام بها جـيمسون Jameson أحد أعـوان رودس فى أراضى الترانسـفـال ووضـع غليـوم الثانى نفســه بصفته حـاميا لإستـقلال دولة البرير . وكانت مجرد لفتة ،مادامت الغارة قد فشلت قبل ذلك، ولكن هذه اللفتـة تسببت فى إثارة شديدة للرأى العـام الإنجليزى . ومع ذلك فإن السياسة الألمانية قد تخلت بعد ذلك بقليل عن هذه المقاومة، وبحثت عن الفـرصة للإتـفاق مع منافسـتهـا. وتم هذا الإتفـاق على حسـاب البـرتغال: فـالإتفاق السـرى الذى عـقد فى ٣٠ أغـسطس سنة ١٨٩٨ اشـتـمل. وإن كـان بدون تحـديد وقت مـعين ، على خطة لتـقـسـيم المستعمرات البرتغالية التى ستعطى لألمانيا القسم الأكبر من أنجولا والجزء الشمالى من مـوزمبيق ، كذلك حينمـا قررت الوزارة الإنجليزية فى سنة ١٨٩٩ أن تحطم بالقوة مـقاومـة البوير وتشتـرك في جنوب افريقـية فى

حرب استمرت حتى سنة ١٩٠٢ لم تحاول الحكومة الألمانية أن تعمل على وقف السياسة الإنجليزية .

وبالإختصار فإن ألمانيا قد تخلت عن الترانسفال، ولكنها لم تحصل على بديل لها، إذ أن اتفاقية ، أغسطس سنة ١٨٩٨ ظلت بدون تنفيذ . وإذا كانت إنجلترا قد نجحت فى اقامة سيطرتها على جنوب إفريقية ، وفى التخلص من العقبة الالمانية، فإن ذلك كان نجاحا ثابتا .

وفى أعالى النيل كانت السياسة الإنجليزية قد حصلت على موافقة المنافسين المتوقعين الثلاثة: إيطاليا باتفاقية ١٨٩١، وألمانيا فى يوليو سنة ١٨٩٠ ، ودولة الكونغو الحرة فى مايو سنة ١٨٩٤. ولكن محاولتها بقت بدون جدوى للحصول على موافقة فرنسا، التى كانت الأوساط الرسمية فيها تأمل فى أن تجبر بريطانيا العظمى ، بسبقها الى سودان وادى النيل عن فتح مفاوضات تتعلق بمصير مصر. ومنذ يونيو سنة ١٨٩٤ أعطت الحكومة الانجليزية تحذيرا سرا لفرنسا: ذلك أن إرسال بعثة فرنسية صوب أعالى النيل ستتسبب فى « الصدام الأشد خطرا » بين الدولتين ، وجددت هذا التحذير ببلاغ رسمى فى مارس سنة ١٨٩٦ . ومعنى ذلك أن الحكومة الفرنسية كانت تعلم تماما بالخطر الذى يواجهها وفى نفس الوقت الذى دفعت فيه بريطانيا العظمى حملة الجنرال كنشنر Ktchener لإعادة غزو أعالى النيل ، أرسلت بعثة مارشان Marchand صوب فاشودة . ولم تقع « المقابلة » المتوقعة الى بعد عامين ، فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٩٨، ودون أن تذهب الحكومة الإنجليزية الى حد ارسال انذار طالبت بإخلاء فاشو دة، وتراجعت الحكومة الفرنسية ، اذ أن الحالة المعنوية للبلاد والتى كانت مسألة دريفوس قد مزقتها، وكذلك القوات البحرية ، لم تكن تسمح لها بالتفكير فى حرب .

وأخذت مسألة الشرق الأقصى مظهرا جديدا فيما بين عامى ١٨٩٤ و ١٩٠١ وكان مركز الإهتمام يتمثل فى الأزمة الصينية ، والتى كانت أسبابها العميقة هى دائما موقف حكومة المانشو الإمبراطورية من التوغل « الغربى » ورغم أنها كانت قد أجبرت على فتح البلاد فى سنة ١٨٤٢ ، وبدرجة أوسع فى سنة ١٨٦٠ أمام النفوذ الأجنبى ، فإن هذه الحكومة لم تحاول أن تنبع مثل اليابان وتبدأ فى دراسة وسائل الأوربيين أو الأمريكيين . وظل التنظيم الإدارى والمالى ضعيفا، وكانت الحياة الاقتصادية راكدة ، إذ أن الوسائل التقنية الأوربية فى الانتاج والنقل قد رفضها مجموع الموظفين إلا فى حالات نادرة ، وكانت القوات العسكرية غير كافية ، نتيجة لنقص الروح العسكرية عند جمهور الشعب ، ولنقص المعدات الحديثة . وكانت أسرة المانشو لاتزال باقية تحت تأثير الذكريات التى تركتها ثورة تايبنج ، ولم يكن لها إهتمام آخر سوى الاحتفاظ بالنظام والكشف عن معارضة الجمعيات السرية الصينية . وشجع هذا الضعف أطماع الدول الصناعية الكبرى ، التى كانت تشعر بسحر السوق الصينى ، وأثار كذلك أطماع اليابان التى كانت حكومتها قد فكرت فى أن تعمل فى سنة ١٨٧٣ ، ولكنها رأت من الحكمة تأجيل تحقيق رغباتها حتى الانتهاء من إعادة البناء الداخلى للدولة اليابانية .

وكانت اليابان هى التى قامت بالمبادأة . وانتهزت فى يوليو سنة ١٨٩٤ فرصة إضطرابات كوريا لكى تقوم بإنزال قواتها فى هذه المملكة الخاضعة للإمبراطورية الصينية. وأظهرت الحرب الصينية اليابانية بشكل واضح ، ورغم أن سكان الصين كانوا يزيدون ما يقرب من ثمانية أضعاف عن سكان اليابان، تفوق جيش وبحرية وأركان الحرب اليابانية ، وفى مارس سنة ١٨٩٥ قام الجيش البابانى بعد أن كان قد احتل كوريا،

وكذلك منشوريا الجنوبية ونجح فى النزول فى إقليم شانتونج والنزول فى فورموزا بالاستعداد لهجوم كبير يقوم به على بكين . وأجبر هذا التهديد الحكومة الصينية التى كانت تأمل بدون جدوى فى الحصول على وساطة الدول العظمى على أن تقرر التوقيع على معاهدة سيموفمرسيكى ، وتخلت عن سيادتها الاسمية على كوريا، وتنازلت عن فورموزا وجزر باسكادوريس وعلى شبه جزيرة لياوتونج فى منشوريا الجنوبية وكان الانتصار اليابانى كاملا إلى أقصى درجة ، إذ أن اليابان بوضع أقدامها فى شبه جزيرة لياوتنج وضعت نفسها فى مواجهة المشروعات الروسية. وفرضت حكومة القيصر التى أيدتها فرنسا وألمانيا، أمر إعادة النظر فى المعاهدة: فبقيت شبه الجزيرة مفتوحة للتوسع الروسى .

وبعد الضربة التى أوقفت اليابان عملت الدول العظمى الأوربية على الافادة من ضعف الإمبراطورية الصينية لكى يحصلوا من بلاط بكين على مزايا جديدة ، ولكى يسبقوا التوسع اليابانى ، وطالبوا بعقود إمتياز خاصة بالسكك الحديدية وعقود إمتياز « لأقاليم تستأجر » . وفى عامين رسمت بهذه الطريقة مناطق نفوذ اقتصادى فى صالح الدول الأوربية : روسيا فى منشوريا مع « الإقليم المستأجر » فى بورت آرثر ، وألمانيا فى شانتونج مع خليج كياوتشو ، وفرنسا فى ثلاث مقاطعات جنوبية للامبراطورية مع ميناء كوانج تشووان أما بريطانيا العظمى ، فنتيجة لعجزها عن معارضة هذه السياسة ، فإنها قد انضمت اليها: فحصلت على عقود إمتياز خاصة بالسكك الحديدية فى وادى يانج تسى الأسفل ، أى فى المنطقة التى كانت لها فيها مصالح تجارية رئيسية ، ومنحت نفسها ميناء وى هاى وى على الساحل الجنوبى لخليج بتسيلى بعقد إيجار . وكان هذا هو تقسيم الصين : وكان فى وسع تقسيمها إلى مناطق نفوذ اقتصادية أن يؤدى إلى تقسيم سياسى. ورفضت الولايات

المتحدة وحدها أن تشارك فى هذه السياسة ، وفى مذكرة ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٩ التى آثارت فيها مبدأ « الباب المفتوح » احتجت على إقامة الإمتيازات التجارية، ولكنها أخذت ضمانات بمناسبة إصطدامها مع إسبانيا وضمنت لنفسها ملكية الفلبين لكى تحصل على قاعدة بحرية قريبة من السواحل الصينية، وضمت جزر هاواى وكذلك جزيرة جوام ، لكى تحصل عى نقط إرتكاز على الطرق البحرية فى المحيط الهادى . وشعرت حكومة المانشو بالأخطار التى كانت تهددها ولكنها ظهرت غير قادرة على الحركة .

ومع ذلك ففى نهاية سنة ١٨٩٩ ظهرت حركة مقاومة نتيجة لمجهود الجمعيات السرية الصينية، والتى كانت أشهرها جمعية البوكسير ، وإتخذت لنفسها مركزا فى إقليم شانتونج . وإنتشرت الثورة المعادية للأجانب فى شمال الصين ، وقرر البلاط الإمبراطورى أن يتعاون مع البوكير. ولكن هذه المحاولة - الثالثة منذ سنة ١٨٤٠ والتى هدفت التخلص من السيطرة الأجنبية . فشلت مثل المحاولات السابقة . وفى أغسطس سنة ١٩٠٠ سيطرة حملة دولية فى مدة خمسة عشر يوما على الموقف؛ ورغم منافسات وحذر الدول العظمى من بعضها. ألم تكن لهم مصلحة مشتركة تتمثل فى الدفاع عن إمتيازاتهم ؟ ومع ذلك فربما كانت هذه المحاولة للمقاومة هى التى، رغم فشلها، قد أبعدت إمكانية تقسيم الصين : ويظهر أن الدول الأوربية قد فهمت أنه يوجد هناك روح وطنى صينى ، وفكرت فى أن القضاء على حركة البوكسير سيكون صعبا إذا لم تبق هذه الحركة محددة داخل نطاق الصين الشمالية. وعلى أي حال فإن الدبلوماسيين قد كفوا عن أن يثيروا حتي عن طريق الافتراض ، المشروعات التى تؤدى إلى « إنهيار» الصين .

وفى أمـريكا الوسطى احـتلت المسـألة الكبرى لـلقناة الموصلة بين المحيطين للمكان الأول ، وكانت مرتبطة بمصـير الجزر التى كانت تغطى فى بحر الأنتيل المنـاطق القريبة من قناة المستقـبل وفى هذه المنطقة أوقف التـوسع الأمريكـى المصالح التى كـانت للـدول الأوروبيـة ، وحـاول أن يبعدها .

وتأكـدت هذه النيـة منذ يوليو سـنة ١٨٩٥ حينـمـا قـام الرئيس كليفاند Cleveland بمناسبة المعـارضـات الخـاصة بالحـدود بين فينـزويلا وغيـانا البريطانيـة بالضـغط على بريطانيا الـعظمى لكى تطرح المشكلة على لجـنة تحكـيم . وفى بـضع سنـوات حـقـقـت سيـاسـة الولايات المتحـدة نجاحين هامين فى المسـائل التى كانت مطروحـة منذ نصف قرن مضى .

وفى مـسألة كوبـا كانت دوافع هذه السـياسـة إقتـصادية ومالـية وإستراتيجيـة : فموارد المستعمرة الإسبانية - قصب السكر والطباق وخام الحديد - كمـا هائلا ، وكانت رؤوس الأموال الأمريكية مسـتغلة بدرجة واسعة فى المزارع وفى عمليات إستـغلال المناجم، وكان الموقع الجغرافى للجزيرة أساسـيا للسيطرة على بحر الأنتيل، وحـينما بدأ أهالى كوبا ، الذين كانوا قـد ثاروا فيما مضى بين عـامى ١٨٦٨ و ١٨٧٨ ضد الحكم الإسبانى ، ثورة جديدة كانت مطالبـهم فرصة لكى يلعبوا دورهم. ومع ذلك فإن أوسـاط رجال الأعـمال - وباسـتثناء هؤلاء الذين كـانت لهم مصالح مـباشرة فى كوبا- بقيت مـترددة لفترة طويلة ، إذ أنهـا خشيت الإضطربات التى يمكن لحرب أن تعـود بها على الحياة الاقـتصادية ولكن موجهـة من العواطف اكتسـحت هذه العقبة : وكـانت إحدى الحوادث كافية - مثل انفجار إحدى المدرعات الأميريكية فى ميناء هافانا - وحملة صحفية قوية فى مـثل هذه الحالة ، لإثارة الرأي العام. وفى ثلاثة أشهر

هزمت إسبانيا، ولم تتخل عن مجرد كوبا التى مرت تحت الحماية « المقنعة » للولايات المتحدة ، ولكن كذلك عن بورتوريكو وفى المحيط الهادى عن الفلبين وجزيرة جوام التى أصبحت من ممتلكات الاتحاد الأمريكى .

ودفع هذا النجاح الحكومة الأمريكية إلى أن تسرع برفع التحفظ الموضوع منذ سنة ١٨٥٠ على مسألة القناة الموصلة بين المحيطين . وبمعاهدة كلايتون - بولوار Cloyton Bulwer كانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى قد تعهدتا بالتبادل بعدم ممارسة « إشراف منفرد » على هذا الممر البحرى الكبير بعد إنشائه . ومع ذلك فقد أعلن الرئيس هاى Haves منذ سنة ١٨٨٠ أن هذا القتال، مادام سيربط الموانى الأمريكية الواقعة على المحيط الأطلسى والواقعة على المحيط الهادى، يجب أن يوضع « تحت إشراف الولايات المتحدة » .

ولكن الحكومة الإنجليزية لم ترد على ذلك. وأصبحت المسألة تتطلب حلا سريعا حينما وضعت الولايات المتحدة اقدامها فى جزر المحيط الهادى ، وكانت الظروف مواتية ، إذ أن بريطانيا العظمى كانت مشغولة بحرب جنوب أفريقية. وبعد عامين من المفاوضات حصلت الحكومة الأمريكية بمعاهدة هاى - بونسيفو Hay - Pauneefote (١٨ نوفمبر سنة ١٩٠١) على حقها فى إنشاء هذه القناة بمفردها، وعلى أن تقيم فيها الاستحكامات ، « قوة من البوليس العسكرى».

بعد أن أبعدت إسبانيا ، تمكنت الولايات المتحدة من أن تقوم بما يشبه إجبار بريطانيا العظمى على التنازل ، فسحب الأسطول البريطانى الذى كان يراقب « منطقة الكاريبى » منذ أكثر من نصف

قرن .

وأخيرا فإن الإمبراطورية العثمانية كانت تجتار أزمة جديدة إبتداء من سنة ١٨٩٤ : ومرة جديدة حاول الأهالى المسيحيون فى أرمينيا، وفى كريت ، وفى مقدونيا، أن يتخلصوا من السيطرة الإسلامية ، وطالبوا بحكم محلى إدارى . ومن إسباب هذه الحركات كانت هناك مطالب الشعور القومى التى أيدها الشعور القومى التى أيدها الشعور الدينى ، والرغبة فى ضمان حماية للحرية الفردية ضد تحكم الموظفين ، وكذلك الرغبة فى الحصول على إصلاح لنظام الضرائب ومع ذلك فإن الظروف كانت تختلف من إحدى هذه المجموعات إلى المجموعة الأخرى . فالأرمن الذين كانوا على الحدود الشمالية الشرقية للامبراطورية وكانوا يقاسون من هجمات الأكراد ويحاولون مجرد القيام بالدفاع عن أمتهم ، ولم يكن فى وسعهم أن يعتمدوا عى تأييد خارجى خلاف ما يقدمه المهاجرون الأرمن المقيمين فى إنجلترا أو في الولايات المتحدة وكان اليونانيون الذين يكونون غالبية سكان كريت ، يرغبون فى أن يضع الباب العالى إدارة الجزيرة فى أيدى حاكم مسيحى وفى أن تنفق إيرادات الضرائب على الجزيرة، وكان فى وسعهم أن يأملوا فى أن يحصلوا على تأييد الرأى العام وتأييد الحكومة فى بلاد اليونان. وحاول البلغار فى مقدونيا ، والذين قاطعوا الضرائب والمحاكم التركية ، أن يحصلوا على تأييد إمارة بلغاريا. ولكن مناهج المقاومة العثمانية كان متشابهة فى كل مكان ، وكانت تتمثل فى الهجمات والمذابح ، وفى أرمينيا التى كانت بعيدة عن أنظار الأوربيين أخذت عمليات الانتقام هذه شكل إبادة منظمة : وفى خمسة أشهر من شتاء ١٨٩٥- ١٨٩٦ يظهر أن عدد الضحايا بلغ ٣٧,٠٠٠ .

ولم يكن فى وسع هذه الأزمة العثمانية إلا أن تؤدى الى

مضاعفات سريعة فى العلاقات الدولية فأثارت المذابح شعورا بالاشمئزاز لدى الرأى العام الأوربى ، وإظهرت من جديد ضرورة فرض نظام إدارى على الحكومة العثمانية يسمح بضمان الأمن للشعوب المسيحية ، وكان فى وسع الحكومات الأوربية أن تفيد من هذه الحالة - لكى تضمن على حساب هؤلاء أو أولئك ، مزايا ، أو حتى لكى تتسبب فى إنهيار الامبراطورية العثمانية، وكانت المسألة الأرمينية تخضع لرقابة روسيا التى كانت مجاورة ، ولرقابة انجلترا التى كانت صناعة النسيج فيها تستخدم وكلاء من الأرمن ، أما مسألة كريت فإنها كانت تهم كل دول البحر المتوسط ، نظرا لموقع الجزيرة الإستراتيجى، وكان فى وسع ثوره مقدونيا أن تصبح أداة فى أيدى النمسا والمجر وفى أيدى روسيا ، واللذين كانا متنافسين ، للوصول الى أهداف سياسية ، وكانت هناك لحظتان دقيقتان بوجه خاص : شتاء ١٨٩٥ - ١٨٩٦ وقت مذابح أرمينيا الكبيرة ، وربيع ١٨٩٧ حين دخلت اليونان ، التى كانت ترغب فى ضم كريت ، فى حرب ضد تركيا ، وانهزمت فى خمسة عشر يوما .

وفى المسألة الأرمنية كان الجديد هو الشكل الحديث الذى أخذته المحاولة الإنجليزية . فظهر استعداد سالسبرى للتخلى عن سياسة « الاحتفاظ» بالإمبراطورية العثمانية التى كانت بريطانيا العظمى قد سارت عليها طوال القرن ، وفكر فى أن تركيا قد أصبحت « شديدة الفساد » بدرجة لاتسمح لها بالبقاء وواجه إمكانية التقسيم . ومع ذلك فإنه لم يصر على موقفه حينما رأى أن الحكومة الألمانية كانت لاتوافق على هذا الحل . عندئذ إقترح رئيس وزراء بريطانيا تدخلا بحريا يكون هدفه، عبر البوسفور والدردنيل ، هو الساحل الأرمينى المطل على البحر الأسود ، ولكن هذا الاقتراح إصطدام بمعارضة

حكومـة روسيـا التى كانت تتـهم الإنجليز بالرغـبة فى الاسـتيـلاء على القسطنطينية .

وفى مـسألة كـريت كانت بريطانيـا العظمى من أنصـار منح نظام الحكم المحلى ، فى الوقت الذى إتخذت فيه ألمانيا موقفا مخالفا ، وربما كان ذلك يهدف التسبب فى أزمة داخلية فى اليونان يمكنها أن تؤدى إلى تنازل الملك والى وصول ولى العهد قسطنطين إلى العرش، وكان متزوجا من أخت غـليوم الثانى . ولكن الحرب اليونانيـة التركية كانت تهدد بأن تمتـد إلى كل شـبه جـزيرة البلقـان، فى حالة إفـادة الدول المسيـحيـة الصغيرة ، وتأييدها لحركـة مقدونيا. ونظرت هذه الدول ، قبل أن تحدد موقفها وتدخل فى مغامرة، إلى الطريقة التى تتوجه بها السياسة الروسية والسـيـاسيـة النمـسـوية والمجـرية . وفى آخـر أبريل سنة ١٨٩٧ اتفق الإمبـراطوران بالنسبـة لمسألة المحـافظة على الوضع القائم فى الـبلقان. وكانت هذه حكمة نـادرة فكيف يمكننا شرحها ؟ كانـت روسيا تنظر فى هذه الفترة صـوب الشرق الأقصى وكانت عـلاوة على ذلك تخشى من عدم تمكنهـا من الاعتماد على التـأييد المسلح لفرنسا، فى حـالة نشوب أزمة بلقانية وكانت النمسا والمجر قـد أخذت من ألمانيا نصائحها بضرورة الحذر ، وكانت تخـشى كذلك من رؤية الحركة المقدونية، التى يـوجهها البلغار ، تنتهى فى حالة نجاحها بتكوين « بلغاريا الكبرى » أى إلى حل حاربتـه الملكية الثـنائية بشدة قـبل ذلك فى سنة ١٨٧٨ . وكـان تعارض المصالح بـهذا الشكل ، وعدم الثـقة بين الدول العظمى هـو الذى أنقذ الإمبراطورية العثمانية .

وتسـببت هـذه الخـلافات وهذه المنافسـات المسـتمـرة، والتى ظهـرت تلـقـائيـا فى كل منـاطق العـالم ، والتى أثرت فـى المصـالح الاقتـصادية للدول الـتسلطيـة، فى إصطدامات مـسلحة : مـثل الحرب

الصينيـة اليابـانية ، والحـرب الإسـبانية الأمـريكية، والحرب اليـونانية التركـية ، وحـرب جنوب إفريقـية ، ولكن هذه الاصطدامـات بقيت «محلية » .

وبالاخـتصـار ، وهذه الملاحظة جـديرة بالوقـوف عندها ، فـإن الاصطدام بين المصالح الاقـتصادية للدول الكبـيرة لم تكن كافـية ، فى هذه الأماكن التى كانت هذه المصالح وحدهـا هى المسئولة، لكى تتسبب فى تهديد بحرب عامـة . وكانت الحكومات والرأى العام على علم بأن هذه الأهداف الاقتصادية « لم تكن تستحق الحرب » وعلى الأقل حرب «كبيـرة » ستتسـبب فى أخطار تزيد فى أبعادها عن مواضـيع المشاكل . وكانت أوساط رجـال الأعمال الأمريكيـة مثلا متحـفظة للغاية فى سنة ١٨٩٧ بالنسبة لإمكنيات صدام مع إسبـانيا، إذ أنها كانت تعتقد أن هذا الصراع يمكنه أن يكون طويلا ومريرا ، ولم يغيروا وجهه نظرهم إلا فى اليوم الذى بدأت فـيه الحرب، وعلمـوا أنها سـتكون قصيـرة والحكومة الإنجليـزية، رغم الأهمـيـة التى كـان يمثلها الـسوق الصـينى بالنـسبـة للمصدرين البـريطانيين ، والخوف الذى كانت تشعـر به بهذا الشأن من سيـاسة روسيـا فى منشوريا ، أبعدت فـى مارس سنة ١٨٩٨ كل فكرة خاصة بالتدخل المسلح لمنع إقامـة قاعدة بحرية روسية فى بورت أرثر . ومع ذلك ألم يكن للمشـغوليات الاقـتصادية بالنسـبة لواشنطون ولندن الدور الأكثر فعلية فى تـسيير السياسة الخارجيـة؟ وكانت الحالة الوحيدة التى كان تصادم الاتجاهـات التسلطية فيها يستـتبع خطر حرب بين الدول العظمى الأوربية فى خلال هذه الفـترة، هى مسألة فاشودة سبـتمبر سنة ١٨٩٨ . فمـا هو النصيـب الذى يجب علينا أن نعطيه فى هـذا الصدام للمشـغوليات الاقتـصادية ؟ كان هدف محـاولة الأوساط الاستعـمارية الفرنسيـة هو « إعادة فتح المسألة المصرية فـهى مسألة كرامة . وبطبـيعة

الحال لايمكننا تجاهل التفسير « الاقتصادى » بالنسبة لطبيعة بريطانيا العظمى ، إذ أن المسألة كانت تتعلق بإعادة غزو سودان وادى النيل » وبالدفاع عن أسس الازدهار الزراعى فى مصر نفسها. ومع ذلك فإن حيوية ردود الفعل التى ظهرت فى الرأي العام الإنجليزى كانت تفسر بحالة النفسية الجماعية ، وأكثر بمراحل من الرغبة فى حماية المصالح المادية .

الفصل الثامن والعشرون

الاصطدامات بين الاتجاهات التسلطية

١٩٠١ - ١٩٠٧

تميز مظهر العلاقات بين الدول العظمى فى السنوات التى تفصل ١٩٠١ عن ١٩٠٧ بخصائص جديدة : فمن ناحية تسببت مجهودات التوسع خارج أوربا فى حرب بين روسيا واليابان ، وتهديد بحرب بين فرنسا وألمانيا ، ومن ناحية ثانية تغير نظام الوفاقات والمحالفات بين الدول الأوربية بالإتفاق الفرنسى الإيطالى ١٩٠٢ ، والإتفاق الفرنسى الإنجليزى سنة ١٩٠٤، والإتفاق الإنجليزى الروسى سنة ١٩٠٧ .

ولقد بلغت مجهودات التوسع والمنافسات الناتجة عنها بين الدول الأوربية مناطق جديدة فى العالم، وفى نفس الوقت الذى مدت فيه الولايات المتحدة واليابان أقاليمها أو مناطق نفوذها على حساب الأوربيين .

وتشابكت مصالح الدول العظمى الأوربية في فارس ، وفى آسيا الصغرى ، وفى إثيوبيا، وفى المغرب بشكل خاص .

وكانت كل من بريطانيا العظمى وروسيا تراقب الأخرى وتعرقل عملها فى طهران، منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر، وأصبحت هذه العداوة خطيرة الآن: فاستغلت الحكومتان الضعف المالى للحكومة الفارسية لكى تحصل نظير فتح أرصدة لها على عقود إمتياز للمناجم أو للسكك الحديدية وراء هذه المعاملات الإقتصادية والمالية ظهرت المصالح الإستراتيجية إذ أن روسيا كانت تفكر فى إنشاء سكة حديدية يصل إلى الخليج الفارسى وهو مشروع خطير بالنسبة لأمن الهند ، وفى ١٩٠٦ زادت الأزمة الداخلية فى فارس - وكانت حركة ثورية ساعد عليها نفوذ

الأراء « الغربية » وموجهة ضد وسائل التعسف التى كانت هى وسائل الحكومة – من الصعوبات المالية ، ومنحت بالتالى فرصا جديدة للمحاولات المتنافسة للدولتين الأوربيتين . ولكن هذه المنافسة سويت بحل وسط فى أغسطس سنة ١٩٠٧ : هو تقسيم فارس إلى مناطق نفوذ اقتصادية ، روسية فى الشمال، وإنجليزية فى الجنوب الشرقى ، تفصلها منطقة « محايدة » .

وفى آسيا الصغرى، وحيث قامت المجموعات المالية الإنجليزية والألمانية والفرنسية بمحاولات منذ سنة ١٨٩٠ للحصول على عقود إمتياز للسكك الحديدية كسبت المصالح الألمانية الجولة : فالبنك الألمانى Deutsche Bank حصل نتيجة لتأييد حكومة برلين من الحكومة العثمانية فى سنة ١٩٠٣ على عقد إمتياز لشبكة سكك حديد والخطة كانت ستغطى الجزء الأكبر من الأناضول وما بين النهرين ، ولها خط رئيسى يصل البوسفور ببغداد ثم بالخليج الفارسى ، وفتح هذا العقد لنشاط الألمان إمكانيات واسعة من وجهة النظر الاقتصادية، وكذلك من وجهة النظر السياسية . وكان يعنى تهديدا للمصالح المالية الفرنسية – إذ أن الجزء الأكبر من سندات الدين العثمانى كانت فى أيدى الفرنسيين ، ولكن تهديدا أكبر لبريطانيا العظمى وروسيا : فأصبحت بريطانيا العظمى مهددة بفقد المركز المتفوق الذى حصلت عليه من وجهة النظر الاقتصادية منذ قرنين فيما بين النهرين ، وكانت تفكر بنوع خاص فى أن أمن الهند سيتأثر إذا ما بلغ الخط الحديدى الخليج الفارسى وقلقت روسيا من هذه التقوية التى ستفيد منها الامبراطورية العثمانية، والتى سيصبح فى وسعها ونتيجة للشبكة الحديدية ، أن تنقل بسهولة قواتها المسلحة إلى جميع أجزاء أراضيها. ومع ذلك فإن مسألة « طريق بغداد » لم تكن تمثل فى أية لحظة تهديدا خطيرا بصدام بين الدول العظمى. ولم تظهر المعوقات

إلا فى الميدان المالى : فأقفلت فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا أسواق بورصاتها ومصارفها فى وجه القروض التى حاولت الشركة الألمانية أن تمولها، ونجحت فى تأخير بناء السكة الحديدية خلال بعض الوقت ، ولكنها لم تتوصل إلى وقف المشروع .

وفى إفريقية الشرقية ، بقيت إثيوبيا التى احتفظت باستقلالها فى سنة ١٨٩٦ أمام المحاولة الايطالية ، خاضعة لضغط المصالح الأجنبية ، فحصلت فرنسا على عقد إمتياز بسكة حديدية من جيبوتى إلى أديس أبابا وحاولت أن تحصل على مركز مسيطر على الحياة الاقتصادية . وكانت بريطانيا العظمى تراقب وتعرقل هذا العمل ، وكانت ترغب على الاقل فى تجنب رؤية الجزء الغربى من هذه البلاد - منطقة بحيرة تانا والنيل الأزرق تقع تحت نفوذ دولة عظمى أخرى ، وكانت إيطاليا كذلك تراقبه ، وهى التى كانت ترغب ، ودون أن تقدر على أن تقوم بمجهود جديد للغزو ، فى أن تضمن بعض المكاسب . وفى سنة ١٩٠٦ توصلت الدول الثلاث إلى حل وسط : فاقتسمت فيما بينها مناطق نفوذ اقتصادية فى إثيوبيا .

وكانت مسألة المغرب هى الوحيدة التى مثلت تهديدا خطيرا للسلم العام. فما هو الموضوع ؟ كانت إمكانيات المكاسب الاقتصادية هامة ، لا لمجرد إمتلاك المغرب لموارد معدنية وخاصة في منطقة الريف ، ولكن كذلك لأن عملية « تجديد » البلاد كان فى وسعها أن تعطى فرصا لمشروعات بناء السكك الحديدية أو لاعداد الموانىء ولم يكن للمشغوليات الاستراتيجية - المرتبطة « بمراقبة » الطرق البحرية الكبرى - أهمية أقل ، مادام المغرب يمتلك واجهة على البحر المتوسط وواجهة على المحيط الاطلسى : فالمسألة مرتبطة بحرية المرور فى مضيق جبل طارق وبحرية الحركة على الطريق البحرى بين أوربا وراس الرجاء الصالح .

ويمكننا أن نضيف الى هذه المطالب مشغولية خاصة بفرنسا ، التى كانت ترغب فى ضمان أمن الجزائر بمد حكمها على كل المغرب ، وأن تمنع بوجه خاص المشروعات الممكنة لدولة عظمى أخرى فى هذه المنطقة .

وليس هناك ما يثير الدهشة فى أن فرنسا تأخذ الدافع فى مسألة التوغل فى المغرب . حقيقة أن جول فيرى قد رفض فى سنة ١٨٨٤ ادخال السياسة الفرنسية فى مسألة كان فى وسع أبعادها الدولية أن تكون خطيرة ، ولكن الحزب الإستعمارى رأى الآن ضرورة هذا العمل ، وأعلن رئيسه إيوجين إتيين ذلك بوضوح فى سنة ١٩٠٢ من منصة النواب ، وكان مناهج توغل النفوذ الفرنسى « كلاسيكية » مثل منح السلطان الذى كانت سلطته دائما غير معترف بها من بعض قبائل المغرب والموارد المالية التى كان يحتاج إليها لتنظيم إدارة إمبراطوريته ، ومعونة المدربين العسكريين لجيشه ، واصطدمت هذه السياسة بمقاومة بريطانيا العظمى التى لم يغيب عن فكرها مصالحها التجارية ، الحالية والمقبلة، فى السلطنة الشريفية ، والتى كانت مشغولة بشكل خاص بحماية الطرق البحرية ، وهددت كذلك مصالح إسبانيا التى كانت تمتلك منذ القرن السادس عشر مراكز رئيسية Presides على الساحل الشمالى للمغرب ، وتسببت فى إثارة ألمانيا التى ، بعد وصولها متأخرة عن عملية تقسيم العالم ، لم تكن ترغب فى أن يسوى بدونها مصير « البلاد الجديدة » والتى كانت لاتزال مستقلة. وحصل ديلسكاسيه بإتفاقيات ٤ أبريل سنة ١٩٠٤ على تنازل إنجلترا نظير موافقته على حرية عملها كاملة فى مصر، وتخلى فى أكتوبر سنة ١٩٠٤ لإسبانيا عن جزء متواضع من المغرب، ولكنه كان ينوى إبعاد المانيا، ومنذ بداية المفاوضات مع إنجلترا وإسبانيا، أظهر هذه النية بوضوح فليس للإمبراطورية الألمانية أية مصالح فى المغرب ، وبالتالى « ترغب الحكومة الفرنسية فى إبعادها » .

ودخلت السياسة الألمانية على المسرح فى مارس سنة ١٩٠٥ وفتحت زيارة غليوم الثانى لطنجة ، والتى فرض فيها نفسه حاميا

لاستقلال المغرب ، أزمة دولية كبرى استمرت خلال ما يزيد على العام ومع ذلك فقد كانت الملامح الرئيسية لهذه الأزمة الطويلة ، بسيطة ، ذلك أن « الحكومة الألمانية كانت قد فكرت فى أول الأمر فى المطالبة بجزء من المغرب ، ثم تخلت عن هذا الحل ، وزبعدت كذلك إمكانية رفع يدها فى نظير تعويض وكانت الخطة التى وضعتها تتمثل فى «تدويل» المسألة المغربية . وقال المستشار بيلوف : « إننى أعتبر إمكانية انتهاء مؤتمر دولى بوضع المغرب تحت سلطة فرنسا وداخل نفوذ مصالحها أمرا مرفوضا » ورغم وجهه النظر التى أعلنها رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية ، لم يكن لدى الحكومة الألمانية الرغبة المقررة للوصول حتى الحرب ، ولكن الدبلوماسية الألمانية استخدمت التهديد لإجبار الحكومة الفرنسية على قبول اجتماع المؤتمر الدولى : فمارست «مساومة تخويف» على الرأى العام الفرنسى ، فى نفس الوقت الذى استغلت فيه الخلافات بين روفييه رئيس الوزراء وبين وزير الشئون الخارجية. ونجحت هذه المساومة لا بالنسبة للرأى العام والبرلمانى فقط، ولكن كذلك لدى كبار موظفي وزارة الخارجية . وفى ٦ يونيو سنة ١٩٠٥ استقال ديلكاسيه تحت ضغط ألمانيا المباشر، واضطر روفييه إلى قبول فكرة المؤتمر.

ولكن هذا « التدويل » للمسألة المغربية كان بعيدا جدا عن أن يحتفظ للسياسة الألمانية بالنتائج التى حسبت أنها ستحصل عليها وحينما اجتمع المؤتمر الدولى فى الجزيرة الخضراء من يناير إلى أبريل سنة ١٩٠٦ أيد وجهة النظر الفرنسية كل من بريطانيا العظمى وروسيا وإيطاليا وحتى الولايات المتحدة وترك ميثاق الجيرة لفرنسا، فى نفس الوقت الذى أعلن فيه استقلال السلطة الشريفية، وسيلة ممارسة عمل سياسى متفوق لدى السلطان، مادام بتنظيم وقيادة الشرطة فى المواى المغربية قد عهد بها إلى فرنسا وإسبانيا، ولكن فى مثل هذه الظروف سيكون لإسبانيا بالضرورة

(كمـا لاحظ بيلوف بنفسـه) مركـز « التابع » ومع ذلك فـإن السيـاسة الألمانية قد احـتفظت لنفسهـا بحق « حجز» سيسـمح لها بأن تؤثر على السياسة الفرنسية ، بالنسبة للمساءل التي لن يتأخر ظهورها نتيجة لتطبيق الميثاق .

وهكذا، وفى الوقت الـذى سويت فيـه الخـلافـات بين إيطاليـا وفرنسـا، وبين بريطانيا العظمى وفرنسـا، وفى الوقت الذى فتحت فـيه تسـوية هذا الماضى فى العلاقـات بين هذه الدول، وفى أوربا نفـسهـا، إمكانيـات جديدة فى نفس هذا الوقت ، وعلى العكس مـن ذلك أكدت الإمبراطورية الألمانية بسيـاستها فى آسيا الصغرى وفى المغـرب رغبتها فى الحصول على مكان يناسب قوتها الإقتصـادية وقوة أسلحتها، فى عملية تقسيم العالم .

ولكن الدور المسيطر الذى كان لأوربا فى الحياة العامة للعالم وجه نفسه فى نفس الوقت مهددا بنمو تسـلطية الولايات المتحدة وبقوة اليابان الجديدة .

فـفى أمريكا الوسـطى استـمر توسع الـولايات المتحـدة فى ذلك الوقت بسرعـة كبيرة وأيـدت حكومة واشنطن انفصـال أهالى بنما على حساب كولومبيا ،وسرعان مـا عقدت مع جمهورية بنما الجديدة فى ١٨ نوفـمبـر سنة ١٩٠٣ المعـاهدة التى ضمنت لهـا التنازل عن شـريط من الأراضى عبر البرزخ ، لكى تقيم عليه القناة التى تربط بين المحيطين ، ولكى « تغـطى » المـناطـق القريبة من القنـاة، فإنـها حصـلت بوسـائل « دبلوماسيـة الدولار » على شبه حماية علـى جزء من جزيرة هاياتى ، هو جمـهورية الدومينيكان ، وقامت فى سنة ١٩٠٦ بتـدخل مسلح فى كوبا أدخل هذه الجزيرة الكبيرة فى « النظام السياسى » للولايات المتحدة

وهكذا أصبحت الطرق الموصلة بين المحيطات والمناطق المجاورة لها تحت سيطرة الاتحاد ولكن السياسة الأمريكية لم تكتف بذلك : فهذه هى الفترة التى أعلن فيها الرئيس تيودور روزفلت أن للولايات المتحدة وحدها الحق فى ممارسة « سلطة بوليس دولى » بالنسبة للدول الأمريكية ، وأخيرا ، وعن طريق مؤتمرات الدول الامريكية، التى كان برنامجها إقتصاديا وماليا، نشأ هيكل نظام هدف تمرين كل حكومات القارة على معالجة شئونها المشتركة تحت إشراف حكومة واشنطون .

وأمام هذا التقدم للتسلطية الأمريكية لم تقدم بريطانيا العظمى التى كانت قد تخلت منذ سنة ١٩٠١ عن مراكزها فى أمريكا الوسطى ، ولا فرنسا التى لم يعد منذ وقت طويل سياسة فعالة على القارة الامريكية ، أى رد فعل . وحاولت ألمانيا وحدها، التى كانت ترغب فى إظهار قوتها فى جميع أنحاء العالم ، أن تقوم بلفتة : فبمناسبة الحادث الذى وقع بين حكومة فنزويلا ودائنيها الأوربيين، قررت ، بالإتفاق مع بريطانيا العظمى ، محاصرة سواحل فنزويلا، ولكن فى الوقت الذى بقيت فيه إنجلترا حكيمة قامت إحدى السفن الحربية الألمانية بفتح نيرانها فى سنة ١٩٠٣ على بعض التحصينات. وسرعان ما أعطى الرئيس تيودور روزفلت ، الذى كان يعتقد أن ألمانيا ترغب فى وضع أقدامها على السواحل الجنوبية لبحر الأنتيل ، أوامره لقواته البحرية بالاستعداد لحماية فنزويلا ضد عملية نزول الألمان المتوقعة . ولم تصر الحكومة الألمانية، وقبلت التحكيم ولكن روزفلت اهتم فى إحدى مقابلاته مع السفير الألمانى بالإصرار على إظهار مدى الحادث : « كان فى وسع السفن الحربية الألمانية أن ترى خصمهم الممكن في أسطول الأميرال ديوى De-wey وكان فى وسع رجال ديوى أن يعتبروا السفن الألمانية كأقرب هدف للمعركة . لقد حان الوقت لإنهاء هذه المسألة. وهكذا تمكنت الولايات

المتحدة من وقف ألمانيـا، بعد بريطانيا العظمى ، وأظهرت بقوة رغـبتها في معارضة كل عمل تأديبى لدولة أوربية فى المنطقة التى تغطى مشارف القناة الموصلة بين المحيطين .

وفـى آسيـا الشرقية ، فى منشـوريا وفى كـوريا ، اصطـدمت روسيا بمقاومة اليابان .

وكان التوسع الروسى فى أثناء حرب البوكسير فى سنة ١٩٠٠ قد وجد الفرصـة للحصول على ضمـانات ولتدعيم التفـوق الذى ضمنه له منذ سنة ١٨٩٨ بناء السكك الحديدية وإنشاء القـاعدة البحرية فى بورت آرثر واحتلت القوة الروسية فى الحـملة الدولية الأقاليم المنشورية الثلاث مؤقتا، وكـانت حكومة القيصر قد حـاولت بدون جدوى أن تحصل من الحكومة الصينيـة على إتفاق يجعل هذا الاحتلال نهائيـا ولقد ظهرت فى أول الأمر على أنهـا قد قـبلت هذا الفشل، وطبقـا لرأى الكونت دايت وقـعت مع الصين فى أبريل سنة ١٩٠٢ على إتفـاقـية تتـعلق بالجـلاء التـدريجى ولكنها أوقـفت تنفيـذ الاتفاقـية فى سنة ١٩٠٣ وكـان هذا التحول مرتبطا بشكل خاص بعمل بيـزو برازوف رجل الأعمال الذى كان يمتلك فى الأقاليم الكورية عقد إمتياز لأستغلال الغابات على الضفة اليـسـرى لنهـر يالو. ونجـح بيـزو برازوف فى أن يجـذب القـيـصـر لمشروعـاته ، وحين كلفه القيصر بنفسه بمهمة دراسية فى الشرق الأقصى عقد صلات مع الأميرال أليكسايف Alexeicf قائد القوات الروسية في بورت آرثر ، وبعـد شـهـور من الصـراع المعلن نجح فى تغيـير سيـاسة ويت .

وخشيت الـيابان من رؤية تهديد نفوذها المسـيطر فى كوريا، ولم تقبل كـذلك التخلى من إمـكانية التوسع فـى منشوريا الجنوبيـة، حيث

كانت تعتقد فى إمكانية حصولها على الأراضى الصالحة للزراعة اللازمة لمهاجريها، وعلى المواد الغذائية اللازمة لسد النقص فى الإنتاج المحلى ، وعلى الفحم والحديد اللازمين لصناعتها. ولكى تفرض على روسيا تقسيمها لمنشوريا ، وترغمها على إخلاء « رأس الجسر » الكورى ، لم تتردد فى التفكير فى الحرب، وكانت بطاقتها الرئيسية تتمثل فى الميزة التى كانت للجيش اليابانى على مسرح عمليات قريب من قواعده ، فى الوقت الذى لم يكن فيه للقوات الروسية ، لنقل الإمدادات والمعدات إلى السكة الحديدية التى تعبر سيبريا، والتى كان طولها ٧٠٠ كيلو متر وكانت مقطوعة بمعدية تصل بين شاطىء بحيرة بايكان . ولكن هذه الميزة كانت بدون فاعلية مالم تمتلك اليابان السيطرة البحرية عند مضايق كوريا. فهل كان فى وسعها أن تصل إليها، وفى أن تحتفظ بها وخاصة فى حالة ما إذا ضمن التحالف الفرنسى الروسى لأساطيل القيصر تأييد القوى البحرية الفرنسية ؟ ولقد طلبت الحكومة اليابانية وحصلت فى يناير سنة ١٩٠٢ على التحالف مع بريطانيا العظمى ، الذى كان يهدف هذه الإمكانية : ولم تعط الحكومة الإنجليزية وعدا بمساعدة عسكرية فى حالة حرب ضد روسيا وحدها ، ولكنها تعهدت علنا بالتدخل فى حالة حصول روسيا على معونة « دولة أخرى » أي معونة فرنسا .

- وبدأت اليابان بعد ثمانية أشهر من التفاوض بدون جدوى مع روسيا العمليات الحربية فى ٨ فبراير سنة ١٩٠٤ بعملية مفاجئة - هجوم على الاسطول الروسى فى خليج بورت آرثر - ضمنت لها ا السيطرة البحرية لمدة أشهر عديدة وفى العمليات الحربية فى منشوريا حصل الجيش اليابانى على ميزات سريعة ، إذ أنه كان يعتمد ، فى خلال الستة أشهر الأولى من الحرب، على التفوق العددى ولم تتعادل القوات إلا ابتداء من أكتوبر سنة ١٩٠٤ . ومع ذلك فإن القوات اليابانية قد نجحت، بعد

قضائها على هجوم مضاد روسى - وهى معركة موكادن (٢٣ فبراير - ١١ مارس ١٩٠٥) - فى إحتلال مواقع العدو . وحاولت القيادة الروسية بدون جدوى إعادة الموقف إلى ما كان عليه : فالأسطول الذى كان قد حضر من أوربا عبر خط سير تاريخى ،والذى كان مكلفا بقطع خطوط المواصلات البحرية للجيش اليابانى ، قضى الأسطول اليابانى عليه فى ٢٧ مايو سنة ١٩٠٥ فى مضيق كوريا، عند تسوشيم . ولاشك أن منشوريا كانت بعيدة كل البعد عن أن تكون قد فتحت كلها وكان الجيش الروسى فى حالة تسمح له بمواصلة المقاومة، ولكن حكومة القيصر كانت مشغولة ، فى روسيا ، بحركة ثورية أجبرتها على أن تطلب الصلح فى الشرق الأقصى .

وخدم عرض الوساطة ، التى تقدم بها رئيس الولايات المتحدة ، الذى كان قلقا من نجاح اليابانيين وكان يرغب فى تحديد نتائجه ، مصالح الروس ، ووافقت الحكومة اليابانية على قبول التفاوض إذ أنها كانت تعلم بالصعوبات الاقتصادية والمالية التى ستنتج عن استمرار الحرب، وقنعت هكذا بالحصول على نتائج جزئية . وفى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٥ أعطت معاهدة بورتسموث اليابان بورت آرثر والخط الحديدى فى جنوب منشوريا، وكذلك الجزء الجنوبى من جزيرة سخالين، وسمحت لها بإقامة حمايتها فى كوريا ، وأصابت التوسع الروسى « ضربة فاصلة » أوقفته فى مكانه .

وكان هذا هو أول إنتصار حصل عليه الصفر على البيض منذ بداية التوسع الأوربى . وسمح لليابان بوضع أقدامها بثبات على القارة الآسيوية،وبأن تغير بهذه الطريقة معطيات السياسة الدولية فى الشرق الاقصى وشجع فى الهند، ومنذ سنة ١٩٠٥ ، الحركة الوطنية الموجهة ضد الحكم الإنجليزى ، وفى الهند الصينية فى سنة ١٩٠٨ محاولات المقاومة

ضد الاستعمار الفرنسى . وأخيرا فإنه ترك الجيش الروسى فى فوضى ، وغير قادر لمدة سنوات عديدة . على أن يلعب دورا فعالا فى أي حرب أوربية .

كانت هذه هى الإمكانيات القريبة ولكن ماذا ستكون عليه هذه الإمكانيات على مدى أوسع ؟ ذكر بول كامبون « أن اليابانيين لايشكون فى أن المسألة لا تتعلق بأى حال من الأحوال بمعرفة ما إذا كانوا سيحصلون أو لا يحصلون على قطعة من كوريا ، ولكن ما إذا كانوا سيصبحون روسا أو أمريكيين : فسيصبحون ، فى فترة الخمسين سنة القادمة موضوع التسابق الكبير الذى سيقع بين روسيا والولايات المتحدة فى الشرق الأقصى . ولكن كل هذا ليس إلا المستقبل » .

وإذا كانت كل هذه الصراعات ، والتى كان بعضها هاما ، لم تؤد أخيرا إلى أي صدام مسلح بين الدول الأوربية ، لم يكن هذا هو الدليل على أن حكومات وشعوب هذه الدول ترددت فى تحمل مخاطر « قياس القوة » ؟ .

الفصل التاسع والعشرون

الاتفاقيات الجديدة بين الدول الأوربية

(١٩٠١ - ١٩٠٧)

فى نفس الوقت الذى نمت فيه الصراعات فيما بين عامي ١٩٠١ و ١٩٠٧ أخذت الارتباطات الدبلوماسية أو العسكرية المعقودة بين الدول الأوربية صفات جدية ، فإيطاليا بعقدها مع فرنسا إتفاقا سياسيا سريا فى ١ يوليو سنة ١٩٠٢ تعهدت بالاحتفاظ بالحياد فى حالة حرب فرنسية ألمانية ، حتى فى حالة ما إذا قامت فرنسا « نتيجة لاستثارة مباشرة » بالمبادأة بإعلان الحرب ، ولكن تقدير حالة « الاستثار المباشرة » تركت لتقدير الحكومة الايطالية . وسوت الاتفاقيات الفرنسية الإنجليزية فى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ والتى كان أساسها « تبادل مصر والمغرب » كل الخلافات الاستعمارية بين ، البلدين ، ونصت كذلك على أن بريطانيا العظمى ستعطى لفرنسا تأييدا فى المسألة المغربية، وإن كان ذلك عن طريق العمل الدبلوماسى وحدة وأخيرا فإن روسيا قد سوت فى أغسطس سنة ١٩٠٧، وفى نفس الوقت الذى عقدت فيه مع بريطانيا العظمي الاتفاقية المتعلقة بفارس ، سوت المشكلات المتعلقة بأفغانستان وبالتبت وفى الوقت الذى ضعف فيه التحالف الثلاثى عضو « الوفاق الودى » الفرنسى الإنجليزى والتقارب الإنجليزى الروسى ، التحالف الفرنسى الروسى ، الذى كانت هزيمة منشوريا وأزمة الثورة الروسية فى سنة ١٩٠٥ قد قلقلته .

هذه هى الخطوط العامة ذات الملامح المعروفة . فما هى الدوافع التى وجهت قرارات الحكومة ؟

حينما وضعت أسس الحالة الديبلوماسية الجديدة ، فيما بين عامى

١٩٠٢ و ١٩٠٤ بالاتفاقية الفرنسية الأيطالية ,والإتفاقية الفرنسية الإنجليزية - والتى كان مداهما مختلفا - عاد الدافع فى هاتين الحالتين للسياسة الفرنسية، التى كانت هى سياسة ديلكاسيه . ولاشك أنه من الممكن التساؤل عما إذا كانت مخططاته قد أخذت شكلا واضحا منذ وصوله إلى وزارة الشئون الخارجية ، ولكنها كانت قد ثبتت بكل يقين فى سنة ١٩٠٢، وكان هدف هذه السياسة يتمثل ، من أجل تدعيم موقف فرنسا فى أوربا، فى زعزعة التحالف الثلاثى والقضاء علي الخلافات الاستعمارية الفرنسية الإنجلزية. وكان لديلكاسية ، الذى عهد إليه بإدارة السياسة الخارجية فى وزارات مشغولة بمكشلات السياسة الداخلية ، إمكانيات عمل واسعة ،وكان من حظه أن عاونه سفراء لهم قيمتهم الكبيرة : مثل باربر Barrere فى روما وبول كامبون فى لندن. وكانت هذه هى حالة خاصة يتدعم فيها الدور الشخصى لرجل، بطبيعته وبإحساسه بالمقدرات الوطنية. ومع ذلك فعلينا الا نهمل أن الرأي العام - وعلى الأقل فيما يخص العلاقات مع بريطانيا العظمى - قد أعطى لهذه المخططات تأييدا واضحا: فكانت أغلبية الصف منذ سنة ١٩٠١ تأمل فى « تصفية » الصعوبات الفرنسية الإنجليزية ، وربما كان ذلك راجعا إلى أنه كانت قد لمحت إمكانية تحالف إنجلبزى ألمانى، وكان المصدرون فى سنة ١٩٠٢ يخشون من رؤية انتصار برنامج الحماية الجمركية الذى وضعه جوزيف تشمبرلين فى إنجلترا، ويعتقدون أن تقاربا سياسيا بين البلدين سيسمح بالحصول، فى مثل هذه الحالة على معاملة مواتية من جانب التعريفة الجمركية الإنجليزية ، وبوجه خاص كان زعماء « الحزب الاستعمارى » الذين كانوا معادين بشدة فى سنة ١٨٩٨ للمفاوضات الفرنسية الإنجليزية ، قد تركوا تحفظاتهم . وكانت هذه أحوال مواتية لنجاح السياسة الجديدة .

ولكن لماذا فكرت بريطانيا العظمى وإيطاليا في تقارب مع فرنسا؟

كانت الحكومة البريطانية قد تباطأت فى الاستماع إلى مفاتحات ديلكاسيه : ورغم أنها عرضت منذ أغسطس سنة ١٩٠٢ فإن المفاوضات لم تبدأ فعلا إلا بعد عام. وكان أعضاء الوزارة. وربما رئيس الوزراء بلفور إبن أخت سالسبرى وخليفته، مترددين ، ودون أن نتمكن ، في حالة المعلومات الحالية ، أن نعرف تفاصيل مشاورات الوزارة ، وكان الدافع الأساسى في صالح تصفية الخلافات الاستعمارية الفرنسية الإنجليزية يتمثل فى فشل محاولة التحالف الإنجليزى الألمانى . وبعد أن كان جوزيف تشمبرلين هو الصانع الأساسى لهذه المحاولة، أصبح بعد ذلك بقليل أحد أوائل من فكروا فى حل آخر . وقال فى ديسمبر سنة ١٩٠٢ لقنصل فرنسا فى القاهرة إن إنجلترا مجبرة على التخلص عن سياسة العزلة ، وأنها قد فكرت فى وفاق مع ألمانيا وأنها قد فشلت ، ولذلك فإنها كانت ترغب الآن فى الحصول على صداقة فرنسا. وللدخول فى المفاوضات كان من اللازم البدء « بتبادل الضمانات ». ولاشك أن تجربة حرب جنوب إفريقيا التى أظهرت ضعف فاعلية الوسائل الحربية البريطانية، لم تكن غريبة عن هذا التحول : وقال القائم بأعمال فرنسا أنها كانت « بداية التعقل » . وأخيرا فإن بناء أسطول الحرب الألمانى كان يشغل بال الحكومة الإمبريالية : وفى اكتوبر سنة ١٩٠٢ أتخذ قرار لإقامة قاعدة بحرية كبيرة على الساحل الشرقى لاسكتلندا.

ولقد سهل هذا التطور بشكل لايقبل الجدل نتيجة لحالة الرأي العام التى أظهرت عدم ثقة واضحة ومتزايدة حيال ألمانيا . وأصرت الصحف على توضيح المنافسة التجارية ، وأظهرت قلقها بشأن سكة حديد بغداد ، وذهبوا إلى اتهام السياسة الألمانية ، وفى أثناء حوادث

فنزويلا، بإدخال بريطانيا العظمى فى طريق خطر ، والتسبب فى خصام إنجليزى أمريكى ، وكانت هذه « القطيعة المعنوية » على جانب من الأهمية .

وعلاوة على هذه الاتجاهات للروح العاملة، وهذه المشغوليات الواقعية لرجال الدولة. وهل من الضرورى إضافة الدوافع المالية؟ كانت بريطانيا العظمى قد مرت ، نتيجة لحرب جنوب إفريقية، في صعوبات خاصة بالميزانية وبالعملة، وأجبرت ولأول مرة منذ مائة وخمسين سنة ، على طرح قروض فى الخارج، وإحتاجت إلى رؤوس الأموال، التى أتى لها جزء هام منها من فرنسا. ألم تكن إقامة علاقة بين المساعدة التى أعطاها السوق المالى الفرنسى لبريطانيا العظمى وبين مفاوضات الاتفاقية السياسية، تمثل فرضا مغريا؟ ومع ذلك فإنها لاتثبت بعد فحصها على دراسة الوثائق ذلك أن القروض الخارجية التى تعاقدت عليها الحكومة الإنجليزية كانت قد طرحت فى الولايات المتحدة بنوع خاص. وكانت الحركة الهامة لرؤوس الأموال الفرنسية التى حضرت للاستثمار في بريطانيا العظمى فى المشروعات الخاصة تلقاءية، فكان أصحاب رؤوس الأموال الفرنسيين ميالين لها سواء لأنهم وجدوا فى لندن نسبة أرباح أكثر أرتفاعا عنها فى باريس ، أو لأنهم خشوا من فرض ضرائب علي الدخل فى فرنسا. ولم تعط هذه العلاقات المالية فرصة لأية مفاوضات بين الحكومات . ولم يطرح هذا الموضوع إلا بعد عام من عقد إتفاقيات ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ ، وفى بعض الأوساط المالية الإنجليزية، وللتفاوض على وفاق عرضى بين بنك فرنسا، وبنك إنجلترا ومع ذلك فإن هذا المشروع لم يصل إلى أية نتيجة .

وكان الإتجاه الجديد للسياسة الخارجية الإيطالية قد بدأ فى الوضوح منذ سنة ١٨٩٦ أى منذ الهزيمة التى وقعت فى إثيوبيا وسقوط

كريسبى . ومـادامت إيطاليا قد فشلت فى شـرق إفريقية ، فـإنها كانت عاجزة عن أن تـفكر فى ميدان آخر للتـوسع الاستعمارى غـير طرابلس الغرب، وكانت محتاجة فى هذا الشـأن لضمان حسن نيات فرنسا، وكان هذا هو السبب الذى دفعـها فى سبتمبر سنة ١٨٩٦ إلى قـبول الاعتراف الضمنى بالحماية الفرنسية على تونس ، وبشرط الحصول على تأكيد عن الامتيازات التى منحها الباى منذ سنة ١٨٦٨ للايطاليين المقيمين فى هذه البلاد. وكان هذا هو أيضـا السبب الذى دفعها فى نوفـمبر سنة ١٨٩٨ إلى إنهاء « الحرب الجـمركية » التى إستمـرت منذ عشر سنوات، والتى كانت قد تسبـبت فى خسائر للاقتصاد الإيطالى أكثر مما تسـببت بالنسبة للاقتصـاد الفرنسى . ولذلك فإنها قد حصلت فى ديسـمبر سنة ١٩٠٠ على تأكـيد بأن الحكومـة الفـرنسيـة لن تحاول « مـد نفوذها » صـوب طرابلس الغرب ، وإن كـانت قد وعدت فى نظيـر ذلك بعدم وضع أية عقبة أمـام العمل الذى يمكن لفرنسا أن تقوم به فى المغـرب وبالاختصار فإن هذه « التـسوية » الفرنسـية الإيطالية كـان هدفها هـو إنهاء التنافس التسلطى ، عن طريق تقسيم النفوذ .

ولكن الحكومـــة الإيطاليـة لم تكتف بذلـك ، وسـارت فى سنة ١٩٠٢ فى طريق اتفاقية سياسية وكان الملك فيكتور إمانويل الثالث الذى كان قد تولى العرش بعد أغتيال الملك همبرت يأمل فى هذا التقارب مع فرنسـا لكى يحصل علي « إسـتقلال أقـصر » بالنسبـة لألمانيا وبالنسـبة للنمسا، وكان يشاركه فى وجهة النظر هذه زنارديللى Zanardelli رئيس الوزراء الذى كان من رجال الوحـدة واحتفظ بعواطف معـادية للنمسا. وعلينا كذلـك ألا تهمل ذور المصالح الماليـة: فإيطاليـا كانت ترغب فى القيام بعمـلية تحويل للدخل ، ولم تكن نعتقد فى قـدرتها على النجاح فيها بدون مساعدة السـوق المالى في باريس، ولم تكن الحكومة الفرنسية

ترغب فى الموافقة على طرح السندات مالم تحصل على ضمانات سياسية وكانت هذه، وحسب ما تسمح بمعرفتـه الآن حالة المعلومات التاريخية، هى الدوافع الرئيـسيـة التى دفـعت الحكومة الإيطـالية إلى « تفـسيـر » التعهدات الموجودة فى معاهدتها مع ألمانيا .

ومع ذلك ، فإن إيطاليا وبريطانيا العظمى بعـقدها هذه الإتفاقيات لم يكن لديهمـا التخطيط للانضمـام إلى « نظام معاد لألمانيـا » وكانت الحكومة الإيطالية لاترغب فى التخلى عن التحالف الثلاثى ، إذ أن ذلك كان يهددها بالوقـوع « تحت تبعية فـرنسا » ، ويجعلها تفـقد الميزة التى يعيطها لها تحكيم ألمانيا فى حالة خلاف نمسوى إيطالى ، وكانت محتاجة أشد الاحتـياج للسوق الألمانى لتصـدير منتجاتها الـزراعية. ولاشك أن الحكومة الإنجليزية لم تكن تجهل عند توقيعها على إتفاقيات ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ أن ديلكاسيـه كان يرغب فى « إبعـاد ألمانيا » عن تسـوية المسألة المغربيـة، ولكنها اهتمت بوجـه خاص بألا تأخذ بالنسـبة للمستـقبل إلا تعهدا واحدا حـيال فرنسا: هو تأييد دبلوماسى فى المسـألة المغربية. ولم تكن تفكر فى تحـالف ولا حتى فى إتفـاقية عـسكرية أو بحـرية . ومع ذلك ، ألم يكن بلفـور ولانسدون ، وهمـا صانعـا هذا التقـارب ، قد فكرا فى أن هذه المقـدمة يمكنها أن تـصل بهم إلى أبعد مما فكروا فـيه ؟ يظهر من أبحاث الدراسات التاريخـية الإنجليزية أن رجال الدولة الإنجليز كانوا فى مسألة « تبـادل » مصر والمغرب قد خضـعوا لأحداث لم يسبق لهم حسابهـا، ولم يكونوا يتوقعونها. والمهـم هو أن فرنسا لم يكن فى وسعها أن تحـصل على تأكيد بتأييد مسلح من إنجلتـرا، ولا حتى بحياد إيـطالى ، فى حـــالـة وقـوع صـدام فـرنسـى ألمانى: فـلـم يكن فى وسعها أن تحسب حسابـا إلا لبعض الإمكانيات . وعلاوة على ذلك فقد

كان فى وسع هذه النتائج ان تتغير نتيجة للعداوة بين روسيا وإنجلترا فى مسألة الشرق الأقصى ، تلك العداوة التى زادت منذ سنة ١٩٠٢ نتيجة للتحالف الإنجليزى اليابانى ففى حالة نشوب حرب روسية يابانية، كيف تقدر فرنسا على التوفيق بين تحالفها مع روسيا، وبين صداقتها، لانجلترا « حليفة اليابان » ؟ وكان ديلكاسيه يعلم تماما هذه الخطورة منذ خريف ١٩٠٣ أظهر ليول كامبون رغبته فى دعوة روسيا وإنجلترا تصفية خلافاتهما، ولكن هذه الرغبة بقيت أفلاطونية، وحاول كذلك بدون جدوى فى يناير سنة ١٩٠٤ أن يقوم بدور الوسيط بين روسيا واليابان .

ولكن الحكومة الألمانية لم تخف حقها منذ عقد الوفاق الودى، وفى نفس الوقت الذى كانت تأخذ فيه على ديلكاسية « إغراء » إيطاليا. أليس علينا أن نتوقع رد فعل ؟ كان الصدام الروسى اليابانى ، والذى كان فى وسعه أن يزعزع التحالف الفرنسى الروسى والذى كان يشل فاعليته العسكرية، يفتح إمكانيات مواتية أمام المحاولات الألمانية ، فكيف يمكن لفرنسا أن تقوم برد فعل أمام أى تهديد؟ كان ديلكاسيه وهى النقطة الضعيفة فى عمله- قد عمل الاتجاه، ودون أن تكون الوسائل العسكرية والحالة المعنوية للبلاد قد إتحدت تحت سياسته .

ولذلك فإن الحرب الروسية اليابانية كانت هى المحك الأكبر بالنسبة للنظام الدبلوماسى الذى أقامه ديلكاسيه. وبهذه الطريقة يمكننا أن نحكم على السياسة الألمانية التى قررت أن تفيد هذه الظروف لكى تعرقل عمل فرنسا فى السلطنة الشريفية . ولكن الحكومة الألمانية بإثارتها لهذه المسألة كانت لها مخططات تزيد كثيرا عن أبعاد أفق المغرب . ولاشك أنها لن تتردد فى أن تثير المصالح الاقتصادية ، وأكثر منها اعتبارات الكرامة. ومع ذلك فإن وجهات النظر هذه كانت ثانوية ، ذلك أن المستشار بيلوف رأي فى سنة ١٩٠٥ أن السلطنة الشريفية كانت تحتل « مكانا صغيرا

للغـاية » فى المصـالح العـامـة لألمانيـا : وكـانت الأهداف هى أهداف السـياسـة العامـة وكـان أولها هو فـصم عـرى الوفاق الودى الفـرنسى الإنجليزى : فـإذا ما قامت بريطانيا العـظمى ، أثناء التدخل الألمانى فى المسألة المغـربية، بتفـسير الارتباطات التى تـعاقدت عليهـا فى نصوص إتفاقـيات ٨ أبريل ١٩٠٤ بمعنى التـحديد، فإن فـرنسا سـتجد أنهـا قد أخطأت فى الاعتـماد على الصداقـة الإنجليزية وسيقـضى على مستـقبل التقارب بين الدولتين الغـربيتين. وكـان الهدف الثانى مرتبطا بالإمكانيات التى فتـحتها الحـرب الروسية اليابانـية. فحكومة القـصر نظرت ، منذ هزائمها الأولـى فى منشوريا، إلى التحالف الإنجليـزى اليابانى على أنه مصـدر كل شقائها، ولـذلك فإنها غضـبت من رؤية فرنسا تتـقرب من بريطانيا العظمى فى الوقت الذى كانت قد بدأت فيه هذه الحرب، وكان فى وسع ألمانيا أن تفـيد من هذا التبدل فى الشـعور بأن تعرض فى أول فرصة تأييـدها لروسيا وتصل إلى زعزعة التـحالف الفرنسى الروسى ، وربما إلى هدمـه. حقيـقة أن الحكومـة الفرنسيـة ، إذا ما أجـبرت على الاختيار بين الصداقة الإنجليزية والتحالف الروسى ستتخلى بلا شك عن الوفـاق الودى ، إذ أنه « لم يكن فـى وسع الأسطول الإنجليـزى أن باريس » كما قال غليوم الثانى . ولكن فى مثل هذه الحالة كان فى وسع السيـاسة الألمانية أن تحـصل على نتيجـة أخرى : مثل إبدال التـحالف الفرنسى الروسى بتحـالف « قارى » تضطر فرنسا إلى الدخـول فيه إلى جانب روسيا وألمانيا . ولن تكن إلا شريكا ثانويا فيه .

والواقع أن المخططات السيـاسية هى التى كانت تـوجه المحاولات الألمانية وراء هذه الأهداف المتبـادلة طوال كل فترة الأزمة الدوليـة، كما تثبت ذلك الوثائق الدبلوماسية. وفى أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، وفى الوقت الذى وضع فيه مشروع التدخل فى المسـألة المغربية ، أجل غليوم الثانى

تنفيـذه ، إذ أن حادثة إنجليزية روسـية وقعت فى بحر الشـمال - وهى حادثة Dogger Bouk [1] وأعطته الفرصة لكى يعـرض على القيصر أمر عقـد تحالف دفاعى . وحـينما تأكـدت الحكومة الألمانيـة من فشل هذه المحاولة قـررت أن تدخل فى الخصـومة المغـربية ، لكى تزعـزع الوفاق الودى ، ولكنها عـادت ، بعد سقوط ديلـكاسيه إلى مخططهـا الآخر، وأعتقدت أنه سـينجح ، مادام القيصر ، الذى أرهقتـه الهزيمة العسكرية فى منشوريا والتهديدات الثـورية، قد قبل فى ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٥ فى بجوركـوى أن يوقع على معاهدة سـرية تقيم تحالفـا دفاعيا بين روسـيا وألمانيا ، وتدعى فرنسـا للانضمام إليها، كـزميل ثانوى ، وكذلك فكر بيلوف فى هذه الفترة فى ترك « أيدى فرنسـا حرة فى المغرب » ، بشرط أن تنضم إلى هذا التحالف القارى . وحينما أبعدت الحكومة الفرنسية ، التى اتصلوا بها فى أكتوبر سنة ١٩٠٥ ، هذه الإمكانية، وقام القيصر ، الذى أصبح يشعر الآن بالتهور الذى سيرتكبه بتحطيم التحالف الفرنسى الروسى ، بالتخلى عن معـاهدة بجوركوى ، أسرعت السيـاسة الألمانية باتخاذ موقف متشبث فى المسألة الغربية .

أكانت مناورات دبلومـاسية معـقدة، وكما وصـفها أحد السـفراء الألمانى بأنهـا « مجرد جـدال عقيم » !؟ لاشك فى ذلك ، ولـكنها لم تكن مجـرد أحداث عارضـة . فـبيلوف، إن لـم يكن يعتقـد فى نجاح منهجه ، أكان يبـعد فكرة الحرب الوقائية التى كانت هيـئة أركان الحرب قد عرضتها عليه ؟

ولكن هذه السياسة الألمانيـة فشلت ، ولم يتقلقل الوفاق الودى ،

---

(١) كان الاسطول الروسى فى البحر البلطى ، عند ذهابه صوب الشرق الاقصى قد فتح النيران وباحتقار لايمكن تصوره ، على إحدى سفن الصيد الانجليزية .

بل إنه قد تدعم . وفى يناير سنة ١٩٠٦ وقبيل مؤتمر الجزيرة الخضراء - وفى اللحظة التى ظهرت فيها إمكانية وحتى إحتمال حرب فرنسية ألمانيا- صرحت الحكومة الإنجليزية ، ودون أن تحاول أخذ إرتباطات ثابتة مقدما والتفكير فى تحالف، لهيئة أركان حربها بأن تدرس مع هيئة أركان الحرب الفرنسية « أسس عمل عسكرى مشترك » ، ولأول مرة نجدها تفكر هكذا فى أن تتدخل فى حرب وقائية: وكان ضعف روسيا هو الذى كان يجبرها على أن تعادل قوة المانيا وأخذت إسبانيا، بإتفاقية ١٦ مايو سنة ١٩٠٧ . تعهدا بألا تتنازل لألمانيا عن جزر كناريا والبليار، ووعدت بأن « تتشاور » مع بريطانيا العظمى وفرنسا فى الحالة التي سيتهدد فيها الوضع القائم فى البحر المتوسط أو على السواحل الغربية. أما التحالف الفرنسى الروسى، الذى هددته معاهدة بجور كوى أكبر تهديد، فإنه قد بقى ، حقيقة أن الفاعلية العملية للاتفاقية العسكرية بقيت محدودة، إذ أن الجيش الروسى كان عاجزا، حسب أعتراف رئيسه بنفسه ، عن تعبئة « مجندين » (ودون تحديد عددهم) و « فى فترة طويلة » ، ولكن التضامن الدبلوماسى ظهر فى مؤتمر الجزيرة حيث استلم الوفد الروسى وفى نظير وعد بمساعدة مالية - أمرا بتأييد وجهة النظر الفرنسية . ومع ذلك فإن نقطة ضعف النظام الدبلوماسى الذى أقامه ديلكاسيه بقيت ، إذ أن تغيير المشاعر بين الإنجليز والروس، الذى كان قد سوى فى الشرق الأقصى بنتائج حرب منشوريا، لم يكن قد تسوى بعد فى آسيا الوسطى وفى الشرق الأدنى ، ولذلك فإن بريطانيا العظمى قد أدخلت ، عند تجديد معاهدة تحالفها مع اليابان فى سبتمبر سنة ١٩٠٥ ، فقرة خاصة بحماية الهند .

وإذا كانت بريطانيا العظمى قد قررت أخيرا أن تعمل على تقارب مع روسيا، فإن هذا كان عملا رئيسيا فكيف فكرت فى ذلك ، وكيف نجحت ؟.

فى لندن كان مشغوليات السياسة العامة هى التى توجه القرارات.
وكان الأمر يتعلق مبدئيا بتدعيم الوفاق الودى الفرنسى الإنجليزى : وكتب السير إدوارد غراى بعد ذلك « لاتكننا أن نتبع فى نفس الوقت سياسة وفاق مع فرنسا ، وأخرى موجهة ضد روسيا» وكان من اللازم على وجه التحديد وقف المحاولات الألمانية للتحالف القارى : وعلمت وزارة الخارجية البريطانية، وتقريبا بطريق الصدفة، منذ أغسطس سنة ١٩٠٥ أن غليوم الثانى قد حاول فى بجوركوى ، أن يعقد « تكتلا بين ألمانيا، فرنسا وروسيا وباستثناء بريطانيا العظمى، وحصلت مصادر فرنسية على تأييد لهذا الخبر ، ولاشك أن المحاولة قد فشلت . ولكن ألا يمكن إعادتها، على الأقل بين روسيا وألمانيا؟ وأخيرا فإن ضعف روسيا العسكرى كان يفتح أمام ألمانيا إمكانيات مواتية لعدة سنوات: ومن هذه الواقعة يكون « الخطر الألمانى » أشد خطورة، وكانت بريطانيا العظمى أكثر شعورا بهذا القلق خاصة وأنها كانت تشهد مايو سنة ١٩٠٦ التنمية الجديدة لبرنامج الإنشاءات البحرية الألمانية ، وفى ٢٠ فبراير سنة ١٩٠٦ وفى مذكرة كتبها لنفسه ، أعترف غراى :« بأن وفاقا بين روسيا وفرنسا وبيننا سيعطينا أمنا مطلقا ، وعلينا أن نعمله إذا كان من اللازم الاحتفاظ بألمانيا فى مكانها » .

وفى سان بطرسبرج، وحيث أخذ إسكندر إسفولسكى فى مايو سنة ١٩٠٦ مكان الكونت لامسدورف الذى عجز عن التفاهم مع الدوما، رأى وزير الشئون الخارجية الجديد أن على روسيا، التى فشلت فى إرضاء طموحها فى آسيا الشرقية أن تقوم بمجرد أن يكون فى وسعها ذلك ، بإتخاذ سياسة بلقانية حيث ستواجهها معارضة النمسا والمجر ولذلك فقد كان من الضرورى أن تضمن تأييد دبلوماسى لكى تعوض به ضعفها العسكرى . وشعر إسفولسكى بالحاجة لإعادة تأكيد التحالف

الفرنسى الروسى ، ولكنه كـان يشعر بضرورة حصـوله على تقارب مع بريطانيـا العظمى ، حتى يتـمكن من الوصول إلي ذلـك ، إلا فإن هذا التحـالف سيـجد نفســه عاجـلا أو آجلا مهـددا من جديد بالخـلافات الإنجليزية الروسية، وستفيد ألمانيـا من ذلك لكى تبدأ مرة جديدة سياسة بجـوركـوى . وكـان هذا هو كـذلـك رأى بنكندورف Benckenborff السفير الروسى فى لندن :«يـعتمد التحالف الفرنسى فى جـزء كبير منه على عـلاقاتنا مع الجلتـرا». ولكن الشرط السـابق للحصـول على هذا التقـارب كان بلا شك هو أن تتـخلى روسيا فـى الشرق الأوسط أو فى آسيا الوسطى عن كل محاولة يكون من طبيعتها تهديد أمن الهند. ولكى نقول الحق ، فـإن هذه التضحـية كانت مـفروضة بكل طريقـة ، مادام الجيـش الروسى كان عـاجزا فى هذه اللحظة ، عن أن يخـاطر فى هذه المناطق بصـدام مع بريطانيـا العظمى ، ولذلك فـقـد كان من الأجـدى الأعتراف بالحقيقة ومـحاولة التفاهم على هذا التخلى ، لكي تحصل من ذلك على أحسن نتـيجة ممكنة. وأخـيرا، وهنا أيضـا لعب الضيق المال الروسى دوره: فكانت حكومـة القيـصر تحاول عـقد قـرض فى سوق لندن، وبطبيعـة الحال لم تكن السياسـة الإنجليزية ترغب فى إعطاء هذه المساعـدة المالية إلا فى حالة ما إذا وافـقت روسيا على تسوية الخـلافات الآسيوية .

وفى هذه المفـاوضات ، التى انتـهت باتفاقـية ٣٠ اغـسطس سنة ١٩٠٧ ، كانت المشـغوليـات الأوربية هى المسيطرة. وفـى المدى الثانى جاءت الرغبـة فى ضمان أمن الهند . ولم تتردد الحكومـة البريطانية فى أن تخضع جزء من المصـالح الاقتصادية الإنجليزيـة فى فارس لمخططاتها السيـاسية، وكـان نائب الملك فى الهند يرغب بلا جدوى فى الحـصول على « منطقة توسع تجارى » أكثر اتساعا فى هذه البلاد، وبدون جدوى

أشـار الوزير الإنجليزى فى طـهران إلى أن منطقـة النفـوذ التى أعطيت لبريطانيـا العظمى كانت « غير قـادرة على التنمية الاقتـصادية ». وأعلن الرأى العام، رغم أعتـباره الاتفاقية الفارسـية « كمساومة قـائمة بذاتها» يمكن الطعن فـيها، رضـاءه ، إذ أن هذه الاتفاقـية ظهرت له عـلى أنها مقدمة لتقارب إنجليزي روسى فى نطاق السياسة العامة .

ماهى أهمية هذه السنوات المليئة بالنسبة لتطور العلاقات الدولية ؟

ربما لم يكن « إعـادة التجـمع » الذى بدأ فى الوقـوع بين الدول العظمى هو الظاهرة الأكثر وضـوحا، ولم يكن له حتى ذلك الوقت إلا قيـمة اختيـارية وكانت بريطانيا العظمى مـترددة بالنسبة لكل إرتبـاط قد يحول الوفاق الودى إلى تحالف: وقـال السير إدوارد غراى فى يناير سنة ١٩٠٦ أنه قد رفض أن « يأخذ وبإصرار وبـهدوء إرتباطا . . . . قبل أن تعرف أسباب الصدام أو تظهر فى الوضوح» أما بالنسبة للانجليز والروس فإن إتفاقهم الآسيوى لم يشتمل على أي وعد فى ميدان السياسة العامة، وهذا الاتفاق ترك حتى مسألة المضايق العثمانية، وهى رئيسية ، مفتوحة؛ وحاول إيسـفولسكى بدون جدوى أن يحصل على وعـد بإعادة النظر فى إتفـاقيـة سنة ١٨٤١. ولذلك فـإن « الوفاق الودى » لم يكن حـتى ذلك الوقت إلا مجـرد هيكل . ولاحظ السيـر إدوار وغراى أن « رباط فرنسا – إنجلترا – روسيا كان ضعيـفا » لم يكن يعتقد فى إمكانية تقويته سريعا.

وإن مـا يهم بنوع خاص هو التـغـييـر الذى حدث في النفـسيـة الجماعة، فالصـحافة الألمانية ، بعد عقد الاتفاقـية الإنجليزية الروسية ، صرخت معلنة « التطويق » ، ولم يكن فى وسع غـالبية الرأى العام فى بريطانيـا العظمى ، وأكثـر من ذلك فى فرنسـا، أن تنسى أن ألمانيـا قد

إستخدمت ، فى أثناء أزمة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ التهديد، وأنها قد تصرفت وكأنها كانت ترغب فى الحرب، وظهرت بذلك الرغبة فى رؤية إقامة حاجز ضد المطامح الألمانية، رغم أن بعض الأفكار مثل هانوتو - إستمرت فى التأسف على ذلك . وكانت حالة الرأى العام هذه هى نتيجة للنجاح الذى حصل عليه ديلكاسيه فى ١٩٠٢ ، ١٩٠٤ ، وبوجه خاص على المناهج الذى إستخدمتها الحكومة الألمانية لكى تحاول بها تحطيم الوفاق الودى والتحالف الفرنسى الروسى ، والتى لم ينتج عنها إلا تجديد نشاط المجهودات الدبلوماسية المعادية .

وفى هذا التسلسل من ردود الفعل كانت الدوافع الأساسية هى التفكير فى الأمن ، والإشتياق إلى العزة ، والرغبة فى القوة ، ولم يلعب نفوذ العامل الاقتصادى إلا دورا مكملا. ولاشك أن تنافس المصالح المادية قد ساعدت على زيادة العداءات ولكن ، ماهو التأثير السريع لهذه المنافسات على الخلافات الدولية؟ ففى خارج أوربا ، وفى المناطق التى اصطدمت فيها هذه المصالح الاقتصادية، سويت هذه الخلافات بحلول وسط . وأظهرت الحكومة البريطانية إستعدادها فيما بين ١٩٠٥ و ١٩٠٧ - وطبقا للملاحظة الدقيقة للمؤرخ الإنجليزى تايلور Taylor «لتقديم تنازلات خارج أوربا. حتى تدعم توازن القوى» : وبهذه الطريقة ضحت فى المسائل الفارسية بالمشغوليات التجارية والمالية نظير مخططاتها الاستراتيجية والسياسية وإذا كان الإصطدام بين الاتجاهات التسلطية فرصة لإعادة « التجمع السياسى » فإنه لم يكن سببها. لقد إستخدمت الحكومات فى أوربا بكل تأكيد « السلاح» الاقتصادى أو المالى : مثل فرنسا فى مفاوضات الاتفاقية مع إيطاليا وفى تسيير التحالف الروسى ، وبربطانيا العظمى فى التمهيد لاتفاقية ١٩٠٧

ولكن فى هذه الحالات كان الاقتصاد والمالية ، بعيدين جدا عن أن يكونا الدوافع للعمل السياسى ، وكان من وسائله وفى كل الأوقات الهامة كانت المصالح السياسية هى العامل المقرر . سواء أكان الأمر يتعلق بإيطاليا فى سنة ١٩٠٢ ، أو بريطانيا العظمى فى سنة ١٩٠٤ وفى سنة ١٩٠٧ أو بألمانيا فى سنة ١٩٠٥ .

الفصـــل الثلاثــون

اختبارات القوة

(١٩٠٧ - ١٩١٣)

رغم النمـو المستمـر للعلاقـات بين الشعوب الأوربيـة- فلم تكن الإتصالات قد بلغت هذه الدرجة من النشاط من وجهة النظر الاقتصادية والمالية، ولم تكن عملية التبادل الثقافى قد بلغت مرحلة أقوى منذ القرن الثامن عشر - تدعمت الحالة السـياسية التى لم تكن مظاهرها العامة فى سنة ١٩٠٧ إلا فى مرحلة هيكلية ، وزاد العـداء فى السنوات التالية بين الدول العظمى : فـداخل كل مـجـموعـة للدول زادت الحكومـات من تدعيم وتجديد إرتباطاتها المتبادلة ، وأصبح التعارض فى ذلك الوقت بين التحالف الثـلاثى والوفاق الثلاثى ظاهرة رئيسية فى العـلاقات الدولية. وفى نفس الوقت إنتـقل مركز ثقل المنازعـات أو صدامـات المصالح بين الدول، وتغيـر شكلها، إذ أن المنافـسات المرتبطة بالتوسـعات التـسلطية خارج أوربا أصـبحت أقل حدوثا، واتجـهت حتى صـوب الهدوء ، فى الوقت الذى زادت فيه تلك التى كـانت أسبابها وفرصها مـرتبطة بحركة القوميـات فى أوربا وبسرعة هذه الاصطدامات بين القوى العمـيقة نمت المحاولات التى هدفت زيادة الترابط بين « الكتل » .

ولقد أعطت المسألة المغربية فى صيف سنة ١٩١١ أزمة جديدة فى منافـسات التـسلطين خـارج أوربا. ولكى توقظ هذا الخلاف ، أفـادت الحكومـة الألمانية من الاضـطرابات التى دفعت القـوات الفـرنسيـة إلى إحتـلال فاس ، أى إلى تجـاوز الحدود التى كانت مـعاهدة الجـزيرة قد وضعتها لعملهم . فماهى دوافع هذا العمل الألمانى ؟

مصالح إقتصادية ، بالتأكيد ، ففى فبراير سنة ١٩٠٩ كانت ألمانيا

قد قبلت أن تعترف لفرنسا بكل حرية عمل «للمحافظة على النظام » فى المغرب ، وبشرط تقسيم أرباح الإستغلال الاقتصادية للبلاد. ولكن الواقع أن هذا التعاون بين المصالح المادية لم يحدث .

ومشغوليات السياسة الداخلية . فاعتقدت الحكومة الألمانية ، وهى تفكر فى الانتخابات العامة القادمة، أنه من الضرورى الحصول فى هذه المسألة على نجاح يمكنه أن « يساعد على نسيان الهزائم السابقة » كما قال سكرتير عام وزارة الشئون الخارجية .

ومشغوليات تتعلق بالسياسة العامة. فكانت تحتفظ بالأمل، كما كان عليه الحال فى سنة ١٩٠٥ ، فى زعزعة الوفاق الودى الفرنسى الانجليزى . ومع ذلك فإن السياسة الألمانية، رغم أمل أنصار الجامعة الجرمانية، لم تكن تهدف الحصول على نصيب من المغرب ، فكانت ترغب فى إجبار فرنسا على أن تدفع لها ثمن هذا التنازل ولم يكن إرسال سفينة الحرب الألمانية الصغيرة أمام أغادير فى أول يوليو سنة ١٩١١ فى تفكير حكام ألمانيا يعنى إلا مجرد « أخذ ضمان لايمكنه أن يجبر فرنسا»على منح « تعويض » . وشرح وزير الدولة للشئون الخارجية فى تقاريره للامبراطور فى ٥ مايو و ١٢ يونيو أنه من المؤكد أن فرنسا لن تقدم عروضا لها قيمتها إذا ما إقتصرت ألمانيا على مجرد الاحتجاج ، ولكن فرنسا ، فى حالة إحتلال ألمانيا لميناء مغربى، ستقدم إقتراحات « مقولة لا رغبة منها فى الوصول إلى إنهاء مثل هذا الاحتلال».

وفتح هذا القرار الألمانى أزمة امتدت خلال أربعة أشهر. وكان مدى هذا « التعويض » هو السبب فى تلك المناقشة الدبلوماسية المرة التى قطعتها ثلاث مرات تهديدات الحرب. وبعد أن كانت قد طالبت بالتنازل

عن كل الكونغو الفرنسية بأكملها ، قللت الحكومة الألمانية إدعاءاتها، وحينما أظهرت الحكومة الانجليزية فى ٢٥ يوليو إمكانية تدخل مسلح فى حالة نشوب حرب فرنسية ألمانية، وفى نهاية المطاف حصلت بإتفاقية ٤ نوفمبر سنة ١٩١١ على مجرد القسم « الداخلى » من الكونغو الفرنسية، والواقع بين الكاميرون والكونغو البلجيكي ، وكذلك على شريط من الأرض يقع إلى الجنوب من مستعمرة غينيا الإسبانية، ويعطى للمستعمرات الألمانية مخرجا على المحيط الأطلسى . ولكن فرنسا وعدة علاوة على ذلك بألا تمارس حق « الشفعة » الذى كان لها على الكونغو البلجيكى منذ سنة ١٨٨٤ بدون إتفاق سابق مع ألمانيا .

وتمت بذلك تصفية هذه المسألة المغربية التى كانت موضوع نزاع خطير منذ ست سنوات ، فهل كان ذلك بداية لتقارب ممكن بين ألمانيا وفرنسا ؟ لقد أعلن جوزيف كايو Joseph Caillaux رئيس الوزراء الفرنسى مولد « عهد جديد » فى العلاقات الفرنسية الألمانية . وأعلن غليوم الثانى نفس هذا الأمل . وقال الملحق العسكرى الفرنسى « يمكننا سويا أن نفعل ما نرغب فى كل العالم ». ولكن الظروف التى أثارت الحكومة الألمانية فيها الأزمة، وسبقت بها مظهر العنف على المحادثات ، لم تسهل المصلحة . ففى فرنسا ورغم أن جول وبول كامبون السفراء الفرنسيين فى برلين ولندن ، قد أعتبروا سياسة كايو على أنها « معقول» لم يقبل قطاع من الرأى العام مسألة موافقة الحكومة على قبول التفاوض تحت التهديد. وأخذت الأوساط الاستعمارية الألمانية ، من جانبها ،على المستشار أنه كان « ضعيفا» وأنه لم يحصل إلا على « تعويض » غير كاف .

وفى خلال هذه الأزمة المغربية رأت الحكومة الايطالية، التى كانت قد أقامت باتفاقيتها المعقودة مع فرنسا سنة ١٩٠٢ علاقة متوازية بين

مسائل المغرب وطرابلس الغرب ، والتى كنت قد حصلت فى نفس الفترة على موافقة بريطانيا العظمى ، رأت فى سبتمبر سنة ١٩١١ أن اللحظة قد حانت لتحقيق مخططاتها. وإمتدت الحرب الايطالية التركية التى بدأت فى طرابلس الغرب فى ربيع ١٩١٢ إلى شرق البحر المتوسط حينما قام الأسطول الإيطالى بضرب بيروت ، وبتهديد مدخل الدردنيل، وأنزل قوات فى الجزر التركية فى بحر إيجه. وفى ذلك الوقت ثار قلق الأميرالية الانجليزية، إذ أن وجود قاعدة بحرية إيطالية فى بحر إيجه كان يهدد « الإشراف » الذى تمارسه بريطانيا العظمى على الحركة البحرية صوب البحر الأسود وعلى طريق السويس . وظهرت إيطاليا أول الأمر على أنها تحسب حسابا لهذه المشغوليات : ففى معاهدة لوزان ١٥ أكتوبر سنة ١٩١٢. وحين حصلت من الحكومة العثمانية على تنازل على طرابلس الغرب وبرقة، تعهدت بالجلاء عن جزر بحر إيجه، ولكنها عملت فى الواقع على تأجيل تنفيذ وعدها. وبهذه الطريقة هددت الحرب الايطالية التركية، وبكونها « العمل الأول المستقل تماما للسياسة الخارجية الايطالية » بتغيير معطيات مشاكل البحر المتوسط . وكانت الحكومة الإنجليزية على تمام العلم بذلك ، رغم أنها لم تفكر فى أن تتخذ من هذه المسألة سببا للحرب .

وعلى العكس من ذلك نجد أن مسألة الشرق الأقصى لم تؤدى إلى صعوبات خطيرة، فإمكانية محاولة إنتقام روسى ضد اليابان ، التى كان فى وسعها بطبيعة الحال أن تثير العداوة الانجليزية الروسية، إذ أن حكومة القصر عقدت فى عامى ١٩٠٧ و ١٩١٠ إتفاقيات سرية مع اليابان لتحديد مناطق النفوذ الخاصة بكل منهما فى منشوريا وفى منغوليا. والثورة الصينية سنة ١٩١١ و١٩١٢، والتى أنهت حكم أسرة المانشو ، لم تكن فرصة للمنافسات بين الدول العظمى : فالدول

العظمى كانت متفقة على ضرورة الاحتفاظ بالحياد بالنسبة للحرب الوطنية الصينية . وحينما قامت الحكومة الجديدة « للجمهورية » وهى فى واقع الأمر نظام شبه دكتاتورى ، نظام يوان شى كاى بطلب معونة مالية ، فإن الدول الأوربية ، بدلا من محاولة إنتهاز هذه الفرصة للحصول على مزايا لكل منها على حساب الأخيرين ، إنتهت من الاتفاق على تكوين « مجموعة » Consortium مصرفية دولية لمنح الصين قرض كبير ، وكان ذلك دلالة على تهدئة الموقف .

وأخيرا وفى ميدان التنافس فى آسيا الصغرى وفى الممتلكات الجديدة ووسط إفريقية، أخذت العمليات الأوربية شكلا لم يكن متوقعا.

ففى آسيا الصغرى كانت ألمانيا منذ سنة ١٩٠٣ قد إستمرت فى مشروعها العظيم : وهو إنشاء سكة حديد بغداد . وكانت المحادثات بين المجموعات المالية تحتل القسم الأمامى من المسرح، ولكن هذه المجموعات لم تكن تعمل ، سواء فى بريطانيا العظمى أو فى ألمانيا أو فى فرنسا إلا بموافقة الحكومات . وكانت السياسة الانجليزية قد حاولت مرات عديدة منذ سنة ١٩٠٥ أن تفاوض ، وكانت قد قبلت أن تنهى معارضتها للمشروع ، إذا ما تنازلت الشركة الألمانية عن مد السكة الحديدية حتى الخليج الفارسى، أى حتى النقطة الحساسة بالنسبة للمصالح الاستراتيجية البريطانية، ولكن الحكومة الألمانية كانت قد أخضعت هذه التسوية لشروط لم تقبلها الحكومة الانجليزية : مثل الوعد بالحياد الانجليزى فى حالة نشوب حرب قاريه . ولكن الأفق صفا فى سنة ١٩١١، إذ أن ألمانيا تخلت عن إشتراطاتها السياسية ، وهكذا فتح الطريق للمحادثات الانجليزية الألمانية. وقررت فرنسا فى مايو سنة ١٩١٣ أن تسير على نفس النهج، فهل كان فى وسعها أن تحتفظ

بمعارضـة فعالة مـادامت بريطانيا العظمى قـد دخلت فى مفـاوضات ؟ ولذلك فقد كـان من مصلحتها أن « تتقـاضى ثمن عملية رفع يدها » . ورأى استيفان بيشون Stephen Pichon وزير الخارجية علاوة على ذلك أن عليها أن تعمل على « تهدئة الصعوبات التى تمكنت المنافسة الصناعية والاقتصادية وستتمكن من خلقها » .

وفى هذه المفاوضات أخـضعت بريطانيا العظمى وفـرنسا المصالح الاقتصـادية والمالية للمصالح السـياسية. ورأوا من الضـرورى للحصول على إنهاء للتوتر فى العلاقات الدوليـة أن يعطوا لألمانيا ترضية فى ميدان التوسع الاقتصادى .

وفى وسط إفـريقيـة بدأت المفاوضـة كذلك بين بريطانيـا العظمى والمانيا، ولكن بدون فرنسا. ورأت الحكومة الألمانيـة فى الاتفاقية المغربية والكونغولية فى ٤ نوفمبر سنة ١٩١١ نقطة البدء فى سياسة توسع كبيرة. إذ أن حصولها عى ممتـلكات إقليمية فى منطقة صانجـا كانت مجاورة من ناحيتين للكونغو البلجيـكى . ولم تتردد الحكومة الانجليزية فى فتح المحادثات بشـأن هذا الموضوع . وأعلن السير إدوارد غـراى فى مجلس العموم فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١١ أنه إذا كانت ألمانيا ترغب فى « مكان تحت الشمس فى إفـريقية» فـإن بريطانيا العظمى « لن تضع عقـبات فى هذا السبيل » وفى ٢٠ ديسمبر أضـاف وزير الدولة للشئون الخارجية ، وفى إحدى مـحادثاته مع السفـير الألمانى ، أن بريطانيـا العظمى ليست لديها النيه « لمنع الأراضى الألمانية من الإمـتداد من الشرق إلى الغرب » عبر إفريقـية الوسطى ، وحدد أنه « إذا كان الكونغو البلجـيكى سيباع » فإن الحكومة الانجليزية لن تأسف لرؤية ألـمانيا تحصل على القسم الجنوبى من المستـعمرة « بين أنجـولا وإفريقية الشـرقية الألمانيـة » . وانتهت هذه المفاتحـات ، والتى ربما كـان هدفها تـسهيل الـوصول إلى إتفـاق بشأن

التسلح البحرى، إلى التفاوض بشأن إتفاقية سرية ، كان عليها أن تكمل وتحدد خطة تقسيم المستعمرات البرتغالية فى إفريقية ، وهى التى كانت قد وضعت فى سنة ١٨٩٨ ، ولكنها بقيت بلا تنفيذ .

وبالإختصار ، وفى مسائل ماوراء أوربا ، كانت العمليات الألمانية هى المسيطرة . وقال المستشار بيتمان هولويج لسفير فرنسا أن من ألمانيا أن تحصل فى العالم على « النصيب الشرعى لكل كائن ينمو » . ولكن الحكومة الإنجليزية، رغم المنافسة التجارية والبحرية الإنجليزية الألمانية، إستعدت ، فى نقطتين هامتين ، لتسهيل عملية التوسع الاقتصادى وحتى الإقليمى للرايخ. وهذا هو ما يدعونا للاعتقاد بأن المنافسة بين الاتجاهات التسلطية خارج أوربا لم يكن لها فى هذه الفترة كل الأهمية التى تميل فى بعض الأحيان إلى نسبتها اليها، تتصادم المصالح الاقتصادية أو المالية فى الميادين الاستعمارية أو فى مناطق النفوذ لايظهر فى هذه الفترة على أنه عامل مقرر فى تطور العداءات السياسية .

وفى أوربا كان السبب الرئيسى للصعوبات الدولية يتمثل فى يقظة حركة القوميات فى شبه جزيرة البلقان وتسببت هذه اليقظة مرتين ، فى سنة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ وفى سنة ١٩١٢ - ١٩١٣ فى تهديدات خطيرة للسلم العام .

وكان سبب الأزمة البلقانية فى سنة ١٩٠٧ يعود إلى سنة ١٩٠٣ . وكانت سياسة ميلان أوبرينو فيتش الشخصية، والتى عمل إبنه إسكندر على تخفيفها ولكن دون أن يتخلى عنها ، قد وضعت مملكة الصرب الصغيرة منذ سنة ١٨٨٢ « فى مدار » النمسا والمجر ، رغم معارضة الحزب الراديكالى وقيادات الجيش الذين كانوا يطالبون بسياسة « قومية » وكانت هذه الأزمة الصربية الداخلية قد انتهت بانقلاب عسكرى . وقام

الضباط أعـضاء جمعيـة « اليد السوداء »للسرية باغـتيال الملك والملكة. وإستدعى المشـرفون على هذه العمليـة للحكم بطرس قوة جوجيـفيتش Pierre Karageorgevitch، الذى كانـت أسرته قد حكـمت الدولة فيـما سـبق من سنة ١٨٣٩ إلى سنة ١٨٥٩ . وأعطـى الملك الجـديد السلطة للراديكاليين ، ولرئيسهم باشيتش Pechitch ، وسرعان ما بدأت دعاية الجمـعيـات الوطنية التى أثارت الـذكريات التاريـخية لدولـة « الصرب الكبرى » فى الإنتشار. وكان هذا الإتجاه الصربى القومى يثير قلق النمسا والمجـر، إذ أنه كان يسـاعد عـلى نشوب حـركة مـقـاومة فى البـوسنة والهرسـك ، وحيث كان غـالبيـة الأهالى من الصربـيين ، ضد الإدارة النمسوية المجرية . وأصبح الأمر خطيرا حين قام رؤساء « الأقلية القومية» الصربية فى النمسا والمجر فى أكتوبر سنة ١٩٠٥ بالاتصال بالكرواتيين وبالسلوفيـين لكى يصلوا إلى تضامن « يوجـوسلافى » . وهكذا هددت مملكة الصرب بأن تلعب فـعلا دور « بيدمـونت » وهو الدور الذى ظهر أنها سـتلعبـه منذ ثلاثين عاما. لكى تجـبر دولة الصـرب على الهدوء ، إستخدمت الحكومة النمسـوية المجرية ضدها، وعن طريق منع الاستيراد منها، « حربا إقتصادية » كانت قـد بقيت بدون فاعلية وكانت قد زادت الموقف خطورة ، إذ أنها كانت قد أثارت ضغـائن عميقة لدى الفلاحين الصـرب ، وبعـد فشل هـذه الإجراءات فكر ايرينتال ،، وزير الـشئـون الخارجـية ، منذ أكتـوبر سنة ١٩٠٨، وفى تسوية المسألة بالقـوة، وكان الهدف الأول لهذه السـياسة هو إعلان ضم البـوسنة والهرسك ، والتى كان للنمـسا والمجر حق إدار إدارتهـما بصـفة مؤقـتة منذ سنة ١٨٧٨ : وأعتقد ايرينتال بهذا الشكل أنه سيحطم آمال الانفصاليين التى كانت لدى سكان هذا الاقليم، وكان الهدف التالى يتمثل فى ضرورة « القضاء على موطن الثـورة الصربية » ولذلك فـإن دوافع هذه القرارات كانت مـجرد

دوافع سياسية .

وكـانت كذلك الدوافع السـياسـية هـى التى توجه ألمانيـا. فكان بيلوف يعتقد أنه بتأييده حتى النهـاية محاولة ايرينتال سيقوم « بنزع حلقة من سلسلة الحصار الذى كان قد أصـبح هشا منذ فترة طويلة » . فكيف نعتقد فى امكانيـة نجاح هذا التـخطيط ؟ حينما أعلنت النمسا والمجر فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٨ ضم البوسنة والهرسك أجبرت روسيا ، لكى تحاول الاحتـفاظ بنفوذها لدى شعـوب البلقان على الاحتـجاج ضد السيـاسة النمـسويـة المجرية ، وذهبت فى ديـسمـبر سـنة ١٩٠٨ إلى حد أخـذ إجراءات تعبـئة ، رغم أنها كانت فى حـقيقة الأمر بعـيدة عن أن تقوم بحرب . ولم تكن لدى بريطانيا العظمى ولدى فرنسا أقل رغبة فى تأييد روسيا تأييدا له قيمتـه والتعرض لخطر حرب . ولذلك فإن بيلوف كان يأمل فى أن تحصل روسيا من باريس ولندن على نصائح بالحذر ، وأنها ستأخـذ على فرنسا وإنجلترا فـتورهما وكانت هذه مناورة مشـابهة لتلك التى كان قد قـام بها فى سنة ١٩٠٥ ضد الوفاق الانجليـزى الفرنسى . وظهر أن الحـادثة قد أيدت وجـهات نظر المسـتشار الألمانى ، فـأعلنت الحكومة الانجليزية أنه لايمكنهـا أن تعطى لزميلتها بروسيـا أي شيء أكثر من « التأييد الدبلوماسى » وأفهم أستيـفان بيشون وزير الخارجية حكومة روسيا بوضـوح أن فرنسا ، رغم معاهدة التـحالف ، لايمكنها أن تصل إلى الحرب بشأن مسألة لاتهدد فيها « المصالح الحيوية » روسيا .

وبهذا ترك هذا الموقف الميـدان مفتـوحا لسيـاسة دول الوسط التى فرضت علـي روسيا فى مـارس سنة ١٩٠٩ « تسليمـا دبلوماسـيا » ، وأجبرت الصرب على أن تعد بتغيير « مجرى سياستها الحالية تجاه النمسا والمجـر » . ولكن النجاح لم يصـل إلى أبعد من ذلك ، وأنهـار الأمل الذى كان لدى بيلوف لتفتيت التحالف الثلاثى: فالحكومة الروسية، بعد

أن كانت قد أعلنت مرارتها أصرت على إظهار مسئولية فرنسا وبريطانيا العظمى في الهزيمة التي الحقت بها، ورأت أن « الارتباط النمسوي الألماني كان قد أقوى من الوفاق الثلاثي ». ووجدت أنها لن تحصل على شيء بإصرارها على التمييز بينهما، ولم تغير الاتجاه العام لسياستها الخارجية .

وكانت النتيجة الفعلية لهذه المناورات الدبلوماسية ، والتي كان وقوعها يرضي غرور رجال الدولة في فيينا وبرلين ، ويضمن لهم نجاحا في الأوساط البرلمانية ، يمكن للشك فيها، إذ أن النمسا والمجر لم تصل إلى تسوية المسألة الصربية. ولم تحصل على أي ضمان حقيقي بالنسبة للمستقبل . ولكن هذه الأزمة كانت لها نتائج طويلة الأمد في روسيا. فالأوساط المسيرة السياسة الروسية الخارجية كانت قد ابتلعت، كما يقول اسفولسكي « حبة مرة » وكانت ترغب أن تقوم بالانتقام في اليوم الذي تقدر فيه على ذلك . ولم تكن تنتظر إلا سنو الفرصة .

ومنح الموقف البلقاني هذه الفرصة لروسيا سنة ١٩١٢. وكان سبب هذه الأزمة الجديدة هو الشعور القومي للشعوب المسيحية في شبه الجزيرة، وكان مقررا. ففي مقدونيا، وحيث كانت موافقة روسيا والنمسا والمجر الضمنية قد إحتفظت بالسيطرة العثمانية على الأهالي البلغاريين والصرب واليونانيين في خلال أزمة ١٨٩٧ - ١٩٠٣ « فإن هذه الأقليات القومية » كان لها في سنة ١٩٠٨ أملا في الحصول على نظام أكثر صلاحية حينما وضعت ثورة « تركيا الفتاة » نهاية النظام الحميدي وأعلنت الحكومة العثمانية الجديدة إصلاحات متحررة. ومع ذلك فسرعان ما خاب هذا الأمل: فرجال تركيا الفتاة قد عادوا إلى سياسة إدماج وضغط تتمشى مع التقاليد العثمانية . ولذلك فإن حركات الاحتجاج بدأت في مقدونيا منذ سنة ١٩١٠. وكان من المنطقي أن

تعمل الدول المسيحية فى البلقان على تأييد هذه الحركات حتى الأراضى الخاضعة . وفى بلاد الصرب كانت الوزارة الراديكالية ترغب فى إرضاء الشعور القومى الذى جرح بإذلال فى سنة ١٩٠٩ ، وفى بلغاريا فكر الملك فرديناند فى أن شعبه لن يغفر له « تحطيم آماله القومية » ،وفى اليونان كان رئيس الوزراء منذ سنة ١٩١٠ هو فينيزيلوس Venizelos الذى كان قد أدار فيما مضى فى كريت الحركة القومية اليونانية ضد الأتراك . ولذلك فإن هذه الحكومات كانت تراقب تطور الإضطرابات المقدونية . وتنتظر لكى تعمل المظهر الأول لضعف الإمبراطورية العثمانية . ومنحتهم الحرب الإيطالية التركية فى سبتمبر سنة ١٩١١ فرصة مواتية إذ أنها أصابت الجيش العثمانى بالفوضى ، وكان أحسن ضباطه قد ذهبوا للمشاركة فى العمليات فى طرابلس الغرب، وكانت تمتص الموارد المالية الضعيفة للإمبراطورية .

ولكنْ إذا كان الشعور المعادى للأتراك مشتركا بين الأهالى المسيحيين فإن الحركات القومية البلغارية والصربية واليونانية كانت متنافسة فيما بينها، وذلك بسبب الاختلافات بين التقاليد الثقافية، وبين أشكال الحياة الاجتماعية وبين الذكريات التاريخية، وخاصة بسبب الحذر والخوف الذى كان يفصل بين الكنائس الأرثوذكسية : ففى مقدونيا كانت الدعاية الدينية للكنيسة الصربية تنازع الرعايا مع الكنيسة البلغارية. وفى مقدونيا هذه ، وحيث كان اليونانيون والبلغاريون والصربيون مندمجين دائما، وبطريقة لاتسمح بالفصل بينهم ، كيف يمكننا، فى حالة افتراض « التحرير »، وضع أسس للتقسيم ؟ وحين وضعت الحكومات البلغارية والصربية فى أكتوبر سنة ١٩١١ مشروع هيكل لخطة تحالف هجومى ضد الإمبراطورية العثمانية ، عرقلت عدم الثقة هذه أسر الوصول إلى إتفاق .

وهنا كان الدافع الروسى هو المقرر. ذلك أن الحكومة الروسية كانت قد فكرت فى أول الأمر فى خريف سنة ١٩١١ فى تأييد الامبراطورية العثمانية، وحتى فى إنشاء « إتحاد بلقانى » يضم الإمبراطورية والدول المسيحية، وفى نظير ذلك كانت قد طلبت إلى الحكومة العثمانية أن تستعد لإعادة النظر فى وضعية المضايق، الأمر الذى سيمد حق المرور إلى سفن الحرب الروسية، ولكن سرعان ما وجدت أن هذا الحل كان لايمكن تحقيقه ، إذ أن الدول العظمى توافق على إعادة النظر فى هذه الوضعية. ولذلك فإنها غيرت أهدافها، وقررت أن تؤيد تحالف الدول البلقانية ضد الامبراطورية العثمانية، ولكى تحرر الشعوب المسيحية فى مقدونيا. ولاشك أن الحكومة الروسية كانت لاتجهل أن هذه المحاولة من طبيعتها أن تتسبب فى أخطار حرب عامة، ولكنها اعتمدت أن فى وسعها أن تواجه هذا الخطر، إذ أن حالة قواتها العسكرية ، التى كانت غير كافية فى سنة ١٩٠٩ قد تحسنت الآن فما هى الميزات التى فكرت فيها ؟ كانت الأهداف سياسية قبل أى شىء آخر: مثل إعادة النفوذ الروسى الذى كان قد تزعزع بأزمة سنة ١٩٠٩ إلى فكر الشعوب المسيحية ، وإضعاف الإمبراطورية العثمانية بطريقة تسمح لها فى يوم من الأيام بحل مسألة المضايق لمصلحة المصالح الروسية. ولم تتدخل المسائل الاقتصادية إلا كوسيلة فى خدمة المخططات السياسية، فحين أيدت روسيا ، بمساعدة رؤوس الأموال الفرنسية، مشروع السكة الحديدية التى ستعبر شبه الجزيرة البلقانية من الشرق إلى الغرب لكى تنتهى على ساحل البحر الإدرياتى كانت ترغب فى إقفال الطريق أمام التوسع النمسوى المجرى أكثر من حسابها لمكاسب الصادرات الروسية ، أو لأرباح مالية .

وكان التحالف الذى عقد بين الدول البلقانية بالمعاهدة الصربية

البلغـارية السرية فى ١٣ مارس سـنة ١٩١٢، والمعاهدة اليـونانية البلغـارية فى ٢٩ مايـو سنة ١٩١٢ هو من عمل روسـيـا فى غالبـيتـه العظمى : وقبل القيصر أن يعمل كحكـم بين الدول البلقانية فيما يتعلق بتقسـيم مقدونا بعد النصر . وكـانت هذه السياسة المغامرة هى سـياسة بعض الدبلوماسيين بـنوع خاص، مثل هارتويج Hartwing وزير روسيا فى بلجـراد ونيكلودوف Nekloudof فى صوفـيا ، وهما اللذان انتهـيا بفرض نظرهم على رئيسهم. ولاشك أن هذا الرئيس ، سازونوف Saz-onof كان يعلم فى صيف سنة ١٩١٢ أنه قد جاوز المدى ، وحاول أمام اعتراضـات الحكومة الفرنسية أن « يفرمـل » ، ولكن الدول البلقانية لم تسـتمع إلى نصـائحه ، إذ أنهـا كانت تعلم جـيدا أن مـصالح روسـيا السياسية ومصالحهم ستنتصر على هذا التردد الأخير .

وبدأت حرب الدول البلقانية ضد تركيا فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٢ فى نفس الوقت الذى أوقـفت فيـه الحكومة العـثمـانية حـرب طرابلس الغرب لكى تواجه هذا الخطر الجديد. وفى ثلاثة أسابيع تمكن المتحالفون من تحرير مقدونيـا. وفى ٣ ديسمبر طلبت الحكومة العثـمانية الهدنة، إذ أن القسطنطينية كانت مهددة بالجيش البلغـارى، والذى لم يوقف هجومه إلا مقـاومة الخط المحصن الموجود على مـشارف العاصـمة نفسهـا. أما مفـاوضات الصلح ، التى قـطعت فى أوائل فبـراير سنة ١٩١٣ نتيـجة لانقلاب أوصل العناصـر العثمـانية الأكثـر تشددا إلى السلطة فإنهـا قد استمرت بعد سقوط أدرنة ، التى كانت القوات البلقانية تحاصرها. وفى ٣٠ مـايو سنة ١٩١٣ ، وبشروط الصلح الـتى وقع عليهـا فى لندن ، تخلت الإمبـراطورية العثمانية لأعـدائها عن كل تركيا أوربا ، بـاستثناء جزء صغير من تراقيا .

وسرعـان ما إصطدم المنتصرون ببـعضهم بشـأن تقسيم مقـدونيا.

فرفضت بلغاريا التحكيم الروسى ، ودخلت فى عمليات عدوانية ضد زملائها، الذين عقدوا تحالفا ضدها. وبدأت حرب البلقان الثانية فى ٢٥ يونيو سنة ١٩١٣ ، ولكنها لم تستمر إلا مدة ستة أسابيع، واغترت القيادة البلغارية بقواتها، ولكن الصربيين أوقفوها، ورأت الجيش الرومانى يدخل بدوره فى خط النار . وطلبت الحكومة البلغارية الصلح نتيجة لتهديدها بالسحق. ولذلك فإن تقسيم مقدونيا الذى تم بمعاهدة بوخارست فى ١٠ أغسطس سنة ١٩١٣ قد وضع ، لصالح الصرب واليونان ، فى الوقت الذى لم تحصل فيه بلغاريا إلا على زيادة بسيطة لأراضيها، ووجدت نفسها من جانب آخر مضطرة إلى التنازل عن منطقة سيليستريا لرومانيا ، فى نفس الوقت الذى أجبرت فيه على إعادة ترك أدرنة لتركيا. ومع ذلك فإن هذه التسوية الإقليمية بقيت ناقصة : فمن ناحية كان على الأقاليم الألبانية التى أخذت من الامبراطورية العثمانية أن تكون دولة مستقلة ، ولكن تثبيت حدود هذه الدولة تسبب فى تهديدات بحرب بين الصرب وألمانيا واليونان وألبانيا، ومن ناحية ثانية هدد مصير جزر بحر إيجه بنشوب حرب بين تركيا واليونان، تحت أنظار إيطاليا التى كانت قد احتفظت منذ حرب طرابلس الغرب ، بإختلافها « المؤقت » فى جزء من الأرخبيل .

وهددت هذه الأزمة البلقانية بالتسبب بين النمسا والمجر وبين روسيا فى حرب لن تتأخر عن أن تصبح أوربية. ولم يكن ما يشغل الحكومة النمسوية المجرية هو مجرد إمكانية رؤية روسيا تحصل على نفوذ مسيطر فى السياسة البلقانية ، بل كان هو الخوف المحدد والقريب : فتكوين دولة « الصرب الكبرى » كان يمثل تهديدا لأمن ، وربما لوجود الملكيةالثنائية ، إذ أن تدعيم دولة الصرب كان من طبيعته أن يشجع فى النمسا والمجر عمليات التهيج الإنفصالية للأقليات اليوجوسلافية. ولم

تنجح السياسة النمسوية المجرية إلا جزئيا فى إبعاد هذا الخطر حقيقة أنها حققت نجاحا فى نوفمبر سنة ١٩١٢ حين عرضت ، بالتهديد بالحرب ، عملية مد الأقاليم الصربية حتى الإدرياتى . ولكنها حين فكرت فى يوليو سنة ١٩١٣ ، وفى أثناء الحرب البلقانية الثانية ، فى التدخل المسلح لتأييد بلغاريا ولكى تمنع بهذه الطريقة دولة الصرب من أن تتوسع فى مقدونيا، أجبرت على التخلى عن هذا المشروع وفى الحالتين كانت مستعدة لكى تعلن الحرب على الصرب وحدها، ولكن على روسيا ، إذ أنها كانت تؤمن بأن السياسة الروسية لن تتخلى هذه المرة عن الصرب . فما هو سبب حصولها فى الحالة الأولى على النتيجة التى آملت فيها، وفى فشلها فى الحالة الثانية ؟ لقد كانت مؤيدة فى نوفمبر سنة ١٩١٢ بإيطاليا التى كانت ترغب هى كذلك فى منع الصربيين من الوصول الى البحر الإدريانى ، وكانت مؤيدة بطريقة فعالة بألمانيا التى رأت فى هذه المسألة مسألة « حيوية » بالنسبة للملكية النمسوية المجرية وفى يوليو سنة ١٩١٣ حكم حلفاء الملكية الثنائية على الموقف بطريقة مخالفة. فكان غليوم الثانى يرى أن تأييد بلغاريا على حساب الصرب ورومانيا سيكون « خطأ جسيما ». وكان جيولبتى أكثر تشددا :« فى حالة عمل النمسا ضد الصرب فإن من الواضح أن سبب العمل المشترك لايكون قائما: فإنه عمل تقوم به لحسابها، مادام أحد لايفكر فى مهاجمتها» ، ووضع سان جوليان وزير خارجية إيطاليا نفسه عبر المشروع النمسوى المجرى . « سيأخذون بتلابيب ردائكم إن لزم الأمر».

والنتيجة هى التقهقر الواضح للنفوذ النمسوى والمجرى وللنفوذ الألمانى فى البلقان ولصالح النفوذ الروسى .

ولاشك أن السياسة الروسية التى أرضيت بانتصار البلقانيين المشترك فى خريف سنة ١٩١٢ خاب أملها حينما عجزت عن أن تتفادى

فى يونيو سنة ١٩١٢ الصـدام بين الدول التى كانت قـد قبلت أو طلبت إشرافهـا. وفى المجموع فإنهـا قد سجلت رغم ذلك نتيـجتين هامتين : فالصرب ، عمليـتها الأكبر ولاءا، أصبحت تحـتل الآن دورا رئيسيا فى شبه الجـزيرة ، وأصبحت الإمبراطورية العـثمانية مهـددة بالإنهيار ، إذ أنها قـد خسرت كل أقـاليمهـا الأوربية تقريبـا ، فى نفس اللحظة التى قامت فيـها الدول العظمى بتقـسيم ممتلكاتها الآسيـوية إلى مناطق نفوذ إقتـصادية، وحيـث اصـطدم الحكم التركي فى ســوريا بحـركة قومـية عربية .

وعلى العكس من ذلك وجدت النمسا والمجر نفـسها فى مواجهة الإمكانيـة التى كـانت تخـشاها: وهى إنـشاء دولة الصـرب الكبـرى ، ووجدت كذلك ، فى أثناء حرب البلقان الثـانية ، أن رومانيا قد أخذت تهرب من النظام الثلاثى .

وأخيـرا فقد كان فـى وسع المانيا ، التى كانت قـد حصلت على نفوذ كبير فى تركيا بإنشاء سكة حديد بغداد، أن ترى نتائج هذا المجهود مشكوكا فيها .

٢- تدعيم التكتـلات :

ماهو تأثير هذه الصدمات التى لبدت سماء أوربا بغيوم حرب عامة أربع مرات فيما بين عـامى ١٩٠٩ و ١٩١٣ على إرتباطات التحالف أو الوفاقات بين الدول العظمى ؟

فلقد فـتحت أزمـة البوسنة والهـرسك ، وحتى أزمـة الأغادير ، الطريق لمحاولات تهدف فـصل أحد الأعضاء عن المجموعـة المعارضة، ورغم أنها بقيت بدون جدوى ، فإن هذه المحاولات كانت لها أهميتها، إذ أنها تشرح ، فى بعض مظاهر القرارات التالية الحكومات .

في سنة ١٩١١ بذلت الدبلوماسية الألمانية مجهودا لكى «تفصل» روسيا عن بريطانيا العظمى . وحاولت أن تستغل القلق الذى كانت الحكومة الروسية تشعر به منذ التسلم الذى فرض عليها فى مارس سنة ١٩٠٩. ألم يكن فى وسع النمسا والمجر أن تفيد من ضعف الجيش الروسى لكى تضمن لنفسها مزايا جديدة فى البلقان؟ والتجربة التى وقعت خلال أزمة البوسنة والهرسك ، ألم تظهر أنه لم يكن فى وسع روسيا فى فعل هذه الحالة أن تعتمد على بريطانيا العظمى أو حتى على فرنسا وبمناسبة مقابلة الامبراطورين فى بوتسدام إقترحت الحكومة الألمانية فى ديسمبر سنة ١٩١٠ إتفاقا : فتتعهد ألمانيا بعدم تأيد سياسة النمسا والمجر « العدوانية » فى البلقان ، وذلك فقد وعد روسيا بعدم تأييد سياسة معادية لألمانيا. إذا ما قامت بريطانيا العظمى بالمباداة. وأجاب وزير الخارجية الروسية أجابات مرضية ، ولكنه تهرب من كل تعهد مكتوب وأقبل مجرد مفاوضة، بشأن المسائل المتعلقة بالسكك الحديدية فى فارس وآسيا الصغرى ، والتى انتهت فى الصيف التالى فى ١٩ أغسطس سنة ١٩١١ بالتوقيع على الاتفاقية. وبالإختصار فإن هذا كان شيئا بسيطا. ولكن التاريخ هو الذى كان مهما فى نفس الوقت الذى هددت فيه مسألة أغادير بالتسبب فى حرب فرنسية ألمانية أظهرت المحاولة الروسية رغبة للتقرب فى العلاقات مع ألمانيا؟ ولذلك فإن رأى العام الفرنسى كان له رد فعل قوى . وتساءل جابرييل هانوتو عما إذا كانت روسيا تخبر موقفها وأخذ اندرية تارديو فى جريدة الطان على الحكومة الفرنسية أنها تركت نفسها تدخل هذه المناورة « و تمارس تحالفا بدون رشاقة ». وفى بريطانيا العظمى ذكرت الأوساط الدبلوماسية أن الوفاق الانجليزى الروسى « يعتمد على سياسة مشتركة فى فارس » ، ومادامت روسيا تفاوض بمفردها مع ألمانيا إتفاقية تتعلق بهذه المسائل الايرانية ، ألم

يكن من اللازم الخوف من « انهيار » التقارب الانجليزى الروسى ؟ وكانت هذه العصبية كبيرة ، ومع ذلك فإنها كانت دليلا على القلق الذى إستمر منذ محاولة بيجوركى الفاشلة موجودة فى باريس وفى لندن، وحيث كانوا يشكون دائما فى حركات وفى نيات الحكومة الروسية وفى أوائل سنة ١٩١٤ بدأت المفاوضات الأكثر أهمية والأكثر تقاربا بين بريطانيا العظمى وألمانيا ، والتى كانت الحكومة الانجليزية تعقد أن هدفها هو وضع حد لتنافس التسلح البحرى .

ومنذ أن كانت الأميرالية الألمانية فى سنة ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ قد حصلت على التصويت على برنامج جديد للانشاءات لبناء إثنى عشرة مدرعة من أحدث طراز فى مدة أربعة سنوات، قررت الحكومة الانجليزية فى مارس سنة ١٩٠٩ ، ولكى تحتفظ بمدى التفوق البحرى الذى يضمن أمن الجزر البريطانية، بناء ثمانية مدرعات . وزاد خطر هذا التسابق فى التسلح حينما قررت الحكومة الألمانية، أثناء أزمة أغادير، أن تقدم للرايشتاج قانونا بحرياً جديدا وكان الفعل الانجليزى قليل العنف ، مادامت الترسانات البحرية كانت تسمح بزيادة سرعة بناء سفنها. ولكن وزارة الأحرار كانت قد وعدت الناخبين إصلاحات إجتماعية، تتطلب أعباء على الميزانية، ولم يكن فى وسعها أن تواجه فى نفس الوقت هذه المصروفات الناتجة عن التسابق فى التسلح. وكانت على علم كذلك بخطر آخر فهذه المنافسة كانت تدفع للحكومات - لكى يحصلوا من برلماناتهم على التصويت على الميزانيات اللازمة - إلى إمكانية الحزب ، وإلى القيام بحملات صحفية ستتسبب فى حالة عصبية بالنسبة للرأى العام. ألم يكن من الأحسن إقناع ألمانيا بقبول تحديد قواتها البحرية ؟ لاشىء أن هذا الحل الودى كان يفرض على بريطانيا العظمى أن تفرض ما يناظره . فما هو ؟ كانت الحكومة الانجليزية مستعدة لمنح تعويضات

فى الميدان الاستعمارى ، وأن تضحى مع ذلك أقل ما يمكن من المصالح الانجليزية، وأن تقوم بعملية المساومة على حساب الدول الصغيرة ، ولكن الحكومة الألمانية كانت ترغب فى أو تحصل على أكثر من ذلك : مثل إرتباط سياسى يقوم بإضعاف أو بهدم الوفاق الودى الفرنسى الانجليزى .

وفى فبراير سنة ١٩١٢ وقعت محاولة لتقريب وجهات النظر حينما أرسلت الحكومة الانجليزية لمورد هالدان Lord Haldane إلى برلين ، الذى إجتمع فى خلال ثلاثة أيام بالإمبراطور وبالمستشار بيتمان هولويج وبالأميرال فان تيربيتز . فما هى النتيجة ؟ لقد طالبت الأوساط الألمانية الحاكمة بريطانيا العظمى فى نظير مجرد إبطاء تنفيذ برنامجها البحرى ، بوعد « بعدم إعتداء » ويتعهد بالحياد فى حالة حرب قاريه ، إذا لم تكن ألمانيا تعتبر على أنها « معتدية ». وإستمرت المحادثات خلال ما يزيد عن شهر وبالطريق الدبلوماسى ، وقبلت الحكومة الانجليزية إعطاء الوعد الخاص بعدم الاعتداء ، ولكنها رفضت التعهد بالحياد، وهو الذي كان يهدد الصداقة الفرنسية الانجليزية. وأصرت الحكومة الألمانية على موقفها، مادام هدفها كان على وجه التحديد هو تحطيم الوفاق الودى . وفى ٢٢ مارس سنة ١٩١٢ انقطعت المفاوضات ، وإستمرت المنافسة البحرية ، وبمرارة أكبر .

وهذه المحاولات زادت كثيرا عن مدى مجرد المناورات الدبلوماسية. وهى توضح حالة تفكير الحكومات بالنسبة للمسائل الكبيرة التى تؤثر فى العلاقات الدولية .

فالحكومة الألمانية أهملت فى فبراير سنة ١٩١٢ إمكانيات التوسع خارج أوربا التى فتحتها لها العروض الإنجليزية. فهل معنى ذلك أنها

كانت تنـظر لهـذا التوسع اللازم جـدا لمصالحهـا الاقتصـادية على أنه ثانوى ؟ لا ، بلاشك . ولكنها كانت تعتقد فى إمكانية الحصول فى هذا الميدان من ميادين العمل على نتـائج أكثر إتساعا إذا ما وصلت أولا إلى تحطيم « الحاجز » الذى كان يقيمه فى وجهها التقارب الانجليزى الروسى والوفاق الفرنسى الانجليزى: ولذلك فـإن الهدف السياسى كان هو الذى بقى - كـما كـان عليه الحـال فى ١٩٠٥ و ١٩٠٩ - الهدف الرئيـسى أمامها. ومادامت قد عجزت عن الوصول إلى ذلك ، فإنها قد إستمرت فى ممارسـة ضـغط على بريطانيـا العـظمى عن طريق زيادة إنشـاءاتهـا البحرية .

ولم تترك الحكومة الروسية نفسها تقع تحت إغراء العروض الألمانية وقت مقـابلة بوتدام . ورغم خيبة الأمل الـتى لقتها أثناء أزمـة البوسنة والهرسـك، فإنها كـانت تخشى ، فى حـالة تخليـها عن التـقرب إلى إنجلترا، من أن تجـد نفسـهـا فى مـوقـف ثانـوى فى مـواجهـة دولتى الوسط .

وأخيرا فإن الحكومة الانجليزية لم توافق على قبول حل الصعوبات الانجليزية الألمانيـة يشتمل علـى وعد بالحياد . وفـى هذا القرار لم يكن للمشاعر والعواطف إلا نصيبا ضعيفا . وكانت مصلحة بريطانيا العظمى هى الدافع لهذا القرار.

وهكذا يظهر فشل هذه المحاولات لـلتفاهم ، الخلاف بين المواقف الأساسـية للدول العظمى ، والتي كـان على سيـاستهـا أن تلعب دورا مقررا فى أوربا .

وابتداء من صـيف سنة ١٩١٢ تركت المجهودات الخـاصة « بإزالة التوتر » . وأصبـحت مسائل إعادة النظر فى هذا التحـالف أو الوفاقات

وأمر تدعـيمها مـشغوليـات سريعة لهـذه الحكومات . ولاشك أن هذه المجهـودات كانت مرتبطة بالظروف المحـيطة بها. أى بالتهـديد بالحرب الذى نتج عن الأزمـة البلقانيـة ولكن الحكومات كـانت تحسب حـسابا كذلك لتجاربها السابقة ، ولاتجاهات المستقبل .

وتدعمت مجـموعة الدول التى كانت ألمانيا مركـزها، سواء أكان ذلك يتعلق بالعلاقات مع النمسا والمجر أو مع إيطاليا .

وكانت المسألة الرئيسية بالنسبة لسير التحالف النمسوى الألمانى هى دائما معرفة إلى أي حد تؤيد السياسة الألمانـية السياسية النمسوية المجرية فى البلقان .

وكان بسمارك كثيرا مـا « يفرمل » حليفته ، إذ أنه كان يرغب فى أن يحتـفظ بروابط مع روسيا . وكـان بيلوف فى سنة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ قد ترك هذا الخط الذى إحتفظ به رغم ذلك بعض انصاره فى الأوساط الدبلوماسـية الالمانيـة . وأدى فشل مـقابلة بوتدام إلى أن يقـوم بيتمان هولويج سـياسـة بيلوف من جـديد وفى نوفـمبـر سنة ١٩١٢ ، وحين طردت مسألة « ميناء حربى على الادرياتى » لم تعـتقد الحكومة الألمانية أن فى إمكانها إقناع النمسا والمجر بتقديم تنازلات، إذ أنها كانت تخشى من قلقلة التحالف ، رغم أن غليوم الثانى كان يميل شـخصيا إلى اعتبار طلبات الـصرب على أنها مـشروعـة ، ووعدت الحكومة الألمانيـة علنا بإعطاء تأييـد مسلح فى حالة نـشوب حرب نمسـوية روسية حـقيـقة أن الحكومة الألمانية قـد وعدت رسميا حليفاتهـا فى يوليو سنة ١٩١٣ بعدم التدخل فى الحرب البلقانية . ولكنها قدمت على هذا التعقل حينما رأت نتائج هذا الحرب والتهديد الذى نجم عنها لمستقبل الملكية الثنائية. ولذلك فإن غليوم الثانى دفع الحكومة النمـسوية المجرية فى أكتوبر سنة ١٩١٢،

وأثناء حادثة الحدود بين الصرب وألبانيا ، إلى إعطاء ضربة قاضية للصرب: « الآن وإلا أفلتت الفرصة علينا أن نعيد النظام والهدوء هناك بشكل نهائى . يمكنكم أن تتأكدوا من أننى سأكون وراءكم وأننى مستعد لإشهار السيف إذا ما تتطلب الأمر ذلك ، فإن النمسا والمجر قد وجهت إلى بلجراد بموافقة ألمانيا الكاملة ، وحصلت على سحب القوات الصربية».

ومن ناحية أخرى ظهرت الحكومة الايطالية على أنها تميل إلى إحياء الارتباطات التى كانت قد عقدتها فى نطاق التحالف الثلاثى : ففى ديسمبر سنة ١٩١٢ ، وفى اللحظة التى كان فى وسع مسألة الوصول إلى البحر الإدرياتى أن تتسبب فيها فى صدام نمسوى صربى ، جددت المعاهدة لمدة ست سنوات ، ودون حتى أن تنظر التاريخ الذى كان من الطبيعى أن يبحث فيه هذا التجديد ، فى أغسطس سنة ١٩١٣ وقعت على إتفاقية بحرية تتعلق بالتعاون بين الأساطيل النمسوية المجرية وبين الأساطيل الايطالية فى حالة نشوب حرب أوربية .

وإزدادت قوة التعاون الفرنسى الروسى، الذى كان قد ضعف فى خلال أزمة البوسنة والهرسك وأزمة أغادير ، ومنذ ربيع سنة ١٩١٢ أكد ريمون بوانكارية رئيس مجلس الوزراء الفرنسى ، رغبة أن يعمل « فى إتفاق تام » مع روسيا ولاشك فى أن ذكريات مقابلة بوتدام كانت تدفع إلى أقامة ممارسة أكثر ودية لهذا التحالف ، ودون أن تحس بعاطفة أو بثقة بالنسبة للسياسة الروسية ، كانت الحكومة الفرنسية ترغب فى تفادى « غزل » جديد بين روسيا والمانيا ولكن الأمر كان يتعلق بنوع خاص بإمكانية قيام تعاون أكثر تحديدا بين القوات المسلحة . وبيروتوكول ١٣ يوليو سنة ١٩١٢ حصلت فرنسا على وعد بأن الجيش الروسى سيقوم بالهجوم، فى حالة نشوب حرب فرنسية ألمانية. منذ اليوم الثانى من

التعبئة ، وأقامت البحرية فى ١٦ يوليـو الخطوط العامة لعمل متفق عليه بين الاساطيل الروسية والفرنسيـة وكان هذا فى نظير التأييـد الذى تمطيه السـياسـة الفرنسـيـة للمصـالح الروسـية فى البلقـان. ورغم أن ريمون بوانكارية كان قـد رفض فى ربيع سنة ١٩١٢ بوضوح دور الدبلوماسـية الروسية فىَ إنشاء التحـالف البلقانى ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يعد فى نوفمـبر من نفس السنة بتدخل مـسلح فى نشوب حرب نمسوية روسـية تؤيد ألمانيا فـيها النمسـا والمجر: ولاشك أن هذا هو مجرد تأكـيد حالة الارتباط التى ينص عليها الإتفاق العسكرى ، ولكن إسـتيفان بيشون كان قد فسـر هذه الاتفاقية بطريقـة أخرى فى فبراير سنـة ١٩٠٩ . فما هو الداعى لكى تقبل إرتباطات أوسع ؟ أن الدافع شبه ذلك الذى كان يوجه للسياسة الألمانيـة بالنسبة للنمسا والمجر: فمـن اللازم التظاهر بعدم إصابة الزميل بخيبة أمل تؤدى إلى ضعف التحالف .

ولـم تكن بريطانيا العظمى ترغب قبل ذلك فى التـوقيع على تعهد محدد حتى بـالنسبة لفرنسا. ومع ذلك فإنهـا قبلت سنة ١٩١٢ ، وبعد فشل بعثـة هالدان أن تدعم وتقوى الوفاق الودى . وبطبيعـة الحال عاد الدافع فى ذلك إلى فرنسا التى كانـت تحس بقلق شديد أثناء المفاوضات الإنجليزية الألمانيـة فى فبراير - مـارس سنة ١٩١٢ . وقال بواتكاريه : ألم يكن من الضرورى أن نعطى للعلاقات الفـرنسية الإنجليزية أمنا بدلا من تركهـا « تحت رحمة الاتجـاهات التى تميل اليهـا إحدى الوازارت أو لاتميل »؟ ومع ذلك فـان هذه الحجة كـانت غير كـافية لإقـناع الحكومة الانجليـزية . وكان العـامل الذى دفـعهـا إلى الابتـعاد عن حـذرها هو التنافس البحرى الانجليزى الألمانى : فـقررت أنه من الضرورى أن تحضر إلى بحر الشمال جزءا من أساطيلها المرابطة فى مالطة وفى جبل طارق ، وكانت محتـاجة نتيجة لذلك بأن يقوم أسطول الحرب الفرنسى بالدفاع

عن طرق الملاحة فى البحر المتوسط . وفى المفاوضات الانجليزية الفرنسية، التى وقعت فى يونيو سنة ١٩١٢ وإمتدت حتى الخريف ، إرتبطت المسألتان - الإتفاقية البحرية والإتفاقية السياسية - إرتباطا وثيقا. وتمثلت النتيجة فى تبادل خطابات ٢١ و ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٣ - الإتفاقية السياسية - وفى الإتفاقية البحرية فى مارس سنة ١٩١٣ .

وأعطت الحكومة الانجليزية موافقتها على خطة التعاون التى وضعتها هيئات أركان الحرب ، ولكنها حددت أن هذه التنبؤات «التقنية» لاتمثل إرتباطا ، وتركت لكل واحدة من الحكومتين حريتها فى أن « تقرر فى المستقبل ما إذا كانت ستعطى أو لاتعطى للأخرى تأييد قواتها المسلحة » ، ووعدت فقط « بالتشاور » مع الحكومة الفرنسية فى حالة تهديد السلم وهذه الإتفاقية ، رغم أنها أقامت تضامنا أكثر بين الدولتين ، لم تكن تعطى لفرنسا بهذا الشكل أية ضمان بالتدخل الانجليزى فى حالة وقوع حرب فرنسية المانية .

محتويات الكتاب

المحتويـات

الباب الثانى
القرن الثامن عشـــر

الباب الثالث
الشركات الاستعمارية والاستعمار الأوربى للعالم

الباب الرابع
إستقلال الولايات المتحدة الأمريكية

الباب الخامس
الثـــورة الفرنسية

الباب السادس
القرن التاسع عشر

الباب السابع
صوب الحرب العالمية الأولى